(٣٥ درس)

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة مريم و سورة طه

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر/طنطا

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد السادس عشر

الدرر السنية
www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة مريم وسورة طه)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية للنشر

التفسير المحرر للقرآن الكريم: سورة مريم وسورة طه / القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية للنشر - الظهران، ١٤٤٠هـ

٧٢٠ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٤-٦٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٠/٢٥٣٠

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٢٥٣٠

ردمك: ٤-٦٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت:٠١٣٨٦٨٠١٢٣/فاكس:٠١٣٨٦٨٢٨٤٨-بريدإلكتروني nashr@dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة مريم وسورة طه)

إعدادُ

القِسمِ العِلميِّ بمُؤسَّسةِ الدُّررِ السَّنيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

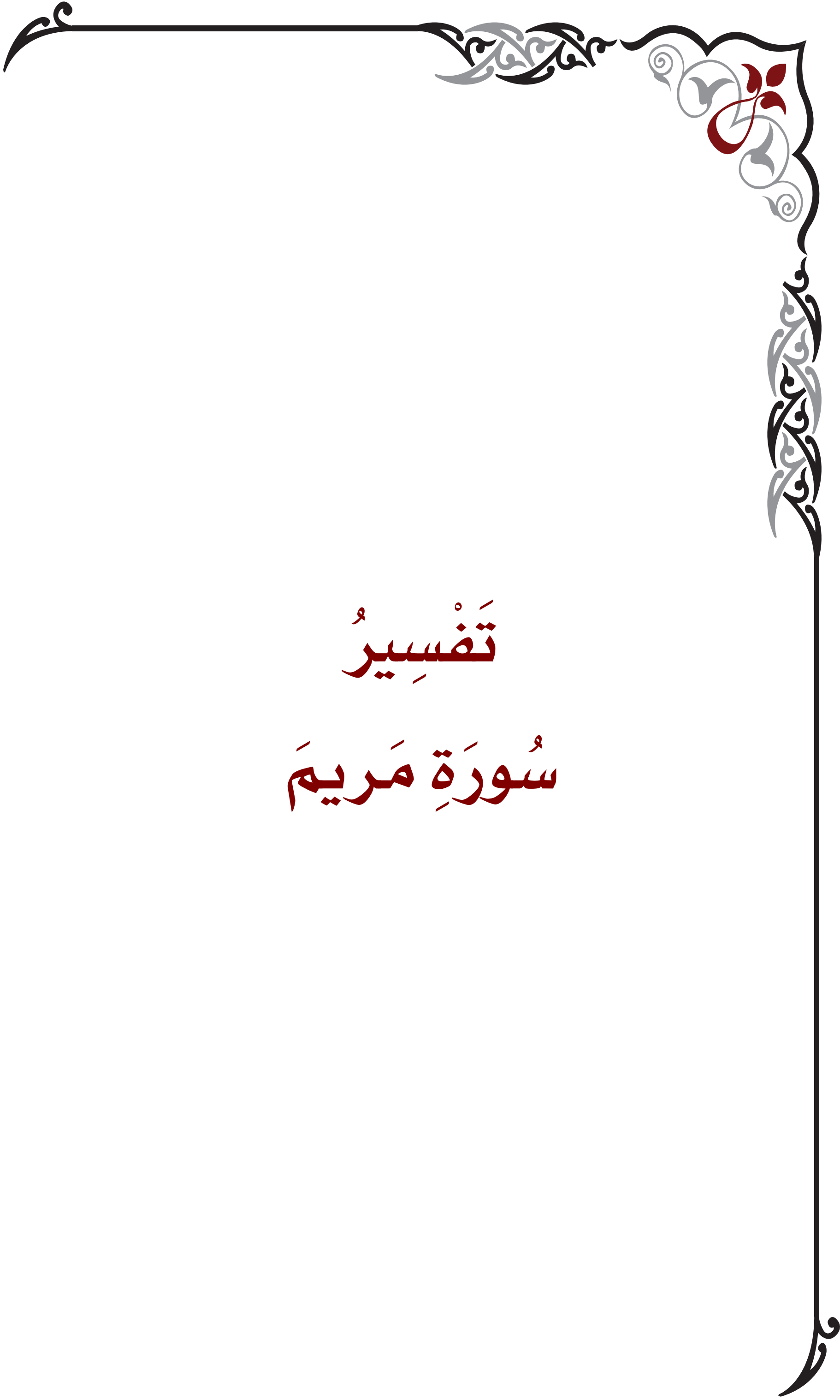
الإشرافُ العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

المجلد السادس عشر

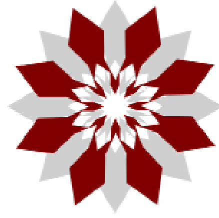
الدُّرَرُ السَّنيَّة
www.dorar.net

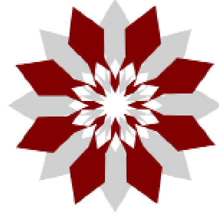
بسم الله الرحمن الرحيم

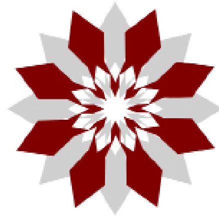


تَفْسِيرُ

سُورَةِ مَريمَ







سورةُ مَريمَ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (مَريمَ)[(١)]، ومما يدلُّ على ذلك:

١- عن عبد الله بنِ مَسعود رضيَ الله عنه، قال: (سورةُ «بني إسرائيلَ»، و«الكَهفِ»، و«مَريمَ»، و«طه»، و«الأنبياءِ»: هُنَّ مِن العِتاقِ الأُوَلِ[(٢)]، وهُنَّ مِن تِلادي[(٣)])[(٤)].

٢- عن أبي هُريرةَ رضِي الله عنه، قال: (قدمتُ المدينةَ مهاجرًا، فصليتُ الصبحَ وراءَ سِباعٍ[(٥)] فقرَأ في السجدةِ الأُولَى سورةَ «مريمَ»، وفي الأُخرَى ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾)[(٦)].

---

(١) سُمِّيَت بسورةِ مريمَ؛ لاشتِمالِها على قِصَّتِها مُفصَّلةً. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٥٨).

(٢) العِتاق: جمعُ عتيقٍ، وهو القديمُ، أو: هو كلُّ ما بلَغ الغايةَ في الجودةِ، والمرادُ بقوله: (العِتَاق الأُوَل): السُّوَرُ الَّتي أُنزِلتْ أوَّلًا بمكَّةَ، وأنَّها مِنْ أوَّلِ ما تَعلَّمه مِنَ القرآنِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٧٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٨٨).

(٣) تِلادي: أي: مما حُفِظ قديمًا، والتلادُ قديمُ المِلكِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٨٨).

(٤) أخرجه البخاري (٤٧٣٩).

قال الكرماني: (يريدُ [أي: ابنُ مَسعودٍ] تفضيلَ هذه السُّوَرِ؛ لِما يتضَمَّنُ مُفتَتَحُ كُلٍّ منها مِن أمرٍ غريبٍ وقع في العالَمِ، خارِقًا للعادةِ، وهو الإسراءُ، وقِصَّةُ أصحابِ الكَهفِ، وقِصَّةُ مريمَ، ونحوُها، والأوَّليَّةُ إمَّا باعتبارِ حِفظِها، أو باعتبارِ نُزولِها؛ لأنَّها مكِّيَّاتٌ). ((الكواكب الدراري)) (١٧/ ١٧٧).

(٥) هو سِباعُ بنُ عُرْفُطةَ، صحابيٌّ، استعمَله النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم على المدينةِ لما خرَج إلى خيبرَ، وإلى دُومةِ الجندلِ. يُنظر: ((الاستيعاب في معرفة الأصحاب)) لابن عبد البر (٢/ ٦٨٢)، ((أسد الغابة)) لابن الأثير (٢/ ١٧١).

(٦) أخرجه أحمد (٨٥٥٢)، وابن حبان (٧١٥٦)، والبيهقي (٤١٩١) واللفظ له. =

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

أنَّها مِن السُّوَرِ المتقدِّمِ نزولُها، ومِن قديمِ ما حفِظ الصَّحابةُ وتعلَّموه:

كما في أثرِ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ الله عنه المتقدِّمِ قريبًا.

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ مَريمَ مَكِّيَّةٌ(١)، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك(٢).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

تحقيقُ العُبوديَّةِ، وتعظيمُ شَأنِ الرُّبوبيَّة، وتقريرُ مَبدأِ البَعثِ(٣).

موضوعاتُ السُّورةِ:

من أهمِّ موضوعات هذه السُّورةِ:

١- ذِكرُ قِصَّة زكريَّا عليه السلامُ.

= قال الذهبي في ((المهذب)) (٢/ ٨١٥): (إسناده صالح)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ١٢٢): (رجالُه رجالُ الصحيح)، وصحَّح إسناده ابن كثير في ((الأحكام الكبير)) (٣/ ١٥٤)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٦/ ٢٢٩).

(١) وقيل: مَكيَّة إلَّا آيتينِ منها، فمدنيَّتانِ، وهما قَولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ...﴾ [مريم: ٥٨]، وقَولُه: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا ...﴾ [مريم: ٧١]. وقيل: إلَّا آية السجدةِ منها فمدنيَّةٌ. وقيل: إنَّ السورةَ كلَّها مدنيةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: القرطبي، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٠٥).

وقال ابنُ عطية: (هذه السورةُ مكيَّةٌ بإجماعٍ إلَّا السَّجدةَ منها، فقالت فرقةٌ: هي مكيَّةٌ، وقالت فرقةٌ: هي مدنيةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٤١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٣٠).

٢- ذكرُ قِصَّةِ مَريمَ ومولدِ عيسى عليهما السلامُ.

٣- ذِكرُ طرفٍ من قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مع أبيه.

٤- الإشارةُ إلى عددٍ مِن النبيينَ، ومنهم: موسى، وهارونُ، وإسماعيلُ، وإدريسُ عليهم السَّلامُ.

٥- بيانُ جزاءِ المتَّقينَ وعقابِ الكافِرينَ، وفَتحُ بابِ التَّوبةِ للعاصينَ.

٦- حكايةُ بَعضِ شُبهاتِ المشركينَ المتعلقةِ بالقرآنِ والبعثِ والوحدانيةِ مع الردِّ عليها، وإقامةِ الأدلةِ على وحدانيةِ الله، ونفيِ الشريكِ والولدِ، وإقامةِ الأدلةِ على أنَّ البعثَ حقٌّ.

٧- بيانُ بعضِ مَشاهِدِ القيامةِ.

٨- خُتِمَت السورةُ بما بَدَأت به مِن بَيانِ مَحبَّةِ اللهِ تعالى وتكريمِه لأوليائِه، وبيانِ الحِكمةِ مِن نُزولِ القُرآنِ، وهي: البِشارةُ والنِّذارةُ.



الآيات (١-٦)

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا
۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ
شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ
وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ﴾: أي: رقَّ وضَعُف، وأصلُ (وهن): يدُلُّ على ضَعفٍ[1].

﴿وَٱشۡتَعَلَ﴾: أي: انتَشَر، والاشتعالُ في الأصلِ: انتشارُ شُعاعِ النَّارِ، وأصلُ (شعل): يدُلُّ على انتِشارٍ وتفَرُّقٍ في الشَّيءِ الواحِدِ مِن جَوانِبِه[2].

﴿شَقِيّٗا﴾: أي: خائبًا؛ يُقالُ لكُلِّ مَن سعى في أمرٍ فبطَلَ سَعيُه: قد شَقِيَ به، وإذا أدركَه قيل: قد سَعِدَ به، وأصْلُ (شقي): يدُلُّ على المعاناةِ، وخِلافِ السُّهولةِ والسَّعادةِ[3].

﴿ٱلۡمَوَٰلِيَ﴾: أي: الأقاربَ والعَصَبةَ مِن الوَرَثةِ الذين يَلونَه في النَّسَبِ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٢)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ١٠٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٧١)، ((مقاييس =

﴿عَاقِرًا﴾: أي: لا تَلِدُ؛ يُقالُ: عَقَرْتُ النَّخلَ: إذا قطعتَه مِن أصلِه، فإذا لم تلِدْ كأنَّها تعقرُ النسلَ، أي: تقطعُه. وقيل: العاقِرُ: الرَّملةُ التي لا نَبْتَ فيها، ومنه قيل للمرأةِ التي لا تَلِدُ: عاقِرٌ[(١)].

﴿رَضِيًّا﴾: أي: مَرضيًّا في أخلاقِهِ وأفعالِه، وأصلُ (رضي): يدُلُّ على خِلافِ السُّخْطِ[(٢)].

المَعنى الإجماليُّ:

ابتدأ الله هذه السورةَ بالحُروفِ المقَطَّعةِ التي تُبيِّنُ إعجازَ القرآنِ؛ فتُبرِزُ عجزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بالإتيانِ بشيءٍ مِن مثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّة التي يتحدَّثون بها!

ثمَّ قال تعالى: هذا الذي نَتلوه عليك ذِكْرُ رَحمةِ رَبِّك عَبدَه زكريَّا؛ إذ دعا ربَّه سرًّا، قال: رَبِّ إني كَبِرْتُ، ورقَّ عَظمي، وانتشَرَ الشَّيبُ في رأسي، ولم أكُنْ مِن قَبلُ حين أدعوك مَحرومًا من إجابةِ الدُّعاءِ، وإنِّي خِفتُ أقاربي وعَصَبتي مِن بعدِ مَوتي أن يُضَيِّعوا الدِّينَ والعِلمَ، ولا يقوموا بهما حَقَّ القيامِ، وكانت زوجَتي عاقِرًا لا تَلِدُ؛ فارزُقْني مِن عِندِك وَلَدًا يَرِثُ عِلْمي ونبُوَّتي، ونبُوَّةَ أجدادِه آلِ يَعقوبَ، واجعَلْ هذا الولَدَ مَرضِيًّا عندَك وعندَ عِبادِك.

= اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((المنتخب من كلام العرب)) لكراع النمل (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٩٠)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٤).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعة التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيث تُظهِرُ عجزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بمثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها[١].

﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾.

أي: هذا الذي نَتلوه في هذه الآياتِ، قِصَّةُ رَحمةِ رَبِّك -يا مُحمَّدُ- عَبدَه زكريَّا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٥].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كان زكريَّاءُ نجَّارًا))[٣].

﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣﴾.

أي: إذ[٤] دعا زكريَّا رَبَّه، وسأَله بنداءٍ خَفيٍّ عن النَّاسِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

والمرادُ برحمةِ الله لزكريَّا هنا: إجابتُه إيَّاه حينَ دعاه، وسألَه الولَدَ. وممَّن قال بذلك: الواحدي، والرسعني، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٧٥)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٣).

(٣) رواه مسلم (٢٣٧٩).

(٤) قال ابنُ عاشور: (﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ ظَرفٌ لـ﴿رَحۡمَتِ﴾. أي: رحمةِ اللهِ إيَّاه في ذلك الوقتِ؛ أو بدلٌ مِن ﴿ذِكۡرُ﴾، أي: ذِكْرُ ذلك الوَقتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٧٥)، ((تفسير ابن =

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي ﴾.

أي: قال زكريَّا: يا رَبِّ، إنِّي رقَّ عَظمي، وضعُفَت قُوَّةُ بَدَني[١].

﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾.

أي: وانتشَرَ بَياضُ الشَّيبِ في رأسي[٢].

﴿ وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴾.

أي: ولم أكُنْ حين أدعوك مِن قَبلُ -يا رَبِّ- خائبًا مَحرومًا مَردودَ الدَّعوةِ، بل عوَّدْتَني إجابةَ دَعوتي، وقَضاءَ حاجَتي[٣].

= عاشور)) (١٦/ ٦٢).

واختُلِف في سببِ إخفائِه هذا النِّداءَ:

فقيل: أخفاه مِن قَومِه؛ لئلَّا يُلامَ على مسألةِ الولَدِ عند كِبَرِ السِّنِّ، فيقولوا: انْظُروا إلى هذا الشَّيخِ يَسألُ على كبرِه الولَدَ.

وقيل: لأنَّ الإخفاءَ أقربُ إلى الإخلاصِ، وأبعدُ مِن الرياءِ.

وقيل: إنَّه دعا في جوفِ اللَّيلِ، وهو ساجدٌ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦٠).

قال ابنُ كثيرٍ: (المرادُ من هذا: الإخبارُ عن الضَّعفِ والكِبَرِ، ودلائِلِه الظَّاهرةِ والباطِنةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١١). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٥٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦١).

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَاءِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ⑤﴾.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَاءِي﴾.

أي: وإنِّي -يا ربِّ- خِفتُ أن يُضَيِّعَ أقاربي مِن بَعدِ موتي الدِّينَ والعِلمَ، ولا يَقوموا بحَقِّهما[1].

﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾.

أي: وكانت امرأتي عَقيمًا لا تَلِدُ أصلًا[2].

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾.

أي: فارْزُقْني -يا رَبِّ- مِن عِندِك ولدًا يقومُ بالدِّينِ مِن بعدي حَقَّ القيامِ[3].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٢٢٤-٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٢-٢١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦١).

قال ابن كثير: (وجهُ خوفِه أنَّه خَشِي أنْ يتصرَّفُوا مِن بعدِه في النَّاسِ تصرُّفًا سيِّئًا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦١).

قال ابنُ عاشورٍ: (ومَعنى ﴿مِن لَّدُنكَ﴾: أنَّه مِن عندِ اللهِ عِنديَّةً خاصَّةً؛ لأنَّ المتكَلِّمَ يَعلَمُ أنَّ كُلَّ شَيءٍ مِن عندِ اللهِ بتقديرِه وخَلْقِه الأسبابَ ومُسَبِّباتِها تَبعًا لخَلقِها، فلمَّا قال: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾؛ دلَّ على أنَّه سأل وليًّا غيرَ جارٍ أمرُه على المعتادِ مِن إيجادِ الأولادِ؛ لانعدامِ الأسبابِ المعتادةِ، فتكونُ هِبَتُه كرامةً له). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٧). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٦٩).

=

كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)﴾.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾.

أي: يَرِثُ عِلمي ونبُوَّتي، ويَرِثُ مِن أجدادِه آلِ يَعقوبَ العِلمَ والنبُوَّةَ، فيكونُ نبيًّا، داعيًا إلى الله، قائمًا بدِينِه[١].

﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

أي: واجعَلْ وَلَدي -يا رَبِّ- مَرْضيًّا عندك وعندَ عِبادِك، صالحًا في دينِه وخُلُقِه وأعمالِه[٢].

= قال الشنقيطي: (وقولُه تعالَى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾، يعني بهذا الولِيِّ الولَدَ خاصَّةً دونَ غيره مِنَ الأولياءِ، بدليلِ قولِه تعالَى في القصَّةِ نفسِها: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ الآيةَ [آل عمران: ٣٨]، وأشارَ إلى أنَّه الولَدُ أيضًا بقولِه: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]، فقولُه: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾، أي: واحدًا بلا وَلَدٍ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٢٢٤، ٢٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٣)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦٦).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ أي: هذا ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ سنقُصُّه عليك، ونفصِّلُه تفصيلًا يُعرَفُ به حالةُ نبيِّه زكريَّا، وآثارُه الصَّالحةُ، ومَناقِبُه الجميلةُ؛ فإنَّ في قَصِّها عِبرةً للمُعتبرينَ، وأُسوةً للمُقتَدينَ، ولأنَّ في تفصيلِ رحمتِه لأوليائِه، وبأيِّ سبَبٍ حَصَلتْ لهم: ما يدعو إلى محبَّةِ الله تعالى، والإكثارِ مِن ذِكرِه، ومَعرفتِه، والسَّبَبِ المُوصلِ إليه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ فيه استِحبابُ الإسرارِ بالدُّعاءِ[٢]، وفي إخفاءِ الدُّعاءِ والإسرارِ به فوائِدُ عديدةٌ:

أحدُها: أنَّه أعظَمُ إيمانًا؛ لأنَّ صاحِبَه يعلَمُ أنَّ اللهَ يَسمَعُ الدُّعاءَ الخَفيَّ.

ثانيها: أنَّه أعظَمُ في الأدبِ والتعظيمِ؛ لأنَّ الملوكَ لا تُرفَعُ الأصواتُ عِندَهم، ومَن رفَعَ صَوتَه لديهم مَقَتوه، ولله المثَلُ الأعلى.

ثالثها: أنَّه أبلَغُ في التضَرُّعِ والخُشوعِ الذي هو رُوحُ الدُّعاءِ ولُبُّه ومَقصودُه.

رابعُها: أنَّه أبلَغُ في الإخلاصِ.

خامسها: أنَّه أبلَغُ في جَمعيَّةِ القَلبِ على الذِّلَّةِ في الدُّعاءِ؛ فإنَّ رَفعَ الصَّوتِ يُفَرِّقُه، فكلَّما خَفَض صَوتَه كان أبلَغَ في تجريدِ هِمَّتِه وقَصدِه للمَدعُوِّ سُبحانَه.

سادسها -وهو مِن النُّكَتِ البَديعةِ جِدًّا: أنَّه دالٌّ على قُربِ صاحِبِه للقَريبِ، لا مسألةَ نداءِ البعيدِ للبَعيدِ؛ ولهذا أثنى اللهُ على عَبدِه زكريَّا بقَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿إِذْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٣).

نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [مريم: ٣]، فلمَّا استحضَرَ القَلبُ قُربَ اللهِ عزَّ وجَلَّ، وأنَّه أقرَبُ إليه مِن كُلِّ قَريبٍ؛ أخفى دُعاءَه ما أمكَنَه.

سابعها: أنَّه أدعى إلى دوامِ الطَّلَبِ والسُّؤالِ؛ فإنَّ اللِّسانَ لا يَمَلُّ، والجوارِحَ لا تتعَبُ، بخلافِ ما إذا رَفَع صَوتَه، فإنَّه قد يَمَلُّ اللِّسانُ وتَضعُفُ قُواه.

ثامنها: أنَّ إخفاءَ الدُّعاءِ أبعَدُ له من القواطِعِ والمشَوِّشاتِ؛ فإنَّ الدَّاعيَ إذا أخفى دُعاءَه لم يَدرِ به أحَدٌ، فلا يحصُلُ على هذا تشويشٌ ولا غيرُه، وإذا جهَرَ به فَرَطَت له الأرواحُ البشَريَّةُ -ولا بُدَّ- ومانعَتْه وعارضَتْه، ولو لم يكُنْ إلَّا أنَّ تعَلُّقَها به يُفزِعُ عليه همَّته، فيُضعِفُ أثَرَ الدُّعاءِ، ومن له تجرِبةٌ يَعرِفُ هذا، فإذا أسَرَّ الدُّعاءَ أمِنَ هذه المَفسَدةَ.

تاسعها: أنَّ أعظَمَ النِّعمةِ الإقبالُ والتعَبُّدُ، ولكُلِّ نِعمةٍ حاسِدٌ على قَدْرِها، دَقَّت أو جَلَّت، ولا نِعمةَ أعظَمُ مِن هذه النِّعمةِ؛ فإنَّ أنفُسَ الحاسِدينَ مُتعَلِّقةٌ بها، وليس للمَحسودِ أسلَمُ مِن إخفاءِ نِعمتِه عن الحاسِدِ.

عاشرها: أنَّ الدُّعاءَ هو ذِكرٌ للمَدعُوِّ سُبحانَه وتعالى، متضَمِّنٌ للطَّلَبِ والثَّناءِ عليه بأوصافِه وأسمائِه، فهو ذِكرٌ وزيادةٌ، كما أنَّ الذِّكرَ سُمِّيَ دُعاءً لتضَمُّنِه للطَّلَبِ. والمقصودُ: أنَّ كُلَّ واحدٍ من الدُّعاءِ والذِّكرِ يتضَمَّنُ الآخَرَ ويدخُلُ فيه، وقد قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] فأمَرَ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَذكُرَه في نَفسِه[١].

٣- قال الحَسَنُ البَصريُّ: (لقد أدرَكْنا أقوامًا ما كان على الأرضِ مِن عَمَلٍ يَقدِرونَ على أن يَعمَلوه في السِّرِّ، فيَكونُ علانيةً أبدًا، ولقد كان المُسلِمونَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٥- ١٨).

يجتَهِدونَ في الدُّعاءِ، وما يُسمَعُ لهم صَوتٌ، إنْ كان إلَّا هَمسًا بينهم وبين رَبِّهم عزَّ وجلَّ؛ ذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وذلك أنَّ الله تعالى ذكَرَ عَبدًا صالِحًا ورَضِيَ قَولَه، فقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٣])[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا * وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ مِن فوائِدِ هذه القِصَّةِ تعليمُ آدابِ الدُّعاءِ، وهي مِن جِهاتٍ:

أحدُها: قَولُه: ﴿نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ وهو يدُلُّ على أنَّ أفضَلَ الدُّعاءِ ما هذا حالُه، ويؤكِّدُ قَولَه تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، ولأنَّ رَفعَ الصَّوتِ مُشعِرٌ بالقُوَّةِ والجَلادةِ، وإخفاءَ الصَّوتِ مُشعِرٌ بالضَّعفِ والانكسارِ، وعُمدةُ الدُّعاءِ الانكِسارُ والتبَرِّي عن حولِ النَّفسِ وقُوَّتِها، والاعتمادُ على فَضلِ اللهِ تعالى وإحسانِه.

ثانيها: أنَّ المُستحَبَّ للدَّاعي أن يَذكُرَ في مُقَدِّمةِ الدُّعاءِ عَجزَ النَّفسِ وضَعفَها، كما في قولِ الله تعالى حكايةً عن زكريا عليه السلامُ: ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾[٢]، فالشَّيبُ دَليلُ الضَّعفِ والكِبَرِ، ورسولُ الموتِ ورائِدُه، ونذيرُه، فتوسَّلَ إلى الله تعالى بضَعفِه وعَجزِه، وهذا مِن أحَبِّ الوَسائِلِ إلى الله؛ لأنَّه يدُلُّ على التبَرِّي من الحَولِ والقُوَّةِ، وتعلُّقِ القَلبِ بحَولِ اللهِ وقُوَّتِه[٣].

(١) يُنظر: أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٤٠)، وابن جرير في ((تفسيره)) (١٠/ ٢٤٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

ويُستحَبُّ له أيضًا أن يَذكُرَ كَثرةَ نِعَمِ اللهِ، على ما في قولِه تعالى حكايةً عن زكريا عليه السلامُ أيضًا: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾.

ثالثُها: أن يكونَ الدُّعاءُ لأجلِ شَيءٍ مُتعَلِّقٍ بالدِّينِ، لا لِمَحضِ الدُّنيا، كما قال: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾.

رابعُها: أن يكونَ الدُّعاءُ بلَفظِ (يا رَبِّ)، على ما في هذا الموضِعِ[١].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ فيه التوسُّلُ إلى اللهِ بنِعَمِه وعوائِدِه الجَميلةِ[٢]. وهذه وَسيلةٌ حَسَنةٌ: أن يُتشَفَّعَ إليه بنِعَمِه، ويُستَدَرَّ فَضلُه بفَضلِه[٣]، فزكريا عليه السلامُ توسَّل إلى الله بإنعامِه عليه، وإجابةِ دعواتِه السابقةِ، فسأل الذي أحسَنَ سابقًا، أن يتمِّمَ إحسانَه لاحقًا[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ...﴾ فافتُتِحَتْ قِصَّةُ مريمَ وعيسى بما يتَّصِلُ بها من شُؤونِ آلِ بيتِ مريمَ وكافِلِها؛ لأنَّ في تلك الأحوالِ كلِّها تذكيرًا برحمةِ اللهِ تعالى وكرامتِه لأوليائِه[٥].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ وصَفَه بالعبوديَّةِ؛ تَشريفًا له، وإعلامًا له بتَخصيصِه وتَقريبِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥١٩).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٧٧).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ مِن شَرطِ النِّداءِ الجَهرَ، فكيف الجَمعُ بينَ كَونِه (نداءً) و(خَفيًّا)؟

الجوابُ مِن أوجُهٍ:

الوجهُ الأولُ: أنَّ زكريًّا -عليه السَّلامُ- أتَى بأقصى ما قدَرَ عليه مِن رَفعِ الصَّوتِ، إلَّا أنَّ الصَّوتَ كان ضَعيفًا لنِهايةِ الضَّعفِ؛ بسبَبِ الكِبَرِ، فكان نداءً نظرًا إلى قَصدِه، وخفيًّا نظرًا إلى الواقِعِ.

الوجه الثاني: أنَّه دعا في الصَّلاةِ؛ لأنَّ الله تعالى أجابه في الصَّلاةِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩]، فكَونُ الإجابةِ في الصَّلاةِ يدُلُّ على كَونِ الدُّعاءِ في الصَّلاةِ؛ فوجب أن يكونَ النداءُ فيها خَفيًّا[١].

الوجهُ الثالث: أنَّه لا مُنافاةَ بينَ كَونِه (نداءً) وكونِه (خفيًّا)؛ لأنَّه نداءُ مَن يَسمَعُ الخَفاءَ[٢].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ فيه شَفَقةُ زكريًّا عليه السَّلامُ ونُصحُه، وأنَّ طَلَبَه للوَلدِ ليس كطَلَبِ غيرِه؛ قَصْدُه مجرَّدُ المصلحةِ الدُّنيويَّة، وإنَّما قَصدُه مصلحةُ الدِّينِ، والخَوفُ مِن ضَياعِه[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى﴾ في الإخبارِ بـ﴿خِفْتُ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨٩).

قال القرطبي: (قال العلماءُ: دعاءُ زكريا عليه السلام في الولَدِ إنَّما كان لإظهارِ دينِه، وإحياءِ نُبوَّتِه، ومُضاعفةً لأجرِه، لا للدُّنيا). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٠).

بلَفظِ الماضي إعلامٌ بتقادُمِ العَهدِ في ذلك(١).

٦- في قولِه تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ حُجَّةٌ في تسميةِ المخلوقينَ بأسماءِ اللهِ؛ إذِ الوَليُّ اسمٌ مِن أسمائِه(٢).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَرِثُنِي﴾ استدَلَّ به من قال: إنَّ الأنبياءَ يُورَثونَ، ورُدَّ بأنَّ المرادَ إرثُ العِلمِ والنبُوَّةِ، والأنبياءُ أعظَمُ مِن أن يهتَمُّوا بإرثِ المالِ، ويدُلُّ له قَولُه: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٢٤).

لكنْ في ذلك تفصيلٌ؛ فقد جاء في فتاوى اللَّجنةِ الدَّائمةِ: (ما كان من أسماءِ الله تعالى عَلَم شَخصٍ، كلَفظِ «الله»: امتنع تسميةُ غيرِ الله به؛ لأنَّ مُسمَّاه مُعيَّنٌ لا يَقبَلُ الشَّركةَ، وكذا ما كان من أسمائِه في معناه في عدَمِ قَبولِ الشَّرِكةِ، كالخالقِ والبارئِ؛ فإن الخالِقَ: مَن يُوجِدُ الشَّيءَ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، والبارئَ: من يوجِدُ الشَّيءَ بريئًا من العيبِ، وذلك لا يكونُ إلَّا من الله وحده؛ فلا يُسمَّى به إلَّا اللهُ تعالى.

أمَّا ما كان له معنًى كُلِّيٌّ تتفاوتُ فيه أفرادُه مِن الأسماءِ والصِّفاتِ، كالملك، والعزيز، والجبار، والمتكبر؛ فيجوزُ تسميةُ غيرِه بها؛ فقد سمَّى الله نفسَه بهذه الأسماءِ، وسمَّى بعضَ عبادِه بها).

((فتاوى اللجنة الدائمة- المجموعة الثانية)) (٢/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٧٣).

قال ابنُ كثير: (... سأَلَ اللَّهَ ولدًا، يكونُ نبيًّا مِن بعدِه؛ ليسوسَهم بنُبُوَّتِه وما يُوحَى إليه. فأُجيب في ذلك، لا أنَّه خَشِي مِنْ وِراثَتِهم له مالَه؛ فإنَّ النَّبيَّ أعظمُ منزلةً وأجلُّ قدرًا مِنْ أنْ يُشْفِقَ على مالِه إلى ما هذا حدُّه أنْ يأنفَ مِنْ وراثةِ عَصَباتِه له، ويسألَ أنْ يكونَ له وَلَدٌ، فيحوزَ ميراثَه دونَهم. هذا وجهٌ.

الثَّاني: أنَّه لم يُذْكَرْ أنَّه كان ذا مالٍ، بل كان نَجَّارًا يأكلُ مِنْ كسبِ يديه، ومِثْلُ هذا لا يجمعُ مالًا، ولا سِيَّما الأنبياءُ، عليهم السَّلامُ؛ فإنَّهم كانوا أزهدَ شيءٍ في الدُّنيا.

الثَّالثُ: أنَّه قد ثَبَت في الصَّحيحينِ مِن غيرِ وجهٍ: أَنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم قالَ: «لا نُورَثُ، ما تركْنا فهو صدقةٌ»، وفي روايةٍ عندَ التِّرمذيِّ بإسنادٍ صحيحٍ: «نحنُ معشرَ الأنبياءِ لا نُورَثُ»، وعلى هذا فتعَيَّن حملُ قولِه: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي﴾ على ميراثِ =

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ خُصَّ اسمُ (يعقوب) اقتداءً به نفسِه؛ إذ قال ليوسُفَ -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ-: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٦]، ولأنَّ إسرائيلَ صار عَلَمًا على الأسباطِ كُلِّهم، وكانت قد غَلَبَت عليهم الأحداثُ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ جاء نظْمُ هذا الكلامِ على طريقةٍ بديعةٍ من الإيجازِ، والعُدولِ عن الأُسلوبِ المُتعارَفِ في الإخبارِ، وأصْلُ الكلامِ: ذِكْرُ عبْدِنا زكريَّا إذ نادى ربَّه، فقال: ربِّ... إلخ، فرحِمه ربُّك؛ فكان في تَقديمِ الخبرِ بأنَّ اللهَ رحِمَه: اهتمامٌ بهذه المَنقبةِ له، والإنباءُ بأنَّ اللهَ يرحَمُ مَن الْتجَأ إليه[٢].

- وفي التَّعرُّضِ لوصفِ الرُّبوبيَّةِ -﴿رَبِّكَ﴾- المُنبئةِ عنِ التَّبليغِ إلى الكمالِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إيذانٌ بأنَّ تنزيلَ السُّورةِ عليه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تكميلٌ له صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣]، وأيضًا في إضافةِ (ربِّ) إلى ضَميرِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قولِه: ﴿رَبِّكَ﴾، وإلى ضَميرِ زكريَّا في قولِه: ﴿عَبْدَهُۥ﴾: تَنويهٌ بهما[٤].

= النُّبوَّةِ؛ ولهذا قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النَّمل: ١٦] أي: في النُّبوَّةِ؛ إذ لو كان في المالِ لَمَا خصَّه مِن بينِ إخوتِه بذلك، ولَمَا كان في الإخبارِ بذلك كبيرُ فائدةٍ؛ إذ مِن المعلومِ المستقِرِّ في جميعِ الشَّرائعِ والمِلَلِ أنَّ الولدَ يَرِثُ أباه، فلولا أنَّها وِراثةٌ خاصَّةٌ لَمَا أخبَرَ بها). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦١-٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٢).

٢- قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾

- جُملةُ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾، وهي وما بعدَها تَمهيدٌ للمقصودِ من الدُّعاءِ، وهو قولُه: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾؛ وإنَّما كان ذلك تَمهيدًا لِما يتضمَّنُه من اضطرارِه لسُؤالِ الولدِ، واللهُ يُجيبُ المُضطَرَّ إذا دعاهُ؛ فليس سُؤالُه الولدَ سُؤالَ توسُّعٍ لمُجرَّدِ تَمتُّعٍ أو فخْرٍ، ووصَفَ من حالِه ما تشتَدُّ معه الحاجةُ إلى الولدِ حالًا ومآلًا؛ فكان وهْنُ العظْمِ وعُمومُ الشَّيبِ حالًا مُقتضيًا للاستعانةِ بالولدِ، مع ما يَقْتضيه مِن اقترابِ إبَّانِ الموتِ عادةً؛ فذلك مقصودٌ لنفْسِه، ووسيلةٌ لغيرِه وهو الميراثُ بعدَ الموتِ[١].

- وقَولُه: ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ بحَذفِ أداةِ النِّداءِ؛ للدَّلالةِ على غايةِ القُربِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ فيه تأكيدُ الجُملةِ بـ(إنَّ)؛ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بتَحقيقِ مَضمونِها[٣].

- والخبرانِ من قولِه: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ مُستعملانِ في لازمِ الإخبارِ، وهو الاسترحامُ لحالِه؛ لأنَّ المُخْبَرَ عالمٌ بما تضمَّنَه الخبرانِ[٤].

- وقولُه: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ﴾ فيه إسنادُ الوهْنِ إلى العظْمِ؛ لأنَّه عمودُ البدَنِ، وبه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٦٨)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٣).

قوامُه، وهو أصلُ بِنائِه، فإذا وهَنَ تداعى وتساقطَتْ قُوَّتُه، ولأنَّه أشدُّ ما فيه وأصلَبُه، فإذا وهَنَ كان ما وراءَه أوهَنَ. ووحَّدَه -حيث لم يقُل: (العِظام)-؛ لأنَّ الواحِدَ هو الدَّالُّ على معنى الجِنسيَّةِ، وقصْدُه: أنَّ هذا الجنسَ الَّذي هو العمودُ والقوامُ وأشَدُّ ما تركَّبَ منه الجسدُ قد أصابَه الوهْنُ، ولو جمَعَ لكان قاصدًا معنًى آخرَ، وهو أنَّه لم يَهِنْ منه بعضُ عِظامِه ولكنْ كلُّها[١].

- وفي قولِه: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ إطنابٌ؛ فقدِ انتقَلَ أوَّلًا: من (شِخْتُ) الدَّالِّ على ضعْفِ البدَنِ وشيْبِ الرَّأسِ إجْمالًا إلى هذا التَّفصيلِ؛ لمزيدِ التَّقريرِ. وثانيًا: من هذه المرتبةِ إلى ثالثةٍ أبلَغَ منها، وهي الكِنايةُ الَّتي هي أبلَغُ من التَّصريحِ. وثالثًا: من هذه المرتبةِ إلى رابعةٍ أبلَغَ في التَّقريرِ، وهي بِناءُ الكنايةِ على المبتدأِ، أي قولُك: أنا وهنَتْ عِظامُ بَدَني. ورابعًا: من هذه المرتبةِ إلى خامسةٍ أبلَغَ، وهي إدخالُ (إنَّ) على المبتدأِ (إنِّي وهنَتْ عِظامُ بَدَني). وخامسًا: إلى مرتبةٍ سادسةٍ، وهي سُلوكُ طريقِ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ، أي: (إنِّي وهنَتِ العِظامُ من بَدَني). وسادسًا: إلى مرتبةٍ سابعةٍ، وهي ترْكُ توسيطِ البدَنِ لادِّعاءِ اختصاصِها بالبدَنِ، بحيث لا يحتاجُ إلى التَّصريحِ بالبدنِ. وسابعًا: إلى مرتبةٍ ثامنةٍ، وهي ترْكُ جمْعِ العظْمِ إلى الإفرادِ؛ لشُمولِ الوهْنِ العِظامَ فردًا فردًا[٢]؛ وكان الأصْلُ (اشتعَلَ شيْبُ رأْسي)، فأسنَدَ الاشتعالَ إلى الرَّأسِ؛ لإفادةِ شُمولِه لكلِّها؛ فإنَّ وِزانَه بالنِّسبةِ إلى الأصْلِ وِزانُ: (اشتعَلَ بيتُه نارًا) بالنِّسبةِ إلى (اشتعَلَ النَّارُ في بيتِه)،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٢).

ولزيادةِ تَقريرِه بالإجمالِ أوَّلًا، والتَّفصيلِ ثانيًا، ولمَزيدِ تَفخيمِه بالتَّنكيرِ[١]، وشبَّه بياضَ الشيبِ وانتشارَه في الرأسِ بشعاعِ النارِ وانتشارِها، وأضاف الاشتعالَ إلى مكانِ الشعرِ ومنبتِه وهو الرأسُ، ولم يُضِف الرأسَ؛ اكتفاءً بعلمِ المخاطبِ أنَّه رأسُ زكريَّا عليه السلامُ[٢]. وقيل: أسندَ الاشتِعالَ إلى الرَّأسِ، وهو مكانُ الشَّعرِ الذي عَمَّه الشَّيبُ؛ لأنَّ الرَّأسَ لا يَعمُّه الشَّيبُ إلَّا بعد أن يَعُمَّ اللِّحيةَ غالِبًا، فعُمومُ الشَّيبِ في الرَّأسِ أمارةُ التوغُّلِ في كِبَرِ السِّنِّ[٣].

- قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ وقولُه: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ فيه: التَّعرُّضُ في الموضعينِ لوصفِ الرُّبوبيَّةِ المُنبئةِ عن إضافةِ ما فيه صَلاحُ المربوبِ مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، لا سِيَّما توسيطِه بين (كان) وخبَرِها؛ لتَحريكِ سلسلةِ الإجابةِ بالمُبالغةِ في التَّضرُّعِ[٤].

- وجُملةُ: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أطلَقَ نفْيَ الشَّقاوةِ، والمُرادُ حُصولُ ضِدِّها -وهو السَّعادةُ- على طريقِ الكِنايةِ؛ إذ لا واسطةَ بينهما عُرْفًا، ومثْلُ هذا التَّركيبِ جَرى في كلامِ العربِ مَجْرى المثَلِ في حُصولِ السَّعادةِ من شَيءٍ[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٥).

- قولُه: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ عطْفٌ على قولِه تعالى: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ﴾ مُترتِّبٌ مضمونُه على مَضمونِه؛ فإنَّ ضَعْفَ القُوى وكِبَرَ السِّنِّ من مبادئِ خوْفِه عليه السَّلامُ مَن يَلِي أمْرَه بعدَ موتِه[1].

- قولُه: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ يَنساقُ إليه الذِّهنُ، أي: فِعْلَ الموالي مِن بعدي، أو جَورَ الموالي[2].

- قولُه: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أتى بفعْلِ (كان)؛ للدَّلالةِ على أنَّ العَقْرَ مُتمكِّنٌ منها، وثابتٌ لها؛ فلذلك حُرِمَ من الولدِ منها[3].

- قولُه: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ الفاءُ لترتيبِ ما بعدها على ما قبْلَها؛ فإنَّ ما ذكَرَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من كِبَرِ السِّنِّ، وضعْفِ القُوى، وعَقْرِ المرأةِ: مُوجِبٌ لانقطاعِ رجائِه عليه السَّلامُ عن حُصولِ الولَدِ بتوسُّطِ الأسبابِ العاديَّةِ، واستيهابِه على الوجْهِ الخارقِ للعادةِ، ولا يقدَحُ في ذلك أنْ يكونَ هناك داعٍ آخرُ إلى الإقبالِ على الدُّعاءِ المذكورِ من مُشاهدتِه عليه السَّلامُ للخوارقِ الظَّاهرةِ في حَقِّ مريمَ، كما يُعرِبُ عنه قولُه تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٨] الآيةَ، وعدَمُ ذِكْرِه هاهنا للتَّعويلِ على ذِكْرِه هناك، كما أنَّ عدَمَ ذِكْرِ مُقدِّمةِ الدُّعاءِ هناك للاكتفاءِ بذكْرِه هاهنا؛ فإنَّ الاكتفاءَ بما ذُكِرَ في موطنٍ عمَّا تُرِكَ في موطنٍ آخرَ من النُّكتِ التَّنزيليَّةِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٤).

- وإنَّما قدَّمَ ﴿لِي﴾ على ﴿مِن لَّدُنكَ﴾؛ لأنَّه الأهمُّ في غرَضِ الدَّاعي، وهو غرَضٌ خاصٌّ يُقدَّمُ على الغرضِ العامِّ[١].

- وقولُه: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ تأكيدٌ لكونِه وَلِيًّا مرضيًّا، بكونِه مُضافًا إلى اللهِ تعالى، وصادرًا من عندِه[٢].

- وتأخيرُ ﴿وَلِيًّا﴾ عن الجارَّينِ -﴿لِي﴾ ﴿مِن لَّدُنكَ﴾-؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتناءِ بكونِ الهبةِ له على ذلك الوجْهِ البديعِ، مع ما فيه من التَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ؛ فإنَّ ما حَقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّرَ تَبْقَى النَّفسُ مُستشرِفةً، فعندَ وُرودِه لها يتمكَّنُ عندَها فضْلَ تمكُّنٍ، ولأنَّ فيه نوعَ طولٍ بما بعدَه من الوصفِ، فتأخيرُهما عن الكلِّ أو توسيطُهما بين الموصوفِ والصِّفةِ ممَّا لا يليقُ بجَزالةِ النَّظمِ الكريمِ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

- قولُه: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، أي: يرِثُني به وارثٌ، ويُسمَّى في علْمِ البيانِ التَّجريدَ[٤]، وهذا التَّجريدُ في الآيةِ هنا بـ (مِن) التَّجريديَّةِ كقولِهم: لي من فُلانٍ صديقٌ حميمٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٤).

(٤) التجريد: هو أنْ ينتزِعَ المُتكلِّمُ من أمْرٍ ذي صِفَةٍ أمرًا آخرَ بمثالِه له فيها؛ مُبالغةً لكمالِها فيه، كأنَّه بلَغَ من الاتِّصافِ بتلك الصِّفةِ إلى حيثُ يصِحُّ أنْ يُنتزَعَ منه موصوفٌ آخرُ بتلك الصِّفةِ. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) (٦/ ٦٢)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (ص: ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٢).

- قولُه: ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ فيه توسيطُ (رَبِّ) بين مَفْعولي (اجعَلْ)؛ للمُبالغةِ في الاعتناءِ بشأْنِ ما يَسْتدعيه[1].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٥).

الآيات (٧-١١)

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧ قَالَ
رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨
قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩ قَالَ
رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ
قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَمِيًّا﴾: أي: أحدًا مُسمًّى قَبلَه بهذا الاسمِ، وأصلُه مِن السُّمُوِّ[1]، وهو الذي به رَفعُ ذِكرِ المُسَمَّى، فيُعرَفُ به[2].

﴿عِتِيًّا﴾: أي: غايةَ الكِبَرِ في السِّنِّ، حتَّى نحِل العظمُ ويَبِس، والعِتِيُّ: الكِبَرِ المُتَناهي، وكلُّ مُتَناهٍ إلى غايَتِه في كِبرٍ، أو فسادٍ، أو كفرٍ، فهو عاتٍ، وقيل: العِتِيُّ: يبسٌ في الأعضاءِ والمفاصِلِ[3].

﴿سَوِيًّا﴾: أي: صَحيحًا، لا عِلَّةَ به مِن خَرَسٍ أو مَرَضٍ يمنَعُه مِن الكَلامِ،

---

(١) قال السمين الحلبي: (وذهَب الكوفيون إلى أنَّه مشتقٌّ مِن الوَسْمِ، وهو العلامةُ؛ لأنه علامةٌ على مُسَمَّاه، وهذا وإنْ كان صحيحًا مِن حيثُ المعنى، لكنَّه فاسدٌ مِن حيثُ التصريفُ). ((الدر المصون)) (١/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦٨).

وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتدالٍ(١).

﴿ٱلْمِحْرَابِ﴾: المحرابُ: الموضِعُ العالي الشَّريفُ، ويُطلَقُ على الغُرفةِ، والمسجِدِ، ومقدَّمِ كلِّ مجلسٍ ومصلًّى(٢).

﴿بُكْرَةً﴾: أي: أوَّلَ النهارِ، وقيل: المرادُ صلاةُ الغداةِ، وأصلُ (بكر): أوَّلُ الشيءِ وبدؤُه(٣).

﴿وَعَشِيًّا﴾: أي: آخرَ النهارِ، أو: ما بعدَ الزَّوالِ إلى المغرِب، أو: من الظُّهْرِ إلى نِصْفِ اللَّيْل، أو: مِنْ زوالِ الشَّمْسِ إلى الصَّباحِ، وقيل: المرادُ صلاةُ العصرِ، وأصلُ (عشو): يدلُّ على ظلامٍ، وقلةِ وضوحِ الشيءِ(٤).

المَعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى أنَّه قد أجاب بفضلِه وكرمِه دعاءَ عبدِه زكريا، وأنَّه نوديَ: يا زكريَّا، إنَّا نُبشِّرُك بإجابةِ دُعائِك، قد وَهَبْنا لك غُلامًا اسمُه يحيى، لم نُسَمِّ أحدًا قَبلَه بهذا الاسمِ، قال زكريَّا متعَجِّبًا: ربِّ كيف يكونُ لي غُلامٌ، وكانت

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢ ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٥٨)، (١٥/ ٤٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣- ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٤٢)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ١٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

امرأتي عقيمًا لا تَلِدُ، وقد بلغتُ النِّهايةَ في الكِبَرِ؟ قال: هكذا الأمرُ كما تقولُ مِن كَونِ امرأتِك عاقِرًا، وبلوغِك من الكِبَرِ عِتيًّا، ولكنَّ ربَّك قال: هذا أمرٌ سَهلٌ هيِّنٌ عليَّ، وقد خَلقتُك أنت مِن قَبلِ يحيى، ولم تكُن شَيئًا مَوجودًا. قال زكريَّا: ربِّ اجعَلْ لي علامةً على تحقُّقِ هذه البشارةِ. قال: علامتُك ألَّا تَقدِرَ على كلامِ النَّاسِ مُدَّةَ ثلاثِ ليالٍ، وأنت صحيحٌ ليس بك مَرَضٌ يمنَعُك من الكلامِ. فخرج زكريَّا على قَومِه مِن مُصَلَّاه الذي بُشِّرَ فيه بالوَلَدِ، فأشار إليهم: أنْ سَبِّحوا اللهَ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه؛ شُكرًا له تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧ ﴾.

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ ﴾.

أي: فاستجاب اللهُ له ونُودِيَ[1]: يا زكريَّا، إنا نُبَشِّرُك بإجابةِ دُعائِك، فستُوهَبُ غُلامًا اسمُه يحيى[2].

---

(١) قال الشنقيطي: (في هذه الآيةِ الكريمةِ حذفٌ دَلَّ المقامُ عليه، وتقديرُه: فأجابَ الله دعاءَه فنُودِي: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ ... ﴾ الآيةَ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٨، ٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦٧).

قال الشنقيطي: (وقد أوضَح جلَّ وعلا في موضعٍ آخرَ هذا الَّذي أجْمَله هنا، فبَيَّن أنَّ الَّذي ناداهُ بعضُ الملائكةِ، وأنَّ النِّداءَ المذكورَ وَقَع وهو قائمٌ يصلِّي في المحرابِ، وذلك قولُه تعالَى: ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وقولُه تعالَى: ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾، قال بعضُ العلماءِ: أطْلَق الملائكةَ وأرادَ جبريلَ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٦٧).

وقال الواحدي: (وهذا قولُ ابنِ عباسٍ، والأكثرينَ: أنَّ المناديَ جبريلُ وحدَه). ((البسيط)) (٥/ ٢٢٠).

=

كما قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

أي: لم نُسَمِّ أحدًا قبلَ يحيى بهذا الاسمِ(١).

= وذكَر الرازي أنَّ الأكثرينَ على أنَّ المناديَ هو الله تعالى؛ قال: (وذلك لأنَّ ما قبلَ هذه الآيةِ يدُلُّ على أنَّ زكريَّا عليه السَّلامُ إنما كان يخاطِبُ الله تعالى ويسأله). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥١١-٥١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦٨).

وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

ونسَبه إلى أكثرِ المفسرينَ: ابنُ الجوزي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨١)

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، وابنُ جُريجٍ، وعبدُ الرحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلمَ، وعكرمةُ، والسديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢٠).

وقيل: معنى ﴿سَمِيًّا﴾: مَثيلًا ونَظيرًا.

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور، وجعَله السعدي احتِمالًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٩- ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢٠).

واستَبعد القرطبي والشنقيطي هذا المعنى؛ لوجودِ أنبياءَ أفضَلَ مِن يحيى عليه السلامُ، =

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾.

أي: قال زكريَّا مُتعَجِّبًا: يا ربِّ كيف يُولَدُ لي غُلامٌ، وزوجتي عقيمٌ لا تَحمِلُ(١).

﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾.

وقد بلغتُ غايةً في كِبَر السنِّ حتى نَحَلَت عظامي ويَبِسَت(٢)؟!

= كإبراهيمَ، وموسى، وغيرِهما مِن الأنبياءِ عليهم السلامُ جميعًا. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦٨).

ولكِنْ قال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّه لم يجئْ قبلَ يحيى من الأنبياءِ مَن اجتمعَ له ما اجتمع ليحيى؛ فإنَّه أُعطيَ النبُوَّةَ وهو صَبيٌّ [على القولِ بأنَّ المرادَ بالحُكمِ الذي أُوتي في صباه هو النبوةُ]... وجُعِل حَصورًا؛ ليكونَ غيرَ مَشقوقٍ عليه في عِصمتِه عن الحرامِ، ولئلَّا تكونَ له مَشقَّةٌ في الجَمعِ بينَ حُقوقِ العبادةِ وحُقوقِ الزَّوجةِ، ووُلِد لأبيه بعد الشَّيخوخةِ ولأمِّه بعدَ العُقرِ... وجُعِلَ اسمُه العَلَمُ مُبتكَرًا غيرَ سابقٍ مِن قَبلِه. وهذه مزايا وفضائِلُ وُهِبت له ولأبيه، وهي لا تقتضي أنَّه أفضَلُ الأنبياءِ؛ لأنَّ الأفضليَّةَ تكونُ بمَجموعِ فَضائِلَ لا ببَعضِها وإن جَلَّت؛ ولذلك قيل: «المزيَّةُ لا تقتضي الأفضليَّةَ» وهي كلمةُ صِدقٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٩، ٧٠).

وقال السعدي: (يحتَمِلُ أنَّ المعنى: لم نجعَلْ له مِن قَبلُ مَثيلًا ومُسامِيًا، فيكونُ ذلك بِشارةً بكَمالِه، واتِّصافِه بالصِّفاتِ الحميدةِ، وأنَّه فاق مَن قَبلَه، ولكِنْ على هذا الاحتمالِ، هذا العُمومُ لا بُدَّ أن يكونَ مخصوصًا بإبراهيمَ وموسى ونوحٍ عليهم السَّلامُ، ونحوهم، ممَّن هو أفضَلُ مِن يحيى قطعًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٣، ٤٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٣، ٤٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير الشنقيطي)) (٣/ ٣٦٨).

قال السعدي: (وكأنَّه وقتَ دُعائِه لم يستحضِرْ هذا المانِعَ؛ لقوةِ الواردِ في قلبِه، وشِدَّةِ =

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران: ٤٠].

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾.

أي: قال لزكريَّا[1]: هكذا الأمرُ كما ذكرتَ مِن أنَّ امرأتَك عاقِرٌ، وأنَّك بلغْتَ من الكِبَر عِتيًّا، فمجيءُ الولَدِ منكما والحالةُ هذه أمرٌ مُستغرَبٌ في العادةِ، ولكِنْ قال ربُّك: هذا الأمرُ يسيرٌ وسَهلٌ عليَّ[2].

= الحِرصِ العظيمِ على الولَدِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠).

وقال الشنقيطي: (استفهامُ زكريَّا استِفهامُ استِخبارٍ واستعلام؛ لأنَّه لا يعلَمُ هل اللهُ يأتيه بالولَدِ مِن زوجِه العجوزِ على كِبَرِ سِنِّهما على سبيلِ خرق العادة، أو يأمُرُه بأن يتزوَّجَ شابَّةً، أو يرُدُّهما شابَّينِ؟ فاستفهَم عن الحقيقةِ ليعلَمَها). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٦٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦).

(١) ممَّن قال بأنَّ القائِلَ هو مَلَكٌ مِن الملائكةِ: يحيى بنُ سلَّام، وابنُ أبي زمنين، وابنُ عطية، والقرطبي، وابنُ كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢١٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٧).

واختار الرازي أنَّ القائلَ هو الله تعالى. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢١٥، ٢١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٥).

وممن اختار أنَّ الإشارَة في قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ إلى ما سَبَق مِنْ قولِ زكريَّا: ابنُ جرير، والسمرقندي، والزمخشري، وابن عطية، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٢).

وقيل: المعنى: قال: الأمرُ كذلك، أي: الأمرُ كما قيل لك. أي: أهبُ لك غلامًا اسمُه يحيى. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٤٩٩).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠].

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾.

أي: وقد أوجَدْتُك -يا زكريَّا- مِن قَبلِ يحيى، ولم تكنْ شيئًا موجودًا؛ فكذلك أنا قادِرٌ على إيجاد ولدٍ لك مِن زوجتِك العاقِرِ مع كِبَرِ سِنِّك، فلا تعجَبْ؛ فكما لا عجَبَ مِن خَلقِ الولَدِ في الأحوالِ المألوفةِ، كذلك لا عجَبَ مِن خَلقِ الولَدِ في الأحوالِ النَّادرةِ؛ فكلاهما إيجادٌ بعدَ عَدَمٍ[1].

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾.

أي: قال زكريَّا: يا ربِّ، اجعَلْ لي علامةً أستَدِلُّ بها على حَملِ زوجتي؛ ليطمَئِنَّ قلبي[2].

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾.

أي: قال اللهُ لزكريَّا: العَلامةُ التي جعَلْناها لك دليلًا على حَملِ زَوجتِك: ألَّا تَقدِرَ على الكَلامِ مع النَّاسِ ثَلاثَ ليالٍ، وأنت صحيحٌ ليس بك مَرَضٌ يمنَعُك مِن الكلامِ[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٧١). =

كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ﴾.

أي: فخرج زكريَّا على قَومِه بني إسرائيلَ مِن مُصَلَّاه الذي بُشِّرَ فيه بالوَلَدِ[1].

قال تعالى: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩].

﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾.

أي: فأشار إلى قَومِه أن سبِّحوا[2] في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرِه[3].

= قال السعدي: (هذا مِن الآياتِ العَجيبةِ؛ فإنَّ مَنْعَه من الكلامِ مُدَّةَ ثلاثةِ أيَّامٍ، وعجزَه عنه -مِن غيرِ خَرسٍ ولا آفةٍ، بل كان سَوِيًّا لا نقصَ فيه- مِنَ الأدلَّةِ على قُدرةِ اللهِ الخارقةِ للعوائِدِ! وهو مع هذا ممنوعٌ مِن الكلامِ الذي يتعلَّقُ بالآدميِّينَ وخطابِهم، وأمَّا التَّسبيحُ والتَّهليلُ والذِّكرُ ونحوُه فغيرُ ممنوعٍ منه!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٧٢، ٣٧٣).

(٢) قال ابنُ جرير: (وقد يجوزُ في هذا الموضِعِ أن يكونَ عنى به التسبيحَ الذي هو ذِكرُ الله، فيكونَ أمَرَهم بالفراغِ لِذِكرِ الله في طَرَفي النَّهارِ بالتَّسبيح، ويجوزُ أن يكونَ عنى به الصَّلاةَ، فيكونَ أمَرَهم بالصَّلاةِ في هذين الوقتَينِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٧٣).

و(أَنْ) في قولِه: ﴿أَن سَبِّحُواْ﴾ مصدريَّةٌ أو مفسِّرةٌ، والمعنَى: فأوحَى إليهم بأنْ سبِّحوا أو: أي سبِّحوا. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٧١، ٤٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٧٢). =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

يُستحبُّ للمُسلِمِ أنْ يُبادِرَ إلى مَسَرَّةِ أخيه، وإعلامِه بما يُفرِحُه، ومن ذلك بِشارةُ مَن وُلِدَ له وَلَدٌ، قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ سمَّاه اللهُ له «يحيى» وكان اسمًا موافِقًا لِمُسماه: يحيا حياةً حِسِّيةً، فتَتِمُّ به المنَّةُ، ويحيا حياةً مَعنويَّةً، وهي حياةُ القلبِ والرُّوحِ بالوَحيِ والعِلمِ والدِّينِ[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ فيه فضيلةٌ ليحيى مِن جهتينِ: الأولى أَنَّ اللَّهَ سبحانَه هو الَّذي تولَّى تَسْمِيَتَه به، ولم يَكِلْها إلى الأبوينِ. والجهةُ الثَّانيةُ: أنَّ تسميتَه باسمٍ لم يُوضَعْ لغيرِه يُفيدُ تشريفَه وتعظيمَه[3].

٣- في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗ﴾ دليلٌ على تثبيتِ الخبرِ المرويِّ وصحته: ((ليس الخَبَرُ كَالمعاينة))[4]؛ وذلك

= قال السَّعدي: (﴿أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ لأنَّ البِشارةَ بـ «يحيى» في حقِّ الجميعِ مَصلحةٌ دينيَّةٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠).

(١) يُنظر: ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٩١).

(٤) أخرجه أحمد في ((المسند)) (٢٤٤٧)، وابن حبان في ((صحيحه)) (٦٢١٣) من حديث ابن عباس مرفوعًا. =

أنَّ زكريا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَشْكُ إلى ربِّه وَهَنَ عَظْمِه، واشتعالَ الشيبِ في رأسه إلَّا وهو مُوقِنٌ بإجابةِ دعوتِه؛ ثم بَشَّرَه اللهُ ببشارةِ الغلامِ؛ فقال ما قال -وهو عالمٌ بأنَّ ربَّه يَقْدِرُ عليه- فلا وجهَ له -واللهُ أعلمُ- غيرُ ما قُلْنا مِن أنَّ المعاينةَ في الأشياءِ أبلغُ مِن الخَبرِ، وإنْ كان الخَبرُ بالغًا عندَ المؤمنين(١).

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ جُعِلت الآيةُ الدالةُ عليه سكوتًا عن غيرِ ذكرِ الله؛ دلالةً على إخلاصِه، وانقطاعِه بكليتِه إلى الله دونَ غيرِه(٢).

٥- الإنسانُ لَمَّا كان يعلمُ أنه خُلِقَ بعد أنْ لم يكُنْ، ذُكِّرَ بذلك؛ ليَستدِلَّ به على قُدرةِ الخالقِ على تغييرِ العادةِ؛ ولهذا ذَكَر تعالى ذلك في خَلْقِ يحيى بنِ زكريا عليه السَّلامُ، وفي النَّشأةِ الثَّانيةِ؛ قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۞ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۞ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۞ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٦ - ٦٧]، فذُكِّرَ الإنسانُ بما يعلَمُه مِن أنَّه خلقَه ولم يَكُ شيئًا؛ ليَستَدِلَّ بذلك على قُدرتِه على مِثلِ ذلك، وعلى ما هو أهوَنُ منه(٣).

= صحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ١٤٧)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٣٧٤).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (١/ ٣٧٣).

٦- قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ﴾، وإنَّما أمَرَهم زكريا عليه السلامُ بالتَّسبيحِ؛ لئلَّا يَحسَبوا أنَّه لمَّا لم يُكلِّمْهم قد نذَرَ صمْتًا، فيَقْتدوا به فيصْمُتوا، وكان الصَّمتُ من صُنوفِ العبادةِ في الأُممِ السَّالفةِ، فأومَأَ إليهم أنْ يشْرَعوا فيما اعتادوهُ من التَّسبيحِ، أو أراد أنْ يُسبِّحوا اللهَ تَسبيحَ شُكْرٍ على أنْ وهَبَ نَبِيَّهم ابنًا يرِثُ علْمَه(١)، وذلك على أحدِ القولينِ في معنى التسبيحِ.

٧- قولُه تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ دليلٌ على أنَّ مَن حَلَف ألَّا يُكلِّمَ رَجُلًا، فكتَبَ إليه أو أشار: أنَّه لا يَحنَثُ؛ لأنَّ زكريَّا لم يخرِجْه مِن الآيةِ إفهامُ قومِه بما قام عندَهم مقامَ الكلامِ في الفهمِ، ولم يكُنْ كلامًا(٢).

٨- يُستحَبُّ الذِّكرُ بعدَ الصَّلاتَينِ اللَّتَينِ لا تطَوُّعَ بعدَهما، وهما: الفَجرُ والعَصرُ، فيُشرَعُ الذِّكرُ بعد صلاةِ الفَجرِ إلى أن تَطلُعَ الشَّمسُ، وبعد العَصرِ حتى تَغرُبَ الشَّمسُ، وهذان الوقتان -أعني وقتَ الفَجرِ ووقتَ العَصرِ- هما أفضَلُ أوقاتِ النَّهارِ للذِّكرِ؛ ولهذا أمرَ الله تعالى بذِكرِه فيهما في مواضِعَ مِن القرآنِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، وقَولِه: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وقولِه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥]، وقولِه: ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقولِه: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]، وقولِه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥]، وقولِه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٤-٧٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٢٧). ويُنظر أيضًا: ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٦١٦).

﴿وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، وقوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾[١] [ق: ٣٩].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ مقولُ قولٍ محذوفٍ دَلَّ عليه السِّياقُ عقِبَ الدُّعاءِ إيجازًا، أي: قُلْنا: يا زكريَّا... إلخ[٢]. ومعنى ﴿ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾: سَمِّه يحيى؛ فالكلامُ خبرٌ مُستعملٌ في الأمرِ[٣].

- وفي تَعيينِ اسْمِ يحيى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تأكيدٌ للوعدِ، وتَشريفٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي تَخصيصِه به عليه السَّلامُ حَسَبَما يُعرِبُ عنه قولُه تعالى: ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾، أي: شريكًا له في الاسمِ، حيث لم يُسَمَّ أحدٌ قبْلَه بيحيى: مزيدُ تَشريفٍ وتَفخيمٍ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّ التَّسميةَ بالأسامي البديعةِ المُمتازةِ عن أسماءِ سائرِ النَّاسِ تَنويهٌ بالمُسمَّى لا مَحالةَ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ استئنافٌ مَبنيٌّ على السُّؤالِ؛ كأنَّه قيلَ: فماذا قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينئذٍ؟ فقيلَ: ﴿قَالَ رَبِّ...﴾؛ ناداهُ تعالى بالذَّاتِ مع

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٥٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٥).

وُصولِ خطابِه تعالى إليه بتَوسيطِ الملَكِ؛ للمُبالغةِ في التَّضرُّعِ والمُناجاةِ والجِدِّ في التَّبتُّلِ إليه تعالى، والاحترازِ عمَّا عسى يُوهِمُ خِطابُه للملَكِ مِن توهُّمِ أنَّ علْمَه تعالى بما يصدُرُ عنه مُتوقِّفٌ على توسُّطِه، كما أنَّ علْمَ البشرِ بما يصدُرُ عنه سُبحانه مُتوقِّفٌ على ذلك في عامَّةِ الأوقاتِ[١].

- قولُه: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ ﴾ (أنَّى) استفهامٌ مُستعملٌ في التَّعجُّبِ، والتَّعجُّبُ مُكنًّى به عن الشُّكرِ، فهو اعترافٌ بأنَّها عطيَّةٌ عزيزةٌ غيرُ مألوفةٍ؛ لأنَّه لا يجوزُ أنْ يسأَلَ اللهَ أنْ يهَبَ له ولدًا، ثمَّ يتعجَّبَ من استجابةِ اللهِ له[٢]. وقيل: قاله استعظامًا لقُدرةِ اللهِ تعالى، وتعجُّبًا منها، تعجُّبَ فرَحٍ وسُرورٍ، واعتدادًا بنِعمتِه تعالى عليه في ذلك بإظهارِ أنَّه من مَحْضِ لُطفِ الله -عَزَّ وعلا- وفضلِه، مع كونِه في نفْسِه من الأُمورِ المُستحيلةِ عادةً، لا استبعادًا له. وقيل: لم يقُلْه إنكارًا، إنَّما قاله ليُجابَ بما أُجيبَ به عن طلَبِه الولَدَ، وهو قولُه تعالى: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ ﴾؛ فيَزدادَ المُؤمِنون الموقِنون إيقانًا، ويرتدِعَ المُبطِلون. وقيل: كان ذلك منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ استفهامًا عن كيفيَّةِ حُدوثِه[٣].

- وفيه إيجازٌ؛ فظاهِرُ الكلامِ يُوهِمُ أنَّه استبعَدَ ما وعَدَه اللهُ عزَّ وجلَّ بوُقوعِه، ولا يجوزُ لأحدٍ -بَلْهَ النَّبيِّ- النُّطْقُ بما لا يَسوغُ أو بما في ظاهِرِه الإيهامُ، فجاء الكلامُ مُوجَزًا، وتَقديرُه: هل تُعادُ لنا قُوَّتُنا وشبابُنا فنُرزقَ بغُلامٍ؟ أو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٥٠).

هل يكونُ الولَدُ لغيرِ الزَّوجةِ العاقرِ؟ إذنْ فالمُستبعَدُ هو مَجيءُ الولدِ منهما بحالِهما، ولكنَّ الجوابَ أزالَ الإشكالَ؛ إذ قيل له: سيكونُ لكما الولدُ وأنتما بحالِكما(١).

- قولُ زكريَّا عليه السلامُ، فيما يحكيه اللهُ عنه: ﴿وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ فيه البَداءةُ هاهنا بذكْرِ حالِ امرأتِه على عكسِ قولِه الذي حكاه الله عنه في سُورةِ (آلِ عمرانَ)؛ حيث قال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ﴾ [آل عمران: ٤٠]؛ ولعلَّ ذلك لأنَّه قد ذُكِرَ حالُه في تَضاعيفِ دُعائِه في (آلِ عمرانَ)، وإنَّما المذكورُ هاهنا بُلوغُه أقصَى مراتبِ الكِبَرِ تتمَّةً لِما ذُكِرَ قبْلُ، وأمَّا هنالك فلم يَسبِقْ في الدُّعاءِ ذِكْرُ حالِه؛ فلذلك قدَّمَه على ذِكْرِ حالِ امرأتِه؛ لِما أنَّ المُسارعةَ إلى بَيانِ قُصورِ شأنِه أنسبُ(٢).

- قولُه: ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ حالٌ من ضَميرِ المُتكلِّمِ مُؤكِّدةٌ للاستبعادِ إثرَ تأكيدٍ(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ استِئنافٌ مَبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ ممَّا سلَفَ. وقولُه: ﴿قَالَ رَبُّكَ ...﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لمضمونِه، أي: قال عَزَّ وعلا: الأمْرُ كما وعدْتُ، وهو واقعٌ لا مَحالةَ، وتوسيطُ ﴿قَالَ﴾ بينَ الجُملتينِ مُشعِرٌ بمزيدِ الاعتناءِ بكلٍّ نهما. وقيل: (ذلك) إشارةٌ إلى ما قاله زكريَّا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أي: قال تعالى: الأمْرُ كما

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قلْتَ؛ تَصديقًا له فيما حَكاهُ من الحالةِ المُباينةِ للولادةِ في نفْسِه وفي امرأتِه، وقولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ ...﴾ استِئنافٌ مسوقٌ لإزالةِ استبعادِه بعدَ تقريرِه، أي: قال تعالى: وهو مع بُعْدِه في نفْسِه عليَّ هيِّنٌ. وقيل: (ذلك) في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى مُبْهَمٍ يُفسِّرُه قولُه تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ المُشارُ إليه بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هو القولَ المأخوذَ من ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾، أي: إنَّ قولَ ربِّكَ: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ بلَغَ غايةَ الوُضوحِ في بابِه، بحيثُ لا يَبينُ بأكثرِ مما علِمْتَ؛ فيكونُ جاريًا على طريقةِ التَّشبيهِ، وعلى هذا الاحتمالِ فجُملةُ ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ تعليلٌ لإبطالِ التَّعجُّبِ إبطالًا مُستفادًا من قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾، ويكونُ الانتقالُ من الغَيبةِ في قولِه: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ إلى التَّكلُّمِ في قولِه: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ الْتفاتًا، ومُقْتضى الظَّاهرِ: هو عليه هيِّنٌ[1].

- وفُصِلَت جُملةُ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ عن الَّتي قبْلَها، أي: لم تُعْطَفْ عليها؛ لأنَّها جرَتْ على طريقةِ المُحاورةِ، وهي جوابٌ عن تعجُّبِه. والمقصودُ منه إبطالُ التَّعجُّبِ الَّذي في قولِه: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[2] [مريم: ٨].

- وقولُه: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ جوابًا لسُؤالٍ ناشئٍ عن قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ لأنَّ تقريرَ منشأِ التَّعجُّبِ يُثيرُ ترقُّبَ السَّامعِ أنْ يعرِفَ ما يُبطِلُ ذلك التَّعجُّبَ المُقرَّرَ، وهي أيضًا جُملةٌ مُقرِّرةٌ للوَعدِ المذكورِ، دالَّةٌ على إنجازِه، داخلةٌ في حيِّزِ (قال) الأوَّلِ؛ كأنَّه قيل: قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ: مثْلَ ذلك القولِ البديعِ قلْتُ -وذلك على أحدِ القولينِ في القائلِ-، أي: مثْلَ ذلك الوعدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧١).

الخارقِ للعادةِ وعدْتُ: هو علَيَّ خاصَّةً هيِّنٌ، وإنْ كان في العادةِ مُستحيلًا. ثمَّ أُخرِجَ القولُ الثَّاني ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ مخرَجَ الالتفاتِ؛ جرْيًا على سَننِ الكبرياءِ لتَربيةِ المَهابةِ، وإدخالِ الرَّوعةِ. ثمَّ أسنَدَ -في قولِه: ﴿رَبُّكَ﴾- إلى اسمِ الرَّبِّ المُضافِ إلى ضَميرِه عليه السَّلامُ؛ تَشريفًا له، وإشعارًا بعلَّةِ الحُكْمِ؛ فإنَّ تذكيرَ جَريانِ أحكامِ رُبوبيَّتِه تعالى عليه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مِن إيجادِه مِن العَدمِ، وتَصريفِه في أطوارِ الخَلْقِ من حالٍ إلى حالٍ، شيئًا فشيئًا، إلى أنْ يبلُغَ كمالَه اللَّائقَ به: ممَّا يَقلعُ أساسَ استبعادِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لحُصولِ الموعودِ، ويُورِثُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الاطمئنانَ بإنجازِه لا مَحالةَ. ثمَّ الْتفَتَ في قولِه: ﴿عَلَيَّ﴾ من ضَميرِ الغائبِ العائدِ إلى الرَّبِّ إلى ياءِ العَظمةِ؛ إيذانًا بأنَّ مدارَ كونِه هيِّنًا عليه سُبحانه هو القُدرةُ الذَّاتيَّةُ لا رُبوبيَّتُه تعالى له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ خاصَّةً، وتَمهيدًا لِما يعقُبُه[(١)].

- وجُملةُ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ قيل: إنَّها جُملةٌ مُستأنَفةٌ مُقرِّرةٌ لِما قبْلَها، والمُرادُ به ابتداءُ خلْقِ البشرِ هو الواقعُ إثرَ العدَمِ المحضِ، لا ما كان بعدَ ذلك بطريقِ التَّوالُدِ المُعتادِ. وإنَّما لم يُنسَبْ ذلك إلى آدمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وهو المخلوقُ من العدَمِ حقيقةً، بأنْ يُقالَ: وقد خلقْتُ أباك أو آدمَ من قبْلُ ولم يَكُ شيئًا، مع كِفايتِه في إزالةِ الاستبعادِ بقياسِ حالِ ما بُشِّرَ به على حالِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: لتأكيدِ الاحتجاجِ به، وتَوضيحِ منهاجِ القياسِ؛ حيث نَبَّهَ على أنَّ كلَّ فردٍ من أفرادِ البشرِ له حظٌّ من إنشائِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من العدمِ. ولمَّا كان خلْقُ آدمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على هذا النَّمطِ السَّاري إلى جميعِ أفرادِ ذُرِّيتِه، أبدعَ من أنْ يكونَ ذلك مقصورًا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٦-٢٥٧).

على نفْسِه، كما هو المفهومُ من نِسبةِ الخلْقِ المذكورِ إليه، وأدلَّ على عِظَمِ قُدرتِه تعالَى، وكمالِ علْمِه وحكمتِه، وكان عدَمُ زكريَّا حينئذٍ أظهَرَ عنده وأجْلى، وكان حالُه أولى بأنْ يكونَ مِعيارًا لحالِ ما بُشِّرَ به؛ نسَبَ الخلْقَ المذكورَ إليه، كما نسَبَ الخلْقَ والتَّصويرَ إلى المُخاطبينَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]؛ توفيةً لمقامِ الامتنانِ حَقَّه، فكأنَّه قيل: وقد خلقْتُك مِن قبْلُ في تضاعيفِ خلْقِ آدمَ ولم تكُنْ إذ ذاك شيئًا أصلًا، بلْ عدمًا بحتًا، ونفيًا صِرفًا[١]. وقيل: الجُملةُ في موضعِ الحالِ مِن ضَميرِ الغَيبةِ الَّذي في قولِه: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، أي: إيجادُ الغُلامِ لك هيِّنٌ عليَّ في حالِ كوني قد خلقْتُك مِن قبْلِ هذا الغُلامِ ولم تكُنْ موجودًا، أي: في حالِ كونِه مُماثِلًا لخلْقي إيَّاكَ، فكما لا عجَبَ من خلْقِ الولدِ في الأحوالِ المألوفةِ، كذلك لا عجَبَ من خلْقِ الولدِ في الأحوالِ النَّادرةِ؛ إذ هما إيجادٌ بعدَ عدمٍ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾

- قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ في هذا الاستعجالِ تَعريضٌ بطلَبِ المُبادرةِ به؛ ولذلك حُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿ءَايَةً﴾[٣].

- قولُه: ﴿ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ اللَّامُ في ﴿لِّيٓ﴾ مُتعلِّقةٌ بـ﴿ٱجْعَل﴾، وتقديمُها على المفعولِ به؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ. أو مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٧٣).

وقَعَ حالًا من ﴿ءَايَةً﴾؛ إذ لو تأخَّرَ لكان صِفَةً لها. وقيل: ﴿ٱجْعَل﴾ بمعنى التَّصييرِ لمَفعولينِ؛ أوَّلُهما: ﴿ءَايَةً﴾، وثانيهما: الظَّرفُ ﴿لِّيٓ﴾، وتقديمُه لأنَّه لا مُسوِّغَ لكونِ ﴿ءَايَةً﴾ مُبتدأً عندَ انحلالِ الجُملةِ إلى مُبتدأٍ وخبرٍ سِوى تقديمِ الظَّرفِ؛ فلا يتغيَّرُ حالُهما بعدَ وُرودِ النَّاسخِ ﴿ٱجْعَل﴾(١).

- قولُه: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ ذكَرَ اللَّياليَ هنا، والأيَّامَ في (آلِ عمرانَ) في قولِه: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗا﴾ [آل عمران: ٤١]؛ للدَّلالةِ على أنَّه استمَرَّ عليه المنعُ من كلامِ النَّاسِ والتَّجرُّدُ للذِّكرِ والشُّكرِ ثلاثةَ أيَّامٍ ولياليهِنَّ(٢).

- قولُه: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ ﴿سَوِيّٗا﴾ حالٌ من فاعلِ ﴿تُكَلِّمَ﴾ مُفيدٌ لكونِ انتفاءِ التَّكلُّمِ بطريقِ الاضطرارِ دونَ الاختيارِ، أي: تُمنَعَ الكلامَ، فلا تُطيقَ به حالَ كونِك سَوِيَّ الخلْقِ، سليمَ الجوارحِ، ما بك شائبةُ بَكَمٍ ولا خَرَسٍ، وعلى هذا فذِكْرُ الوصفِ لمُجرَّدِ تأكيدِ الطُّمأنينةِ، وإلَّا فإنَّ تأجيلَه بثلاثِ ليالٍ كافٍ في الاطمئنانِ على انتفاءِ العاهةِ(٣).

٥- قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ فيه تعديةُ لفظةِ ﴿فَخَرَجَ﴾ بـ﴿عَلَىٰ﴾؛ لأنَّه ضمَّنَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٤).

(خرَجَ) معنى (طلَعَ)[١].

- قولُه: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ﴾ خَصَّ التَّسبيحَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ العادةَ جاريةٌ أنَّ كلَّ مَن رأى أمْرًا عجِبَ منه، أو رأى فيه بديعَ صَنعةٍ أو غريبَ حِكمةٍ يقولُ: سُبحانَ اللهِ! سُبحانَ الخالقِ! فلمَّا رأى حُصولَ الولدِ من شيخٍ وعاقرٍ عجِبَ من ذلك، فسبَّحَ، وأمَرَ بالتَّسبيحِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٥).

الآيات (١٢-١٥)

﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ
وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ
وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَحَنَانٗا﴾: أي: رَحمةً ومحبَّة، وأصلُ (حنن): يَدلُّ على الإشفاقِ والرِّقَّةِ[1].

﴿جَبَّارًا﴾: أي: متكبِّرًا، متعاليًا عن قَبولِ الحقِّ، ويُقالُ للقاهِرِ غيرَه: جبارٌ، وقيل: هو الذي يَضربُ، ويقتُلُ على الغضبِ، وأصلُ (جبر) هنا: جنسٌ مِن العظمةِ والعلُوِّ[2].

﴿عَصِيّٗا﴾: أي: عاصيًا، والعَصِيُّ: ذو العصيانِ، وعَصَى عِصيانًا: إذا خرَج عن الطاعةِ، وأصلُه أن يتمنَّعَ بعَصاه[3].

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾: أي: سَلامةٌ وأمانٌ، وأصلُ (سلم): يدلُّ على صِحَّةٍ وعافيةٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٢٧)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

المَعنى الإجماليُّ:

أوجَد الله تعالى هذا الغلامَ المبشَّرَ به، وهو يحيى عليه السلامُ، وبيَّن سبحانَه ما أمَره به، وما منَحه مِن صفاتٍ فاضلةٍ، فقال تعالى: يا يحيى، خُذِ التَّوراةَ بجِدٍّ واجتِهادٍ؛ بحِفظِ ألفاظِها، وفَهمِ مَعانيها، والعَمَلِ بها، والدعوةِ لاتِّباعِها، وأعطيناه الفَهمَ لكِتابِ اللهِ، والحُكمَ به وهو صغيرُ السِّنِّ. وآتيناه رَحمةً ومَحبَّةً مِن عندِنا، وطهارةً مِن الذُّنوب، وكان مُطيعًا لله تعالى، وكان بارًّا بوالِدَيه مُطيعًا لهما، ولم يكُنْ متكَبِّرًا ولا عاصيًا. وسلامٌ مِن اللهِ على يحيى وأمانٌ له يومَ وُلِد، ويومَ يموتُ، ويومَ يُبعَثُ حيًّا يومَ القيامةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾.

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾.

أي: فوُلِد لزكريَّا يحيى، وقال اللهُ له: يا يحيى، خُذِ التَّوراةَ بجِدٍّ واجتهادٍ وعَزمٍ؛ فَهمًا لمعانيها، وعَمَلًا بما فيها، وحَملًا للنَّاسِ على اتِّباعِها[(١)].

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾.

أي: وأعطَينا يحيى الفَهمَ لكِتابِ اللهِ، والعِلمَ بأحكامِه، والعَمَلَ به، والحُكمَ به في حالِ صِغَرِه وصِباه قبلَ بُلوغِه[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٧٨).
قال الشنقيطي: (وعامَّةُ المفسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالكتابِ هنا: التَّوراةُ، وحكَى غيرُ واحدٍ عليه الإجماعَ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) =

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ١٣﴾.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾.

أي: وأعْطَيْنا يحيى رَحمةً مِن عِندِنا[1].

= (١٦/ ٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٧٨، ٣٧٩).

قال الشوكاني: (﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ المرادُ بالحكمِ الحكمةُ، وهي الفهمُ للكتابِ الَّذي أُمِر بأخذِه وفهمُ الأحكامِ الدِّينيَّةِ. وقيلَ: هي العلمُ وحفظُه والعملُ به. وقيلَ: النُّبوَّةُ. وقيلَ: العقلُ. ولا مانعَ مِن أنْ يكونَ الحكمُ صالحًا لحملِه على جميعِ ما ذُكِر). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٤).

قال الشنقيطي: (وللعُلَماءِ في المرادِ بالحُكمِ أقوالٌ مُتقارِبةٌ، مَرجِعُها إلى شَيءٍ واحدٍ، وهو أنَّ الله أعطاه الفَهْمَ في الكتابِ، أي: إدراكَ ما فيه والعَمَلَ به في حالِ كَونِه صَبيًّا). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٧٨).

ونسَب السمعاني القولَ بأنَّ المرادَ بـ ﴿ٱلْحُكْمَ﴾: النُّبُوَّةُ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٨٢).

لكن قال ابنُ عاشور: (ويَبعُدُ أن يكونَ يحيى أُعطِيَ النبُوَّةَ وهو صبيٌّ؛ لأنَّ النبُوَّةَ رُتبةٌ عظيمةٌ، فإنَّما تُعطى عند بُلوغِ الأشُدِّ. واتَّفق العُلماءُ على أنَّ يحيى أُعطيَ النبوَّةَ قبل بلوغِ الأربعينَ سنةً بكثيرٍ. ولعلَّ الله لَمَّا أراد أن يكونَ شَهيدًا في مُقتَبَلِ عُمُرِه باكَرَه بالنبُوَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٦).

(١) قال الرسعني: (قال ابنُ عباسٍ وأكثرُ المفسِّرينَ واللغويينَ: الحنانُ: الرحمةُ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧).

وممن اختار أنَّ (حنانًا) معطوفٌ على ﴿ٱلْحُكْمَ﴾ أي: وآتيناه حنانًا: يحيى بنُ سلام، والزجاج، والنحاس، وابنُ عطية، والقرطبي، وابنُ كثير، والبقاعي، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢١٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٢٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٧٩). =

﴿وَزَكَوٰةً﴾.

أي: وطهارةً مِن الذُّنوبِ والآفاتِ، ونقاءً مِن الخبائِثِ(١).

﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾.

أي: وكان مُمتَثِلًا لأوامِرِ رَبِّه، مُجتَنِبًا لنواهيه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤﴾.

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾.

أي: وكان مُسارِعًا في طاعةِ والِدَيه، كثيرَ الإكرامِ والإحسانِ إليهما قَولًا وفِعلًا(٣).

= قال النحاس: (﴿وَحَنَانًا﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْحُكْمَ﴾، وفي معناه قولان عن ابن عبَّاسٍ: أحدهما: قال: تعطُّفُ اللهِ جلَّ وعزَّ عليه بالرحمةِ. والقول الآخَرُ: ما أُعطِيَه من رحمةِ النَّاسِ حتى يُخلِّصَهم من الكُفرِ والشَّرِّ). ((إعراب القرآن)) (١١/ ٨٧).

وقال الشنقيطي: (والحنانُ: هو ما جُبِل عليه مِن الرَّحمةِ، والعطفِ والشَّفقةِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٧٩). يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٧).

وقال ابن عطية: (ويجوزُ أن يكونَ قولُه: ﴿وَحَنَانًا﴾ عطفًا على قولِه: ﴿صَبِيًّا﴾، أي: وبحالِ حنانٍ منا وتزكيةٍ له). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧).

وقال ابن جرير: (وقَولُه: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: ورَحمةً مِنَّا ومحبَّةً له آتيناه الحُكمَ صَبيًّا). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٠).

قال البقاعي: (﴿وَكَانَ﴾ أي: جِبِلَّةً وطَبعًا). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

أي: ولم يكُنْ مُتكَبِّرًا عن عبادةِ اللهِ، ولا مُترفِّعًا على أبويه وغيرِهما مِن النَّاسِ، ولا مُستَخِفًّا بحقوقِ العبادِ، بل كان مُتواضِعًا مُتذلِّلًا، طائعًا لا يعصي ربَّه ولا والِدَيه، ولا يَظلِمُ عِبادَ اللهِ[1].

﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ١٥﴾.

﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾.

أي: وتحيَّةٌ مِن اللهِ ليحيى يومَ وُلِد، وأمانٌ وسَلامةٌ له من الشَّيطانِ، ومِن كُلِّ ما يكرَهُ[2].

= (٥/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٠، ٤٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨١).

قيل: معنى السلامِ هنا: الأمانُ. وممن اختاره: ابنُ جريرٍ، والسمعاني، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٧).

قال ابنُ عطية: (والأظهَرُ عندي أنَّها التحيَّةُ المتعارَفةُ، فهي أشرَفُ وأنبَهُ مِن الأمانِ؛ لأنَّ الأمانَ متحَصِّلٌ له بنَفيِ العِصيانِ، وهي أقَلُّ دَرَجاتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨).

قال الشنقيطي: (ومَرجِعُ القَولينِ إلى شيءٍ واحدٍ؛ لأنَّ معنى سلامِ التحيَّةِ: الأمانُ، والسَّلامةُ ممَّا يُكرَهُ، وقَولُ مَن قال: هو الأمانُ، يعني: أنَّ ذلك الأمانَ مِن الله. والتحيةُ مِنَ الله معناها: الأمانُ والسَّلامةُ مِمَّا يُكرَهُ، والظاهِرُ المتبادِرُ أنَّ قَولَه: ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ تحيةٌ مِن الله ليحيى، ومعناها: الأمانُ والسَّلامةُ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٨١).

﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾.

أي: وتحيةٌ مِنَ اللهِ على يحيى يومَ يموتُ، وأمانٌ وسَلامةٌ له مِن كُرَبِ الموتِ، وعذابِ القَبرِ وفِتنَتِه(١).

﴿وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾.

أي: وتحيَّةٌ مِنَ اللهِ ليحيى، وأمانٌ وسلامةٌ له حين نبعَثُه حيًّا يومَ القيامةِ، فيأمَنُ مِن الفَزعِ والأهوالِ وعذابِ النَّارِ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ فيه ردٌّ لِمَن قال: إنَّ النُبُوَّةَ لم تحصُلْ لأحدٍ إلَّا بعدَ الأربعينَ(٣)، وهذا على القولِ بأنَّ ﴿ٱلۡحُكۡمَ﴾ هنا المرادُ به: النبوةُ.

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗ﴾ يدُلُّ على أنَّ فِعلَ العبدِ خَلقٌ لله تعالى؛ لأنَّه تعالى جَعَلَ طَهارةَ يحيى عليه السَّلامُ وزَكاتَه منه تعالى(٤).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾ أي: لم يكُنْ مُتجَبِّرًا مُتكَبِّرًا عن عبادةِ اللهِ، ولا مُترفِّعًا على عبادِ الله، ولا على والِدَيه، بل كان مُتواضِعًا، مُتذَلِّلًا مُطيعًا، أوَّابًا لله على الدَّوامِ؛ فجمَع بينَ القيامِ بحَقِّ اللهِ، وحَقِّ خَلْقِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥١٨).

ولهذا حصَلَت له السَّلامةُ مِنَ اللهِ في جميعِ أحواله؛ مَبادِئِها وعواقِبِها؛ فلذا قال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾، وذلك يقتضي سلامَتَه من الشَّيطانِ والشَّرِّ والعِقابِ في هذه الأحوالِ الثَّلاثةِ وما بينَها، وأنَّه سالمٌ مِن النَّارِ والأهوالِ، وأنَّه مِن أهلِ دارِ السَّلامِ[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ إنْ قيلَ: ما الحِكمةُ في تقييدِ السَّلامِ في قِصَّةِ يحيى عليه السَّلامُ بهذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ، وكذلك المسيحُ في قَولِه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ٣٣]؟

فالجوابُ: أنَّ سِرَّه -والله أعلمُ- أنَّ طَلَبَ السَّلامةِ يتأكَّدُ في المواضِعِ التي هي مَظانُّ العَطَبِ ومواطِنُ الوَحشةِ، وكلَّما كان الموضِعُ مَظِنَّةَ ذلك تأكَّد طَلَبُ السَّلامةِ، وتعلَّقَت بها الهِمَّةُ، فذُكِرَت هذه المواطِنُ الثَّلاثةُ؛ لأنَّ السَّلامةَ فيها آكَدُ، وطَلَبَها أهمُّ، والنَّفسَ عليها أحرَصُ؛ لأنَّ العبدَ فيها قد انتقلَ مِن دارٍ كان مُستقِرًّا فيها مُوطَّنَ النَّفسِ على صُحبتِها وسُكناها، إلى دارٍ هو فيها مُعرَّضٌ للآفاتِ والمحَنِ والبلاءِ، فإنَّ الجنينَ مِن حينِ خَرَجَ إلى هذه الدَّارِ انتصَبَ لبلائِها وشَدائِدِها، ولَأْوائِها ومِحَنِها وأفكارِها؛ ولهذا مِن حينِ خَرَجَ ابتدرَتْه طَعنةُ الشَّيطانِ في خاصرتِه، فبكى لذلك، ولِمَا حصلَ له من الوَحشةِ بفِراقِ وَطَنِه الأوَّلِ؛ فكان طَلَبُ السَّلامةِ في هذه المواطِنِ مِن آكَدِ الأمورِ.

الموطنُ الثَّاني: خروجُه مِن هذه الدَّارِ إلى دارِ البَرزخِ عندَ الموتِ، ونِسبةُ الدُّنيا إلى تلك الدَّارِ كنِسبةِ دارِه في بطنِ أمِّه إلى الدُّنيا تقريبًا وتمثيلًا، وإلَّا فالأمرُ أعظَمُ مِن ذلك وأكبَرُ، وطلَبُ السَّلامةِ أيضًا عند انتقالِه إلى تلك الدَّارِ مِن أهَمِّ الأمورِ.

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٠).

الموطنُ الثالث: مَوطِنُ يومِ القيامةِ، يومَ يَبعَثُ الله تعالى الأحياءَ، ولا نِسبةَ لِما قَبلَه مِن الدُّورِ إليه، وطلَبُ السَّلامةِ فيه آكَدُ مِن جميعِ ما قبلَه؛ فإنَّ عَطَبَه لا يُستدرَكُ، وعَثْرتَه لا تُقالُ، وسَقَمَه لا يُداوَى، وفَقْرَه لا يُسَدُّ.

فتأمَّلْ كيف خَصَّ هذه المواطِنَ بالسَّلامِ؛ لشِدَّةِ الحاجةِ إلى السلامةِ فيها، وتأمَّلْ ما في السَّلامِ مع الزيادةِ على السَّلامةِ مِن الأُنسِ، وذَهابِ الوَحشةِ، ثمَّ أنزِلْ ذلك على الوَحشةِ الحاصلةِ للعَبدِ في هذه المواطِنِ الثلاثةِ؛ عند خُروجِه إلى عالمِ الابتلاءِ، وعند مُعاينتِه هَولَ المَطلَعِ إذا قَدِمَ على اللهِ وحيدًا مجرَّدًا عن كلِّ مُؤنِسٍ إلَّا ما قدَّمه من صالحِ عَمَلٍ، وعند موافاتِه القيامةَ مع الجَمعِ الأعظَمِ؛ ليصيرَ إلى إحدى الدارَينِ التي خُلِقَ لها، واستُعمِلَ بعَمَلِ أهلِها؛ فأيُّ موطنٍ أحَقُّ بطلَبِ السَّلامةِ مِن هذه المواطِنِ[1] التي يكونُ الإنسانُ فيها في غايةِ الضَّعفِ والحاجةِ، وقِلَّةِ الحِيلةِ والفَقرِ إلى اللهِ، وعَظيمِ الهَولِ[2]؟!

عن ابنِ عُيَينةَ قال: (أوحَشُ ما يكونُ الخَلقُ في ثلاثةِ مَواطِنَ: يومَ يُولَدُ فيرى نفسَه خارجًا مِمَّا كان فيه، ويومَ يموتُ فيرَى قَومًا لم يكُنْ عايَنَهم، ويومَ يُبعَثُ فيرَى نفسَه في محشَرٍ عظيمٍ. قال: فأكرَمَ اللهُ فيها يحيى بنَ زكريَّا، فخصَّه بالسَّلامِ عليه؛ فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾)[3].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ استئنافٌ طُوِيَ قبْلَه جُمَلٌ كثيرةٌ؛ مُسارَعةً إلى الإنباءِ بإنجازِ الوعدِ الكريمِ، والتَّقديرُ: فلمَّا

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٢).

وُلِدَ يحيى وكبِرَ، وبلَغَ السِّنَّ الَّذي يُؤمَرُ فيه، قال اللهُ له...[١]، وهو مقولُ قولٍ محذوفٍ، بقرينةِ أنَّ هذا الكلامَ خِطابٌ ليحيى؛ فلا مَحالةَ أنَّه صادرٌ من قائلٍ، ولا يُناسِبُ إلَّا أنْ يكونَ قولًا من اللهِ تعالى. وهذا ابتداءُ ذِكْرِ فضائلِ يحيى، وطُوِيَ ما بين ذلك؛ لعدَمِ تعلُّقِ الغرضِ به، والسِّياقُ يدُلُّ عليه[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ جعْلُ حنانِ يحيى من لدُنِ اللهِ: إشارةٌ إلى أنَّه مُتجاوِزٌ المُعتادَ بينَ النَّاسِ. وجِيءَ في وصْفِه بالتَّقوى بفعْلِ (كَانَ)؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِه مِن الوصفِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ عطْفٌ على ﴿ٱلْحُكْمَ﴾، وتنوينُ (حَنَانًا) وتنكيرُه؛ للتَّفخيمِ، و﴿مِّن﴾ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقَعَ صِفةً له مُؤكِّدةً لِما أفادَه التَّنوينُ من الفخامةِ الذَّاتيَّةِ بالفخامةِ الإضافيَّةِ، أي: وآتيناهُ رحمةً عظيمةً، كائنةً من جنابِنا، أو رحمةً في قلْبِه وشفقةً على أبويه وغيرِهما[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾

- قولُه: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ فيه عطْفُ بُرورِه بوالديهِ على كونِه تقيًّا؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِه من هذا الوصفِ. والبَرُّ -بفتحِ الباءِ- وصْفٌ على وزْنِ المصدرِ؛ فالوصفُ به مُبالغةٌ[٥].

- قولُه: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ المُبالغةُ مُنصرِفةٌ إلى النَّفيِ لا إلى المنفيِّ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٢٥٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٧٧).

أي: لم يكُنْ عاصيًا بالمرَّةِ(١).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال تعالى هنا في قصَّةِ يحيى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، وفي قصَّةِ عيسى عليه السَّلامُ قال: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]؛ فاختلَفَ الوصفانِ في الآيتينِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ سُبحانه وصَفَ يحيى عليه السَّلامُ بعِظَمِ التَّقوى في قولِه: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾، وتقيٌّ: فعيلٌ من التَّقوى، وهو من أبنيةِ المُبالغةِ؛ فيُفْهَمُ الوفاءُ بوُجوهِ التَّقوى حتَّى لا يكونَ من الموصوفِ به معصيةٌ ولا تقصيرٌ، فالمُرادُ بقولِه: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ نفْيٌ للمعاصي جُملةً؛ ثمَّ نُوسِبَ بينَ هذا الوصفِ وما تقدَّمَه ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾؛ فورَدَ بلفظِ المُبالغةِ مثْلَه. وأمَّا قولُه في قصَّةِ عيسى عليه السَّلامُ: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾؛ فملحوظٌ في ذلك ما جرَى لأتْباعِه عليه السَّلامُ، وما وَقَعوا فيه مِن العظيمةِ حينَ قالوا: هو ابنُ اللهِ -تعالى اللهُ عن ذلك عُلوًّا كبيرًا-، فاستحقُّوا الوصفَ بالشَّقاءِ بمقالِهم، والشَّقِيُّ مُستحِقٌّ العذابَ الأُخرويَّ(٢).

ووجهٌ آخَرُ: أنَّ الأوَّلَ: إخبارٌ مِن اللهِ تعالى ببركتِه وسلامِه عليه. والثاني: إخبارُ عيسى عليه السَّلامُ عن نَفسِه؛ فناسَبَ عَدَمُ التَّزكيةِ لِنَفسِه بنَفيِ المعصيةِ؛ أدبًا مع اللهِ تعالى، وقال: ﴿شَقِيًّا﴾ أي: بعُقوقِ أمِّي، أو بعيدًا مِن الخيرِ(٣).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾، أي: إنَّ إكرامَ اللهِ مُتمكِّنٌ من أحوالِه الثَّلاثةِ المذكورةِ. وهذا كنايةٌ على أنَّه بمَحلِّ العنايةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٢٥-٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((كشف المعاني في المتشابه من المثاني)) لابن جماعة (ص: ٢٤٦).

الإلهيَّةِ في هذه الأحوالِ، والمُرادُ باليومِ: مُطلَقُ الزَّمانِ الواقعِ فيه تلك الأحوالُ، وجِيءَ بالفعلِ المُضارعِ في ﴿وَيَوۡمَ يَمُوتُ﴾؛ لاستحضارِ الحالةِ الَّتي مات فيها[(١)].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ قال تعالى هنا: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ ...﴾، فقاله في قصَّةِ يحيى مُنكَّرًا، وقال بعدُ في قصَّةِ عيسى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ ...﴾ مُعرَّفًا؛ لأنَّ الأوَّلَ من اللهِ، والقليلُ منه كثيرٌ، والثَّاني من عيسى، و(أل) للاستغراقِ أو للعهْدِ، أي: ذلك السَّلامُ الموجَّهُ إلى يحيى مُوجَّهٌ إليَّ[(٢)].

وقيل: الحِكمةُ في تسليمِ اللهِ تعالى على يحيى بلَفظِ النَّكِرةِ، وتَسليمِ المسيحِ على نَفسِه بلَفظِ المعرفةِ: أنَّ في دُخولِ اللامِ في السَّلامِ فوائِدَ، وهي: قَصدُ التبَرُّكِ باسمِه السَّلامِ، والإشارةُ إلى طَلَبِ السَّلامِ له، وسُؤالُها من اللهِ باسمِ السَّلامِ، وقَصدُ عُمومِ السَّلامِ؛ لذا كان ذلك هو الأحسَنَ في سلامِ العبادِ؛ ولذلك دخَلَت الألفُ واللامُ في سلامِ عيسى على نفسِه. ولَمَّا كان المتكَلِّمُ بالسَّلامِ على يحيى هو اللهَ تعالى في قَولِه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ﴾ فلم يَقصِدْ تبَرُّكًا بذِكرِ الاسمِ، كما يَقصِدُ العَبدُ؛ فإنَّ التبَرُّكَ استِدعاءُ البَرَكةِ واستِجلابُها، والعبدُ هو الذي يَقصِدُ ذلك، ولا قَصَدَ أيضًا تعرُّضًا وطَلَبًا على ما يَقصِدُه العَبدُ، ولا قصَدَ العُمومَ، وهو أيضًا غيرُ لائقٍ هنا؛ لأنَّ سلامًا منه سُبحانَه كافٍ مِن كُلِّ سَلامٍ، ومُغنٍ عن كلِّ تحيةٍ، ومُقَرِّبٌ مِن كلِّ أمنيةٍ؛ فأدنى سَلامٍ منه -ولا أدنى هناك- يَستغرِقُ الوَصفَ، ويُتِمُّ النِّعمةَ، ويَدفَعُ البُؤسَ، ويُطيِّبُ الحياةَ، ويَقطَعُ موادَّ العَطَبِ والهلاكِ؛ فلم يكُنْ لذِكرِ الألفِ واللَّامِ هنا معنًى[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٧-٧٨).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٦٦).

وقيل: إنَّما دخَلَ الألفُ واللَّامُ؛ لأنَّ النَّكرةَ إذا تكرَّرتْ تعرَّفَتْ. وقيل: نكرةُ الجنسِ ومعرفتُه سواءٌ؛ تقولُ: لا أشرَبُ ماءً، ولا أشرَبُ الماءَ، فهُما سواءٌ[١].

وقيل: سلامُ عيسى أرجحُ؛ لأنَّه تعالى أقامَه في ذلك مَقامَ نفْسِه، فسلَّمَ نائبًا عن اللهِ تعالى[٢].



(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٠).

الآيات (١٦-٢١)

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿انْتَبَذَتْ﴾: أي: اعتزَلتْ، وانفَرَدَتْ، وتنحَّتْ، من النبْذَة، (بضمِّ النونِ وفتحِها)، وهي الناحيةُ، وأصلُ (نبذ): يدلُّ على الطَّرحِ والإلقاءِ[1].

﴿سَوِيًّا﴾: أي: مُعتَدِلًا تامًّا، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتدالٍ[2].

﴿زَكِيًّا﴾: أي: طاهِرًا مِن الذُّنوبِ، يَنْمو على النَّزاهةِ والعِفَّةِ، وأصلُ (زكي): يدُلُّ على نَماءٍ وزيادةٍ[3].

﴿بَغِيًّا﴾: أي: زانيةً، وأصلُ (بغي) هنا: يدلُّ على جِنسٍ مِن الفَسادِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩١).
وقيل: البغيُّ التي تبغي الزِّنا، أي: تطلبُه. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٤).

﴿مَّقۡضِيّٗا﴾: أي: محكومًا به، مفروغًا منه، سابقًا في علمِ الله أنَّه كائنٌ، فهو واقعٌ لا مَحالةَ، وأصلُ (قضي): يدُلُّ على إحكامِ أمرٍ، وإنفاذِه لجِهَتِه(١).

المَعنى الإجماليُّ:

بعدَ أن ذكَر الله تعالى جانبًا مِن قصةِ زكريا ويحيى -عليهما السلام- وما فيها مِن العجبِ؛ ذكَر قصةً أخرَى أعجبَ منها، وهي قصةُ مريمَ، وميلادِ ابنِها عيسى عليه السلامُ، فقال تعالى: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- في هذا القُرآنِ خَبَرَ مَريمَ إذ تباعَدَت عن أهلِها، فاتَّخَذت لها مَكانًا جهةَ الشَّرقِ. فجعَلَت بينَها وبينَ أهلِها سِترًا يَستُرُها عنهم وعن النَّاسِ، لتتفَرَّغَ للعبادةِ، فأرسَلْنا إليها جبريلَ، فتمثَّل لها في صورةِ رجلٍ تامِّ الخَلْقِ، جَميلِ الصُّورةِ. قالت مريمُ له: إنِّي أستجيرُ بالرَّحمن منك أن تنالَني بسوءٍ إنْ كُنتَ تتقي اللهَ فستنتهي بتعوُّذي منك. قال لها المَلَكُ: إنَّما أنا رسولُ رَبِّك بعَثَني إليك؛ لأهَبَ لكِ غلامًا طاهرًا من الذُّنوبِ. قالت مريمُ للمَلَك: كيف يكونُ لي غُلامٌ ولم يمسَسْني بشَرٌ بنكاحٍ، ولم أكُن زانيةً؟! قال لها المَلَكُ: هكذا الأمرُ كما تَصِفينَ مِن أنَّه لم يَمسَسْكِ بَشَرٌ، ولم تكوني بَغِيًّا، ولكِنَّ رَبَّك قال: خلْقُ الغُلامِ منك مِن غيرِ أبٍ عليَّ سَهلٌ؛ ولِيَكونَ هذا الغُلامُ عَلامةً للنَّاسِ تدُلُّ على قُدرةِ اللهِ تعالى، ورحمةً منَّا به وبك وبالنَّاسِ، وكان خلقُه على هذه الحالةِ قَضاءً سابِقًا مُقَدَّرًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢١٧)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٩).

لَمَّا ذكَرَ تعالى قِصَّةَ زكريَّا -عليه السَّلامُ- وأنَّه أوجَدَ منه في حالِ كِبَرِه وعُقمِ زَوجتِه ولدًا زكيًّا طاهِرًا مُباركًا- عطَفَ بذِكرِ قِصَّةِ مَريمَ في إيجادِه ولَدَها عيسى -عليهما السَّلامُ- منها مِن غيرِ أبٍ؛ فإنَّ بينَ القِصَّتينِ مُناسَبةً ومُشابَهةً؛ ولهذا ذكَرَهما في (آلِ عِمرانَ)، وهاهنا، وفي سورةِ (الأنبياءِ)، يَقرِنُ بين القِصَّتينِ؛ لتقارُبِ ما بينهما في المعنى، ليَدُلَّ عِبادَه على قُدرتِه، وعَظمةِ سُلطانِه، وأنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله تعالى قِصَّةَ زكريَّا -عليه السَّلامُ- وطلَبَه الولَدَ، وإجابةَ الله إيَّاه، فوُلِدَ له من شَيخٍ فانٍ، وعَجوزٍ له عاقرٍ، وكان ذلك مما يُتعَجَّبُ منه- أردفه بما هو أعظَمُ في الغَرابةِ والعَجَبِ، وهو وُجودُ ولَدٍ مِن غَيرِ ذَكَرٍ[٢]، فقال تعالى:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾.

أي: واتْلُ -يا مُحمَّدُ- في القُرآنِ خبَرَ مَريمَ عليها السَّلامُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٨-٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٥).

قال البقاعي: (﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ بلَفظِ الأمرِ ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ ابنةَ عِمرانَ؛ خالةَ يحيى، كما في الصَّحيح مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ عن مالكِ بنِ صَعصعةَ الأنصاريِّ رَضِيَ الله عنهما في حديثِ الإسراءِ: «فلمَّا خَلَصتُ فإذا يحيى وعيسى، وهما ابنا خالة»). ((نظم الدرر)) (١٢/ ١٨٢-١٨٣).

وقد اختلف العُلَماءُ في نبُوَّةِ مريمَ عليها السَّلامُ، والأكثرُ على أنَّها ليست نبيَّةً، وحُكِي الإجماعُ على ذلك، وحكَى أبو بكر الباقِلَّاني، والقاضي أبو يعلى، وأبو المعالي الجويني وغيرُهم الإجماعَ على أنَّه لا يوجدُ في النِّساءِ نَبيَّةٌ. يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (٧/ ٤٤٠)، ((الأذكار)) للنووي (ص: ١١٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٩٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٣٤٩). =

﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾.

أي: حينَ تنحَّتْ عن أهلِها وانفَردتْ وَحدَها في موضعٍ جِهةَ المَشرِقِ(١).

﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾.

﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾.

= وقال ابنُ كثير: (الذي عليه أئمَّةُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وهو الذي نقَله الشيخُ أبو الحسَنِ عليُّ بنُ إسماعيلَ الأشعريُّ عنهم: أنَّه ليس في النِّساءِ نبيَّةٌ، وإنَّما فيهنَّ صِدِّيقاتٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٣).

وقال ابنُ تيميةَ: (والقرآنُ والسُّنَّةُ دلَّا على ذلك؛ كما في قولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقولِه: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾ [المائدة: ٧٥] ذكَر أنَّ غايةَ ما انتهَتْ إليه أُمُّه: الصديقيَّةُ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٣٩٦).

وقيل: هي نبيَّةٌ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ حزمٍ، وابنُ عطيةَ، والقرطبي. يُنظر: ((الفِصَل)) لابن حزم (٥/ ١٢، ١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٢، ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٩، ٨٠).

قيل في سببِ انفرادِها عنهم: إنَّها اتخذَتْ مكانًا تنفردُ فيه للعبادةِ.

قال ابنُ عطية: (وذلك أنَّ مريمَ كانت وقفًا على سدانةِ المتعبَّدِ وخدمتِه والعبادةِ فيه، فتنحَّتْ مِن الناسِ لذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩).

وقيل: إنَّها اتخَذتْ مكانًا تعتزِلُ فيه أيامَ حيضِها. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢٣).

وقال ابن كثير: (ذهبَت إلى شرقِ المسجدِ المقدسِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٩). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٥).

وقيل: جهةَ الشرقِ مِن مساكنِ أهلِها. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩).

وقيل في سببِ كونِ هذا المكانِ في الشرقِ: لأنَّهم كانوا يُعَظِّمونَ جهةَ الشَّرقِ؛ لأنَّها مطلعُ الأنوارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٦).

أي: فجعلَت مَريمُ بينَها وبينَ أهلِها حاجِزًا يَستُرُها عنهم وعن النَّاسِ؛ حتى تتفرَّغ لعبادةِ اللهِ[١].

﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾.

أي: فأرسَلْنا إلى مَريمَ جِبريلَ فجاءَها على هيئةِ رَجُلٍ مُعتَدِلِ الخِلْقةِ، جَميلِ الصُّورةِ[٢].

﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾.

﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾.

أي: قالت مَريمُ وهي خائِفةٌ: إني ألتَجئُ وأعتَصِمُ بالرَّحمنِ منك -أيُّها الرَّجُلُ- أن تنالَني بسُوءٍ[٣].

﴿إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٥)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٥، ٤٨٦)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ١٠٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٦).

قال أبو السعود: (﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾...؛ لتستأنِسَ بكلامِه وتتلقَّى منه ما يُلقي إليها من كلماتِه تعالى؛ إذ لو بدا لها على الصورةِ الملَكيَّة، لنَفِرَت منه، ولم تستطِعْ مُفاوضتَه). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٦، ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١).

قال ابنُ عاشور: (حَسِبَت أنَّه بشَرٌ اختبأَ لها؛ لِيُراوِدَها عن نفسِها، فبادرَتْه بالتعوُّذِ منه قبلَ أن يكَلِّمَها، مُبادِرةً بالإنكارِ على ما توهَّمتْه مِن قَصدِه الذي هو المتبادِرُ مِن أمثالِه في مِثلِ تلك الحالةِ... وهذه مَوعِظةٌ له). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٠، ٨١).

أي: إنْ كُنتَ ذا تقوى تجتَنِبُ ما حرَّم اللهُ، ولا تُقدِمُ على الفُجورِ، فستنتهي بتعوُّذي منك[١].

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾.

أي: قال جِبريلُ لِمَريمَ: إنَّما أنا مَلَكٌ مُرسَلٌ من الله إليك، ولستُ كما تظُنِّينَ، فلا تخافي مني[٢].

﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿لِيَهَبَ﴾ بإخبارِ جِبريلَ عليه السَّلامُ عن اللهِ عزَّ وجَلَّ، أي: لِيَهَبَ لكِ اللهُ غُلامًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٧)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١).

قال ابن جرير: (قالت: إني أعوذُ -أيُّها الرَّجُلُ- بالرَّحمنِ منك، تقولُ: أستجيرُ بالرَّحمنِ منك أن تنالَ مني ما حَرَّمه عليك، إن كنتَ ذا تقوى له تتَّقي محارِمَه، وتجتَنِبُ معاصيَه؛ لأنَّ مَن كان لله تقيًّا، فإنَّه يجتنِبُ ذلك. ولو وُجِّهَ ذلك إلى أنَّها عَنَت: إني أعوذُ بالرَّحمنِ منك إن كنتَ تتَّقي اللهَ في استجارتي واستعاذتي به منك، كان وجهًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٧).

وقال ابن الجوزي: (المعنى: إن كنتَ تتَّقي الله، فستنتهي بتعوُّذي منك. هذا هو القولُ عندَ المحقِّقينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨١).

(٣) قرأ بها أبو عمرٍو ويعقوبُ البصريان، وورشٌ عن نافعٍ، واختُلِف في قراءةِ قالونَ بها. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٧، ٣١٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٣٦)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٣٢).

٢- قِراءةُ ﴿لِأَهَبَ﴾ بإسناد الفِعلِ إلى جبريلَ عليه السَّلامُ؛ وذلك لأنَّ الله أمَرَ جِبريلَ أن ينفُخَ الرُّوحَ في مَريمَ، فهو سببٌ في وجودِ غُلامِها[1].

﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾.

أي: قال جِبريلُ لِمَريمَ: أرسَلَني اللهُ إليكِ؛ لأكونَ سَبَبًا في هبةِ غلامٍ لك طاهِرٍ من الذُّنوبِ والخِصالِ الذَّميمةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦].

﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠﴾.

﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾.

أي: قالت مَريمُ: كيف يكونُ لي غُلامٌ ألِدُه، ولم يَقرَبْني أحدٌ بنِكاحٍ[3]؟!

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٧، ٣١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٤٠، ٤٤١)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٦، ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٦، ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٧).
قال الشنقيطي: (الظاهِرُ أنَّ استفهامَها استخبارٌ واستعلامٌ عن الكيفيَّةِ التي يكونُ فيها حَملُ الغلامِ المذكور؛ لأنَّها مع عدمِ مَسيسِ الرِّجالِ لم تتَّضِحْ لها الكيفيَّةُ، ويحتملُ أن يكون استفهامُها تعجُّبًا من كمالِ قُدرةِ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٨٧). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١).

كما قال تعالى: ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ [آل عمران: ٤٧].

﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾.

أي: ولم يكُنْ مِن دَأبي الفُجورُ والوقوعُ في الفاحِشةِ، فكيف يكونُ لي ولَدٌ[١]؟!

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾.

أي: قال جبريلُ لِمَريمَ: هكذا الأمرُ كما ذكرتِ مِن أنَّه لم يمسَسْكِ بشَرٌ، ولم تكوني بَغيًّا، ولكِنْ قال ربُّكِ: خلْقُ الغُلامِ منك مِن غيرِ أبٍ سَهلٌ ويَسيرٌ عليَّ[٢]!

﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ﴾.

أي: ونخلُقُ ولَدَكِ الذي تَلِدينَه مِن غيرِ أبٍ؛ لنجعَلَ ذلك عَلامةً للنَّاسِ، ودَلالةً تَدُلُّهم على كمالِ قُدرةِ الخالِقِ العَجيبةِ، وعَظمةِ سُلطانِه، وتَوحيدِه سُبحانَه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٨).

وممن اختار المعنى المذكور: ابنُ جرير، وابنُ عطية، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٣).

قال ابن عطية: (المعنى: قال لها الملكُ: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ هو كما وَصَفْتِ، ولكن ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾، ويحتمِلُ أن يريدَ: على هذه الحالِ ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾، والمعنى متقاربٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٩).

ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾.

أي: ونبيًّا يدعو إلى اللهِ؛ رَحمةً منَّا له ولكِ وللنَّاسِ، خُصوصًا مَن آمَنَ به واتَّبَعه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٤٩ - ٥١].

﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾.

أي: وكان خَلْقُ اللهِ للولَدِ منكِ مِن غيرِ أبٍ أمرًا قد قضاه اللهُ وقَدَّرَه؛ فوقوعُه كائِنٌ لا محالةَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١).
قال السعدي: (أمَّا رحمةُ الله به: فلِمَا خَصَّه الله بوحيه، ومنَّ عليه بما منَّ به على أولي العَزمِ، وأمَّا رحمتُه بوالدته: فلِمَا حَصَل لها مِن الفَخرِ والثَّناءِ الحَسَنِ، والمنافِعِ العظيمةِ، وأمَّا رحمتُه بالنَّاسِ فإنَّ أكبَرَ نِعَمِه عليهم أنْ بَعَث فيهم رسولًا يتلو عليهم آياتِه، ويزكِّيهم، ويعَلِّمُهم الكتابَ والحِكمةَ، فيُؤمِنونَ به ويُطيعونَه، وتحصُلُ لهم سعادةُ الدُّنيا والآخرةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٩). =

كما قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- أحسَنُ الطُّرُقِ في التَّعليمِ والتَّفهيمِ: الأخذُ مِن الأقرَبِ فالأقرَبِ، مُترقِّيًا إلى الأصعَبِ فالأصعَبِ؛ فالله تعالى قدَّم قِصَّة يحيى على قِصَّةِ عيسى -عليهما السَّلامُ-؛ لأنَّ خَلقَ الولَدِ مِن شَيخينِ فانيينِ أقرَبُ إلى مناهِجِ العاداتِ مِن تَخليقِ الولَدِ لا مِن الأبِ البتَّةَ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ فجمَعَت مريمُ عليها السَّلامُ بينَ الاعتِصامِ بربِّها، وبينَ تخويفِ ذلك الشَّابِّ، وترهيبِه وأمْرِه بلُزومِ التقوى، وهي في تلك الحالةِ الخاليةِ، والشَّبابِ، والبُعدِ عن النَّاسِ، وهو في ذلك الجمالِ الباهِرِ، والبَشَريَّةِ الكاملةِ السَّويَّة، ولم ينطِقْ لها بسوءٍ أو يتعَرَّضْ لها، وإنما ذلك خَوفٌ منها، وهذا أبلغُ ما يكونُ مِن العِفَّةِ، والبُعدِ عن الشَّرِّ وأسبابِه، وهذه العِفَّةُ -خصوصًا مع اجتِماعِ الدَّواعي، وعدَمِ المانِعِ- مِن أفضَلِ الأعمالِ؛ ولذلك أثنى اللهُ عليها، فقال: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، فأعاضها اللهُ بعِفَّتِها ولدًا مِن آياتِ اللهِ، ورسولًا مِن رُسُلِه(٢).

= قال ابن عاشور: (جملة ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ يجوزُ أن تكونَ مِن قولِ الملَكِ، ويجوزُ أن تكونَ مُستأنفةً). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١).

٣- قَولُ مَريمَ للمَلَكِ: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي: إن كُنتَ تخافُ اللهَ، تذكيرٌ له بالله، وهذا هو المشروعُ في الدَّفعِ: أن يكونَ بالأسهَلِ فالأسهَلِ، فخَوَّفَته أوَّلًا بالله عزَّ وجَلَّ(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ يدُلُّ على كَمالِ قُدرةِ الله تعالى، وعلى أنَّ الأسبابَ جَميعَها لا تستَقِلُّ بالتأثيرِ، وإنَّما تأثيرُها بتقديرِ اللهِ، فيُرِي تعالى عبادَه خَرْقَ العوائِدِ في بعضِ الأسبابِ العاديَّةِ؛ لئلَّا يَقِفوا مع الأسبابِ، ويَقطَعوا النَّظَرَ عن مُقَدِّرِها ومُسَبِّبِها(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ فأخبَرَ هذا الرُّوحُ الذي تمثَّلَ لها بشَرًا سَوِيًّا أنَّه رسولُ رَبِّها، فدَلَّ الكلامُ على أنَّ هذا الرُّوحَ عينٌ قائِمةٌ بنَفسِها، ليسَت صِفةً لِغَيرِها، وأنَّه رسولٌ مِن اللهِ، ليس صفةً مِن صفاتِ الله؛ ولهذا قال جماهيرُ العُلَماءِ: إنَّه جبريلُ عليه السَّلامُ؛ فإنَّ اللهَ سمَّاه الرُّوحَ الأمينَ، وسمَّاه رُوحَ القُدُسِ، وسمَّاه جبريلَ، وهكذا عندَ أهلِ الكتابِ أنَّه تجسَّد مِن مريمَ ومِن رُوحِ القُدُسِ، لكنْ ضُلَّالُهم حيثُ يظُنُّونَ أنَّ رُوحَ القُدُسِ حياةُ اللهِ، وأنَّه إلهٌ يَخلُقُ ويرزُقُ ويُعبَدُ! وليس في شيءٍ مِن الكُتُبِ الإلهيَّةِ ولا في كلامِ الأنبياء أنَّ اللهَ سمَّى صفتَه القائمةَ به رُوحَ القُدُسِ، ولا سمَّى كلامَه ولا شيئًا مِن صفاتِه ابْنًا، وهذا أحدُ ما يَثبُتُ به ضَلالُ النَّصارى وأنَّهم حرَّفوا كلامَ الأنبياءِ، وتأوَّلوه على غيرِ ما أرادتِ الأنبياءُ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩١).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ١٥١).

٢- قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾، أي: جبريلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ الدِّينَ يحيا به وبوحيِه[1]. وقيل: إنَّما سُمِّي جبريلُ رُوحًا؛ لأنَّه بمنزلةِ الأرواحِ للأبدانِ تحيا بما يأتي مِن البيانِ عن الله عزَّ وجلَّ مَن يُهدَى به[2].

٣- قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا...﴾ وخِطابُ الملائكةِ لمريمَ لا يقتَضي النبُوَّةَ؛ لأنَّ النبيَّ مَن يُوحَى إليه بشَرعٍ، ومريمُ لم يُوحَ إليها بشَيءٍ مِن الشَّرعِ، ولكِنَّه كان خِطابًا للبِشارةِ بواقعةٍ مُعَيَّنةٍ دالَّةٍ على علُوِّ مَنزِلتِها، واصطفاءِ الله سُبحانه وتعالى لها[3]، ولأنَّ الملائكةَ قد كَلَّموا مَن ليس بنبيٍّ إجماعًا[4].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ السَّوِيُّ: المُسَوَّى، أي: التَّامُّ الخَلقِ، وإنَّما تمثَّلَ لها كذلك؛ لِوُجوهٍ ذكَرَها العُلماءُ، منها:

الوجه الأول: للتناسُبِ بينَ كَمالِ الحقيقةِ، وكَمالِ الصُّورةِ.

الوجه الثاني: أُرسِلَ حَسَنَ الشَّكلِ؛ لئلَّا تَشتَدَّ نُفرتُها ورَوْعُها منه[5].

الوجه الثالث: كان تمثيلُه على ذلك الحُسنِ الفائِقِ والجَمالِ الرَّائقِ؛ لابتلائِها وسَبْرِ عِفَّتِها، ولقد ظهَرَ منها مِنَ الوَرَعِ والعَفافِ ما لا غايةَ وراءَه[6]، ففي ذلك إشارةٌ إلى كَمالِ عِصمَتِها؛ إذ ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[7].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٨).
(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٣/ ١٣٠).
(٣) يُنظر: ((زهرة التفاسير)) لأبي زهرة (٣/ ١٢١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ١٤٨).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٠).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٠).

بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ۞ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴾ إثباتُ الملائكةِ، وأنَّهم أحياءٌ، ناطِقونَ، مُنفَصِلونَ عن الآدميِّينَ، يُخاطِبونَهم، ويَرَونَهم في صُورِ الآدميينَ؛ الأنبياءُ وغيرُ الأنبياءِ، كقَولِه تعالى: ﴿ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ۞ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ۞ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ۞ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾[الحجر: ٥١- ٥٤]، وغيرُ الأنبياءِ، كما رأتْهم سارةُ امرأةُ الخليلِ عليه السَّلامُ، وكما كان الصَّحابةُ يرَون جبريلَ إذا جاء؛ لَمَّا جاء في صورةِ أعرابيٍّ[(١)]، وتارةً في صورةِ دِحْيةَ[(٢)] الكَلْبِيِّ[(٣)].

٦- قولُه تعالى: ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ۞ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ ﴾ لِياذُها باللهِ وعياذُها به وقْتَ التَّمثيلِ دليلٌ على أنَّه أوَّلَ ما تمثَّلَ لها استعاذتْ من غيرِ جرْيِ كلامٍ بينهما[(٤)].

٧- قولُه تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴾ إنْ قال قائِلٌ: الهِبةُ مِن اللهِ تعالى، فلِمَ أخبَرَ جِبريلُ عن نَفسِه؟

والجوابُ مِن وُجوهٍ:

الأولُ: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾، فهو على الحِكايةِ، وحَملَ الحكايةَ على المعنى، على تأويلِ: قال: أُرسِلْتُ إليكِ؛ لأهَبَ لك، فحُذِفَ مِن الكلامِ (أُرسِلْتُ)؛ لدَلالةِ ما ظهَرَ على ما حُذِفَ.

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٦٣٤)، ومسلم (٢٤٥١) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.
(٣) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٩٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٩).

الثَّاني: جِبريلُ عليه السَّلامُ قال لمريم: إنَّما أنا رَسولُ ربِّك أرسلني لأهَبَ لك؛ إذ كان النافِخَ في جَيبِها بأمرِ الله، فتكونُ الهِبةُ في المعنى مِنَ الله، وهي في اللَّفظِ مُسنَدةٌ إلى جبريلَ؛ لأنَّ الرَّسولَ والوكيلَ قد يُسنِدانِ هذا النَّحوَ إلى أنفُسِهم، وإن كان الفِعلُ للمُوكِّلِ والمُرسَلِ؛ للعِلمِ بأنَّه في المعنى للمُرسِلِ، وأنَّ الرَّسولَ مُترجِمٌ عنه(١).

الثَّالثُ: أنه جَعَل الهبةَ مِن قِبَلِه؛ لكونِه سببًا فيها مِن جهةِ كونِ الإعلامِ لها مِن جِهتِه(٢).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ قَولَ مَريمَ عليها السَّلامُ: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ يدخُلُ تحتَه قَولُها: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فلماذا أعادَته؟ وممَّا يؤكِّدُ هذا السُّؤالَ أنَّ في سورةِ (آلِ عِمرانَ) ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٧] فلم تَذكُرِ البِغاءَ؟

والجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّها جعَلَت المسَّ عِبارةً عن النِّكاحِ الحَلالِ؛ لأنَّه كنايةٌ عنه؛ لِقَولِه: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، والزِّنا ليس كذلك.

الوجهُ الثاني: أنَّ إعادتَها لِتَعظيمِ حالِها، كقَولِه تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقَولِه: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، فكذا هاهنا: أنَّ مَن لم تُعرَفْ مِن النِّساءِ بزَوجٍ، فأغلَظُ أحوالِها إذا أتَت بوَلَدٍ أن تكونَ زانيةً، فأُفرِدَ ذِكرُ البِغاءِ -بعد دُخولِه في الكَلامِ

(١) يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٤٠، ٤٤١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٧).

الأوَّلِ- لأنَّه أعظَمُ ما في بابِه[١].

٩- قولُها: ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ لم تقُلْ: (بغيَّةً)؛ لأنَّ «بغيًّا» غالبٌ في النِّساءِ، وقلَّما يقولُ العربُ: رجلٌ بغيٌّ؛ فترَكوا التَّاءَ فيه إجراءً له مَجْرَى حائضٍ، وعاقرٍ. أو هو: «فعيلٌ» بمعنى فاعلٍ، فترَكوا التَّاءَ فيه كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦][٢]، أو لموافقةِ الفواصلِ[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ...﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٢]، عطْفَ القِصَّةِ على القصَّةِ؛ فلا يُراعَى حُسْنُ اتِّحادِ الجُملتينِ في الخبريَّةِ والإنشائيَّةِ، على أنَّ ذلك الاتِّحادَ ليس بمُلتزَمٍ، وفي افتتاحِ القصَّةِ بهذا زيادةُ اهتمامٍ بها، وتَشويقٌ للسَّامعِ أنْ يتعرَّفَها ويَتدبَّرَها[٤].

- وقدِ اختُصَّتْ هذه السُّورةُ بزيادةِ كلمةِ ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بعدَ كلمةِ ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾؛ وفائدةُ ذلك: التَّنبيهُ إلى أنَّ ذِكْرَ مَن أُمِرَ بذكْرِهم كائنٌ بآياتِ القُرآنِ، وليس مُجرَّدَ ذكْرِ فضْلِه في كلامٍ آخرَ من قولِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ولم يأْتِ مثْلُ هذه الجُملةِ في سُورةٍ أُخرى؛ لأنَّه قد حصَلَ علْمُ المُرادِ في هذه السُّورةِ؛ فعُلِمَ أنَّه المُرادُ في بقيَّةِ الآياتِ الَّتي جاء فيها لفظُ (اذكُرْ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٧٨-٧٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٧٩).

- وفي قولِه: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ نكَّرَ المكانَ إبهامًا له؛ لعدَمِ تعلُّقِ الغرضِ بتَعيينِ نوعِه؛ إذ لا يُفيدُ كمالًا في المقصودِ من القصَّةِ. وأمَّا التَّصدِّي لوصْفِه بأنَّه شرقيٌّ، فللتَّنبيهِ على أَصْلِ اتِّخاذِ النَّصارى الشَّرقَ قِبْلةً لصلواتِهم(١)، فذِكْرُ كونِ المكانِ شرقيًّا نُكتةٌ بديعةٌ من تاريخِ الشَّرائعِ، مع ما فيه مِن مُؤاخاةِ الفواصلِ(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾، أي: جبريلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، عبَّرَ عنه بذلك؛ توفيةً للمقام حَقَّه(٣).

- قولُه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ تَعليقُ الإرسالِ به، وإضافتُه إلى ضَميرِ الجلالةِ دَلَّا على أنَّه مِن الملائكةِ(٤).

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾

- جُملةُ: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾ خبريَّةٌ، ولذلك أُكِّدَت بحرفِ التَّأكيدِ (إنَّ). وذِكْرُها صِفَةَ (الرَّحمنِ) دونَ غيرِها من صفاتِ اللهِ؛ لأنَّها أرادتْ أنْ يرحَمَها اللهُ بدفْعِ من حسِبَتْه داعرًا عليها(٥)، فذِكْرُه تعالى بعُنوانِ الرَّحمانيَّةِ؛ للمُبالغةِ في العياذِ به تعالى، واستجلابِ آثارِ الرَّحمةِ الخاصَّةِ الَّتي هي

(١) يُنظر ما أخرجه ابنُ جرير في ((تفسيره)) (١٥/ ٤٨٤)، وابنُ أبي حاتم في ((تفسيره)) (٥/ ١٦١١) عن ابنِ عباس رضي لله عنهما في أنَّ ذلك هو سببُ اتِّخاذِ النَّصارى الشرقَ قبلةً.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٨١).

العِصمةُ ممَّا دهَمها[١].

- وقولُها: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ تذكيرٌ له بالموعظةِ بأنَّ عليه أنْ يتَّقِيَ ربَّه، ومجيءُ هذا التَّذكيرِ بصِيغَةِ الشَّرطِ المُؤذِنِ بالشَّكِّ في تَقواهُ: قصْدٌ لتهييجِ خشيَتِه، وكذلك اجتلابُ فعْلِ الكونِ -﴿كُنتَ﴾- الدَّالِّ على كونِ التَّقوى مُستقِرَّةً فيه، وهذا أبلَغُ وعْظٍ وتذكيرٍ وحَثٍّ على العملِ بتَقواهُ[٢].

- قولُه: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ جوابُ الشَّرطِ محذوفٌ دَلَّ عليه ما قبْلَه، أي: فإنِّي عائذةٌ منك، أو فتتَّعِظُ بتَعويذي، أو فلا تتعرَّضْ لي. ويجوزُ أنْ يكونَ للمُبالغةِ، أي: إنْ كنتَ تقيًّا مُتورِّعًا، فإنِّي أتعوَّذُ منك؛ فكيف إذا لم تكنْ كذلك[٣]؟! أو تعليقُها الاستعاذةَ على شرطِ تقواهُ؛ لأنَّه لا تنفَعُ الاستعاذةُ ولا تُجْدي إلَّا عندَ مَن يتَّقي اللهَ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ فيه قصرٌ إضافيٌّ، أي: لستُ بشرًا؛ ردًّا على قولِها: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ المُقْتضي اعتقادَها أنَّه بشرٌ[٥].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾

- إنَّما قالت: ﴿بَشَرٌ﴾؛ مُبالغةً في بَيانِ تنزُّهِها مِن مبادئِ الولادةِ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨١).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٠).

- وقولُها: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ تبرئةٌ لنفْسِها من البغاءِ بما يَقْتضيه فعْلُ الكونِ من تمكُّنِ الوصفِ الَّذي هو خبَرُ الكونِ، والمقصودُ منه تأكيدُ النَّفيِ(١).

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾

- قولُه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ...﴾، أي: إنَّ الأمْرَ كما قلْتِ، وهو عُدولٌ عن إبطالِ مُرادِها من المُراجعةِ إلى بَيانِ هونِ هذا الخلْقِ في جانبِ القُدرةِ، على طريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ(٢).

- قولُه: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ إمَّا علَّةٌ لمُعلَّلٍ محذوفٍ، أي: ولنجعَلَ وهْبَ الغلامِ آيةً لهم وبُرهانًا يَستدِلُّونَ به على كَمالِ قُدرتِنا نفعَلُ ذلك. أو معطوفٌ على علَّةٍ أُخرى مُضمَرةٍ، أي: لنُبيِّنَ به عِظَمَ قُدرتِنا، ولنجعَلَه آيةً... إلخ(٣).

- والالتفاتُ إلى نُونِ العظمةِ في قولِه: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ﴾؛ لإظهارِ كَمالِ الجلالةِ(٤)؛ فقولُه: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ﴾ عطفٌ على ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ باعتبارِ ما في ذلك من قولِ الرُّوحِ لها: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾؛ فوقَعَ الْتفاتٌ من طريقةِ الغيبةِ إلى طريقةِ التَّكلُّمِ(٥).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ فالكلامُ في الموضعينِ على لسانِ الملَكِ من عندِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦١).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٣).

اللهِ، ولكنَّه أُسْنِدَ في هذه القصَّةِ إلى الملَكِ؛ لأنَّه جوابٌ عن خِطابِها إيَّاهُ، وأُسْنِدَ في قصَّةِ زكريَّا إلى اللهِ؛ لأنَّ كلامَ الملَكِ كان تبليغَ وحيٍ عن اللهِ جوابًا من اللهِ عن مُناجاةِ زكريَّا[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٣).

الآيات (٢٢-٢٦)

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَصِيًّا﴾: أي: نائيًا بَعيدًا، وأصلُ (قصو): يدُلُّ على بُعدٍ وإبعادٍ[1].

﴿فَأَجَآءَهَا﴾: أي: ألجَأَها واضْطرَّها، يُقالُ: جاء بها وأجاءَها: بمعنًى[2].

﴿ٱلْمَخَاضُ﴾: أي: وجَعُ الوِلادةِ، وهو الطَّلْقُ، وسُمِّي مخاضًا مِن المَخْضِ، وهو الحركةُ الشَّديدةُ؛ لشدَّةِ تحرُّكِ الجنينِ في بطنِها إذا أرادَ الخروجَ، وأصلُ المخضِ: تحريكُ سقاءِ اللبنِ وهزُّه؛ ليجتمِعَ زُبدُه وسَمنُه[3].

﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾: أي: شَيئًا حَقيرًا لا يُؤبَهُ له، وأصلُ (نسي): يدُلُّ على تَركِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٨)، ((حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي)) (٦/ ١٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٠).

الشَّيءِ وإغفالِه[١].

﴿سَرِيًّا﴾: أي: جَدولًا ونَهرًا صغيرًا، وسُمِّيَ النَّهرُ سَرِيًّا؛ لأنَّ الماءَ يسري فيه، أي: يمُرُّ جاريًا. وقيل: بل ذلك من السَّرْوِ، أي: الرِّفعةِ، والإشارةُ بذلك إلى عيسى عليه السَّلامُ[٢].

﴿جَنِيًّا﴾: أي: مَجْنيًّا غَضًّا طَرِيًّا، وجَنَى الشَّجرةِ: ما جُنِيَ منها، وأصلُ (جني): يدُلُّ على أخْذِ الثَّمرةِ مِن شَجَرِها[٣].

﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾: أي: طِيبي نَفسًا، وأصلُه من القُرِّ، أي: البَردِ، فَقَرَّتْ عينه، أي: بَرَدَت، وقيل: هو من القَرارِ؛ لأنَّ اللهَ أعطاها ما تَسكُنُ به عينُها فلا تطمَحُ إلى غيرِه[٤].

﴿صَوْمًا﴾: أي: صَمتًا، والصَّوْمُ في الأصلِ: الإمساكُ عن الفِعلِ مَطعمًا كان أو كلامًا أو مَشيًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٠)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٠)، ((تذكرة =

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تعالى عن مشهدٍ آخرَ مِن مشاهدِ تلك القصةِ العجيبةِ، حينَ حمَلت مريمُ بعيسى عليه السلامُ، وعندما جاءَها المخاضُ، فيقولُ تعالى: فحَمَلت مريمُ بعيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فتباعَدَت به إلى مَكانٍ بعيدٍ عن النَّاسِ، فألجأها طَلْقُ الحَملِ ووجعُ الولادةِ إلى جِذعِ النَّخلةِ، فقالت: يا ليتني مِتُّ قبلَ هذا اليومِ، وكنتُ شيئًا لا يُعرَفُ ولا يُذكَرُ! فناداها مولودُها عيسى مِن تحتِها عندما وضَعتْه: أنْ لا تَحزني، قد جعل ربُّكِ تحت قَدَميك جَدْولَ ماءٍ، وحَرِّكي جِذعَ النَّخلةِ تُسَاقِطْ عليك النَّخلةُ رطبًا طريًّا طيِّبًا، فكُلي من الرُّطَب، واشرَبي من الماءِ، وطِيبي نفسًا، ولا تحزني، فإنْ رأيتِ مِن النَّاسِ أحدًا فسَألَكِ عن أمْرِك، فقولي له: إني أوجَبْتُ على نفسي لله سُكوتًا، فلن أكَلِّمَ اليومَ أحدًا من النَّاسِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢)﴾.

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾.

أي: فحَمَلَت مريمُ بعيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[(١)].

﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾.

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٩، ٣٩٠).

قال ابنُ تيميةَ: (إنَّما حَمَلت به بعدَ النَّفخِ، لم تَحمِلْ به مُدَّةً بلا نفخٍ ثم نُفِخَت فيه روحُ الحياة كسائر الآدميِّين، ففَرْقٌ بين النَّفخِ للحَملِ، وبين النفخِ لرُوحِ الحياةِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٢٦٧).

أي: فتنحَّت بحَمْلِها إلى مكانٍ بعيدٍ عن النَّاسِ[١].

﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾.

أي: فألجأَها ألَمُ الطَّلْقِ إلى جِذعِ نَخلةٍ[٢].

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾.

أي: قالت: يا ليتني مِتُّ قبل أن أحمِلَ هذا الغلامَ مِن غيرِ زَوجٍ، وكنتُ شَيئًا حقيرًا يُترَكُ ويُنسَى فلا يَخطُرُ على بالٍ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٢).

قال الشنقيطي: (الجمهورُ على أنَّ المكانَ المذكورَ بيتُ لحمٍ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٩٢، ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨٩، ٣٩٠).

قال الرسعني: (﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ الجذعُ: ساقُ النخلةِ، كأنَّها عليها السلامُ قصَدت الاسترواحَ مِن ألمِ الولادةِ بالاتكاءِ إليه، والاعتمادِ عليه). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٠٦).

قال الواحدي: (قال المفسرون: وكان جذعَ نخلةٍ يابسةٍ ليس لها سعفٌ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ ولم يقُلْ «إلى النخلةِ»؛ لأنَّها لم يبقَ منها إلا الجذعُ). ((البسيط)) (١٤/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٩٨، ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٥، ٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٩١).

وقال السَّعدي: (فلمَّا آلَمَها وَجَعُ الولادةِ، ووجَعُ الانفرادِ عن الطَّعامِ والشراب، ووَجَعُ قَلبِها مِن قالةِ النَّاس، وخافت عدَمَ صَبرِها؛ تمنَّت أنَّها ماتت قبل هذا الحادثِ، وكانت نَسيًا مَنسيًّا فلا تُذكَرُ. وهذا التمنِّي بناءٌ على ذلك المُزعِج، وليس في هذه الأمنيةِ خيرٌ لها ولا مَصلحةٌ، وإنما الخيرُ والمصلحةُ بتقديرِ ما حصل). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢). =

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي﴾.

أي: فناداها مولودُها عيسَى مِن تَحتِها عندما وضَعَتْه[1] قائِلًا لها: لا تَحزَني[2].

= وقال ابنُ عاشور: (المشارُ إليه في قولِها ﴿قَبۡلَ هَٰذَا﴾ هو الحملُ. أرادَتْ أن لا يُتطرَّقَ عرضُها بطعنٍ، ولا تجُرَّ على أهلِها معرةً. ولم تتمَنَّ مريم أنْ تكونَ ماتت بعدَ بُدوِّ الحمْلِ؛ لأنَّ الموتَ حينئذٍ لا يَدفَعُ الطَّعنَ في عِرْضِها بعدَ موتِها ولا المعرَّةَ على أهلِها؛ إذ يُشاهِدُ أهْلُها بطْنَها بحمْلِها وهي ميتةٌ، فتَطرُقُها القالةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٥-٨٦).

(١) قال البغوي: (لم يُرِدْ به أنَّه تحتَها وهي قاعدةٌ عليه! بل أراد: بينَ يدَيْها). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٤١١).

وقال الشنقيطي: (وأمَّا على القَولِ بأنَّ المناديَ هو عيسى، فالمعنى على القراءةِ الأولى [أي: قراءةِ ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾]: فناداها هو -أي: المولودُ الذي وضعَتْه- مِن تحتِها؛ لأنَّه كان تحتَها عند الوَضعِ، وعلى القراءة الثانية: ﴿فَنَادَاهَا مَنْ تَحْتَهَا﴾ أي: الذي تحتَها، وهو المولودُ المذكورُ الكائِنُ تحتَها عند الوضعِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٠٠، ٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١، ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٦، ٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٤).

وممَّن قال بأنَّ المناديَ لها هو عيسَى: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال مِن السلفِ أنَّ المناديَ كان عيسى عليه السلامُ: أُبيُّ بنُ كعبٍ، ومجاهدٌ، والحسنُ، ووهبُ بنُ مُنبِّهٍ، وسعيدُ بنُ جبير في روايةٍ عنه، وابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٤٠٤).

قال الشنقيطي: (أظهَرُ القولينِ عندي أنَّ الذي ناداها هو ابنُها عيسى، وتدُلُّ على ذلك قرينتان: الأولى: أنَّ الضميرَ يرجِعُ إلى أقرب مذكور إلَّا بدليلٍ صارفٍ عن ذلك يجِبُ الرجوعُ إليه، وأقربُ مذكورٍ في الآيةِ هو عيسى لا جبريلُ؛ لأنَّ الله قال: ﴿فَحَمَلَتۡهُ﴾، يعني: عيسى ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾، أي: بعيسى. ثمَّ قال بعده: ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ فالذي يظهرُ ويتبادَرُ مِن السياقِ أنَّه عيسى.

والقرينة الثانية: أنَّها لَمَّا جاءت به قَومَها تَحمِلُه، وقالوا لها ما قالوا، أشارت إلى عيسى ليكلِّموه، =

﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾.

أي: قد أجرى ربُّك تحت قَدَميك نهرًا صغيرًا؛ لتَشربي منه[(١)].

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾.

= كما قال تعالى عنها: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾، وإشارتُها إليه ليكَلِّموه قرينةٌ على أنَّها عَرَفت قبل ذلك أنَّه يتكلَّمُ على سبيلِ خَرقِ العادةِ؛ لندائِه لها عندما وضعَتْه). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٩٤).

وقيل: المنادي لها هو المَلَكُ. وممن اختار ذلك: السمعاني، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٣، ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢).

وممن قال مِن السلفِ أنَّ المناديَ كان مَلَكًا: ابنُ عباس، والبراءُ، وعمرُو بنُ ميمون الأودي، وسعيدُ بنُ جبيرٍ في روايةٍ عنه، والضحَّاكُ، وقتادةُ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٠١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٤٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٤، ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٥، ٣٩٦).

ومِمن اختار أنَّ السَّريَّ هنا هو الجدولُ والنَّهرُ الصغير: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ كثير، والسعدي، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الزجاج: (لا اختلاف بين أهلِ اللغة أنَّ السَّرِيَّ النَّهرُ بمنزلةِ الجَدولِ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٣٢٥).

وقال الشوكاني: (قال جمهورُ المفسِّرينَ: السريُّ: النهرُ الصغيرُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٨٨). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٠٨).

وقيل: السَّرِيُّ: أي: السَّيدُ الشَّريفُ، وهو عيسى عليه السَّلامُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: الحسنُ البصري-وقيل: رجَع عن هذا القولِ- وابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٠٩، ٥١٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٢٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٦٣).

أي: وحَرِّكي جِذعَ النَّخلةِ(١).

﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾.

أي: تُسْقِطْ عليكِ النَّخلةُ رُطَبًا طَرِيًّا طيِّبًا نافعًا(٢).

﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾.

﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾.

أي: فكُلي من الرُّطَبِ، واشرَبي مِن ماءِ النَّهرِ، وطيبي نفسًا، وافرَحي ولا تحزَني(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٠، ٥١٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٨).

قال ابن عطية: (والظاهِرُ من الآيةِ أنَّ عيسى هو المكَلِّمُ لها). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١-١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٣، ٥١٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٠٠).

وقال الشنقيطي: (الذي يُفهَمُ مِن سياقِ القُرآنِ: أنَّ الله أنبتَ لها ذلك الرُّطَبَ على سبيلِ خَرقِ العادةِ، وأجرى لها ذلك النَّهرَ على سبيلِ خَرقِ العادة، ولم يكُنِ الرُّطَبُ والنَّهرُ موجودينِ قبل ذلك، سواءً قلنا: إنَّ الجِذعَ كان يابِسًا أو نخلةً غيرَ مُثمِرةٍ، إلَّا أنَّ الله أنبت فيه الثَّمرَ، وجعَلَه رُطبًا جَنيًّا، ووجهُ دَلالةِ السِّياقِ على ذلك أنَّ قولَه تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾ يدُلُّ على أنَّ عينَها إنما تقَرُّ في ذلك الوقتِ بالأمورِ الخارقةِ للعادةِ؛ لأنَّها هي التي تُبَيِّنُ براءتَها مما اتَّهَموها به... وبذلك يكونُ قُرَّةَ عينٍ لها؛ لأنَّ مجرَّدَ الأكلِ والشُّربِ معَ بقاءِ التُّهمةِ التي تمنَّتْ بسببِها أن تكونَ قد ماتت مِن قَبلُ، وكانت نَسيًا مَنسيًّا، لم يكُنْ قُرَّةً لعينِها في ذلك الوقتِ، كما هو ظاهِرٌ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٩٧). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٧).

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾.

أي: فإنْ رأيتِ أحدًا من النَّاسِ يُريدُ أن يُكلِّمَكِ فقُولي[1]: إنِّي أوجبتُ على نفسي للرَّحمنِ أن أُمسِكَ عن الكلامِ[2].

(١) قيل: المرادُ بالقولِ هنا: التلفُّظُ بالكلامِ حقيقةً. وممَّن استظهر هذا: ابنُ عطية -ونسَبه للجمهورِ-، وأبو حيان، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ القيِّم. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٢١٨).

قال ابنُ عطية: (ظاهِرُ الآيةِ أنَّها أُبيحَ لها أن تقولَ هذه الألفاظَ التي في الآيةِ، وهو قَولُ الجُمهورِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣).

وقال ابنُ القيم: (لم يكُنْ ما أخبَرَت به داخلًا تحت الخبرِ، وإلَّا كان قولُها هذا مخالفًا لِنَذرِها). ((بدائع الفوائد)) (٤/ ٢١٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالقولِ هنا: الإشارةُ: ابنُ كثير، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٣).

ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٩، ٩٠، ٩٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالصومِ هنا: الصَّمتُ: ابنُ جرير، والرسعني، والقرطبي، والخازن، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢).

ونسَب الشنقيطي هذا القولَ للجمهورِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٠).

وممن قال بهذا القول مِن السلفِ: أنسُ بنُ مالكٍ في روايةٍ عنه، وابنُ عباسٍ، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٥).

وقيل: المرادُ: الصومُ عن الطعامِ والكلامِ معًا. وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٣).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: أنسُ بنُ مالكٍ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ، والسدي. يُنظر: =

﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

أي: فلن أكلِّمَ اليومَ أحدًا من النَّاسِ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ فيه أمرٌ بالسَّبَبِ في الرزقِ، وتكَلُّفِ الكَسبِ(٢)، واستُدِلَّ مِن هذه الآيةِ على أنَّ الرِّزقَ وإن كان محتومًا، فإنَّ اللهَ تعالى قد وكَلَ ابنَ آدمَ إلى سعيٍ ما فيه؛ لأنَّه أمَرَ مريمَ بهَزِّ النَّخلةِ؛ لترى آيةً، وكانت الآيةُ تكونُ بألَّا تَهُزَّ(٣)، فأخذ بعضُ العُلَماءِ مِن هذه الآيةِ أنَّ السَّعيَ والتسَبُّبَ في تحصيلِ الرِّزقِ أمرٌ مأمورٌ به شرعًا، وأنَّه لا ينافي التوكُّلَ على الله جلَّ وعلا، وهذا أمرٌ كالمعلومِ مِن الدِّينِ بالضَّرورةِ: أنَّ الأخذَ

= ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٣).

قال ابنُ عطيةَ: (ومعنى هذه الآيةِ أنَّ الله تعالى أمَرها على لسانِ جبريلَ أو ابنِها على الخلافِ المتقَدِّمِ بأن تُمسِكَ عن مخاطبةِ البشَرِ، وتُحيلَ على ابنِها في ذلك؛ ليرتَفِعَ عنها خجَلُها، وتَبينَ الآيةُ فيقومَ عُذرُها... قال المفسِّرون: أُمِرَت مريمُ بهذا؛ ليكفيَها عيسى الاحتجاجَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣).

وقال السعدي: (إنما لم تؤمَرْ بخِطابِهم في نفيِ ذلك عن نفسِها؛ لأنَّ النَّاسَ لا يصَدِّقونَها، ولا فيه فائدةٌ، ولتكونَ تبرئتُها بكلامِ عيسى في المهدِ أعظَمَ شاهدٍ على براءتِها؛ فإنَّ إتيانَ المرأةِ بولدٍ مِن دونِ زَوجٍ، ودعواها أنَّه مِن غيرِ أحدٍ: من أكبرِ الدَّعاوى التي لو أُقيم عِدَّةٌ مِن الشُّهودِ لم تُصَدَّقْ بذلك؛ فجُعِلَت بينةُ هذا الخارقِ للعادةِ أمرًا مِن جِنسِه، وهو كلامُ عيسى في حالِ صِغَرِه جِدًّا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٥).

بالأسبابِ في تحصيلِ المنافِعِ، ودَفعِ المضارِّ في الدُّنيا؛ أمرٌ مأمورٌ به شَرعًا لا ينافي التوكُّلَ على اللهِ بحالٍ؛ لأنَّ المكَلَّفَ يتعاطى السَّبَبَ امتِثالًا لأمرِ رَبِّه، مع عِلمِه ويقينِه أنَّه لا يقَعُ إلَّا ما يشاءُ اللهُ وُقوعَه، فهو متوكِّلٌ على اللهِ، عالمٌ أنَّه لا يُصيبُه إلَّا ما كتَبَ اللهُ له مِن خيرٍ أو شَرٍّ، ولو شاء الله تَخلُّفَ تأثيرِ الأسبابِ عن مُسَبَّباتِها، لتخلَّفَ[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أمَرَها اللهُ تعالى بأن تنذرَ الصَّومَ؛ لئلَّا تَشرعَ مع مَن اتَّهمها في الكلامِ لِمَعنيين:

أحدُهما: أنَّ كلامَ عيسى عليه السَّلامُ أقوى في إزالةِ التُّهمةِ مِن كلامِها، وفيه دَلالةٌ على أنَّ تفويضَ الأمرِ إلى الأفضَلِ أَولى.

والثاني: كراهةُ مُجادلةِ السُّفهاءِ، وفيه أنَّ السُّكوتَ عن السَّفيهِ واجِبٌ، ومِن أذَلِّ النَّاسِ سَفيهٌ لم يجِدْ مُسافِهًا[2].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى حكايةً عن مريمَ: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ تمنَّتْ لو كانت شيئًا لا يُؤْبَهُ له، من شأنِه وحقِّه أنْ يُنْسى في العادةِ، وقد نُسِيَ وطُرِحَ، فوُجِدَ فيه النِّسيانُ الَّذي هو حقُّه؛ وذلك لِما لحِقَها مِن فرطِ الحياءِ والخجلِ مِن النَّاسِ على حُكمِ العادةِ البشريَّةِ، لا كراهةً لحُكمِ اللهِ. أو لشدَّةِ التَّكليفِ عليها إذا بَهَتوها وهي عارفةٌ ببَراءةِ السَّاحةِ، وبضِدِّ ما عِيبَتْ به، مِن اختصاصِ اللهِ إيَّاها بغايةِ الإجلالِ والإكرامِ؛ لأنَّه مقامٌ دَحْضٌ، قلَّما تثبُتُ عليه الأقدامُ: أنْ تعرِفَ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٢٩).

اغتباطَكَ بأمْرٍ عظيمٍ وفضْلٍ باهرٍ، تستحِقُّ به المدحَ وتستوجِبُ التَّعظيمَ، ثمَّ تراهُ عندَ النَّاسِ -لجَهْلِهم به- عيبًا يُعابُ به ويُعنَّفُ بسَببِه، أو لخوفِها على النَّاسِ أنْ يَعْصوا اللهَ بسببِها[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى إخبارًا عن مريمَ عليها السَّلامُ: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ فيه دَليلٌ على جوازِ تمنِّي الموتِ عندَ الفِتنةِ؛ فإنَّها عَرَفَت أنَّها ستُبتلَى وتُمتحَنُ بهذا المولودِ الذي لا يحمِلُ النَّاسُ أمرَها فيه على السَّدادِ، ولا يصَدِّقونها في خبرِها، وبعدما كانت عندَهم عابِدةً ناسِكةً تُصبِحُ عِندَهم -فيما يظُنُّونَ- عاهِرةً زانيةً[٢]، فمريمُ تمنَّت الموتَ مِن جهةِ الدِّينِ؛ إذ خافت أن يُظَنَّ بها الشَّرُّ في دينِها وتُعيَّرَ؛ فيَفتِنَها ذلك، وهذا مباحٌ، وعلى هذا الحَدِّ تمنَّاه جماعةٌ مِن الصالحينَ. ونَهيُ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن تمنِّي الموتِ[٣] إنَّما هو لِضُرٍّ نَزَل بالبَدَنِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ في هذا دليلٌ على مقامِ صبْرِها وصدْقِها في تلقِّي البَلوَى الَّتي ابتلاها اللهُ تعالى؛ فلذلك كانت في مقامِ الصِّدِّيقيَّةِ[٥].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ فيه أصلٌ لِما يقولُه الأطبَّاءُ: إنَّ الرُّطَبَ ينفَعُ النُّفَساءَ[٦]، وقال

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر ما أخرجه البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٥).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٧٣).

عمرُو بنُ مَيمونٍ: (ما من شَيءٍ خَيرٌ للنُّفَساءِ مِن التَّمرِ والرُّطَبِ، ثمَّ تلا هذه الآيةَ الكريمةَ: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾)[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ فأُعْطِيَت رُطبًا دونَ التَّمرِ؛ لأنَّ الرُّطبَ أشهَى للنَّفْسِ؛ إذ هو كالفاكهةِ، وأمَّا التَّمرُ فغِذاءٌ[٢].

٦- إنْ قيل: ما كان حزنُها لفقْدِ الطَّعامِ والشَّرابِ حتَّى تُسلَّى بالسَّريِّ والرُّطبِ؟

فالجوابُ: لم تقَعِ التَّسليةُ بهما مِن حيثُ إنَّهما طعامٌ وشرابٌ، ولكنْ من حيثُ إنَّهما مُعجزتانِ تُريانِ النَّاسَ أنَّها من أهلِ العصمةِ، والبُعدِ من الرِّيبةِ، وأنَّ مِثْلَها ممَّا قَرَفوها به بمَعزلٍ، وأنَّ لها أُمورًا إلهيَّةً خارجةً عن العاداتِ، خارقةً لِما أَلِفُوا واعتادوا، حتَّى يتبيَّنَ لهم أنَّ وِلادَها من غيرِ فحْلٍ ليس ببِدْعٍ مِن شأنِها[٣].

٧- قصةُ مريمَ فيها كرامةٌ مِن عِدَّةِ أوجُهٍ:

الأول: أنَّه فقد قيلَ لها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾ وهي امرأةٌ نُفَساءُ، والمرأةُ النُّفَساءُ عادةً تكونُ ضعيفةً، والهَزُّ بجِذعِ النَّخلةِ لا يتأتَّى، بل إنَّه صَعبٌ؛ فإنَّ الرجُلَ القَويَّ إذا هزَّها مِن أسفَلَ لا تهتَزُّ، لكنَّ مَريمَ قيل لها: هُزِّي بجِذعِ النَّخلةِ، فهَزَّت؛ فاهتَزَّت النَّخلةُ، وهذه كرامةٌ.

الثاني: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴾، والعادةُ أنَّ الرُّطَبَ إذا تساقَطَ مِن فَوقِ النَّخلةِ، فإنَّه يَفسُدُ ويتفضَّخُ[٤]، لكِنَّه في شأنِها بَقِيَ رُطَبًا جَنيًّا، وهذه كرامةٌ!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٧-٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٣).

(٤) فَضْخُ الرُّطَبةِ: شَدْخُها. والفَضخُ: كَسْرُ كلِّ شَيْءٍ. يُنظر: ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٥/ ٤٤).

الثالث: أنَّه ولَمَّا جاءت تحمِلُ الولَدَ فقالوا لها مُعرِّضينَ لها بالزِّنا: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]، ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩] فكلَّمَهم، وهذه كرامةٌ.

فهذه كراماتٌ، وهي في الحقيقةِ تُشبِهُ آياتِ الأنبياءِ، لكِنَّ الفَرقَ بينهما أنَّ آياتِ الأنبياءِ تأتي من النبيِّ، وكرامةَ الأولياءِ تأتي مِن وليٍّ مُتَّبعٍ للنبيِّ(١).

٨- النكرةُ في سياقِ الشَّرطِ تَعُمُّ؛ يُستفاد ذلك مِن قولِه تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ ...﴾(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾

- قولُه: ﴿فَحَمَلَتْهُ ...﴾ الفاءُ للتَّفريعِ والتَّعقيبِ، أي: فحمَلَتْ بالغُلامِ في فورِ تلك المُراجعةِ(٣). وفي الكلامِ إيجازٌ، والتَّقديرُ: فاطمأنَّتْ إلى قولِه، فدنا منها، فنفَخَ في جَيبِ درعِها، فوصَلَتِ النَّفخةُ إلى بطنِها، فحمَلَتْ(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾

- قولُه: ﴿جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ التعريفُ فيه إمَّا أن يكونَ مِن تعريفِ الأسماءِ الغالبةِ؛ كتعريفِ النجمِ، كأنَّ تلك الصحراءَ كان فيها جذعُ نخلةٍ متعارَفٌ عندَ الناسِ،

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٥٤١).
(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٠).

فإذا قيل: «جذع النخلة». فُهِمَ منه ذاك، وإمَّا أن يكونَ تعريفَ الجنسِ[١].

- وجُملةُ: ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ السَّامعَ يتشوَّفُ إلى معرفةِ حالِها عندَ إبَّانِ وضْعِ حمْلِها بعدما كان أمْرُها مُستترًا غيرَ مكشوفٍ بينَ النَّاسِ، وقد آنَ أنْ ينكشِفَ؛ فيُجابُ السَّامعُ بأنَّها تمنَّتِ الموتَ قبْلَ ذلك، فهي في حالةٍ من الحُزنِ ترى أنَّ الموتَ أهونُ عليها من الوُقوعِ فيها[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ على القولِ بأنَّ قائلَ هذا هو عيسى عليه السَّلامُ؛ فهذا إرهاصٌ[٣] لعيسى، وكرامةٌ لأُمِّه عليهما السَّلامُ، وقُيِّدَ بقولِه: ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ لتحقيقِ ذلك، ولإفادةِ أنَّه ناداها عندَ وضْعِه قبْلَ أنْ ترفَعَه؛ مُبادرةً للتَّسليةِ والبشارةِ، وتَصويرًا لتلك الحالةِ الَّتي هي حالةُ تَمامِ اتِّصالِ الصَّبيِّ بأُمِّه[٤].

- قولُه: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ جُملةٌ خبريَّةٌ مُرادٌ بها التَّعليلُ لانتفاءِ الحزْنِ المفهومِ من النَّهيِ عنه في قوله: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾، أي: أنَّ حالتَك حالةٌ جديرةٌ بالمسرَّةِ دونَ الحزنِ؛ لِما فيها من الكرامةِ الإلهيَّةِ[٥]. والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِها؛ لتَشريفِها، وتأكيدِ التَّعليلِ، وتكميلِ التَّسليةِ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٥).
(٣) إرهاصٌ: مُقدِّمةٌ له وإيذانٌ به. يُنظر: ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٤/ ٢٠٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٧)
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٢).

٤- قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾

- الباءُ في قولِه: ﴿بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ صلةٌ للتَّأكيدِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ ...﴾[1] [البقرة: ١٩٥]، أو لإلصاقِ الفعْلِ بمدخولِها، أي: افْعَلي الهزَّ بجذْعِها، أو هُزِّي الثَّمرةَ بهَزِّه[2].

- قولُه: ﴿رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ هو كِنايةٌ عن حَدثانِ سُقوطِه، أي: عن طَراوتِه، ولم يكُنْ من الرُّطبِ المخبوءِ من قبْلُ؛ لأنَّ الرُّطبَ متى كان أقرَبَ عهدًا بنخلتِه كان أطيبَ طعمًا[3].

٥- قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا﴾، جُملةُ ﴿فَكُلِي﴾ وما بعْدَها فذلكةٌ[4] للجُمَلِ الَّتي قبْلَها مِن قولِه: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾، أي: فأنتِ في بحبوحةِ عيشٍ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٤-٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٤-٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٧-٨٨).

(٤) الفَذْلكةُ: كلمةٌ منحوتةٌ كالبَسملةِ والحوقلةِ مِن قولِهم: (فذلك كذا)، أي: ذكرُ مُجمَلِ ما فُصِّل أولًا وخلاصتِه. وقد يُرادُ بالفذلكةِ النتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتفريعُ عليه، ومنها فذلكةُ الحساب، أي: مُجمَل تفاصيله، وإنهاؤه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ بعدَ قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨ - ٦٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٩).

- وقدَّم الأكلَ على الشُّربِ؛ لأنَّ احتياجَ النُّفَساءِ إلى أكلِ الرُّطَبِ أشَدُّ مِن احتياجِها إلى شُربِ الماءِ؛ لِكَثرةِ ما سال منها مِنَ الدِّماءِ[١]. أو لأنَّه لَمَّا كانت العادةُ تقديمَ الأكلِ على الشُّربِ، تقدَّمَ في الآيةِ[٢]، وهذا هو المُطَّرِدُ في القُرآنِ الكريمِ في جَميعِ المواضِعِ.

- قولُه: ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ قُرَّةُ العينِ: كنايةٌ عن السُّرورِ، وهي كنايةٌ ناشئةٌ عن ضدِّها، وهو سُخْنةُ العينِ الَّتي هي أثرُ البكاءِ اللَّازمِ للأسفِ والحزنِ، فلمَّا كُنِّي عن الحزنِ بسُخْنةِ العينِ؛ أتْبَعوا ذلك بأنْ كنَّوْا عن السُّرورِ بضِدِّ هذه الكنايةِ فقالوا: قُرَّةُ عينٍ، وأقرَّ اللَّهُ عينَه، وقُرَّةُ العينِ تشمَلُ هناءَ العيشِ، وتشمَلُ الأُنسَ بالطِّفلِ المولودِ. وفي كونِه قُرَّةَ عينٍ كِنايةٌ عن ضمانِ سَلامتِه، ونَباهةِ شأْنِه[٣].

- قولُه: ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ قيل: إنَّه مُرتَّبٌ على مُقدَّرٍ بينه وبينَ الشَّرطِ، تقديرُه: فإمَّا ترينَّ مِن البشرِ أحدًا، فيسألْكِ الكلامَ، فقولي: إنِّي نذرْتُ... إلخ، وبهذا سقَطَ ما قيلَ مِن أنَّ قولَها: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ كلامٌ بعدَ النَّذرِ؛ إذ هو بهذا التَّقديرِ مِن تَمامِ النَّذرِ لا بعْدَه[٤]. وقيل: المعنى: فانْذِري صومًا، وإنْ لقيتِ من البشرِ أحدًا، فقولي: إنِّي نذرْتُ صومًا، فحُذِفَتْ الجُملةُ للقرينةِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٨٩)، (٢٠/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٣).

- قولُه: ﴿إِنسِيًّا﴾ نِكرةٌ في سياقِ النَّفيِ؛ فيُفيدُ العُمومَ، أي: لنْ أُكلِّمَ أحدًا، وعُدِلَ عن (أحدٍ) إلى ﴿إِنسِيًّا﴾؛ لرعايةِ فاصلةِ الياءِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٤).

الآيات (٢٧-٣٦)

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ
مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى
ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا
كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا
شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ
مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا
فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَرِيًّا﴾: أي: عظيمًا عجيبًا مُنكَرًا، وأصلُ (فري): يدلُّ على قطعِ الشَّيءِ، كأنَّه مِمَّا يخرِقُ العادةَ، أو يُقطَعُ بكونِه عجيبًا نادرًا[(١)].

﴿ٱلْمَهْدِ﴾: المَهدُ: ما يُهيَّأُ للصَّبيِّ، والمَهدُ: الحِجْرُ، وأصلُ (مهد): يدلُّ على التَّوطئةِ للشَّيءِ وتَسهيلِه[(٢)].

﴿يَمْتَرُونَ﴾: أي: يَشُكُّونَ ويختَلِفونَ، والمِريَةُ: التَّردُّدُ في الأمرِ، وهي أخصُّ مِن الشَّكِّ، والامتراءُ والمُماراةُ: المحاجَّةُ فيما فيه مِريةٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٦).

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾

﴿وَبَرًّا﴾: معطوفٌ على ﴿مُبَارَكًا﴾ مَنصوبٌ، أي: جعلني مباركًا وبَرًّا. أو مَنصوبٌ بإضمارِ فعلٍ، أي: وجعلني برًّا. واختِير هذا على الأوَّلِ؛ لأنَّ فيه فَصلًا كثيرًا بجُملةِ (أوصانِي) ومُتعلِّقِها[1].

٢- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾

﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ في نصبِه أوجهٌ، أحدُها: أنَّه مَصدرٌ مؤكِّدٌ لِمَضمونِ الجملةِ، مفعولٌ مُطلَقٌ لِفعلٍ مَحذوفٍ، أي: أقولُ قولَ الحق، وهو مِنْ إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه، أي: القولَ الحَقَّ، كقولِك: هو عبدُ اللهِ حَقًّا، والحَقَّ لا الباطِلَ. وتكونُ جملتُه على هذا التقدير اعتراضًا بين الصِّفةِ والموصوف؛ لأنَّ التقديرَ: ذلك عيسى بنُ مريمَ الذي فيه يمترون. والثاني: أن يكونَ مَنصوبًا على المدح إذا أُريد بـ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ كلمةُ اللهِ. وسُمِّي عيسى قولًا كما سُمِّي كلمةً؛ لأنَّه عنها نشأ. والثالث: أن يكونَ منصوبًا على الحالِ من ﴿عِيسَى﴾. وقُرِئَ ﴿قَوْلُ ٱلْحَقِّ﴾ بالرَّفعِ على أنَّه خبرُ مُبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو قَولُ الحَقِّ. أو خبَرٌ ثانٍ لـ﴿ذَٰلِكَ﴾. وقيل: صفةٌ لعيسى أو بدلٌ منه. وقيل: ﴿عِيسَى﴾ بدلٌ أو عطفُ بيان، و﴿قَوْلُ ٱلْحَقِّ﴾ خَبَرٌ لـ﴿ذَٰلِكَ﴾[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٨٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ١٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٢٩)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٤٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٤٨٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٨٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٥٩٨).

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى ما حدَث عندما جاءَتْ مريمُ بوليدِها إلى قومِها، فيقولُ سبحانه: فأتت مريمُ قَومَها تَحمِلُ مَولودَها، فلمَّا رأَوها كذلك قالوا لها: يا مَريمُ، لقد فَعلتِ مُنكَرًا عَظيمًا! يا أختَ الرَّجُلِ الصَّالحِ هارونَ، ما كان أبوكِ رجُلَ سَوءٍ يرتكِبُ الفواحِشَ، وما كانت أمُّكِ امرأةَ سَوءٍ تأتي الفاحشةَ! فأشارت مَريمُ إلى مَولودِها عيسى ليُكلِّموه، فقالوا مُنكِرينَ عليها: كيف نكَلِّمُ طِفلًا رَضيعًا لا يزالُ في مَهدِه؟! فنطَق عيسى قائلًا: إنِّي عبدُ اللهِ، قضى بإعطائي الإنجيلَ وجَعْلِي نبيًّا، وجعَلَني عظيمَ الخَيراتِ وكثيرَ النفعِ للناسِ حيثُما وُجِدْتُ، وأوصاني بالمُحافَظةِ على الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ ما بَقِيتُ حَيًّا، وجعَلني بارًّا بوالِدتي، ولم يجعَلْني مُتكَبِّرًا، ولا شَقيًّا عاصيًا لرَبِّي، والتحيةُ والسَّلامةُ والأمانُ عليَّ مِن اللهِ يومَ وُلِدتُ، ويومَ أموتُ، ويومَ أُبعَثُ حيًّا يومَ القيامةِ.

ثم يقولُ الله تعالى لرسولِه محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: ذلك هو عيسى بنُ مريمَ، وتلك حقيقتُه، قولَ الحَقِّ الذي شَكَّ فيه اليهودُ والنَّصارى. لا يليقُ بالله تعالى أن يتَّخِذَ مِن عبادِه وخَلْقِه ولَدًا، تنزَّه وتقدَّسَ عن ذلك، إذا قضى أمرًا فإنَّما يقولُ له: «كُنْ»، فيكونُ كما شاءه وأرادَه.

ويخبرُ تعالى أنَّ عيسى عليه السلامُ قال لِقَومِه أيضًا وهو في مهدِه: إنَّ اللهَ ربِّي وربُّكم، فاعبدُوه وَحدَه لا شريكَ له، هذا طريقٌ قَويمٌ لا اعوِجاجَ فيه، مَن سلَكَه اهتَدَى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ٢٧﴾.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾.

أي: فجاءت مَريمُ إلى قَومِها وهي تَحمِلُ عيسى دونَ أن تُخفِيَه، مُطمَئِنَّةً إلى أمرِ اللهِ، غيرَ مُكترِثةٍ بما سيقولُه النَّاسُ عنها[1].

﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾.

أي: فلمَّا رآها قَومُها وهي تَحمِلُ مولودًا، قالوا: يا مريمُ، لقد فَعلتِ مُنكَرًا عَظيمًا[2]!

﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾.

﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾.

أي: يا أُختَ الرجُلِ الصَّالحِ هارونَ[3]، ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٣).

قال الشنقيطي في المرادِ بقولِهم: ﴿فَرِيّٗا﴾: (يَعنونَ به الزِّنا؛ لأنَّ ولَدَ الزِّنا كالشَّيءِ المُفترَى المُختَلَقِ؛ لأنَّ الزانيةَ تدَّعي إلحاقَه بمن ليس أباه، ويدُلُّ على أنَّ مُرادَهم بقولِهم: ﴿فَرِيّٗا﴾ الزِّنا، قَولُه تعالى: ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٦]؛ لأنَّ ذلك البُهتانَ العظيمَ هو ادِّعاؤُهم أنَّها زنَتْ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤١٣).

(٣) قال الواحدي: (﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ قال ابنُ عباس، وقتادة: هارونُ رجلٌ صالحٌ مِن بني إسرائيل، يُنسَبُ إليه مَن عُرِفَ بالصَّلاحِ، والمعنى: يا شبيهتَه في العِفَّةِ، وعلى هذا يدُلُّ حديثُ المغيرةِ بنِ شُعبةَ). ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٨٢). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤١٣).

وقال الشنقيطي: (وإطلاقُ اسمِ الأخِ على النَّظيرِ المُشابهِ مَعروفٌ في القرآنِ، وفي كلامِ العَربِ؛ فمِنه في القرآنِ قَولُه تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨]، وقَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤١٥).

وقال ابن جرير: (والصوابُ مِن القَولِ في ذلك ما جاء به الخبَرُ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذي ذكرناه، وأنَّها نُسِبَت إلى رجلٍ مِن قَومِها). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢٥). =

لم يكُنْ أبوك رجلًا يقارِفُ الفاحِشةَ(١)!

عن المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا قَدِمتُ نَجرانَ سَألوني فقالوا: إنَّكم تقرؤونَ ﴿يَـٰٓأُخۡتَ هَـٰرُونَ﴾، وموسى قبلَ عيسى بكذا وكذا، فلمَّا قَدِمتُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سألتُه عن ذلك، فقال: إنَّهم كانوا يُسَمُّونَ بأنبيائِهم والصَّالحينَ قَبلَهم))(٢).

﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾.

أي: ولم تكُنْ أمُّك -يا مَريمُ- زانيةً فتَتأسَّيْ بها، فكيف قارفتِ ذلك وأنتِ مِن أولئك القَومِ الصَّالحينَ(٣)؟!

= قال الشنقيطي: (وبهذا الحديثِ الصَّحيحِ... تعلَمُ أنَّ قولَ من قال: إنَّ المرادَ هارونُ أخو موسى- باطِلٌ، سواءٌ قيل: إنَّها أختُه، أو: إنَّ المرادَ بأنَّها أختُه أنَّها من ذريَّتِه، كما يقال للرَّجُلِ: يا أخا تميمٍ، والمرادُ: يا أخا بني تميم؛ لأنَّه مِن ذريَّةِ تَميم). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤١٤).
وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ القَولَ باحتمالِ أنَّها مِن ذريَّةِ هارون أخي موسى ليس فيه ما يُنافي حديثَ المغيرةِ بنِ شُعبةَ، وذكَرَ احتِمالًا آخَرَ أن يكونَ لمريمَ أخٌ اسمُه هارون، كان صالحًا في قَومِه. واستظهر هذا الاحتِمالَ السعدي، ونَفَى أن يكونَ المرادُ هارونَ بنَ عمرانَ أخا موسَى؛ لأنَّ بينَهما قُرونًا كثيرةً. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٥، ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٠، ١٠١)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٦٨، ٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٣، ٤١٤).

(٢) رواه مسلم (٢١٣٥).
قال الشوكاني: (وهذا التَّفسيرُ النَّبَويُّ يُغني عن سائرِ ما رُوي عن السَّلفِ في ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢).
قال الرسعني: (ولم أرَ أحدًا مِن أربابِ المعاني تعرَّض لمقصودِهم بذِكرِ الأبوَينِ ونَفيِ الزِّنا =

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾.

أي: فلم تُكلِّمْ مَريمُ قَومَها، وأشارت إلى ابنِها عيسى أنْ كَلِّموه؛ لِيُجيبَهم بدلًا منها[1].

﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

أي: قال قَومُ مَريمَ مُنكِرينَ عليها: كيف نكَلِّمُ رَضيعًا لا يزالُ في فِراشِه، وليس في استطاعتِه الكَلامُ[2]؟!

= عنهما. ويلوحُ لي فيه معنيان:

أحدهما: أن يكونَ مقصودُهم من ذلك التعجُّبَ مِن تلبُّسِها بالفُجورِ -على ظنِّهم- مع طهارةِ أعراقِها، وطِيبِ مَنبتِها...

الثاني: زيادةُ توبيخِها، والمبالغةُ في لَومِها باجتراحِها السيئةَ التي لم تُلْفِ عليها أمًّا ولا أبًا؛ فإنَّ مَن فَعَل فِعلَ أصلِه لم يُلَمْ، ومن أشبَه أباه فما ظَلَم). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٧).

قال ابنُ القيم: (وتأمَّلْ... قوله تعالى: ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ كيف تجدُ معنى الشَّرطية فيه، حتى وقعَ الفِعلُ بعد ﴿مَن﴾ بلَفظِ الماضي والمرادُ به المُستقبَلُ، وأنَّ المعنى: من كان في المهدِ صبيًّا، فكيف نكلِّمُه؟). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٣٦). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤١٥).

وقيل: (كان) زائدةٌ أي: كيف نُكَلِّمُ مَنْ في المهدِ صبيًّا.

وقيل: إنها تامةٌ بمعنى حَدَث ووُجد. والتقديرُ: كيف نكلِّم مَنْ وُجِد صبيًّا؟!

وقيل: إنَّها بمعنى (صار)، أي: كيف نُكَلِّم مَنْ صار في المهد صَبيًّا؟! يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٥٩٤). =

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾.

أي: فنطَقَ عيسَى وهو صبيٌّ في المَهدِ، فقال: إنِّي عبدُ اللهِ؛ فهو الذي يستَحِقُّ العبادةَ وَحْدَه، لا شَريكَ له[1].

﴿ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

أي: قضى اللهُ وقَدَّرَ مِن قبلُ أنَّه سيُؤتيني الإنجيلَ، وسيَجعَلُني نَبيًّا[2].

= وممَّن اختار أنَّ المرادَ بـ﴿الْمَهْدِ﴾: فراشُه ونحو ذلك: الكرماني، وابنُ جزي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((غرائب التفسير وعجائب التأويل)) للكرماني (٢/ ٦٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٧).

قال ابنُ جريرٍ: (المهدُ: ... يعني به مضجِعَ الصبيِّ في رضاعِه). ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٢).

وقيل: المرادُ به: حجرُ أمِّه. وممَّن اختار ذلك: السمرقندي، وابنُ أبي زمنين، والثعلبي، والواحدي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٥٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٢١٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٨٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢٤٩).

وقيل: المعنَى: كيفَ نكلِّمُ مَن سبيلُه أن ينوَّمَ في المهدِ لصغرِه؟! يُنظر ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٢٩)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٦).

قال الشنقيطي: (وقولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، التَّحقيقُ فيه إنْ شاءَ اللَّهُ: أنَّه عَبَّر بالماضي عمَّا سيَقَعُ في المستقبلِ؛ تنزيلًا لتحقُّقِ الوقوعِ منزلةَ الوقوعِ، ونظائِرُه في القرآنِ كثيرةٌ، كقولِه تعالَى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقولِه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ اللَّهُ ...﴾ إلى قولِه: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا﴾ [الزمر: ٦٨ - ٧١]، وقولِه تعالَى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] ... =

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال عيسى عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فأخبَرَهم بأنَّه عبدُ الله، وأنَّ اللهَ عَلَّمَه الكتابَ، وجَعَله من جملةِ أنبيائِه، فهذا مِن كَمالِه لنَفسِه؛ ذكَرَ بَعدَه تكميلَه لِغَيرِه، فقال[١]:

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾.

أي: وجعَلَني ذا برَكاتٍ، كثيرَ الخَيراتِ، ومِن ذلك أن أكونَ نفَّاعًا للخَلقِ، مُعَلِّمًا للخيرِ في أيِّ مكانٍ وزَمانٍ أكونُ فيه[٢].

= وهذا الَّذي ذكَرْنا مِن أنَّ الأفعالَ الماضيةَ في قولِه تعالَى: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ ...﴾ إلخ، بمعنَى المستقبلِ هو الصَّوابُ إن شاءَ اللَّهُ، خلافًا لمَن زَعَم أنَّه نُبِّئَ وأُوتيَ الكتابَ في حالِ صِباهُ لظاهِرِ اللَّفظِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٠، ٥٣١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٣)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٦).

قال مجاهدٌ، وعمرُو بنُ قيسٍ، والثوريُّ في معنى ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾: أي: جعَلَني مُعلِّمًا للخيرِ. وفي روايةٍ عن مجاهدٍ: نفَّاعًا. وقال عطاءٌ: أدعو إلى اللهِ وإلى توحيدِه وعبادتِه. وقيل: مُباركًا على مَن تَبِعَني. وقيل: وجعلني آمُرُ بالمعروفِ، وأنهى عن المنكَرِ، وأرشُدُ الضالَّ، وأنصُرُ المظلومَ، وأُغيثُ الملهوفَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٩).

قال ابنُ جزي: (واللفظُ أعمُّ مِن ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٠).

وقال ابن القيم: (قال المسيحُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ قال غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ: مُعلِّمًا للخيرِ أينَما كنتُ، وهذا جزءُ المسمَّى؛ فالمبارَكُ كثيرُ الخيرِ في نَفسِه، الذي يحصِّلُه =

﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

أي: وأوصاني اللهُ أن أحافِظَ على الصَّلاةِ والزَّكاةِ في مُدَّةِ حياتي(١).

= لغيرِه: تعليمًا وإقدارًا، ونُصحًا وإرادةً واجتهادًا؛ ولهذا يكونُ العبدُ مُباركًا لأنَّ الله بارَك فيه وجعَله كذلك). ((جلاء الأفهام)) (ص: ١٦٨).

وقال ابنُ عاشور: (ذلك أنَّ الله أرسَلَه برَحمةٍ لبني إسرائيل؛ لِيُحِلَّ لهم بعضَ الذي حُرِّمَ عليهم، ولِيَدعوَهم إلى مكارمِ الأخلاق بعدَ أن قَسَت قلوبُهم وغَيَّروا مِن دينِهم، فهذه أعظَمُ بَرَكةٍ تُقارِنُه، ومِن بركتِه أن جعَل اللهُ حُلولَه في المكانِ سَببًا لخيرِ أهلِ تلك البُقعةِ؛ مِن خِصبِها، واهتداءِ أهلِها، وتوفيقِهم إلى الخير). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٢٨)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٣٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٠)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٤٤).

قال ابنُ جرير: (وفي الزَّكاة معنيان: أحدُهما: زكاةُ الأموال أن يُؤدِّيَها. والآخَرُ: تطهيرُ الجسَدِ مِن دَنَسِ الذُّنوبِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣١).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بالزكاةِ هنا: زكاةُ المالِ: السمرقندي، والقرطبي، والبقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بها: التطهيرُ مِن الذُّنوبِ: الزجَّاج، والنحاس، والواحدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٢٨)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٣٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٠).

قال ابن جرير: (قولُه: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يقولُ: ما كنتُ حيًّا في الدنيا موجودًا، وهذا يُبِينُ عن أنَّ معنى الزكاةِ في هذا الموضِع: تطهيرُ البدَنِ مِن الذنوبِ؛ لأنَّ الذي يُوصَفُ به عيسى صلواتُ الله وسلامُه عليه أنَّه كان لا يدَّخِرُ شَيئًا لغدٍ؛ فتَجِبَ عليه زكاةُ المالِ، إلَّا أن تكونَ الزكاةُ التي كانت فُرِضَت عليه الصَّدَقةَ بكُلِّ ما فَضَل عن قُوتِه، فيكونَ ذلك وجهًا صحيحًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣١).

وقال القرطبي: (رُوِيَ أنَّ عيسى عليه السَّلامُ إنَّما تكلَّمَ في طفولتِه بهذه الآية، ثم عاد إلى حالةِ الأطفالِ، حتى مشى على عادةِ البَشَرِ إلى أن بلغ مبلغَ الصِّبيانِ، فكان نطقُه لإظهارِ براءةِ أمِّه =

كما قال تعالى لنبيِّه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢﴾.

﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾.

أي: وجعَلَني اللهُ بارًّا بوالِدتي مريمَ، مُطيعًا لها، محسنًا إليها غايةَ الإحسانِ[1].

﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا﴾.

أي: ولم يجعَلْني اللهُ مُستكبرًا عن عبادتِه وبِرِّ أمِّي، ولا غليظًا في مُعاملةِ النَّاسِ مُتَرَفِّعًا عليهم، بل جعَلَني خاضِعًا خاشِعًا مُتذَلِّلًا له، متواضِعًا لعبادِه، سَعيدًا في الدُّنيا والآخرةِ[2].

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ﴾.

أي: والتحيَّةُ مِنَ اللهِ عليَّ، والسَّلامةُ والأمانُ لي يومَ وُلِدتُ، ومِن ذلك السلامةُ مِن طَعنِ الشَّيطانِ عندَ الولادةِ[3].

= لا أنَّه كان ممَّن يَعقِلُ في تلك الحالة، وهو كما يُنطِقُ اللهُ تعالى الجوارحَ يوم القيامة. ولم يُنقَلْ أنَّه دام نُطقُه، ولا أنَّه كان يصلِّي وهو ابنُ يومٍ أو شهرٍ، ولو كان يدوم نُطقُه وتسبيحُه ووَعظُه وصلاتُه في صِغرِه مِن وَقتِ الوِلادِ، لكان مثلُه ممَّا لا ينكَتِمُ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير البغوي)) =

عن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((ما مِن بَني آدمَ مَولودٌ إلَّا يَمَسُّه الشَّيطانُ حين يُولَدُ، فيَستَهِلُّ[١] صارِخًا مِن مَسِّ الشَّيطانِ، غيرَ مَريمَ وابنِها))، ثمَّ يقولُ أبو هريرةَ: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]))[٢].

وفي روايةٍ: ((كُلُّ بني آدمَ يَطْعُنُ الشَّيطانُ فِي جنبَيْه بإِصبعِه حينَ يُولَدُ غيرَ عيسى بنِ مريمَ؛ ذَهَب يَطْعُنُ فطَعَنَ في الحجابِ[٣]))[٤].

﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾.

أي: وتحيةٌ مِن اللهِ يومَ أموتُ وسَلامةٌ وأمانٌ لي مِن كُلِّ سُوءٍ؛ ككُرَبِ

= (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢).

نسب ابن الجوزي إلى المفسرين أن المعنى: السلامة عليَّ من الله يوم وُلدتُ حتى لم يضرَّني شيطان. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩٢).

وقال السمعاني: (قوله تعالَى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ معناهُ: التَّحيَّة وَالحفظُ مِن الله لي يَوْمَ ولدتُ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٩١).

وَذكر الشنقيطي القولين (أي أنَّ معنَى السلامِ: التحيةُ، والثاني أنَّ معناه الأمانُ) في قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ وأنَّ مرجِعَهما إلى شيءٍ واحدٍ؛ لأنَّ معنَى سلامِ التَّحِيَّة: الأمانُ، والسَّلامةُ ممَّا يكرهُ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٨١).

(١) استهَلَّ الصَّبيُّ: صاح عند الولادةِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٢٧).

(٢) رواه البخاري (٣٤٣١) واللفظ له، ومسلم (٢٣٦٦).

(٣) الحجابِ: أي: المشيمةِ التي فيها الولدُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٧٠).

قال الحافظ ابن حجر: (قال القرطبي: هذا الطعنُ مِن الشيطانِ هو ابتداءُ التسليطِ، فحفِظ الله مريمَ وابنَها منه ببركةِ دعوةِ أمِّها؛ حيثُ قالت: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] ولم يكُنْ لمريمَ ذريةٌ غير عيسى). ((المصدر السابق)).

(٤) رواه البخاري (٣٢٨٦).

الموتِ، وسُوءِ الخاتمةِ، وعذابِ القَبرِ وفِتنَتِه[١].

﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

أي: وتحيةٌ مِنَ اللهِ وسَلامةٌ وأمانٌ لي يومَ القيامةِ حينَ يَبعَثُني حيًّا فيُؤَمِّنُني مِن الفزَعِ والأهوالِ، وعذابِ النَّارِ[٢].

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: ذلك العَظيمُ القَدرِ، العالي المَنزِلة الذي أخبَرتُكم بشأنِه هو عيسى بنُ مَريمَ، فهذه صِفتُه، وتلك حقيقةُ نَشأتِه، قَولَ الحَقِّ، الذي فيه يختلفُ النَّاسُ ويشُكُّون، فكذلك فاعتَقِدوا، لا كما يظنُّ اليهودُ أنَّه ابنُ زِنا، ولا كما يظُنُّ النَّصارى أنَّه اللهُ أو ابنُ اللهِ أو ثالثُ ثلاثةٍ[٣]!!

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٤، ١٠٥)، ((تفسير الإيجي)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٤-٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٥-١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٩٥-١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠١، ١٠٢).

قال الشنقيطي: (اعلمْ أنَّ لَفظةَ ﴿ٱلْحَقِّ﴾ في قَولِه هنا: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ فيها للعلماء وجهان:

الأول: أنَّ المرادَ بالحَقِّ ضِدُّ الباطِلِ، بمعنى الصِّدقِ والثُّبوتِ، كقَولِه: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦].

الوجه الثاني: أنَّ المرادَ بالحَقِّ في الآيةِ: اللهُ جلَّ وعلا؛ لأنَّ مِن أسمائِه «الحَقَّ»، كقَولِه: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦]). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤١٧-٤١٨). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالَى أنَّه خَلَقه عبدًا نَبيًّا، نَزَّه نفسَه المُقدَّسةَ، فقالَ(١):

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾.

أي: ما ينبغي لله أن يَجعلَ له ولَدًا، تنزَّه اللهُ عن الوَلَدِ والنَّقصِ، وعن كلِّ ما لا يليقُ بكَمالِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال سُبحانه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢].

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

أي: إذا أراد اللهُ إحداثَ شَيءٍ فإنَّما يقولُ له: كُنْ، فيَصيرُ مَوجودًا كما يشاءُ بلا كُلفةٍ ولا مَشقَّةٍ، كما خلقَ عيسى بنَ مَريمَ بكَلِمةِ (كُنْ)، فصار مخلوقًا بدونِ أبٍ(٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٣/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٩).

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾.

أي: قال عيسى لِقَومِه وهو في مَهدِه: ولأنَّ اللهَ رَبِّي ورَبُّكم فاعبُدوه وَحدَه لا شريكَ له[(١)].

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

أي: هذا الذي جئتُكم به مِن عندِ اللهِ هو طريقٌ قويمٌ، لا اعوِجاجَ فيه، فمَن سلَكَه اهتدَى، ومَن خالفَه ضلَّ وغوَى[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ إذا زنى؛ فقد يُبْتَلَى نسْلُه بالزِّنا، والعياذُ بالله[(٣)].

٢- قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّ الفواحشَ من أولادِ الصَّالحينَ أفحَشُ[(٤)].

٣- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ تنبيهٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٣).

على أَثَرةِ المرأةِ ذاتِ الأصلِ الطاهرِ، والمنبتِ الطيبِ، واجتنابِ ذواتِ المنابتِ الخبيثةِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ إن قيل: (أَتَتْ بِهِ) يُغني عن ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ فما فائدةُ التَّكريرِ؟

فالجوابُ: أنَّه لَمَّا ظَهَرت منه آياتٌ، جاز أن يتوهَّمَ السَّامِعُ من ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ﴾ أن يكونَ ساعيًا على قَدَميه، فيكونَ سَعيُه آيةً كنُطقِه، فقطع ذلك التوهُّمَ، وأعلَمَ أنَّه كسائرِ الأطفالِ، وهذا مِثلُ قَولِ العَرَبِ: نظَرْتُ إلى فُلانٍ بعَيني، فنَفَوا بذلك نظَرَ العَطفِ والرَّحمةِ، وأثبَتوا أنَّه نظَرُ عَينٍ[٢].

٢- جُملةُ: ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ حالٌ من تاءِ ﴿فَأَتَتْ﴾، وهذه الحالُ للدَّلالةِ على أنَّها أتَتْ مُعلِنةً به غيرَ ساترةٍ؛ لأنَّها قد علِمَتْ أنَّ اللهَ سيُبرِّئُها ممَّا يُتَّهمُ به مِثْلُ مَن جاء في حالتِها[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۞ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ دلالةٌ على أنَّ الإشارةَ وإنْ قامتْ في الإفهامِ مَقامَ الكلامِ فليستْ بكَلامٍ؛ لأنَّ مَريمَ كانت نَذَرتْ ألَّا تُكَلِّمَ أحدًا، فلم تُخرِجْها الإشارةُ إلى ابنِها عيسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن النَّذر، ولا عَدَّتْ كلامَها مما يُخرِجُها منه[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ إنَّما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٢٣٨).

أشارَتْ إليه؛ لِما تقدَّم لها مِن وعدِه أنَّه يجيبُهم عنها، ويُغنيها عن الكلامِ، وقيل: بوحيٍ مِن الله إليها[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأُخۡتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ الذُّريَّةُ -في الغالِبِ- بَعضُها مِن بعضٍ، في الصَّلاحِ وضِدِّه[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ ردٌّ على الغُلاةِ في المَسيحِ، وعلى الجُفاةِ النَّافينَ عنه ما أنعَمَ اللهُ به عليه[٣].

٧- قال الله تعالى حِكايةً عن عيسى حينَ تكلَّمَ في المهدِ صَبيًّا: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ أنطقَه اللهُ تعالى به أوَّلًا؛ لأنَّه أوَّلُ المقاماتِ، وللرَّدِّ على مَن يَزعُمُ رُبوبيَّتَه[٤]، ففي ذلك أعظمُ زجرٍ للنَّصارَى عن دعواهم أنَّه الله أو ابنُه أو إلهٌ معه[٥]. قال مُقاتِلٌ: (أقَرَّ على نفسِه بالعُبوديَّةِ لله عزَّ وجَلَّ أوَّلَ ما تكَلَّمَ؛ لِئَلَّا يُتَّخَذَ إلهًا)[٦].

٨- قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ كلامُ عيسى هذا مِمَّا أهمَلَتْه أناجيلُ النَّصارى؛ لأنَّهم طَوَوا خبَرَ وُصولِها إلى أهلِها بعد وَضعِها، وهو طَيٌّ يُتعَجَّبُ منه، ويدُلُّ على أنَّها كُتِبَت في أحوالٍ غيرِ مَضبوطةٍ، فأطلَعَ اللهُ تعالى عليه نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٧].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٩٢).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٣٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠).
(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٦).
(٦) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٣٢).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٨).

٩- قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ هذه الكَلِمةُ التي نَطقَ بها عيسى في أوَّلِ خِطابِه لهم، ذكرها اللهُ جَلَّ وعلا عنه في مواضِعَ أُخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١]، وقَولِه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦٣-٦٤]، وقال هنا: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦]، وقَولِه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ(١).

١٠- قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ مع أنَّ الذي اشتَدَّت الحاجةُ إليه في ذلك الوَقتِ إنَّما هو نفيُ تُهمةِ الزِّنا عن مَريمَ عليها السَّلامُ، إلَّا أنَّ عيسى عليه السلامُ لم يَنُصَّ على ذلك، وإنَّما نَصَّ على إثباتِ عُبوديَّةِ نَفسِه، كأنَّه جَعَل إزالةَ التُّهمةِ عن اللهِ تعالى أَولى من إزالةِ التُّهمةِ عن الأمِّ؛ فلهذا أوَّلَ ما تكَلَّمَ إنَّما تكَلَّمَ بها(٢).

١١- قولُه تعالى: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا...﴾: فيه تنبيهٌ على بَراءةِ أُمِّه ممَّا اتُّهِمَتْ به؛ لأنَّه تعالى لا يخُصُّ بولدٍ موصوفٍ بالنُّبوَّةِ والخلالِ الحميدةِ إلَّا مُبرَّأةً مُصطفاةً(٣).

١٢- قال المسيحُ عليه السَّلامُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، فبَرَكاتُ أولياءِ الله الصَّالحينَ باعتبارِ نَفعِهم للخَلقِ بدُعائِهم إلى طاعةِ اللهِ، وبدُعائِهم

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٣١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٨).

للخَلقِ، وبما يُنزِلُ اللهُ مِن الرَّحمةِ ويَدفَعُ من العذابِ بسَبَبِهم- حقٌّ موجودٌ[(١)].

١٣- في قولِ الله تعالى: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ إنْ قلْتَ: كيف أُمِرَ بذلك مع أنَّه كان طِفلًا، وخِطابُ التَّكليفِ إنَّما يكونُ بعدَ البُلوغِ والتَّمييزِ؟

فالجوابُ: أنَّ ذلك لا يدُلُّ على أنَّه أوصاهُ بأداءِ ذلك في الحالِ، بل أوصاهُ في الحالِ بالأداءِ بعدَ البُلوغِ والتَّمييزِ. وقيل: إنَّ اللهَ صَيَّره عقِبَ وِلادتِه بالغًا مُميِّزًا؛ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فكما أنَّه تعالى خلَقَ آدمَ تامًّا كاملًا دَفعةً، فكذا القولُ في عيسى عليهما السَّلامُ، وهو أقرَبُ إلى ظاهرِ قولِه: ﴿مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾، فما أوصاهُ بذلك إلَّا بعدَ بُلوغِه وتَمييزِه.

فإنْ قلْتَ: الزَّكاةُ إنَّما تجِبُ على الأغنياءِ، وعيسى لم يزَلْ فقيرًا، لابِسًا كِساءً مُدَّةَ مُكثِه في الأرضِ، مع علْمِه تعالى بحالِه؛ فكيف أوصاهُ بها؟!

فالجواب: المُرادُ بالزَّكاةِ هنا: تزكيةُ النَّفسِ وتطهيرُها من المعاصي، لا زكاةُ المالِ[(٢)]. وقيل: بلْ على حقيقتِها، وهذا أمْرٌ خاصٌّ به، وقرينةُ الخُصوصِ قولُه: ﴿مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾؛ لدلالتِه على استغراقِ مُدَّةِ حياتِه بإيقاعِ الصَّلاةِ والصَّدقةِ، أي: أنْ يُصلِّيَ ويتصدَّقَ في أوقاتِ التَّمكُّنِ من ذلك؛ فالاستغراقُ المُستفادُ من قولِه: ﴿مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ استغراقٌ عُرفيٌّ مُرادٌ به الكثرةُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٥٤-٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٠).

١٤- عن عبدِ اللهِ بنِ واقدٍ أبي رجاء، عن بعضِ أهلِ العِلمِ، قال: (لا تجِدُ عاقًّا إلَّا وجَدْتَه جبَّارًا شقيًّا، ثمَّ قرأ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾)(١).

١٥- قال اللهُ تعالى عن المسيحِ عليه السَّلامُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ فبيَّنَ أنَّ اللهَ هو الذي جعله برًّا بوالِدتِه، ولم يَجعَلْه جبَّارًا شَقيًّا، وهذا صريحُ قولِ أهلِ السُّنةِ في أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خالقُ أفعالِ العِبادِ(٢).

١٦- قوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ قد خَصَّه اللهُ تعالى بذلك بينَ قومِه، قيل: لأنَّ برَّ الوالدينِ كان ضعيفًا في بني إسرائيلَ يومئذٍ، وبخاصَّةٍ الوالدة؛ لأنَّها تُستضعَفُ؛ لأنَّ فرطَ حنانِها وشفقَتِها قد يُجرِّئانِ الولَدَ على التَّساهُلِ في البِرِّ بها(٣).

١٧- قولُه تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ إشارةٌ إلى تنزيهِ أُمِّه عن الزِّنا؛ إذْ لو كانت زانيةً لَمَا كانَ الرَّسولُ المعصومُ مأمورًا بتعظيمِها(٤).

١٨- قولُه تعالى حكايةً عن عيسى عليه السلامُ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ...﴾ احتجَّ مالِكٌ -رحمه الله- بهذه الآيةِ على القَدَريَّةِ، فقال: (ما أشَدَّها على أهلِ القَدَرِ! أخبَرَ عيسى عليه السَّلامُ بما قُضِيَ مِن أمْرِه، وبما هو كائِنٌ إلى أن يموتَ)(٥).

١٩- قال تعالى حكايةً عن عيسى عليه السلامُ: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٣).
(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ١١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٣٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤١٧).

أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أعظَمُ أحوالِ الإنسانِ احتياجًا إلى السَّلامةِ هي هذه الأحوالُ الثَّلاثةُ، وهي يومُ الوِلادةِ، ويومُ الموتِ، ويَومُ البَعثِ؛ فجَميعُ الأحوالِ التي يُحتاجُ فيها إلى السَّلامةِ واجتِماعِ السَّعادةِ مِن قِبَلِه تعالى طَلَبَها؛ لِيَكونَ مَصونًا عن الآفاتِ والمخافاتِ في كلِّ الأحوالِ(١).

٢٠- القضاءُ في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ هو القضاءُ الكونيُّ، ويقابلُه القضاءُ الدينيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] أي: أمَرَ(٢).

٢١- قَولُه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فيه إثباتُ القَولِ لله(٣).

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ قولَ اللهِ يكونُ بصَوتٍ مَسموعٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، و﴿لَهُۥ﴾ صريحةٌ في توجيهِ القَولِ للمَقولِ له، ولولا أنه يَسمَعُه لَمَا صار في توجيهِه له فائدةٌ؛ ولهذا يَسمَعُه المُوَجَّهُ إليه الأمرُ، فيَمتثِلُ ويكونُ(٤).

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ قَولَ اللهِ يكونُ بحروفٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿كُن﴾، وهي كلمةٌ بحرفينِ، فإن قال قائل: كيف يمكِنُ أن نتصَوَّرَ هذا ونحن نقولُ: ليس كمِثْلِه شَيءٌ، وأنتم تقولون: إنَّه بحروفٍ؟

فالجوابُ: نعم، الحروفُ هي الحروفُ، لكِنَّ كيفيَّةَ الكلامِ وحقيقةَ النُّطقِ بها

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أو القَولِ، لا يُماثِلُ نُطقَ المَخلوقِ وقَولَه، ومِن هنا نَعرِفُ أنَّنا لا نكونُ مُمَثِّلةً إذا قلنا: إنَّه بحرفٍ وصَوتٍ مَسموعٍ؛ لأننا نقول: صَوتٌ ليس كأصواتِ المخلوقينَ، بل هو حَسَبَ ما يليقُ بعَظَمتِه وجلالِه[١].

٢٤- في قولِه تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ دَلالةٌ على أنَّه ليس بينَ أمْرِ اللهِ بالتَّكوينِ وتكوُّنِه تراخٍ، بل يكونُ على الفوريَّةِ؛ وذلك لقَولِه تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾ بالفاءِ، والفاءُ تدلُّ على الترتيبِ والتَّعقيبِ[٢].

٢٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ يدُلُّ على أنَّ مُدبِّرَ النَّاسِ ومُصلِحَ أمورِهم هو اللهُ تعالى، على خِلافِ قَولِ المنَجِّمينَ: إنَّ مُدَبِّرَ النَّاسِ ومُصلِحَ أمورِهم في السَّعادةِ والشَّقاوةِ هي الكواكِبُ[٣]!

٢٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ فيه الإقرارُ بتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ وتوحيدِ الإلهيَّةِ، والاستِدلالُ بالأوَّلِ على الثَّاني[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا﴾ دلَّتِ الفاءُ في ﴿فَأَتَتۡ﴾ على أنَّ مريمَ جاءت أهْلَها عقِبَ انتهاءِ الكلامِ الَّذي كلَّمَها ابنُها[٥].

- قولُه: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ﴾ الجُملةُ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا. وقال قومُها هذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٤).

المقالةَ توبيخًا لها[١]، وفي الكلامِ إيجازٌ بالحذفِ؛ أي: فلمَّا رأَوْها وابنَها قالوا: ...[٢].

- قولُه: ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾، أي: فعَلْتِ شيئًا عظيمًا بديعًا مُنكَرًا، من: فرَى الجلدَ، أي: قطَعَه، أو جئتِ مجيئًا عجيبًا؛ عُبِّرَ عنه بالشَّيءِ؛ تحقيقًا للاستغرابِ[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ استئنافٌ لتجديدِ التَّعييرِ، وتأكيدِ التَّوبيخِ[٤].

- وجُملةُ: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ تقريرٌ لأنَّ ما جاءت به فَرِيٌّ[٥].

- قولُهم: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ لمَّا اتَّهموها بما اتَّهموها، نَفَوا عن أبوَيْها السُّوءَ لمُناسَبةِ الولادةِ، ولم يَنُصُّوا على إثباتِ الصَّلاحِ -وإنْ كان نفيُ السُّوءِ يُوجِبُ الصَّلاحَ، ونفْيُ البغاءِ يُوجِبُ العِفَّةَ-؛ لأنَّهما بالنِّسبةِ إليهما نقيضانِ[٦]، وقَصَدوا بهذا الكلامِ الكنايةَ عن كونِها أتتْ بأمْرٍ ليس من شأْنِ أهْلِها، أي: أتَتْ بسُوءٍ ليس من شأْنِ أبيها، وبِغاءٍ ليس من شأْنِ أُمِّها، وخالَفَتْ سيرةَ أبوَيْها؛ فكانت امرأةَ سَوءٍ، وكانت بَغيًّا، وما كان أبوها امرأَ سَوءٍ، ولا كانت أُمُّها بغيًّا؛ فكانت مُبتكِرةً الفواحشَ في أهْلِها، وهم أرادوا ذَمَّها؛ فأتَوا بكلامٍ صريحُه ثناءٌ على أبويها مُقتضٍ أنَّ شأْنَها أنْ تكونَ مثْلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٧).

أبويْها[١].

٣- قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾

- قولُه: ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ لَمَّا كانت إشارتُها بمنزلةِ مُراجعةِ كلامٍ، حكَى حِوارَهم الواقعَ عقِبَ الإشارةِ بجُملةِ القولِ مفصولةً غيرَ معطوفةٍ[٢].

- قولُه: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ الفعلُ ﴿كَانَ﴾ لإيقاعِ مضمونِ الجُملةِ في زمانٍ ماضٍ مُبهَمٍ يصلُحُ لقريبِه وبَعيدِه، وهو هاهنا لقريبِه خاصَّةً، والدَّالُّ عليه مَبْنى الكلامِ، وأنَّه مسوقٌ للتَّعجُّبِ؛ فعلى هذا يكونُ: ﴿نُكَلِّمُ﴾ للحالِ الحاضرةِ[٣]. أو يكونُ ﴿نُكَلِّمُ﴾ حكايةَ حالٍ ماضيةٍ، أي: كيفَ عُهِد قبلَ عيسَى أن يكلِّمَ النَّاسُ صبيًّا في المهدِ فيما سلَف مِن الزمانِ حتَّى نكلِّمَ هذا[٤]؟!

- قولُه: ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ إنكارٌ وتهكُّمٌ بها، أي: إنَّ مَن كان في المهدِ يُربَّى لا يُكلَّمُ[٥]؛ فالاستفهامُ للإنكارِ؛ أنكَروا أنْ يُكلِّموا مَن ليس من شأْنِه أنْ يتكلَّمَ، وأنكَروا أنْ تُحيلَهم على مُكالمتِه، أي: كيف نترقَّبُ منه الجوابَ، أو كيف نُلْقي عليه السُّؤالَ؛ لأنَّ الحالتينِ تَقتضيانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٧).

التَّكلُّمَ[١]؟!

- وزيادةُ فعْلِ الكونِ في ﴿مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ المظروفيَّةِ في المهدِ مِن هذا الَّذي أُحيلوا على مُكالمتِه، وذلك مُبالغةٌ منهم في الإنكارِ، وتعجُّبٌ من استخفافِها بهم، ففعْلُ (كان) زائدٌ للتَّوكيدِ؛ ولذلك جاء بصِيغةِ الماضي؛ لأنَّ (كان) الزَّائدةَ تكونُ بصِيغَةِ الماضي غالبًا[٢]، وهذا على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ.

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ من سياقِ النَّظمِ الكريمِ؛ كأنَّه قيل: فماذا كان بعدَ ذلك؟ فقيل: قال عيسى عليه السَّلامُ...[٣].

- والتَّعبيرُ في ﴿ءَاتَىٰنِيَ﴾ ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ بصِيغَةِ الماضي؛ إمَّا باعتبارِ ما سبَقَ في القضاءِ المحتومِ، أو بجعْلِ المُحقَّقِ وُقوعُه لا مَحالةَ واقعًا[٤].

٥- قوله تعالى عن عيسى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيًّا﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ كونُه مُبارَكًا أعمُّ من كونِه نبيًّا عُمومًا وجْهيًّا[٥]؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٨).

(٥) أي: أنَّ كُلَّ كَلِمةٍ منهما أعمُّ مِن الأخرى مِن وَجهٍ، وأخَصُّ مِن آخَرَ؛ مثالُ ذلك: إنسانٌ، وأبيضُ، كُلُّ واحدٍ منهما أعَمُّ مِن الآخَرِ مِن وَجهٍ؛ فكَلِمةُ (إنسان) تعُمُّ الأبيضَ وغيرَ الأبيضِ، وكَلِمةُ =

فلم يكُنْ في قولِه: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ غُنْيةٌ عن قولِه: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾[(١)].

- قولُه: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ شرطٌ، وجزاؤُه محذوفٌ تقديرُه: جعَلني مُبارَكًا، وحُذِفَ؛ لدلالةِ ما تقدَّمَ عليه[(٢)].

- والتَّعميمُ الَّذي في قولِه: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ تعميمٌ للأمكنةِ، فهو حيثُما حَلَّ تحُلُّ معه البركةُ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ﴾ فيه استعمالُ صِيغَةِ الماضِي في (أوصاني)، باعتبارِ ما سبَقَ في القدَرِ المحتومِ، أي: قدَّرَ وصيَّتي بالصَّلاةِ والزَّكاةِ[(٤)].

٦- قوله تعالى عن عيسى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾

- في قولِه: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ التَّعريفُ في (السَّلام) قيل: إنَّه للعهْدِ الذِّكري، والمعنى: ذلك السَّلامُ المُوجَّهُ إلى يحيى في المواطنِ الثَّلاثةِ مُوجَّهٌ إليَّ. وقيل: اللَّامُ للجنسِ والتَّعريضِ باللَّعنِ على أعدائِه، فإذا قال: جنْسُ السَّلامِ عليَّ خاصَّةً؛ فقد عرَّضَ بأنَّ ضِدَّه عليكم، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧]، يعني:

= (أبيض) تُطلَقُ على الإنسانِ وغيرِ الإنسانِ؛ فالأبيضُ إذَن أعَمُّ مِن الإنسانِ مِن وجهٍ؛ لأنَّها تُطلَقُ عليه وعلى غيره، والإنسانُ أعَمُّ من البَياضِ مِن وَجهٍ؛ لأنَّها تُطلَقُ على الأبيَضِ وغَيرِه. يُنظر: ((شرح مختصر التحرير)) لابن عثيمين (ص: ٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ العذابَ على مَن كذَّبَ وتولَّى، وكان المقامُ مَقامَ مُناكرةٍ وعِنادٍ، فهو مَئِنَّةٌ لنحوِ هذا من التَّعريضِ(١). وقيل: جيءَ بالسَّلامِ هنا مُعرَّفًا باللَّامِ الدَّالَّةِ على الجنسِ؛ مُبالغةً في تعلُّقِ السَّلامِ به، حتَّى كأنَّ جنْسَ السَّلامِ بأجمَعِه عليه، وهذا مُؤذِنٌ بتفضيلِه على يحيى؛ إذ قيل في شأنِه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ﴾. ويجوزُ جعْلُ اللَّامِ للعهدِ، أي: سلامٌ إليه، وهو كنايةٌ عن تكريمِ اللهِ عبْدَه بالثَّناءِ عليه في الملأِ الأعلى وبالأمْرِ بكَرامتِه، ومُؤذِنٌ أيضًا بتمهيدِ التَّعريضِ باليهودِ؛ إذ طَعَنوا فيه وشَتَموه في الأحوالِ الثَّلاثةِ، فقالوا: وُلِدَ مِن زِنًا، وقالوا: مات مَصلوبًا، وقالوا: يُحشَرُ مع الملاحدةِ والكفرةِ؛ لأنَّهم يَزعمون أنَّه كفَرَ بأحكامٍ من التَّوراةِ(٢)!

٧- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ...﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قبْلَه(٣)، أي: الَّذي تقدَّمَ نعْتُه هو عيسَى بنُ مريمَ لا ما يصِفُه النَّصارى، وهو تكذيبٌ لهم فيما يصِفونَه على الوجْهِ الأبلغِ والطَّريقِ البُرهانيِّ؛ حيث جعَلَه موصوفًا بأضدادِ ما يصِفونَه، ثمَّ عكَسَ الحُكمَ(٤)؛ فهو اعتراضٌ بين الجُملِ المقولةِ في قولِه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] مع قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ [مريم: ٣٦]، أي: ذلك المذكورُ هو عيسى بنُ مريمَ لا كما تزعُمُ النَّصارى واليهودُ. والإشارةُ لتمييزِ المذكورِ أكمَلَ تَمييزٍ؛ تعريضًا بالرَّدِّ على اليهودِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٠-١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٤).

والنَّصارى جميعًا؛ لأنَّهم لمَّا وصَفوه بغيرِ ما هو صِفَتُه جُعِلوا بمنزلةِ مَن لا يعرِفونَه، فاجْتُلِبَ اسمُ الإشارةِ؛ ليتميَّزَ الموصوفُ أكمَلَ تَميِيزٍ عندَ الَّذين يُريدونَ أنْ يعرِفوهُ حقَّ معرفتِه. والمقصودُ بالتَّمييزِ تمييزُ صِفاتِه الحقيقيَّةِ عن الصِّفاتِ الباطلةِ الَّتي ألْصَقوها به، لا تمييزُ ذاتِه عن الذَّواتِ؛ إذ ليستْ ذاتُه بحاضرةٍ وقْتَ نُزولِ الآيةِ، أي: تلك حقيقةُ عيسى عليه السَّلامُ وصِفَتُه[1].

فقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى من فُصِّلَت نُعوتُه الجليلةُ، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للدَّلالةِ على عُلوِّ مَرتبتِه، وبُعدِ مَنزلتِه، وامتيازِه بتلك المناقبِ الحميدةِ عن غيرِه، ونُزولِه منزلةَ المُشاهَدِ المحسوسِ[2].

٨- قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

- جُملةُ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ تقريرٌ لمعنى العُبوديَّةِ، أو تفصيلٌ لمضمونِ جُملةِ ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾؛ فتكونُ بمنزلةِ بَدلِ البعضِ أو الاشتمالِ منها؛ اكتفاءً بإبطالِ قولِ النَّصارى بأنَّ عيسى ابنُ اللهِ؛ لأنَّه أهمُّ بالإبطالِ؛ إذ هو تقريرٌ لعُبوديَّةِ عيسى، وتنزيهٌ للهِ تعالى عمَّا لا يليقُ بجَلالِ الأُلوهيَّةِ مِن اتِّخاذِ الولدِ، ومن شائبةِ الشِّركِ، ولأنَّه القولُ النَّاشئُ عن الغُلوِّ في التَّقديسِ، فكان فيما ذُكِرَ من صفاتِ المدحِ لعيسى ما قد يُقوِّي شُبهتَهم فيه بخلافِ قولِ اليهودِ؛ فقد ظهَرَ بُطلانُه بما عُدِّدَ لعيسى من صفاتِ الخيرِ[3].

- وصِيغةُ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ﴾ تُفيدُ انتفاءَ الولدِ عنه تعالى بأبلغِ وجهٍ؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠١-١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦ / ١٠٣).

لامَ الجُحودِ تُفيدُ مُبالغةَ النَّفيِ، وأنَّه ممَّا لا يُلاقي وُجودَ المنفيِّ عنه، ولأنَّ في قولِه: ﴿أَن يَتَّخِذَ﴾ إشارةً إلى أنَّه لو كان له ولدٌ، لكان هو خلَقَه واتَّخذَه، فلم يَعْدُ أنْ يكونَ من جُملةِ مخلوقاتِه. وجُملةُ: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾؛ لإبطالِ شُبهةِ النَّصارى[1].

- ولَمَّا كان المقامُ يقتَضي النَّفيَ العامَّ، أكَّده بـ (مِن) فقال: ﴿مِن وَلَدٍ﴾[2].

٩- قوله تعالى عن عيسى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ عُطِف على قولِه: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾، فيكونُ محكيًّا، وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ إلى ﴿يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ جُمَلَ اعتراضٍ، أخبَرَ اللهُ تعالى بها رسولَه عليه السَّلامُ[3].

- وجُملةُ: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ تذييلٌ وفذلكةٌ لِما سبقَه. والإشارةُ إلى مضمونِ ما تقدَّمَ[4]، والمُرادُ بالصِّراطِ المُستقيمِ: اعتقادُ الحقِّ، شُبِّهَ بالصِّراطِ المُستقيمِ على التَّشبيهِ البليغِ؛ شُبِّهَ الاعتقادُ الحقُّ في كونِه موصلًا إلى الهُدى بالصِّراطِ المُستقيمِ في إيصالِه إلى المكانِ المقصودِ باطمئنانِ بالٍ، وعُلِمَ أنَّ غيرَ هذا كبُنَيَّاتِ[5] الطَّريقِ، مَن سلَكَها ألْقَت به في المخاوفِ والمتالفِ[6].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦ / ١٠٣).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٩٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦ / ١٠٥).
(٥) بُنَيَّاتُ الطَّريقِ: هي الطُّرُقُ الصِّغارُ تتشعَّبُ مِن الجادَّةِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٤٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦ / ١٠٥).

مُّسْتَقِيمٌ ﴾، وقال في الزُّخرفِ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ [الزخرف: ٦٤] بزيادةِ (هو)؛ لأنَّه تعالى ذكَرَ قصَّةَ عيسى عليه السَّلامُ هنا مُستوفاةً، فأغْنى ذلك عن التَّأكيدِ، بخلافِه ثَمَّ(١).



(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٥٥-٣٥٦).

الآيات (٣٧-٤٠)

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾: أي: اليهودُ والنَّصارى، والحزبُ: الجماعةُ مِن الناسِ، أو: جماعةٌ فيها غِلَظٌ، والطَّائفةُ مِن كلِّ شيءٍ حزبٌ، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ[(١)].

﴿مَّشْهَدِ﴾: أَيْ: شُهودِ، والشَّهادةُ: الحضورُ مع المشاهدةِ، إمَّا بالبصرِ، أو بالبصيرةِ، وأصلُ (شهد): يدلُّ على حضورٍ وعِلْمٍ وإعلامٍ[(٢)].

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾: أي: ما أَشَدَّ سَمْعَهم، وما أنفَذَ بَصَرَهم! وأصلُ (سمع): يدُلُّ على إيناسِ الشَّيءِ بالأُذُنِ، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على إبصارِ الشَّيءِ، والعِلمِ به[(٣)].

المَعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله سبحانه موقفَ أهلِ الكتابِ مِن عيسى عليه السلامُ، فيقول تعالى: فاختَلَفت اليهودُ والنَّصارى في أمرِ عيسى عليه السَّلامُ؛ فمنهم غالٍ فيه وهم النَّصارى، ومنهم جافٍ عنه وهم اليهودُ، قالوا: إنَّه -حاشاه- ابنُ زنا؛ فوَيلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣) (٣/ ١٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ١٩٩).

للَّذينَ كَفَروا مِن شُهودِ يومِ القيامةِ العَظيمِ الهَولِ، ما أشدَّ سَمعَهم وبصَرَهم يومَ القيامةِ! لكنِ الظَّالِمونَ اليومَ في هذه الدُّنيا في ضلالٍ واضحٍ عن الحَقِّ.

ثم يأمرُ الله تعالى نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بأن يخوِّفَ المشركينَ مِن أهوالِ يومِ القيامةِ، فيقول تعالى: وأنذِرْ -يا مُحمَّدُ- النَّاسَ يومَ النَّدامةِ حينَ يُقضى الأمرُ، ويُحكَمُ بينَ العبادِ، وهم اليومَ في هذه الدُّنيا في غَفلةٍ عمَّا أُنذِروا به، وهم لا يُؤمِنونَ باللهِ ولا بالبَعثِ والجَزاءِ في الآخرةِ.

ثم يذكرُ سبحانه ما يدلُّ على كمالِ قدرتِه، وشمولِ مُلكِه، فيقولُ: إنَّا نحن الوارِثونَ للأرضِ ومَن عليها، وإلينا مَصيرُهم، فنُجازيهم على أعمالِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧ ﴾.

﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡ ﴾.

أي: فاختلف اليهودُ والنَّصارى في أمرِ عيسى، فزعم اليَهودُ أنَّه ابنُ زِنا، وزعم بعضُ النَّصارى أنَّه ابنُ اللهِ، وزعم بعضُهم أنَّه ثالِثُ ثلاثةٍ، وزعَمَ بَعضُهم أنَّه اللهُ -تعالى اللهُ عمَّا يَقولونَ عُلُوًّا كبيرًا- وقال آخَرونَ في شأنِه القَولَ الحَقَّ: أنَّه عبدُ اللهِ ورَسولُه(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣١)، (تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٠).
وممَّن قال بأنَّ المُختَلِفينَ هنا هم اليهودُ والنصارى في الجملةِ: ابنُ عطية، وابنُ تيمية، وابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.
وقيل: المرادُ: اختلافُ فِرَق النصارى خاصَّةً. وممن ذهب إلى ذلك: الواحدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٦). =

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: فوَيلٌ[(١)] للكافرينَ الذين اعتَقَدوا في عيسى مُعتَقَدًا باطِلًا، ولِغَيرِهم من الكُفَّارِ، مِن حُضورِهم وشُهودِهم يومَ القيامةِ المُمتَلئَ بالشدائدِ والأهوالِ، المُشتَمِلَ على الجَزاءِ بالأعمالِ، وما سيُلاقونَه فيه مِن العَذابِ والنَّكالِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ * فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٣ - ٦٥].

﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾.

﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا﴾.

أي: ما أسمَعَ الكافرينَ، وما أبصَرَهم للحَقِّ الذي كانوا يُنكِرونَه، يومَ قُدومِهم علينا يومَ القيامةِ[(٣)]!

= ويُنظر أيضًا: ((الفِصَل)) لابن حزم (١/ ٤٧، ٤٨)، ((المِلل والنِّحَل)) للشهرستاني (٢/ ٢٧).
قال ابنُ عطية: (قولُه: ﴿مِنۢ بَيۡنِهِمۡ﴾ معناه أنَّ الاختلافَ لم يخرجْ عنهم، بل كانوا المختلفينَ).
((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٦).

(١) قيل: الويلُ: كلمةٌ تعني الهلاكَ والعذابَ والشِّدَّة. وقيل: وادٍ في جهنَّمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٠).
قال الواحدي: (﴿مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: مِن حُضورِ ذلك اليومِ... ويجوزُ أن يكونَ الحُضورُ لهم، وأُضيفَ إلى الظَّرفِ؛ لِوقوعِه فيه، كما تقولُ: وَيلٌ لفُلانٍ مِن قتالِ يومِ كذا، والمعنى: ويلٌ لهم حُضورُهم ذلك وشُهودُهم إيَّاه للجزاءِ والحِسابِ). ((البسيط)) (١٤/ ٢٤٨-٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٣)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ١٦٦)، =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: لكِنِ الكافِرونَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكَذِبِ والافتراءِ على اللهِ: هم اليومَ في الدُّنيا في ضَلالٍ واضِحٍ عن الحَقِّ، لا يَسمَعونَه ولا يُبصِرونَه ولا يَعقِلونَه(١)!

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه عقَّب تَحذيرَهم من عذابِ الآخرةِ، والنِّداءَ على سُوءِ ضَلالِهم في الدُّنيا، بالأمرِ بإنذارِهم؛ استِقصاءً في الإعذارِ لهم(٢).

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾.

أي: وخوِّفِ النَّاسَ يومَ القيامةِ -يا مُحَمَّدُ- يومَ يَندَمُ الظَّالِمونَ على تَفريطِهم في الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وعلى ما فاتهم مِن الثَّوابِ، وعلى ما يُصيبُهم مِن العذابِ(٣).

= ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٤)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٨، ١٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٢).

كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦- ١٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

وقال سُبحانه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾.

أي: حينَ فُرِغَ مِن الحسابِ والحُكمِ بينَ العبادِ، فيَدخُلُ المُؤمِنونَ الجنَّةَ، ويَدخُلُ الكافِرونَ النَّارَ، ويُذبَحُ الموتُ بين الفَريقَينِ(١).

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُؤتَى بالموتِ كهيئةِ كَبشٍ أملَحَ، فيُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيَشرَئِبُّونَ(٢) ويَنظُرونَ، فيقولُ: هل تَعرِفونَ هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموتُ، وكُلُّهم قد رآه، ثمَّ ينادي: يا أهلَ النَّارِ، فيَشرَئِبُّونَ ويَنظُرونَ، فيقولُ: وهل تَعرِفونَ هذا؟ فيقولونَ: نعم، هذا الموتُ، وكُلُّهم قد رآه، فيُذبَحُ، ثُمَّ يقولُ: يا أهلَ الجنَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٣).

(٢) فَيَشْرَئِبُّونَ: أي: يَرفَعونَ رُؤوسَهم إلى المنادي. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٨٥).

خُلودٌ فلا مَوتَ، ويا أهلَ النَّارِ خُلودٌ فلا موتَ، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾، وهؤلاء في غَفلةِ أهلِ الدُّنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾))[١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رَضِي الله عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا صار أهلُ الجنَّةِ إلى الجنَّةِ، وصار أهلُ النَّارِ إلى النَّارِ، أُتيَ بالموتِ حتى يُجعَلَ بين الجنَّةِ والنَّارِ، ثمَّ يُذبَحُ، ثم يُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنَّةِ لا موتَ، ويا أهلَ النَّارِ لا موتَ، فيزدادُ أهلُ الجنَّةِ فَرَحًا إلى فَرَحِهم، ويزدادُ أهلُ النَّارِ حُزنًا إلى حُزنِهم))[٢].

﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾.

أي: والحالُ أنَّ الكافرينَ في الدُّنيا في غَفلةٍ وذُهولٍ عَمَّا أُنذِروا به، وعمَّا ينتَظِرُهم مِن العذابِ يومَ القيامةِ، فهم مُنشَغِلونَ بدُنياهم، مُعرِضونَ عَمَّا يُرادُ منهم[٣].

---

(١) رواه البخاري (٤٧٣٠) واللفظ له، ومسلم (٢٨٤٩).

(٢) رواه البخاري (٦٥٤٨) ومسلم (٢٨٥٠) واللفظ له.

قال ابنُ القيِّم: (هذا الكَبشُ والإضجاعُ والذَّبحُ ومُعاينةُ الفَريقَينِ: ذلك حقيقةٌ لا خيالٌ ولا تمثيلٌ، كما أخطأ فيه بعضُ النَّاسِ خطأً قبيحًا! وقال: الموتُ عَرَضٌ، والعَرَضُ لا يتجَسَّمُ، فَضلًا عن أن يُذبَح، وهذا لا يصِحُّ؛ فإنَّ اللهَ سبحانه ينشئُ مِن الموتِ صُورةَ كَبشٍ يُذبَحُ، كما يُنشِئُ مِن الأعمالِ صُورًا مُعايَنةً يُثابُ بها ويُعاقَبُ، واللهُ تعالى ينشئُ مِن الأعراضِ أجسامًا تكونُ الأعراضُ مادَّةً لها، ويُنشِئُ مِن الأجسامِ أعراضًا، كما ينشئُ سُبحانه وتعالى من الأعراضِ أعراضًا، ومن الأجسامِ أجسامًا، فالأقسامُ الأربعةُ مُمكِنةٌ مَقدورةٌ للرَّبِّ تعالى، ولا يستلزمُ جَمعًا بين النَّقيضَينِ، ولا شيئًا مِن المحال... اللهُ سُبحانَه يُنشِئُ مِن الأعراضِ أجسامًا ويجعَلُها مادَّةً لها، كما في الصَّحيحِ عنه: «تجيءُ البَقَرةُ وآلُ عِمرانَ يومَ القيامةِ كأنَّهما غَمامتانِ...» الحديث). ((حادي الأرواح)) (ص: ٤٠١، ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٢). =

كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وهم في الدُّنيا لا يُؤمِنونَ باللهِ، ولا بالبَعثِ والجَزاءِ في الآخرةِ[1].

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾.

أي: قال اللهُ تعالى: إنِّي أرِثُ وَحدي الأرضَ وكُلَّ ما عليها بعدَ موتِ الخلائِقِ، ولا يَملِكُها أحدٌ سِواي[2].

= قال الشنقيطي: (قَولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾، أي: في غفلةِ الدُّنيا مُعرِضونَ عن الآخرةِ، وجملةُ ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ حاليةٌ، والعامِلُ فيها (أَنْذِرْهُمْ) أي: أنذِرْهم في حالِ غَفلتِهم غيرَ مُؤمِنينَ، خلافًا لِمن قال: إنَّ العامِلَ في الجملة الحاليةِ قَولُه قبلَ هذا ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨]). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣).

قال ابنُ عاشور: (ومعنى ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: استمرارُ عَدَمِ إيمانِهم إلى حُلولِ قَضاءِ الأمرِ يومَ الحَسرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

أي: وإلينا لا إلى غيرِنا يُرَدُّ العِبادُ يومَ القيامةِ فيُبعَثونَ، وبأعمالِهم يُجازَونَ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ والإنذارُ هو الإعلامُ بالمَخُوفِ على وَجهِ التَّرهيبِ، والإخبارُ بصِفاتِه، وأحقُّ ما يُنذَرُ به ويُخَوَّفُ به العِبادُ يومَ الحَسرةِ حينَ يُقضى الأمرُ، فيُجمَعُ الأوَّلونَ والآخِرونَ في مَوقِفٍ واحدٍ، ويُسألونَ عن أعمالِهم، فمَن آمنَ باللهِ واتَّبع رُسُلَه؛ سَعِدَ سَعادةً لا يشقى بعدَها، ومَن لم يؤمِنْ باللهِ ويتَّبعْ رُسُلَه؛ شَقِيَ شَقاوةً لا سعادةَ بَعدَها، وخَسِرَ نَفسَه وأهلَه، فحينئذٍ يتحَسَّرُ ويندَمُ ندامةً تتقَطَّعُ منها القُلوبُ، وتنصَدِعُ منها الأفئدةُ، وأيُّ حسرةٍ أعظمُ مِن فواتِ رضا الله وجنَّتِه، واستحقاقِ سخطِه والنارِ، على وجهٍ لا يتمكَّنُ مِن الرُّجوعِ؛ ليَستأنفَ العملَ، ولا سبيلَ له إلى تغييرِ حالِه بالعودِ إلى الدُّنيا[2]؟!

= ابن كثير)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٣).

قال ابنُ جرير: (يقول تعالى ذِكرُه لنبيِّه محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا يَحزُنْك تكذيبُ هؤلاء المُشركينَ لك -يا مُحمَّدُ- فيما أتيتَهم به من الحَقِّ؛ فإنَّ إلينا مَرجِعَهم ومَصيرَهم ومصيرَ جَميعِ الخَلقِ غَيرِهم، ونحن وارِثو الأرضِ ومَن عليها من النَّاسِ، بفَنائِهم منها، وبقائِها لا مالِكَ لها غيرُنا). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بعدَ قَولِه: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ ولم يَقُلْ: (فويلٌ لهم) ليعودَ الضَّميرُ إلى الأحزابِ؛ لأنَّ مِن الأحزابِ المُختَلِفينَ طائفةً أصابت الصَّوابَ، ووافَقَت الحَقَّ، فقالت في عيسى: إنَّه عبدُ اللهِ ورَسولُه، فآمَنوا به واتَّبَعوه، فهؤلاء مُؤمِنونَ غيرُ داخِلينَ في هذا الوَعيدِ؛ فلهذا خَصَّ اللهُ بالوعيدِ الكافرينَ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ لِمَن كَذَب على اللهِ وافترى، وزعَم أنَّ له وَلدًا، ولكِنْ أنظَرَهم تعالى إلى يومِ القيامةِ وأجَّلَهم؛ حِلمًا وثِقةً بقُدرتِه عليهم؛ فإنَّه الذي لا يَعجَلُ على مَن عصاه، كما جاء في الصَّحيحينِ: ((إنَّ اللهَ لَيُمْلي للظَّالمِ حتى إذا أخَذه لم يُفلِتْه. ثمَّ قرأ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]))[٢]. وفي الصَّحيحَينِ[٣] أيضًا عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((ما أحدٌ أصبَرَ على أذًى سَمِعه مِنَ اللهِ؛ يَدَّعونَ له الولدَ، ثمَّ يُعافيهم ويرزُقُهم!))[٤]. وما أشار اللهُ إليه مِن أنَّه لم يُعاجِلْهم بالعذابِ، وأنَّه يُؤخِّرُ عذابَهم إلى الوَقتِ المَحدَّدِ لذلك؛ أشار له في مواضِعَ أُخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقَولِه تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]، وقَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٧٣٧٨) واللفظ له، ومسلم (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٢).

لَجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[١] [العنكبوت: ٥٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿ فَٱخْتَلَفَ ﴾ لترتيبِ ما بعدَها على ما قبْلَها؛ تَنبيهًا على سُوءِ صنيعِهم بجعْلِهم ما يُوجِبُ الاتِّفاقَ منشَأً للاختلافِ؛ فإنَّ ما حُكِيَ مِن مقالاتِ عيسى عليه السَّلامُ مع كونِها نُصوصًا قاطعةً في كونِه عبدَه تعالى ورسولَه، قدِ اختلفَتِ اليهودُ والنَّصارى بالتَّفريطِ والإفراطِ[٢].

- وقولُه: ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ مُتعلِّقٌ بـ (اخْتَلَفَ)، و﴿مِنۢ ﴾ حرفُ توكيدٍ، أي: اخْتَلفوا بينهم[٣].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، وفي سُورةِ (الزُّخرفِ) قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾[الزخرف: ٦٥]؛ فخَصَّ الأُولى بلفظِ (كَفَروا) والثَّانيةَ (ظَلَموا)، وكِلْتا الآيتينِ في قصَّةِ عيسى عليه السَّلامُ وتوعُّدِ مَن أثبَتَ للهِ تعالى ولدًا؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الكفرَ أَبلغُ مِن الظُّلمِ، وأشدُّ قُبحًا، وقصةُ عيسى في هذه السُّورةِ مشروحةٌ، وفيها ذِكرُ نسبتِهم إيَّاه إلى الله تعالى، حينَ قال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾، فذُكِر بلفظِ الكفرِ، وأما قصتُه في سورةِ الزُّخرفِ فمجمَلةٌ، فوصَفهم بلفظٍ دونَه، وهو الظُّلمُ، فكان وصْفُ مَن ذُكِرَ بالكُفرِ في المَحلِّ الَّذي اسْتُوفِيَ فيه قصَّةُ عيسى، أنسَبَ بالمحلِّ الَّذي أُجمِلَ فيه قصَّتُه[٤].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦ / ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٨٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) =

٢- قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ تعجُّبٌ من حِدَّةِ سمْعِهم وأبصارِهم يومئذٍ، ومعناه: أنَّ أسماعَهم وأبصارَهم يومَ القيامةِ جديرٌ بأنْ يُتعجَّبَ منها بعدَ أنْ كانوا في الدُّنيا صُمًّا عُميًا[١]، فقولُه: ﴿أَسْمِعْ﴾ وقولُه: ﴿وَأَبْصِرْ﴾ صِيغتَا تعجُّبٍ[٢].

- ومعمولُ السَّمعِ والبصرِ محذوفٌ؛ لقصدِ التَّعميمِ؛ ليشمَلَ كلَّ ما يصِحُّ أنْ يُسْمَعَ وأنْ يُبْصَرَ، وهذا كنايةٌ عن التَّهديدِ[٣].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾، وعكَسَ في (الكهفِ) فقال: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف: ٢٦]؛ لأنَّ معناه هنا: أنَّه تعالى ذكَرَ قصصَ الأنبياءِ، فاسْمَعْها وتدبَّرْها، واستعمِلِ النَّظرَ فيها ببصيرتِك، ومعناه في (الكهفِ): أنَّه تعالى له غيبُ السَّمواتِ والأرضِ، فاجعَلْ بصيرتَك في الفكرِ في مَخلوقاتِه، وتدبَّرْها بحيثُ تصِلُ إلى معرفتِه، واسمَعْ لصفاتِه ووحِّدْهُ، فناسَبَ تَقديمُ السَّمعِ هنا، والبصرِ ثَمَّ[٤].

- والاستدراكُ الَّذي أفادهُ قولُه: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ راجعٌ إلى ما يُفيدُه التَّقييدُ بالظَّرفِ في قولِه: ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ من ترقُّبِ سُوءِ حالِهم

= للكرماني (ص:١٧٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٠٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٥٦).

يومَ القيامةِ الَّذي يَقْتضي الظَّنَّ بأنَّهم الآنَ في سَعةٍ مِن الحالِ؛ فأُفيدَ أنَّهم مُتلبِّسونَ بالضَّلالِ المُبينِ، وهو من سُوءِ الحالِ لهم؛ لِما يَتْبَعُه من اضطرابِ الرَّأيِ، والْتِباسِ الحالِ على صاحبِه، وتلك نُكتةُ التَّقييدِ بالظَّرفِ في قولِه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[١].

- قولُه: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ فيه إظهارٌ في موضعِ الإضمارِ؛ إشعارًا بأنَّهم ظَلَموا أنفُسَهم أشَدَّ الظُّلمِ؛ حيث أغْفَلوا الاستماعَ والنَّظَرَ حينَ ينفَعُهم[٢]، وتنبيهًا على الوصفِ الذي أحلَّهم ذلك المحلَّ[٣]. ونُكتتُه: التَّخلُّصُ إلى خُصوصِ المُشرِكين؛ لأنَّ اصطلاحَ القُرآنِ إطلاقُ الظَّالمينَ على عبدةِ الأصنامِ، وإطلاقُ الظُّلمِ على عبادةِ الأصنامِ[٤]. وقيل: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ عُمومٌ يَندرِجُ فيه هؤلاء الأحزابُ الكفَّارُ وغيرُهم من الظَّالمينَ[٥]. وسجَّلَ على إغفالِهم بأنَّه ضَلالٌ بيِّنٌ[٦].

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾ أُضيفَ اليومُ إلى الحسرةِ؛ لكثرةِ ما يحدُثُ فيه من تحسُّرِ المُجرِمين على ما فرَّطوا فيه من أسبابِ النَّجاةِ؛ فكان ذلك اليومُ كأنَّه ممَّا اختصَّتْ به الحسرةُ، فهو يومُ حَسرةٍ بالنِّسبةِ إليهم، وإنْ كان يومَ فرحٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١).

بالنِّسبةِ إلى الصَّالحينَ(١). وقيل: يتحسَّرُ المُسِيءُ على إساءتِه، والمُحسِنُ على قِلَّةِ إحسانِه(٢). وقيل: اللَّامُ في ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾ للجنسِ؛ لأنَّ هذه حسراتٌ كثيرةٌ في مواطنَ عدَّةٍ، ومنها يومُ الموتِ، ومنها وقتُ أخْذِ الكتابِ بالشِّمالِ، وغيرُ ذلك(٣).

- قولُه: ﴿إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٍ﴾ على احتمالِ أنَّ معناه: تُمِّمَ أمْرُ اللهِ بزَجِّهم في العذابِ، فلا مُعَقِّبَ له؛ فهو كِنايةٌ عن سُرعةِ صُدورِ الأمْرِ بتعذيبِهم، أي: قُضِيَ أمْرُهم على حينِ أنَّهم في غفْلةٍ، أي: بَهْتٍ(٤).

- قولُه: ﴿وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فيه اختيارُ صِيغَةِ المُضارعِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ دونَ صِيغَةِ اسمِ الفاعلِ (غيرُ مُؤمِنين)؛ لِما يدُلُّ عليه المُضارِعُ من استمرارِ الفعلِ وقتًا فوقتًا؛ استحضارًا لذلك الاستمرارِ العجيبِ في طُولِه وتمكُّنِه(٥).

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ تذييلٌ لخَتْمِ القصَّةِ على عادةِ القُرآنِ في تَذييلِ الأغراضِ عندَ الانتقالِ منها إلى غيرِها، وأفاد هذا التَّذييلُ التَّعريفَ بتَهديدِ المُشركين، بأنَّهم لا مفَرَّ لهم من الكونِ في قبْضةِ الرَّبِّ الواحدِ الَّذي أشْرَكوا بعبادتِه بعضَ ما على الأرضِ، وأنَّ آلهتَهم ليست بمَرجُوَّةٍ لنفْعِهم؛ إذ ما هي إلَّا ممَّا يرِثُه اللهُ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٨-١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٠٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١١٠-١١١).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ تأكيدٌ بحرْفِ التَّوكيدِ (إِنَّ)؛ لدفْعِ الشَّكِّ؛ لأنَّ المُشرِكين يُنكِرون الجزاءَ، فهم يُنكِرون أنَّ اللهَ يرِثُ الأرضَ ومَن عليها بهذا المعنى، وكذلك ضميرُ الفصلِ ﴿نَحۡنُ﴾ يُفيدُ التَّأكيدَ[(١)].

- قولُه: ﴿وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ فيه تَقديمُ ﴿وَإِلَيۡنَا﴾ على قولِه: ﴿يُرۡجَعُونَ﴾؛ لإفادةِ قصْرِ الرُّجوعِ إليه سُبحانه وحدَه، أي: لا يَرجِعون إلى غيرِنا. ومَحملُ هذا التَّقديمِ بالنِّسبةِ إلى المُسلِمين الاهتمامُ، ومَحملُه بالنِّسبةِ إلى المُشرِكين القصْرُ[(٢)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١١١).

الآيات (٤١-٥٠)

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ٥٠﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿صِدِّيقًا﴾: الصِّدِّيقُ: هو المُصدِّقُ قولَه بفِعلِه، أو صدَق بقولِه واعتقادِه، وحقَّق صِدْقَه بفِعلِه، وقيل: هو مَن كثُر منه الصِّدقُ، وقيل: هو مَنْ لا يَكذِبُ قطُّ، أو مَن لا يَتأتَّى منه الكذبُ؛ لتعوُّدِه الصِّدقَ، وأصلُ (صدق): يدلُّ على قوَّةٍ في الشيءِ قولًا وغيرَه[1].

﴿سَوِيًّا﴾: مستقيمًا مستويًا، والسَّوِيُّ يُقالُ فيما يُصانُ عن الإفراطِ والتَّفريطِ مِن حيثُ القدرُ والكيفيَّةُ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ، واعتِدالٍ بينَ شَيئينِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٧/ ٢١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٤).

﴿عَصِيًّا﴾: أي: عاصيًا أو عاقًّا، وأصلُه هنا يدلُّ على الفُرقةِ(١).

﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾: الرَّجْمُ: الرَّمْيُ بالرِّجامِ، أي: الحجارةِ، والرجمُ: القتلُ؛ لأنَّهم كانوا يقتلونَ بالرَّجمِ، والرَّجمُ: الشَّتمُ والسَّبُّ؛ لأنَّه رمْيٌ بالقولِ القبيحِ، وأصلُ الرَّجمِ: يدلُّ على الرَّميِ بقولٍ كان أو بفعلٍ(٢).

﴿مَلِيًّا﴾: أي: حينًا طَويلًا، والإملاءُ: الإمدادُ، ومنه قيل للمُدَّة الطويلةِ: مُلاوةٌ مِن الدَّهرِ، وأصلُ (ملو): يدُلُّ على امتدادٍ في شَيءٍ؛ زَمانٍ أو غيرِه(٣).

﴿حَفِيًّا﴾: أي: لطيفًا بارًّا كثيرَ الإحسانِ، والتحَفِّي: التلَطُّفُ في القَولِ والفِعلِ، وأصلُ (حفي): يدُلُّ على المُبالغةِ(٤).

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى جانبًا مِن قصةِ إبراهيمَ -عليه السلامُ-، ودعوتِه لأبيه، وما دار بينَهما مِن حوارٍ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- لقومِك في هذا القرآنِ قِصَّةَ إبراهيمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١١٠) (١٥/ ٥٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٠- ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦، ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٩).

-عليه السَّلامُ-: إنَّه كان كثيرَ الصِّدقِ، وكان نبيًّا رفيعَ المنزلةِ؛ إذ قال لأبيه: يا أبتِ، لماذا تَعبُدُ ما لا يسمَعُ ولا يُبصِرُ ولا يدفَعُ عنكَ شيئًا من دونِ الله؟! يا أبتِ، إنَّ الله أعطاني مِن العِلمِ ما لم يُعطِك، فاتَّبِعْني إلى ما أدعوك إليه أُرشِدْك طريقًا مُستقيمًا. يا أبتِ، لا تُطعِ الشَّيطانَ فيما يُزَيِّنُ لك مِن الكُفرِ والشِّركِ؛ إنَّ الشَّيطانَ كان عاصيًا لله، مُستَكبِرًا عن طاعتِه. يا أبتِ، إني أخافُ أن يمَسَّك عذابٌ مِن الرَّحمنِ إن أصرَرْتَ على كُفرِك، فتكونَ للشَّيطانِ قَرينًا في النَّارِ.

فقال له أبوه: أمُعرِضٌ أنت عن عبادةِ آلهتي يا إبراهيمُ؟ لئِنْ لم تنتَهِ عن سَبِّها لأرجُمَنَّك، واذهَبْ عني زمانًا طويلًا. قال إبراهيمُ لأبيه: سلامٌ عليك منِّي، فلا ينالُك منِّي ما تكرهُ، وسوف أدعو اللهَ لك بالمغفرةِ؛ إنَّ ربِّي كان رَحيمًا لطيفًا مُعتَنيًا بي، يُجيبُني إذا دَعَوتُه، وأفارِقُكم وآلِهَتَكم التي تَعبُدونَها مِن دونِ الله، وأدعو ربِّي مُخلِصًا؛ عسى ألَّا أشقى بدُعاءِ ربي، وإفرادي له بالعبادة.

ثم يبيِّنُ الله سبحانه ما ترتَّب على اعتزالِ إبراهيمَ للشركِ والمشركينَ فيقولُ: فلمَّا فارقهم وآلهَتَهم التي يعبدونَها مِن دونِ اللهِ رزَقْناه إسحاقَ ويعقوبَ بنَ إسحاقَ، وجعَلْناهما نبيَّينِ، ووهَبْنا لهم جميعًا -إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ- مِن رحمَتِنا فضلًا كثيرًا، وعِلمًا نافِعًا، وأعمالًا صالحةً، ورزقًا واسعًا، وذريَّةً كثيرةً، إلى غيرِ ذلك، وجعَلْنا لهم ذِكرًا حَسَنًا، وثناءً جميلًا باقيًا في النَّاسِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن تعالى ضَلالَ مَن أثبَتَ مَعبودًا غيرَ اللهِ حَيًّا عاقِلًا فاهِمًا، وهم النَّصارى؛

تكلَّمَ في ضَلالِ مَن أثبَتَ مَعبودًا غيرَ اللهِ جمادًا، وهم عَبَدةُ الأوثانِ(١)؛ فذكَرَ قِصَّةَ إبراهيمَ -عليه السَّلامُ- مع أبيه؛ تذكيرًا للعَربِ بما كان إبراهيمُ عليه مِن توحيدِ الله، وتبيينِ أنَّهم سالِكو غيرِ طَريقِه(٢)، فقال:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾.

أي: واتلُ -يا محمَّدُ- في القرآنِ خبَرَ إبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، على قَومِك الذين هم مِن ذريَّتِه، ويدَّعون كَذِبًا أنَّهم على مِلَّتِه، ويتمَسَّكونَ بتَقليدِ آبائِهم، فهم يَعبُدونَ الأصنامَ والحالُ أنَّ أعظَمَ آبائِهم -إبراهيمَ- كان حنيفًا مُسلِمًا ينهَى أباه عن الشِّركِ، وعبادةِ الأصنام(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾.

أي: إنَّ إبراهيمَ كان كثيرَ الصِّدقِ في أقوالِه وأعمالِه ومواعيدِه، بليغَ التَّصديقِ بكُلِّ ما هو أهلٌ لأن يُصَدَّقَ به، وكان نبيًّا رفيعَ القَدرِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧، ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٣-٢٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٤، ٤٢٥).

قال الشنقيطي: (الصِّدِّيقُ صِيغةُ مبالغةٍ مِن الصِّدقِ؛ لشِدَّةِ صِدقِ إبراهيمَ في معاملتِه مع رَبِّه، وصِدقِ لهجتِه، كما شَهِدَ اللهُ له بصِدقِ معاملتِه في قَولِه: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧]، وقَولِه: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا﴾ [البقرة: ١٢٤]، ومِن صِدقِه في معاملتِه رَبَّه: رِضاه بأن يَذبَحَ ولَدَه، وشُروعُه بالفِعلِ في ذلك؛ طاعةً لرَبِّه... ومِن صِدقِه =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧].

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ﴾.

أي: اذكُرْ -يا مُحمَّدُ- إبراهيمَ حين قال لأبيه: يا أبتِ، لِماذا تعبُدُ أصنامًا لا تَسمَعُ ولا تُبصِرُ شَيئًا[(١)]؟!

﴿وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: ولا تدفَعُ الأصنامُ عنك -يا أبتِ- أيَّ ضَررٍ، ولا تنفَعُك بأيِّ شَيءٍ، فلِمَ تَعبُدُها[(٢)]؟!

﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لما سألَه عن العلَّةِ في عبادةِ الصنمِ، ولا يمكنُ أن يجِدَ جوابًا؛ انتقَل معه إلى

= في معاملتِه مع ربِّه: صبرُه على الإلقاءِ في النَّارِ... ومِن صِدقِه في معاملتِه رَبَّه: صبرُه على مفارقةِ الأهلِ والوطنِ؛ فرارًا بدينِه). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٢٤، ٤٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٠، ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٤).

إخبارِه بأنَّه قد جاءَه مِن العلمِ ما لم يأتِه(١).

وأيضًا لَمَّا نبَّهَه على أنَّ ما يَعبُدُه لا يَستَحِقُّ العبادةَ، بل لا تجوزُ عبادتُه؛ لِنَقصِه مُطلَقًا، ثمَّ نَقصِه عن عابِدِه، ولن يكونَ المعبودُ دونَ العابدِ أصلًا، وكان أقَلُّ ما يَصِلُ إليه بذلك مقامَ الحَيرةِ- نبَّهَه على أنَّه أهلٌ للهِدايةِ، فقال(٢):

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ ﴾.

أي: يا أبتِ، إنِّي قد أُعطيتُ مِن العِلمِ بالحَقِّ ما لم تُعْطَه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ [الأنبياء: ٥١].

﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾.

أي: فاقبَلْ نَصيحتي، واعبُدِ اللهَ وَحدَه، ولا تُشرِكْ به شيئًا؛ أُرشِدْك طريقًا مُستقيمًا لا اعوِجاجَ فيه، مُوصِلًا إلى نيلِ المطلوبِ، والنَّجاةِ مِن المرهوبِ(٤).

﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ ﴾.

﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَ ﴾.

أي: يا أبتِ، لا تُطِعِ الشَّيطانَ فيما يُزَيِّنُ لك مِن الكُفرِ والشِّركِ، فتكونَ عابدًا له(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٨-٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٦).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾.

أي: لأنَّ الشَّيطانَ عاصٍ للرَّحمنِ، مُستكبِرٌ عن طاعتِه، فلا تتَّبِعْه فتكونَ عاصيًا لله مِثلَه[1].

﴿يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما قرَّر له أنَّ عبادتَه الأصنامَ اتِّباعٌ لأمرِ الشَّيطانِ؛ انْتَقَل إلى تَوَقُّعِ حرمانِه مِنْ رحمةِ اللَّهِ بأنْ يَحِلَّ به عذابٌ مِنَ اللَّهِ، فحَذَّره مِنْ عاقبةِ أنْ يصيرَ مِن أولياءِ الشَّيطانِ[2].

﴿يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾.

أي: يا أبتِ إنِّي أخافُ -إن أقمْتَ على الشِّركِ، وأصرَرْتَ عليه- أن يُصيبَك عذابٌ واقِعٌ مِن الرَّحمنِ[3].

﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٧).

قال الواحدي: (﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ قيل: كان: زائدةٌ. وقيل: إنَّه بمعنى صار. والصحيحُ: أنَّه بمعنى الحالِ، أي: كائن). ((البسيط)) (١٤/ ٢٥٤). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٤).

أي: فتكونَ من أولياءِ الشَّيطانِ، ومُقارِنًا له في النِّيرانِ، ويتبرَّأَ منك الرَّحمنُ، فلا تكونَ لك نصرةٌ أبدًا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وقال سُبحانه: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦)﴾.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾.

أي: قال أبوه: أتُعرِضُ -يا إبراهيمُ- عن عبادةِ آلِهَتي، وتَترُكُها إلى غيرِها[(٢)]؟!

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾.

أي: لئِنْ لم تَترُكْ -يا إبراهيمُ- نُصحي، وذِكرَ آلهتي بسُوءٍ لأرجُمَنَّك[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٧، ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥١)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٤١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).

قيل معنى: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾: لأشتُمَنَّك. وممن ذهَب إلى ذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والزجَّاج، والواحدي، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٣٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، والسدي، وابنُ جُريجٍ، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٢). =

﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾.

أي: وابتَعِدْ عني زَمنًا طويلًا[(١)].

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧﴾.

= وقيل: معنى: ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَ﴾ أي: بالحجارةِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ في الجملةِ: يحيى ابنُ سلام، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشور، واستظهَره الشنقيطي. ونصَّ يحيى بنُ سلام، والسعدي، وابنُ عاشور على أنَّ المرادَ: القتلُ بها. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٢٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٧).

قال ابن عطية: (وقال الحسنُ بنُ أبي الحسنِ: معناه: لأرجُمَنَّك بالحجارةِ، وقالتْ فرقةٌ: معناه لأقتلنَّك، وهذان القولانِ بمعنًى واحدٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨).

ونقل ابن الجوزي عن الحسن أنَّ معنى قولِه: ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَ﴾: أي: بالحجارةِ حتى تتباعدَ عنِّي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٨٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٧).

وممَّن اختار أن المراد بقولِه ﴿مَلِيّٗا﴾: زمنًا طويلًا: ابنُ قتيبة، والواحدي، وابنُ جُزي، والبقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ عطيةَ: (﴿مَلِيّٗا﴾ معناه: دهرًا طويلًا، مأخوذٌ مِن المَلَوينِ، وهما الليلُ والنهارُ، وهذا قولُ الجمهورِ، والحسنِ، ومجاهدٍ، وغيرِهما). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨).

وقال النحَّاس: (القولُ عندَ أهلِ اللغةِ أنَّه بمعنى: زمانًا ودهرًا). ((معاني القرآن)) (٤/ ٣٣٥).

وممن قال بنحو هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، والحسنُ البصري، ومحمدُ بنُ إسحاقَ، وسعيدُ بنُ جُبير، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٥).

وقيل: معنى ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾: سالِمًا مِن عقوبتي. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٤، ٥٥٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، وعطيةُ العوفي، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٥).

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لأبيه: أنتَ في أمانٍ وسَلامةٍ مني، فلا ينالُك مني سوءٌ[1].

كما قال تعالى في صفةِ المؤمنينَ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾.

أي: سأطلُبُ لك مِن ربِّي أن يستُرَ ذُنوبَك، ويتجاوَزَ عن مُؤاخَذتِك بها[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢١).

وقيل: المرادُ: دُعاءُ إبراهيم بأن يهديَ اللهُ أباه للتوحيدِ، فتحصُلَ له بذلك مغفرةُ ذنوبِه. وممن قال بهذا المعنى: ابنُ عطيةَ، والبقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢١).

قال ابنُ كثير: (وقد استغفر إبراهيمُ لأبيه مدةً طويلةً، وبعد أن هاجرَ إلى الشامِ وبنى المسجِدَ الحرامَ، وبعد أن وُلِدَ له إسماعيلُ وإسحاقُ -عليهما السلامُ- في قولِه: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]. وقد استغفر المسلِمونَ لقراباتِهم وأهليهم من المُشرِكين في ابتداءِ الإسلامِ؛ وذلك اقتداءً بإبراهيمَ الخليلِ في ذلك، حتى أنزل الله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الممتحنة: ٤]، يعني: إلَّا في هذا القولِ، فلا تتأسَّوا به. ثمَّ بيَّن =

كما حكى تعالى قَولَ إبراهيمَ: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾.

أي: إنِّي عَهِدتُ رَبِّي لطيفًا، مُعتَنيًا بي، شديدَ البِرِّ والإكرامِ لي، كثيرَ الإحسانِ إليَّ، وقد هداني وعوَّدَني إجابةَ دُعائي[1].

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾.

﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وأجتَنِبُكم وآلِهَتَكم التي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ[2].

﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾.

أي: وأعبُدُ رَبِّي وَحدَه، وأدعوه مُخلِصًا له لا أُشرِكُ به شيئًا[3].

﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾.

= تعالى أنَّ إبراهيمَ أقلعَ عن ذلك، ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ * وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤]. ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٢، ١٢٣).

أي: أرجو ألَّا أشقَى بدُعائي لربِّي، وإفرادي له بالعبادةِ، بل أرجو أن يجيبَني، ويتقَبَّلَ أعمالي ويُسعِدَني(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

أي: فلمَّا اجتنَبَ إبراهيمُ قومَه، واجتنَب عبادةَ أصنامِهم وهاجَر؛ رزَقْناه ابنَه إسحاقَ وحفيدَه يعقوبَ(٢).*

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ٩٩، ١٠٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١- ٧٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).

قال ابن كثير: («عسى» هذه مُوجِبةٌ لا محالةَ؛ فإنَّه عليه السلام سيِّدُ الأنبياءِ بعد محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٤).

قال ابن الجوزي: (قال المفسِّرون: هاجَر عنهم إلى أرضِ الشَّامِ، فوهَب اللهُ له إسحاقَ ويعقوبَ، فآنسَ الله وحشَته عن فراقِ قَومِه بأولادٍ كرام). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣٤).

أي: وكلًّا مِن إسحاقَ ويعقوبَ جعَلْناه نبيًّا[١].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾.

أي: وأعطَينا إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ عِلمًا نافِعًا، وأعمالًا صالحةً، ورزقًا واسعًا، وذريَّةً كثيرةً، وشرفًا عظيمًا، وغيرَ ذلك من الخيراتِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

أي: وجعَلْنا لهم ثناءً حَسَنًا، وذِكرًا جميلًا عاليًا صادقًا، مُستَمِرًّا مَنشورًا بين النَّاسِ إلى يومِ القيامةِ[٣].

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ * إِنَّآ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٤٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٧)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).

أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴾[1] [ص: ٤٥، ٤٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- تأمَّلْ قولَ إبراهيمَ الخليلِ -عليه السَّلامُ- لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـٔٗا﴾ ابتدأ خطابَه بذِكْرِ أُبُوَّتِه الدَّالَّةِ على توقيرِه، ولم يُسَمِّه باسمِه، ثم أخرجَ الكلامَ معه مَخْرَجَ السُّؤالِ، فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـٔٗا﴾ ولم يقُلْ: «لا تعبُدْ»، ثمَّ قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ فلم يقُلْ له: «جاهلٌ لا عِلْمَ عندك!»، بل عَدَل عن هذه العبارةِ إلى ألطفِ عبارةٍ تدلُّ على هذا المعنى، فقال: ﴿جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾، فأتَى بصيغةٍ تقتضي أنَّ عندي وعندك علمًا، وأنَّ الذي وصَل إليَّ لم يصلْ إليك، ولم يأتِك، فينبغي لك أن تتبعَ الحجةَ، وتنقادَ لها، ثم قال: ﴿فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾، وهذا مِثْلُ قولِ موسى لفرعونَ: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [النازعات: ١٩]، ثمَّ قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ فنسَبَ الخوفَ إلى نفْسِه دون أبيه، كما يَفعَلُ الشفيقُ الخائفُ على مَن يُشْفِقُ عليه، وقال: ﴿يَمَسَّكَ﴾ فذكَر لفظَ المَسِّ الذي هو ألطفُ مِن غيره، ثم نكَّرَ العذابَ، ثمَّ ذكَرَ الرحمنَ، ولم يقلِ: «الجبارُ» ولا «القهارُ»، فأيُّ خطابٍ ألطفُ وألينُ مِن هذا[2]؟!

٢- نصيحةُ الابنِ لأبيه أو لأمِّه أو لأقاربه ليست عقوقًا للوالِدَينِ، ولا قطيعةً للأقاربِ، بل هذا مِن برِّ الوالِدَينِ وصِلةِ الأقاربِ؛ فالواجِبُ على الإنسانِ أن

---

(١) قال ابنُ القيم في قولِه: ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾: (هو الذِّكرُ الجميلُ الَّذي يُذكرونَ به في هذه الدَّارِ). ((الجواب الكافي)) (ص: ٨٠)، وفي هذه الآيةِ أقوالٌ أُخرَى. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٨).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٤).

يبَرَّ والدَيه بنصيحتِهما، وأن يصِلَ أقارِبَه بنَصيحتِهم، كما قال الله تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وإذا غَضِبَ الوالدانِ أو الأقاربُ مِن هذه النَّصيحةِ فغَضَبُهم عليهم، وليس عليك منهم شيءٌ، ولا يُعَدُّ إغضابُهم بالنصيحةِ قطيعةً ولا عقوقًا، ولكن يجِبُ عليك أن تكون حكيمًا في النصيحةِ، بأن تتحرَّى الأحوالَ التي يكونون بها أقرَبَ إلى الإجابةِ والقَبولِ، وألَّا تُعَنِّفَ وتَسُبَّ وتَشتُمَ؛ لأنَّ هذا قد ينفِّرُ من تُوجِّهُ إليهم النصيحةَ، فإذا أتيتَ بالتي هي أحسَنُ مُخلِصًا لله عزَّ وجلَّ مُمتَثِلًا لأمرِه، ناصِحًا لعباده؛ كان في هذا خيرٌ كثيرٌ، ولا يضُرُّك غَضَبُ مَن غَضِبَ، ولنا في قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السلامُ مع أبيه أُسوةٌ، لما نصَحه إبراهيمُ عليه السلامُ متلطفًا في خطابِه، ماذا قال له أبوه: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ فهل تجدُ غضبًا أشدَّ مِن هذا الغضبِ؟! يقول لابنِه: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ ويقولُ: ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ طويلًا، فماذا قال له: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ فاتَّخِذْ من هذه القصةِ عبرةً[1].

٣- قال الله تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ... ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ فرتَّب نبيُّ الله إبراهيمُ صلَّى الله عليه وسلَّم كلامَه في غايةِ الحُسنِ؛ لأنَّه نبَّه أوَّلًا على ما يدُلُّ على المنعِ مِن عبادةِ الأوثانِ، ثمَّ أمَرَه باتِّباعِه فيما يدعو إليه مِن التوحيدِ ونبذِ الشركِ، ثمَّ نبَّه على أنَّ طاعةَ الشيطانِ غيرُ جائزةٍ في العقولِ، ثمَّ ختم الكلامَ بالوعيدِ الزَّاجِرِ عن الإقدامِ على ما لا ينبغي، ثمَّ إنَّه عليه السَّلامُ أورد هذا الكلامَ الحَسَنَ مَقرونًا باللُّطفِ والرِّفقِ؛ فإنَّ قولَه

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٢٨٥).

في مُقدِّمةِ كُلِّ كلامٍ: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، دليلٌ على شِدَّةِ الحُبِّ، والرَّغبةِ في صَونِه عن العِقابِ، وإرشادِه إلى الصوابِ، وختَم الكلامَ بقَولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ وذلك يدُلُّ على شِدَّةِ تعَلُّقِ قَلبِه بمصالحِه، وإنَّما فعَل ذلك لوجوهٍ:

أحدُها: قضاءً لحَقِّ الأبوَّةِ على ما قال تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾[الإسراء: ٢٣]. والإرشادُ إلى الدينِ مِن أعظَمِ أنواعِ الإحسانِ، فإذا انضاف إليه رعايةُ الأدبِ والرِّفقِ، كان ذلك نورًا على نور.

وثانيها: أنَّ الهاديَ إلى الحقِّ لا بدَّ أن يكونَ رفيقًا لطيفًا، يورِدُ الكلامَ لا على سبيلِ العُنفِ؛ لأنَّ إيرادَه على سبيلِ العُنفِ يصير كالسبَّبِ في إعراضِ المُستَمِع، فيكونُ ذلك في الحقيقةِ سَعيًا في الإغواءِ[١].

٤- سمَّى اللهُ تعالى طاعةَ الشَّيطانِ في معصيتِه عِبادةً للشَّيطانِ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠]، وقال حاكيًا عن خليلِه إبراهيمَ أنَّه قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾، فمن لم يحقِّقْ عُبوديَّةَ الرَّحمنِ وطاعتَه، فإنَّه يعبُدُ الشَّيطانَ بطاعتِه له، ولم يَخلُصْ مِن عبادةِ الشَّيطانِ إلَّا مَن أخلَصَ عبوديَّةَ الرَّحمنِ، وهم الذين قال اللهُ فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]؛ فهم الذين حَقَّقوا قَولَ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» وأخلصوا في قَولِها، وصَدَّقوا قَولَهم بفِعلِهم، فلم يلتَفِتوا إلى غَيرِ الله؛ محبَّةً ورجاءً، وخشيةً وطاعةً وتوكُّلًا، وهم الذين صَدَقوا في قَولِ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» وهم عبادُ الله حقًّا، فأمَّا مَن قال: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» بلِسانِه، ثمَّ أطاع الشَّيطانَ وهواه في مَعصيةِ الله ومخالفتِه؛ فقد كَذَّب فِعلُه قَولَه، ونَقَص مِن كَمالِ توحيدِه بقَدرِ مَعصيةِ اللهِ في طاعةِ الشَّيطانِ والهوى.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٤٥).

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠] ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(١) [ص: ٢٦].

٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ في ذِكرِ إضافةِ العِصيانِ إلى اسمِ الرَّحمنِ إشارةٌ إلى أنَّ المعاصيَ تمنعُ العبدَ مِن رَحمةِ اللهِ، وتُغلِقُ عليه أبوابَها، كما أنَّ الطاعةَ أكبَرُ الأسبابِ لِنَيلِ رَحمتِه(٢).

٦- قولُه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ التَّعبيرُ بالخوفِ الدَّالِّ على الظَّنِّ دونَ القطعِ: تأدُّبٌ مع اللهِ تعالى بألَّا يُثْبِتَ أمرًا فيما هو مِن تصرُّفِ اللهِ، وإبقاءٌ للرَّجاءِ في نفْسِ أبيه؛ لينظُرَ في التَّخلُّصِ من ذلك العذابِ بالإقلاعِ عن عبادةِ الأوثانِ(٣).

٧- قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ في ذلك تَسليةٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم، وتأسيةٌ فيما كان يلقَى مِن الأذى، ويُقاسي مِن قَومِه مِن العناءِ، ومِن عَمِّه أبي لهبٍ مِن الشَّدائِدِ والبلايا: بأعظَمِ آبائِه وأقرَبِهم به شَبَهًا(٤).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ هذا دليلٌ على جوازِ مُتاركةِ المنصوحِ إذا ظهَر منه اللَّجاجُ(٥).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ هذا دليلٌ على أنَّه تَحسُنُ مُقابلةُ الإساءةِ

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٨).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٤٦).

بالإحسانِ[١]، فقولُه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَ﴾ توديعٌ ومُتارَكةٌ على طريقةِ مُقابلةِ السَّيِّئةِ بالحسنةِ، أي: لا أُصيبُك بمكروهٍ بعْدُ، ولا أُشافِهُك بما يُؤذيك[٢]. ويجوزُ أنْ يكونَ قد دعا له بالسَّلامةِ؛ استمالةً له، ودليلُ ذلك أنَّه وعَدَه الاستغفارَ[٣]. وبادرَهُ بالسَّلامِ قبْلَ الكلامِ الَّذي أعقبَه به؛ إشارةً إلى أنَّه لا يَسوؤه ذلك الهجْرُ في ذاتِ اللهِ تعالى ومَرضاتِه[٤].

١٠- قال الله تعالى حاكيًا عن إبراهيمَ: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ قال بعضُ الحُكَماءِ: (من هاجر لطَلَبِ رِضا اللهِ عَزَّ وجَلَّ، أكرمَه الله عزَّ وجلَّ في الدُّنيا والآخرةِ)، كما أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ هاجر مِن قَومِه في طلَبِ رِضا الله تعالى عنه، فأكرَمَه الله تعالى[٥]، وعوَّضه أولادًا مؤمنينَ أنبياءَ، فما خسِر على اللهِ أحدٌ ترَك الكفَّارَ الفسقةَ لوجهِه[٦]، واللَّهُ سبحانَه يَجْزي العبدَ على عملِه بما هو مِن جنسِ عملِه، ومَن ترَك لِلَّهِ شيئًا عَوَّضه اللَّهُ خيرًا منه[٧].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ النبيُّ يجِبُ أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٧٦-٣٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢).

(٧) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٩).

يكونَ صادِقًا في كلِّ ما أخبَرَ عنه؛ لأنَّ اللهَ تعالى صَدَّقَه، ومَن يُصَدِّقْه اللهُ فهو صادِقٌ، وإلَّا لزِمَ الكَذِبُ في كلامِ اللهِ تعالى؛ فيلزمُ مِن هذا كَونُ الرَّسولِ صادِقًا في كُلِّ ما يقولُ، ولأنَّ الرُّسُلَ شُهَداءُ اللهِ على النَّاسِ، على ما قال اللهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، والشَّهيدُ إنَّما يُقبَلُ قَولُه إذا لم يكُنْ كاذِبًا، فلمَّا ثَبت أنَّ كُلَّ نبيٍّ يجِبُ أن يكونَ صِدِّيقًا، ولا يجِبُ في كلِّ صِدِّيقٍ أن يكونَ نبيًّا- ظَهَرَ بهذا قُربُ مَرتبةِ الصِّدِّيقِ مِن مَرتبةِ النبيِّ؛ فلهذا انتقَلَ مِن ذِكرِ كَونِه صِدِّيقًا إلى ذِكرِ كَونِه نبيًّا(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾، وقَولِه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ وقَولِه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾، وقَولِه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ تذكرةَ قَصصِ الأنبياءِ المتقَدِّمينَ هو ممَّا أمَرَ اللهُ به المؤمنينَ(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا * يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ فتدرَّج الخَليلُ عليه السَّلامُ بدعوةِ أبيه، بالأسهلِ فالأسهَلِ، فأخبَرَه بعِلمِه، وأنَّ ذلك مُوجِبٌ لاتِّباعِك إيايَ، وأنَّك إن أطعتَني اهتديتَ إلى صراطٍ مُستَقيمٍ، ثمَّ نهاه عن عبادةِ الشَّيطانِ، وأخبَرَه بما فيها من المضارِّ، ثمَّ حَذَّره عقابَ اللهِ ونِقمَتَه إن أقام على حالِه، وأنَّه يكونُ وليًّا للشَّيطانِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٤٢).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٤).

٤- قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾، فوَصَف الأوثانَ بصِفاتٍ ثلاثٍ، كُلٌّ واحدةٍ منها قادِحةٌ في الإلهيَّةِ، وبيانُ ذلك مِن أوجُهٍ:

أحدها: أنَّ العبادةَ غايةُ التعظيمِ؛ فلا يَستَحِقُّها إلَّا مَن له غايةُ الإنعامِ، وهو الإلهُ الذي منه أصولُ النِّعَمِ وفُروعُها؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [مريم: ٣٦]، وقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] الآية، وكما يُعلَمُ بالضَّرورةِ أنَّه لا يجوزُ الاشتِغالُ بشُكرِها ما لم تكُنْ مُنعِمةً، وجَبَ ألَّا يجوزَ الاشتِغالُ بعبادتِها.

ثانيها: أنَّها إذا لم تَسمَعْ ولم تُبصِرْ، ولم تميِّزْ مَن يُطيعُها عَمَّن يَعصيها، فأيُّ فائدةٍ في عبادتِها؟! وهذا ينبِّهُك على أنَّ الإلهَ يجِبُ أن يكونَ مَوصوفًا بصِفاتِ الكَمالِ، عالِمًا بكُلِّ المعلوماتِ؛ حتى يكونَ العبدُ آمِنًا مِن وُقوعِ الغَلَطِ للمَعبودِ.

ثالثها: أنَّ الدُّعاءَ هو العبادةُ؛ فالوَثَنُ إذا لم يَسمَعْ دُعاءَ الدَّاعي، فأيُّ مَنفعةٍ في عبادتِه؟! وإذا كانت لا تُبصِرُ بتقَرُّبِ مَن يتقَرَّبُ إليها، فأيُّ مَنفعةٍ في ذلك التقَرُّبِ؟!

رابعها: أنَّ السَّامِعَ المُبصِرَ، الضَّارَّ النَّافِعَ: أفضَلُ مِمَّن كان عاريًا عن كلِّ ذلك، والإنسانُ موصوفٌ بهذه الصِّفاتِ؛ فيكونُ أفضَلَ وأكمَلَ مِن الوَثَنِ، فكيف يليقُ بالأفضَلِ عِبادةُ الأخَسِّ؟!

خامسها: إذا كانت لا تنفَعُ ولا تضُرُّ، فلا يُرجَى منها مَنفَعةٌ، ولا يُخافُ مِن ضَرَرِها، فأيُّ فائدةٍ في عبادتِها؟!

سادسها: إذا كانت لا تحفَظُ أنفُسَها عن الكَسرِ والإفسادِ، على ما حكى اللهُ

تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه كَسَرَها، وجعَلَها جُذاذًا؛ فأيُّ رجاءٍ للغيرِ فيها[(١)]؟!

٥- قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ عاب الوَثَنَ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ؛ أحَدُها: لا يسمَعُ، وثانيها: لا يُبصِرُ. وثالثها: لا يغني عنك شيئًا، كأنه قال له: بل الإلهيَّةُ ليست إلَّا لربي؛ فإنَّه يسمَعُ ويُجيبُ دَعوةَ الداعي ويُبصِرُ، كما قال: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ويقضي الحوائِجَ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[(٢)] [النمل: ٦٢]. فالآيةُ فيها دَلالةٌ على أنَّ مَنْ لا يتَّصِفُ بصِفاتِ الكَمالِ لا يصلحُ أنْ يكونَ ربًّا ولا إلهًا[(٣)].

٦- في قَولِه تعالى عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ ردٌّ على المعتزلةِ والجَهميَّةِ، إذْ لا يُنْكِرُ إبراهيمُ على أبيه ما لا يَسمَعُ ولا يُبصِرُ إلَّا ومعبودُه يُبصِرُ ويَسمعُ، ويُغني عن كلِّ شَيءٍ[(٤)].

٧- قال تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ تَفريعُ أمْرِه بأنْ يتَّبِعَه على الإخبارِ بما عندَه من العِلْمِ: دليلٌ على أنَّ أحقِّيَّةَ العالِمِ بأنْ يُتَّبَعَ مركوزةٌ في غريزةِ العُقولِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١٠/ ١٥٤)، ((تقريب التدمرية)) لابن عثيمين (ص: ٢٩).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٤١).

لم يزَلِ البشرُ يتقصَّونَ مظانَّ المعرفةِ والعلْمِ؛ لجلْبِ ما ينفَعُ، واتِّقاءِ ما يضُرُّ[١].

٨- قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ فقال: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ ولم يقُلْ: للجَبَّارِ؛ لئلَّا يُتوَهَّمَ أنَّه ما أملَى لعاصِيه مع جَبَروتِه إلَّا للعَجزِ عنه -سُبحانَه وتعالى-[٢].

٩- قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ إنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لإمعانِه في الإخلاصِ لم يذكُرْ مِن جناياتِ الشَّيطانِ إلَّا كَونَه عاصيًا لله تعالى، ولم يَذكُرْ مُعاداتَه لآدمَ عليه السَّلامُ، كأنَّ النَّظَرَ في عِظَمِ ما ارتكبَه من ذلك العِصيانِ غَمَّى فِكرَه، وأطبَقَ على ذِهنِه. وأيضًا فإنَّ مَعصيةَ اللهِ تعالى لا تَصدُرُ إلَّا عن ضَعيفِ الرَّأيِ، ومَن كان كذلك كان حقيقًا ألَّا يُلتفَتَ إلى رأيِه، ولا يُجعَلَ لِقَولِه وَزنٌ[٣].

١٠- قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ كلُّ مَن كان الشَّيطانُ يُزَيِّنُ له الكُفرَ والمعاصيَ فيَتَّبِعُه في ذلك في الدنيا، فلا وليَّ له في الآخرةِ إلَّا الشَّيطانُ[٤].

١١- قال الله تعالى حكايةً عن والدِ إبراهيمَ: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ بيَّنَ الله جلَّ وعلا هنا أنَّ إبراهيمَ لَمَّا نصَح أباه النَّصيحةَ المذكورةَ، مع ما فيها مِن الرِّفقِ واللِّينِ، وإيضاحِ الحَقِّ، والتحذيرِ مِن عبادةِ ما لا يَسمَعُ ولا يُبصِرُ، ومِن عذابِ الله تعالى ووَلايةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٥-١١٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٤٤).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٦).

الشَّيطانِ- خاطَبَه هذا الخِطابَ العَنيفَ، وسمَّاه باسمِه لا بلَفظِ البُنُوَّة المذكِّرِ بالشَّفقةِ والعَطفِ؛ زيادةً في الإشارةِ إلى المقاطعةِ وتَوابِعِها، فلم يقُلْ له: (يا بُنَيَّ) في مقابلةِ قولِه له: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ﴾، وأنكَر عليه أنَّه راغِبٌ عن عبادةِ الأوثانِ(١)!

١٢- لمَّا كان في قولِه: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ فظاظةٌ وقساوةُ قلْبٍ، قابَلَه إبراهيمُ عليه السلامُ بالدُّعاءِ له بالسَّلامِ والأمْنِ، ووعَدَه بالاستغفارِ؛ قضاءً لحقِّ الأُبوَّةِ، وإنْ كان قد صدَرَ منه إغلاظٌ(٢).

١٣- في قولِ الله تعالى حاكيًا عن إبراهيمَ: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم شَقُوا بعبادةِ الأصنامِ؛ لأنَّها لا تنفَعُهم، ولا تجيبُ دُعاءَهم(٣).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۞ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ دَلالةٌ على أنَّ طاعةَ المؤمنِ تُثمِرُ له الثَّوابَ في الدُّنيا والآخرةِ(٤).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۞ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الشَّيءَ إذا سُمِّيَ به شيءٌ، جاز أن يُنقلَ إلى غيرِه؛ لِسَعةِ اللِّسانِ؛ إذِ اللسانُ المعروفُ عند العامَّةِ هو الذي يُنطَقُ به، وقد نُقِلَ في هذا الموضِعِ إلى الثَّناءِ الحَسَنِ(٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٧٢).
(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٦٠).
(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٤٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٤٦).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا * وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ دَلالةٌ على أنَّ الثَّناءَ الحَسَنَ حِليةٌ جميلةٌ يُلبِسُ اللهُ عبدَه المؤمِنَ التقيَّ؛ لأنَّ ﴿لِسَانَ صِدۡقٍ﴾ في هذا الموضِعِ هو الثناءُ الحَسَنُ، وإذا كان اللهُ بجودِه جعَلَه في عِداد النِّعَم، ومَدَحَ به مَن جعَلَه فيه، لم يَجُزْ للمؤمِنِ أنْ يكرَهَه، وكان له أن يفرحَ به، ويَعُدَّه مِن كِبارِ نِعَمِ اللهِ عليه(١).

١٧- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ المرادُ باللِّسانِ هاهنا: الثَّناءُ الحَسَنُ. فلمَّا كان الصِّدقُ باللِّسانِ، وهو محَلُّه، أطلَقَ اللهُ سُبحانَه ألسِنةَ العبادِ بالثَّناءِ على الصَّادقِ؛ جزاءً وِفاقًا، وعبَّرَ به عنه(٢).

١٨- مِن أعظَمِ نِعَمِ اللهِ على العَبدِ: أن يَرفَعَ له بينَ العالَمينَ ذِكرَه، ويُعلِيَ قَدْرَه؛ ولهذا خَصَّ أنبياءَه ورُسُلَه مِن ذلك بما ليس لِغَيرِهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ * إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص: ٤٥، ٤٦]، أي: خصَصْناهم بخَصيصةٍ، وهو الذِّكرُ الجَميلُ الذي يُذكَرونَ به في هذه الدَّارِ -وهذا على قَولٍ في الآيةِ- وهو لِسانُ الصِّدقِ الذي سأله إبراهيمُ الخَليلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيث قال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقال سُبحانَه وتعالى عنه وعن بنيه: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم: ٥٠]، وقال لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح: ٤]؛ فأتباعُ الرُّسُلِ لهم نَصيبٌ مِن ذلك بحَسَبِ مِيراثِهم مِن طاعتِهم ومُتابعتِهم، وكُلُّ مَن خالفَهم فإنَّه بَعيدٌ مِن

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٦٠).

ذلك بحسَبِ مُخالفتِهم ومَعصيتِهم[(١)].

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾

- في قولِه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ قُدِّمَ ذِكْرُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه لمَّا كان قد جاء بالحَنيفيَّةِ وخالَفَها العربُ بالإشراكِ، وهم ورثةُ إبراهيمَ، كان لتَقديمِ ذِكْرِه على بقيَّةِ الأنبياءِ الموقعُ الجليلُ مِن البلاغةِ. وفي ذلك تَسليةٌ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما لقِيَ من مُشرِكي قومِه؛ لمُشابهةِ حالِهم بحالِ قومِ إبراهيمَ[(٢)].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتعليلِ مُوجبِ الأمرِ؛ فإنَّ وصْفَه -عليه السَّلامُ- بذلك مِن دواعي ذِكْرِه[(٣)]. وهو تعليلٌ للاهتمامِ بذكْرِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ في التِّلاوةِ[(٤)].

- وفيه تأكيدُ هذا الخبرِ بحرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ بتَحقيقِه زيادةً في الثَّناءِ عليه[(٥)].

- وقولُه: ﴿نَّبِيًّا﴾ خبرٌ آخرُ لـ (كان) مُقيِّدٌ للأوَّلِ مُخصِّصٌ له، ولعلَّ هذا التَّرتيبَ للمُبالغةِ في الاحترازِ عن توهُّمِ تَخصيصِ الصِّدِّيقيَّةِ بالنُّبوَّةِ؛ فإنَّ كلَّ نَبيٍّ صِدِّيقٌ[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٦).

٢- قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾

- قولُه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ فيه افتتاحُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ خِطابَه أباهُ بندائِه ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، مع أنَّ الحضرةَ مُغنيةٌ عن النِّداءِ؛ قصدًا لإحضارِ سمْعِه وذِهْنِه لتلقِّي ما سيُلْقِيه إليه[١].

- وقد كُرِّرتْ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ أربعَ مرَّاتٍ؛ لأنَّه ذكَرَها للاستعطافِ[٢]، وقيل: تكرارُ النِّداءِ أربَعَ مرَّاتٍ اقتضاهُ مَقامُ استنزالِه إلى قَبولِ الموعظةِ؛ لأنَّها مقامُ إطنابٍ[٣].

- قولُه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ استفهَمَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ عن السَّببِ الحاملِ لأبيه على عِبادةِ الصَّنمِ، وهو مُنتفٍ عنه السَّمعُ والبصرُ، والإغناءُ عنه شيئًا؛ تَنبيهًا على شُنْعةِ الرَّأيِ، وقُبْحِه وفسادِه في عِبادةِ مَن انتفَتْ عنه هذه الأوصافُ[٤].

- قولُه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ كِنايةٌ عن التَّعجيزِ عن إبداءِ المسؤولِ عنه؛ فهو مِن التَّوريةِ في مَعنيينِ يَحتمِلُهما الاستفهامُ[٥].

- ومعمولُ ﴿يَسْمَعُ﴾ و﴿يُبْصِرُ﴾ مَنسيٌّ ولا يُنْوَى، أي: ما ليس به استماعٌ ولا إبصارٌ؛ لأنَّ المقصودَ نفْيُ هاتينِ الصِّفتينِ دونَ تَقييدٍ بمُتعلَّقٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٨).

٣- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ في إعادةِ نِدائِه بوصْفِ الأُبُوَّةِ: تأكيدٌ لإحضارِ الذِّهنِ، ولإمحاضِ النَّصيحةِ المُستفادِ من النِّداءِ الأوَّلِ[(١)].

- وقال: ﴿مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ على سَبيلِ التَّبعيضِ، أي: شيء من العلْمِ ليس معك[(٢)].

٤- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ فيه إعادةُ النِّداءِ في قولِه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾؛ لزيادةِ تأكيدِ ما أفادهُ النِّداءُ الأوَّلُ والثَّاني. وفيه: إيجازٌ بالحذفِ؛ حيث إنَّ الكلامَ معناهُ: لا تعبُدِ الأصنامَ؛ لأنَّ اتِّخاذَها مِن تَسويلِ الشَّيطانِ للَّذين اتَّخذوها ووضَعُوها للنَّاسِ، وعِبادتَها مِن وَساوسِ الشَّيطانِ للَّذين سَنُّوا سننَ عِبادتِها، ومِن وَساوسِه للنَّاسِ الَّذين أطاعوهم في عِبادتِها، فمَن عبَدَ الأصنامَ فقد عبَدَ الشَّيطانَ، وكفَى بذلك ضَلالًا معلومًا. وفي هذا تَبغيضٌ لعبادةِ الأصنامِ؛ لأنَّ في قرارةِ نُفوسِ النَّاسِ بُغْضَ الشَّيطانِ، والحذَرَ من كيْدِه[(٣)].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ تعليلٌ لمُوجِبِ النَّهيِ، فهو تَعليلٌ للنَّهيِ عن عبادتِه وعبادةِ آثارِ وَسوستِه بأنَّه شديدُ العصيانِ للرَّبِّ واسعِ الرَّحمةِ. وتأكيدٌ له ببيَانِ أنَّه مُستعصٍ على ربِّك الَّذي أنعمَ عليك بفُنونِ النِّعمِ، ولا ريبَ أنَّ المُطيعَ للعاصي عاصٍ، وكلُّ مَن هو عاصٍ حقيقٌ بأنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٨-٢٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٦).

يَستَرِدَّ منه النِّعمَ، وينتقِمَ منه[١].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ بعدَ قولِه: ﴿لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ إظهارُ اسمِ الشَّيطانِ في مَقامِ الإضمارِ؛ إذ لم يقُلْ: (إنَّه كان للرَّحمنِ عصيًّا)؛ لإيضاحِ إسنادِ الخبرِ إلى المُسنَدِ إليه، ولزيادةِ التَّنفيرِ من الشَّيطانِ؛ لأنَّ في ذِكْرِ صَريحِ اسْمِه تَنبيهًا إلى النُّفرةِ منه، ولتكونَ الجُملةُ موعظةً قائمةً بنفْسِها[٢].

- وجاء لفظُ (الرَّحمنِ) هنا؛ تَنبيهًا على سَعةِ رحمتِه، وأنَّ مَن هذا وصْفُه هو الَّذي يَنْبغي أنْ يُعبَدَ ولا يُعْصى، ولإظهارِ كَمالِ شَناعةِ عصيانِه؛ حيث عصى مَن هذه صِفَتُه، وارتكَبَ من ذلك ما طرَدَه مِن هذه الرَّحمةِ[٣].

- والاقتصارُ على ذِكْرِ عصيانِه من بينِ سائرِ جِناياتِه؛ لأنَّه مِلاكُها، أو لأنَّه نَتيجةُ مُعاداتِه لآدمَ عليه السَّلامُ وذُرِّيتِه؛ فتَذكيرُه داعٍ لأبيه إلى الاحترازِ عن مُوالاتِه وطاعتِه[٤].

- وذكْرُ وصْفِ ﴿عَصِيّٗا﴾ الَّذي هو من صِيَغِ المُبالغةِ في العصيانِ، مع زيادةِ فعْلِ (كان)؛ للدَّلالةِ على أنَّه لا يُفارِقُ عِصيانَ ربِّه، وأنَّه مُتمكِّنٌ منه، فلا جرَمَ أنَّه لا يأمُرُ إلَّا بما يُنافي الرَّحمةَ، أي: بما يُفْضي إلى النِّقمةِ، ولذلك اخْتِيرَ وصْفُ الرَّحمنِ من بينِ صفاتِ اللهِ تعالى؛ تَنبيهًا على أنَّ عِبادةَ الأصنامِ تُوجِبُ غضَبَ اللهِ، فتُفْضي إلى الحرمانِ من رَحمتِه، فمَن كان هذا حالَهُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٤١٥).

فهو جديرٌ بألَّا يُتَّبَعَ(١).

٥- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ خوَّفَه إبراهيمُ سُوءَ العاقبةِ، وتأدَّبَ معه؛ إذ لم يُصرِّحْ بلُحوقِ العذابِ به، بل أخرَجَ ذلك مَخرجَ الخائفِ، وأتى بلفظِ (المَسِّ) الَّذي هو ألطَفُ من المُعاقبةِ، ونكَّرَ (العذابَ)، ورتَّبَ على مَسِّ العذابِ ما هو أكبرُ منه، وهو ولايةُ الشَّيطانِ، كما قال في مُقابلِ ذلك: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: ٧٢]. وقيل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، والتَّقديرُ: إنِّي أخافُ أنْ تكونَ وليًّا في الدُّنيا للشَّيطانِ، فيمسَّكَ في الآخرةِ عذابٌ من الرَّحمنِ. وقيل: لا يتعيَّنُ أنَّ العذابَ يكونُ في الآخرةِ، بل يَحْتَمِلُ أنْ يُحمَلَ العذابُ على الخِذلانِ من اللهِ، فيَصيرَ مُواليًا للشَّيطانِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مَسُّ العذابِ في الدُّنيا بأنْ يُبْتَلى على كُفرِه بعذابٍ في الدُّنيا، فيكون ذلك العذابُ سببًا لِتَماديه على الكُفرِ، وصَيرورتِه إلى ولايةِ الشَّيطانِ إلى أنْ يُوافي على الكُفْرِ(٢).

- وكلمةُ (مِن) مُتعلِّقةٌ بمُضمرٍ وقَعَ صِفةً للعذابِ، مُؤكِّدةٌ لِما أفادهُ التَّنكيرُ في (عذاب) من الفخامةِ الذَّاتيَّةِ بالفخامةِ الإضافيَّةِ(٣).

- وذِكْرُ الخوفِ والمَسِّ وتَنكيرُ العذابِ؛ إمَّا للمُجامَلةِ، وإبرازِ الاعتناءِ بأمْرِه، أو لخفاءِ العاقبةِ(٤).

- قولُه: ﴿أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عبَّرَ عن الجلالةِ بوصْفِ (الرَّحمنِ)؛ للإشارةِ إلى أنَّ حُلولَ العذابِ ممَّن شأْنُه أنْ يَرْحَمَ إنَّما يكونَ لفظاعةِ جُرمِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٧-٢٦٨).

إلى حدٍّ أنْ يَحرِمَه مِن رَحمتِه مَن شأنُه سَعةُ الرَّحمةِ[١].

- قولُه: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا﴾ كُنِّي بالولايةِ عن المُقارَنةِ في المصيرِ[٢].

- وهذه الآياتُ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ إلى قولِه: ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا﴾ بلغَتْ ذِروةَ البلاغةِ، وانطوَتْ على معاجزَ تُذهِلُ العُقولَ؛ فمنها الاستدراجُ[٣]، وحسنُ التَّرتيبِ والاتِّساق، وكلُّ هذا ظاهرٌ في هذه الآياتِ: فحين أراد إبراهيمُ أنْ ينصَحَ أباهُ ويَعِظَه فيما كان مُتورِّطًا فيه من الخطَأِ العظيمِ، والارتكابِ الشَّنيعِ؛ رتَّبَ الكلامَ معه في أحسنِ اتِّساقٍ، مع استعمالِ المُجامَلةِ واللُّطفِ والرِّفقِ، والأدبِ الجميلِ والخُلقِ الحسنِ؛ وذلك أنَّه طلَبَ منه أوَّلًا: العلَّةَ في خطئِه؛ لأنَّ المعبودَ لو كان حيًّا مُميزًا سميعًا بصيرًا، مُقتدِرًا على الثَّوابِ والعقابِ، نافعًا ضارًّا، إلَّا أنَّه بعضُ الخلْقِ: لاسْتُخِفَّ عقْلُ مَن أهَّلَه للعبادةِ، ووصَفَه بالرُّبوبيةِ، ولسُجِّلَ عليه بالغيِّ المُبينِ، والظُّلمِ العظيمِ، وإنْ كان أشرَفَ الخلْقِ، وأعلاهم منزلةً، فما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٧-١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٨).

(٣) الاستدراجُ لُغةً: الترقيةُ والإدناءُ على التدريجِ، والأخْذُ قليلًا قليلًا وعدَمُ المُباغَتةِ. أو التوصُّلُ إلى حُصولِ المقصودِ من غيرِ إشعارٍ مِن أوَّلِ وهلةٍ.

واصطلاحًا: هو الكلامُ المشتمِلُ على إسماعِ الحقِّ على وجهٍ لا يُورِثُ مزيدَ غضَبِ المخاطَبِ، سواء كان فيه تعريضٌ أو لا، كقولِه تعالى عن مُؤمِنِ (يس): ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [يس: ٢٢]، أي: ما لكم -أيُّها الكَفرةُ- لا تَعبُدون الذي خلقَكم، ثم قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ ففيه تعريضٌ لهم بأنَّهم على الباطلِ، ولم يُصرِّحْ بذلك؛ لئلَّا يزيدَ غضبُهم، حيثُ يُريدُ المتكلِّمُ لهم ما يُريدُ لنَفْسِه، وسمَّاه بعضهم: «المُنصِف من الكلام»، ومنه قولُ الخليل عليه السَّلامُ لأبيه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٥/ ٥٥٩- ٥٦٠)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١١١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١١٠).

ظنُّك بمَن وجَّهَ عِبادتَه إلى جمادٍ ليس به حسٌّ ولا شُعورٌ؟! ثمَّ ثَنَّى بدعوتِه إلى الحقِّ مُترفِّقًا به مُتلطِّفًا، ثمَّ ثلَّثَ بتَثبيطِه ونهْيِه عمَّا كان عليه بأنَّ الشَّيطانَ الَّذي استعصى على ربِّك الرَّحمنِ، الَّذي جميعُ ما عندَك مِن النِّعمِ مِن عندِه، وهو عدُوُّك الَّذي لا يُريدُ بك إلَّا كلَّ هلاكٍ وخزْيٍ ونكالٍ، هو الَّذي ورَّطَك في هذه الضَّلالةِ، وزيَّنَها لك، فأنت إنْ حقَّقتَ النَّظرَ عابدُ الشَّيطانَ، ثمَّ ربَّعَ بتخويفِه سُوءَ العاقبةِ، وبما يجُرُّه ما هو فيه مِن التَّبعةِ والوبالِ، ولم يخْلُ ذلك مِن حُسنِ الأدبِ؛ حيث لم يُصرِّحْ بأنَّ العقابَ لاحقٌ له، وأنَّ العذابَ لاصقٌ به، ولكنَّه قال: ﴿أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾[1].

٦- قولُه تعالى: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ استئنافٌ مَبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ من صدْرِ الكلامِ، كأنَّه قيلَ: فماذا قال أبوهُ عندما سمِعَ منه عليه السَّلامُ هذه النَّصائحَ الواجبةَ القَبولِ؟ فقيل: قال مُصِرًّا على عِنادِه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾، بتَوجيهِ الإنكارِ إلى نفْسِ الرَّغبةِ، مع ضرْبٍ مِن التَّعجُّبِ؛ كأنَّ الرَّغبةَ عنها ممَّا لا يَصدُرُ عن العاقلِ، فضْلًا عن تَرغيبِ الغيرِ عنها[2].

- ولمَّا أطلَعَه على سَماجةِ صُورةِ أمْرِه، وهدَمَ مذهبَه بالحُججِ القاطعةِ، وناصَحَه المُناصحةَ العجيبةَ، مع تلك المُلاطفاتِ، فقابَلَ استعطافَه ولُطفَه في الإرشادِ بفظاظةِ الكُفرِ وغِلظةِ العنادِ؛ فناداهُ باسْمِه، ولم يُقابِلْ: (يا أَبَتِ) بـ(يا بُنَيَّ). وقدَّمَ الخبرَ على المُبتدأِ في قولِه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠-٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١-١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٨).

﴿ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾؛ لأنَّه كان أهمَّ عنده، وهو عنده أعْنى. وصَدَّرَه بالهمزةِ؛ لإنكارِ نفْسِ الرَّغبةِ عن آلهتِه على ضرْبٍ من التَّعجُّبِ، وأنَّ آلهتَه ما يَنْبغي أنْ يَرْغَبَ عنها أحدٌ، كأنَّها ممَّا لا يرغَبُ عنها عاقلٌ. وفي هذا سُلوانٌ وثلْجٌ لصدْرِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا كان يَلْقَى مِن مثْلِ ذلك من كُفَّارِ قومِه(١)؛ فالاستفهامُ في ﴿أَرَاغِبٌ﴾ للإنكارِ؛ إنكارًا لِتَجافي إبراهيمَ عن عِبادةِ أصنامِهم. وإضافةُ الآلهةِ إلى ضَميرِ نفْسِه إضافةَ ولايةٍ وانتسابٍ إلى المُضافِ؛ لقصْدِ تَشريفِ المُضافِ إليه. وقد جاء في جوابِه دعوةَ ابْنِه بمُنتهَى الجفاءِ والعُنْجُهيَّةِ بعكْسِ ما في كلامِ إبراهيمَ من اللِّينِ والرِّقَّةِ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّه كان قاسيَ القلْبِ، بعيدَ الفَهمِ، شديدَ التَّصلُّبِ في الكُفرِ(٢).

- والنِّداءُ في قولِه: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ تكملةٌ لجُملةِ الإنكارِ والتَّعجُّبِ؛ لأنَّ المُتعجَّبَ مِن فعْلِه مع حُضورِه يُقْصَدُ بندائِه تَنبيهُه على سُوءِ فعْلِه، كأنَّه في غَيبةٍ عن إدراكِ فعْلِه؛ فالمُتكلِّمُ يُنزِّلُه منزلةَ الغائبِ، فيُناديه لإرجاعِ رُشدِه إليه، فيَنْبغي الوقْفُ على قولِه: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾(٣).

- وجُملةُ: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَ﴾ مُستأنفةٌ، واللَّامُ في قولِه: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ﴾ مُوطِّئةٌ للقسمِ؛ تأكيدًا لكونِه راجِمَه إنْ لم يَنْتهِ عن كُفرِه بآلهتِهم(٤)، وهو تَهديدٌ وتحذيرٌ عمَّا كان عليه من العِظَةِ والتَّذكيرِ، أي: واللهِ لئِن لمْ تَنتهِ عمَّا كنْتَ عليه من النَّهيِ عن عِبادتِها، لَأَرجُمنَّك(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٨).

- ومُتعلِّقُ ﴿تَنتَهِ﴾ محذوفٌ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ: عن مُخاطَبتي بما خاطبْتَني به، ودَعوتني إليه، وأنْ يكونَ: لئنْ لم تَنتهِ عن الرَّغبةِ عن آلِهَتي[١].

- قولُه: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ الرَّجمُ: الرَّميُ بالحجارةِ، وهو كِنايةٌ مَشهورةٌ في معنى القتْلِ بذلك الرَّميِ[٢]، وهذا على قولٍ في التفسيرِ.

- وجُملةُ: ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ عطْفٌ على جُملةِ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾؛ وذلك أنَّه هدَّدَه بعُقوبةٍ آجلةٍ إنْ لم يُقلِعْ عن كُفرِه بآلهتِهم، وبعُقوبةٍ عاجلةٍ، وهي طردُه من مُعاشرتِه، وقطْعِ مُكالمتِه. وإنَّما أمَرَ أبو إبراهيمَ ابْنَه بهِجرانِه، ولم يُخْبِرْه بأنَّه هو يهجُرُه؛ ليدُلَّ على أنَّ هذا الهِجرانَ في معنى الطَّردِ والخلْعِ؛ إشعارًا بتَحقيرِه[٣]. وقيل: عطَفَ ﴿وَٱهْجُرْنِي﴾ على معطوفٍ عليه مَحذوفٍ، يدُلُّ عليه ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، أي: فاحْذَرْني واهجُرْني؛ لأنَّ ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ تَهديدٌ وتقريعٌ[٤].

٧- قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾

- قولُه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ جُملةٌ مُستأنفةٌ، وعلامةُ الاستقبالِ والفعْلُ المُضارعُ في قولِه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ﴾ مُؤذنانِ بأنَّه يُكرِّرُ الاستغفارَ في المُستقبلِ[٥].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ تعليلٌ لِما يَتضمَّنُه الوعدُ بالاستغفارِ من رَجاءِ المغفرةِ؛ استجابةً لدعوةِ إبراهيمَ بأنْ يُوفِّقَ اللهُ أبا إبراهيمَ للتَّوحيدِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢١).

ونبْذِ الإشراكِ[١].

٨- قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾

- جُملةُ: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾، أي: يقَعُ الاستغفارُ في المُستقبلِ، ويقَعُ اعتزالي إيَّاكم الآنَ؛ لأنَّ المُضارِعَ غالبٌ في الحالِ[٢].

- وضَميرُ جماعةِ المُخاطبينَ في ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾ عائدٌ إلى أبي إبراهيمَ وقومِه؛ تَنزيلًا لهم منزلةَ الحُضورِ في ذلك المجلسِ؛ لأنَّ أباهُ واحدٌ منهم، وأمْرُهم سواءٌ، أو كان هذا المقالُ جَرى بمَحضرِ جماعةٍ منهم[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عطَفَ على ضميرِ القومِ أصنامَهم؛ للإشارةِ إلى عداوتِه لتلك الأصنامِ؛ إعلانًا بتَغييرِ المُنكرِ، وعبَّرَ عن الأصنامِ بطريقِ الموصوليَّةِ بقولِه: ﴿وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ للإيماءِ إلى وجْهِ بِناءِ الخبرِ، وعلَّةِ اعتزالِه إيَّاهم وأصنامَهم: بأنَّ تلك الأصنامَ تُعْبَدُ مِن دونِ اللهِ، وأنَّ القومَ يَعْبدونها، فذلك وجْهُ اعتزالِه إيَّاهم وأصنامَهم[٤].

- قولُه: ﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ زاد على الإعلانِ باعتزالِ أصنامِهم الإعلانَ بأنَّه يَدْعو اللهَ؛ احتراسًا من أنْ يَحْسَبوا أنَّه نوَى مُجرَّدَ اعتزالِ عبادةِ أصنامِهم؛ فربَّما اقْتَنعوا بإمساكِه عنهم، ولذا بيَّنَ لهم أنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بعكْسِ ذلك؛ يَدْعو اللهَ الَّذي لا يَعْبدونه(١).

- وعبَّر عن اللهِ بوصْفِ الرُّبوبيَّةِ المُضافِ إلى ضَميرِ نفْسِه ﴿رَبِّي﴾؛ للإشارةِ إلى انفرادِه من بينِهم بعبادةِ اللهِ تعالى؛ فهو ربُّه وحدَه مِن بينِهم؛ فالإضافةُ هنا تُفيدُ معنى القصرِ الإضافيِّ، مع ما تضمَّنتْه الإضافةُ مِن الاعتزازِ برُبوبيَّةِ اللهِ إيَّاهُ، والتَّشريفِ لنفْسِه بذلك(٢).

- قولُه: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ في إعلانِه هذا الرَّجاءَ بينَ ظهرانَيْهم تَعريضٌ بشقاوتِهم بدُعاءِ آلهتِهم، معَ التَّواضُعِ للهِ بكلمةِ (عَسى) وما فيه من هضْمِ النَّفسِ(٣)، والتَّنبيهِ على أنَّ الإجابةَ والإثابةَ تفضُّلٌ غيرُ واجبتينِ، وأنَّ العِبرةَ بالخاتمةِ، وذلك مِن الغيوبِ المُختصَّةِ بالعليمِ الخبيرِ(٤). وقيل: كأنَّه احترَز بذلك عمَّا لا بدَّ للأولياءِ مِنه في الدُّنيا مِن البلاءِ(٥).

٩- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾

- طُوِيَ ذِكْرُ اعتزالِه إيَّاهم بعدَ أنْ ذكَرَ عزْمَه عليه؛ إيجازًا في الكلامِ؛ للعلْمِ بأنَّ مثْلَه لا يعزِمُ أمرًا إلَّا نفَّذَ عزْمَه، واكتفاءً بذِكْرِ ما ترتَّبَ عليه من جعْلِ عزْمِه حدَثًا واقعًا قد حصَلَ جزاؤُهُ عليه مِن ربِّه، فإنَّه لمَّا اعتزَلَ أباهُ وقومَه، واستوحَشَ بذلك الفراقِ، وهَبَه اللهُ ذُرِّيةً يأنَسُ بهم؛ إذ وهبَهُ إسحاقَ ابْنَه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٠٩).

ويعقوبَ ابنَ ابْنِه، وجعَلَهما نَبيَّينِ. وحسْبُك بهذه مَكرُمةً له عندَ ربِّه[١].

– قولُه: ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ لعلَّ تَرتيبَ هِبَتِهما على اعتزالِه هاهنا؛ لبَيانِ كمالِ عِظَمِ النِّعمِ الَّتي أعطاها اللهُ تعالى إيَّاهُ، بمُقابَلةِ مَنِ اعتزَلَهم من الأهلِ والأقرباءِ؛ فإنَّهما شَجرتا الأنبياءِ، لهما أولادٌ وأحفادٌ، أولو شأنٍ خطيرٍ، وذُو عددٍ كثيرٍ[٢].

– في قولِه: ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ خُصَّ إسحاقُ ويعقوبُ بالذِّكرِ؛ لأنَّهما شَجرتا الأنبياءِ، أو لأنَّه أراد أنْ يذكُرَ إسماعيلَ بفضْلِه على الانفرادِ[٣]. وقيل: إنَّما اقتصَرَ على ذكْرِ إسحاقَ ويعقوبَ دونَ ذكْرِ إسماعيلَ، فلم يقُلْ: (وهَبْنا له إسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ)؛ لأنَّ إبراهيمَ لَمَّا اعتزَلَ قومَه، خرَجَ بزوجِه سارةَ قريبتِه، فهي قد اعتزلَتْ قومَها أيضًا إرضاءً لربِّها ولزوجِها، فذكَر اللهُ الموهبةَ الشَّاملةَ لإبراهيمَ ولزوجِه؛ وهي أنْ وهَبَ لهما إسحاقَ وبعْدَه يعقوبَ، ولأنَّ هذه الموهبةَ لَمَّا كانت كِفاءً لإبراهيمَ على مُفارقتِه أباهُ وقومَه، كانتْ مَوْهبةَ مَن يُعاشِرُ إبراهيمَ ويُؤنِسُه، وهما إسحاقُ ويعقوبُ. أمَّا إسماعيلُ فقد أراد اللهُ أنْ يكونَ بعيدًا عن إبراهيمَ في مكَّةَ؛ ليكونَ جارَ بيتِ اللهِ، وإنَّه لجِوارٌ أعظمُ مِن جوارِ إسحاقَ ويعقوبَ أباهما[٤].

– والنُّكتةُ في ذِكْرِ يعقوبَ: أنَّ إبراهيمَ رآهُ حفيدًا وسُرَّ به؛ فقد وُلِدَ يعقوبُ قبْلَ موتِ إبراهيمَ، وأنَّ مِن يعقوبَ نشأَتْ أُمَّةٌ عظيمةٌ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٢٥).

- قولُه: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ ﴿وَكُلًّا﴾ مفعولٌ أوَّلُ لقولِه تعالى: ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾؛ قُدِّمَ عليه للتَّخصيصِ، لكنْ لا بالنِّسبةِ إلى مَن عَداهم، بل بالنِّسبةِ إلى بعضِهم، أي: كلَّ واحدٍ منهم جعَلْنا نَبيًّا لا بعضَهم دونَ بعضٍ(١).

١٠- قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ فيه إضافةُ اللِّسانِ إلى الصِّدقِ، ووصْفُه بالعُلوِّ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم أحِقَّاءُ بما يُثْنون عليهم، وأنَّ مَحامِدَهم لا تَخْفَى على تباعُدِ الأعصارِ، وتحوُّلِ الدُّولِ، وتبدُّلِ المِلَلِ والنِّحلِ(٢).

- وقد رُتِّبَ جزاءُ اللهِ إبراهيمَ على نبْذِه أهْلَ الشِّركِ ترتيبًا بديعًا؛ إذ جُوزِيَ بنعمةِ الدُّنيا وهي العقِبُ الشَّريفُ، ونِعمةِ الآخرةِ وهي الرَّحمةُ، وبأثَرِ تَيْنِك النِّعمتينِ وهو لسانُ الصِّدقِ؛ إذ لا يُذْكَرُ به إلَّا مَن حصَّلَ النِّعمتينِ(٣).



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٦).

الآيات (٥١-٥٨)

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ
ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ﴿٥٣﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ
كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا
﴿٥٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ
ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا
وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ۩ ﴿٥٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَجِيّٗا﴾: أي: مُناجِيًا، وأصلُه هنا: يدلُّ على سَتْرٍ وإخْفاءٍ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مادحًا نبيَّه موسى عليه السلامُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- في القُرآنِ لقومِك قِصَّةَ مُوسى عليه السَّلامُ، إنَّه كان مُصطفًى مُختارًا، وكان رسولًا نبيًّا، وناديَنا موسى مِن ناحيةِ جَبَلِ طُورِ سَيْناءَ الواقِعِ على يمينِ موسى، وقرَّبناه فشرَّفناه بمُناجاتِنا له بلا واسِطةٍ، ووهَبْنا لِموسى من رحمتِنا أخاه هارونَ نبيًّا يُعينُه ويُؤازِرُه.

ثمَّ يذكرُ سبحانَه جانبًا مِن فضائلِ إسماعيلَ عليه السلامُ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- في هذا القرآنِ لقومِك خبَرَ إسماعيلَ عليه السَّلامُ، إنَّه كان صادقًا في وَعدِه، وكان رسولًا نبيًّا، وكان يأمُرُ أهلَه بإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، وكان محمودًا عندَ اللهِ في أعمالِه.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

ثمَّ يخبرُ تعالى عن نبيِّه إدريسَ عليه السلامُ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- في هذا القرآنِ لقومِك خبَرَ إدريسَ عليه السَّلامُ، إنَّه كان كثيرَ الصِّدقِ في قَولِه وعَمَلِه، ومُصَدِّقًا تصديقًا تامًّا بما أتاه من الحَقِّ، ونبيًّا يُوحى إليه، ورفَعْناه إلى السَّماءِ الرَّابعةِ.

ثم يقولُ تعالى: هؤلاء الذين قَصَصتُ عليك خبَرَهم من الأنبياءِ هم الذين أنعَمَ اللهُ عليهم بالنبُوَّةِ والعِلمِ النَّافعِ، مِن ذُريَّةِ آدمَ، ومِن ذُريةِ مَن حمَلْنا مع نوحٍ في السَّفينةِ، ومِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ، ومِن ذُرِّيَّة يعقوبَ، وممَّن هَدَينا للإيمانِ والعملِ الصالحِ، واصطَفَينا للرِّسالةِ والنبُوَّةِ، إذا تُتلى عليهم آياتُ الرَّحمنِ، خرُّوا ساجِدينَ لله، باكينَ مِن خَشيتِه سُبحانه وتعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه أفضَتْ مُناسَبةُ ذِكرِ إبراهيمَ ويَعقوبَ -عليهما السَّلامُ- إلى أن يُذكَرَ موسى عليه السلامُ في هذا الموضع؛ لأنَّه أشرَفُ نبيٍّ مِن ذُرِّيةِ إسحاقَ ويعقوبَ، عليهما السَّلامُ(١).

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾

أي: واتْلُ -يا محمَّدُ- في القُرآنِ على قَومِك خبَرَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٢).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿مُخْلَصًا﴾ بفتحِ اللَّامِ، أي: إنَّ موسى أخلصَه اللهُ، واختاره لرسالتِه، وجعَلَه نبيًّا مُرسَلًا، خالِصًا مِن الدَّنَسِ[1].

٢- قراءةُ ﴿مُخْلِصًا﴾ بكسرِ اللَّامِ، أي: إنَّ موسى كان يُخلِصُ لله في عبادتِه، ولا يُرائي بأعمالِه أحدًا[2].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾.

أي: إنَّ موسَى كان الله تعالى قد اختاره لرسالتِه وتكليمِه وعبادتِه، وجعَله خالصًا مِن الدَّنَسِ؛ وذلك لإخلاصِه لله في عبادتِه[3].

---

(١) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكسائي، وخَلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٤٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).
قال ابنُ جرير: (الصَّوابُ من القول في ذلك عندي: أنَّه كان صلَّى الله عليه وسلم مُخلِصًا عبادةَ الله، مُخلَصًا للرِّسالةِ والنبوَّة). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٨).
وقال السعدي: (المعنيان متلازِمان؛ فإنَّ اللهَ أخلصه لإخلاصِه، وإخلاصُه موجِبٌ لاستخلاصِه، وأجَلُّ حالةٍ يُوصَفُ بها العبد: الإخلاصُ منه، والاستخلاصُ مِن ربِّه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).
وقال الرسعني: (مَن فتَح فعلى معنَى: أنَّه كان ممن أخلَصه الله مِن الدَّنَسِ. ويجوزُ عندي أن يكونَ المعنى: أنَّه كان ممن أخلَصه الله واصطفاه للقيام بأثقالِ النبوةِ، والنهوضِ بأعبائِها. وكأنَّ الأوَّلَ أظهرُ؛ لأنَّ المعنى حاصلٌ بقولِه: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٢٧).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾.

أي: وكان موسى رسولًا إلى بني إسرائيلَ والقِبطِ، ونبيًّا رفيعَ القَدرِ يُوحي اللهُ إليه(١).

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢)﴾.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾.

أي: وكلَّمْنا موسَى بصَوتٍ يَسمَعُه مِن ناحيةِ جَبَلِ طُورِ سَيناءَ الواقِعِ على يمينِ موسى، حينَ أقبَلَ مِن مَدينَ مُتوجِّهًا إلى مِصرَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).

قال ابن تيمية: (النبيُّ هو الذي ينبِّئُه الله، وهو ينبِّئُ بما أنبأ اللهُ به؛ فإنْ أُرسِلَ مع ذلك إلى مَن خالف أمرَ اللهِ؛ لِيُبلِّغَه رسالةً مِن الله إليه؛ فهو رَسولٌ، وأمَّا إذا كان إنما يعمَلُ بالشريعةِ قَبلَه، ولم يُرسَلْ هو إلى أحدٍ يُبلِّغُه عن اللهِ رسالةً؛ فهو نبيٌّ، وليس برسولٍ). ((النبوات)) (٢/ ٧١٤-٧١٥).

وقال السعدي: (فالرسالةُ تقتضي تبليغَ كلامِ المرسِلِ، وتبليغَ جميعِ ما جاء به مِن الشرعِ، دِقِّه وجِلِّه. والنبوةُ تقتضي إيحاءَ الله إليه، وتخصيصَه بإنزالِ الوحيِ إليه، فالنبوَّةُ بينه وبينَ رَبِّه، والرِّسالةُ بينه وبين الخَلقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٣٢).

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ * إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: ١١- ١٦].

﴿ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾.

أي: وأدنَيْنا موسى، فسَمِع كلامَ اللهِ، وخاطَبه عن قُربٍ، بلا واسِطةٍ[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤].

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ ﴾.

أي: وآتينا موسى مِن رَحمتِنا له[٢] إجابةَ سُؤالِه، فجعَلْنا أخاه هارونَ نبيًّا مِثلَه؛ لِيُعينَه[٣].

كما قال تعالى حكايةً عنه: ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَٰرُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٢٩ - ٣٦].

وقال سُبحانه حكايةً عنه: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [القصص: ٣٤- ٣٥].

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٢٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٠٣).

(٢) و(من) في قوله: ﴿مِن رَّحْمَتِنَآ﴾ سببيَّةٌ، و﴿أَخَاهُ﴾ مَفعولُ قولِه: ﴿وَوَهَبْنَا﴾. وقيل: إنَّ (من) هنا للتبعيضِ، و﴿أَخَاهُ﴾ بدلٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢١٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان إسماعيلُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- هو الذي ساعد إبراهيمَ عليه السَّلامُ في بناءِ البَيتِ الذي كان مِن الأفعالِ التي أبقَى اللهُ بها ذِكْرَه، وشَهَر أمْرَه، وكان مُوافِقًا لِموسى عليه السَّلامُ في ظُهورِ آيةِ الماءِ الذي به حياةُ كُلِّ شَيءٍ، وإن كانت آيةُ موسى عليه السَّلامُ انقَضَت بانقضائِه، وآيتُه هو باقيةً إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها- عَقَّب ذِكْرَه بذلك(١).

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَ﴾.

أي: واتْلُ -يا مُحمَّدُ- في القرآنِ على قَومِك خبَرَ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلام(٢).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾.

أي: إنَّ إسماعيلَ كان صادِقًا في وعودِه لرَبِّه وللنَّاسِ، يَفي بوَعدِه، ولا يُخلِفُه(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

قال الشنقيطي: (ممَّا يُبيِّنُ من القرآنِ شِدَّةَ صِدقِه في وعدِه: أنَّه وعَدَ أباه بصبرِه له على ذبحِه، ثمَّ وفى بهذا الوعدِ، ومن وفى بوَعدِه في تسليمِ نفسِه للذبحِ، فإنَّ ذلك من أعظمِ الأدلَّةِ على عظيمِ صِدقِه في وعدِه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فهذا وعدُه، وقد بيَّن تعالى وفاءَه به في قَولِه: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]. ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٣٧).

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

أي: وكان رَسولًا[(١)] ونبيًّا، رفيعَ القَدرِ يُوحي اللهُ إليه[(٢)].

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا (٥٥)﴾.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾.

أي: وكان يأمُرُ أهلَه بإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ[(٣)].

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾.

أي: وكان محمودًا عندَ اللهِ في أعمالِه، ارتضاه اللهُ، وجعَلَه من الخواصِّ المقَرَّبينَ؛ لاجتهادِه فيما يُرضيه، فرضِي ربُّه عنه، ورضِيَ هو عن رَبِّه[(٤)].

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦)﴾.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ﴾.

أي: واتلُ -يا محمَّدُ- في القُرآنِ على قَومِك خبَرَ إدريسَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[(٥)].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.

---

(١) قال القرطبي: (﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ قيل: أُرسِلَ إسماعيلُ إلى جُرْهُم). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٢)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٥٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

أي: إنَّ إدريسَ كان كثيرَ الصِّدقِ في أفعالِه وأقوالِه، صادِقًا فيما يخبِرُ به عن اللهِ، ومُصَدِّقًا تصديقًا تامًّا بما أتاه من الحَقِّ، ونبيًّا رفيعَ القَدرِ يُوحي اللهُ إليه[1].

﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾.

أي: ورفَعْنا إدريسَ إلى مكانٍ ذي علوٍّ وارتفاعٍ؛ إلى السَّماءِ الرَّابعةِ[2].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((... ثمَّ عُرِجَ بنا إلى السَّماءِ الرَّابعةِ، فاستفْتَح جبريلُ عليه السَّلامُ، قِيلَ: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: محمَّدٌ، قال: وقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، فَفُتِح لنا فإذا أنا بإدريسَ، فرَحَّب ودعا لي بخيرٍ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٧٨)، ((تفسير القشيري)) (٢/ ٤٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٢)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١١٧، ١١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: رفعُه إلى السماءِ الرابعةِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والرازي، والقرطبي، وابنُ جُزي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال الرازي: (فيه قولان: أحدهما: أنَّه مِن رِفعةِ المنزلةِ، كقَولِه تعالى لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلم: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]... الثاني: أنَّ المرادَ به الرِّفعةُ في المكانِ إلى موضعٍ عالٍ، وهذا أَولى؛ لأنَّ الرِّفعةَ المقرونةَ بالمكانِ تكونُ رِفعةً في المكانِ لا في الدَّرَجةِ). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥٠).

وممن قال بأنَّ المعنى: رفَعَ الله منزلتَه، وشرَّفَه بالنبوَّةِ والزلفَى عندَ الله: الزمخشري، والألوسي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

قال السعدي: (﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أي: رفَعَ اللهُ ذِكْرَه في العالَمينَ، ومَنزِلتَه بين المقرَّبينَ، فكان عاليَ الذِّكرِ، عاليَ المنزلةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]))[(١)].

وعن قتادةَ في قَولِه تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قال: حدَّثَنا أنسُ بنُ مالكٍ أنَّ نبيَّ اللهَ صَلَّى اللهُ عليه وسلم قال: ((لَمَّا عُرِجَ بي رأيتُ إدريسَ في السَّماءِ الرَّابعةِ))[(٢)].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا انقضى كَشفُ هذه الأخبارِ العَليَّةِ المِقدارِ، الجليلةِ الأسرارِ؛ شرَعَ سُبحانَه وتعالى ينسُبُ أهلَها بأشرَفِ نَسَبِهم، ويذكُرُ المِنَنَ بينهم، فقال عزَّ مِن قائلٍ[(٣)]:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾.

أي: أولئك الأنبياءُ المذكورونَ في هذه السورةِ هم الذين أنعَمَ اللهُ عليهم بالهدايةِ والنُّبُوَّةِ، والعِلمِ النَّافِعِ، والعَمَلِ الصَّالحِ؛ مِنَ النبيِّينَ مِن ذُرِّيةِ آدَمَ، وهو إدريسُ عليه السلامُ[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٢).

وأخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ، عن مالكِ بنِ صَعْصَعة بنحوِه دونَ ذكرِ الآيةِ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٥٧) واللفظ له، وأحمد (١٣٧٣٩).

حسَّنه الترمذي، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٤٢).

قال البيضاوي: (﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بأنواعِ النِّعمِ الدينيةِ والدنيويةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤).

=

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾.

أي: ومِن ذُرِّيَّةِ مَن حَملْنا معَ نوحٍ في السَّفينةِ، وهو إبراهيمُ عليه السلامُ[1].

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

= وعلى القولِ بأنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأنبياءُ المذكورون في السورةِ، فالمرادُ بقولِه: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾: إدريسُ عليه السلامُ وحدَه. وممن اختار ذلك: ابنُ جرير، ومكي، والسمعاني، وابنُ الجوزي، والرازي، والقرطبي، وابنُ تيمية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٥)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٥٥٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٣١).

قال الرازي: (والَّذي يختصُّ بأنَّه مِن ذُرِّيَّةِ آدمَ دونَ مَن حُمِل معَ نوحٍ هو إدريسُ عليه السَّلامُ؛ فقد كان سابقًا على نُوحٍ على ما ثَبَت في الأخبارِ). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥٠).

وقال ابن كثير: (هذا هو الأظهرُ أنَّ إدريسَ في عمودِ نَسبِ نوحٍ، عليهما السَّلامُ. وقد قيلَ: إنَّه مِن أنبياءِ بني إسرائيلَ، أخذًا مِنْ حديثِ الإسراءِ، حيثُ قال في سلامِه على النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم: «مرحبًا بالنَّبيِّ الصَّالحِ، والأخِ الصَّالحِ»، ولم يَقلْ: «والولدِ الصَّالحِ»، كما قال آدمُ وإبراهيمُ، عليهما السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٢).

وقيل: المرادُ: إدريسُ ونوحٌ عليهما السلامُ. وممن اختار ذلك: ابنُ عطية، والرسعني، والخازن، والعُليمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٢٦١).

قال الرسعني: (﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾... يريدُ به: إدريسَ ونوحًا؛ لقربِهما مِن آدمَ عليه السلامُ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٣٣).

وذهَب ابنُ كثيرٍ إلى أنَّ الإشارةَ في هذه الآيةِ ليست للأنبياءِ المذكورينَ في هذه السورةِ فقط، بل الإشارةُ إلى جنسِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسلام. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٣١).

قال ابن الجوزي: (﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ يعني: إبراهيمَ؛ لأنَّه مِن ولدِ سامِ بنِ نوحٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣٧). ويُنظر: ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٢٦١).

أي: ومِن ذُرِّيةِ إبراهيمَ، وهم: إسماعيلُ، وإسحاقُ، ويعقوبُ عليهم السلامُ، ومِن ذُرِّيةِ إسرائيلَ -أي: يعقوبَ عليه السلامُ-، وهم موسَى، وهارونُ، وزكريَّا، ويحيى، وعيسَى بنُ مريمَ- عليهم السلامُ[١].

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾.

أي: وممَّن هدينا للإيمانِ، والعمَلِ الصَّالحِ، وممَّن اختَرْناهم للنُّبوَّةِ[٢].

﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾.

أي: إذا تُتلى على أولئك القومِ -الذين هَدَينا مِن النبيِّينَ- آياتُ الرَّحمنِ التي أنزلها عليهم في كُتُبِه؛ بادروا إلى السُّجودِ لله باكينَ مِن خَشيتِه تعالى[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٥، ٥٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤).

ومِن المفسِّرينَ مَن زاد مريمَ عليها السلامُ. ومنهم: ابنُ جرير، ومكي، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٥)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٥٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١).

قال السمعاني: (وقولُه تعالَى: ﴿وَإِسْرَائِيلَ﴾، أي: مِن ذُرِّيَّةِ إسرائيلَ، والمرادُ منه: موسَى، وداوُدُ، وسليمانُ، ويوسفُ، وعيسَى، وكلُّ أنبياءِ بني إسرائيلَ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤).

قال الرازي: (فرَتَّب اللَّهُ سبحانَه وتعالَى أحوالَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ الَّذينَ ذكرَهم على هذا التَّرتيبِ؛ مُنَبِّهًا بذلك على أنَّهم كما فُضِّلوا بأعمالِهم فلهم مزيدٌ في الفضلِ بوِلادَتِهم مِن هؤلاءِ الأنبياءِ). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

قال البيضاوي: (﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ خبرٌ لـ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إنْ جَعَلْتَ =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ فيه أنَّ حَقَّ الصَّالحِ ألَّا يألوَ نُصحًا للأجانبِ، فضلًا عن الأقاربِ والمتَّصِلينَ، وأن يُحظِيَهم بالفوائِدِ الدِّينيةِ، ولا يفرِّطَ في شَيءٍ مِن ذلك[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى عن إسماعيلَ عليه السَّلامُ أنَّه كان يأمُرُ أهلَه بالصَّلاةِ والزكاة، وكان عندَ ربِّه مَرضيًّا؛ فالإنسانُ مَسؤولٌ عن أهلِه، مسؤولٌ عن تربيتِهم، حتى ولو كانوا صِغارًا إذا كانوا مميِّزينَ، أمَّا غيرُ المميِّزِ فإنَّه يُؤمَرُ بما يتحمَّلُه عَقلُه[٢].

٣- عن الحَسَنِ قال: (من كان له واعِظٌ مِن نَفسِه، كان له مِنَ اللهِ حافِظٌ، فرَحِمَ اللهُ مَن وعَظَ نَفسَه وأهلَه، فقال: يا أهلي، صلاتَكم صلاتَكم، زكاتَكم زكاتَكم، جيرانَكم جيرانَكم، مساكينَكم مساكينَكم؛ لعلَّ الله أن يرحَمَكم يومَ القيامةِ؛ فإنَّ الله عزَّ وجَلَّ أثنى على عبدٍ كان هذا عَمَلَه، فقال: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾)[٣].

= الموصولَ صِفَتَه، واستئنافٌ إن جعَلْتَه خبَرَه؛ لبيانِ خَشيتِهم مِن اللهِ وإخباتِهم له، مع ما لهم مِن علوِّ الطبقةِ في شَرَفِ النَّسَبِ، وكمالِ النَّفسِ، والزُّلفَى مِن الله تعالى). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤).

وقال ابنُ كثير: (أجمع العُلَماءُ على شرعيَّةِ السجودِ هاهنا؛ اقتداءً بهم، واتِّباعًا لِمنوالِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٣-١٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ١٦٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في ((النفقة على العيال)) (٣٣٣) (١/ ٥٠٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- وصفَ اللهُ تعالى نفسَه بالمناداةِ والمُناجاةِ، في قولِه: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾، وقَولِه: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ [القصص: ٦٢]، وقولِه: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ووصفَ عبدَه بالمناداةِ والمناجاةِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]، وقال: ﴿إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المجادلة: ١٢]، وقال: ﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المجادلة: ٩]، وليست المناداةُ كالمناداةِ، ولا المناجاةُ كالمناجاةِ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ ذَكَر مناداتَه لموسى عليه السَّلامُ ومناجاتَه إيَّاه في مواضِعَ مِن القرآنِ، ولم يَذكُرْ أنَّه فعَل ذلك بغيرِه مِن الأنبياءِ، وهذا ممَّا أجمع عليه المُسلِمونَ وأهلُ الكتابِ: أنَّ تكليمَ اللهِ تعالى لموسى من خصائِصِه التي فضَّله بها على غَيرِه من الأنبياءِ والرُّسُلِ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ حُجَّةٌ على مَن يقولُ بخَلْقِ القُرآنِ؛ إذْ لا يمكنُه أنْ يقولَ في المناداةِ ما يتأوَّلُه في الكلامِ -وإنْ كان ما يتأوَّلُه فيه خطأً- وقولُه: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ أكَّدَه بلا إشكالٍ؛ لأنَّ النَّجِيَّ لا يكونُ إلَّا مَن يُكَلَّمُ ويُحاوَرُ(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ حُجَّةٌ على مَن يُنْكِرُ أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه

(١) يُنظر: ((التدمرية)) لابن تيمية (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((بغية المرتاد)) لابن تيمية (ص: ٣٨٢).

وقد كلَّم الله تعالى نبيَّنا محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم ليلةَ الإسراءِ. يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٩/ ٣٥٤، ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (٢/ ٢٥٣).

بنَفسِه على العَرشِ، وأنَّ عِلْمَه في الأرضِ؛ إذ لو كان بنَفسِه في كلِّ مَوضعٍ -كما يزعُمونَ- ما كان لقَولِه: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾ مَعنًى، ولَمَا كان لموسى فضيلةٌ على غَيرِه؛ إذِ المعنى الذي يَذهَبُ إليه يستوي جميعُ النَّاسِ فيه -كافِرُهم ومُؤمِنُهم- وليس لِمَا يتأوَّلُه مِن أنَّ القُرْبَ قُربُ الطَّاعةِ -لَمَّا قَرَّبَه بالمناجاة- خَصيصةٌ؛ ولذا رُوِيَ في الخبر: (أنَّه قَرَّبَه حتى سَمِعَ صريفَ القَلَمِ)[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ هذه الآيةُ مِمَّا يدُلُّ على أنَّ اللهَ يتكَلَّمُ كيف شاء، مُناداةً كان الكَلامُ أو مُناجاةً[٢]، وأنَّ اللهَ تعالى يتكلمُ بصوتٍ، فالنداءُ في لغةِ العربِ هو صوتٌ رفيعٌ، ولا يُطْلَقُ النداءُ على ما ليس بصوت -لا حقيقةً ولا مجازًا- وإذا كان النداءُ نوعًا مِن الصوتِ؛ فالدالُّ على النوعِ دالٌّ على الجنسِ بالضرورةِ[٣]، وموسى عليه السَّلامُ سَمِعَ كلامَ الله تعالى بحَرفٍ وصَوتٍ، كما تدُلُّ عليه النُّصوصُ التي بلَغَت في الكثرةِ مَبلغًا لا ينبغي معه تأويلٌ، ولا يناسِبُ في مقابلتِه قال وقيل؛ فقد قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء: ١٠]، ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [القصص: ٣٠]، ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦]، ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨]، واللائقُ بمقتضى اللُّغةِ والأحاديثِ أن يُفسَّرَ النِّداءُ بالصَّوتِ، بل قد ورَد إثباتُ الصَّوتِ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٥٤).

والخبر أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١٥/ ٥٥٩) من قول ابن عباس رضي الله عنهما.

ويُنظر ما أخرجه البخاري (٣٤٩) من حديث أبي ذر، رضي الله عنه، ومسلمٌ (١٦٣) من حديث عبدالله بن عباس، وأبي حبة الأنصاري، رضي الله عنهم.

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٣١).

لله تعالى شأنُه في أحاديثَ لا تُحصى، وأخبارٍ لا تُستَقصَى(١).

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ النِّداءُ والنِّجاءُ أخَصُّ مِنَ التَّكليمِ؛ لأنَّه تكليمٌ خاصٌّ؛ فالنِّداءُ تكليمٌ مِن البُعدِ يَسمَعُه المنادي، والنِّجاءُ تَكليمٌ مِن القُربِ(٢).

٧- قال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾، وإنَّما جُعِلَتْ تلك الهِبةُ من رحمةِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ رحِمَ مُوسى؛ إذ يسَّرَ له أخًا فصيحَ اللِّسانِ، وأكمَلَه بالإنباءِ حتَّى يُعْلَمَ مُرادُ مُوسى ممَّا يُبلِّغُه عن اللهِ تعالى(٣).

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ قولُه: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ يدُلُّ على أنَّ الرَّسولَ لا يَلزَمُ أن يكونَ صاحِبَ شَريعةٍ؛ فإنَّ أولادَ إبراهيمَ كانوا على شريعتِه(٤).

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ في هذا دلالةٌ على شَرفِ إسماعيلَ على أخيه إسحاقَ؛ لأنَّه إنما وُصِفَ بالنُبوَّةِ فقط، وإسماعيلُ وُصِفَ بالنبُوَّةِ والرِّسالةِ(٥).

١٠- قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا﴾ فرَّق تعالى ذِكْرُه أنسابَهم، وإن كان يجمَعُ جميعَهم آدمُ؛ لأنَّ فيهم

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٩-٢٤٠).

من ليس مِن ولَدِ مَن كان مع نوحٍ في السَّفينةِ، وهو إدريسُ[١]، على القَولِ بأنَّه كان قَبلَ نوحٍ عليه السَّلامُ.

١١- قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا﴾ لإدريسَ ونوحٍ شَرَفُ القُربِ مِن آدَمَ -على القَولِ بأنَّ إدريسَ قبلَ نوحٍ- ولإبراهيمَ شَرَفُ القُربِ مِن نوحٍ، ولإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ شَرَفُ القُربِ مِن إبراهيمَ[٢].

١٢- قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: وَمِن ذُرِّيَّةِ إسرائيلَ، وكان منهم موسى وهارونُ وزكريَّا ويحيى وعيسى، وفيه دَليلٌ على أنَّ أولادَ البَناتِ مِن الذُّرِّيَّةِ[٣]؛ لأنَّ عيسى مِن مريمَ، وهي مِن نَسلِ يَعقوبَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٥/ ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((روح البيان)) للخلوتي (٥/ ٣٤٣).

قال الشنقيطي: (وذكرُ عِيسَى هنا أخذَ العلماءُ منه حُكمًا فِقهيًّا معروفًا، وهو أنَّه إذا قال رجلٌ: «هذا وَقْفٌ على ذُرِّيَّتي»، أو أوصَى لذُرِّيَّتِه- أنَّ أولادَ البناتِ يدخلونَ؛ لأنَّ عيسى ولدُ بنتٍ... لا أبَ له. فاللَّهُ جلَّ وعلا أدرجَه في اسمِ الذريَّةِ، ومِن هنا يُعرَفُ أنَّ أولادَ البناتِ مِنَ الذرِّيةِ، وهذه المسألةُ التي هدَّدَ الحَجَّاجُ عليها يحيَى بنَ يَعمرَ، قال له: أتقولُ: إنَّ الحَسنَ والحُسينَ رضي الله عنهما مِن ذُرِّيَّةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؟ قال: نَعَمْ. وأنَّه قالَ له: إنْ لم تَجِئْني بدَليلٍ من كتابِ اللَّهِ فعلْتُ بك وفعلْتُ. قال: أتقرأُ في سورةِ الأنعامِ؟ قال: نَعَمْ، قال: قال اللَّهُ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ﴾ إلى أن قالَ: ﴿وَعِيسَىٰ﴾ وعيسَى ابنُ بنتٍ. وهذا صريحٌ في دُخولِ ابنِ البنتِ في الذريةِ. وعلى هذا أكثرُ العلماءِ؛ على أنَّه لو أوصى للذرِّيةِ أو وَقَفَ عليهم- أنَّ أولادَ البناتِ =

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ في إضافةِ الآياتِ إلى اسمِه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ آياتِه تعالى مِن رَحمتِه بعِبادِه وإحسانِه إليهم؛ حيثُ هداهم بها إلى الحَقِّ، وبصَّرَهم مِن العَمى، وأنقَذَهم من الضَّلالةِ، وعَلَّمَهم مِن الجَهالةِ[1].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ حُجَّةٌ في جوازِ البُكاءِ في السُّجودِ، والاقترابِ به مِن المعبودِ[2]، وأنَّه لا يقطعُ الصَّلاةَ؛ لأنَّ اللَّه تعالَى قد مَدَحهم بالبكاءِ في السُّجودِ، ولم يُفَرِّقْ بينَ سجودِ الصَّلاةِ وسُجودِ التِّلاوةِ وسَجدةِ الشُّكرِ[3].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ استُدِلَّ بهذه الآيةِ على مشروعِيَّةِ سُجودِ التِّلاوةِ[4].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ فيه استِحبابُ البكاءِ عندَ تلاوةِ القُرآنِ[5]، وعن عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه: (أنَّه قرأ سورةَ

= يدخُلونَ؛ لهذه الآيةِ). ((العذب النمير)) (١/ ٤٥٩).

لكن قال ابنُ عثيمين: (ليس في الآيةِ دَلالةٌ؛ لأنَّ عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أمُّه أبوه، يعني: ليس له نسَبٌ مِن قِبَلِ الأُبوَّةِ، منقطِعٌ؛ ولهذا: المرأةُ الملاعِنةُ -أو المُلاعَنةُ- إذا نفى زوجُها ولَدَها منه، صارت هي أمًّا أبًا، فالصوابُ أنَّ الذريَّةَ لا يدخُلُ فيها أولادُ البناتِ، هذا من حيثُ ناحيةِ اللُّغةِ والشَّرعِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٥/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٤).

مريمَ فسجَد، وقال: هذا السجودُ، فأين البكيُّ؟) يريدُ: فأين البكاءُ[(١)].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ استُدِلَّ به علَى أنَّ سامِعَ السَّجدةِ وتالِيَها سَواءٌ في حكمِها، وأنَّهم جميعًا يسجُدونَ؛ لأنَّه مَدَح السَّامعينَ لها إذا سَجَدوا[(٢)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾

- قولُه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ قُدِّمَ ذِكرُ مُوسى على ذكْرِ إسماعيلَ عليهما السَّلامُ؛ لئلَّا ينفصِلَ عن ذكْرِ يعقوبَ عليهما السَّلامُ[(٣)].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ فيه تَخصيصُ مُوسى بعُنوانِ (المُخلص) -بفتْحِ اللَّامِ وكسْرِها-؛ لأنَّ ذلك مَزيَّتُه، فإنَّه أخلَصَ في الدَّعوةِ إلى اللهِ، فاستخَفَّ بأعظمِ جبَّارٍ وهو فرعونُ، وجادَلَه مُجادلةَ الأكْفاءِ، وكذلك ما حكاهُ اللهُ عنه بقولِه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]؛ فكان الإخلاصُ في أداءِ أمانةِ اللهِ تعالى ميزتَه، ولأنَّ اللهَ اصطفاهُ لكلامِه مُباشرةً قبْلَ أنْ يُرسِلَ إليه الملَكَ بالوحيِ؛ فكان مُخلَصًا بذلك، أي: مُصطفًى[(٤)].

- قولُه: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ قَدَّمَ ﴿رَسُولًا﴾ مع كونِه أخصَّ وأعْلى؛ لأنَّ اللهَ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ((الرقة والبكاء)) (٤١٨)، وابن جرير في ((تفسيره)) (١٥/ ٥٦٧)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١٨٩٧).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٥/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٧).

تعالى أرسَلَه إلى الخلْقِ، فأنبَأَهم عنه(١)، والجمْعُ بين ﴿رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ هنا لتأكيدِ الوصفِ؛ إشارةً إلى أنَّ رسالتَه بلَغَتْ مَبلغًا قويًّا؛ فقولُه: ﴿نَّبِيًّا﴾ تأكيدٌ لوصْفِ ﴿رَسُولًا﴾(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيًّا﴾ فيه إيجازٌ بالحذفِ، وتَقديرُ الكلامِ: وناديناهُ حينَ أقبَلَ مِن مدينَ، ورأى النَّارَ مِن الشَّجرةِ، وهو يُريدُ مَن يَهْديه إلى طريقِ مصرَ(٣).

- وقولُه: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ صِيغَةُ المُفاعَلةِ للمُبالغةِ؛ فليس هنا حُصولُ فعْلٍ من جانبينِ(٤).

٣- قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾

- فيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال تعالى هنا: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيًّا * وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾، وقال في سُورةِ الفُرقانِ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥]؛ اختلَفَ الوصْفُ بالنُّبوَّةِ والوزارةِ مع اتِّحادِ المقصودِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ السُّورَ المُتردِّدَ فيها ذِكْرُ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ مَنوطٌ فيها ذكْرُهم بذكْرِ أُمَمِهم، وما كان من مُعاندةِ الأُمَمِ وتَكذيبِهم، وأخْذِ المُكذِّبينَ بمُرتكباتِهم، ثمَّ إنَّ سُورةَ مريمَ تضمَّنَت طائفةً عظيمةً؛ فُصِّلَ ذِكْرُ بعضِهم، وأُجْمِلَ ذِكْرُ البعضِ، وقد تجرَّدَ فيها من الإخبارِ بأحوالِهم ذِكْرُ التَّعريفِ بخصائصَ مِن مِنَحِهم، وعَليِّ أقْدارِهم، وما أُيِّدوا به من ذلك، ثمَّ إنَّ النُّبوَّةَ أعظَمُ خصائصِهم الَّتي تَساوَوا

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٧٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٨).

في تحمُّلِ أمانتِها، وأُفْرِدوا عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بها، ولم يُشارِكْهم فيها غيرُهم، أمَّا اسمُ الوزارةِ والوصْفُ بها فليس ممَّا يخُصُّهم، ولا ممَّا أُفْرِدوا به، فلم يكُنْ وصْفُ هارونَ عليه السَّلامُ هنا بها لِيُناسِبَ هذا القصْدَ العليَّ، ولا لِيُلائمَه. وأمَّا قولُه تعالى في سُورةِ الفُرقانِ: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥] فمُرتَّبٌ على سُؤالِ موسى عليه السَّلامُ في سُورةِ طه في قولِه: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَـٰرُونَ﴾ [طه: ٢٩، ٣٠]؛ فأُعْطِيَ عليه السَّلامُ مَطْلبَه، ورَدَ هذا على التَّرتيبِ المُتقرِّرِ في المصحفِ. ثمَّ إنَّ ما اتَّصلَ بهذه الآيةِ وآيةِ سُورةِ مريمَ ممَّا قبْلَهما وبعْدَهما يَسْتدعي التَّناسُبَ في مقاطعِ الآيِ وفواصلِها، فلم يكُنْ وُرودُ الآيتينِ في السُّورتينِ على غيرِ ما ورَدَ لِيُناسِبَ؛ فجاء ذلك على ما يجِبُ من الوَجهينِ المذكورينِ، واللهُ أعلمُ بما أراد(١).

٤- قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾

- قولُه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ﴾ فُصِلَ ذِكْرُ إسماعيلَ عن ذكْرِ أبيه وأخيه عليهم السَّلامُ؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتناءِ بأمْرِه بإيرادِه مُستقِلًّا(٢)؛ فتَخصيصُ إسماعيلَ بالذِّكرِ هنا تَنبيهٌ على جَدارتِه بالاستقلالِ بالذِّكرِ عقِبَ ذكْرِ إبراهيمَ وابنِه إسحاقَ؛ لأنَّ إسماعيلَ صار جَدَّ أُمَّةٍ مُستقِلَّةٍ قبْلَ أنْ يصيرَ يعقوبُ جَدَّ أُمَّةٍ، ولأنَّ إسماعيلَ هو الابنُ البِكْرُ لإبراهيمَ، وشريكُه في بناءِ الكعبةِ(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ تعليلٌ لمُوجِبِ الأمرِ(٤)، وذكَرَ إسماعيلَ عليه

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٢٨-٣٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٠).

السَّلامُ بصِدْقِ الوعدِ -وإنْ كان ذلك موجودًا في غيرِه من الأنبياءِ-؛ تَشريفًا له وإكرامًا، كالتَّلقيبِ بنحوِ: الحليمِ، والأوَّاهِ، والصِّدِّيقِ، ولأنَّه المشهورُ مِن خِصالِه(١).

٥- قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾

- قولُه: ﴿نَّبِيًّا﴾ خبرٌ آخرُ لـ(كان) مُخصِّصٌ للأوَّلِ؛ إذ ليس كلُّ صِدِّيقٍ نَبِيًّا(٢).

٦- قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾

- اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المَذكورينَ في السُّورةِ من زكريَّا إلى إدريسَ عليهم السَّلامُ، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتبِهم ومَنزلَتِهم في الفضْلِ(٣). والإتيانُ به دونَ الضَّميرِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليهم جديرونَ بما يُذكَرُ بعدَ اسمِ الإشارةِ لأجْلِ ما ذُكِرَ مع المُشارِ إليهم مِن الأوصافِ، أي: كانوا أحرياءَ بنعمةِ اللهِ عليهم، وكونِهم في عدادِ المَهديينَ المُجْتبينَ، وخَليقينَ بمحبَّتِهم للهِ تعالى، وتَعظيمِهم إيَّاهُ(٤).

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ تلك وإنْ كانت نِعمًا وهدايةً واجتباءً؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٧٦-٢٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٢).

فقد زادت هذه الآيةُ بإسنادِ تلك العَطايا إلى اللهِ تعالى تَشريفًا لها؛ فكان ذلك التَّشريفُ هو الجزاءَ عليها؛ إذ لا أزْيَدَ من المُجازَى عليه إلَّا تَشريفُه(١).

- قولُه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبَيانِ خشيتِهم مِن اللهِ تعالى، وإخباتِهم له، معَ حالِهم مِن عُلوِّ الرُّتبةِ، وسُموِّ الطَّبقةِ في شرَفِ النَّسَبِ، وكَمالِ النَّفسِ، والزُّلفى من اللهِ عَزَّ سُلطانُه(٢). وقيل: مُستأنَفٌ دالٌّ على شُكرِهم نِعمَ اللهِ عليهم، وتَقريبِه إيَّاهم بالخُضوعِ له بالسُّجودِ عندَ تلاوةِ آياتِه وبالبُكاءِ(٣).

- وعبَّر بالاسمِ في كلٍّ مِن السجودِ والبكاءِ في قولِه: ﴿سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾؛ إشارةً إلى أنَّ خَوفَهم دائِمٌ،كما أنَّ خُضوعَهم دائِمٌ لِعَظمةِ الكبيرِ الجَليلِ؛ لأنَّ تلك الحَضرةَ لا تَغيبُ عنهم أصلًا(٤).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٢٢).

الآيات (٥٩-٦٣)

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن
تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ
ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا
بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ خَلۡفٌ ﴾: الخَلْفُ: الرَّدِيءُ مِن الناسِ ومِن الكلامِ، والرَّديءُ مِن كلِّ شيءٍ، وأكثرُ ما يُستعمَلُ باللامِ الساكنةِ (خَلْفٌ) في الذمِّ، وبالفتحِ (خَلَف) في المدحِ، وأصلُه: مجيءُ شيءٍ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَه[١].

﴿ غَيًّا ﴾: أي: شرًّا، وخُسرانًا، وهَلاكًا. أو: هو وادٍ في جهنَّمَ، وأصلُه: يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ، وإظلامِ الأمرِ[٢].

﴿ عَدۡنٍ ﴾: أي: إقامَةٍ، واستقرارٍ، وثباتٍ، يُقال: عَدَنَ بالمكانِ، يَعْدِنُ عَدْنًا، إذا أقامَ به، واستقرَّ، وأصلُ (عدن): يدلُّ على الإقامةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٣٤)، ((ياقوتة الصراط)) لغلام ثعلب (ص: ٢٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

﴿مَأْتِيًّا﴾: أي: يَأْتيه أولياءُ الله، أو مفعولٌ بمعنَى فاعلٍ، أي: آتيًا، وأصلُ الإتيانِ: مجيءٌ بسهولةٍ(١).

﴿لَغْوًا﴾: أي: باطلًا مِن الكلامِ، وفُحشًا، واللغوُ: هو فضولُ الكلامِ، ويدخلُ فيه فحشُ الكلامِ وباطِلُه، وأصلُه يدلُّ على الشَّيءِ لا يُعْتَدُّ به(٢).

المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله سبحانَه ما حدَث مِن الذين جاؤوا بعدَ هؤلاءِ المنعَمِ عليهم، فيقولُ: فأتى مِن بعدِ هؤلاء المنعَمِ عليهم عَقِبُ سَوءٍ أضاعوا الصَّلاةَ؛ بتركِها، أو التفريطِ في شروطِها أو أركانِها أو واجباتِها، واتَّبَعوا شَهواتِهم، مؤثرينَ لها على طاعةِ اللهِ، فسوف يَلقَونَ عذابًا شَديدًا في جهنَّمَ. لكِنْ مَن تاب منهم مِن ذَنبِه وآمَنَ برَبِّه وعَمِلَ صالِحًا، فأولئك يَدخُلونَ الجنَّةَ ولا يُنقَصونَ شَيئًا مِن حَسَناتِهم؛ يدخلونَ جناتِ خُلدٍ وإقامةٍ دائمةٍ، وهي التي وعد الرَّحمنُ بها عبادَه فآمَنوا بذلك، والحالُ أنَّهم لم يَرَوها في الدُّنيا، إنَّ وَعدَ الله لعبادِه بهذه الجنَّةِ يأتيه المؤمنون فيدخلون الجنةَ.

ثم يصِفُ الله سبحانه الجنةَ وأهلَها بما يَحْمِلُ على الاستعدادِ لها، فيقولُ: لا يَسمَعُ أهلُ الجنَّةِ فيها كلامًا باطلًا أو ساقطًا، لكن يَسمَعونَ ما يَسُرُّهم من الأقوالِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥، ٢٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٦٦).

والأصواتِ السَّالمةِ مِن كُلِّ عَيبٍ، ولهم رِزقُهم فيها من الطَّعام والشَّرابِ وما يشتهونَ في كُلِّ يَومٍ في قَدرِ وَقتِ البُكرةِ ووَقتِ العَشيِّ مِن أيَّامِ الدُّنيا، تلك الجنَّةُ الموصوفةُ بتلك الصِّفاتِ هي التي يُعطيها اللهُ عبادَه المتَّقينَ له، بامتثالِ أوامِره واجتِنابِ نَواهيه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وصَفَ الأنبياءَ المذكورينَ في الآياتِ السَّابقةَ بصفاتِ المَدحِ؛ ترغيبًا لنا في التأسِّي بطريقتِهم؛ ذكَرَ بَعدَهم مَن هو بالضِّدِّ منهم[(١)]، فقال:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: فجاء مِن بعدِ الذين أنعَمَ اللهُ عليهم مِن النبيِّينَ عَقِبُ سَوءٍ[(٢)] أضاعُوا الصَّلاةَ؛ إمَّا بتَركِها بالكُليَّةِ، أو تَرْكِ بَعضِ أركانِها وشُروطِها، أو التَّفريطِ في واجباتِها، أو تأخيرِها عن مواقيتِها، وغير ذلك[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٤).

قال الشنقيطي: (الظاهِرُ أنَّهم اليهودُ والنَّصارى وغيرُهم مِن الكُفَّارِ الذين خَلَفوا أنبياءَهم وصالحيهم قبلَ نزولِ الآيةِ، فأضاعوا الصَّلاةَ، واتَّبَعوا الشهواتِ، وعلى كُلِّ حالٍ فالعبرةُ بعُمومِ اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّبَبِ؛ فكُلُّ خَلْفٍ أضاعوا الصلاةَ واتَّبَعوا الشهواتِ يَدخُلونَ في الذمِّ والوعيدِ المذكورِ في هذه الآيةِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٣٤، ٢٣٥) و (٢٢/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٤٣، ٤٤٤). =

﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾.

أي: وأقبلوا على شَهَواتِ أنفُسِهم، وانهَمَكوا في تحقيقِ رَغَباتِها الدُّنيويَّةِ،

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ بإضاعةِ الصَّلاةِ: تركُها: ابنُ جرير، والزجاج، والثعلبي، والواحدي، والرازي، والخازن، والعُليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٢٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٥)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٩٢)، ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٢٦٣).

وممن قال بذلك من السلف: محمدُ بنُ كعبٍ القُرَظي، وابنُ زيدِ بنِ أسلمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٣).

وقيل: المرادُ بإضاعةِ الصَّلاةِ: إضاعةُ أوقاتِها، والإخلالُ بواجباتِها. وممن اختار ذلك في الجملةِ: السمرقندي، والقرطبي، وابن تيمية. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٣٤) و(٢٢/ ٦).

وممن قال بنحو هذا القولِ مِن السلفِ: عبد الله بنُ مسعود، والنَّخَعيُّ، وسعيدُ بنُ المسيب، وعمرُ بنُ عبد العزيز، والقاسم بنُ مخيمرة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣٧).

وممن اختار العمومَ، وأنَّ ما سبَق وغيرَه يدخلُ في الإضاعةِ: الثعالبي، والبقاعي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٤٤).

قال الشنقيطي: (اختلف أهلُ العِلمِ في المرادِ بإضاعتِهم الصَّلاةَ، فقال بعضُهم: المرادُ بإضاعتِها: تأخيرُها عن وَقتِها... وقال بعضُهم: إضاعتُها: الإخلالُ بشُروطِها... وقال بعضُهم: المرادُ بإضاعتِها: جَحدُ وجوبِها... وقيل: إضاعتُها: إقامتُها في غيرِ الجَماعاتِ. وقيل: إضاعتُها: تعطيلُ المساجِدِ، والاشتِغالُ بالصَّنائِعِ والأسبابِ... وكلُّ هذه الأقوالِ تدخُلُ في الآيةِ؛ لأنَّ تأخيرَها عن وَقتِها، وعدمَ إقامتِها في الجماعةِ، والإخلالَ بشُروطِها، وجَحْدَ وجوبِها، وتعطيلَ المساجِدِ منها: كُلُّ ذلك إضاعةٌ لها، وإن كانت أنواعُ الإضاعةِ تتفاوتُ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٤٤).

وقال الشوكاني: (والظَّاهِرُ أنَّ مَن أخَّر الصَّلاةَ عن وَقْتِها، أو تَرَك فرضًا مِن فروضِها، أو شرطًا مِن شروطِها، أو ركنًا مِن أركانِها فقد أضاعَها، ويدخلُ تحتَ الإضاعةِ مَن تَرَكها بالمرَّةِ أو جَحَدها دُخولًا أوَّليًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٠).

وآثَروها على طاعةِ اللهِ[١].

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.

أي: فسوف يلقَونَ عذابًا شَديدًا يومَ القيامةِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٤٢٧).

قال ابنُ تيمية: (قولُه: ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ يتناولُ كُلَّ مَن استعمَلَ ما يشتهيه عن المحافظةِ عليها في وَقتِها، سواءٌ كان المُشتَهى من جنسِ المحرَّماتِ؛ كالمأكولِ المحَرَّمِ، والمشروبِ المحَرَّمِ، والمنكوحِ المحَرَّمِ، والمسموعِ المحَرَّمِ؛ أو كان مِن جنسِ المباحاتِ لكِنَّ الإسرافَ فيه يُنهَى عنه؛ أو غيرَ ذلك. فمن اشتغل عن فِعلِها في الوَقتِ بلعبٍ، أو لهوٍ، أو حديثٍ مع أصحابِه، أو تنَزُّهٍ في بُستانِه، أو عِمارةِ عَقارِه، أو سعيٍ في تجارتِه، أو غيرِ ذلك- فقد أضاع تلك الصَّلاةَ، واتَّبَع ما يشتهيه). ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ٥٥). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧١، ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٤٦).

قال ابنُ الجوزي: (ليس معنى هذا اللقاءِ مُجرَّدَ الرؤيةِ، وإنَّما المرادُ به: الاجتماعُ والملابسةُ مع الرؤيةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٣٨).

وقال الشنقيطي: (في المرادِ بقَولِه: ﴿غَيًّا﴾ في الآيةِ أقوالٌ مُتقاربةٌ؛ منها أنَّ الكلامَ على حَذفِ مُضافٍ، أي: فسوف يلقَونَ جَزاءَ غَيٍّ، ولا شَكَّ أنَّهم سيلقَونَ جزاءَ ضلالِهم. وممن قال بهذا القول: الزجَّاج. ونظيرُ هذا التفسيرِ قَولُه تعالى: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] عند من يقولُ: إنَّ معناه: يلقَ مُجازاةَ آثامِه في الدنيا... ومنها: أنَّ الغَيَّ في الآيةِ: الخُسرانُ والحُصولُ في الوَرَطاتِ. وممَّن رُوِيَ عنه هذا القولُ: ابنُ عباس، وابنُ زيد. ورُوِيَ عن ابنِ زيدٍ أيضًا: ﴿غَيًّا﴾ أي: شَرًّا، أو ضلالًا، أو خَيبةً. وقال بعضُهم: إنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿غَيًّا﴾ في الآيةِ: وادٍ في جهنَّمَ مِن قَيحٍ؛ لأنَّه يَسيلُ فيه قَيحُ أهلِ النَّارِ وصَديدُهم، وهو بعيدُ القعرِ، خَبيثُ الطَّعمِ. وممن قال بهذا: ابنُ مسعود، والبراء بن عازب، ورُوِيَ عن عائشة... وقيل: إنَّ المعنى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي: ضلالًا في الآخرةِ عن طريقِ الجنَّةِ. ذكره الزمخشري. وفيه أقوالٌ أُخَرُ، ومدارُ جميعِ الأقوالِ في ذلك على شَيءٍ واحدٍ، وهو: أنَّ أولئك الخَلْفَ الذين أضاعوا الصَّلاةَ واتَّبَعوا الشَّهَواتِ سوف يَلقَونَ يومَ القيامةِ عذابًا عَظيمًا). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٤٥، ٤٤٦).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[الماعون: ٤ - ٥].

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾.

أي: إلَّا الذين تابوا عن إضاعةِ الصَّلواتِ، واتِّباعِ الشَّهَواتِ، وآمنوا باللهِ وما جاءت به رسُلُه، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ المشروعةَ بإخلاصٍ لله، فأدَّوا فرائِضَه، واجتَنَبوا محارِمَه؛ فأولئك يدخُلونَ الجنَّةَ، ويَنجُونَ مِن النَّارِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

أي: ولا يَنقُصُهم اللهُ شَيئًا مِن حَسَناتِهم(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٧).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١﴾.

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

أي: يدخُلُ أولئك التائبونَ بساتينَ إقامةٍ دائمةٍ قد وعد الرَّحمنُ عِبادَه المؤمنينَ أن يَدخُلوها في الآخرةِ، فآمنوا بذلك، والحالُ أنَّهم لم يَرَوها في الدُّنيا[١].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا كان مِن شأنِ الوُعودِ الغائبةِ -على ما يتعارَفُه النَّاسُ بينهم- احتِمالُ عَدَمِ الوُقوعِ؛ بَيَّن أنَّ وَعدَه ليس كذلك، بقَولِه[٢]:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾.

أي: سيأتي المُؤمِنونَ المطيعونَ، ويَصيرونَ إلى اللهِ، وينالونَ ما وُعِدوا به، فيُدخِلُهم جنَّتَه؛ تحقيقًا لوَعدِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٧).

قال الشوكاني: (﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ في محلِّ نَصْبٍ على الحالِ مِن «الجنَّاتِ»، أو مِن «عبادِه»، أي: مُتَلَبِّسةً، أو: مُتلبِّسينَ بالغيبِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠١).

وقال الرسعني: (﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: وعَدهم بها، وهي غائبةٌ عنهم، أو: هم غائبونَ عنها). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٥، ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٦٤، ٤٦٥). =

﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢ ﴾.

﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا ﴾.

أي: لا يَسمَعُ أهلُ الجنَّةِ فيها باطِلًا وفُحشًا وكَلامًا لا ينفَعُهم، ولكِنْ[(١)] يَسمَعونَ فيها ما يَسُرُّهم مِن الأقوالِ والأصواتِ السَّالمةِ مِن كُلِّ عَيبٍ، مثل تحيَّةِ اللهِ وملائكتِه لهم، وتسليمِ بعضِهم على بعضٍ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[يونس: ١٠].

= قال ابنُ جرير: (وعدُه في هذا الموضع موعودُه، وهو الجنةُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٥).

وقال ابنُ جزي: (﴿مَأۡتِيّٗا﴾ وزنُه مفعولٌ، فقيل: إنَّه بمعنى «فاعلٍ»؛ لأنَّ الوعدَ هو الذي يأتي، وقيل: إنَّه على بابِه؛ لأنَّ الوعدَ هو الجنةُ، وهم يأتونها). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٣).

وقال ابن كثير: (ومنهم مَن قالَ: ﴿مَأۡتِيّٗا﴾ بمعنَى: آتِيًا؛ لأنَّ كلَّ ما أتاكَ فقدْ أتيتَه، كما تقولُ العربُ: أتَتْ عليَّ خمسونَ سنةً، وأتيتُ على خمسينَ سنةً، كلاهما بمعنى واحدٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٦).

(١) ممن قال بأنَّ الاستثناءَ هنا منقطعٌ: ابنُ جرير، والبغوي، والقرطبي، وابنُ كثير، واستظهره الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٦٦).

وقال البقاعي: (ويَحسُنُ أن يُرادَ باللَّغوِ مُطلَقُ الكَلامِ؛ قال في «القاموس»: لغا لَغْوًا: تكلَّمَ. أي: لا يَسمَعونَ فيها كَلامًا إلَّا كلامًا يدُلُّ على السَّلامةِ، ولا يَسمَعونَ شيئًا يدُلُّ على عَطَبِ أحَدٍ منهم، ولا عَطَبِ شَيءٍ فيها). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٦٦).

قال السعدي: (﴿إِلَّا سَلَٰمٗا﴾ أي: إلَّا الأقوالَ السَّالِمةَ مِن كُلِّ عَيبٍ؛ مِن ذِكرٍ للهِ، وتحيةٍ، وكلامِ سُرورٍ، وبِشارةٍ، ومُطارحةِ الأحاديثِ الحَسَنةِ بين الإخوانِ، وسَماعِ خِطابِ الرَّحمنِ، والأصواتِ الشَّجيَّةِ مِن الحُورِ والملائكةِ والوِلدانِ، والنَّغَماتِ المُطرِبةِ، والألفاظِ الرَّخيمةِ؛ لأنَّ الدَّارَ دارُ السَّلامِ، فليس فيها إلَّا السَّلامُ التامُّ في جميعِ الوُجوهِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٧).

وقال سُبحانَه: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾[الواقعة: ٢٥، ٢٦].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٣٥].

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

أي: ولأهلِ الجنَّةِ رِزقُهم في الجنَّةِ مِن الطَّعامِ والشَّرابِ وما يَشتَهونَ(١) في كُلِّ يومٍ في قَدرِ وَقتِ البُكرةِ ووقتِ العَشيِّ مِن أيَّامِ الدُّنيا(٢).

(١) قال السعدي: (﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: أرزاقُهم مِن المآكِلِ والمشارِبِ، وأنواعِ اللَّذَّاتِ: مُستَمِرَّةٌ حيثما طَلَبوا، وفي أي وقتٍ رَغِبوا، ومِن تمامِها ولذَّاتِها وحُسنِها أن تكونَ في أوقاتٍ معلومةٍ ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾؛ لِيَعظُمَ وَقعُها، ويَتِمَّ نَفعُها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٧، ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٧).

قال ابنُ جرير: (وإنما يعني أنَّ الذي بين غدائِهم وعشائِهم في الجنَّةِ قَدرُ ما بين غداءِ أحدِنا في الدنيا وعشائه، وكذلك ما بين العَشاءِ والغَداءِ؛ وذلك لأنَّه لا ليلَ في الجنةِ ولا نهار). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٦).

قال الزجاج: (قيل: ليس ثَمَّ بكرةٌ ولا عَشِيٌّ، ولكنَّهم خُوطِبوا بما يَعقِلونَ في الدنيا. فالمعنَى لهم: رزقُهم في مقدارِ ما بينَ الغداةِ والعشيِّ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٣٣٧).

وقال الواحدي معلقًا على كلامِ الزجاج: (وهذا قَولُ جميعِ أهلِ التأويلِ). ((البسيط)) (١٤/ ٢٧٧).

وقال الزجَّاج أيضًا: (وإذا قيلَ: في مِقدارِ الغَداةِ والعَشِيِّ، فالذي يُقسَمُ في ذلك الوَقتِ يكونُ مِقدارَ ما يريدونَ في كُلِّ ساعةٍ إلى أن يأتيَ الوَقتُ الذي يتلوه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ٣٣٧).

وقال ابنُ تيمية: (ليس في الجنَّةِ شَمسٌ ولا قمر، ولا هناك حركةُ فَلَك، بل ذلك الزمانُ مُقدَّرٌ =

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

أي: هذه الجنَّةُ العاليةُ القَدرِ التي وصَفْنا بهذه الصِّفاتِ العظيمةِ نُنْزِلُها ونُعْطيها مَن كان مِن عبادِنا مُتَّقِيًا لعذابِ اللهِ، بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه[1].

= بحركات، كما جاء في الآثار: أنهم يعرفون ذلك بأنوارٍ تظهَرُ مِن جهةِ العرشِ). ((شرح حديث النزول)) (ص: ١٧٨).

وقال القرطبي: (وقال العلماءُ: ليس في الجنَّةِ ليلٌ ولا نهارٌ، وإنَّما هم في نورٍ أبدًا، إنَّما يعرفونَ مقدارَ اللَّيلِ مِن النَّهارِ بإرخاءِ الحجبِ، وإغلاقِ الأبوابِ، ويعرِفونَ مقدارَ النَّهارِ برفعِ الحجبِ، وفتحِ الأبوابِ. ذَكَره أبو الفرجِ الجوزيُّ والمهدَوِيُّ وغيرُهما). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٢٧).

وقيل: المعنى: لهم رزقُهم فيها كلَّ سَاعةٍ، فالمرادُ بقوله: ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: دوامُ الرِّزقِ، مِن بابِ ذِكرِ الطَّرَفينِ الذي يَشمَلُ الجميعَ، كما تقولُ: أنا عندَ فُلانٍ صباحًا ومَساءً، وبُكرةً وعَشِيًّا. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجَّاج (٣/ ٣٣٧)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٢٥٥).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٧٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٢٧).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ في معنى إيراثِ الجنَّةِ قولان للمفسِّرينَ:

أحدُهما: أنَّ معناه نُنزِلُ. وهو قولُ الكلبيِّ. وجعَل ذلك كالميراثِ مِن جهةِ أنَّه يُملَكُ بحالٍ استُؤنِفَت عن حالٍ قد انقَضَت مِن أمرِ الدُّنيا، كما ينقضي حالُ الميتِ مِن أمرِ الدُّنيا.

القول الثاني: أن الله تعالى يُورِثُ عبادَه المؤمنينَ مِن الجنَّة المساكِنَ التي كانت لأهلِ النارِ لو آمنوا). ((البسيط)) (١٤/ ٢٧٨).

وممَّن ذهب إلى القولِ الأوَّل: البغوي، والبيضاوي، والنسفي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧١).

قال البقاعي: (﴿نُورِثُ﴾ أي: نُعطي عَطاءَ الإرثِ الذي لا نَكَدَ فيه مِن حينِ التأهُّلِ له بالموتِ، ولا كَدَّ ولا استِرجاعَ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٢٢٧). =

كما قال سُبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- إنَّ مِن أهمِّ وأعظَمِ أسبابِ التَّهاونِ في الصَّلاةِ اتِّباعَ الشَّهَواتِ؛ ولهذا قرنَ اللهُ تبارك وتعالى إضاعةَ الصَّلاةِ باتِّباعِ الشَّهَواتِ؛ فقال سُبحانَه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾[(١)].

٢- الصَّالحونَ كُلُّهم قَلَّلوا مِن عَيشِ الأجسادِ، وكثَّروا من عيشِ الأرواحِ؛ فإنَّ الأخذَ مِن عَيشِ الأجسادِ أكثَرَ مِن قَدرِ الحاجةِ يُلهي عن اللهِ، ويَشغَلُ عن خِدمتِه، فما تفرَّغ أحدٌ لطَلَبِ عَيشِ الأجسادِ، وأعطَى نفسَه حَظَّها مِن ذلك، إلَّا ونقَص حَظُّه مِن عَيشِ الأرواحِ، وربَّما مات قلبُه مِن غَفلتِه عن اللهِ، وإعراضِه عنه، وقد ذمَّ اللهُ مَن كان كذلك؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾، ثمَّ إنَّ ما حصَّلوه مِن شَهواتِهم ينقَطِعُ ويزولُ بالموتِ، ويَنقُصُ بذلك حظُّهم عندَ الله في الآخرةِ، فإن كان ما حصَّلوه من شهواتِهم مِن حَرامٍ، فذلك هو الخُسرانُ المبينُ؛ فإنَّه يُوجِبُ العقوبةَ الشَّديدة

= وممَّن ذهَب إلى القولِ الثاني: ابنُ جرير، والرسعني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٤٠).

قال الشنقيطي: (قد جاءَ حديثٌ يدُلُّ لِمَا ذُكِر مِنْ أنَّ لكلِّ أحدٍ منزلًا في الجنَّة، ومنزلًا في النَّار، إلَّا أنَّ حملَ الآيةِ عليه غيرُ صوابٍ؛ لأنَّ أهلَ الجنَّةِ يَرِثونَ مِن الجنَّةِ منازِلَهم المُعَدَّةَ لهم بأعمالِهم وتَقْواهم، كما قد قالَ تعالَى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ونحوِها مِن الآياتِ، ولو فَرَضْنا أنَّهم يَرِثونَ منازلَ أهلِ النَّارِ فحملُ الآيةِ على ذلك يُوهِمُ أنَّهم ليس لهم في الجنَّةِ إلَّا ما أُورِثوا مِنْ منازلِ أهلِ النَّارِ، والواقعُ بخلافِ ذلك كما ترَى). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٧٢).

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٤/ ٧).

في الآخرةِ(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ فيه تنبيهٌ ظاهِرٌ على وجوبِ تجنُّبِ اللَّغوِ واتِّقائِه؛ حيثُ نَزَّه اللهُ عنه الدَّارَ التي لا تكليفَ فيها، وما أحسَنَ قولَه سُبحانه: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، و﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(٢) [القصص: ٥٥].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أنَّه إذا كان سبحانه قد توعَّدَ بلُقِيِّ الغَيِّ مَن يُضيعُ الصلاةَ عن وقتِها -وذلك على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ-، ويَتبعُ الشَّهواتِ، والمُؤَخِّرُ لها عن وَقتِها مُشتَغِلًا بما يَشتَهيه هو مُضيِّعٌ لها، مُتَّبِعٌ لشَهوتِه؛ فدَلَّ ذلك على أنَّه مِن الكبائِرِ؛ إذْ هذا الوعيدُ لا يكون إلَّا على كبيرةٍ(٣).

٢- قولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ استُدِلَّ به على كُفْرِ تاركِ الصلاةِ الكفرَ الأكبرَ المُخْرِجَ عن الملة، ووجهُ الدلالةِ: أنَّ اللهَ قال في المضيِّعينَ للصلاةِ، المتَّبِعينَ للشهواتِ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ فدلَّ على أنَّهم حينَ إضاعتِهم للصلاةِ واتِّباعِ الشهواتِ غيرُ مؤمنين(٤)، فلو كان مضيِّعُ الصلاةِ مؤمنًا لم يُشترَطْ في توبتِه

---

(١) يُنظر: ((شرح حديث لبيك اللهم لبيك)) لابن رجب (ص: ٦٩-٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٢/ ١٢٧).

الإيمانُ؛ فإنَّه يكونُ تحصيلًا للحاصلِ(١)، وذلك على أنَّ المرادَ بالإضاعةِ: التركُ.

٣- في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ ذمٌّ لمَن تَرَكَ شيئًا مِن واجباتِ الصلاةِ -وإنْ كان في الظاهر مُصَلِّيًا- مثل أنْ يَتْرُكَ الوقتَ الواجبَ، أو يَتْرُكَ تكميلَ الشرائطِ والأركانِ مِن الأعمالِ الظاهرةِ والباطنةِ(٢)، وذلك على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ.

٤- شَرَط الله في قَبولِ التوبةِ ومغفرةِ الذنوبِ بها العملَ الصالحَ، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾، وقولِه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ [طه: ٨٢]، وقولِه: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾(٣) [القصص: ٦٧].

٥- قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾، قولُه: ﴿نُورِثُ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّها ليست عِوَضًا عن الأعمالِ بوَجهٍ، ولم يأخُذْها أحَدٌ بالاستِحقاقِ، وإنَّما كالوارِثِ الذي أخَذَ كوارِثٍ بغيرِ مُعاوَضةٍ ولا استِحقاقٍ(٤).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ فُرِّعَ على الثَّناءِ عليهم اعتبارٌ وتَنديدٌ بطائفةٍ من ذُرِّيَّاتِهم لم يَقْتدوا بصالحِ أسلافِهم، وهم الذين عناهم بقولِه: ﴿خَلۡفٌ﴾(٥).

(١) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٤٧).
(٢) يُنظر: ((القواعد النورانية)) لابن تيمية (ص: ٥٥).
(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٣٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ١٢٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٤).

- وقولُه: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ يشمَلُ طَبقاتٍ وقُرونًا كثيرةً، وليس قيدًا؛ لأنَّ الخلَفَ لا يكونُ إلَّا مِن بعْدِ أصْلِه، وإنَّما ذُكِرَ لاستحضارِ ذَهابِ الصَّالحينَ(١).

- قولُه: ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ﴾ حرْفُ (سَوْفَ) دالٌّ على أنَّ لقاءَهم الغيَّ مُتكرِّرٌ في أزمنةِ المُستقبَلِ؛ مُبالغةً في وعيدِهم، وتَحذيرًا لهم من الإصرارِ على ذلك(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾

- جِيءَ في جانبِهم باسمِ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ إشادةً بهم، وتَنبيهًا لهم؛ للتَّرغيبِ في تَوبتِهم(٣)؛ فما في اسمِ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ مَنزلتِهم، أي: فأولئك المَنعوتونَ بالتَّوبةِ والإيمانِ والعملِ الصَّالحِ(٤).

- قولُه: ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ جِيءَ بالمُضارعِ الدَّالِّ على الحالِ؛ للإشارةِ إلى أنَّهم لا يُمْطَلون في الجَزاءِ(٥).

- وذِكْرُ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في سياقِ النَّفيِ يفيدُ نفْيَ كلِّ فردٍ من أفرادِ النَّقصِ والإجحافِ والإبطاءِ، فيُعْلَمُ انتفاءُ النَّقصِ القويِّ بالفحوى(٦)؛ دفعًا لِما عسى أنْ يُخالِجَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٦).

(٦) فحْوَى الخطابِ: ويسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ، وهو إثباتُ حكمِ المنطوقِ به للمسكوتِ عنه بطريقِ الأولَى، كقولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظمُ مِن التَّأْفيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كانَ دونَ القنطارِ، ففي هذه الآيةِ نبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأولى نبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه =

نُفوسَهم من الانكسارِ بعدَ الإيمانِ، بظَنِّ أنَّ سبْقَ الكُفرِ يحُطُّ من حُسنِ مَصيرِهم[(١)]، ففيه: تنبيهٌ على أنَّ كُفرَهم السَّابقَ لا يضُرُّهم ولا ينقُصُ أُجورَهم[(٢)].

٣- قوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴾

- قولُه: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ جِيءَ بصيغةِ جمْعِ (جنَّاتٍ) مع أنَّ المُبدَلَ منه مُفردٌ؛ لأنَّه يَشتمِلُ على جنَّاتٍ كثيرةٍ[(٣)].

- ووُصِفَتِ الجنَّاتُ بـ ﴿ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ ﴾؛ لزيادةِ تَشريفِها وتحسينِها، وفي ذلك إدماجٌ[(٤)] لتَبشيرِ المُؤمِنين السَّابقينَ في أثناءِ وعْدِ المَدْعوين إلى الإيمانِ[(٥)].

= والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٦).

(٤) الإدماجُ، لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه.

واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعل المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غَرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة: البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٦-١٣٧).

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرَّحمةِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ وعْدَها وإنجازَه لكَمالِ سَعةِ رحمَتِه تعالى[1].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيًّا﴾ تعليلٌ لجُملةِ ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، أي: يَدْخلون الجنَّةَ وعْدًا من اللهِ واقعًا، وهذا تحقيقٌ للبشارةِ[2].

- في قولِه: ﴿مَأۡتِيًّا﴾ عُبِّرَ بالإتيانِ عن حُصولِ المطلوبِ المُترقَّبِ؛ تَشبيهًا لمَن يُحصِّلُ الشَّيءَ بعدَ أنْ سعَى لتَحصيلِه بمَن مَشَى إلى مكانٍ حتَّى أتاهُ، وتَشبيهًا للشَّيءِ المُحصَّلِ بالمكانِ المقصودِ[3].

٤- قولُه تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا﴾ كِنايةٌ عن عدَمِ صُدورِ اللَّغوِ عن أهْلِها[4]، وكِنايةٌ عن انتفاءِ أقلِّ المُكدِّراتِ في الجنَّةِ، وكِنايةٌ عن جعْلِ مُجازاةِ المُؤمِنين في الجنَّةِ بضِدِّ ما كانوا يُلاقُونَه في الدُّنيا من أذَى المُشرِكين ولَغْوِهم[5].

- قولُه: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ جِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ ذلك ودوامِه؛ فيفيدُ التَّكرُّرَ المُستمِرَّ، وهو أخصُّ من التَّكرُّرِ المُفادِ بالفعْلِ المُضارعِ وأكثَرُ[6].

- وتَقديمُ الظَّرفِ ﴿وَلَهُمۡ﴾؛ للاهتمامِ بشأْنِهم. وإضافةُ (رِزْق) إلى ضَميرِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٣٨).

﴿رِزْقُهُمْ﴾؛ لزيادةِ الاختصاصِ[(١)].

- والجمْعُ بينَ ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ كِنايةٌ عن استغراقِ الزَّمنِ، أي: لهم رزقُهم غيرَ محصورٍ ولا مُقدَّرٍ، بلْ كلَّما شاؤوا[(٢)]، وذلك على قولٍ في تَفسيرِ الآيةِ.

٥- قولُه تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ الوراثةُ أقْوى لَفظٍ يُستعمَلُ في التَّملُّكِ والاستحقاقِ؛ من حيثُ إنَّها لا تُعْقَبُ بفسْخٍ ولا استرجاعٍ، ولا تبطلُ بردٍّ ولا إسقاطٍ، وفيه تَشبيهٌ تَمثيليٌّ بليغٌ؛ فقد شبَّهَ عطاءَ الجنَّةِ لهم بالعَطاءِ الَّذي لا يُرَدُّ، وهو الميراثُ الَّذي يرِثُه الوارثُ؛ فلا يرجِعُ فيه المورِّثُ، أي: نُبْقيها عليهم من ثَمرةِ تَقْواهم، كما يَبْقى على الوارثِ مالُ مُورِّثِه[(٣)].

- وجُملةُ: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ...﴾ مُستأنفةٌ ابتدائيَّةٌ، واسمُ الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾ لزيادةِ التَّمييزِ؛ تَنويهًا بشأْنِها، وأُجْرِيَت عليها الصِّفةُ بالموصولِ وصِلَتِه ﴿الَّتِي نُورِثُ...﴾؛ تَنويهًا بالمُتَّقينَ، وأنَّهم أهْلُ الجنَّةِ[(٤)]. وجِيءَ كذلك باسمِ الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾؛ لتَعظيمِ شأنِ الجنَّةِ، وتَعيينِ أهْلِها؛ فإنَّ ما في اسمِ الإشارةِ من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٢٥).

وقال ابنُ عاشورٍ: (وحقيقةُ الإرثِ: انتقالُ مالِ القريبِ إلى قَريبِه بعدَ موتِه؛ لأنه أَوْلى الناس بمالِه؛ فهو انتقالٌ مقيَّد بحالة. واستُعير هنا للعطيةِ المُدَّخرةِ لمُعطاها؛ تشبيهًا بمال الموروث الذي يَصيرُ إلى وارثه آخِرَ الأمرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٨).

معنى البُعدِ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِها، وعُلوِّ رُتبتِها[١].

- وقولُه: ﴿ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴾ فيه تشريفٌ لهم مِن جهةِ إضافةِ لفظِ العبادِ إلى الله تعالى، ولأنَّ (تَقِيًّا) أخصُّ مِن (المتَّقي)[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ١٢٦).

الآيتان (٦٤-٦٥)

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿نَسِيًّا﴾: أي: ذا نِسيانٍ، أو: تاركًا لك، وأصلُ (نسي): يدلُّ على إغْفالِ الشيءِ، أو تركِه[1].

﴿وَاصْطَبِرْ﴾: أي: اصبِرْ، أو: اصبِرْ صبرًا عظيمًا، أو: تحمَّلِ الصَّبرَ بجهدِك، ويُقالُ: اصْطَبر: إذا اكتسَب الصبرَ وتعلَّمَه، والاصْطِبارُ[2]: شِدَّةُ الصَّبرِ على الأمرِ الشَّاقِّ، وأصلُ (صبر) هنا: الحبسُ والمنعُ[3].

﴿سَمِيًّا﴾: أي: مَثيلًا وشَبيهًا ونَظيرًا، فالسميُّ: المُسامي؛ فعيلٌ بمعنَى مُفاعِل، أي: المماثلِ في السموِّ والرفعةِ والشَّرَفِ، وأصلُ (سمو): يدُلُّ على العُلوِّ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٢، ٢٢٥).

(٢) قال ابن عاشور: (صيغة الافتعالِ تَرِدُ لإفادةِ قُوَّةِ الفعلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٨٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٧٤)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٥، ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٢).

وقال ابنُ القيِّمِ بعدَ أن ذكَر الخلافَ في أصلِ كلمةِ «صبر»: (والتحقيقُ أنَّ في الصبرِ المعانيَ الثلاثةَ: المنعَ، والشِّدَّةَ، والضَّمَّ). ((عدة الصابرين)) (ص: ١٦).

وأصلُ اصْطَبر: (اصتبر)؛ افْتَعل مِن الصبرِ، لكن قُلِبَت التاءُ طاءً. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٦٧).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: قلْ -يا جِبريلُ- لمحمَّدٍ: وما نتنَزَّلُ نحن -الملائِكةَ- من السَّماءِ إلى الأرضِ إلَّا بأمرِ رَبِّك لنا، فلا تَستبطئْ نُزولَنا، لله وحده جميعُ الجهاتِ والأماكنِ، وجميعُ الأزمانِ: الحاضرةِ والماضيةِ والمستقبلةِ، فلا نقدرُ أن ننتقلَ مِن جهةٍ إلى جهةٍ، أو في زمانٍ دونَ زمانٍ إلَّا بأمرِ ربِّك ومشيئتِه، وما كان ربُّك ناسيًا لشيءٍ مِن الأشياءِ؛ فهو رَبُّ السَّمواتِ والأرضِ وما بينهما، ومالِكُ ذلك كُلِّه وخالِقُه ومُدَبِّرُه، فاعبُدْه وَحدَه -يا محمَّدُ- واصطَبِرْ على طاعتِه؛ لأنَّه ليس كمِثلِه شَيءٌ في ذاتِه وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه سُبحانَه؛ فيَستَحِقَّ أن يُعبَدَ مِثلَ اللهِ، وأن يُسمَّى بما يختصُّ به اللهُ مِن الأسماءِ الحُسنى.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ٦٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن ذكَرَ قَصَص الأنبياءِ عليهم السَّلامُ؛ تثبيتًا له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأعقبَه بذِكرِ ما أحدَثَه الخَلْفُ بَعدَهم، وذكَرَ جزاءَ الفَريقينِ؛ أعقَبَ ذلك بقَصَصِ تأخُّرِ نُزولِ جِبريلَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ زعم المُشرِكونَ أنَّ اللهَ ودَّعَه وقلاه، وقد ردَّ عليهم زعْمَهم وأبان لهم أنَّ الأمرَ على غيرِ ما زَعَموا[1].

وأيضًا لَمَّا كَشَفَت هذه السُّورةُ عن هذه القِصَصِ الغَريبةِ، وكان المتعَنِّتونَ ربَّما قالوا: نريدُ أن يخبِرَنا هذا الذي يَنزِلُ عليك بجَميعِ أنباءِ الأقدَمينَ، وأخبارِ

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٦/ ٧٠).

الماضِينَ؛ كان جوابًا عن ذلك أن قيلَ: ما أُنزِلْنا عليك بأخبارِ هؤلاء إلَّا بأمرِ رَبِّك، وما نتنزَّلُ فيما يأتي أيضًا إلَّا بأمرِ ربِّك[1].

سببُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رضِيَ الله عنهما، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((يا جِبريلُ، ما يمنعُك أن تَزورَنا أكثَرَ مِمَّا تَزورُنا؟ فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ إلى آخِرِ الآية، قال: كان هذا الجوابُ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[2].

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.

أي: قُلْ -يا جبريلُ- لمحمَّدٍ: وما ننزِلُ نحن -الملائِكةَ- من السَّماءِ إلَّا بأمرِ رَبِّك لنا بالنُّزولِ متى شاء؛ فنحن عبيدٌ مأمورونَ، ليس لنا مِن الأمرِ شَيءٌ، فلا تَستبطِئْ نُزولَنا يا محمَّدُ[3].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٠).

قال ابن عاشور: (لا شكَّ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قالَ ذلك لجبريلَ عليه السَّلامُ [أي: ألا تزورُنا أكثرَ مِمَّا تزورُنا] عندَ انتهاءِ قَصصِ الأنبياءِ في هذه السُّورةِ، فأُثْبِتت الآيةُ في الموضعِ الَّذي بَلَغ إليه نزولُ القرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٩).

وقال أيضًا: (يَندُرُ أن يكونَ مَوقِعُ الآيةِ عَقِبَ التي قبلَها؛ لأجلِ نُزولِها عَقِبَ التي قبلَها من سورةٍ هي بصدَدِ النُّزولِ، فيُؤمَرَ النبيُّ بأن يقرأَها عَقِبَ التي قبلَها، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ عَقِبَ قَولِه: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ في سورة مريم؛ فقد رُوِيَ أنَّ جبريلَ لَبِثَ أيامًا لم ينزِلْ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بوَحيٍ، فلمَّا نزل بالآياتِ السَّابقةِ عاتبَه النبيُّ، فأمر اللهُ جبريلَ أن يقولَ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾؛ فكانت وحيًا نزل به جبريلُ، فقُرِئَ مع الآيةِ التي نزل بأثَرِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٨٠).

(٢) رواه البخاري (٧٤٥٥). #

قال الواحدي: (المفسِّرون كلُّهم في سببِ نزولِ هذه الآيةِ على هذا). ((البسيط)) (١٤/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾.

أي: لله وحدَه[١] جميعُ الجهاتِ والأماكنِ، وجميعُ الأزمانِ: الحاضرةِ والماضيةِ والمستقبلةِ، فلا نقدرُ أن ننتقلَ مِن جهةٍ إلى جهةٍ، أو في زمانٍ دونَ زمانٍ إلَّا بأمرِ ربِّك ومشيئتِه[٢].

= (ص: ٤٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٣٩، ١٤٠).

قال الشوكاني: (قَولُه: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ أي: قال الله سُبحانَه: قُلْ -يا جبريلُ-: وما نتنَزَّلُ... وقيل: إنَّ هذا حكايةٌ عن أهلِ الجنَّةِ، وإنَّهم يقولونَ عند دخولِها: وما نتنزَّلُ هذه الجِنانَ إلَّا بأمرِ رَبِّك. والأوَّلُ أَولى؛ بدَلالةِ ما قَبلَه، ومعناه يحتَمِلُ وَجهَينِ: الأولُ: وما نتنزَّلُ عليك إلَّا بأمرِ رَبِّك لنا بالتَنَزُّلِ. والثاني: وما نتنَزَّلُ عليك إلَّا بأمرِ رَبِّك الذي يأمُرُك به بما شَرَعه لك ولأمَّتِك). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٤).

قال ابنُ حجرٍ: (تنبيهٌ: الأمرُ في هذه الآيةِ معناه الإذنُ؛ بدليلِ سببِ النزولِ المذكورِ، ويحتمِلُ الحكمَ، أي: نتنزلُ مصاحبينَ لأمرِ الله عبادَه بما أوجَب عليهم، أو حرَّم، ويحتمِلُ أن يكونَ المرادُ ما هو أعمُّ مِن ذلك، عندَ مَن يجيزُ حملَ اللفظِ على جميعِ معانيه). ((فتح الباري)) (٨/ ٤٢٩).

(١) والمرادُ أنه تعالى المالكُ لكلِّ ذلك. وقيل: المراد: له علمُ ما بينَ أيدينا... إلخ، أي: فلا نُقدِمُ على ما لم يكنْ موافقَ حكمتِه سبحانَه وتعالى. واختار بعضُهم التعميمَ، أي: له سبحانه ذلك ملكًا وعلمًا. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨).

اختُلِف في تفسيرِ هذه الآيةِ على أقوالٍ؛ منها: أنَّ معنى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أي: ما يأتي مِن أمورِ الآخرةِ. ومعنى ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ أي: ما مضَى مِن الدنيا. ومعنى ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما بينَ وقتِنا هذا إلى يومِ القيامةِ. وممن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، والزجَّاجُ، ومكي، والواحدي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٣، ٥٨٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٣٧)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٥٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٧٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٠٣). =

= وممن قال مِن السلفِ أنَّ قولَه تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: الآخرةُ، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾: الدنيا: ابنُ عبَّاسٍ، وعكرمةُ، وقتادةُ، والضحَّاكُ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٤١٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٤٠).

وممن قال مِن السلفِ أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما بينَ الدنيا والآخرةِ: سعيدُ بنُ جبيرٍ، وقتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٤٠).

وممن اختار هذا القولَ أيضًا مِن المفسرينَ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والفرَّاءُ، والسمرقندي، والعُليمي، لكن قالوا: معنى ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما بينَ النفختينِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٣٣)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٨١)، ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٢٦٥).

وممن قال مِن السلفِ أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ ما بينَ النفختينِ: مجاهدٌ، وعكرمةُ، وقتادةُ -في روايةٍ عنه-، وأبو العاليةِ، والربيعُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٤٠).

واعترض الواحديُّ على هذا القولِ بأنَّه لم يَجْرِ للنفختينِ ذِكرٌ حتَّى يُشارَ إليه. ((البسيط)) (١٤/ ٢٨١).

وقال ابنُ عطية: (وقال ابنُ عباسٍ وقتادةُ فيما رُوي -وما أراه صحيحًا عنهما-: «ما بينَ الأيدي»: هي الآخرةُ، و«ما خلف»: هو الدنيا، وهذا مختلُّ المعنى إلَّا على التشبيهِ بالمكانِ؛ لأن ما بينَ اليدِ إنَّما هو ما تقدَّم وجودُه في الزمنِ بمثابةِ التوراةِ والإنجيلِ مِن القرآنِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤).

وقيل: معنى الآيةِ: له ما قدَّامنا وما خلفَنا، وما نحن فيه مِن الجهاتِ والأماكنِ، فليس لنا الانتقالُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ إلَّا بأمرِ الله، وممن اختار هذا القولَ: الزمخشريُّ، والنسفي، وابنُ جزي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٣).

قال ابن عطية: (الآيةُ إنَّما المقصدُ بها الإشعارُ بملكِ الله تعالى للملائكةِ، وأنَّ قليلَ تصرفِهم وكثيرَه إنَّما هو بأمرِه، وانتقالَهم مِن مكانٍ إلى مكانٍ، إنَّما هو بحكمتِه؛ إذ الأمكنةُ له، وهم له، فلو ذهب بالآيةِ إلى أنَّ المرادَ بـ «ما بينَ الأيدي وما خلف» الأمكنةُ التي فيها تصرفُهم، والمرادُ بـ «ما بينَ ذلك» هم أنفسُهم ومقاماتُهم لكان وجهًا، كأنَّه قال: نحن مقيدون بالقدرةِ، لا ننتقلُ =

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

أي: ولم يكُنْ رَبُّك -يا محمَّدُ- ذا نسيانٍ لشَيءٍ مِن الأشياءِ، فإنْ تأخَّرَ نزولُنا إليك، فليس عن نِسيانٍ منه، وإنَّما اقتضت حكمتُه ذلك، ولم يكن ربُّك لينساك ويُهمِلَك، بل لم يَزَلْ مُعتَنيًا بك؛ فلا تحزَنْ إن تأخَّرَ نزولُنا، واعلَمْ أنَّ اللهَ أراد ذلك[1].

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

= ولا نتنزلُ إلا بأمرِ ربِّك). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤).

واختار بعضُ المفسرين تفسيرَ الآيةِ بما يعمُّ الزمانَ والمكانَ، ومنهم: البيضاوي، والبقاعي، وأبو السعود، وابنُ عجيبة، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨).

قال البقاعي: (﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أي: مِن المكانِ والزمانِ، وما فيهما، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ مِن ذلك ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وهو نحن والمكانُ والزمانُ اللذان نحن بهما، وما فوقَه وتحتَه، ونحن نعلمُ ذلك، ونعملُ على حسبِ ما نعلمُ، فلا نتصرَّفُ في ملكِه إلَّا بأمرِه). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٢٣٠).

وذهب ابنُ عاشور إلى ما هو أعمُّ مِن ذلك، فقال: (المرادُ بـ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ما هو أمامَنا، وبـ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾: ما هو وراءَنا، وبـ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾: ما كان عن أيمانِهم وعن شمائلِهم؛ لأنَّ ما كان عن اليمينِ وعن الشمالِ هو بينَ الأمامِ والخلفِ. والمقصودُ استيعابُ الجهاتِ. ولما كان ذلك مخبَرًا عنه بأنَّه ملكٌ لله؛ تعيَّن أن يُرادَ به الكائناتُ التي في تلك الجهاتِ، ... فيعمُّ جميعَ الكائناتِ، ويستتبعُ عمومَ أحوالِها وتصرفاتِها، مثلَ التنزلِ بالوحيِ. ويستتبعُ عمومَ الأزمانِ: المستقبلَ والماضي والحالَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٠).

قال الشوكاني: (وعلى هذه الأقوالِ كلِّها يكونُ المعنى: أنَّ الله سبحانَه هو المحيطُ بكلِّ شيءٍ، لا يخفَى عليه خافيةٌ، ولا يَعزُبُ عن علمِه مثقالُ ذرَّةٍ، فلا نُقدِمُ على أمرٍ إلا بإذنِه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٣٠)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ١٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨).

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وُصِفَ اللهُ سبحانه وتعالى بنفوذِ الأمرِ، واتِّساعِ العِلمِ على وجهٍ ثبَت به ما أخبَرَ به عن الجنة، فثبَت أمرُ البعث؛ أتبع ذلك ما يُقَرِّرُه على وجهٍ أصرحَ منه وأعَمَّ، فقال[1]:

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾.

أي: خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ ومالِكُهما وما بينَهما مِن الخَلقِ، ومُدَبِّرُ ذلك كلِّه، فلو كان نَسِيًّا لم يستَقِم الوُجودُ، ولاضطربَ نظامُ الحياةِ، وهلكَت المخلوقاتُ[2].

﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾.

أي: فاعبُدْ رَبَّك وَحدَه مُخلِصًا له، واصبِرْ صَبرًا عظيمًا بغايةِ جُهدِك على العَمَلِ بطاعتِه[3].

﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾.

أي: أمَرْناك بعبادةِ اللهِ والاصطبارِ عليها؛ لأنَّه لا مثيلَ ولا شبيهَ له في صِفاتِه وأسمائِه؛ فيستحقَّ أن يُعبَدَ مِثلَ اللهِ، وأن يُسمَّى بما يختصُّ به اللهُ مِن الأسماءِ الحُسنى[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣١-٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٣٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٢)، =

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ دليلٌ على أنَّ العبادةَ لا تخلو مِن مشقةٍ، والمؤمنُ مأمورٌ بالصَّبرِ عليها؛ إذ اسمُ الصبرِ لا يكونُ إلَّا مَقرونًا بالكَراهةِ والصُّعوبةِ(١).

الفَوائِدُ العِلميَّة واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ فيه سؤالٌ: وهو أنَّ قَولَه: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ كلامُ اللهِ، وقَولَه هنا: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ كلامُ غَيرِ اللهِ، فكيف جاز عَطْفُ هذا على ما قَبلَه مِن غيرِ فَصلٍ؟

الجواب: أنَّه إذا كانت القرينةُ ظاهِرةً لم يَقبُحْ، كما أنَّ قَولَه سُبحانَه: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥] هو كلامُ اللهِ، وقولُه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ [مريم: ٣٦] كلامُ غيرِ اللهِ، وأحَدُهما معطوفٌ على الآخَرِ(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ استُدِلَّ به على

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٣).

قال ابن تيمية: (فلا أحدَ يُساميه، ولا يستحِقُّ أن يُسمَّى بما يختَصُّ به من الأسماءِ، ولا يساويه في معنى شيءٍ مِن الأسماء، لا في معنى الحيِّ ولا العليمِ ولا القديرِ، ولا غيرِ ذلك من الأسماء، ولا في معنى الذات والموجودِ ونحو ذلك من الأسماء العامَّة، ولا يكونُ إلهًا ولا ربًّا ولا خالقًا). ((مجموع الفتاوى)) (٢٧/ ٣٦٦).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥٤).

أنَّ الأزمنةَ ثَلاثةٌ: مُستقبَلٌ وماضٍ وحالٌ، خِلافًا لِمَن نفى الحالَ[١]، وهذا على القولِ بأنَّ الآيةَ في الأزمنةِ.

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]، وقَولُه: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤]؛ لا يُعارِضُ قولَه تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وقَولَه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾؛ لأنَّ معنى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٥١] ونحوِه، أي: نتركُهم في العذابِ محرومينَ مِن كُلِّ خَيرٍ، واللهُ تعالى أعلَمُ[٢].

٤- اجتمَعَت في قولِه تعالى: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أقسامُ التَّوحيدِ الثَّلاثةُ: توحيدُ الربوبيَّة، وتوحيدُ الألوهيَّة، وتوحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ[٣]؛ فالربوبيةُ في قولِه: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، والألوهيةُ في قولِه: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾، والأسماءُ والصفاتُ في قولِه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.

٥- نهانا الله تعالى أن نَضرِبَ له المثَلَ، فقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]، وأخبَرَنا -عزَّ وجَلَّ- أنَّه لا مِثلَ له، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقال تعالى: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ وبهذه الآياتِ يتبيَّنُ أنَّه لا يحِلُّ لنا أن نُمَثِّلَ صفاتِ اللهِ عزَّ وجَلَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٧٤).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٦/ ٣٧).

٦- قال الله تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ يستفادُ منه أنَّ النكرةَ في سياقِ الاستفهامِ تَعُمُّ(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ الاستفهامُ للنفيِ، وإذا كان الاستفهامُ بمعني النفيِ كان مُشرَبًا معنى التحدِّي، يعني: إنْ كنتَ صادِقًا فأخبِرْنا: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾(٢)؟

٨- قال ابنُ عقيلٍ: (كُلُّ ما انفردَ به اللهُ عزَّ وجلَّ، كـ«اللَّه» و«رحمن» و«خالق» لا يجوزُ التَّسمِّي به، وكلُّ ما وُجِدَ معنَاهُ في الآدَمِي: فإنْ كانَ يوجدُ تكبرًا، كالملكِ العظيم والأعظم، وملكِ الملوكِ، والجبارِ؛ فمكروهٌ، والصوابُ الجزمُ بتحريمِه، فأمَّا مَا يتسمَّى بِه المخلوقونَ مِنْ أسمائِهِ، كالسميع والبصيرِ، والقديرِ والعليم والرحيم، فإنَّ الإضافةَ قاطِعةُ الشَّرِكةَ، وكذلك الوصفيةُ، فقولنا: زيدٌ سميعٌ بصيرٌ لا يُفيدُ إلا صفةَ المخلوقِ، وقولُنا: اللَّهُ سميعٌ بصيرٌ يفيدُ صفتَه اللائقةَ بِه، فانقطعتْ المشابهةُ بوجْهٍ من الوجوهِ؛ ولهذا قالَ تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾)(٣).

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾ في إعادةِ اسمِ الرَّبِّ المُعرِبِ عن التَّبليغِ إلى الكَمالِ اللَّائقِ، مضافًا إلى ضَميرِه عليه السَّلامُ: من تَشريفِه، والإشعارِ بعلَّةِ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٢).
(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٥٢).
(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٥٠).

الحُكمِ ما لا يَخْفَى[١].

- و﴿نَسِيًّا﴾ صِيغَةُ مُبالغةٍ من: نَسِيَ، أي: كثيرَ النِّسيانِ أو شديدَه، والمقصودُ: صرْفُ المُبالغةِ إلى جانبِ نسبةِ نفْيِ النِّسيانِ عنِ اللهِ تعالى، أي: تَحقيقُ نفْيِ النِّسيانِ؛ فهو هنا كِنايةٌ عن إحاطةِ علْمِ اللهِ[٢]، وبيانٌ لاستحالةِ النِّسيانِ عليه تعالى[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ جُملةٌ مُستأنفةٌ مِن كلامِ اللهِ تعالى، كما يَقْتضيه قولُه: ﴿فَٱعْبُدْهُ...﴾؛ ذيَّلَ بِهِ الكلامَ الَّذي لَقَّنَه جبريلَ المُتضمِّنَ: أنَّ الملائكةَ لا يتصرَّفون إلَّا عن إذْنِ ربِّهم، وأنَّ أحوالَهم كلَّها في قبضَتِه بما يفيدُ عُمومَ تصرُّفِه تعالى في سائرِ الكائناتِ، ثمَّ فرَّعَ عليه أمْرَ الرَّسولِ عليه السَّلامُ بعبادتِه، فقدِ انتقَلَ الخطابُ إليه[٤]، وهي بَيانٌ لاستحالةِ النِّسيانِ عليه تعالى؛ فإنَّ مَن بيَدِه ملكوتُ السَّمواتِ والأرضِ وما بينهما كيف يُتصوَّرُ أنْ يحومَ حولَ ساحةِ سُبحانه الغفلةُ والنِّسيانُ[٥]؟!

وقيل: قولُه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تعليلٌ لإحاطةِ عِلمِه، وعدمِ نِسيانِه؛ فربوبيتُه للسَّمواتِ والأرضِ، وكونُهما على أحسَنِ نِظامٍ وأكمَلِه، ليس فيه غفلةٌ ولا إهمالٌ، ولا سُدى، ولا باطلٌ؛ برهانٌ قاطع على عِلمِه الشاملِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٠-١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤١-١٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨).

- والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ لترتيبِ ما بعْدَها من مُوجبِ الأمْرينِ على ما قبْلَها، من كونِه تعالى ربَّ السَّمواتِ والأرضِ وما بينهما، ويحصُلُ منه التَّخلُّصُ إلى التَّنويهِ بالتَّوحيدِ، وتَفظيعِ الإشراكِ[(١)]. وقيل: من كونِه تعالى غيرَ تاركٍ له عليه السَّلامُ، أو غيرَ ناسٍ لأعمالِ العاملينَ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ عُدِّيَ (اصْطَبِرْ) باللَّامِ -ولم يُعَدَّ بـ (على) الَّتي هي صِلَتُه، كقولِه تعالى: ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]-؛ لتَضمينِه معنى الثَّباتِ، أي: اثبُتْ للعبادةِ؛ لأنَّ العبادةَ مَراتبُ كثيرةٌ من مُجاهدةِ النَّفسِ، وقد يغلِبُ بعضُها بعضَ النُّفوسِ، فتَستطيعُ الصَّبرَ على بعضِ العباداتِ دونَ بعضٍ[(٣)].

- وجُملةُ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ واقعةٌ موقعَ التَّعليلِ للأمْرِ بعِبادتِه، والاصطبارِ عليها، والاستفهامُ إنكاريٌّ، أي: لا مُساميَ للهِ تعالى، أي: ليس مَن يُساميه -أي: يُضاهيه- موجودًا. وانتفاءُ تَسميةِ غيرِه من الموجوداتِ المُعظَّمةِ باسْمِه: كِنايةٌ عن اعترافِ النَّاسِ بأنْ لا مُماثِلَ له في صِفَةِ الخالقيَّةِ؛ لأنَّ المُشركين لم يَجترِئوا على أنْ يَدَّعوا لآلهتِهم الخالقيَّةَ، وبذلك يتِمُّ كونُ الجُملةِ تعليلًا للأمْرِ بإفرادِه بالعبادةِ على هذا الوجْهِ أيضًا، وقد كُنِّيَ بانتفاءِ العِلْمِ بسَمِيِّه عن انتفاءِ وُجودِ سَمِيٍّ له؛ لأنَّ العلمَ يَستلزِمُ وُجودَ المعلومِ، وإذا انتفَى مُماثِلُه انتفَى مَن يَستحِقُّ العبادةَ غيرَه[(٤)]. فالمُرادُ بإنكارِ العلْمِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٣-١٤٤).

ونفْيِه: إنكارُ المعلومِ ونفْيُه على أبلَغِ وجْهٍ وآكدِه؛ فالجُملةُ تقريرٌ لِما أفادهُ الفاءُ مِن عِلِّيةِ رُبوبيَّتِه العامَّةِ لوُجوبِ عبادتِه، بل لوُجوبِ تَخصيصِها به تعالى؛ ببَيانِ استقلالِه عَزَّ وجَلَّ بذلك الاسمِ، وانتفاءِ إطلاقِه على الغيرِ بالكُلِّيةِ حقًّا أو باطلًا[1].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٤).

الآيات (٦٦-٧٢)

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿جِثِيًّا﴾: أي: بُروكًا على رُكَبِهم، لا يستطيعونَ القيامَ ممَّا هم فيه، جمعُ جاثٍ. وقيل: ﴿جِثِيًّا﴾ أي: جميعًا، وقيلَ: أي: جماعاتٌ، جمعُ جَثْوَةٍ، وهي المجموعُ مِن التُّرابِ أو الحجارةِ(١).

﴿شِيعَةٍ﴾: الشيعةُ: الفرقةُ التي شايَع بعضُها بعضًا، أي: تابَعه، والشِّيعَةُ: مَن يتقوَّى بهم الإنسانُ، ويَنْتشِرون عنه، وكلُّ قومٍ اجتَمعوا على أمرٍ فهم شيعةٌ، وأصلُه يدلُّ على معاضدةٍ ومساعفةٍ(٢).

﴿عِتِيًّا﴾: أي:تمرُّدًا، والعُتُوُّ: النُّبُوُّ -أي: الارتفاعُ- عن الطاعةِ، وكلُّ مُتَناهٍ إلى غايَتِه في كِبرٍ، أو فسادٍ، أو كفرٍ فهو عاتٍ، وأصلُ (عتو) هنا: يدُلُّ على استكبارٍ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٩٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٤٦٥، ٥٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٦٦).

﴿صِلِيًّا﴾: أي: دُخولًا، ومُقاساةً لحَرِّها، وأصلُ الصلي هنا: الإيقادُ بالنَّارِ. وقيل: أصلُه: القربُ مِن النارِ[1].

﴿وَارِدُهَا﴾: أي: مارٌّ عليها، أو: داخلُها، وأصلُ (ورد): يدلُّ على الموافاةِ إلى الشَّيءِ[2].

﴿حَتْمًا﴾: أي: أمرًا محتومًا، لازمًا، جازمًا، واجِبًا لا محيدَ عنه، والحتمُ: إيجابُ القضاءِ، والقطعُ بالأمرِ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبرُ الله تعالى عن موقفِ المشركينَ مِن البعثِ، ويحكي أقوالَهم الباطلةَ، فيقولُ تعالى: ويقولُ الإنسانُ الكافِرُ مُنكِرًا للبَعثِ بعدَ الموتِ: هل إذا ما مِتُّ وفَنِيتُ أُخرَجُ مِن قبري حيًّا؟!

ويردُّ الله سبحانَه عليهم بما يُبطِلُ قولَهم، فيقولُ: أولَا يَذكُرُ هذا الكافِرُ أنَّا خَلَقْناه أوَّلَ مَرَّةٍ، ولم يكُنْ شيئًا مذكورًا؟! فالقادِرُ على إيجادِه مِن العَدَمِ قادِرٌ على إحيائِه بعدَ مَوتِه.

ثمَّ يُقسِمُ الله سبحانَه على وقوعِ البعثِ والنشورِ فيقولُ: فوربِّك -يا محمَّدُ- لنجمعَنَّ هؤلاء المُنكِرينَ للبَعثِ يومَ القيامةِ مع الشَّياطينِ الذين أضَلُّوهم، ثمَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٣٥)، ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٩٣)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٨١).

لَنُحضِرَنَّهم حَولَ جهنَّمَ باركينَ على رُكَبِهم، ثمَّ لنأخُذَنَّ مِن كلِّ طائفةٍ أشدَّهم تمرُّدًا وكُفرًا وعِصيانًا لله، فنبدأُ بعَذابِهم، ثمَّ لنحن أعلَمُ بمَن هم أحقُّ بشدَّةِ العذابِ في النَّارِ.

ثمَّ يُبيِّنُ أنَّ الجميعَ سيرِدُ جهنَّمَ، فيقولُ: وما منكم -أيُّها النَّاسُ- أحدٌ إلَّا وارِدُ النَّارَ، كان ذلك على ربِّك أمرًا محتومًا وقَضاءً واجبًا لا بدَّ مِن وقوعِه، ثمَّ ننجِّي الذين اتَّقَوا ربَّهم بامتِثالِ ما أمَرَ واجتنابِ ما نهى، ونتركُ الظالمينَ أنفُسَهم بالكُفرِ والمعاصي في النَّارِ باركينَ على رُكَبِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ٦٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تضَمَّنَ قَولُه تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥] إبطالَ عَقيدةِ الإشراكِ به؛ ناسبَ الانتقالُ إلى إبطالِ أثَرٍ مِن آثارِ الشِّركِ، وهو نفيُ المشركينَ وُقوعَ البعثِ بعد الموتِ؛ حتى يتِمَّ انتقاضُ أصلَيِ الكُفرِ(١).

﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ٦٦﴾.

أي: ويقولُ الإنسانُ الكافِرُ مُنكِرًا للبَعثِ بعدَ الموتِ: هل سأُخرَجُ بعدَ موتي وفَنائي حيًّا مِن قبري(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٣).

وقال سُبحانه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ٦٧﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿يَذْكُرُ﴾ قراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿يَذْكُرُ﴾ مِنَ (الذِّكر) الذي يكونُ عَقيبَ النِّسيانِ والغَفلةِ، أي: أوَلا يتنبَّهُ الإنسانُ ويعلَمُ[1]؟

٢- قِراءةُ ﴿يَذَّكَّرُ﴾ مِن (التذكُّرِ) الذي هو بمعنى التدبُّر، أي: أوَلا يتدبَّرُ الإنسانُ ويتفَكَّرُ[2]؟

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ٦٧﴾.

أي: أوَلا يتنبَّهُ الكافِرُ المُنكِرُ قُدرةَ اللهِ على بَعثِه أنَّ اللهَ قد خلقَه مِن قَبلُ[3] ولم يكُنْ شَيئًا مذكورًا؟! فالقادِرُ على إيجادِه مِن العَدَمِ قادِرٌ على إحيائِه بعدَ

(١) قرأ بها نافعٌ، وعاصمٌ، وابنُ عامرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٤٥)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٩٠).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٤٥)، ((الحجة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٢٠٤)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٩٠).

(٣) قيل: معنى ﴿مِن قَبْلُ﴾: أي: من قبلِ كلِّ حالةٍ هو عليها؛ فقيل: هي حالةُ بقائِه، وقيل: هي حالةُ جدالِه، وإنكارِه للبعثِ، وقولِه ما قال. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٣١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٦).

مَوتِه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قال اللهُ: كذَّبني ابنُ آدَمَ، ولم يكُنْ له ذلك، وشتَمَني، ولم يكنْ له ذلك؛ فأمَّا تكذيبُه إيَّاي فزَعَم أنِّي لا أقدِرُ أن أُعيدَه كما كان، وأمَّا شَتمُه إيَّاي فقولُه: لي ولَدٌ، فسُبحاني أن أتَّخِذَ صاحِبةً أو ولدًا!))[٢].

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾.

أي: فأُقسِمُ برَبِّك -يا محمَّدُ- لنجمَعَنَّ المُنكِرينَ للبَعثِ يومَ القيامةِ معَ شياطينِهم الذين أضَلُّوهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٦، ٥٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٣).

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٧)، ((فتح البيان)) للقنوجي (٨/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٤).

قال النيسابوري: (إضافة القَسَمِ إلى المخاطَب -وهو رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بإجماعِ المفَسِّرينَ- تفخيمٌ لشأنِه، ورفعٌ مِن مِقدارِه). ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٥٠٢).

إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٣].

﴿ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ﴾.

أي: ثمَّ لنُحضِرَنَّهم حولَ جهنَّمَ أذِلَّاءَ، باركينَ على رُكَبِهم؛ مِن شِدَّةِ الأهوالِ، وفظاعةِ الأحوالِ(١).

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ٦٩ ﴾.

أي: ثمَّ لنأخُذَنَّ بشِدَّةٍ وعُنفٍ مِن كُلِّ جماعةٍ وفِرقةٍ مِن طوائِفِ الكُفرِ والضَّلالِ أشَدَّهم تمَرُّدًا على الرَّحمنِ، وأعظَمَهم فَسادًا وكُفرًا وظُلمًا، فنبدأُ بتعذيبِهم، وإدخالِهم النَّارَ(٢).

كما قال تعالى عن فرعونَ: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

﴿ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ٧٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنه لمَّا كان هذا النَّزعُ والتَّمييزُ مُجملًا، فقد يزعُمُ كلُّ فريقٍ أنَّ غيرَه أشدُّ عِصيانًا؛ أعلَمَ اللهُ تعالى أنَّه يعلَمُ مَن هو أولَى منهم بمِقدارِ صِلِيِّ النَّارِ؛ فإنَّها دركاتٌ مُتفاوتةٌ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٧)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٨، ٥٨٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٥، ٤٧٦).

قال الشنقيطي: (أي: لنَستخرِجَنَّ ولنُميِّزَنَّ مِن كلِّ طائفةٍ مِن طوائفِ الغَيِّ والفسادِ أعصاهم فأعصاهم، وأعتاهم فأعتاهم، فيبدأُ بتعذيبه وإدخالِه النَّارَ على حسَبِ مراتبِهم في الكفرِ، والإضلالِ والضلالِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٨).

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠ ﴾.

أي: ثمَّ[١] لنحنُ أعلَمُ بمَن هم أحقُّ بشدَّةِ العذابِ في النَّارِ مِن غَيرِهم[٢].

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ﴾.

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾.

أي: وما منكم أحدٌ -أيُّها النَّاسُ- إلَّا سيَرِدُ النَّارَ[٣].

---

(١) قال ابن كثير: (قَولُه: ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾، ﴿ ثُمَّ ﴾ هاهنا لِعَطفِ الخبَرِ على الخبَرِ، والمرادُ: أنَّه تعالى أعلَمُ بمن يستحِقُّ مِن العبادِ أن يَصلَى بنارِ جهنَّمَ ويَخلُدَ فيها، وبمَن يَستحِقُّ تَضعيفَ العذابِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥١-٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٨٩، ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨).

الخطابُ في قولِه: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ لجميعِ الناسِ، عندَ الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٤).

قال الواحدي: (وأكثرُ الناسِ على الحكمِ بظاهرِ هذه الآيةِ، وهو: أنَّ الخلقَ كلَّهم يرِدُ النارَ، ثم يُنجِّي الله المؤمنينَ). ((البسيط)) (١٤/ ٢٩٣).

واختلف المفسرون في معنى الورودِ، فقيل: هو المرورُ على الصراطِ. وقيل: الورودُ: الدخولُ. وقيل غير ذلك.

قال ابنُ تيميةَ: (ولفظُ «الورود» يحتمِلُ العبورَ، والدخولَ). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٥/ ٢٣٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ معناه: المرورُ على الصراط المقامِ على متنِ جهنَّم: ابنُ جرير، وابنُ تيمية، وابنُ كثير، وابنُ أبي العز. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٩٠، ٦٠١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٦)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (٢/ ٦٠٦).

قال ابن عبد البر: (وقال آخرونَ: الوُرودُ: المَمَرُّ على الصِّراطِ. روَى الكعبيُّ، عن أبي صالحٍ، =

= عن ابنِ عبَّاسٍ في قولِه: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: المَمَرُّ على الصِّراطِ. ورُوِي ذلك عن عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ، وكعبِ الأحبارِ، وخالدِ بنِ معدانَ، وأبي نَضْرَةَ، وهو قولُ السُّدِّيِّ). ((الاستذكار)) (٣/ ٧٥).

وقال الزجَّاج: (والحُجَّةُ القاطعةُ في هذا القَولِ ما قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ * لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٢]. فهذا -والله أعلمُ- دليلٌ أن أهلَ الحسنى لا يدخلونَ النَّارَ. وفي اللغةِ: وردتُ بلدَ كذا وكذا، إذا أشرفتَ عليه؛ دخَلْتَه أو لم تدخُلْه... فالورودُ هاهنا بالإجماعِ ليس بدُخولٍ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٣٤١- ٣٤٢). ويُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٢٥٠).

وقيل: معنى الورودِ على جهنمَ: دخولُها، فيرِدُها جميعُ النَّاسِ، وتكون بردًا وسلامًا على المؤمنينَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: السمعاني، والرسعني -ونسَب القول بأنَّ المعنى: ما منكم أيُّها المؤمنونَ والكافرونَ مِن أحدٍ إلَّا داخلٌ النارَ إلى الأكثرينَ-، والقرطبي، والعُليمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٣٩)، ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٢٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٩، ٤٨٠).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس، وعبدُ الله بنُ رواحةَ، وجابرُ بنُ عبد الله. يُنظر: ((التمهيد)) لابن عبد البر (٦/ ٣٥٣)، ((طرح التثريب)) للعراقي (٣/ ٢٥١).

قال ابنُ رجب: (وقالت طائِفةٌ: الوُرودُ هو الدُّخولُ، وهذا هو المعروفُ عن ابنِ عَبَّاسٍ، ورُوِيَ عنه من غيرِ وَجهٍ، وكان يَستَدِلُّ لذلك بقَولِه تعالى في فِرعونَ: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، وبِقَولِه: ﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدًا﴾ [مريم: ٨٦]، وكذلك قَولُه تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٩]). ((التخويف من النار)) (ص: ٢٥٠). ويُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ١٦١).

وقال الشنقيطي: (مِن أنواعِ البَيانِ التي تضَمَّنَها [أي: تفسيرُه الأضواء]: الاستِدلالُ على أحَدِ المعاني الدَّاخِلةِ في معنى الآيةِ بكَونِه هو الغالِبَ في القُرآنِ، فغَلَبتُه فيه دَليلٌ استِقرائيٌّ على عدَمِ خُروجِه مِن مَعنى الآيةِ،... فإذا عَلِمْتَ ذلك فاعلَمْ أنَّ ابنَ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما استدَلَّ على المرادِ بورودِ النَّارِ في الآيةِ بمِثلِ ذلك الدَّليلِ الذي ذكَرْنا أنَّه مِن أنواعِ البَيانِ في هذا الكِتابِ المبارَكِ، وإيضاحُه أنَّ ورودَ النَّارِ جاء في القرآنِ في آياتٍ مُتعَدِّدةٍ، والمرادُ في كُلِّ واحدةٍ منها الدُّخولُ، فاستدَلَّ بذلك ابنُ عبَّاسٍ على أنَّ الورودَ في الآيةِ التي فيها النِّزاعُ: هو الدُّخولُ؛ =

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يؤتى بالجِسرِ فيُجعَلُ بين ظَهرَي جهنَّم. قُلنا: يا رسولَ اللهِ، وما الجِسرُ؟ قال:

= لدَلالةِ الآياتِ الأُخرى على ذلك). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٧٨).

وقال أيضًا: (أجاب مَن قال بأنَّ الوُرودَ في الآيةِ الدُّخولُ عن قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] بأنَّهم مُبعَدونَ عن عَذابِها وألَمِها؛ فلا ينافي ذلك ورودَهم إيَّاها مِن غيرِ شُعورِهم بألمٍ ولا حَرٍّ منها). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٨٠).

وقال الرسعني: (فإنْ قيلَ: فما تصنَعُ بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ * لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء:١٠١-١٠٢]، وبِقَولِه: ﴿إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، والمؤمِنون آمِنونَ مِن الخِزْيِ؟

قلتُ: لا يلزَمُ مِن وُرودِ النَّارِ على الوَجهِ الذي ذكَرْناه سَماعُ حَسيسِها ولا الدُّخولُ على وَجهِ الخِزيِ؛ فإنَّ ذلك إنَّما يكونُ إذا دخلَها دُخولَ تَعذيبٍ وخُلودٍ، لا دُخولَ وُرودٍ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٥٢).

وقال ابنُ حَجر: (وهذان القَولانِ أصَحُّ ما ورد في ذلك، ولا تنافيَ بينَهما؛ لأنَّ مَن عَبَّر بالدُّخولِ تجَوَّزَ به عن المرورِ، ووَجهُه أنَّ المارَّ عليها فوقَ الصِّراطِ في معنى مَن دَخلَها، لكِنْ تختَلِفُ أحوالُ المارَّةِ باختِلافِ أعمالِهم... ويؤيِّدُ صِحَّةَ هذا التأويلِ: ما رواه مُسلِمٌ مِن حديثِ أمِّ مُبَشِّرٍ «أنَّ حَفصةَ قالت للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا قال: لا يدخُلُ أحَدٌ شَهِدَ الحُدَيبيَةَ النَّارَ: أليس اللهُ يقولُ: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]؟! فقال لها: أليس اللهُ تعالى يقولُ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ الآية؟». وفي هذا بيانُ ضَعفِ قَولِ مَن قال: الورودُ مختَصٌّ بالكُفَّارِ، ومن قال: معنى الورودِ: الدُّنُوُّ منها، ومن قال: معناه: الإشرافُ عليها، ومن قال: معنى ورُودِها: ما يُصيبُ المؤمِنَ في الدُّنيا مِنَ الحُمَّى، على أنَّ هذا الأخيرَ ليس ببَعيدٍ، ولا ينافيه بقيَّةُ الأحاديثِ. والله أعلمُ). ((فتح الباري)) (٣/ ١٢٤).

وقال ابن كثير: (وقال عبدُ الرحمن بنُ زيدِ بنِ أسلمَ في قولِه: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال: ورودُ المسلمينَ: المرورُ على الجسرِ بينَ ظهريها، وورودُ المشركينَ أن يدخلوها). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٦).

تنبيهٌ: قال ابنُ رجبٍ: (اعلَمْ أنَّ النَّاسَ مُنقَسِمونَ إلى مؤمنٍ يَعبُدُ اللهَ وَحدَه، ولا يُشرِكُ به شيئًا، ومُشرِكٍ يَعبُدُ مع اللهِ غَيرَه؛ فأمَّا المُشرِكونَ فإنَّهم لا يمُرُّونَ على الصِّراطِ، إنَّما يَقَعونَ في النَّارِ قبلَ وَضعِ الصِّراطِ). ((التخويف من النار)) (ص: ٢٣٥).

مَدحَضةٌ مَزِلَّةٌ[(١)]، عليه خطاطيفُ وكلاليبُ[(٢)]، وحَسَكةٌ مُفلطحةٌ[(٣)] لها شوكةٌ عُقَيفاءُ[(٤)] -تكونُ بنَجْدٍ، يقالُ لها: السَّعدان- المؤمِنُ عليها كالطَّرفِ[(٥)] وكالبَرقِ وكالرِّيحِ، وكأجاويدِ[(٦)] الخَيلِ والرِّكابِ[(٧)]؛ فناجٍ مُسَلَّمٌ، وناجٍ مَخدوشٌ، ومَكدوسٌ[(٨)] في نارِ جهنَّمَ، حتى يمُرَّ آخِرُهم يُسحَبُ سَحبًا))[(٩)].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما، قال: أخبَرَتني أمُّ مُبشِّر أنَّها سَمِعت النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ عند حفصةَ: ((لا يدخُلُ النَّارَ -إن شاء اللهُ- من أصحابِ الشَّجرةِ أحَدُ الذين بايعوا تحتَها، قالت: بلى يا رسولَ اللهِ! فانتهَرَها، فقالت حفصةُ: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قد قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾))[(١٠)].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أمَّا أهلُ النَّارِ الذين هم أهلُها، فإنَّهم لا يموتونَ فيها ولا يَحيَونَ، ولكِنْ ناسٌ أصابَتهم النَّارُ بذُنوبِهم -أو قال: بخطاياهم- فأماتهم إماتةً، حتى إذا

---

(١) مَدحَضةٌ مَزِلَّةٌ: أي: تَزلَقُ عليه الأقدامُ ولا تَثبُتُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣١٠).

(٢) كلاليبُ: جَمعُ كَلُّوبٍ، وهو: حَديدةٌ مَعطوفةُ الرَّأسِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢١).

(٣) حَسَكةٌ مُفَلطَحةٌ: شَوْكَة صُلبةٌ قَوِيَّة لَهَا عرضٌ واتِّساعٌ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٠٥).

(٤) عُقَيفاء: أي: مُعْوجَّةٌ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١٠/ ٤٠٥).

(٥) كالطَّرْفِ: أي: كلَمحِ البَصَرِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١٠/ ٤٠٥).

(٦) أجاويد الخيل: جَمعُ جَوادٍ، وهو الفَرَسُ السَّابِقُ الجَيِّدُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١٠/ ٤٠٥).

(٧) الرِّكابُ: الإبِلُ، واحِدتُها الرَّاحِلةُ مِن غَيرِ لَفظِها. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١٠/ ٤٠٥).

(٨) مكدوسٌ: أي: مَصروعٌ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١٠/ ٤٠٥).

(٩) رواه البخاري (٧٤٣٩) واللفظ له، ومسلم (١٨٣).

(١٠) رواه مسلم (٢٤٩٦).

كانوا فَحمًا أُذِن بالشَّفاعةِ، فجيء بهم ضبائِرَ ضبائِرَ[١]، فبُثُّوا[٢] على أنهارِ الجنَّةِ، ثمَّ قيل: يا أهلَ الجنَّةِ أفيضُوا عليهم، فيَنبُتونَ نباتَ الحِبةِ[٣] تكونُ في حَميلِ السَّيلِ[٤]))[٥].

وعن أبي هُريرةَ رَضِي الله عنه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يموتُ لمُسلمٍ ثلاثةٌ مِن الوَلَدِ فيَلِجَ النَّارَ، إلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ[٦]))، قال أبو عبدِ اللهِ [أي: البخاري]: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[٧].

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾.

أي: كان ورودُكم النَّارَ أمرًا واجبًا لازمًا، قضَى الله تعالى أنَّه لا بُدَّ مِن وُقوعِه لا مَحالةَ، وحتَّمه على نفسِه[٨].

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾.

أي: ثمَّ نُخَلِّصُ الذين اتَّقوا اللهَ بامتِثالِ ما أمَرَ، واجتنابِ ما نهى، مِن النَّارِ بعدَ

---

(١) ضبائِرَ: أي: جَماعاتٍ متفرِّقةً. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٣٨).

(٢) فبُثُّوا: أي: فُرِّقوا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٣٨).

(٣) الحِبَّة: اسمٌ جامِعٌ لحُبوبِ البُقولِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١٠/ ٤٠٦).

(٤) حميلُ السيلِ: هو ما يجيءُ به السيلُ مِن طينٍ وغيرِه، فعيلٌ بمعنى مفعولٍ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٠٨).

(٥) رواه مسلم (١٨٥).

(٦) تَحِلَّةَ القَسَم: أي: تحليلَ اليمينِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٠٧).

(٧) رواه البخاري (١٢٥١) واللفظ له، ومسلم (٢٦٣٢).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٩٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٨٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٨١).

وُرودِ النَّاسِ إيَّاها[(١)].

﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾.

أي: ونترُكُ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والشِّركِ والمعاصي في النَّارِ بُروكًا على رُكَبِهم[(٢)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ فيه دعوةٌ للنَّظَرِ بالدَّليلِ العَقليِّ بألطَفِ خِطابٍ، وأنَّ إنكارَ مَن أنكر ذلك مبنيٌّ على غفلةٍ منه عن حالِه الأُولَى، وإلَّا فلو تذكَّرَها وأحضَرَها في ذِهنِه، لم يُنكِرْ ذلك[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (لَفظُ «النجاةِ مِنَ الشَّرِّ» يقتضي انعِقادَ سَبَبِ الشَّرِّ، لا نَفسَ حُصولِه في المُنجَّى؛ فقَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [مريم: ٧٢] لا يقتضي أنَّهم كانوا مُعذَّبينَ ثمَّ نجَوا، لكِنْ يقتضي أنَّهم كانوا مُعَرَّضينَ للعذابِ الذي انعقَدَ سَبَبُه، وهذا هو الورودُ؛ فقَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «لن يدخُلَ النَّارَ أحَدٌ بايعَ تحت الشَّجَرةِ» لا يُنافي هذا الورودَ؛ فإنَّ مجرَّدَ الوُرودِ ليس بعذابٍ، بل هو تعريضٌ للعذابِ، وهو إنما نفى الدُّخولَ الذي هو العذابُ، لم يَنفِ التَّقريبَ مِن العذابِ، ولا انعِقادَ سَبَبِه، ولا الدُّخولَ على سَطحِ مكانِ العذابِ). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٧/ ٥١).

وقال ابن عاشور: (اتَّفق جميعُ المفَسِّرينَ على أنَّ المتَّقينَ لا تنالُهم نارُ جهنمَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٠٦)، ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير القنوجي)) (٨/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِ الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ قال بعضُ العُلَماءِ: لو اجتَمع كلُّ الخلائقِ على إيرادِ حُجَّةٍ في البعثِ على هذا الاختصارِ، ما قَدَروا عليه؛ إذ لا شكَّ أنَّ الإعادةَ ثانيًا أهونُ مِن الإيجادِ أوَّلًا[١]، فهذه الحُجَّةُ في غايةِ الاختصارِ والإلزامِ للخصمِ، ويُسمَّى هذا النَّوعُ الاحتجاجَ النَّظريَّ، وبعضُهم يُسمِّيه المذهبَ الكلاميَّ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ فإن قيل: كيف أمَر تعالى الإنسانَ بالذِّكرِ مع أنَّ الذِّكرَ هو العِلمُ بما قد عَلِمَه من قبلُ، ثمَّ تخلَّلهما سهوٌ؟

الجوابُ: أن المراد: أوَلا يتفكَّرُ فيَعلَم، خصوصًا إذا قرئ: ﴿أَوَلَا يَذَّكَّرُ الْإِنسَانُ﴾ بالتشديدِ، أمَّا إذا قرئ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ بالتخفيف، فالمرادُ: أو لا يعلَمُ ذلك من حالِ نَفسِه؛ لأنَّ كُلَّ أحدٍ يعلَمُ أنَّه لم يكن حيًّا في الدُّنيا ثمَّ صار حيًّا[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في إلحاقِ المِثْلِ بمِثْلِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٦).

وقال أبو حيان في تعريفه: (هو أن يَذكُرَ المتكَلِّمُ معنًى يَستدِلُّ عليه بضُروبٍ مِن المعقولِ، نحوُ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ﴾ [يس: ٨١]. ((المصدر السابق)) (٣/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ١٢٧).

٤- في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ العذابَ يَتَوَجَّهُ إلى السَّاداتِ أوَّلًا، ثم تكونُ الأتباعُ تَبَعًا لهم فيه، كما كانوا تَبَعًا لهم في الدُّنيا[1]، فيُعذَّب الرؤساءُ القادةُ في الكفرِ قبلَ غيرِهم، ويشدَّدُ عليهم العذابُ؛ لضلالِهم وإضلالِهم[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ في الوعيدِ شَديدةٌ؛ لزعمِهم أنَّ الدَّاخِلَ مِن الموحِّدينَ النارَ لا يَخْرُجُ منها أبدًا، وهذا نصُّ القرآنِ يُخْبِرُ بورودِ الجميعِ إيَّاها، وصَدْرِ المتَّقينَ عنها[3]. وذلك على القولِ بأنَّ الورودَ هو الدخولُ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ بيانُ نعمةِ اللهِ على المتَّقينَ؛ أنَّهم مع الورودِ والعُبورِ عليها وسُقوطِ غيرِهم فيها، نجَوا منها[4]، وذلك على القولِ بأنَّ الورودَ هو المرورُ على الصراطِ.

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ -على القَولِ بأنَّ الورودَ هو الدُّخولُ- فيه سؤالٌ: إذا لم يكُنْ على المؤمنينَ عَذابٌ في دُخولِهم النَّارَ، فما الفائِدةُ في ذلك الدُّخولِ؟

الجوابُ من وجوهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ ذلك ممَّا يزيدُهم سرورًا إذا عَلِموا الخلاصَ منه.

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٥٠).

الوجهُ الثَّاني: أنَّ فيه مزيدَ غَمٍّ على أهلِ النَّارِ؛ مِن حيثُ يَرَونَ المؤمنينَ الذين هم أعداؤُهم يتخَلَّصون منها، وهم يبقَونَ فيها.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ فيه مزيدَ غَمٍّ على أهلِ النَّارِ؛ مِن حيثُ تَظهَرُ فضيحتُهم عند المؤمِنينَ، بل وعندَ الأولياءِ، وعندَ مَن كان يخوِّفُهم مِن النَّارِ فما كانوا يلتَفِتون إليه.

الوجهُ الرَّابعُ: أنَّ المؤمنين إذا كانوا معهم في النَّارِ يُبكِّتونَهم؛ فزاد ذلك غمًّا للكُفَّارِ، وسُرورًا للمؤمنين.

الوجهُ الخامِسُ: أنَّ المؤمِنينَ كانوا يخوِّفونَهم بالحَشرِ والنَّشرِ، ويُقيمونَ عليهم صِحَّةَ الدَّلائِلِ، فما كانوا يَقبَلونَ تلك الدَّلائِلَ، فإذا دخلوا جهنَّمَ معهم أظهَروا لهم أنَّهم كانوا صادِقينَ فيما قالوا، وأنَّ المكَذِّبينَ بالحَشرِ والنَّشرِ كانوا كاذبينَ.

الوجهُ السَّادسُ: أنَّهم إذا شاهدوا ذلك العذابَ صار ذلك سببًا لِمَزيدِ الْتِذاذِهم بنعيمِ الجنَّةِ، كما قال الشاعر(١):

وبضِدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ(٢)

٨- قال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾، على القولِ بأنَّ المرادَ بالوُرودِ: المرورُ على الصراطِ؛ فهذه أقوَى آيةٍ في ذِكرِ الصِّراطِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ﴾

---

(١) وهو أبو الطيبِ المتنبي، ويُنظر: ((ديوانه)) (ص: ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٥٩).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٥).

- والواوُ في قولِه: ﴿وَيَقُولُ﴾ عاطفةٌ قصَّةً على قصَّةٍ، والإتيانُ بفعْلِ (يقول) مُضارِعًا؛ لاستحضارِ حالةِ هذا القولِ؛ للتَّعجيبِ من قائلِه تَعجيبَ إنكارٍ[١].

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يحتمِلُ أنْ يُرادَ بالإنسانِ الجنسُ بأَسْرِه، أو يُرادَ البعضُ المعهودُ منهم: وهم الكفرةُ. فإنْ قيل: لِمَ جازتْ إرادةُ الأَناسيِّ كلِّهم، وكلُّهم غيرُ قائلينَ ذلك؟ أُجيبَ بأنَّه: لمَّا كانت هذه المقالةُ موجودةً فيمَن هو من جنْسِهم، صَحَّ إسنادُه إلى جميعِهم[٢]. ويجوزُ أنْ يكونَ وصْفٌ حُذِفَ، أي: الإنسانُ الكافرُ؛ فتكون كقولِه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾[٣] [القيامة: ٣، ٤].

- قولُه: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ فيه تقديمُ الظَّرفِ (إذا)، ومَجيئُه بعدَ حرْفِ الإنكارِ (الهمزة)؛ لأنَّ المُنكَرَ كونُ ما بعدَ الموتِ وقْتَ الحياةِ[٤].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ استفهامٌ فيه معنى الجَحدِ والإنكارِ لوُقوعِ البعثِ[٥]؛ فلذلك أُتِيَ بالجُملةِ المُسلَّطِ عليها الإنكارُ مُقترِنةً بلامِ الابتداءِ الدَّالَّةِ على توكيدِ الجُملةِ الواقعةِ هي فيها، أي: يقولُ: لا يكونُ ما حقَّقتموه من إحيائي في المُستقبَلِ[٦]، وإمَّا أنْ يكونَ إخبارًا على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٥).

سَبيلِ الهُزءِ والسُّخريةِ بمَن يقولُ ذلك؛ إذ لم يُرِدْ به مُطابقةَ اللَّفظِ للمَعْنى[1].

- وقولُه: ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ فيه إيجازٌ بالحذفِ، والتَّقديرُ: أُخْرَجُ من القبرِ[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ الاستفهامُ استفهامُ إنكارٍ وتعجُّبٍ من ذُهولِ الإنسانِ المُنكِرِ البعثَ عن خلْقِه الأوَّلِ[3]، وتَوسيطُ همزةِ الإنكارِ بينه وبينَ العاطفِ مع أنَّ الأصلَ أنْ يتقدَّمَهما؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُنكِرَ بالذَّاتِ هو المعطوفُ، وأنَّ المعطوفَ عليه إنَّما نشَأ منه؛ فإنَّه لو تذكَّرَ وتأمَّلَ أنَّا خلَقْناه مِن قبْلُ، ولم يكُ شيئًا، بل كان عدَمًا صِرْفًا، لم يقُلْ ذلك؛ فإنَّه أعجَبُ مِن جمْعِ الموادِّ بعدَ التَّفريقِ، وإيجادِ مثْلِ ما كان فيها من الأعراضِ[4].

- قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ﴾ فيه إظهارُ ﴿الْإِنسَانُ﴾ في موقعِ الإضمارِ؛ لأنَّ المرادَ منه الإنسانُ المذكورُ في قولِه: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]؛ ووُضِعَ المُظهرُ -وهو الإنسانُ- موضعَ المضمرِ؛ ليُؤذنَ بحَقارتِه ودَناءتِه، وأنَّ إعادةَ مِثلِه لا يُؤبَهُ بها -ولهذا صرَّح بقولِه: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾- ولزِيادةِ التَّقريرِ، والإشعارِ بأنَّ (الإنسانيَّة) مِن دواعي التَّفكُّرِ فيما جَرَى عليه مِن شُؤونِ التَّكوينِ التي تُحتِّمُ عليه الإقلاعَ عن القَولِ المَذكورِ -وهو قولُه: ﴿أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾- وهو السِّرُّ في إسنادِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٦).

بلَفظِ (الإنسان)، أي: ما أعجبَ الإنسانَ في إنكارِه وعَدمِ تَذكُّرِه لِمَا ذُكِرَ، وهو الذي أُعطِي العَقلَ؛ لينظرَ في العواقِبِ، وأُنعِمَ عليه؛ ليَعرِفَ المُنعِمَ فيَشكُرَه ويَعبُدَه، فيُجازَى على فِعلِه[1]!

- قولُه: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ فإنَّه لمَّا حُذِفُ المُضافُ إليه، واعتُبِرَ مُضافًا إليه مُجْملًا، ولم يُراعَ له لفْظٌ مخصوصٌ تقدَّمَ ذِكْرُه: بُنِيَتْ (قبْلُ) على الضَّمِّ، والتَّقديرُ: أنَّا خلَقْناه من قبْلِ كلِّ حالةٍ هو عليها[2].

٣- قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ تفريعٌ على جُملةِ ﴿أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ﴾؛ باعتبارِ ما تضمَّنَته من التَّهديدِ[3].

- وفي قولِه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أقسَمَ اللهُ تعالى باسْمِه سُبحانه مُضافًا إلى نَبيِّه؛ تَحقيقًا للأمْرِ بالإشعارِ بعلِّيَتِه، وتَفخيمًا لشأنِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ورفْعِ مَنزلتِه[4]؛ فواوُ القسَمِ لتَحقيقِ الوعيدِ، والقسَمُ بالرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِ المُخاطَبِ وهو النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إدماجٌ لتَشريفِ قدْرِه[5].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٧٠)، (١٠/ ٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٦).

- قولُه: ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ إثباتٌ للبعثِ بالطَّريقِ البُرهانيِّ[1] على أبلغِ وجهٍ وآكدِه، كأنَّه أمرٌ واضحٌ غنيٌّ عن التَّصريحِ به، وإنَّما المحتاجُ إلى البَيانِ ما بعْدَ ذلك من الأهوالِ[2].

- وفي قولِه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ عطْفُ (الشَّيَاطِينَ) على ضميرِ المُشرِكين ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾؛ لقَصدِ تَحقيرِهم بأنَّهم يُحْشَرون مع أحقَرِ جنْسٍ وأفسَدِه، وللإشارةِ إلى أنَّ الشَّياطينَ هم سبَبُ ضلالِهم المُوجِبِ لهم هذه الحالةَ، فحشْرُهم مع الشَّياطينِ إنذارٌ لهم بأنَّ مصيرَهم هو مَصيرُ الشَّياطينِ، وهو مُحقَّقٌ عندَ النَّاسِ كلِّهم؛ فلذلك عُطِفَ عليه جُملةُ ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾، والضَّميرُ للجميعِ[3].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ إعدادٌ آخرُ للتَّقريبِ مِن العذابِ؛ فهو إنذارٌ على إنذارٍ، وتدرُّجٌ في إلقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِهم؛ فحرْفُ (ثُمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ لا للمُهلةِ؛ إذ ليستِ المُهلةُ مقصودةً، وإنَّما المقصودُ أنَّهم يُنْقَلون من حالةِ عذابٍ إلى أشدَّ[4].

٤- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾

---

(١) الطريق البرهاني: هو قياسٌ استثنائيٌّ استُدِلَّ فيه بنفيِ اللازمِ، البيِّنِ انتفاؤُه، على نفيِ الملزومِ، كما يُقالُ: هل زيدٌ في البلدِ؟ فتقولُ: لا؛ إذ لو كان فيها لحضَرَ مجلسَنا، فيستدلُّ بعدمِ الحضورِ على عدمِ كونِه في البلدِ. أو: هو ما يلزمُ مِن نفْيِ مِثلِ مِثلِه نفيُ مثلِه. يُنظر: ((حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع)) (١/ ٤٥٢)، ((التقرير والتحبير)) لابن أمير الحاج (٢/ ٢٣)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- جُملةُ: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾، إنذارٌ بعدَ إنذارٍ، وهي حالةٌ أُخرى مِن الرُّعبِ أشدُّ مِن اللَّتينِ قبْلَها، وهي حالةُ تَمييزِهم للإلقاءِ في دَركاتِ الجحيمِ على حسَبِ مَراتبِ غُلوِّهم في الكُفرِ. وفيه تَهديدٌ لعُظماءِ المُشرِكينَ، مثلِ أبي جهْلٍ وأُميَّةَ بنِ خلَفٍ ونُظرائِهم[١].

- وذِكْرُ صِفَةِ الرَّحمنِ هنا في قولِه: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾؛ لتفظيعِ عُتوِّهم؛ لأنَّ شديدَ الرَّحمةِ بالخلْقِ حقيقٌ بالشُّكرِ له والإحسانِ، لا بالكُفرِ به والطُّغيانِ[٢].

- وفي الكلامِ حذْفٌ، تَقديرُه: فيُلْقيه في أشدِّ العذابِ، أو فيبدَأُ بعذابِه، ثمَّ بمَن دونَه، إلى آخرِهم عذابًا[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾

- عَطْفُ هذه الجُمَلِ: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾، ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ﴾، ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ﴾ بأداةِ البُعدِ مَقرونةً بنونِ العَظَمةِ؛ لِبُعدِ مَراتِبِها، وتصاعُدِها وترقِّيها؛ تهويلًا للمَقامِ، وتعظيمًا للأمرِ؛ لاستبعادِهم له، على أنَّه يمكِنُ أن تكونَ الحُروفُ الثَّلاثةُ للتَّرتيبِ الزَّمانيِّ، وهو في الأوَّلَينِ واضِحٌ، وأمَّا في الثَّالثِ فلأنَّ العِلمَ كِنايةٌ عن الإصلاءِ؛ لأنَّ مَن عَلِمَ ذَنبَ عَدُوِّه -وهو قادِرٌ- عَذَّبه، فكأنَّه قيل: لَنُصلِيَنَّ كُلًّا منهم النَّارَ على حَسَبِ استِحقاقِه؛ لأنَّا أعلَمُ بأولويَّتِه لذلك[٤].

٦- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٤٧-١٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٦).

- في قولِه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ افتنانٌ، وهو الإتيانُ في الكلامِ بمُتضادَّينِ، أو مُختلِفينِ، أو مُتَّفقينِ، والآيةُ جمعَتْ بينَ المُتضادَّينِ؛ حيث جمعَتْ بين الوعدِ والوعيدِ، وبينَ التَّبشيرِ والتَّحذيرِ، وما يلزَمُ مِن هذينِ مِن المدْحِ للمُختصِّينَ بالبشارةِ، والذَّمِّ لأهْلِ النِّذارةِ(١).

- قولُه: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ فيه ذِكْرُ فعْلِ (نَذَر) هنا دونَ غيرِه؛ للإشعارِ بالتَّحقيرِ، أي: نترُكُهم في النَّارِ لا نعبَأُ بهم؛ لأنَّ في فعْلِ التَّركِ معنى الإهمالِ(٢).

- والتَّعبيرُ بقولِه: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، والأصلُ: ونَذَرُكم أيُّها الظَّالمونَ(٣).



(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٥٠).

الآيات (٧٢-٧٦)

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا
وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى
ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ
مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ
ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَّقَامًا﴾: أي: مَنزِلًا، وأصلُ (قوم): يدلُّ على الثَّباتِ[(١)].

﴿نَدِيًّا﴾: أي مَجلِسًا، والنَّدِيُّ والنَّادي: مجتمَعُ القومِ ومجلسُهم، فإذا تفرَّقوا فليسَ بِنَدِيٍّ، يقال: نَدَوْتُ القوم، أَنْدُوهم، نَدْوًا: إذا جمعتَهم، وأصلُ (ندي) هنا: يدُلُّ على تَجَمُّعٍ[(٢)].

﴿قَرْنٍ﴾: أي: قومٍ وأُمَّة مِن الناسِ مُقترِنِينَ في زمَنٍ واحدٍ، ويُطلَقُ القرنُ كذلك على الزَّمانِ، وأهلِ الزمانِ، وأهلِ مُدَّةٍ كان فيها نبيٌّ، أو كان فيها طَبقةٌ مِن أهلِ العِلمِ، قلَّت السِّنون أو كثُرتْ؛ وقيل: مُدَّتُه ثمانونَ سَنةً، وقيل غيرُ ذلك، وأصلُ (قرن) هنا: يدلُّ على جمْعِ شيءٍ إلى شيءٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١١)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٥)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) =

﴿أَثَٰثًا﴾: الأثاثُ: مَتاعُ البيتِ، ويُقالُ للمالِ كلِّه إذا كثُر: أثاثٌ، وأصلُ (أثَّ): يدلُّ على كَثرةٍ وتَكاثُفٍ(١).

﴿وَرِءۡيٗا﴾: أي: مَنظرًا وشكلًا، وهو مِن رؤيةِ العينِ، وأصلُ (رَأَى): يدلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرةٍ(٢).

﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾: أي: يُمهِلْ، ويُمْلِ، ويَمُدَّ، وأصلُ (مدد): يدلُّ على جَرِّ شيءٍ في طُولٍ، واتِّصالِ شَيءٍ بشَيءٍ في استِطالةٍ(٣).

﴿مَّرَدًّا﴾: أي: مَرجِعًا وعاقِبةً، وأصلُ (ردد): يدلُّ على رَجعِ الشَّيءِ(٤).

المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن موقفِ الكافرينَ عندَ سماعِهم لآياتِ الله وما يحتجُّون به على المؤمنينَ، فيقولُ: وإذا تُتلى على النَّاسِ آياتُنا الواضِحاتُ، قال الكُفَّارُ للمُؤمِنينَ: أيُّ الفريقينِ منَّا ومنكم أفضَلُ مَنزِلًا وعيشًا ومتاعًا، وأحسَنُ مَجلِسًا

= للكفوي (ص: ٧٢٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦١٠، ٦١٣)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٦٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٠٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

في الدُّنيا؟ فكيف نكونُ على الباطِلِ وأنتم على الحَقِّ، ونحن أفضَلُ منكم في ذلك؟!

ثمَّ يرُدُّ الله تعالى على هؤلاءِ الكافرينَ المغرورينَ، فيقول: وما أكثَرَ ما أهلَكْنا قبلَ كُفَّارِ قُرَيشٍ مِن الأمَمِ، ممنْ كانوا أحسَنَ متاعًا منهم، وأجمَلَ منظرًا وصُوَرًا! قل لهم -يا محمَّدُ-: مَن كان ضالًّا عن الحَقِّ غيرَ مُتَّبِعٍ طَريقَ الهُدى، فالله يُمهِلُه ويُملي له في ضَلالِه فيَزيدُه من النِّعَم والعُمُرِ، حتى إذا رأى هؤلاء الكافرون ما توعَّدهم الله به: إمَّا العذابَ العاجِلَ في الدُّنيا، وإمَّا قيامَ السَّاعةِ؛ فسيَعلَمُون حينئذٍ مَن هو شَرٌّ مَكانًا ومُستقَرًّا، وأضعَفُ قُوَّةً وجُندًا وناصِرًا.

ثمَّ يبينُ الله تعالى حالَ أهلِ الهدايةِ بعدَ أن بيَّن حالَ أهلِ الضلالةِ، فيقولُ: ويزيدُ اللهُ الذين اهتَدَوا لدينِه يقينًا وإيمانًا، وعلمًا نافعًا، وتوفيقًا للعمل الصَّالح. والأقوالُ الأعمالُ الصَّالحاتُ الباقياتُ التي لا زوالَ لثوابِها خَيرٌ ثوابًا عند اللهِ في الآخرةِ، وخَيرٌ مَرجِعًا وعاقبةً.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا أقام الحُجَّةَ على مُنكري البَعثِ، وأتبَعَه بما يكونُ يومَ القيامةِ؛ أخبَرَ عنهم أنَّهم عارضوا تلك الحُجَّةَ الدَّامغةَ بحُسنِ شارتِهم في الدُّنيا، وذلك عندَهم يدُلُّ على كرامتِهم على اللهِ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٠).

وأيضًا فإنَّ هذا عَطفٌ على قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]، وهذا صِنفٌ آخَرُ مِن غُرورِ المُشرِكينَ بالدُّنيا؛ فقد أناطوا الدلالةَ على السَّعادةِ بأحوالِ طِيبِ العَيشِ في الدُّنيا، ويَرَونَ أنفُسَهم أسعَدَ مِن المؤمِنينَ(١).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾.

أي: وإذا تُتلى على النَّاسِ آياتُ القُرآنِ، والحالُ أنَّها دلالاتٌ واضِحاتٌ لا مِريةَ فيها، قال الكافِرونَ للمُؤمِنينَ(٢) محتَجِّينَ على بُطلانِها، وكونِهم على الحَقِّ، مُفتَخِرينَ عليهم ومتعَزِّزينَ بالدُّنيا: أيُّ الفريقينِ خَيرٌ مَنزِلًا، وأفضَلُ مَسكنًا وعَيشًا ومتاعًا، وأحسَنُ مجلسًا ومجْمَعًا، وأعمَرُ وأكثَرُ غِشيانًا ووُرُودًا؟ نحن بما لنا من الاتِّساعِ، أم أنتم بما لكم من خُشونةِ العَيشِ ورَثاثةِ الحالِ؟! فكيف نكونُ على الباطِلِ وأنتم على الحَقِّ، ونحن أفضَلُ منكم في ذلك(٣)؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٣).

(٢) قال الشنقيطي: (لا خلافَ أنَّ مَقصودَهم بالاستفهامِ المذكورِ أنهم -أي: كفَّار قريش- خيرٌ مَقامًا وأحسَنُ نَدِيًّا من أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ ذلك هو دليلُهم على أنَّهم على الحَقِّ، وأنَّهم أكرَمُ على الله من المُسلِمينَ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٨٣، ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٠٧، ٦٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٧-٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٣، ٤٨٦).

قال الشنقيطي أيضًا: (الظَّاهِرُ فيه أنَّ وَجهَ ذِكْرِهم للمَقامِ والنَّدِيِّ: أنَّ المَقامَ: هو محلُّ السُّكنى الخاصُّ لكُلِّ واحدٍ منهم، والنَّدِيُّ: محَلُّ اجتِماعِ بَعضِهم ببَعضٍ، فإذا كان كلٌّ منهما للكُفَّارِ أحسَنَ مِن نظيرِه عند المُسلِمينَ، دَلَّ ذلك على أنَّ نَصيبَهم في الدُّنيا أوفَرُ مِن نَصيبِ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ذلك الوقتِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٨٦).

وقال البقاعي: (يجعلون ذلك الامتحانَ بالإنعامِ والإحسانِ دليلًا على رضا الرحمنِ، معَ =

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥- ٥٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾.

أي: وأهلَكْنا قبل كفَّارِ قُريشٍ كثيرًا من كفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ، وكانوا أحسَنَ منهم في أمتعةِ مساكِنِهم، وأجمَلَ في مَنظَرِهم وصُوَرِهم، ومع ذلك أهلَكَهم اللهُ بسَبَبِ كُفرِهم؛ فلْيَخَفْ هؤلاء المُشرِكونَ نِقمةَ اللهِ بالإهلاكِ، كسُنَّةِ مَن قَبلَهم مِن الكُفَّارِ[1].

﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾.

= التكذيبِ والكفرانِ، ويغفلون عن أنَّ في ذلك -مع التكذيبِ بالبعثِ- تكذيبًا مما يشاهدونه منا مِن القدرةِ على العذابِ؛ بإحلالِ النقمِ، وسلبِ النعمِ، ولو شِئْنا لأهلكناهم، وسلَبْنا جميعَ ما يفتخرونَ به). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٢٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٩٣)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٤، ٤٨٥).

قال ابنُ كثير: (منهم من قال في الأثاثِ: هو المالُ. ومنهم من قال: المتاعُ. ومنهم من قال: الثِّيابُ. والرِّئْيُ: المنظَرُ، كما قال ابنُ عباس، ومجاهد، وغيرُ واحد. وقال الحسَنُ البصري: يعني: الصُّوَرَ. وكذا قال مالك: ﴿أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾: أكثَرُ أموالًا وأحسَنُ صُوَرًا. والكُلُّ مُتقارِبٌ صَحيحٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٧-٢٥٨).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى دليلَ الكافرينَ الباطلَ الدَّالَّ على شِدَّةِ عِنادِهم، وقُوَّةِ ضلالِهم؛ أخبرَ هنا أنَّ مَن كان في الضَّلالةِ، بأن رَضِيَها لنَفسِه، وسَعى فيها، فإنَّ اللهَ يَمُدُّه منها، ويزيدُه فيها حبًّا؛ عقوبةً له على اختيارِها على الهدى[١].

وأيضًا فإنَّ هذا جوابُ قَولِ الكافرينَ: ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ [مريم: ٧٣]، لقَّنَ الله رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كَشفَ مُغالطتِهم أو شُبهتِهم، فأعلَمَهم بأنَّ ما هم فيه من نعمةِ الدُّنيا إنَّما هو إمهالٌ مِن اللهِ إيَّاهم؛ لأنَّ ملاذَ الكافِرِ استدراجٌ، فمعيارُ التَّفرقةِ بين النِّعمةِ النَّاشئةِ عن رضا الله تعالى على عبدِه، وبين النِّعمةِ التي هي استدراجٌ لِمن كفَرَ به، هو النَّظَرُ إلى حالِ من هو في نعمةٍ، بين حالِ هُدًى، وحالِ ضلالٍ[٢].

وأيضًا لمَّا بيَّنَ عاقبةَ أمْرِ الأُمَمِ المُهلَكةِ، معَ ما كان لهم مِنَ التَّمتُّعِ بفُنونِ الحُظوظِ العاجلةِ؛ أمَرَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُجيبَ هؤلاء المُفتخِرين بما لهم مِن الحُظوظِ ببَيانِ مآلِ أمْرِ الفريقينِ[٣].

﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: من كان مُنغَمِسًا في الضَّلالِ منَّا ومنكم، فلْيُمهِلْه اللهُ في ضلالِه، ويَزِدْه مِن النِّعَمِ والعُمُرِ؛ ليطولَ اغترارُه، ويزدادَ ضلالُه، فيكون ذلك أشَدَّ في عقوبتِه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٤٩)، =

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾.

أي: مَن كان في الضَّلالةِ فلْيَمدُدْ له الرَّحمنُ في ضلالتِه إلى أن يرى الضالُّونَ ما وعَدَ اللهُ أن يأتيَهم به: إمَّا بالعذابِ العاجِلِ، وإمَّا بقيامِ السَّاعةِ، فيَصيرونَ إلى النَّارِ[1].

﴿فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾.

أي: فسيَعلَمُ الكُفَّارُ حين يَرَونَ ذلك مَن هو شَرٌّ مَسكَنًا، ومَن هو أضعَفُ

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٨-٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٧ - ٤٨٩).

قال الشنقيطي: (في معنَى هذه الآيةِ الكريمةِ وجهانِ مِن التَّفسيرِ معروفانِ عندَ العلماءِ، وكلاهما يشهدُ له قرآنٌ:

الأوَّلُ: أنَّ اللَّهَ جَلَّ وعلا أمَر نَبيَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم في هذه الآيةِ الكريمةِ أن يقولَ هذه الكلماتِ كدعاءِ المباهلةِ بينَه وبينَ المشركينَ، وإيضاحُ معناه: ﴿قُلۡ﴾ يا نبيَّ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم لهؤلاءِ المشركينَ الَّذين ادَّعَوْا أنَّهم خيرٌ منكم، وأنَّ الدَّليلَ على ذلك أنَّهم خيرٌ منكم مقامًا وأَحْسَنُ منكم نَدِيًّا: ﴿مَن كَانَ﴾ منَّا ومنكم ﴿فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ -أي: الكفرِ والضَّلالِ عن طريقِ الحقِّ- ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا﴾، أيْ: فأمهلَه الرَّحمنُ إمهالًا فيما هو فيه حتَّى يستدرِجَه بالإمهالِ، ويموتَ على ذلك، ولا يرجعَ عنه، بل يستمِرَّ على ذلك حتَّى يَرَى ما يُوعِدُه اللَّهُ، ... وعلى ذلك التَّفسيرِ فصيغةُ الطَّلَبِ المدلولُ عليها باللَّامِ في قولِه: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾ على بابِها، وعليه فهي لامُ الدُّعاءِ بالإمهالِ في الضَّلالِ على الضَّالِّ مِن الفريقينِ، حتَّى يَرى ما يُوعِدُه مِن الشَّرِّ وهو على أقبحِ حالٍ مِن الكفرِ والضَّلالِ، ...

الوجهُ الثَّاني: أنَّ صيغَةَ الطَّلَبِ في قولِه: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾، يُرادُ بها الإخبارُ عن سُنَّةِ اللَّهِ في الضَّالِّينَ، وعليه فالمعنَى: أنَّ اللَّهَ أجرَى العادةَ بأنَّه يُمْهِلُ الضَّالَّ، ويُمْلي له فيستدْرِجُه بذلك، حتَّى يرَى ما يُوعِدُه، وهو في غفلةٍ وكفرٍ وضلالٍ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٨).

ناصِرًا: هم أم المؤمِنونَ، وسيتبيَّنُ لهم خِلافُ ما كانوا يظنُّونَ، وبُطلانُ ما كانوا يدَّعونَ[1].

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إمدادَ الضَّالِّ في ضلالتِه، وارتباكَه في الافتخارِ بنِعَمِ الدُّنيا؛ عَقَّبَ ذلك بزيادةِ هُدًى للمُهتدي، وبذكرِ الباقياتِ التي هي بدلٌ مِن تنعُّمِهم في الدُّنيا الذي يضمَحِلُّ ولا يَثبُتُ[2].

وأيضًا لَمَّا أخْبَرَ سبحانَه عن حالِ أهلِ الضَّلالةِ، أرادَ أنْ يُبيِّنَ حالَ أهلِ الهدايةِ، فقال[3]:

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾.

أي: ويزيدُ الله المهتدينَ يقينًا وإيمانًا، وعلمًا نافعًا وتوفيقًا للعمل الصَّالح، وثباتًا على الحَقِّ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦١٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٨٨).

قال الشنقيطي: (قولُه: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ في مقابلةِ قَولِهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾؛ لأنَّ مَقامَهم هو مكانُهم ومَسكَنُهم، والنَّدِيُّ: المجلِسُ الجامِعُ لوجوهِ قَومِهم وأعوانِهم وأنصارِهم، والجندُ هم الأنصارُ والأعوانُ، فالمقابلةُ المذكورةُ ظاهِرةٌ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٨٨).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦١٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٩).

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا ذكر الله تعالى أنَّ الظَّالمينَ جَعَلوا أحوالَ الدُّنيا من المالِ والولَدِ، وحُسنِ المقامِ ونحو ذلك، علامةً لحُسنِ حالِ صاحِبِها؛ أخبَرَ هنا أنَّ الأمرَ ليس كما زعموا، بل العمَلُ الذي هو عنوانُ السَّعادةِ، ومَنشورُ الفلاحِ، هو العمَلُ بما يحِبُّه اللهُ ويرضاه[١].

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾.

أي: وأعمالُ الخيرِ الصَّالحةُ -التي لا زوالَ لثوابِها مِن أقوالٍ وأفعالٍ- أفضَلُ جزاءً عندَ اللهِ لأهلِ طاعتِه، وهي خيرٌ مَرجِعًا وعاقبةً لصاحبِها في الآخرةِ، مِمَّا يفتَخِرُ به الكُفَّارُ على المُؤمنينَ مِن زينةِ الحياةِ الدُّنيا الفانيةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، والله أكبَرُ مِن الباقياتِ الصَّالحاتِ))[٣].

الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٧٣، ٢٨١، ٦١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٦١ - ١٦٤، ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٨).

(٣) أخرجه ابن جرير في ((التفسير)) (١٨/ ٣٤).
صحَّحه الألباني بشواهده في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٢٦٤).

﴿ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ فيه أنَّ الاستدلالَ على خيرِ الآخرةِ بخيرِ الدُّنيا مِن أفسَدِ الأدلَّةِ، وأنَّه مِن طُرُقِ الكُفَّارِ[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ فيه تنبيهٌ للمُسلِمينَ ألَّا يغتَرُّوا بإنعامِ اللهِ على الضُّلَّالِ[(٢)].

٣- قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا * وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه يَمُدُّ للظالمينَ في ضلالِهم، ذكَرَ أنَّه يَزيدُ المهتدينَ هدايةً مِن فَضلِه عليهم ورحمتِه، والهدى يَشمَلُ العِلمَ النَّافِعَ، والعمَلَ الصَّالِحَ؛ فكُلُّ من سلك طريقًا في العلمِ والإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، زاده الله منه، وسَهَّله عليه ويسَّرَه له، ووهب له أمورًا أُخَرَ لا تدخُلُ تحت كَسبِه[(٣)].

٤- مِن الطرقِ التي تعينُ على حفظِ العلمِ وضبطِه: أن يهتديَ الإنسانُ بعلمِه، قال الله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾، فكُلَّما عَمِلَ الإنسانُ بعِلمِه زاده اللهُ حِفظًا وفَهمًا؛ لعُمومِ الآيةِ[(٤)]. وقد يُيَسِّرُ الله لطالب العِلمِ عُلومًا أُخَرَ ينتَفِعُ بها، وتكونُ مُوصِلةً له إلى الجنَّةِ، كما قيل: مَن عَمِل بما عَلِم، أورثَه اللهُ عِلمَ ما لم يعلَمْ، وكما قيل: ثوابُ الحَسَنةِ الحَسَنةُ بعدها، وقد دَلَّت هذه الآية على ذلك، وكذلك قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[(٥)] [محمد: ١٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٦/ ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٩٧). ويُنظر أيضًا: ((جامع الرسائل)) =

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ فيما يزعمونَ مِن أنَّ أفعالَ العبادِ لا صنعَ لله فيها بتةً؛ فإضافةُ أفعالِ العبادِ إليهم لا تدفعُ فعلَ الله بهم، وإرادتَه فيهم[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ حُجَّةٌ على المُرجِئةِ في زيادةِ الإيمانِ[(٢)]، ففيه دَليلٌ على زيادةِ الإيمانِ ونَقصِه، كما قاله السَّلَفُ الصَّالِحُ، ويدُلُّ عليه قَولُه تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[(٣)] [الأنفال: ٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ من ﴿آيَاتُنَا﴾؛ لأنَّ آياتِه تعالى لا تكونُ إلَّا بهذا الوصفِ دائمًا[(٤)].

- قولُه: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيه وضْعُ الموصولِ موضعَ الضَّميرِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم قالوا ما قالوا كافِرين بما يُتْلَى عليهم، رادِّينَ له، أو قال الَّذين مَرَدوا

= لابن تيمية (١/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٧٦) و(٢/ ٢٠٤) و(٣/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٦).

منهم على الكُفرِ، ومَرَنوا على العُتوِّ والعِنادِ[١].

- والاستفهامُ في قولِهم: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ تقريريٌّ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ خِطابٌ مِن اللهِ لرسولِه، وهذه الجُملةُ مُعترِضةٌ بين حكايةِ قولِهم، وبينَ تلْقينِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما يُجيبُهم به عن قولِهم، وموقِعُها التَّهديدُ، وما بعدَها هو الجوابُ[٣].

- و(كَمْ) مفعولُ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِّن﴾ تَبيينٌ لإبهامِها، أي: كثيرًا مِن القُرونِ أهلَكْنا[٤]؛ فذكَرَ تعالى كثرةَ ما أهلَكَ مِن القُرونِ ممَّن كان أحسَنَ حالًا منهم في الدُّنيا، ففيه مِن التَّهديدِ والوعيدِ ما لا يَخْفَى؛ كأنَّه قيل: فلْيَنْتظِرْ هؤلاءِ أيضًا مثلَ ذلك[٥].

- قولُه: ﴿هُمْ أَحْسَنُ﴾ جُمِعَ الضَّميرُ؛ لأنَّ القرْنَ مُشتمِلٌ على أفرادٍ كثيرةٍ، فرُوعِيَ معناهُ[٦].

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾

- قولُه: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ ...﴾ فيه وصْفُهم بالتَّمكُّنِ في الضلالةِ؛ لذمِّهم،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٠).

والإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ، أي: مَنْ كان مُستقِرًّا في الضَّلالةِ، مغمورًا بالجهلِ والغَفلةِ عن عواقبِ الأُمورِ...[(١)].

- قولُه: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ إخراجُ الفعْلِ ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ على صِيغةِ الأمْرِ؛ للإيذانِ بأنَّ ذلك ممَّا يَنْبغي أنْ يُفْعَلَ بمُوجِبِ الحِكمةِ؛ لقطْعِ المعاذيرِ، كما يُنْبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]، أو للاستدراجِ، كما ينطِقُ به قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وقيل: المُرادُ به: الدُّعاءُ بالمدِّ والتَّنفيسِ، وعلى اعتبارِ الاستقرارِ في الضَّلالِ؛ لأنَّ المدَّ لا يكونُ إلَّا للمُصِرِّين عليها؛ إذ رُبَّ ضالٍّ يَهْديه اللهُ عَزَّ وجَلَّ[(٢)].

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرَّحمانيَّةِ في قولِه: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾، قيل: لأنَّ المدَّ من أحكامِ الرَّحمةِ الدُّنيويَّةِ[(٣)]، ولأنَّ اللهَ تعالى إذا أراد العِقابَ يأتي به على وَجهِ الرَّحمةِ والنِّعمةِ؛ فيكونُ كَدَرًا بعدَ الصَّفاءِ، وألَمًا بعد الرَّاحةِ، وشِدَّةً بعد الرَّخاءِ؛ فهذا أقوى أثرًا. والحاصِلُ: لا يُتصَوَّرُ وقوعُ المدِّ المذكورِ إلَّا مِن الرَّحمنِ؛ لأنَّه أصلُه ومَنشؤُه[(٤)].

- و﴿مَدًّا﴾ مفعولٌ مُطلقٌ مُؤكِّدٌ لعاملِه، أي: فلْيمدُدْ له المدَّ الشَّديدَ، فسَيَنْتهي ذلك[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧- ٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٧- ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((روح البيان)) للخلوتي (٥/ ٣٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٦).

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ جَمْعُ الضَّميرِ في الفعلينِ -﴿رَأَوۡاْ﴾ ﴿يُوعَدُونَ﴾- باعتبارِ معنى (مَنْ)، كما أنَّ الإفرادَ في الضَّميرينِ الأوَّلينِ -﴿مَن كَانَ﴾ ﴿لَهُ﴾- باعتبارِ لفظِها(١).

- قولُه: ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ حرْفُ الاستقبالِ (السِّينُ)؛ لتَوكيدِ حُصولِ العِلْمِ لهم حينئذٍ، وليس للدَّلالةِ على الاستقبالِ؛ لأنَّ الاستقبالَ اسْتُفِيدَ من الغايةِ(٢).

- قولُه: ﴿إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ تَفصيلٌ للموعودِ؛ فإنَّه إمَّا العذابُ في الدُّنيا، وهو غلبةُ المُسلِمين عليهم، وتَعذيبُهم إيَّاهم قتْلًا وأسرًا، وإمَّا يومَ القيامةِ وما يَنالُهم فيه من الخزْيِ والنَّكالِ(٣).

- قولُه: ﴿شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾ مُقابِلُ قولِهم: ﴿خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ [مريم: ٧٣]؛ فالمكانُ يُرادِفُ المقامَ، والجُندُ: الأعوانُ؛ لأنَّ النَّدِيَّ أُريدَ به أهْلُه؛ فقُوبِلَ (أَحْسَنُ نَدِيًّا) بـ (أَضْعَفُ جُنْدًا)(٤).

٤- قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا﴾

- قولُه: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى﴾ كلامٌ مُستأنفٌ، سِيقَ لبَيانِ حالِ المُهتدينَ إثْرَ بَيانِ حالِ الضَّالِّينَ(٥). وقيل: عطْفٌ على الشَّرطيَّةِ المحكيةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨).

بعدَ القولِ، كأنَّه لمَّا بيَّنَ أنَّ إمهالَ الكافرِ وتَمتيعَه بالحياةِ الدُّنيا ليس لفضْلِه، أراد أنْ يُبيِّنَ أنَّ قُصورَ حظِّ المُؤمنِ منها ليس لِنَقْصِه، بل لأنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أراد به ما هو خيرٌ له، وعوَّضه منه[1]. وقيل: عطْفٌ على ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾؛ لِما تضمَّنَه ذلك من الإمهالِ المُفضي إلى الاستمرارِ في الضَّلالِ؛ فالمعنى على الاحتباكِ[2]، أي: فلْيمدُدْ له الرَّحمنُ مَدًّا، فيَزدَدْ ضلالًا، ويمُدَّ للَّذين اهْتَدوا، فيَزْدادوا هُدًى[3].

- قولُه: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾ كلامٌ مُستأنفٌ واردٌ من جِهَتِه تعالى؛ لبَيانِ فضْلِ أعمالِ المُهتدِينَ[4]. وقيل: عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾، وهو ارتقاءٌ من بِشارتِهم بالنَّجاةِ إلى بشارتِهم برفْعِ الدَّرجاتِ[5].

- و﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أيضًا صِفتانِ لمَحذوفٍ معلومٍ من المقامِ، أي: الأعمالُ الباقي نَعيمُها وخيرُها، وكان مُقْتضَى الظَّاهرِ في تَرتيبِ الوصفينِ: أنْ يُقدَّمَ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ على ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ﴾؛ لأنَّهما وإنْ كانا وصفينِ لموصوفٍ مَحذوفٍ، إلَّا أنَّ أعرَفَهما في وَصفيَّةِ ذلك المحذوفِ هو الصَّالحاتُ؛ لأنَّه قد شاعَ أنْ يُقالَ: الأعمالُ الصَّالحاتُ، ولا يُقال: الأعمالُ الباقياتُ، ولأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨).

(٢) الاحْتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَعَ الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ -كما هنا في هذه الآيةِ- وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٧).

بقاءَها مُترتِّبٌ على صلاحِها، فلا جرَمَ أنَّ (الصَّالحاتِ) وصفٌ قام مَقامَ الموصوفِ، وأغنى عنه كثيرًا في الكلامِ، حتَّى صار لفظُ (الصَّالحات) بمنزلةِ الاسمِ الدَّالِّ على عمَلٍ خيرٍ، وخُولِف مقتضَى الظَّاهِرِ هنا، فقُدِّم (الباقياتُ) للتَّنبيهِ على أنَّ ما ذُكِر قبلَه إنَّما كان مفصولًا لأنَّه ليس بباقٍ، وهو المالُ والبنونَ، كقولِه تعالَى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد: ٢٦]، فكان هذا التَّقديمُ قاضيًا لحقِّ الإيجازِ لإغنائِه عن كلامٍ محذوفٍ، تقديرُه: أنَّ ذلك زائلٌ أو ما هو بباقٍ والباقياتُ مِن الصَّالحاتِ خيرٌ منه، فكان قولُه: ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الْكَهْف: ٤٥] مفيدًا للزَّوالِ بطريقةِ التَّمثيلِ وهو مِن دلالةِ التَّضمُّنِ، وكان قولُه: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ﴾ مُفيدًا زوالَ غيرِها بطريقةِ الالتزامِ، فحصَل دلالتانِ غيرُ مطابقتيْنِ وهما أوقعُ في صناعةِ البلاغةِ، وحَصَل بثانِيَتِهما تأكيدٌ لمُفادِ الأولَى فجاءَ كلامًا مُؤكَّدًا مُوجَزًا(١).

- قولُه: ﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا﴾ فيه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضَميرِه؛ لتَشريفِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٢).

- قولُه: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا﴾، إنْ قيل: كيف قيلَ: ﴿خَيۡرٞ ثَوَابٗا﴾، كأنَّ لمُفاخراتِهم ثوابًا حتَّى يُجْعَلَ ثوابُ الصَّالحاتِ خيرًا منه؟!

أُجِيبَ بأنَّه: كأنَّه قيل: ثوابُهم النَّارُ، ثمَّ بنى عليه ﴿خَيۡرٞ ثَوَابٗا﴾؛ ففيه ضَرْبٌ من التَّهكُّمِ الَّذي هو أغيظُ للمُتهددِ مِن أنْ يُقالَ له: عِقابُك النَّارُ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣٣٣) و(١٦/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨).

فإنْ قيل: فما وجْهُ التَّفضيلِ في الخيرِ، كأنَّ لمَفاخرِهم شركًا فيه؟

قيل: هذا من وجيزِ كلامِهم، يقولونَ: الصَّيفُ أحرُّ من الشِّتاءِ، أي: أبلَغُ من الشِّتاءِ في برْدِه، وإمَّا لمُجرَّدِ الزِّيادةِ. وقيل: إنَّ اسمَ التَّفضيلِ ذُكِرَ على سَبيلِ المُشاكَلةِ[١] لكلامِهم السَّابقِ[٢]. وأيضًا: فإنَّ صِيغةَ التَّفضيلِ قد تُطلَقُ في القُرآنِ واللُّغةِ ويُرادُ بها مُجرَّدُ الاتِّصافِ، لا تَفضيلُ شيءٍ على شيءٍ[٣].

- وفيه تكريرُ الخيرِ؛ لمَزيدِ الاعتناءِ ببَيانِ الخيريَّةِ، وتأكيدٍ لها[٤].

---

(١) المُشاكَلة: لغةً: هي المُوافقةُ والمضاهاة والمُشابَهة. وفي اصطلاح البلاغيِّين هي: ذِكرُ الشيء بلفظِ غيرِه؛ لوُقوعِه في صُحبتِه تَحقيقًا أو تقديرًا؛ فمثالُ التَّحقيقي قولُه عز وجلَّ: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ إذ الجزاءُ على السيِّئةِ ليس بسيِّئةٍ في الحقيقةِ، لكنَّه سُمِّيَ سَيِّئةً للمشاكلةِ اللفظيَّة. ومثالُ التقديريِّ قولُه تعالى: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٣٨]، فـ﴿ صِبۡغَةَ ﴾ مصدر مؤكِّد لـ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾[البقرة: ١٣٦]، والمعنى: تطهيرُ الله؛ لأنَّ الإيمانَ يُطهِّر النفوسَ، وأصل ذلك: أنَّ النصارى كانوا يَغمِسون أولادَهم في ماءٍ أصفرَ يُسمُّونه المعموديَّة، ويقولون: إنَّه تطهيرٌ لهم، فعبَّر عن الإيمانِ باللهِ بصِبغةِ اللهِ؛ للمشاكلةِ بهذه القرينةِ الحالية. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ١٧٣٧)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٢- ٣٢٣)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٢٤- ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨).

وقال الشنِّقيطي: (ويَظهَرُ لي في الآيةِ جَوابٌ آخَرُ أقرَبُ مِن هذا، وهو أنَّا قَدَّمْنا أنَّ القُرآنَ والسُّنَّةَ الصَّحيحةَ دلَّا على أنَّ الكافِرَ مُجازًى بعَمَلِه الصَّالحِ في الدُّنيا؛ فإذا بَرَّ والِدَيه، ونَفَّس عن المكروبِ، وقَرَى الضَّيفَ، ووصَلَ الرَّحِمَ -مَثَلًا- يَبتغي بذلك وَجْهَ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ يُثيبُه في الدُّنيا، كما قدَّمْنا دَلالةَ الآياتِ عليه، وحديثَ أنسٍ عندَ مُسلِمٍ [٢٨٠٨]، فثوابُه هذا الرَّاجِعُ إليه مِن عَمَلِه في الدُّنيا، هو الذي فَضَّلَ اللهُ عليه في الآيةِ ثوابَ المؤمِنينَ، وهذا واضِحٌ لا إشكالَ فيه. والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٨).

الآيات (٧٧-٨٤)

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: أي: تُغويهم إغواءً، وتُزعِجُهم إزعاجًا، وتحرِّكهم، وأصلُ (أزز): يدُلُّ على التَّحريكِ والإزعاجِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن مقالةٍ أُخرَى مِن مقالاتِ الكفَّارِ الباطلةِ، ويردُّ على قائلِها أبلغَ ردٍّ، فيقول: انظُرْ مُتعَجِّبًا -يا مُحمَّدُ- إلى هذا الذي كفَرَ بآياتِ القُرآنِ، وقال: لأُعطَينَّ في الآخرةِ -إن كانت حقًّا- أموالًا وأولادًا.

ثمَّ يردُّ الله عليه، فيقول: أطَّلَع الغَيبَ فرأى أنَّ له مالًا ووَلَدًا، أم له عندَ اللهِ عَهدٌ بذلك؟! ليس الأمرُ كما يَزعُمُ ذلك الكافرُ، سنكتُبُ ما يقولُ مِن كَذِبٍ وافتراءٍ على اللهِ، ونَزيدُه في الآخرةِ عذابًا زائدًا؛ بسَبَبِ كَذِبِه وافترائِه، ونَسلُبُ مالَه وولَدَه في الدُّنيا بمَوتِه عن جميعِ ذلك، ويأتينا يومَ القيامةِ فردًا وَحدَه، لا مالَ معه ولا ولَدَ.

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن تعززِ المشركينَ بأصنامِهم، فيقول: واتخذَ المُشرِكونَ آلهةً يَعبُدونَها من دونِ الله؛ لينالوا بها العِزَّ، وتمنَعَهم من عذابِ اللهِ. ويردُّ عليهم، فيقولُ سبحانَه: ليس الأمرُ كما يَزعُمونَ؛ فستكفُرُ هذه الآلهةُ في الآخرةِ بعِبادةِ المشركينَ لها، وتكونُ بخلافِ ما ظنُّوا.

ثمَّ يُبيِّنُ الله عزَّ وجلَّ استحواذَ الشياطينِ على هؤلاء الكافرينَ، فيقولُ: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- أنَّا سلَّطْنا الشَّياطينَ على الكافرينَ؛ لتُغويَهم وتدفَعَهم إلى الكُفرِ والمعاصي دفعًا، فلا تستعجِلْ بطَلَبِ وُقوعِ العذابِ على هؤلاء الكافرينَ؛ إنما نؤخِّرُ تَعذيبَهم إلى أجَلٍ معدودٍ مَضبوطٍ، فإذا جاءَ الوقتُ المحدَّدُ لذلك أهلَكْناهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَرَ الدَّلائِلَ على صِحَّةِ البَعثِ، ثمَّ أورد شُبهةَ المُنكِرينَ، وأجاب عنها؛ أورد عنهم الآنَ ما ذكَروه على سبيلِ الاستهزاءِ؛ طعنًا في القَولِ بالحَشرِ[١].

وأيضًا فهو تفريعٌ على قولِه: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦] وما اتَّصلَ به من الاعتراضِ والتَّفريعاتِ، والمُناسبةُ: أنَّ قائلَ هذا الكلامِ كان في غُرورٍ مثْلِ الغُرورِ الَّذي كان فيه أصحابُه، وهو غُرورُ إحالةِ البعثِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٨).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن خَبَّابِ بنِ الأرَتِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (جِئتُ العاصَ بنَ وائلٍ السَّهميَّ أتقاضاه حقًّا لي عندَه، فقال: لا أُعْطيك حتى تَكفُرَ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقلتُ: لا حتى تموتَ ثمَّ تُبعَثَ، قال: وإنِّي لميتٌ ثمَّ مَبعوثٌ؟! قلتُ: نعم، قال: إنَّ لي هناك مالًا وولدًا فأقضيكه! فنزلت هذه الآيةُ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾)[1].

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾.

أي: انظُرْ مُتعَجِّبًا -يا محمَّدُ[2]- إلى هذا الذي كفَرَ بآياتِ القُرآنِ، وقال: واللهِ ليعطيَنِّي اللهُ في الآخرةِ -على تقديرِ قيامِها- مالًا وأولادًا، مع كُفرِه باللهِ وتكذيبِه بآياتِه، ومِن جُملتِها آياتُ البعثِ بعدَ الموتِ[3]؟!

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ۝٧٨﴾.

أي: هل عَلِمَ هذا الكافِرُ -المتألِّي على اللهِ- عِلمَ الغَيبِ، فعَلِمَ أنَّ له في الآخرة مالًا وولدًا، أم له عهدٌ عند اللهِ بأنَّه سيعطيه ذلك[4]؟!

---

(١) رواه البخاري (٤٧٣٢) واللفظ له، ومسلم (٢٧٩٥).

(٢) ممن اختار أنَّ الخطابَ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦١٧).

وقيل: الخِطابُ لكُلِّ مَن يصلُحُ للخطابِ، فلم يُرَدْ به مُعَيَّنٌ. وممن قال بذلك: ابن عاشور. وجوَّز أن يكون خطابًا للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤١-٢٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٩).

قال السعدي: (هذه الآيةُ، وإن كانت نازلةً في كافرٍ مُعَيَّن، فإنَّها تشمَلُ كُلَّ كافرٍ زعَم أنَّه على الحَقِّ، وأنَّه مِن أهلِ الجنَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٠)، ((أضواء البيان)) =

﴿كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ٧٩﴾.

﴿كَلَّا﴾.

أي: ليس الأمرُ على ما قالَ هذا الكافرُ مِن أنَّه يُؤْتَى المالَ والولدَ؛ فهو مخطِئٌ فيما يقولُه ويتَمَنَّاه[1].

﴿سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ﴾.

= للشنقيطي (٣/ ٥٠٧).

ممن اختار المعنى المذكورَ: الزمخشري، والبيضاوي، وابنُ كثير، والعُليمي، والشوكاني، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٧).

قال الشنقيطي: (أظهرُ الأقوالِ عندي في معنى العَهدِ في قَولِه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ [مريم: ٧٨] أنَّ المعنى: أم أعطاه اللهُ عهدًا أنَّه سيفعَلُ له ذلك؛ بدَليلِ قَولِه تعالى في نظيرِه في سورة «البقرة»: ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ﴾ [البقرة: ٨٠]، وخيرُ ما يُفسَّرُ به القرآنُ: القُرآنُ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٥٠٧).

وقيل: اتخاذُ العهدِ معناه بالإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ. وممن اختاره: ابنُ جرير، ومكي، وابنُ عطية، والثعالبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢١)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٥٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠).

قال ابنُ جرير: (﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ [مريم: ٧٨] يقولُ: أم آمنَ باللهِ، وعَمِلَ بما أُمِرَ به، وانتهى عمَّا نهاه عنه، فكان له بذلك عند الله عهدًا أن يؤتيَه ما يقولُ مِن المالِ والولَدِ؟!). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢١).

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٨٨)، ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١٢).

وقال القرطبي: (﴿كَلَّا﴾ ردٌّ عليه، أي: لم يَكُنْ ذلك؛ لم يطَّلِعِ الغيبَ، ولم يتَّخِذْ عندَ الرَّحمنِ عهدًا). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٦). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣١٧).

أي: ستَكتُبُ الملائكةُ الحَفَظةُ بأمْرِنا ما يقولُ هذا الكافِرُ المفتري على اللهِ أنَّه سيُعطيه في الآخرةِ مالًا وولدًا، وسنُجازيه في الآخرةِ على كَذِبِه وكُفرِه[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

وقال سُبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ * كِرَامًا كَـٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٩ - ١٢].

﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾.

أي: ونزيدُ هذا الكافِرَ في الآخرةِ عذابًا زائدًا؛ بسَبَبِ قَولِه الكَذِبَ على رَبِّه[2].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٧).

وقال البقاعي: (﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ باستدراجِه بأسبابِه مِن كثرةِ النِّعَمِ، مِن الأموالِ والأولادِ المحَبَّبةِ له في الدنيا، المعَذِّبةِ له فيها بالكَدحِ في جَمعِها، والمُخاصَمةِ عليها المُوجِبةِ له التَّمادي في الكُفرِ المُوجِبِ لعذابِ الآخرةِ؛ وإتيانِ بَعضِه في إثرِ بَعضٍ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥]). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٢٤٣).

أي: ونَسلُبُ مالَه وولَدَه في الدُّنيا بمَوتِه عن جميعِ ذلك، فيصيرُ ذلك إلينا دونَه، ويأتينا يومَ القيامةِ وَحدَه لا مالَ معه ولا ولَدَ[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

وقال سُبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾.

أي: واتخذَ المُشرِكونَ أوثانًا يَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ؛ مِن أجلِ أن ينالوا بها العِزَّ، وتمنعَهم مِن عذابِ اللهِ، وتُقرِّبَهم إليه، وتنصُرَهم، وتشفَعَ لهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٧، ٥٠٨).

وقيل: نحرِمُه ما تمنَّاهُ في الآخرةِ مِن مالٍ وولَدٍ، ونجعلُه لغيرِه مِن المسلمينَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٩).

﴿ كَلَّا ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما ظنُّوا مِن أنَّ آلهتَهم تكونُ لهم عزًّا؛ فهي لا تستطيعُ أن تمنَعَهم من العذابِ، أو تنصُرَهم، أو تشفعَ لهم، أو تقرِّبَهم إلى اللهِ(1).

كما قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾.

أي: ولكن ستَكفُرُ تلك المعبوداتُ يومَ القيامةِ بعبادةِ المُشرِكينَ لها، وتتبرَّأُ منهم، وتكونُ بخلافِ ما ظنُّوا فيهم، فتكونُ أعوانًا عليهم في خصومتِهم وتكذيبِهم والتبرؤِ منهم، ويَؤولُ بهم ذلك إلى الذلِّ والهوانِ(2)!

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ * وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [النحل: ٨٦، ٨٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ [يونس: ٢٨، ٢٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٣، ٦٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٩، ٥١٠).

وقيل: المرادُ أنَّ العابدينَ هم الذين يكفرونَ بعبادتِهم شركاءَهم، وينكرونَها. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٩).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ [الفرقان: ١٧ - ١٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص: ٦٢-٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ حالَ الكُفَّارِ مع الأصنامِ في الآخرة؛ ذكَرَ بَعدَه حالَهم مع الشياطينِ في الدُّنيا؛ فإنَّهم يتولَّونَهم، وينقادونَ لهم، فقال[1]:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٦٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٣/ ١٤١).

أي: ألم ترَ[١] -يا محمَّدُ- أنَّا سلَّطْنا الشَّياطينَ على الكافرينَ باللهِ، فتهيِّجُهم بالإغواءِ والتَّزيينِ إلى الكُفرِ والمعاصي، وتُزعِجُهم إليها إزعاجًا[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: فلا تَستعجِلْ -يا محمَّدُ- بطَلَبِ وُقوعِ الهلاكِ والعذابِ على أولئك الكافرينَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤، ٣٥].

---

(١) قال ابنُ عطية: (الرؤيةُ في الآيةِ رؤيةُ القلبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٥٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٥٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١١).

﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾.

أي: إنَّما نَعُدُّ الأعوامَ والشُّهورَ والأيَّامَ، فنُمهِلُهم ونؤخِّرُ تَعذيبَهم إلى أجَلٍ معدودٍ مَضبوطٍ، فإذا جاءَ الوقتُ المحدَّدُ لذلك أهلَكْناهم[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- ما عَلَّقَ العبدُ رجاءَه وتوكُّلَه بغيرِ اللهِ إلَّا خاب مِن تلك الجهةِ، ولا استنصرَ بغيرِ اللهِ إلَّا خُذِلَ؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزًّا﴾ هذا من عُقوبةِ الكافرينَ أنَّهم لَمَّا لم يعتَصِموا باللهِ ولم يتمَسَّكوا بحبلِ اللهِ، بل أشركوا به، ووالَوا أعداءَه مِن الشياطينِ؛ سَلَّطهم عليهم، وقيَّضَهم لهم، فجُعِلَت الشياطينُ تؤزُّهم إلى المعاصي أزًّا، وتُزعِجُهم إلى الكُفرِ إزعاجًا، فيُوسوِسونَ لهم، ويُوحون

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١٢).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ في الجملة: ابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٤٧).

وقيل: المرادُ: ونحن نَعُدُّ أعمالَهم كلَّها ونُحصيها حتى أنفاسَهم؛ لنُجازيَهم على جميعِها، ونؤخِّرُ إهلاكَهم ليزدادوا إثمًا، ولم نَترُك تعجيلَ هلاكِهم لخيرٍ أردناه بهم. وممَّن اختار هذا المعنى: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٨).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وطاوس، ومقاتل، وأبو جعفر محمد بنُ علي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٦٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٤٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٥٣٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٢٩).

إليهم، ويُزَيِّنونَ لهم الباطِلَ، ويقبِّحونَ لهم الحَقَّ، فيدخُلُ حُبُّ الباطِلِ في قلوبِهم ويتشَرَّبُها، فيسعَى فيه سعيَ المحِقِّ في حَقِّه، فينصُرُه بجُهدِه ويُحارِبُ عنه، ويجاهدُ أهلَ الحَقِّ في سبيلِ الباطِلِ، وهذا كلُّه جزاءً له على تولِّيه مَن ولِيَه، وتولِّيه لعدُوِّه؛ جُعِلَ له عليه سلطانٌ، وإلَّا فلو آمَن بالله وتوكَّلَ عليه، لم يكُنْ له عليه سلطانٌ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾[1] [النحل: ٩٩-١٠٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ دلالةٌ على أن المُخْبِرَ عن خَبَرٍ يحصلُ في المستقبلِ لا يكون إلَّا بطريقينِ: إمَّا اطِّلاعُه على الغيبِ -وهو العلمُ بما سيكونُ-، وإمَّا أنْ يكونَ قد اتَّخَذَ عندَ الرحمنِ عهدًا -والله مُوْفٍ بعهدِه-؛ فالأولُ عِلْمٌ بالخبرِ، والثاني عِلْمٌ بالأمرِ، الأولُ عِلْمٌ بالكلماتِ الكونيةِ، والثاني عِلْمٌ بالكلماتِ الدينيةِ[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا * كَلَّا﴾ في هذه الآيةِ الكَريمةِ رَدٌّ على العاصِ بنِ وائلٍ السَّهميِّ قَولَه: إنَّه يؤتى يومَ القيامةِ مالًا وولدًا، بالدَّليلِ المعروفِ عندَ الأصوليِّينَ بـ (السَّبرِ والتَّقسيمِ)[3]، وضابِطُ هذا الدَّليلِ العظيمِ أنَّه مُتركِّبٌ مِن أصلَينِ:

أحدُهما: حَصرُ أوصافِ المحَلِّ بطَريقٍ مِن طُرُقِ الحَصرِ، وهو المعبَّرُ عنه

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٣٢).

(٣) ويُعرَفُ عندَ الجدَليِّينَ بـ (التَّقسيمِ والتَّرديدِ)، وعندَ المنطقيِّينَ بـ (الشَّرطيِّ المنفصِلِ).

بالتَّقسيمِ عند الأصوليِّينَ[١].

والثَّاني: هو اختيارُ تلك الأوصافِ المحصورةِ، وإبطالُ ما هو باطِلٌ منها، وإبقاءُ ما هو صحيحٌ منها، وهذا الأخيرُ هو المعبَّرُ عنه عندَ الأصوليِّينَ بـ (السَّبرِ)[٢]، والتَّقسيمُ الصَّحيحُ في هذه الآيةِ الكريمةِ يحصُرُ أوصافَ المحَلِّ في ثلاثةٍ، والسَّبرُ الصَّحيحُ يُبطِلُ اثنينِ منها ويصَحِّحُ الثالِثَ، وبذلك يَتِمُّ إلقامُ العاصِ بنِ وائلٍ الحَجَرَ في دَعواه أنَّه يُؤتى يومَ القيامةِ مالًا وولدًا.

أمَّا وَجهُ حَصرِ أوصافِ المحَلِّ في ثلاثةٍ، فهو أنَّا نَقولُ: قولُك إنَّك تُؤتَى مالًا وولدًا يومَ القيامةِ لا يخلو مُستَنَدُك فيه مِن واحدٍ مِن ثلاثةِ أشياءَ:

الأوَّلُ: أن تكونَ اطَّلَعتَ على الغَيبِ، وعَلِمتَ أنَّ إيتاءَك المالَ والولَدَ يومَ القيامةِ ممَّا كَتَبه اللهُ في اللَّوحِ المحفوظِ.

والثَّاني: أن يكونَ اللهُ أعطاك عَهدًا بذلك، فإنَّه إن أعطاك عَهدًا لن يُخلِفَه.

الثالث: أن تكونَ قُلتَ ذلك افتراءً على اللهِ مِن غَيرِ عَهدٍ، ولا اطِّلاعِ غَيبٍ.

وقد ذكَر تعالى القِسمَينِ الأوَّلَينِ في قَولِه: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ مُبطِلًا لهما بأداةِ الإنكارِ، ولا شَكَّ أنَّ كِلا هَذينِ القِسمَينِ باطِلٌ؛ لأنَّ العاصِ المذكورَ لم يطَّلِعِ الغَيبَ، ولم يتَّخِذْ عند الرَّحمنِ عَهدًا؛ فتعَيَّنَ القِسمُ الثَّالِثُ، وهو أنَّه قال ذلك افتراءً على اللهِ، وقد أشار تعالى إلى هذا القِسمِ الذي هو الواقِعُ بحَرفِ الزَّجرِ والرَّدعِ، وهو قَولُه: ﴿كَلَّا﴾، أي: ليس الأمرُ كذلك، لم يطَّلِعِ الغَيبَ، ولم يتَّخِذْ عندَ الرَّحمنِ عَهدًا، بل قال ذلك افتراءً على اللهِ؛ لأنَّه

(١) ويُعرَفُ عندَ الجَدليِّينَ بـ (التَّقسيم) أيضًا، وعندَ المنطقيِّينَ بـ (الشَّرطيِّ المنفصِلِ).

(٢) ويُعرفُ عندَ الجَدليِّينَ: بـ (التَّرديدِ)، وعندَ المنطقيِّينَ بـ (الاستثناءِ في الشَّرطيِّ المنفصِلِ).

لو كان أحَدُهما حاصِلًا لم يَستوجِبِ الرَّدعَ عن مقالتِه كما ترى[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا﴾ فيه سؤالٌ: لم قال: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ﴾ بسينِ التَّسويفِ، وهو كما قاله، كُتِبَ مِن غيرِ تأخيرٍ؛ قال تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨]؟

الجوابُ فيه مِن أوجهٍ:

الأول: سيظهرُ له، ويعلَمُ أنَّا كتَبْنا.

الثاني: أنَّ المتوعِّدَ يقولُ للجاني: سوف أنتَقِمُ منك، وإن كان في الحالِ في الانتقامِ، ويكونُ غَرَضُه من هذا الكلام محضَ التهديدِ، فكذا هاهنا[٢].

الثالث: سَننتقِمُ منه انتقامَ مَن كتَبَ جريمةَ العدُوِّ وحفِظَها عليه، يعني: أنَّه لا يُخِلُّ بالانتصارِ، وإنْ تطاولَ به الزَّمانُ واستأخَرَ[٣].

الرابع: لتحقيقِ أنَّ ذلك واقعٌ لا مَحالةَ، كقولِه تعالى: ﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾[٤] [يوسف: ٩٨].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا﴾ الاتخاذُ: جعْلُ الشَّخصِ الشَّيءَ لنَفسِه، فجُعِلَ الاتخاذُ هنا الاعتقادَ والعبادةَ. وفي فِعلِ الاتخاذِ إيماءٌ إلى أنَّ عقيدتَهم في تلك الآلهةِ شَيءٌ مُصطلحٌ عليه، مختلقٌ لم

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٩١، ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٢).

يأمر اللهُ به، كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾[١] [الصافات: ٩٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الحَقَّ يقتضي أن يتَّخِذوا اللهَ إلهًا؛ إذ بذلك تقرَّر الاعتِقادُ الحَقُّ مِن مبدأِ الخليقةِ، وعليه دَلَّت العُقولُ الرَّاجِحةُ[٢].

٦- في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والقَدَريَّةِ في إرسالِ الشَّياطينِ، وهو دليلٌ على أنَّ الشَّيطانَ مخلوقٌ نِقمةً لِمَن حَقَّتْ عليه كلمةُ ربِّه؛ يُزعِجُه إلى معاصيه وإلى الكُفرِ، بإرسالِ ربِّه عليه[٣].

٧- الإرسالُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ إرسالٌ كونيٌّ قَدَرِيٌّ، كإرسالِ الرِّياحِ، وليس بإرسالٍ دينيٍّ شرعيٍّ؛ فهو إرسالُ تسليطٍ، بخلافِ قولِه في المؤمنين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فهذا السلطانُ المَنْفِيُّ عنه على المؤمنينَ هو الذي أرسلَ به جُندَه على الكافرينَ[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٢).

- قولُه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ الاستفهامُ في قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ مُستعملٌ في التَّعجيبِ من كُفرِ هذا الكافرِ، والمقصودُ مِن الاستفهامِ: لفتُ الذِّهنِ إلى معرفةِ هذه القصَّةِ، أو إلى تذكُّرِها إنْ كان عالمًا بها، وعبَّرَ عنه بالموصولِ؛ لِما في الصِّلةِ من منشأِ العجَبِ، ولا سيَّما قَولِه: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[1]؛ فالهمزةُ للتَّعجيبِ من حالِه، والإيذانِ بأنَّها من الغرابةِ والشَّناعةِ بحيث يجبُ أنْ تُرى، ويُقضَى منها العجَبُ، والفاءُ للعطفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيه المقامُ، أي: أنظَرْتَ فرأيتَ الَّذي كفَرَ بآياتِنا الباهرةِ الَّتي حقُّها أنْ يؤمِنَ بها كلُّ مَن يُشاهِدُها[2]؟! وقيل: لمَّا كانتِ الرُّؤيةُ أقْوى سنَدِ الإخبارِ، اسْتُعْمِلَ (أَرَأَيْتَ) بمعنى الإخبارِ، والفاءُ للتَّعقيبِ، والمعنى: أخبِرْ بقصَّةِ هذا الكافرِ عقِبَ حديثِ أولئك[3].

٢- قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾

- قولُه: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ ردٌّ لكلمتِه الشَّنعاءِ، وإظهارٌ لبُطلانِها إثرَ ما أُشيرَ إليه بالتَّعجيبِ منها[4]، ولاختيارِ هذه الكلمةِ شأنٌ، والمعنى: أوَ قدْ بلَغَ من عظَمةِ شأنِه أنِ ارْتَقى إلى علْمِ الغيبِ الَّذي توحَّدَ به الواحدُ القهَّارُ[5]؟!

- أيضًا قولُه: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ جوابٌ لكلامِه على طريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ، بحمْلِ كلامِه على ظاهرِ عبارتِه من الوعْدِ بقضاءِ الدَّينِ من المالِ الَّذي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٠).

سيجِدُه حينَ يُبْعَثُ؛ فالاستفهامُ في قولِه: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ إنكاريٌّ وتَعجيبيٌّ. و(اطَّلع): افتعَلَ مِن طلَعَ؛ للمُبالغةِ في حُصولِ فعْلِ الطُّلوعِ وهو الارتقاءُ، ولذلك يقال لمكانِ الطُّلوعِ: مَطْلعٌ بالتَّخفيفِ، ومُطَّلعٌ بالتَّشديدِ[١].

- قولُه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ اخْتِيرَ هنا مِن أسمائِه الرَّحمنُ؛ لأنَّ استحضارَ مَدلولِه أجدَرُ في وفائِه بما عهِدَ به مِن النِّعمةِ المزعومةِ لهذا الكافرِ[٢]، ولأنَّ في ذكْرِ هذا الاسمِ تورُّكًا على المُشرِكين الَّذين قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[٣] [الفرقان: ٦٠].

- وفي قولِه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ فمُتعلِّقُ العهدِ محذوفٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، تَقديرُه: بأنْ يُعطِيَه مالًا وولدًا[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ في هذه الآيةِ والَّتي بعْدَها إيجازٌ؛ لأنَّه لو حُكِيَ كلامُه لطال[٥].

- في قولِه: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ جُرِّدَ الفعْلُ هاهنا لمعنى الوعيدِ، وأُكِّدَ بالمصدرِ ﴿مَدًّا﴾؛ دَلالةً على فرْطِ غضَبِه عليه[٦].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾

- قولُه: ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ كِنايةٌ عن لازمِه، وهو الهلاكُ، والمقصودُ: تذكيرُه بالموتِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٥٩-١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٦٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٠).

أو تَهديدُه بقُرْبِ هلاكِه[١]، وفيه بِشارةٌ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ونِكايةٌ وكمَدٌ للعاصِ بنِ وائلٍ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ﴾؛ فضميرُ (اتَّخذُوا) عائدٌ إلى الَّذين أشْرَكوا؛ لأنَّ الكلامَ جرَى على بعضٍ منهم[٣].

- قولُه: ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾ أجْرَى على الآلهةِ ضَميرَ العاقلِ؛ لأنَّ المُشرِكين الَّذين اتَّخَذوهم توهَّمُوهم عُقلاءَ مُدبِّرينَ. وأخبَرَ عنها بالمصدرِ ﴿عِزًّا﴾؛ لتَصويرِ اعتقادِ المُشرِكين في آلهتِهم أنَّهم نفْسُ العِزِّ، أي: أنَّ مُجرَّدَ الانتماءِ لها يُكسِبُهم عِزًّا[٤].

٦- قوله تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾

- قولُه: ﴿كَلَّا﴾ ردْعٌ لهم عن ذلك الاعتقادِ الباطلِ، وإنكارٌ لوُقوعِ ما عَلَّقوا به أطماعَهم الفارغةَ[٥].

- الواوُ في قولِه: ﴿سَيَكۡفُرُونَ﴾ ﴿وَيَكُونُونَ﴾ إمَّا أنْ ترجِعَ إلى ﴿ءَالِهَةً﴾، ويكونُ قولُه: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ في مُقابلةِ ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴾، والمُرادُ: ضِدُّ العِزِّ، وهو الذُّلُّ والهوانُ، أي: يكونونَ عليهم ضِدًّا لِما قصَدوه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٦٣-١٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٠).

وأرادوهُ، كأنَّه قيل: ويكونونَ عليهم ذُلًّا، لا لهم عِزًّا، أو يكونونَ عليهم عونًا. ومعنى كونِ الآلهةِ عونًا عليهم: أنَّهم وَقودُ النَّارِ وحصَبُ جهنَّمَ، ولأنَّهم عُذِّبوا بسببِ عبادتِها، وإنْ رجعَتِ الواوُ في ﴿سَيَكۡفُرُونَ﴾ و(يَكُونُونَ) إلى المُشرِكين؛ فالمعنى: ويكونونَ عليهم -أي: أعدائِهم- ضِدًّا، أي: كَفرةً بهم بعدَ أنْ كانوا يَعْبُدونها[١]، ويكونُ حرفُ الاستقبالِ للحُصولِ قريبًا، أي: سيكفُرُ المُشرِكون بعبادةِ الأصنامِ ويَدْخلون في الإسلامِ، ويكونونَ ضِدًّا على الأصنامِ؛ يَهْدِمون هياكِلَها ويلْعَنونها، فهو بِشارةٌ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ بأنَّ دِينَه سَيظهَرُ على دِينِ الكُفرِ. وفي هذه المُقابَلةِ طِباقٌ مرَّتينِ[٢].

- قَولُه: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾، وحَّد ﴿ضِدًّا﴾، وإن كان خبرًا عن جَمعٍ، ولم يقُلْ: (أضدادًا)؛ ووجهُ ذلك: أنَّ لفظَ (الضِّدِّ) هو مصدرٌ في الأصلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١-٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٤).

والطِّباق: هو الجمعُ بينَ مُتضادَّيْنِ معَ مراعاةِ التقابُلِ، كالبياضِ والسوادِ، والليلِ والنهارِ، وهو قسمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِن الطباقِ اللفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ [التوبة: ٨٢]، طابَق بينَ الضَّحكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ * قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ١٥-١٦]؛ معناه: ربُّنا يعلمُ إنَّا لصادقونَ. ومنه: طباق ظاهرٌ، وهو ما كان وجهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خَفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّديَّةُ في الصورةِ متوهَّمةٌ، فتبدو المطابقةُ خفيَّةً؛ لتعلُّقِ أحدِ الركنين بما يقابلُ الآخَرَ تعلُّقَ السببيةِ أو اللزومِ، كقولِه تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النارِ يستلزمُ الإحراقَ المضادَّ للإغراقِ، ومنه: قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القصاصِ: القتلُ، فصار القتْلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أملحِ الطِّباقِ وأخفاه. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

والمصادرُ مُوَحَّدةٌ مُذكَّرةٌ. أو وحَّدَه إشارةً إلى اتِّفاقِ كَلمتِهم، بحيثُ إنَّهم لِفَرطِ تضامُنِهم وتوافُقِهم كشيءٍ واحدٍ. وقيل: هو مفردٌ في معنى الجمعِ(١).

٧- قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ لجوابِ سُؤالٍ يَجيشُ في نفْسِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ من إيغالِ الكافرينَ في الضَّلالِ: جماعتِهم وآحادِهم، وما جرَّهُ إليهم مِن سُوءِ المصيرِ، ابتداءً مِن قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾، وما تخلَّلَ ذلك مِن ذكْرِ إمهالِ اللهِ إيَّاهم في الدُّنيا، وما أعَدَّ لهم مِن العذابِ في الآخرةِ، وهي مُعترِضةٌ بينَ جُملةِ ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ [مريم: ٨١] وجُملةِ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [مريم: ٨٥]. وأيضًا هي كالتَّذييلِ لتلك الآياتِ والتَّقريرِ لمضمونِها؛ لأنَّها تَستخلِصُ أحوالَهم، وتتضمَّنُ تَسليةَ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن إمهالِهم، وعدَمِ تَعجيلِ عقابِهم(٢).

- والمُرادُ بقولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا...﴾ تَعجيبُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعدَ الآياتِ الَّتي ذُكِرَ فيها العُتاةُ والمَردةُ من الكُفَّارِ، وأقاويلُهم، ومُعاندتُهم للرُّسلِ، واستهزاؤُهم بالدِّينِ: مِن تَماديهم في الغيِّ، وإفراطِهم في العنادِ، وتَصميمِهم على الكُفرِ، واجتماعِهم على دفْعِ الحقِّ بعدَ وُضوحِه، وانتفاءِ الشَّكِّ عنه، وانهماكِهم لذلك في اتِّباعِ الشَّياطينِ وما تُسَوِّلُ لهم(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٧).

وفيه تَنبيهٌ على أنَّ جميعَ ذلك منهم بإضلالِ الشَّياطينِ وإغوائِهم، لا لأنَّ له مُسوِّغًا ما في الجُملةِ[١]؛ فقولُه: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ استفهامٌ تَعجيبيٌّ، ومِثْلُه شائعٌ في كلامِ العربِ؛ يَجْعلون الاستفهامَ على نفْيِ فعْلٍ، والمُرادُ حُصولُ ضِدِّه بحَثِّ المُخاطَبِ على الاهتمامِ بتحصيلِه، أي: كيف لم ترَ ذلك. ونُزِّلَ إرسالُ الشَّياطينِ على الكافرين -لاتِّضاحِ آثارِه- مَنزلةَ الشَّيءِ المَرئيِّ المُشاهَدِ؛ فوقَعَ التَّعجيبُ مِن مَرآهُ بقولِه: ألَمْ ترَ ذلك[٢].

- قولُه: ﴿تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ إمَّا حالٌ مُقدَّرةٌ مِن ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾، أو استئنافٌ وقَعَ جَوابًا عمَّا نشَأَ من صدْرِ الكلامِ؛ كأنَّه قيل: ماذا يفعَلُ الشَّياطينُ بهم حينئذٍ؟ فقيل: تؤُزُّهم، أي: تُغْريهم، وتُهيِّجُهم على المعاصي تَهييجًا شديدًا بأنواعِ الوساوسِ والتَّسويلاتِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ شبَّهَ اضطرابَ اعتقادِهم، وتناقُضَ أقوالِهم، واختلاقَ أكاذيبِهم: بالغَليانِ في صُعودٍ وانخفاضٍ، وفرقعةٍ وسُكونٍ[٤].

- وإرسالُ الشَّياطينِ عليهم: تَسخيرُهم لها، وعدَمُ انتفاعِهم بالإرشادِ النَّبويِّ المُنقِذِ من حبائلِها، وذلك لكُفرِهم وإعراضِهم عنِ استماعِ مواعظِ الوحيِ. وللإشارةِ إلى هذا المعنى عَدَلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وجعَلَ ﴿تَؤُزُّهُمۡ﴾ حالًا مُقيِّدًا للإرسالِ؛ لأنَّ الشَّياطينَ مُرسَلةٌ على جميعِ النَّاسِ، ولكنَّ اللهَ يحفَظُ المُؤمِنين من كيدِ الشَّياطينِ على حسَبِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٥-١٦٦).

قُوَّةِ الإيمانِ، وصلاحِ العملِ. وفرَّعَ على هذا الاستئنافِ وهذه التَّسليةِ قولَه: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ الفاءُ في قولِه: ﴿فَلَا﴾؛ للإشعارِ بكونِ ما قبْلَها مَظنَّةً لوُقوعِ المَنهيِّ عنه، مُحوِجةً إلى النَّهيِ[٢].

- وعبَّرَ بـ ﴿تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ مُعدًّى بحرفِ الاستعلاءِ (على)؛ إكرامًا للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ بأنْ نُزِّلَ منزلةَ الَّذي هلاكُهم بيدِه، فنُهِيَ عن تَعجيلِه بهلاكِهم. وذلك إشارةٌ إلى قَبولِ دُعائِه عندَ ربِّه، فلو دعا عليهم بالهلاكِ لَأهلَكَهم اللهُ؛ كيْلَا يرُدَّ دعوةَ نَبيِّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ تعليلٌ لمُوجبِ النَّهيِ ببَيانِ اقترابِ هلاكِهم[٤]، وأفادتْ جُملةُ ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ تعليلَ النَّهيِ عن التَّعجيلِ عليهم؛ لأنَّ (إنَّما) مُركَّبةٌ من (إنَّ) و(ما)، و(إنَّ) تفيدُ التَّعليلَ. وفي هذا إنذارٌ باقترابِ استئصالِهم[٥].

- و﴿إِنَّمَا﴾ للقصْرِ، أي: ما نحنُ إلَّا نعُدُّ لهم، وهو قصْرُ موصوفٍ على صِفَةٍ قصْرًا إضافيًّا، أي: نعُدُّ لهم، ولسْنا بناسينَ لهم كما يظنُّون، أو لسْنا بتارِكِينهم من العذابِ، بل نُؤخِّرُهم إلى يومٍ موعودٍ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٥-١٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٧).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، وقال في سُورةِ (الأحقافِ): ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ ولعلَّ سببَ الاختلافِ بينَ هذه الآيةِ وبينَ ما في سُورةِ (الأحقافِ): أنَّ المُرادَ هنا استعجالُ الاستئصالِ والإهلاكِ، وهو مُقدَّرٌ كونُه على يَدِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فلذلك قيل هنا: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: انتظِرْ يومَهم الموعودَ، وهو يومُ بدرٍ؛ ولذلك عقَّبَ بقولِه: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا﴾، أي: نُنْظِرُهم ونُؤجِّلُهم، وأنَّ العذابَ المقصودَ في سُورةِ (الأحقافِ) هو عذابُ الآخرةِ؛ لوُقوعِه في خلالِ الوعيدِ لهم بعذابِ النَّارِ؛ لقولِه هنالك: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ * فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ﴾[1] [الأحقاف: ٣٤، ٣٥].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٦).

الآيات (٨٥-٩٥)

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَفْدًا﴾: أي: رُكبانًا، واحِدُهم وافِدٌ، فالوافِدُ في الغالبِ يكونُ راكِبًا، يُقالُ: وَفَدتُ على فُلانٍ: إذا قَدِمتَ عليه، وأصلُ (وفد): يدُلُّ على إشرافٍ وطُلوعٍ(١).

﴿وِرْدًا﴾: أي: مُشاةً عِطاشًا، وأصلُه: الورودُ على الماءِ، والوارِدُ على الماءِ يكونُ عطشانَ، وأصلُ (ورد): يدلُّ على المُوافاةِ إلى الشَّيءِ(٢).

﴿إِدًّا﴾: أي: عَظيمًا مُنكَرًا، وأصلُ (أدد): يدُلُّ على عِظَمِ الشَّيءِ وشِدَّتِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((الغريبين)) للهروي (٦/ ١٩٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٦).

﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾: أي: يتشَقَّقْنَ ويَتصدَّعْنَ، وأصلُ (فطر): يدلُّ على فَتحِ شَيءٍ، وإبرازِه[1].

﴿وَتَخِرُّ﴾: أي: تَسقُطُ، وأصلُ (خرر): يدلُّ على اضطرابٍ، وسُقوطٍ مع صَوتٍ[2].

﴿هَدًّا﴾: الهَدُّ: الهدمُ له وقعٌ، وسُقوطُ شَيءٍ ثَقيلٍ، وأصلُ (هدد): يدُلُّ على كَسرٍ وهَدمٍ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله سبحانَه عاقبةَ المتقينَ، وعاقبةَ المجرمينَ يومَ القيامةِ، فيقول: اذكُرْ -يا مُحمَّدُ- يومَ نَجمَعُ المتَّقينَ إلى الرَّحمنِ وإلى دارِ كرامتِه راكبينَ مُكَرَّمينَ، ونسوقُ الكافرينَ إلى النَّارِ مُشاةً عِطاشًا، لا يملِكُ هؤلاء الكُفَّارُ الشَّفاعةَ لأنفُسِهم ولا لأحدٍ، إنَّما يَملِكُها مَنِ اتخَذَ عند الرَّحمنِ عَهدًا بذلك، وهم المؤمِنونَ باللهِ ورُسُلِه.

ثمَّ يحكي الله تعالى أقوالًا أخرى، مِن أقوالِ الكافرينَ الباطلةِ، فيقولُ: وقال هؤلاء الكُفَّارُ: اتخذَ الرَّحمنُ ولَدًا! لقد جِئتمُ شَيئًا عظيمًا مُنكرًا، تكاد السَّمواتُ يتشقَّقْنَ مِن فظاعةِ ذلكم القَولِ، وتتصَدَّعُ الأرضُ، وتَسقُطُ الجبالُ سُقوطًا سريعًا فتتَفَتَّتْ؛ غضبًا لله وإجلالًا له سُبحانَه؛ لِنسبَتِهم إليه الولدَ -تعالى اللهُ عن ذلك

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٦، ٣٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٤).

عُلُوًّا كبيرًا- وما يصِحُّ للرَّحمنِ ولا يليقُ بعَظَمتِه أن يتَّخِذَ ولَدًا، فما مِن أحدٍ مِن أهلِ السَّمواتِ، ومِن أهل الأرضِ، إلَّا سيأتي الرَّحمنَ يومَ القيامةِ ذَليلًا خاضِعًا مُقِرًّا له بالعبوديَّةِ، لقد أحصى اللهُ سُبحانه وتعالى خَلْقَه كُلَّهم، وعَلِمَ عَدَدَهم، فلا يخفَى عليه أحَدٌ منهم، وسوف يأتي كُلُّ فَردٍ مِن الخَلقِ رَبَّه يومَ القيامةِ وَحدَه، لا مالَ له ولا ولَدَ معه ولا نصيرَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾.

أي: اذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ القيامةِ حين نجمعُ الذين اتَّقَوا اللهَ بامتثالِ ما أمرَ، واجتنابِ ما نهى، فنقودُهم إلى الرَّحمنِ راكبينَ في رِفعةٍ وعلوٍّ، فيَقدَمونَ إلى جنَّتِه، ومحَلِّ ضِيافتِه، ودارِ كرامتِه ورِضوانِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣].

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما يدُلُّ على كرامةِ أوليائِه؛ أتبَعَه ما يدُلُّ على إهانةِ أعدائِه، فقال[2]:

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٥١)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٧).

أي: ونسوقُ الكُفَّارَ والعُصاةَ إلى جَهنَّمَ عِطاشًا مُشاةً؛ إذلالًا لهم[١].

عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا كان يومُ القيامةِ أذَّنَ مُؤذِّنٌ: تتبَعُ كُلُّ أمَّةٍ ما كانت تعبُدُ، فلا يبقَى مَن كان يعبُدُ غيرَ اللهِ، مِن الأصنامِ والأنصابِ إلَّا يتساقطونَ في النَّارِ، حتى إذا لم يبقَ إلَّا مَن كان يعبُدُ اللهَ، بَرٌّ أو فاجِرٌ وغُبَّراتُ[٢] أهلِ الكِتابِ، فيُدعَى اليهودُ فيُقالُ لهم: مَن كنتم تعبُدونَ؟ قالوا: كنَّا نعبُدُ عزيرَ ابنَ اللهِ! فيُقالُ لهم: كذبتُم؛ ما اتخذَ اللهُ مِن صاحبةٍ ولا ولدٍ، فماذا تَبغونَ؟ فقالوا: عَطِشْنا رَبَّنا فاسْقِنا، فيُشارُ ألا تَرِدونَ؟ فيُحشَرونَ إلى النَّارِ كأنَّها سرابٌ يَحطِمُ[٣] بَعضُها بعضًا، فيتَساقَطونَ في النَّارِ، ثم يُدعَى النَّصارى، فيُقالُ لهم: مَن كنتُم تعبُدونَ؟ قالوا: كنَّا نعبُدُ المسيحَ ابنَ الله! فيُقالُ لهم: كذبتُم، ما اتخذَ اللهُ مِن صاحبةٍ ولا ولدٍ، فيُقالُ لهم: ماذا تبغونَ؟ فكذلك مِثل الأوَّلِ...))[٤].

﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧﴾.

أي: ليس للكافرينَ مِن الشَّفاعةِ شَيءٌ يومَ القيامةِ، فلا يَشفَعونَ لأحَدٍ، ولا يستَحِقُّونَ أن يشفَعَ لهم أحدٌ، لكنْ من كان مؤمِنًا بالله موحِّدًا ومطيعًا له؛ فإنَّه يشفعُ لِغَيرِه، وينتَفِعُ بشَفاعةِ غَيرِه له[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٥٢، ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٦٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠).

(٢) غُبَّراتُ: أي: بقايا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٦١).

(٣) يحطِمُ بَعضُها بَعضًا: أي: يَكسِرُ؛ لشِدَّةِ اتِّقادِها، وتلاطُمِ أمواجِ لهَبِها. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٨٢).

(٤) رواه البخاري (٤٥٨١) واللفظ له، ومسلم (١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣٢، ٦٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٥٣، ١٥٤)، =

كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وقال سُبحانه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ [طه: ١٠٩].

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قَرَّر تعالى في هذه السورةِ الشَّريفةِ عُبوديَّةَ عيسى عليه السَّلامُ، وذكَرَ خَلْقَه مِن مريمَ بلا أبٍ؛ شرَع في مقامِ الإنكارِ على من زعمَ أنَّ له ولدًا، تعالى وتقَدَّسَ وتنزَّه عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا[(١)].

وأيضًا لما ردَّ الله تعالى على عبدةِ الأوثانِ؛ عاد إلى الردِّ على مَن أثبتَ له ولدًا[(٢)].

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨﴾.

أي: وقال هؤلاء الكافِرونَ: اتَّخذَ الرَّحمنُ ولدًا له[(٣)]!

= ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٨، ١٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١٥ - ٥١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٩). =

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩)﴾.

أي: لقد قلتُم قولًا عَظيمًا مُنكَرًا، بافترائِكم على اللهِ أنَّ له ولدًا(١).

كما قال تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

وقال سُبحانه: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٤-٥].

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠)﴾.

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾.

أي: تكاد السَّمواتُ على عَظَمتِها وإحكامِها تتشَقَّقُ قِطَعًا عند سماعِها ذلك القَولَ العَظيمَ المنكَرَ؛ إعظامًا للرَّبِّ، وإجلالًا له سُبحانَه(٢).

﴿وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ﴾.

أي: وتكادُ الأرضُ تتصَدَّعُ؛ تعظيمًا لله سُبحانَه(٣).

﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾.

= قال السعدي: (كقَولِ النَّصارى: المسيحُ ابنُ اللهِ، واليهودِ: عزيرٌ ابنُ اللهِ، والمُشركين: الملائِكةُ بناتُ الله -تعالى اللهُ عن قَولِهم عُلُوًّا كَبيرًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٥).

قال الواحدي: (﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ عظيمًا، في قولِ الجميعِ). ((الوسيط)) (٣/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).

أي: وتكادُ الجِبالُ على صلابتِها تسقُطُ سَريعًا، فتندَكُّ وتتفَتَّتُ(١).

﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١﴾.

أي: من أجلِ أنَّ المُشرِكينَ نَسَبوا للرَّحمنِ ولَدًا(٢).

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢﴾.

أي: وما يَصِحُّ ولا يليقُ بالرَّحمنِ أن يتَّخِذَ ولَدًا؛ فلا مِثلَ له مِن خَلقِه، ولا احتياجَ له إليهم؛ فجميعُ الخلائقِ عَبيدٌ له، وهو الغنيُّ الحميدُ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦].

وقال سُبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ﴾ [مريم: ٣٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ * وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

وعنِ ابنِ عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قال اللهُ: كَذَّبني ابنُ آدَمَ، ولم يكنْ له ذلك، وشتَمَني، ولم يكنْ له ذلك! فأمَّا تكذيبُه إيَّاي فزَعَم أنِّي لا أقدِرُ أن أُعيدَه كما كان، وأمَّا شَتمُه إيَّاي فقولُه: لي ولدٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٣٩، ٦٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٠، ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).

فسُبحاني أن أتخِذَ صاحِبةً أو ولدًا!))[١].

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾.

أي: ما مِن أحدٍ مِن أهلِ السَّمواتِ ومَن أهلِ الأرضِ إلَّا سيأتي إلى الرَّحمنِ يومَ القيامةِ ذَليلًا خاضِعًا، مقِرًّا له بعبوديَّتِه، فكيف يكونُ أحدٌ مِن خَلقِه ولدًا له، والحالُ أنَّ الجميعَ مِلكُه وعَبيدُه، يتصَرَّفُ فيهم كما يشاءُ؟ أمَّا هم فليس لهم من المُلكِ والتصَرُّفِ شيءٌ[٢]!

﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤﴾.

أي: لقد أحصى الرَّحمنُ عَدَدَ خَلْقِه كُلِّهم؛ ذَكَرِهم وأُنثاهم، وصَغيرِهم وكبيرِهم، فلا يخفَى عليه أحَدٌ منهم[٣].

﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥﴾.

أي: وكُلُّ واحدٍ مِن الخلائِقِ سيأتي إلى اللهِ يومَ القيامةِ بعدَ بَعثِه مِن الموتِ وَحيدًا، لا أولادَ معه، ولا مالَ له، ولا أنصارَ، ليس معه إلا عَمَلُه، فيقضي اللهُ فيه بحُكمِه، ويُجازيه، ويوَفِّيه حسابَه، فكيف يُتصوَّرُ في بالٍ أو يَقَعُ في خيالٍ أن يكونَ شَيءٌ مِن خَلْقِه وعَبيدِه له ولدًا، أو معه شريكًا[٤]؟!

(١) رواه البخاري (٤٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٤). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ رَدٌّ على مَن يقولُ: إنَّ اللهَ -جلَّ جلالُه- بنَفسِه في كلِّ مكانٍ، ولو كان -جَلَّ وتعالى- كذلك، ما كان لِحَشْرِهم إليه معنًى؛ إذ هو معهم حيثُ يكونونَ[(١)]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ يدُلُّ على أنَّهم يُساقُونَ إلى النَّارِ بإهانةٍ واستخفافٍ، كأنَّهم نَعَمٌ عطاشٌ تُساقُ إلى الماءِ[(٢)]!

٣- نسبةُ الولدِ إلى اللهِ مسبَّةٌ له تبارَك وتعالَى؛ لذا أخبرَ اللهُ تعالى أنَّه: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ وما ذاك إلا لتضَمُّنِه شَتْمَ الربِّ تبارك وتعالى؛ والتنَقُّصَ به، ونسبةَ ما يمنعُ كمالَ رُبُوبيَّتِه وقُدرتِه وغناه إليه[(٣)].

٤- العبوديَّةُ نوعانِ: عامَّةٌ وخاصَّةٌ؛ فالعبوديَّةُ العامَّةُ عبوديَّةُ أهلِ السَّمواتِ والأرضِ كُلِّهم لله؛ بَرِّهم وفاجِرِهم، مؤمِنِهم وكافِرِهم، فهذه عبوديَّةُ القَهرِ والمِلك؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ

= قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ إبطالُ ما لأجْلِه قالوا: اتَّخَذَ اللهُ ولدًا؛ لأنَّهم زَعَموا ذلك مُوجِبَ عِبادتِهم للمَلائكةِ والجِنِّ؛ لِيَكونوا شُفَعاءَهم عندَ الله، فأيأَسَهم اللهُ مِن ذلك بأنَّ كُلَّ واحدٍ يأتي يومَ القيامةِ مُفرَدًا لا نَصيرَ له). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٤).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٥٣).

ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۞ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣] فهذا يدخُلُ فيه مؤمِنُهم وكافِرُهم. وقال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [الفرقان: ١٧] فسَمَّاهم عبادَه مع ضلالِهم، لكنَّها تسميةٌ مُقَيَّدةٌ بالإشارةِ، وأمَّا المُطلقةُ فلم تجئْ إلَّا لأهلِ النَّوعِ الثاني الآتي.

وأمَّا النوع الثاني: فعبوديَّةُ الطَّاعةِ والمحبَّة، واتباع الأوامِرِ؛ قال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨]، وقال: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۞ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧-١٨]، وقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾[الفرقان: ٦٣]، وقال تعالى عن إبليسَ: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]، فقال تعالى عنهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾[1] [الحجر: ٤٢].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴾، لَمَّا كان مِن العبيدِ مَن يعصَى على سيدِه، عبَّر بالإتيانِ في قولِه: ﴿ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، أي: منقادٌ له طوعًا أو كرهًا، في كلِّ حالةٍ، وكلِّ وقتٍ، ﴿عَبۡدٗا﴾: مُسخَّرًا مقهورًا خائفًا راجيًا، فكيف يكونُ العبدُ ابنًا أو شريكًا؟! فدلَّت الآيةُ على التنافي بينَ العبوديةِ والوِلديَّةِ؛ فلا يجتمعانِ في حالٍ واحدةٍ؛ فهي مِن الدَّليلِ على أنَّ مَن مَلَكَ ابنَه عَتَق عليه؛ لأنَّ الولدَ لا يكونُ عبدًا لأبيه في حُكمِ هذه الآيةِ[2]؛ فالولادة

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (٢/ ٢٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٤٩).

والمِلكُ لا يجتَمِعانِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ﴾ منصوبٌ على الظَّرفيَّةِ بفعْلٍ مُؤخَّرٍ قد حُذِفَ؛ للإشعارِ بضيقِ العبارةِ عن حصْرِه وشرْحِه؛ لكَمالِ فَظاعةِ ما يقَعُ فيه من الطَّامَّةِ التَّامَّةِ، والدَّواهي العامَّةِ. وقيل: منصوبٌ على المفعوليَّةِ بمُضمرٍ مُقدَّمٍ خُوطِبَ به النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: اذكُرْ لهم بطريقِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ يومَ نحشُرُ... إلخ. وقيل: على الظَّرفيَّةِ لقولِه تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾. والَّذي يَقْتضيه مقامُ التَّهويلِ، وتَسْتدعيه جزالةُ التَّنزيلِ: أنْ يَنتصِبَ بأحدِ الوجهينِ الأوَّلينِ، ويكونَ هذا استئنافًا مُبيِّنًا لبعضِ ما فيه من الأُمورِ الدَّالَّةِ على هولِه[٢]. وقيل: الظَّرفُ وما أُضيفَ الظَّرفُ إليه: إدماجٌ بُيِّنَت به كرامةُ المُؤمِنين، وإهانةُ الكافرينَ[٣].

- وعُدِّيَ ﴿نَحْشُرُ﴾ بـ ﴿إِلَى الرَّحْمَٰنِ﴾ تَعظيمًا لهم وتَشريفًا. وذكَرَ صِفةَ الرَّحمانيَّةِ ﴿إِلَى الرَّحْمَٰنِ﴾ الَّتي خصَّهم بها كرامةً؛ إذ لفْظُ (الحشرِ) فيه: جمْعٌ مِن أماكنَ مُتفرِّقةٍ، وأقطارٍ شاسعةٍ على سَبيلِ القهْرِ، فجاءت لفظةُ (الرَّحمن) مُؤذنةً بأنَّهم يُحْشرون إلى مَن يرحَمُهم، ولفظُ (السَّوقِ) فيه إزعاجٌ، وعُدِّيَ بـ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾؛ تَفظيعًا لهم، وتَبشيعًا لحالِ مَقرِّهم. ولفظةُ (الوفدِ) مُشعِرةٌ

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨١-٢٨٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٧).

بالإكرامِ والتَّبجيلِ[١]؛ فذُكِرَ المُتَّقونَ بلفظِ التَّبجيلِ، وهو أنَّهم يُجْمَعون إلى ربِّهم الَّذي غمَرَهم برحْمتِه، وخَصَّهم برضوانِه وكرامتِه، كما يفِدُ الوفَّادُ على المُلوكِ، مُنتظرينَ للكرامةِ عندَهم، وذُكِرَ الكافرونَ بأنَّهم يُساقونَ إلى النَّارِ بإهانةٍ واستخفافٍ، كأنَّهم نَعَمٌ عِطاشٌ تُساقُ إلى الماءِ[٢].

- وقولُه: ﴿وِرۡدًا﴾ حالٌ قُصِدَ منها التَّشبيهُ؛ فلذلك جاءت جامدةً؛ لأنَّ معنى التَّشبيهِ يجعَلُها كالمُشتَقِّ؛ حيث شَبَّهَهم بالأنعامِ الَّتي تُساقُ قُدَّامَ رُعاتِها، يجعلونَها أمامَهم؛ لِتَرْهَبَ زجْرَهم وسِياطَهم، فلا تتفلَّتْ عليهم[٣].

- ولما كان مَن يرِدُ الماءَ لا يردُه إلَّا لعطشٍ، أُطلِقَ الوردُ على العطاشِ؛ تسميةً للشيءِ بسببِه[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ﴾ [مريم: ٦٦]، أو على جُملةِ ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ [مريم: ٨١]؛ إتمامًا لحكايةِ أقوالِهم، وهو القولُ بأنَّ للهِ ولدًا، وهو قولُ المُشرِكين: الملائكةُ بناتُ اللهِ؛ فصريحُ الكلامِ رَدٌّ على المُشرِكين، وكِنايتُه تعريضٌ بالنَّصارى الَّذين شابَهوا المُشرِكين في نِسبةِ الولدِ إلى اللهِ؛ فهو تَكملةٌ للإبطالِ الَّذي في قولِه تعالى آنفًا: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ ...﴾ إلخ. والضَّميرُ عائدٌ إلى المُشرِكين، فيُفْهَمُ منه: أنَّ المقصودَ من حكايةِ قولِهم ليس مُجرَّدَ الإخبارِ عنهم، أو تعليمَ دينِهم، ولكنْ تفظيعُ قولِهم وتَشنيعُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢-٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٢٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٦٩).

- وفي تكرُّرِ اسمِ (الرَّحمنِ) في هذه الآياتِ أربَعَ مرَّاتٍ في قولِه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، وقولِه: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾، وقولِه: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾، وقولِه: ﴿إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾: إيماءٌ إلى أنَّ وَصْفَ الرَّحمنِ الثَّابتَ للهِ، والَّذي لا يُنْكِرُ المُشرِكون ثُبوتَ حقيقتِه للهِ، وإنْ أنكَروا لفظَهُ، يُنافي ادِّعاءَ الولدِ له؛ لأنَّ (الرَّحمنَ) وصْفٌ يدُلُّ على عُمومِ الرَّحمةِ وتكثُّرِها. ومعنى ذلك: أنَّها شامِلةٌ لكلِّ موجودٍ؛ فذلك يَقْتضي أنَّ كلَّ موجودٍ مُفتقِرٌ إلى رحمةِ اللهِ تعالى، ولا يتقوَّمُ ذلك إلَّا بتحقُّقِ العُبوديَّةِ فيه؛ لأنَّه لو كان بعضُ الموجوداتِ ابنًا للهِ تعالى، لاسْتَغنَى عن رَحمتِه؛ لأنَّه يكونُ بالبُنوَّةِ مُساويًا له في الإلهيَّةِ المُقتضيةِ الغِنى المُطلَقَ، ولأنَّ اتِّخاذَ الابنِ يتطلَّبُ به مُتَّخِذُه بِرَّ الابنِ به ورَحمتَه له، وذلك يُنافي كونَ اللهِ مُفيضَ كلِّ رحمةٍ؛ فذِكْرُ هذا الوصفِ عندَ قولِه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، وقولِه: ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾: تَسجيلٌ لغَباوتِهم، وذِكرُه عندَ قولِه: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾: إيماءٌ إلى دليلِ عدَمِ لياقةِ اتِّخاذِ الابنِ باللهِ، وذِكرُه عندَ قولِه: ﴿إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾: استدلالٌ على احتياجِ جميعِ الموجوداتِ إليه، وإقرارِها له بملْكِه إيَّاها[١]. وقيل: لاختيارِ هذا الاسمِ في هذه السُّورةِ شأنٌ؛ ولعلَّه لأنَّ مَساقَ هذا الكلامِ فيها لتَعدادِ نِعَمِه الجِسامِ، وشرْحِ حالِ الشَّاكرين لها، والكافرينَ بها[٢]. وأيضًا في اختصاصِ (الرَّحمنِ) وتكريرِه مرَّاتٍ من الفائدةِ: أنَّه هو الرَّحمنُ وحْدَه، لا يَستحِقُّ هذا الاسمَ غيرُه، من قِبَلِ أنَّ أُصولَ النِّعمِ وفُروعَها منه؛ فمَن أضاف إليه ولدًا، فقد جعَلَه كبعضِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠).

خلْقِه، وأخرَجَه بذلك عن استحقاقِ اسمِ الرَّحمنِ(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ جُملةٌ مُستأنفةٌ لبيانِ ما اقتضَتْه جُملةُ ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ من التَّشنيعِ والتَّفظيعِ(٢). وهو رَدٌّ لمقالتِهم الباطلةِ، وتَهويلٌ لأمْرِها بطريقِ الالتفاتِ المنْبِئِ عن كَمالِ السَّخطِ، وشدَّةِ الغضبِ، المُفصِحِ عن غايةِ التَّشنيعِ والتَّقبيحِ، وتَسجيلٌ عليهم بنهايةِ الوقاحةِ والجهلِ والجراءةِ(٣).

- وإنَّما قيل: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ وهو خِطابٌ للحاضِرِ، بعدَ قَولِه: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ وهو خِطابٌ للغائِبِ؛ لفائدةٍ حَسَنةٍ، وهي زيادةُ التَّسجيلِ عليهم بالجَراءةِ على الله تعالى، والتعَرُّضِ لسَخَطِه، وتنبيهٌ لهم على عِظَمِ ما قالوه، كأنَّه يُخاطِبُ قومًا حاضِرينَ بينَ يديه مُنكِرًا عليهم، ومُوبِّخًا لهم(٤).

٤- قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾

- قولُه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ...﴾ إلخ صِفةٌ لـ﴿إِدًّا﴾، أو استئنافٌ ببيانِ عظيمِ شأنِه في الشِّدَّةِ والهولِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر)) لابن الأثير (٢/ ٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٢).

- وفي قولِه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ﴾ جمَعَ بينَ ﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾ وبينَ ﴿وَتَنشَقُّ﴾ تفنُّنًا في استعمالِ المُترادفِ؛ لدفعِ ثقَلِ تكريرِ اللَّفظِ. والكلامُ جارٍ على المُبالغةِ في التَّهويلِ مِن فظاعةِ هذا القولِ، بحيثُ إنَّه يبلُغُ إلى الجماداتِ العظيمةِ، فيُغيِّرُ كيانَها[(١)].

٥- قوله تعالى: ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾

- قولُه: ﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ فيه تأكيدُ ما أُفِيدَ من قولِه: ﴿مِنۡهُ﴾، وزيادةُ بَيانٍ لمعادِ الضَّميرِ المجرورِ في قولِه: ﴿مِنۡهُ﴾؛ اعتناءً ببَيانِه[(٢)].

٦- قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾

- لعلَّ تَرتيبَ الحُكمِ بصِفَةِ الرَّحمانيَّةِ، ووضْعَ (الرَّحمنِ) موضِعَ الضَّميرِ؛ للإشعارِ بأنَّ كلَّ ما عداهُ نِعمةٌ ومُنْعَمٌ عليه، فلا يُجانِسُ مَن هو مبدَأُ النِّعمِ كلِّها، ومُولي أُصولِها وفُروعِها؛ فكيف يُمكِنُ أنْ يتَّخِذَه ولدًا؟! ثمَّ صرَّحَ به في قولِه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ...﴾[(٣)].

٧- قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾

- جُملةُ: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾، مُستأنفةٌ ابتدائيَّةٌ؛ لتَهديدِ القائلينَ هذه المقالةَ، فضمائرُ الجمْعِ عائدةٌ إلى ما عاد إليه ضميرُ ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ وما بعدَه، أي: لقد علِمَ اللهُ كلَّ مَن قال ذلك وعَدَّهم؛ فلا يَنفلِتُ أحدٌ منهم من عقابِه[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٠-١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٤).

- إنْ قيل: ما فائدةُ ذِكْرِ العدِّ بعدَ الإحصاءِ، مع أنَّ الإحصاءَ هو العدُّ أو الحصرُ، والحصرُ لا يكونُ إلَّا بعدَ معرفةِ العددِ؟

والجوابُ: له معنًى ثالثٌ وهو العلمُ، كقولِه تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، أي: علِمَ عدَدَ كلِّ شَيءٍ، فالمعنى هنا: لقد علِمَهم، وعَدَّهم عَدًّا[١].

٨- قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾

- قولُه: ﴿ءَاتِيهِ﴾ في صِيغَةِ الفاعلِ من الدَّلالةِ على إتيانِهم ما ليس في صِيغَةِ المُضارعِ لو قيل: يأْتِيه، فإذا كان شأنُه تعالى وشأنُهم كما ذُكِرَ؛ فأنَّى يُتَوهَّمُ احتمالُ أنْ يتَّخِذَ شيئًا منهم ولدًا[٢]؟! وفي ذلك تَعريضٌ بأنَّهم آتونَ لِما يَكْرهون مِن العذابِ والإهانةِ إتيانَ الأعزلِ إلى مَن يتمكَّنُ من الانتقامِ منه[٣].

- وأفردَ سُبحانَه ﴿ءَاتِيهِ﴾ لَمَّا كان المقصودُ الإشارةَ إلى أنَّهم وإنْ أتَوه جميعًا؛ فكلُّ واحدٍ منهم منفردٌ عن كلِّ فريقٍ مِن صاحبٍ أو قريبٍ أو رفيقٍ، بل هو وَحدَه منفردٌ، فكأنَّه إنما أتاه وَحدَه -وإنْ أتاه مع غيرِه- لانقطاعِ تبعيَّتِه للغيرِ، وانفرادِه بشأنِ نفْسِه[٤].



(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٤).
(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢١٥).

الآيات (٩٦-٩٨)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وُدّٗا﴾: أي: محبَّةً، والوُدُّ: محبَّةُ الشيءِ، وتمنِّي كونِه، وأصلُ (ودد): يدلُّ على محبَّةٍ[(١)].

﴿لُّدّٗا﴾: اللُّدُّ: جمعُ ألَدَّ، وهو الخَصِمُ الجَدِلُ، شَدِيدُ الخُصومةِ، وأصلُ (لدد): يدُلُّ على خِصامٍ[(٢)].

﴿تُحِسُّ﴾: أي: ترَى، وتجِدُ، وتعلمُ، والإحساسُ: العلمُ بإحدَى الحواسِّ، وأَحْسَسْتُه: أدركتُه بحاسَّتي[(٣)].

﴿رِكۡزَۢا﴾: أي: صَوتًا خَفيًّا لا يُفهَمُ، وأصلُ (ركز): يدلُّ على صوتٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٤).

قال القاضي عياض: (اللددُ مَأْخوذٌ مِن لَديدَي الوادي، وهما جانِباه؛ لأنَّه كلَّما أخذْتَ عليه جانبًا مِن المحجةِ أَخَذ في جانبٍ آخرَ). ((مشارق الأنوار)) (١/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٣٥) (١٥/ ٦٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٠)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٨)، =

المَعنى الإجماليُّ:

يختمُ الله عزَّ وجلَّ السورةَ ببيانِ ما أعدَّه لعبادِه المؤمنينَ، فيقولُ: إنَّ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ سيجعَلُ لهم الرَّحمنُ محبَّةً في قُلوبِ عبادِه.

ثمَّ يُبيِّنُ الحكمةَ التي مِن أجلِها يسَّر القرآنَ، فيقولُ: فإنَّما يسَّرْنا هذا القرآنَ بلِسانِك العربيِّ -يا محمَّدُ- لتبَشِّرَ به المتَّقينَ بأنَّ لهم الجنَّةَ في الآخرةِ، والكرامةَ في الدُّنيا، وتخوِّفَ به المكَذِّبينَ شَديدي الخُصومةِ بالباطِلِ.

ثمَّ يختمُ ببيانِ سُنَّتِه في الظالمينَ، فيقولُ: وأهلَكْنا كثيرًا من الأُمَمِ السَّابقةِ قبلَ كُفَّارِ قُريشٍ؛ بسَبَبِ كُفرِهم باللهِ وتكذيبِهم رُسُلَه، فهل ترَى منهم أحدًا، أو تَسمَعُ لهم صوتًا خفيًّا، كلا؛ فقد هَلَكوا، فكذلك الكُفَّارُ مِن قَومِك نُهلِكُهم كما أهلَكْنا مَن قَبلَهم إنْ لم يُبادِروا بالتَّوبةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا فُصِّلتْ قبائحُ أحوالِ الكفرةِ؛ عُقِّبَ ذلك بذكْرِ مَحاسنِ أحوالِ المُؤمِنين(١).

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا رَدَّ على أصنافِ الكَفَرةِ، وبالَغ في شَرحِ أحوالِهم في الدُّنيا والآخرةِ؛ ختَمَ السُّورةَ بذِكرِ أحوالِ المؤمنينَ، فقال(٢):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾.

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٦٧).

أي: إنَّ الذين آمنوا باللهِ ورُسُلِه وبما جاؤوا به مِن عندِ اللهِ، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ[(١)]: يُحبُّهم اللهُ، ويجعلُ لهم في الدُّنيا محبَّةً في قلوبِ عِبادِه[(٢)].

---

(١) قال ابن كثير: (هي الأعمالُ التي ترضي اللهَ عَزَّ وجَلَّ؛ لمتابعتِها الشَّريعةَ المحمَّديَّةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).

قال الشوكاني: (﴿وُدًّا﴾ أي: حُبًّا في قلوبِ عبادِه، يجعلُه لهم مِن دونِ أنْ يَطْلُبوه بالأسبابِ الَّتي تُوجِبُ ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١٧).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالودِّ: المحبةُ في قلوبِ العبادِ: القرطبي، وابنُ جُزي، وابنُ رجبٍ، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٨٦)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١٧).

وممن قال مِن السلف: إنها محبةٌ في قلوبِ الناسِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٢).

وذكَر ابنُ جرير، وابنُ كثير، والقاسمي أنها محبةٌ في قلوبِ عبادِه المؤمنين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١١٥).

وممن قال بنحوِ ذلك مِن السلفِ: ابن عباس -في رواية- ومجاهدٌ، وقتادةُ، وهرم بنُ حيان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٢، ٦٤٣).

قال ابنُ عطية: (وقوله: ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدًّا﴾ ذهَب أكثرُ المفسِّرينَ إلى أنَّ هذا هو القبولُ الذي يضعُه الله لمن يحبُّ مِن عبادِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤).

وذهَب ابنُ تيميةَ إلى أنَّ المرادَ أنَّ الله يحبُّهم؛ ويحببُهم إلى عبادِه. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٣٢).

وممن قال بذلك مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ -في رواية-، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٣).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ السياقَ يقتضي وقوعَ تلك المحبةِ في الآخرةِ، فيجعلُ الله للمؤمنين محبةً لبعضِهم بعضًا، وتحبُّهم الملائكةُ.

قال ابنُ عاشور: (يقتضي اتِّصالُ الآياتِ بَعضِها ببعضٍ في المعاني أنَّ هذه الآيةَ وَصفٌ لحالِ =

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبدًا دعا جبريلَ فقال: إنِّي أحبُّ فلانًا فأحِبَّه، فيُحِبُّه جبريلُ، ثمَّ ينادي في السَّماءِ فيقولُ: إنَّ اللهَ يحبُّ فلانًا فأحِبُّوه، فيُحِبُّه أهلُ السَّماءِ، ثمَّ يُوضَعُ له القَبولُ في الأرضِ، وإذا أبغَضَ عبدًا دعا جبريلَ فيقولُ: إنِّي أُبغِضُ فُلانًا فأبغِضْه، فيُبغِضُه جِبريلُ، ثمَّ ينادي في أهلِ السَّماءِ: إنَّ اللهَ يُبغِضُ فُلانًا فأبغِضوه، فيُبغِضونَه، ثمَّ تُوضَعُ له البَغضاءُ في الأرضِ))[١].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ٩٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا احتوَت السُّورةُ على عِبَرٍ وقَصَصٍ وبِشاراتٍ ونُذُرٍ، جاء هنا في التَّنويهِ بالقُرآنِ، وبَيانِ بعضِ ما في تنزيلِه مِن الحِكَمِ[٢].

وأيضًا لَمَّا كان إنزالُ هذا القَولِ الثَّقيلِ ثمَّ تَيسيرُه حِفظًا وعَمَلًا- سَبَبًا لِما جُعِلَ لأهلِ الطَّاعةِ في الدُّنيا مِنَ الوُدِّ، بما لهم مِنَ التحَلِّي والتزَيُّنِ بالصَّالحاتِ، والتخَلِّي والتصَوُّنِ مِنَ السيِّئاتِ؛ الدَّالِّ على ما لهم عندَ مَولاهم مِن عَظيمِ العِزِّ والقُربِ؛ قال[٣]:

= المؤمِنينَ يومَ القيامةِ بِضِدِّ حالِ المُشرِكينَ؛ فيكونُ حالُ إتيانِهم غيرَ حالِ انفرادٍ، بل حالُ تأنُّسِ بَعضِهم ببَعضٍ... وأنَّهم يكونون يومَئذٍ بمَقامِ المودَّةِ والتَّبجيل. فالمعنى: سيَجعَلُ لهم الرَّحمنُ أوِدَّاءَ مِن الملائكةِ، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١]، ويجعَلُ بين أنفُسِهم مودَّةً، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وإيثارُ المصدرِ؛ ليفيَ بعِدَّةِ متعَلِّقاتٍ بالوُدِّ. ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٤- ١٧٥).

(١) رواه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٥١).

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: فإنَّما يسَّرْنا القرآنَ بلُغتِك العربيَّةِ -يا محمَّدُ- وسهَّلْنا قراءةَ ألفاظِه، وفَهْمَ معانيه؛ لتبشِّرَ بالقرآنِ الذين يمتَثِلونَ الأوامِرَ، ويجتَنِبونَ النَّواهيَ بأنَّ لهم الجنَّةَ في الآخرةِ، والعزَّ في الدُّنيا(١).

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾.

أي: وتُنذِرَ بالقُرآنِ -يا محمَّدُ- قَومَك الشَّديدي المخاصَمةِ والمجادلةِ بالباطِلِ لرَدِّ الحَقِّ، فتُحَذِّرَهم من وُقوعِ الهَلاكِ والعذابِ عليهم(٢).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (اللُّدُّ: جمعُ الألَدِّ، وهو الأعوَجُ في المناظَرةِ، الذي يَروغُ عن الحَقِّ). ((الجواب الصحيح)) (٢/ ٧٠).

وقال البقاعي: (الألَدُّ: هو الذي يَتمادى في غَيِّه، ولا يَرجِعُ لدَليلٍ، ويرَكَبُ في عنادِ الحَقِّ ما يَقدِرُ عليه مِنَ الشَّرِّ، ولا يكونُ هذا إلَّا ممَّن يحتَقِرُ مَن يخاصِمُه، ويريدُ أن يجعَلَ الحَقَّ باطِلًا؛ تكبُّرًا عن قَبولِه). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٢٥٢).

لمَّا ذُكِروا بالعنادِ والمُكابَرةِ؛ أُتْبِعَ بالتَّعريضِ بتَهديدِهم على ذلك، بتَذكيرِهم بالأُمَمِ الَّتي استأصَلَها اللهُ لجَبروتِها وتَعنُّتِها؛ لتكونَ لهم قياسًا ومثَلًا[(١)]، فقال تعالى:

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾.

أي: وأهلَكْنا كثيرًا مِن الأُمَمِ الماضيةِ قبلَ كُفَّارِ قُرَيشٍ؛ بسَبَبِ كُفرِهم باللهِ، وتكذيبِهم رُسُلَه، ورُكوبِهم معاصيَه[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦].

﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾.

أي: فهل ترَى -يا محمَّدُ- أو تشعُرُ بشَخصٍ واحدٍ مِن تلك الأُمَمِ الماضيةِ التي أهلَكْناها[(٣)]؟!

كما قال تعالى: ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٨].

﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾.

أي: أو هل تَسمَعُ لهم صَوتًا خَفِيًّا؟! كلا؛ فقد بادوا وهَلَكوا، وبَقِيَت أخبارُهم عِبرةً للمُعتَبِرينَ، ولم يبقَ منهم عينٌ ولا أثَرٌ، قد خلَت منهم دورُهم، وانتقلوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١٨).

إلى دارٍ لا ينفَعُهم فيها إلَّا الإيمانُ والعَمَلُ الصالحُ، فكذلك هؤلاء المُشرِكونَ -يا محمَّدُ- صائرونَ إلى ما صار إليه أولئك، إن لم يبادِروا بالتَّوبةِ قَبلَ وُقوعِ الهلاكِ[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ هذا مِن نِعَمِه تعالى على عبادِه الذين جمعوا بينَ الإيمانِ والعَمَلِ الصالح: أنْ وَعَدَهم أنَّه يجعَلُ لهم وُدًّا، أي: محبَّةً ووِدادًا في قلوبِ أوليائِه، وأهلِ السَّماءِ والأرضِ، وإذا كان لهم في القلوبِ وُدٌّ تيسَّرَ لهم كثيرٌ مِن أمورهم، وحصَل لهم مِن الخيراتِ والدَّعواتِ والإرشادِ والقَبولِ والإمامةِ ما حصل، وإنَّما جعل اللهُ لهم وُدًّا؛ لأنَّهم وَدُّوه، فودَّدَهم إلى أوليائِه وأحبابِه[2].

٢- ختَم الله تعالى السورةَ بموعظةٍ بليغةٍ، فقال: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ لأنَّهم إذا تأمَّلوا وعَلِموا أنَّه لا بدَّ مِن زوالِ الدُّنيا، والانتهاءِ إلى الموتِ؛ خافوا ذلك وخافوا أيضًا سُوءَ العاقبةِ في الآخرةِ، فكانوا فيها إلى الحَذَرِ مِن المعاصي أقرَبَ، ثمَّ أكَّدَ تعالى ذلك فقال: ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ﴾؛ لأنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إذا لم يُحِسَّ منهم أحدًا برؤيةٍ أو إدراكٍ أو وجدانٍ، ولا يسمعُ لهم ركزًا -وهو الصَّوتُ الخَفِيُّ- دَلَّ ذلك على انقراضِهم وفنائِهم بالكُليَّةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٤٧، ٦٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٦٨).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ لَمَّا ذكرَ تعالى أنه يبشِّرُ بالقرآنِ المتَّقينَ، ذكَرَ في مقابلتِه مَن هو في مخالفةِ التَّقوى أبلغُ، وأبلَغُهم الألَدُّ الذي يتمَسَّكُ بالباطِلِ، ويجادِلُ فيه ويتشَدَّدُ(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾

- التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرَّحمانيةِ في قولِهِ: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾؛ لِما أنَّ الموعودَ مِن آثارِها(٢).

- قولُه: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ السِّينُ: إمَّا لأنَّ السُّورةَ مكِّيَّةٌ، وكان المُؤمِنون حينئذٍ مَمْقوتينَ بين الكفرةِ، فوعَدَهم اللهُ تعالى ذلك إذا ظهَرَ الإسلامُ وفشا. وإمَّا أنْ يكونَ ذلك يومَ القيامةِ؛ يُحبِّبُهم إلى خلْقِه بما يُعْرَضُ من حَسناتِهم، ويُنْشَرُ من دِيوانِ أعمالِهم(٣). ولعلَّ إفرادَ هذا بالوعدِ مِن بينِ ما سيُؤْتَون يومَ القيامةِ من الكراماتِ السَّنيَّةِ؛ لِما أنَّ الكفرةَ سيقَعُ بينهم يومئذٍ تباغضٌ وتضادٌّ وتقاطعٌ وتلاعُنٌ(٤). واحتملَ أنْ يكونَ ذلك الوُدُّ في الدُّنيا على الإطلاقِ. وقيل: في الكلامِ حذْفٌ، والتَّقديرُ: سيُدْخِلُهم دارَ كرامتِه،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٤).

ويجعَلُ لهم وُدًّا بسبَبِ نزْعِ الغِلِّ من صُدورِهم، بخلافِ الكُفَّارِ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ إيذانٌ بانتهاءِ السُّورةِ؛ فإنَّ شأْنَ الإتيانِ بكلامٍ جامعٍ بعدَ أفنانِ الحديثِ: أنْ يُؤذِنَ بأنَّ المُتكلِّمَ سيَطْوي بِساطَه. وذلك شأنُ التَّذييلاتِ والخواتمِ، وهي ما يُؤذِنُ بانتهاءِ الكلامِ؛ فلمَّا احتوَتِ السُّورةُ على عِبَرٍ وقصَصٍ، وبشاراتٍ ونُذرٍ، جاء هنا في التَّنويهِ بالقُرآنِ، وبَيانِ بعضِ ما في تَنزيلِه مِن الحِكَمِ؛ فيجوزُ جعْلُ الفاءِ فَصيحةً(٢) مُؤذِنةً بكلامٍ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه المذكورُ، كأنَّه قيل: بلِّغْ ما أنزَلْنا إليك، ولو كرِهَ المُشرِكون ما فيه مِن إبطالِ دِينِهم، وإنذارِهم بسُوءِ العاقبةِ؛ فما أنزلناهُ إليك إلَّا للبشارةِ والنِّذارةِ، ولا تعبَأْ بما يحصُلُ معَ ذلك مِن الغيظِ أو الحقْدِ. ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ للتَّفريعِ على وعيدِ الكافرينَ بقولِه: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٤، ٩٥]، ووعْدِ المُؤمنين بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، والمُفرَّعُ هو مضمونُ ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ...﴾ إلخ ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ...﴾ إلخ، أي: ذلك أثَرُ الإعراضِ عمَّا جئْتَ به مِن النِّذارةِ، وأثَرُ الإقبالِ على ما جئْتَ به مِن البشارةِ ممَّا يسَّرناهُ بلسانِك؛ فإنَّا ما أنزلناهُ عليك إلَّا لذلك(٣). أو الفاءُ لتعليلِ أمرٍ يَنساقُ إليه النَّظمُ الكريمُ؛ كأنَّه قيل بعدَ إيحاءِ السُّورةِ الكريمةِ: بلِّغْ هذا المُنزَّلَ، أو بشِّرْ به وأنذِرْ؛ فإنَّما يسَّرناهُ بلسانِك العربيِّ المُبينِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٠٤).

(٢) الفاءُ الفصيحةُ: هي الدالةُ على محذوفٍ قبلَها، هو سببٌ لما بعدَها، سُمِّيَتْ فصيحةً؛ لإفصاحِها عما قبلَها. وقيل: لأنَّها تدلُّ على فصاحةِ المتكلِّمِ بها. يُنظر: ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) لبهاء الدين السبكي (١/ ٥٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٥-١٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٤).

- وضَميرُ الغائبِ في ﴿يَسَّرْنَٰهُ﴾ عائدٌ إلى القُرآنِ بدلالةِ السِّياقِ، وبذلك عُلِمَ أنَّ التَّيسيرَ تَسهيلُ قِراءةِ القُرآنِ، وهذا إدماجٌ للثَّناءِ على القُرآنِ بأنَّه مُيسَّرٌ للقراءةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[1] [القمر: ١٧].

- وفي قولِه: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ حُسْنُ مُقابلةِ المُتَّقينَ بقومٍ لُدٍّ؛ لأنَّ التَّقوى امْتِثالٌ وطاعةٌ، والشِّركَ عصيانٌ ولَدَدٌ. وفيه تَعريضٌ بأنَّ كُفْرَهم عن عنادٍ، وهم يَعْلمونَ أنَّ ما جاء به محمَّدٌ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو الحقُّ، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. وإيقاعُ لفْظِ (القومِ) عليهم؛ للإشارةِ إلى أنَّ اللَّددَ شأْنُهم، وهو الصِّفةُ الَّتي تقوَّمَت منها قوميَّتُهم[2].

- وعبَّرَ عن الكُفَّارِ بـ(قومٍ لُدٍّ)؛ ذمًّا لهم بأنَّهم أهْلُ إيغالٍ في المِراءِ والمُكابَرةِ، أي: أهْلُ تَصميمٍ على باطِلِهم[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ الجُملةُ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: ٩٧] باعتبارِ ما تضمَّنَته من بِشارةِ المُؤمِنينَ ونِذارةِ المُعاندينَ؛ لأنَّ في التَّعريضِ بالوعيدِ لهم نِذارةً لهم، وبِشارةً للمُؤمِنين باقترابِ إراحتِهم من ضَرِّهم[4]. وقيل: الجُملةُ استئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه، أي: هل تشعُرُ بأحدٍ منهم[5]؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٧٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٧٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٧٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٢٨٤).

- وفي قولِه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا...﴾ تخويفٌ لهم وإنذارٌ بالهلاكِ، وتَجْريءٌ للرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على إنذارِهم(١).

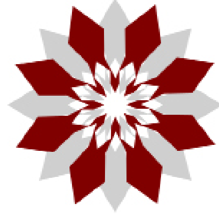
- قولُه: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ معناه النَّفيُ، أي: لا تُحِسُّ(٢).

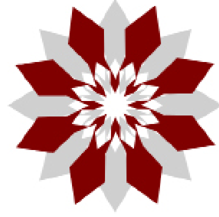
- قولُه: ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ كِنايةٌ عن اضمحلالِهم، كُنِّيَ باضمحلالِ لوازمِ الوُجودِ عنِ اضمحلالِ وُجودِهم(٣).

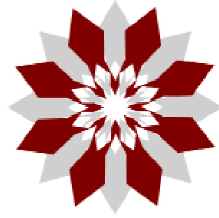
- وممَّا انطوَتْ عليه خواتيمُ سُورةِ مريمَ من فُنونِ البلاغةِ: التَّكرارُ؛ فقد تكرَّرَ ذِكْرُ (الرَّحمنِ) سِتَّ عشْرةَ مرَّةً في السُّورةِ، مُعظمُها في خواتيمِها، والفائدةُ فيه: أنَّه هو الرَّحمنُ وحْدَه، لا يَستحِقُّ هذا الاسمَ غيرُه، وخلَقَ لهم جميعَ مُتطلباتِهم الَّتي بها قوامُ مَعايشِهم، فهلِ اعتبَرَ الإنسانُ، أم لا يزالُ الغطاءُ مَسدولًا على عينيْه، والوَقْرُ يَغْشى أُذنيه؟! فمَن أضاف إليه ولدًا جعَلَه كالأَناسيِّ المخلوقةِ، وأخرَجَه بذلك عن استحقاقِ هذا الاسمِ الجديرِ به وحْدَه(٤).

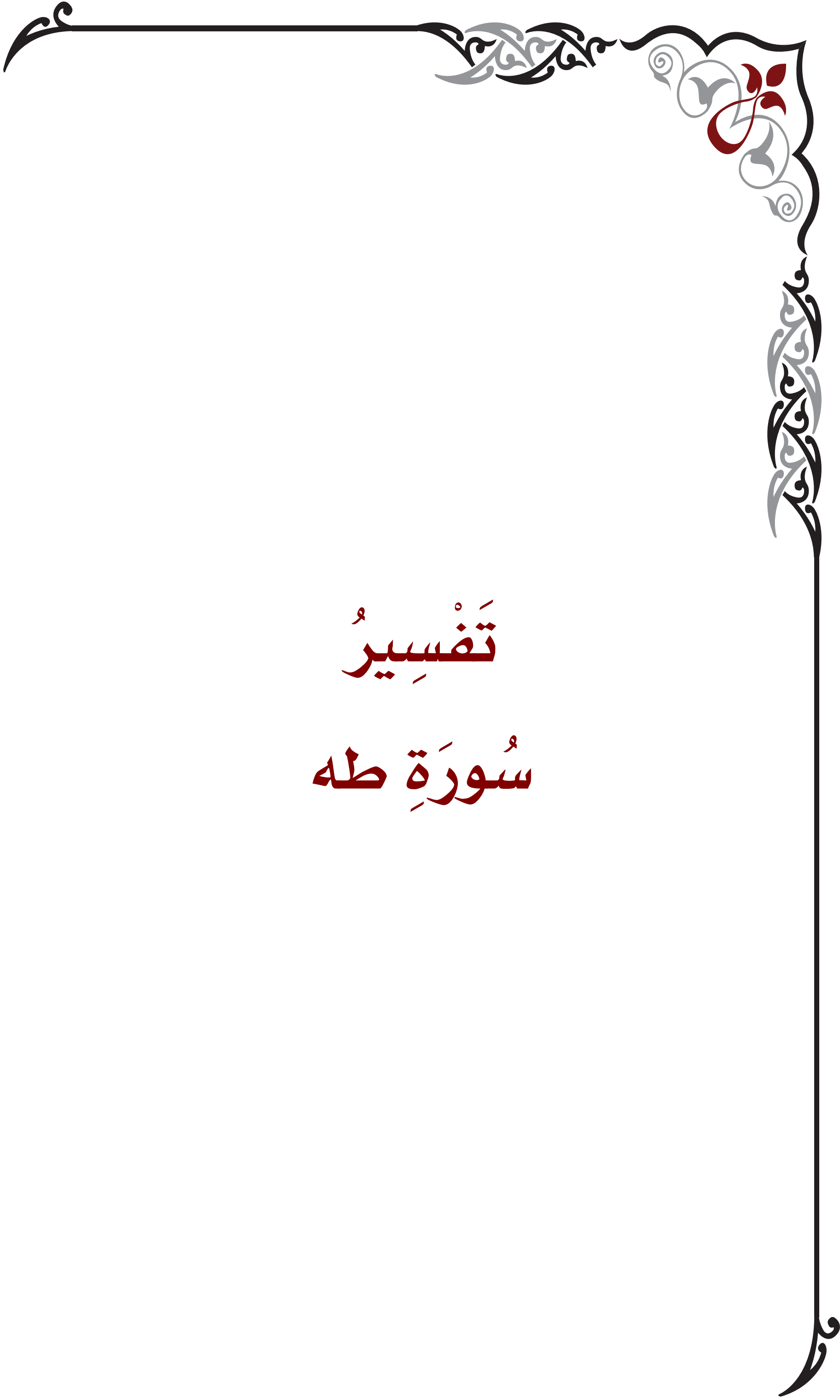


(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٠٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٧٨).
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٥٨).



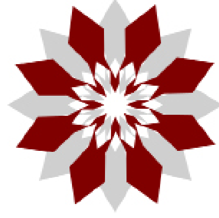


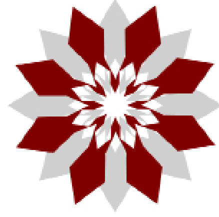


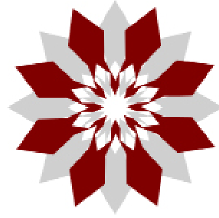


تَفْسِيرُ

سُورَةِ طه







سورةُ طه

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (طه)[١]، ومما يدلُّ على ذلك:

١- عن ابنِ مسعود رضي الله عنه، قَالَ: (بني إسرائيلَ[٢]، والكهفُ، ومريمُ، وطه، والأنبياءُ: هنَّ مِن العِتاقِ[٣] الأُوَلِ، وهنَّ من تِلادي[٤])[٥].

٢- عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: (خرج عمرُ متقلِّدًا بالسَّيفِ، فقيل لهُ: إنَّ خَتَنَك[٦] وأختَكَ قد صبَوَا[٧]، فأتاهما عمرُ وعندهما رجلٌ من المهاجِرينَ يقالُ لهُ: خبَّابٌ، وكانوا يقرؤونَ «طه»، فقال: أعطوني الذي عندَكم فأقرأَه، وكان عمرُ يقرأُ الكتبَ، فقالت لهُ أختُه: إنَّك رِجْسٌ[٨]، ولا يمَسُّه إلَّا المطَهَّرونَ، فقُمْ واغتَسِلْ أو توضَّأْ، فقام عمرُ فتوضَّأَ ثمَّ أخذ الكِتابَ فقرأَ «طه»)[٩].

(١) سُمِّيت هذه السورةُ بـ (طه)؛ لافتتاحِ السورةِ به. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١١).

(٢) (قال: بني إسرائيل) فيه حذفُ المضافِ، وإبقاءُ المضافِ إليه على حالِه، أي: سورةُ بني إسرائيلَ (والكهفُ) بالرفعِ، أي: والثاني الكهفُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢٤٠).

(٣) العِتاق: جمعُ عتيقٍ، وهو القديمُ، أو: هو كلُّ ما بلَغ الغايةَ في الجودةِ، والمرادُ بقولِه: (العِتَاق الأُوَل): السُّوَر الَّتِي أُنْزِلت أوَّلًا بِمَكَّةَ، وأنَّها مِنْ أوَّلِ ما تَعلَّمه مِنَ القرآنِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٧٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٨٨).

(٤) تِلادي: أي: مما حُفِظ قديمًا، والتلادُ: قديمُ المِلكِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٨٨).

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٣٩).

(٦) الخَتَنُ: الصِّهْرُ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٧/ ١٣٣).

(٧) صبَوَا: أي تركَا دِينَك. يقال: صَبَأَ الرَّجُلُ: إذا خرجَ مِن دينٍ إلى دينٍ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٧٢).

(٨) الرِّجْسُ: النَّتْنُ والقَذَرُ وكُلُّ شَيءٍ يُستَقذَرُ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢١٩).

(٩) أخرجه الدارقطني (١/ ١٢٣)، والحاكم (٦٨٩٧)، والبيهقي (٤٢٠). =

فضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

أنَّها مِن السُّوَرِ المتقدِّمِ نزولُها، ومِن قديمِ ما حفِظ الصَّحابةُ وتعلَّموه[١]:

كما في أثرِ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ الله عنه المتقدِّمِ قريبًا.

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ (طه) مكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِي الإجماعُ على ذلك[٣].

مقاصِدُ السورةِ:

من أهمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

رعايةُ اللهِ للمُختارينَ لحَملِ الدعوةِ مِن الرسُلِ وأتباعِهم[٤].

= وقال البيهقي: (له شواهدُ كثيرةٌ)، وجوَّده الزيلعي في ((نصب الراية)) (١/ ١٩٩)، وقال العيني: (إسنادُه صحيحٌ متصلٌ). ((عمدة القاري)) (٣/ ٣٨٧).

(١) قال البقاعي: (ومِن أعظَمِ فَضائِلِها: أنَّ قِراءةَ أوَّلِها كانت سببًا لإسلامِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ الله عنه، وهو الفاروقُ الذي كان إسلامُه فتحًا أيَّد اللهُ به هذا الدِّينَ، ففَرَّق به بينَ الحَقِّ والباطِلِ، فعزَّ به المسلِمون، فرَغِب في الإسلامِ بسَبَبِ ذلك مَن وفَّقَه اللهُ له، وذلك هو عَينُ مَقصودِها). ((مصاعد النظر)) (٢/ ٢٧٩).

(٢) وقيل: مكيةٌ إلا آيتينِ، هما: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ...﴾ [طه: ١٣٠]، و﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ ...﴾ [طه: ١٣١] فمَدنِيَّتانِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧١).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبي، وأبو حيان، والفيروزابادي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٠٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٠)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٥٥).

موضوعاتُ السُّورةِ:

من أهمِّ موضوعات هذه السُّورةِ:

١- التَّنويهُ بعَظَمةِ القُرآنِ الكريمِ وأنَّه منزلٌ مِن الله تعالى.

٢- تفصيلُ الكلامِ عن قصةِ موسَى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإرسالِه إلى فرعونَ، وما جرَى بينَهما مِن حوارٍ، وأمرِ السحرةِ وما آلَ إليه أمرُهم، وما فعَله بنو إسرائيلَ في غَيبةِ موسَى عنهم، وإضلالِ السامريِّ لهم.

٣- ذِكرُ جَزاءِ المُعرِضينَ عن القرآنِ الكريمِ، وذِكرُ شَيءٍ مِن مشاهِدِ يومِ القيامةِ.

٤- بيان مَنزِلةِ القرآنِ، وأنه نزل عربيًّا، وأنَّ الله تعالى صرَّف فيه مِن الوعيدِ.

٥- ذكرُ قصَّةِ خَلقِ آدَمَ.

٦- أمرُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعدةِ أمورٍ؛ منها: الصبرُ، والإكثارُ مِن ذكرِ الله، وعدمُ التطلُّعِ إلى زهرةِ الحياةِ الدنيا، وأمرُ أهلِه بالصلاةِ.

٧- الردُّ على مزاعمِ المشركين، وتهديدُهم بسوءِ العاقبةِ إذا ما استمرُّوا على ضلالِهم.



الآيات (١-٨)

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا
مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى
۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلثَّرَىٰ﴾: أي: التُّرابِ النَّديِّ الرَّطْبِ المُبتلِّ، وهو الذي تحت الظاهِرِ مِن وَجهِ الأرضِ، وأصلُه خِلافُ اليَبَسِ[(١)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ * إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ﴾: في نصبه أوجهٌ:

أحدُها: أنْ يكونَ مَفعولًا مِن أجلِه، والعامِلُ فيه ﴿أَنزَلۡنَا﴾، وكذلك ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾ علةٌ له أيضًا، ولا مانِعَ مِن أنْ يعلَّلَ الفِعلُ بعِلَّتينِ فأكثرَ، ووجبَ مجيءُ الأوَّلِ ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾ مع اللامِ لاختلافِ الفاعِلِ؛ ففاعِلُ الإنزالِ الله سُبحانَه، وفاعِلُ ﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾ الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، ففاتَتْه شريطةُ الانتصابِ، أما الثَّاني ﴿تَذۡكِرَةٗ﴾ فاستكمَلَ شُروطَ النَّصبِ على المفعولِ لأجلِه. والاستِثناءُ مُفرَّغٌ.

الثاني: أنْ يكونَ منصوبًا على الاستثناءِ المُنقَطِع، أي: ما أنزَلْناه لشَقائِك، لكنْ أنزَلْناه تذكِرةً.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٥).

الثالث: أنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعلٍ مُقدَّرٍ، أي: لكنْ ذَكَّرْنا به تَذْكِرةً.

الرابع: أنَّه مصدرٌ في موضِعِ الحالِ مِن الكافِ في ﴿عَلَيْكَ﴾، أو من ﴿الْقُرْآنَ﴾، والاستثناءُ مُفرَّغ، أي: إلَّا مُذَكِّرًا[1].

المَعنى الإجماليُّ:

ابتدأت السورةُ بالحُروفِ المقطَّعةِ، وقد سبق الكلامُ عنها في أوَّلِ سُورةِ (مريمَ)، ثمَّ قال تعالى: ما أنزَلْنا عليك -يا مُحمَّدُ- القرآنَ ليكونَ سَببًا في شقائِك، لكِنْ أنزَلْناه عظةً لمن يخشى الله ويخافُ عِقابَه.

ثمَّ بيَّن الله تعالى مصدرَ هذا القرآنِ، فقال: وقد نُزِّلَ هذا القرآنَ تنزيلًا مِن الله الذي خلَقَ الأرضَ والسَّمواتِ العُلا؛ الرَّحمنُ على العَرشِ ارتفَعَ وعلا، على ما يليقُ بجَلالِه وعَظَمتِه.

ثم أكَّد سبحانَه شمولَ ملكِه، وعمومَ قدرتِه، فقال: له ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ وما بينهما وما تحتَ الأرضِ، وإنْ تجهَرْ -يا مُحمَّدُ- بالقَولِ أو تُخفِه؛ فإنَّ اللهَ لا يَخفى عليه شيءٌ، فهو يعلَمُ السِّرَّ وما هو أخفَى مِن السِّرِّ ممَّا لم يخطُرْ على قُلوبِ العبادِ، فيعلَمُ أنه سيخطرُ ببالِهم.

ثمَّ أثنَى الله سبحانَه على ذاتِه بما هو أهلٌ له، فقال: اللهُ لا معبودَ بحَقٍّ إلَّا هو، له وَحْدَه الأسماءُ الكاملةُ في الحُسنِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿طه ۝١﴾.

(١) يُنظر: ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٨٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٥٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٨)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٥)، ((المجتبى)) للخراط (٢/ ٦٨٤).

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المقطَّعةِ في أوَّلِ تفسيرِ سُورةِ (مريمَ)(١).

(١) ويُنظر ما تقدم من ((التفسير المحرَّر)) (١/ ٦٤).

والقولُ بأنَّ ﴿طه﴾ مِن الحروفِ المقطعةِ، استظهَره أبو حيان، وممَّن اختاره: ابن القيم، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشورٍ، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٠٩)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ١٢٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣).

قال الشنقيطي: (أظهرُ الأقوالِ فيه عندي أنَّه مِن الحروفِ المقطَّعةِ في أوائلِ السُّوَرِ، ويدُلُّ لذلك أنَّ الطَّاءَ والهاءَ المذكورتَيْنِ في فاتحةِ هذه السُّورَةِ، جاءَتا في مواضعَ أُخَرَ لا نزاعَ فيها في أنَّهما مِن الحروفِ المقطَّعةِ، أمَّا الطَّاءُ ففي فاتحةِ «الشُّعراءِ» ﴿طسٓمٓ﴾ [الشعراء: ١]، وفاتحةِ «النَّمْلِ» ﴿طسٓ﴾ [النمل: ١]، وفاتحةِ «القصصِ»، وأمَّا الهاءُ ففي فاتحةِ «مريم» في قولِه تعالَى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١]. ((أضواء البيان)) (٤/ ٣).

ونسب الواحديُّ إلى أكثر المفسِّرينَ أنَّ معنى: ﴿طه﴾ أي: يا رجُلُ، يريدُ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ١٩٩).

قال الواحدي: (وهو قولُ الحسنِ، وعكرمةَ، وسعيدِ بن جُبيرٍ، وقتادةَ، والضَّحَّاكِ، ومجاهدٍ، وابنِ عباس في روايةِ عطاء، والكلبي، غيرَ أنَّ بعضَهم يقولُ: هي بلسانِ الحبشةِ، وبالنَّبَطيَّة، والسُّريانيةِ). ((الوسيط)) (٣/ ١٩٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧١).

وقال الشوكاني بعدَ أن ذكَر كلامَ الواحدي: (وإذا تقرَّرَ أنَّها لهذا المعنَى في لغةٍ مِن لغاتِ العربِ كانت ظاهرةَ المعنَى، واضحةَ الدَّلالةِ، خارجةً عن فواتحِ السُّورِ الَّتي قدَّمْنا بيانَ كونِها مِن المتشابِه...، وهكذا إذا كانت لهذا المعنَى في لغةٍ مِن لغاتِ العجمِ، واستعملَتْها العربُ في كلامِها في ذلك المعنَى كسائرِ الكلماتِ العجمِيَّةِ الَّتي استعمَلَتْها العربُ الموجودَةِ في الكتابِ العزيزِ، فإنَّها صارَتْ بذلك الاستعمالِ مِن لغةِ العربِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٢٠).

وقال ابنُ عاشور: (لا التفاتَ إلى قَولِ من زعموا أنَّه من أسماء النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٣). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٨/ ٥٤).

قال ابنُ عثيمين: (وهذا لا يَصِحُّ نَظَرًا ولا أثَرًا؛ أمَّا عدَمُ صِحَّتِه أثَرًا فلِعَدمِ النَّقلِ؛ فإنَّه لم يأتِ حديثٌ صحيحٌ ولا ضَعيفٌ أنَّ مِن أسماءِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «طه» أبدًا. =

﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢﴾.

أي: ما أنزَلْنا عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- ليكونَ سَببًا في جلْبِ شَيءٍ من الشَّقاءِ لك[(١)].

﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ٣﴾.

أي: إنَّما أنزَلْنا عليك القُرآنَ -يا مُحمَّدُ- تذكيرًا وعظةً لِمن يخشَى اللهَ، ويخافُ عذابَه[(٢)].

= وأمَّا النظَرُ: فلأنَّ «طه» مركَّبٌ مِن حرفينِ مُهمَلينِ هِجائيَّينِ، والحروفُ الهجائيَّةُ ليس لها معنًى، ومِن المعلومِ أنَّ أسماءَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم كُلُّها تحمِلُ معانيَ؛ فليس له اسمٌ صلَّى الله عليه وسلَّم هو علَمٌ مَحضٌ، بل أسماءُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلم كلُّها أعلامٌ وألقابٌ). ((شرح نظم الورقات)) (ص: ١٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٤).

قال ابنُ جُزي: (قيل: إنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قام في الصلاةِ حتى تورَّمت قدماه، فنزلت الآيةُ تخفيفًا عنه، فالشَّقاءُ على هذا إفراطُ التَّعَب في العبادة، وقيل: المرادُ به التأسُّفُ على كُفرِ الكُفَّار، واللَّفظُ عامٌّ في ذلك كلِّه، والمعنى أنَّه نفى عنه جميعَ أنواعِ الشَّقاءِ في الدنيا والآخرة؛ لأنَّه أنزل عليه القرآنَ الذي هو سَبَبُ السعادةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩)، تفسير السمعاني (٣/ ٣١٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٥).

قال السعدي: (إلَّا ليتذكرَ به مَن يخشَى الله تعالى، فيتذكرَ ما فيه مِن الترغيبِ إلى أجلِّ المطالبِ، فيعملَ بذلك، ومِن الترهيبِ عن الشقاءِ والخسرانِ، فيرهبَ منه، ويتذكرَ به الأحكامَ الحسنةَ الشرعيةَ المفصَّلةَ، التي كان مستقرًّا في عقلِه حسنُها مجملًا، فوافَق التفصيلُ ما يجدُه في فطرتِه وعقلِه... والتذكرةُ لشيءٍ كان موجودًا، إلَّا أنَّ صاحبَه غافلٌ عنه، أو غيرُ مستحضِرٍ لتفصيلِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

وقال ابن عاشور: (التذكرةُ: خُطورُ المنسيِّ بالذِّهنِ، فإنَّ التَّوحيدَ مستَقِرٌّ في الفطرةِ والإشراكَ =

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وقال سُبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ٩، ١٠].

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ٤﴾.

أي: نزل هذا القرآنُ تنزيلًا مِنَ الله الذي خلقَ الأرضَ المُنخَفضةَ والسَّمواتِ العاليةَ الرَّفيعةَ[1].

كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢].

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى أنَّه الخالقُ المدبِّرُ الآمِرُ الناهي؛ أخبَرَ عن عظمته وكبريائِه[2]، فقال تعالى:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ٥﴾.

أي: الرَّحمنُ علا وارتفَعَ على عَرشِه، كما يليقُ بجَلالِه[3].

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ٦﴾.

= منافٍ لها، فالدَّعوةُ إلى الإسلامِ تذكيرٌ لما في الفطرةِ أو تذكيرٌ لملَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٥).

وقال ابن عطية: (و﴿يَخْشَىٰ﴾ يتضمَّنُ الإيمانَ والعملَ الصالحَ؛ إذ الخشيةُ باعثةٌ على ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٢، ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا شرح اللهُ تعالى مُلكَه بقَولِه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، والمُلكُ لا ينتَظِمُ إلَّا بالقدرةِ والعِلمِ؛ لا جرم عَقَّبَه بالقدرةِ ثمَّ بالعلمِ[١]، فالقدرةُ لما كانت تابعةً للإرادةِ، وهي لا تنفَكُّ عن العلمِ؛ عقَّب ذلك بإحاطةِ علمِه تعالى بجلياتِ الأمورِ وخفياتِها على سواءٍ[٢]، فقال:

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ٦﴾.

أي: لله وَحْدَه مُلكُ جَميعِ ما في السَّمواتِ، وجميعِ ما في الأرضِ، وما بينَهما وما تحتَ التُّرابِ ممَّا في باطِنِ الأرضِ مِن المخلوقاتِ، وهو المتصَرِّفُ فيهم بتدبيرِه ومشيئتِه وَحْدَه[٣].

﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى أولًا إنشاءَ السَّمواتِ والأرضِ، وذكَرَ أنَّ جميعَ ذلك وما فيهما مُلكُه؛ ذكَرَ تعالى صِفةَ العِلمِ، وأنَّ عِلمَه لا يغيبُ عنه شَيءٌ[٤]، فالآيةُ بيانٌ لإحاطةِ عِلْمِه تعالَى بجميعِ الأشياءِ إثْرَ بَيانِ سَعَةِ سَلْطنتِه، وشُمولِ قُدرتِه لجميعِ الكائناتِ[٥].

وأيضًا لَمَّا كان المُلكُ لا ينتظِمُ غايةَ الانتظامِ إلَّا بإحاطة العلم، وكان المَلكُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٢١، ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥).

من الآدميين قد لا يعلمُ أحوالَ أقصى ملكِه كما يعلمُ أحوالَ أدناه، لاسيما إذا كان واسعًا، ولذلك يختلُّ بعضُ أمرِه؛ أعلَمَ أنَّه سُبحانَه بخلافِ ذلك، فقال حثًّا على مراقبتِه، والإخلاصِ له[١]:

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ٧﴾.

أي: وإنْ تجهَرْ بقولِك -يا مُحمَّدُ[٢]- أو تُسِرَّه، فكُلٌّ سَواءٌ في عِلمِ اللهِ؛ فإنَّه يعلَمُ ما تُسِرُّه النفوسُ، ويعلَمُ ما هو أخفى من السِّرِّ ممَّا لم يخطُرْ على قلوبِ العبادِ، يعلَمُ أنه سيخطرُ ببالِهم كذا وكذا، في وقتِ كذا وكذا[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٦٩).

(٢) وممن ذهب إلى أنَّ الخطابَ للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢).

قال ابن عاشور: (الخطابُ في قولِه ﴿وَإِن تَجْهَرْ﴾ يجوز أنْ يكون خطابًا للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وهو يعمُّ غيرَه، ويجوزُ أنْ يكونَ لغيرِ مُعَيَّنٍ ليعُمَّ كُلَّ مخاطَبٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢، ١٦، ١٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١١١)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وقتادةُ، والضحاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤، ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٥).

وذكر ابنُ الجوزيِّ أقوالًا أخرى، منها: أنَّ السرَّ: ما حدَّثتَ به نفسَك، ﴿وَأَخْفَى﴾: ما لم تلفِظْ به. ونسَبه لسعيدِ بنِ جُبيرٍ. ومنها: أنَّ السرَّ: العملُ الذي يُسِرُّه الإنسانُ مِن الناسِ، وأخفَى منه: الوسوسةُ. ونسَبه لمجاهدٍ. ومنها: أنَّ المرادَ: يعلمُ إسرارَ عبادِه، وقد أخفَى سرَّه عنهم فلا يُعْلَمُ. ونسَبه لزيدِ بنِ أسلَمَ، وابنِه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٥١).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما كان مَن هو بهذه الأوصافِ مِن تمامِ العِلمِ والقُدرةِ رُبَّما ظُنَّ أنَّ له منازعًا؛ نفَى ذلك مُعْلِمًا أنَّ هذا الظَّنَّ باطِلٌ قطعًا لا شُبهةَ له(١).

وأيضًا لَمَّا قرَّرَ كَمالَه المطلَقَ بعُمومِ خَلقِه، وعُمومِ أمْرِه ونهيِه، وعُمومِ رَحمتِه، وسَعةِ عَظَمتِه وعُلُوِّه على عَرشِه، وعُمومِ مُلكِه، وعُمومِ عِلمِه؛ نتَج مِن ذلك أنَّه المستحِقُّ للعبادةِ، وأنَّ عبادتَه هي الحَقُّ التي يُوجِبُها الشَّرعُ والعَقلُ والفِطرةُ، وعبادةُ غيرِه باطِلةٌ، فقال(٢):

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: اللهُ لا معبودَ بحَقٍّ إلَّا هو، ولا يستحِقُّ العبادةَ غيرُه؛ فأخلِصوا له العبادةَ وَحْدَه(٣).

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

أي: لله وَحْدَه الأسماءُ الكثيرةُ الكامِلةُ في حُسنِها، الدَّالَّةُ على صِفاتِ كَمالِه سُبحانَه(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٢). =

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ فليس المقصودُ بالوحيِ، وإنزالِ القُرآنِ عليك، وشَرعِ الشَّريعةِ: أنْ تشقَى بذلك، ويكونَ في الشَّريعةِ تكليفٌ يشُقُّ على المكَلَّفينَ، وتعجِزُ عنه قوى العامِلينَ، وإنما الوحيُ والقرآنُ والشَّرعُ، شَرَعه الرحيمُ الرَّحمنُ، وجعله موصِلًا للسَّعادةِ والفلاحِ والفوزِ، وسهَّله غايةَ التَّسهيلِ، ويسَّرَ كُلَّ طُرقِه وأبوابِه، وجعلَه غِذاءً للقلوب والأرواحِ،

= قال السَّعدي: (مِن حُسنِها أنَّها كلَّها أسماءٌ دالَّةٌ على المدحِ، فليس فيها اسمٌ لا يدُلُّ على المدحِ والحَمدِ، ومن حُسنِها أنَّها ليست أعلامًا مَحضةً، وإنَّما هي أسماءٌ وأوصافٌ، ومن حُسنِها أنَّها دالَّةٌ على الصِّفاتِ الكاملةِ، وأنَّ له مِن كُلِّ صِفةٍ أكمَلَها وأعمَّها وأجَلَّها، ومن حُسنِها أنَّه أمر العبادَ أنْ يَدعُوه بها؛ لأنَّها وسيلةٌ مُقرِّبةٌ إليه، يحِبُّها، ويحِبُّ مَن يُحبُّها، ويحِبُّ من يحفَظُها، ويحِبُّ من يبحَثُ عن معانيها، ويتعَبَّدُ له بها؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

وقال ابنُ عاشور: (قولُه: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾... أي: لا لغَيرِه؛ لأنَّ غيرَه إمَّا أنْ يكون اسمُه مُجرَّدًا من المعاني المدلولةِ للأسماءِ، مثلَ الأصنامِ، وإمَّا أنْ تكون حقائِقُها فيه غيرَ بالغةٍ مُنتهى كَمالِ حَقيقتِها، كاتِّصافِ البَشرِ بالرَّحمةِ والمُلكِ، وإمَّا أنْ يكونَ الاتِّصافُ بها كَذِبًا لا حَقيقةً، كاتِّصافِ البَشرِ بالكِبرِ؛ إذ ليس أهلًا للكِبرِ والجَبَروتِ والعِزَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٢).

وراحةً للأبدان، فتلقَّتْه الفِطَرُ السَّليمةُ والعقولُ المستقيمةُ بالقَبولِ والإذعانِ؛ لعِلمِها بما احتوى عليه مِن الخيرِ في الدُّنيا والآخرةِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾[١].

٢- آياتُ اللهِ الإيمانيةُ القرآنيةُ إنما يَنتَفِعُ بها أهلُ التَّقوى والخشيةِ والإنابةِ ومَن كان قَصدُه اتِّباعَ رضوانِه؛ وأنها يَتذكَّرُ بها مَن يخشاه سُبحانَه، قال تعالى: ﴿طه * مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ * إِلَّا تَذۡكِرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾[٢].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ فيه حَثٌّ على مُراقَبةِ الله تعالى، والإخلاصِ له[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ * إِلَّا تَذۡكِرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ جمَعَ الله لنبيِّه سُبحانَه بينَ إنزالِ القرآنِ عليه وبين نَفْيِ الشَّقاءِ عنه، كما قال في آخِرِها- في حقِّ أتباعِه: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]؛ فالهُدى والفَضلُ والنِّعمةُ والرَّحمةُ مُتلازِماتٌ لا يَنْفَكُّ بعضُها عن بعضٍ، كما أنَّ الضَّلالَ والشَّقاءَ متلازمانِ لا يَنفَكُّ أحدُهما عن الآخَرِ[٤].

٢- كثيرًا ما يُقرَنُ بينَ الخلقِ والأمرِ، كما في قوله: ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ وقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ وذلك أنَّه الخالقُ الآمرُ الناهي، فكما أنَّه لا خالقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٤).

سواه، فليس على الخلقِ إلزامٌ ولا أمرٌ ولا نهيٌ إلَّا مِن خالقِهم، وأيضًا فإنَّ خلقَه للخلقِ فيه التدبيرُ القدريُّ الكونيُّ، وأمرَه فيه التدبيرُ الشرعيُّ الدينيُّ، فكما أنَّ الخلقَ لا يخرجُ عن الحكمةِ، فلم يخلقْ شيئًا عبثًا، فكذلك لا يأمرُ ولا ينهَى إلا بما هو عدلٌ وحكمةٌ وإحسانٌ(١).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ فائدةُ وَصفِ السَّمواتِ بالعُلا: الدَّلالةُ على عِظَمِ قُدرةِ مَن يخلُقُ مِثلَها في عُلُوِّها، وبُعدِ مُرتقاها(٢)؛ إذ لا يُمكِنُ وُجودُ مثْلِها في عُلوِّها مِن غيرِه تعالى(٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ في ذِكرِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه مع عُلُوِّه وعظمَتِه مَوصوفٌ بالرَّحمةِ(٤).

٥- لما كان خطابُ الناسِ لا يتأتَّى إلا بالجهرِ بالكلام، جاء الشرطُ بالجهرِ، فقال: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ﴾، وعلَّق على الجهرِ علمَه بالسرِّ، فقال: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾؛ لأنَّ علمَه بالسرِّ يتضمَّنُ علمَه بالجهرِ، أي: إذا كان يعلمُ السرَّ فأحرَى أنْ يعلمَ الجهرَ، والسِّرُّ مقابِلٌ للجهرِ، كما قال: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾(٥) [الأنعام: ٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ؛ لتَسليتِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٣).

صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا كان يَعْتريه من جِهَةِ المُشرِكين من التَّعبِ؛ فإنَّ الشَّقاءَ شائعٌ في ذلك المَعنى، ولعلَّه عبَّرَ بـ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ بدلًا من (لِتَتْعَبَ)؛ للإشْعارِ بأنَّه أُنزِلَ عليه لِيسعَدَ. وقيل: إنَّه رَدٌّ وتَكذيبٌ للكَفرةِ؛ فإنَّهم لمَّا رأَوا كثرةَ عبادتِه، قالوا: إنَّك لَتَشقَى بترْكِ دِينِنا، وإنَّ القُرآنَ أُنزِلَ عليك لِتَشقى به؛ ففيه تَعريضٌ بأنَّهمُ الأشقياءُ[١].

- قولُه: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ وُقوعُ فِعْلِ ﴿أَنزَلۡنَا﴾ في سياقِ النَّفيِ يَقْتضي عُمومَ مَدْلولِه، وعُمومُ الفعْلِ يَستلزِمُ عُمومَ مُتعلِّقاتِه مِن مفعولٍ ومَجرورٍ؛ فيعُمُّ نفْيَ جميعِ كلِّ إنزالٍ للقُرآنِ فيه شَقاءٌ له، ونفْيَ كلِّ شَقاءٍ يتعلَّقُ بذلك الإنزالِ، أي: جميعِ أنواعِ الشَّقاءِ؛ فلا يكونُ إنزالُ القُرآنِ سببًا في شَيءٍ من الشَّقاءِ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾

- قولُه: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ خُصَّ مَن يَخْشى مع عُمومِ التَّذكرةِ والتَّبليغِ؛ لأنَّهم المُنتفِعون بها[٣]، وفيه: تَنويهٌ بشأْنِ المُؤمِنين الَّذين آمنوا بأنَّهم كانوا من أهْلِ الخشيةِ، ولولا ذلك لَمَا تذكَّروا بالقُرآنِ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾

- قولُه: ﴿تَنزِيلٗا﴾ حالٌ ثانيةٌ، والمقصودُ منها التَّنويهُ بالقُرآنِ، والعِنايةُ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٤-١٨٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٤).

به؛ لِيَنتقِلَ مِن ذلك إلى الكِنايةِ بأنَّ الَّذي أنزَلَه عليك بهذه المَثابةِ لا يَترُكُ نصْرَك وتأْييدَك[١]. وفي قولِه: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ تفخيمٌ وتعظيمٌ لشأْنِ القُرآنِ؛ إذ هو منسوبٌ تَنزيلُه إلى مَن هذه أفعالُه وصِفاتُه، وتَحقيرٌ لمَعبوداتِهم، وتَحريضٌ للنُّفوسِ على الفِكْرِ والنَّظرِ[٢]، فإنَّه تعظُمُ الرِّسالةُ بتعظيمِ حالِ المُرسِلِ؛ ليكونَ المُرسَلُ إليه أقرَبَ إلى الامتِثالِ[٣].

- أشار بالمصدَرِ الجاري على غيرِ الفِعْلِ في قولِه: ﴿تَنزِيلًا﴾، إلى أنَّه يتمهَّلُ عليهم ترفُّقًا بهم، ولا يُنزِلُ هذا القُرآنَ إلَّا تدريجًا؛ إزالةً لشُبَهِهم، وشرْحًا لصُدورِهم، وتَسكينًا لنُفوسِهم، ومَدًّا لمُدَّةِ البركةِ فيهم بتَردُّدِ الملائكةِ الكِرامِ إليهم، كما أنَّه لم يُهْلِكْهم بمَعاصيهم؛ اكتفاءً ببيِّنةِ ما في الصُّحفِ الأُولى، بل أرسَلَ إليهم رسولًا[٤].

- وفي قولِه: ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ الْتِفاتٌ؛ إذ فيها الخُروجُ من ضَميرِ التَّكلُّمِ -وهو في ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾- إلى الغَيبةِ، وفيه عادةُ التَّفنُّنِ في الكلامِ، وهو ممَّا يَحسُنُ؛ إذ لا يَبْقَى على نظامٍ واحدٍ، وجَريانُ هذه الصِّفاتِ على لفْظِ الغَيبةِ والتَّفخيمِ بإسنادِ الإنزالِ إلى ضَميرِ الواحدِ المُعظِّمِ نفْسَه، ثمَّ إسنادُه إلى مَن اخْتُصَّ بصفاتِ العظمةِ الَّتي لم يُشارِكْه فيها أحدٌ، فحصَلَ التَّعظيمُ من الوجهينِ؛ فهو مَسوقٌ لتَعظيمِ شأْنِ المُنزِّلِ عَزَّ وجَلَّ المُستَتْبِعِ لتَعظيمِ شأْنِ المُنزَّلِ، الدَّاعي إلى تَربيةِ المَهابةِ، وإدخالِ الرَّوعةِ المُؤدِّيةِ إلى استنزالِ المُتمرِّدينَ عن رُتْبةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١١).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٧-٨).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٦٧).

العُتوِّ والطُّغيانِ، واستمالتِهم نحوَ الخشيةِ المُفْضِيةِ إلى التَّذكرةِ والإيمانِ[1].

- والعُدولُ عن اسمِ الجَلالةِ أو عن ضَميرِه إلى الموصوليَّةِ ﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ﴾؛ لِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ من تحتُّمِ إفرادِه بالعبادةِ؛ لأنَّه خالقُ المُخاطَبين بالقُرآنِ وغيرِهم ممَّا هو أعظَمُ منهم خلْقًا[2].

- وتَخصيصُ خلْقِه السَّمواتِ والأرضَ بالذِّكرِ -مع أنَّ المُرادَ خلْقُهما بجميعِ ما يتعلَّقُ بهما-؛ لأصالتِهما، واستتباعِهما لِمَا عداهما. وتَقديمُ الأرضِ؛ لكونِها أقرَبَ إلى الحسِّ، وأظهَرَ عنده من السَّمواتِ العُلى[3].

٤- قولُه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ فيه وصْفُه بالرَّحمانيَّةِ بعدَ وصْفِه بخالِقيَّةِ السَّمواتِ والأرضِ؛ للإشعارِ بأنَّ خلْقَهما من آثارِ رحْمتِه تعالى، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ تَنزيلَ القُرآنِ أيضًا مِن أحكامِ رَحمتِه تعالى، كما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾[4] [الرحمن: ١-٢]. وأيضًا اختيرَ وصْفُ (الرَّحمن) لتَعليمِ النَّاسِ به؛ لأنَّ المُشرِكين أنْكَروا تَسميتَه تعالى الرَّحمنَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]. وفي ذِكْرِه هنا، وكثرةِ التَّذكيرِ به في القُرآنِ: بعْثٌ على إفرادِه بالعبادةِ؛ شُكْرًا على إحسانِه بالرَّحمةِ البالغةِ[5].

- و﴿عَلَى﴾ مُتعلِّقةٌ بـ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾؛ قُدِّمَت عليه لمُراعاةِ الفواصلِ[6]؛ ولإفادةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥).

الحصرِ والتخصيصِ، وبيانِ أنَّه سُبحانَه وتعالى لم يستوِ على شيءٍ سوى العَرشِ[1].

- واختيارُ اسمِ (الرَّحمن) هنا دونَ (الرَّحيم)؛ لِمَا في وزْنِ (فَعْلان) من سَعَةِ هذا الوصْفِ، وثُبوتِ جَميعِ معناهُ الموصوفِ به؛ ولهذا يَقْرِنُ استواءَه على العرْشِ بهذا الاسمِ كثيرًا؛ فاستوى على عَرْشِه باسْمِ الرَّحمنِ؛ لأنَّ العرْشَ مُحيطٌ بالمخلوقاتِ قد وسِعَها، والرَّحمةُ مُحيطةٌ بالخلْقِ واسعةٌ لهم؛ فاسْتَوى على أوسَعِ المخلوقاتِ بأوسَعِ الصِّفاتِ؛ فلذلِكَ وسِعَت رَحمتُه كلَّ شَيءٍ ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[2] [الأعراف: ١٥٦].

٥- قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ﴾

- تَقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ للقصْرِ؛ رَدًّا على زعْمِ المُشرِكين أنَّ لآلهتِهم تَصرُّفاتٍ في الأرضِ، وأنَّ للجنِّ اطِّلاعًا على الغيبِ، ولتَقريرِ الرَّدِّ ذُكِرَتْ أنحاءُ الكائناتِ؛ وهي السَّمواتُ والأرضُ، وما بينهما، وما تحْتَ الثَّرى[3].

- وذِكرُ ما تحْتَ الثَّرى مع دُخولِه تحتَ ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لِزيادةِ التَّقريرِ[4].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لدَلالةِ هذه الجُملةِ على سَعَةِ عِلْمِه تعالى، كما دلَّتِ الجُملةُ المعطوفُ عليها على عَظِيمِ سُلْطانِه وقُدرتِه، وأصْلُ النَّظْمِ: ويعلَمُ

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥).

السِّرَّ وأخْفى إنْ تَجهَرْ بالقولِ؛ فموقِعُ قولِه: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ مَوقِعُ الاعتراضِ بين جُملةِ ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ وجُملةِ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ فَصِيغَ النَّظمُ في قالِبِ الشَّرطِ والجَزاءِ؛ زِيادةً في تَحقيقِ حُصولِه على طَريقةِ ما يُسمَّى بالمذهبِ الكلاميِّ، وهو سَوقُ الخبرِ في صِيغَةِ الدَّليلِ على وُقوعِه؛ تَحقيقًا له[1].

- وطابَقَ الجَزاءُ الشَّرطَ؛ لأنَّ معناهُ: وإنْ تجهَرْ بذِكْرِ اللهِ من دُعاءٍ أو غيرِه، فاعْلَمْ أنَّه غَنِيٌّ عن جَهْرِك؛ فإمَّا أنْ يكونَ نَهْيًا عن الجَهْرِ، كقولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وإمَّا تعليمًا للعِبادِ أنَّ الجَهْرَ ليس لإسماعِ اللهِ، وإنَّما هو لغرضٍ آخرَ[2].

- واختِيرَ في إثباتِ سَعَةِ عِلْمِ اللهِ تعالى خُصوصُ عِلْمِه بالمسموعاتِ؛ لأنَّ السِّرَّ أخْفى الأشياءِ عن عِلْمِ النَّاسِ في العادةِ، و(أَخْفَى) اسمُ تَفضيلٍ، وحُذِفَ المُفضَّلُ عليه؛ لدَلالةِ المَقامِ عليه، أي: وأخْفى منَ السِّرِّ[3]، وتَنكيرُه؛ للمُبالغةِ في الخَفاءِ[4].

٧- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ أنَّ ما ذُكِرَ من صِفاتِ الكَمالِ مَوصوفُها ذلك المعبودُ بالحقِّ، أي: ذلك المَنْعوتُ بما ذُكِرَ منَ النُّعوتِ الجليلةِ اللهُ عَزَّ وجَلَّ. وقولُه تعالَى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تَحقيقٌ للحقِّ، وتَصريحٌ بما تضمَّنَه ما قبْلَه مِن اختصاصِ الأُلوهيَّةِ به سُبحانه؛ فإنَّ ما أُسنِدَ إليه تعالى مِن خلْقِ جميعِ الموجوداتِ، والرَّحمانيَّةِ، والمالكيَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٨-١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٠- ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥).

للكلِّ، والعلْمِ الشَّاملِ: ممَّا يَقْتضيه اقتضاءً بيِّنًا(١).

- وهو تَذييلٌ لِمَا قبْلَه؛ لأنَّ ما قبْلَه تضمَّنَ صِفاتٍ من فِعْلِ اللهِ تعالى، ومن خلْقِه، ومِن عَظَمَتِه؛ فجاء هذا التَّذييلُ بما يَجمَعُ صِفاتِه(٢).

- وقولُه: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بيانٌ لكونِ ما ذُكِرَ من الخالقيَّةِ والرَّحمانيةِ والمالكيَّةِ والعالِميَّةِ أسماءَه وصِفاتِه، من غيرِ تعدُّدٍ في ذاتِه تعالى(٣).

- وتَقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ للاختصاصِ، أي: لا لغيرِه. ووصْفُ الأسماءِ بالحُسْنى؛ لأنَّها دالَّةٌ على حقائقَ كاملةٍ بالنِّسبةِ إلى المُسمَّى بها، تعالى وتقدَّسَ(٤).



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٢).

الآيات (٩-١٦)

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا
لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠
رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣
إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ
أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ
فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ءَانَسْتُ﴾: أي: أبصَرتُ، والإيناسُ: الرُّؤيةُ، والعِلمُ، والإحساسُ بالشَّيءِ[١].

﴿بِقَبَسٍ﴾: أي: بشُعلةٍ مِن النَّارِ، مِن قَولِهم: قَبَسْتُه نارًا: إذا جِئتَه بها[٢].

﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾: طُوى هو اسمُ الوادي، أو مصدرٌ، كقولِك: ناديتُ طُوى، أي: مرَّتين، أي: قُدِّس مرتين، والمقدَّس: المطهَّر، وأصلُ (قدس): طُهْرٌ[٣].

﴿فَتَرْدَىٰ﴾: أي: تَهلِكَ، والرَّدَى: الموتُ والهلاكُ، وأصلُ (ردي): يدُلُّ على رَميٍ وتَرامٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٠، ٢٧٧، ٣٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٨)، =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا قصةَ موسَى عليه السلامُ بشيءٍ مِن التفصيلِ: وهل أتاك -يا مُحمَّدُ- خبَرُ موسى حين رأى نارًا مُوقَدةً في ليلةٍ مُظلِمةٍ، فقال لأهلِه: انتَظِروا لقد أبصرتُ نارًا، لعلِّي أجيئُكم منها بشُعلةٍ تَستَدفِئونَ بها، أو أجِدُ عندها هاديًا يدُلُّنا على الطَّريقِ.

فلمَّا أتى موسى تلك النَّارَ ناداه الله: يا موسى، إنِّي أنا ربُّك، فاخلَعْ نَعلَيك؛ لأنَّك بوادي «طُوًى» المطَهَّرِ المُبارَكِ، وإنِّي اخترتُك -يا موسى- لرسالتي وكلامي، فاستَمِعْ لِما يُوحَى إليك مِنِّي، إنَّني أنا اللهُ لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا أنا، لا شريكَ لي؛ فاعبُدني وحدي، وأقِمِ الصَّلاةَ لتَذكُرَني فيها.

ثمَّ بيَّن سبحانه أنَّ الساعةَ آتيةٌ، وحذَّر مِن عدمِ الاستعدادِ لها فقال: إنَّ القيامةَ آتيةٌ لا بُدَّ مِن وُقوعِها، أكادُ أُخفيها مِن نَفسي، فلا يَعلَمُها أحَدٌ. تقومُ السَّاعةُ لكي تُجزى كلُّ نفسٍ بما عَمِلَت في الدُّنيا من خيرٍ أو شَرٍّ، فلا يَصرِفَنَّك -يا موسى- عن الإيمانِ بها والاستعدادِ لها مَن لا يصَدِّقُ بوُقوعِها، ولا يعمَلُ لها، واتَّبَعَ شهواتِه؛ فتَهلِكَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما عظَّمَ الله تعالى حال القرآنِ وحال الرسولِ فيما كلَّفه؛ أتبع ذلك بما يقَوِّي قَلبَ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم مِن ذِكرِ أحوال الأنبياءِ عليهم السَّلامُ؛ تقويةً

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٩).

لقَلبِه في الإبلاغِ، وبدأ بموسى -عليه السلام- لأنَّ المِحنةَ والفِتنةَ الحاصلة له كانت أعظَمَ؛ ليُسَلِّيَ قَلبَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بذلك، ويصَبِّرَه على تحمُّلِ المكارهِ[١].

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ ﴾.

أي: وهل أتاك[٢] -يا مُحمَّدُ- خبَرُ موسى[٣]؟

﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ ﴾.

﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾.

أي: حين رأى نارًا -وهو مسافِرٌ مِن مَدينَ إلى مِصرَ في ليلةٍ مُظْلِمةٍ باردةٍ- فقال لزوجتِه ووَلَدِه: أقيموا أنتم في مكانِكم، فقد أبصرتُ نارًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٣).
وقال أبو السعودِ: (وأمَّا ما قيل من أنَّ ذلك لترغيبِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم في الائتِساءِ بموسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في تحمُّلِ أعباءِ النُّبوَّةِ، والصَّبرِ على مقاساةِ الخُطوبِ في تبليغِ أحكامِ الرِّسالةِ: فيأباه أنَّ مَساقَ النَّظمِ الكريمِ لصَرفِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن اقتِحامِ المشاقِّ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦).

(٢) قال الشربيني: (هذا محتمِلٌ لأن يكونَ هذا أوَّلَ ما أُخبِرَ به مِن أمرِ موسى فقال: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ ﴾ أي: لم يأتِك إلى الآن فتنبَّه له، وهذا قولُ الكلبيِّ، ومحتملٌ أنْ يكونَ قد أتاه ذلك في الزمانِ المتقدِّمِ، فكأنَّه قال: أليس قد أتاك؟ وهذا قولُ مقاتلٍ والضحاكِ عن ابنِ عباسٍ). ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨، ٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٤). =

﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾.

أي: وأنا ذاهبٌ إليها رجاءَ أنْ أجلِبَ منها شعلةً تَستَدفِئونَ بها[١].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾.

أي: أو رجاءَ أنْ ألقَى عندَ تلك النَّارِ ما يَهديني الطريقَ الذي ضَلَلْناه[٢].

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١﴾.

أي: فلما أتَى موسى إلى النَّارِ ناداه اللهُ، فقال: يا موسى[٣]!

= قال ابن عاشور: (والأهلُ: الزوجُ والأولادُ، وكانوا معه بقرينةِ الجمعِ في قولِه: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٤).

قال ابنُ جرير: (قوله: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه: ١٠] دلالةٌ تدلُّ على الطريقِ الذي أضلَلْناه؛ إمَّا مِن خبرِ هادٍ يهدينا إليه، وإمَّا مِن بيانٍ وعلمٍ نتبيَّنُه به ونَعرِفُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣). =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النمل: ٨، ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

وقال عز وجل: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢].

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢﴾.

أي: إني أنا ربُّك الذي يكَلِّمُك ويخاطِبُك -يا موسى- فاخلَعْ نَعلَيك؛ لأنَّك بالوادي المُطَهَّرِ المبارَك المُسمَّى طُوًى[1].

= قال السعدي: (﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي: النَّارَ التي آنسَها من بعيدٍ، وكانت -في الحقيقة- نورًا، وهي نارٌ تَحرِق وتُشرِق، ويدلُّ على ذلك قولُه صَلَّى الله عليه وسَلَّم: «حِجابُه النورُ أو النَّارُ، لو كَشَفَه لأحرَقَت سُبُحاتُ وَجهِه ما انتهى إليه بصَرُه»). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥، ٢٦، ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٦-٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).

قال الواحدي عن ﴿طُوٗى﴾: (قال ابنُ عبَّاس: هو اسمُ الوادي. وهو قَولُ جميعِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٤/ ٣٦٩).

وقال ابنُ جرير: (أمَرَه الله -تعالى ذِكرُه- بخَلعِ نَعلَيه ليباشِرَ بقَدَميه بركةَ الوادي؛ إذ كان واديًا مُقَدَّسًا، وإنما قلنا: ذلك أولى التأويلينِ بالصواب؛ لأنَّه لا دلالةَ في ظاهِرِ التنزيلِ على أنَّه أُمِرَ بخلعِهما مِن أجلِ أنهما مِن جِلدِ حِمارٍ، ولا لنجاسَتِهما! ولا خبَرَ بذلك عمَّن يلزَمُ بقَولِه الحُجَّة، وإنَّ في قَولِه ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ بعَقِبه دَليلًا واضِحًا على أنه إنما أمَرَه بخَلْعِهما لِما ذَكَرْنا). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥).

وقال ابنُ عطية: (تحتملُ الآيةُ معنى آخرَ هو الأليقُ بها عندي، وذلك أنَّ الله تعالى أمره أنْ يتواضعَ لعظمِ الحالِ التي حصَل فيها، والعرفُ عندَ الملوكِ أنْ تُخلعَ النعلانِ، ويبلغَ الإنسانُ إلى غايةِ تواضعِه، فكأنَّ موسى عليه السلام أُمِرَ بذلك على هذا الوجهِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٩).

وقال ابنُ كثير: (قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وأبو ذرٍّ، وأبو أيوبَ، وغيرُ واحدٍ مِن السلفِ: كانتا =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥، ١٦].

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣﴾.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾.

أي: وأنا اخترتُك -يا موسى- مِن بينِ النَّاسِ للنبُوَّةِ والرِّسالةِ، وسَماعِ كلامي مُباشَرةً[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤].

﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾.

أي: فأنصِتْ -يا موسى- مُلقيًا سَمْعَك ومُعمِلًا قَلْبَك لوعْيِ ما أُوحِيه إليك الآنَ مِن كلامي[2].

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ١٤﴾.

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾.

= مِن جِلدِ حمارٍ غيرِ ذَكيٍّ. وقيل: إنما أمَرَه بخلعِ نعليه تعظيمًا للبقعةِ. قال سعيدُ بنُ جبيرٍ: كما يُؤمَرُ الرجلُ أنْ يخلعَ نعلَيهِ إذا أراد أنْ يدخُلَ الكعبةَ. وقيل: ليطأَ الأرضَ المقدَّسة بقدميه حافيًا غيرَ مُنتَعِلٍ. وقيل غير ذلك، والله أعلم)). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).

أي: إنَّني أنا اللهُ الذي لا معبودَ بحقٍّ غيري، ولا يستحقُّ العبادةَ أحدٌ سِواي[١].

﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾.

أي: فأخلِصْ لي وَحْدي جميعَ أنواعِ العبادةِ -يا موسى- وقُمْ بعبادتي دونَ أنْ تُشرِكَ بي شيئًا[٢].

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾.

أي: وأقِمِ الصَّلاةَ -يا موسى- لأجلِ أنْ تذكُرَني فيها، متى ما ذكَرْتَ أنَّ عليك صلاةً[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠١).

وقال ابن عاشور: (الذكرُ يجوزُ أنْ يكونَ بمعنى التذكرِ بالعقلِ، ويجوزُ أنْ يكونَ الذكرُ باللسانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠١).

قال ابن الجوزي: (﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أقِمِ الصلاةَ متى ذكرتَ أنَّ عليكَ صلاةً، سواء كنتَ في وقتِها أو لم تكنْ، هذا قولُ الأكثرينَ.

والثاني: أقِمِ الصلاةَ لتَذْكُرَني فيها، قاله مجاهدٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٥٤).

ونسَب القولَ الأوَّل أيضًا ابنُ عبدِ البرِّ إلى أكثرِ أهلِ العلمِ، ونسَبه الواحدي إلى عامةِ المفسرينَ. يُنظر: ((الاستذكار)) لابن عبد البر (١/ ٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٠٢).

ويشهدُ لمعناه حديثُ أنس أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((إذا رَقَد أحَدُكم عن الصَّلاةِ، أو غَفَل عنها، فلْيُصَلِّها إذا ذكَرَها؛ فإنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾)) أخرجه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤) واللفظ له.

وممن اختار القولَ الثاني: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ قتيبةَ، وابنُ جريرٍ، وابنُ رجب، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٢)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ١٣٣)، ((تفسير =

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكر الله تعالى الأمرَ بالعبادةِ، وإقامةِ الصلاةِ؛ ذكَرَ الحامِلَ على ذلك وهو: البَعثُ والمعادُ للجَزاءِ[(١)]، فعَلَّل الأمرَ بالعبادةِ بأنَّه لم يخلُقِ الخَلقَ سُدًى، بل لا بُدَّ مِن إماتتِهم ثمَّ بَعْثِهم؛ لإظهارِ العَظَمةِ، ونَصبِ مَوازينِ العَدلِ[(٢)].

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾.

أي: إنَّ السَّاعةَ التي يُبعَثُ فيها الخلائِقُ مِن قُبورِهم لموقِفِ القيامةِ آتيةٌ لا محالةَ، وأكاد أستُرُها مِن نفسي، فلا يمكِنُ لأحدٍ أنْ يطَّلِعَ عليها[(٣)].

= القاسمي)) (٧/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).

قال ابن القيم: (قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾. قيل: المصدرُ مضافٌ إلى الفاعلِ، أي: لأذكرَك بها، وقيل: مضافٌ إلى المذكورِ، أي: لتذكروني بها. واللامُ على هذا لامُ التعليلِ.

وقيل: هي اللامُ الوقتيةُ، أي: أقمِ الصلاةَ عندَ ذكري، كقولِه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]... والأظهرُ أنَّها لامُ التعليلِ، أي: أقمِ الصلاةَ لأجلِ ذكري. ويلزمُ مِن هذا أنْ تكونَ إقامتُها عندَ ذكرِه، وإذا ذكَرَ العبدُ ربَّه، فذكرُ الله تعالى سابقٌ على ذكرِه، فإنَّه لما ذكرَه ألهَمه ذكرَه، فالمعاني الثلاثةُ حقٌّ). ((الوابل الصيب)) (ص: ٧٤).

وقال الجصاص بعد أنْ ذكر أنَّ المعاني التي ذكرها المفسرون غير متنافية: (فكأنَّه قال: أقِمْ الصَّلاةَ إذا ذكرْتَ الصَّلاةَ المنسِيَّةَ؛ لتذكُرَني فيها بالتَّسبيحِ والتَّعظيمِ؛ لأنْ أذكُرَكَ بالثَّناءِ والمدحِ؛ فيكونُ جميعُ هذه المعاني مرادةً بالآيةِ). ((أحكام القرآن)) للجصاص (٥/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٤، ٣٧)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١٠/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣). =

﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾.

أي: إنَّ السَّاعةَ آتيةٌ؛ لتنالَ كلُّ نفسٍ جزاءَ ما تعمَلُه في الدُّنيا مِن خيرٍ وشرٍّ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧- ٨].

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

أي: فلا يَصرِفنَّكَ -يا موسى- عن الإيمانِ بالسَّاعةِ، والاستعدادِ لها مَنْ لا يُقِرُّ بقيامِها، ولا يُصدِّقُ بها، فلا يرجو ثوابًا، ولا يخافُ عقابًا، واتَّبَعَ شَهَواتِه، وخالَف أمْرَ اللهِ ونَهْيَه؛ فتَهلِكَ(٢).

= قال ابنُ عطية: (الساعةُ في هذه الآيةِ القيامةُ، بلا خلافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٩، ٤٠).

وممن ذهب إلى أنَّ معنى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي: مِن نفسي: ابنُ قتيبةَ، وابنُ جريرٍ، وابنُ تيميةَ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة. وقد نسبه الواحديُّ إلى أكثر المفسِّرينَ، فقال: (قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قال أكثرُ المفسرينَ: «أُخفيها من نفسي»، وهذا قولُ سعيدِ ابنِ جُبيرٍ، ومجاهدٍ، وعطاءِ بنِ السائبِ. وهذا التفسيرُ موافقٌ لما رُويَ: أنَّ في مصحف أُبيٍّ: «أكادُ أُخفيها مِن نفسي، فكيفَ يعلَمُها مخلوقٌ»، وفي بعضِ القراءاتِ: «أكادُ أُخفيها مِن نفسي، فكيفَ أُظهِرُكم عليها»). ((البسيط)) (١٤/ ٣٧٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٧).

وقال الواحدي: (على هذا معنى الآيةِ: إنَّ الله تعالى بالغَ في إخفاء الساعة، فذكَرَه بأبلغِ ما تعرِفُه العَرَبُ في مثلِه... والمعنى: أنه لم يُطلِعْ على وقتِ قيامِ الساعة ملكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا، حتى لو جاز أنْ يُخفِيَه عن نفسه أخفاها. قال ابنُ الأنباري: والمعنى في إخفائِها التهويلُ والتخويفُ؛ لأنَّ النَّاسَ إذا لم يعلموا متى تقومُ الساعةُ كانوا على حَذَرٍ منها كلَّ وقتٍ. هذا معنى قولِ المفسرينَ في هذه الآيةِ. و«كاد» -على قولِهم- للمُقاربةِ). ((البسيط)) (١٤/ ٣٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣). =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أي: أَقِم الصَّلاةَ لأجلِ أنْ تذكُرَني؛ فالصَّلاةُ تُذكِّرُ العبدَ بخالِقِه؛ إذ يستشعِرُ أنَّه واقفٌ بين يَدَي الله لمناجاته، ففي هذا الكلامِ إيماءٌ إلى حِكمةِ مَشروعيَّةِ الصَّلاةِ، وبضَميمتِه إلى قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] يظهر أنَّ التقوى مِن حكمةِ مَشروعيَّةِ الصَّلاةِ؛ لأنَّ المكَلَّفَ إذا ذكَرَ أمرَ اللهِ ونَهْيَه، فعَلَ ما أمَرَه، واجتنَبَ ما نهاه عنه، والله عَرَّف موسى حِكمةَ الصَّلاةِ مجملةً، وعَرَّفَها مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم مُفَصَّلةً[1].

٢- قوله تعالى: ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ أي: أقم الصلاةَ لأجلِ ذكرك إياي؛ لأنَّ ذكرَه تعالى أجلُّ المقاصدِ، وهو عبوديةُ القلبِ، وبه سعادتُه، فالقلبُ المعطلُ عن ذكرِ الله، معطلٌ عن كلِّ خيرٍ، وقد خرِب كلَّ الخرابِ، فشرَع الله للعبادِ أنواعَ العباداتِ، التي المقصودُ منها إقامةُ ذكرِه، وخصوصًا الصلاةَ. قال الله تعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ

= قال ابن عطية: (هذا الخطابُ كلُّه لموسى عليه السلامُ وكذلك ما بعدَه، وقال النقَّاش: «الخطابُ بـ ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ لمحمد عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ»، وهذا بعيد). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠).

وممَّن نصَّ على أنَّ الخطاب هنا لموسى عليه السَّلام: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الخطاب لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: مقاتلُ بنُ سليمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤).

وقال ابنُ كثير: (المرادُ بهذا الخطابِ آحادُ المكَلَّفين، أي: لا تتَّبِعوا سبيلَ مَن كَذَّب بالساعةِ، وأقبَل على ملاذِّه في دنياه، وعصَى مولاه، واتَّبعَ هواه، فمَن وافَقَهم على ذلك فقد خاب وخَسِر). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠١).

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] أي: ما فيها مِن ذكرِ الله أكبرُ مِن نهيها عن الفحشاءِ والمنكرِ، وهذا النوعُ يُقال له: توحيدُ الألوهية، وتوحيدُ العبادةِ، فالألوهيةُ وصفُه تعالى، والعبوديةُ وصفُ عبدِه(١).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ فيه تنبيهٌ وإشارةٌ إلى التَّحذيرِ عن كُلِّ داعٍ إلى باطِلٍ، يصُدُّ عن الإيمانِ الواجِبِ، أو عن كَمالِه، أو يُوقِعُ الشُّبهةَ في القَلبِ، وعن النَّظَرِ في الكُتُبِ المُشتَمِلةِ على ذلك(٢).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن ترَكَ المراقبةَ لَحظةً حاد عن الدَّليلِ، ومن حاد عن الدَّليلِ هلك(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى عن موسى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ كان مطلَبُه النَّورَ الحِسيَّ، والهدايةَ الحِسيَّةَ، فوجَدَ ثَمَّ النُّورَ المعنويَّ؛ نورَ الوَحيِ الذي تستنيرُ به الأرواحُ والقُلوبُ، والهدايةَ الحقيقيَّةَ؛ هدايةَ الصِّراطِ المستقيمِ، المُوصِلةَ إلى جنَّاتِ النَّعيمِ، فحصل له أمرٌ لم يكُنْ في حِسابِه، ولا خطَرَ ببالِه(٤).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ يُستدَلُّ به على استِحبابِ المشيِ حافيًا في البِقاعِ الشَّريفةِ(٥)، وذلك بناء على أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٦).

الأمرَ بالخلعِ كان تعظيمًا للبقعةِ.

٣- في قَولِه تعالى -عن موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ دليلٌ على أنَّ طَلَبَ النَّارِ مباحٌ، ولا يكونُ في عِدَادِ المسألةِ المذمومةِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ حُجةٌ على مَن يقولُ بخَلْقِ القرآنِ، ويزعمُ أنَّ اللهَ لا يجوزُ عليه الكلامُ! فيقالُ له: مَن نادَى موسى بهذا النداءِ؟ فإنْ قال: لم ينادِه ربُّه، إنَّما ناداه بعضُ ملائكتِه، قيل: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠﴾ راجِعٌ على مَن؟ فإنْ قال: على المَلَك، كَفَرَ حيثُ جعلَه ربَّ موسى -ولنْ يقولَه إنْ شاء الله- وإنْ قال: هو راجعٌ على الله -جلَّ اللهُ- قيل له: أفيجوزُ أنْ يكونَ ذلك راجعًا عليه، والنداءُ مِن غيرِه؟ فإنْ قال: لا يجوزُ، إنَّه محالٌ، أقرَّ بأنَّ اللهَ متكلمٌ وأنَّ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ وكلَّ ما بعدَه مِن: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ مِن الابتداءِ والجوابِ لموسى، هو كلامُه سُبحانَه، وكلامُه لا يكونُ مخلوقًا؛ لأنَّه صفةٌ مِن صفاتِه، ولا يجوزُ عندنا -وعنده وعند مَن يؤمنُ به- أنْ يكونَ شيءٌ مِن صفاتِه مخلوقًا، ولو كان: «نودِيَ يا موسى، إنه هو ربُّك، وهو اختارك، أنَّه لا إله إلا هو فاعبده، وأقِمِ الصلاةَ لذِكْرِه» وكلُّ ما بعده على هذا المعنى؛ لكان قولُه حينئذٍ أوجهَ في المخلوقِ في حقِّ الكلامِ -وإنْ كان خطأً مِن كلِّ جهةٍ- فهذا وما يشاكلُه في القرآنِ واضحٌ بلا شبهةٍ: أنَّ اللهَ متكلِّمٌ ناطقٌ، وإذا كان متكلمًا ناطقًا، فما خَرَجَ منه مِن كلامِه كان غيرَ مخلوقٍ[٢].

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٨٢).

٥- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ دليلٌ على تكليمٍ سَمِعَه موسى، والمعنى المجرَّدُ لا يُسمَعُ بالضرورةِ، ومن قال إنه يُسمَعُ فهو مكابِرٌ، ودليلٌ على أنَّه ناداه، والنداءُ لا يكونُ إلا صوتًا مَسموعًا، ولا يُعقَلُ في لغة العربِ لَفظُ النداءِ بغَيرِ صَوتٍ مَسموعٍ[(١)]، وأيضًا فالله تعالى أمَر بالاستماعِ إلى ما يُوحَى، والاستماعُ عندَ العربِ لا يكونُ إلَّا إلى صوتٍ وحرفٍ، ولا يكونُ الاستماعُ إلى الصفةِ القائمةِ بالذاتِ؛ لأنَّ ذلك لا يُعقلُ، ألا ترَى أنَّه لو قال: استمِعْ إلى بصرِ الله وسمعِه وحياتِه وقدرتِه؛ لكان ذلك محالًا مِن الكلامِ، وهي صفاتٌ قائمةٌ بالذَّاتِ، وأيضًا فإنَّ الله أخبَر عمَّا أمَره بالاستماعِ إليه، فقال: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ فجمَع بالآيةِ بينَ الإخبارِ بأنَّه لا إلهَ إلَّا هو، وأنَّ الساعةَ آتيةٌ، وأنَّه يُخفيها وتُجزى كلُّ نفسٍ بما تسعَى، وبينَ أمرِه له بالعبادةِ، وإقامةِ الصلاةِ لذكرِه، وهذه معانٍ مختلفةٌ[(٢)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ دليلٌ على أنَّ كلامَ اللهِ حروفٌ؛ فإنَّ هذه الكَلِماتِ حروفٌ، وهي كلامُ اللهِ[(٣)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ * إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ دلالةٌ على أنَّ موسى سَمِعَ كلامَ اللهِ مِن اللهِ بلا واسِطةٍ[(٤)].

٨- في قولِه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ وقَعَ الإخبارُ عن ضَميرِ المُتكلِّمِ باسْمِه العَلَمِ،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ١٣٠).
(٢) يُنظر: ((الانتصار)) للعمراني (٢/ ٥٩٣).
(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٣٧).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٥٥٨).

الدَّالِّ على الذَّاتِ، المُستحقِّ لجَميعِ المَحامدِ، وذلك أوَّلُ ما يجِبُ عِلْمُه من شُؤونِ الإلهيَّةِ؛ وهو أنْ يعلَمَ الاسمَ الَّذي جعَلَه اللهُ علَمًا عليه؛ لأنَّ ذلك هو الأصْلُ لجميعِ ما سيُخاطَبُ به من الأحكامِ المُبلَّغةِ عن ربِّهم(١).

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ استَدَلَّ بعُمومِ هذه الآيةِ مَن قال: تُقضى الصَّلاةُ في الأوقاتِ المكروهةِ، وأنَّه لا تؤخَّرُ إلى مِثلِ وَقتِها في الغَدِ(٢). وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

١٠- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ النبُوَّةَ لا تحصُلُ بالاستِحقاقِ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ يدلُّ على أنَّ ذلك المنصِبَ العليَّ إنَّما حصل؛ لأنَّ الله تعالى اختاره له ابتداءً، لا أنَّه استحَقَّه على الله تعالى(٣).

١١- قال الله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ قال سفيانُ بنُ عُيَينةَ: (أوَّلُ العِلمِ الاستِماعُ، ثمَّ الفَهمُ، ثمَّ الحِفظُ، ثمَّ العَمَلُ، ثمَّ النَّشرُ)(٤)، فإذا استمع العبدُ إلى كتابِ الله تعالى وسنَّةِ نَبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بنيَّةٍ صادِقةٍ على ما يحِبُّ الله، أفهَمَه كما يحِبُّ، وجعَلَ له في قلبِه نورًا(٥).

١٢- اللهُ تعالى يَذْكُرُ نفسَه أحيانًا بصيغةِ العَظَمةِ، مثل قَولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١]، ومِثل قَولِه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٩).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٩).
(٤) أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٧/ ٢٧٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٣/ ٢٨٤)، وابن عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (١/ ٤٧٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٧٦).

ومثل قولِه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: ١٢]، وأحيانًا يَذْكُرُ نفسَه بصيغةِ الواحدِ، مثلُ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾، ووجهُ ذلك: أنه واحِدٌ عظيمٌ، فباعتبارِ الصِّفةِ يأتي ضميرُ العَظَمةِ، وباعتبارِ الوحدانيَّةِ يأتي ضميرُ الواحدِ[١].

١٣- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ ذُكِرَ الاسمُ العَلَمُ؛ لأنَّ هذا مقامُه؛ إذ الأنسَبُ للملطوفِ به -بعد التعرُّفِ إليه بالإكرامِ- الإقامةُ في مقامِ الجَلالِ والجَمالِ[٢].

١٤- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ * إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ ذُكِرَ فيه الإيمانُ به تعالى، وعبادتُه، والإيمانُ باليوم الآخِرِ؛ لأنَّ هذه الأمورَ الثَّلاثةَ أصولُ الإيمانِ، ورُكنُ الدِّينِ، وإذا تمَّت تمَّ أمرُ الدين، ونقصُه أو فَقدُه بنَقصِها، أو نقصِ شَيءٍ منها[٣].

١٥- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ أوَّلَ ما يتعارَفُ به المتلاقُونَ أنْ يَعرِفوا أسماءَهم، فأشار اللهُ إلى أنَّه عالمٌ باسمِ كليمِه، وعَلَّمَ كليمَه اسمَه، وهو اللهُ[٤].

١٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ هذا أوَّلُ واجبٍ على المكَلَّفينَ: أنْ يَعلَموا أنَّه لا إلهَ إلا اللهُ وَحدَه لا شريكَ له[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير جزء عم)) لابن عثيمين (ص: ٢٦٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٧٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٧).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتَقريرِ أمْرِ التَّوحيدِ الَّذي إليه يَنْتهي مَساقُ الحديثِ، وبَيانِ أنَّه أمْرٌ مُستمِرٌّ فيما بينَ الأنبياءِ كابرًا عن كابرٍ(١)، وهو تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّ الَّذين كذَّبوه سيكونُ جَزاؤُهم جَزاءَ مَن سلَفَهم مِنَ المُكذِّبينَ(٢).

- قولُه: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ ...﴾ استفهامُ تَقريرٍ يحُثُّ على الإصغاءِ لِمَا يُلْقَى إليه وعلى التَّأسِّي، وأُوثِرَ حرْفُ (هل) في هذا المقامِ؛ لِمَا فيه مِن معنى التَّحقيقِ؛ لأنَّ (هل) في الاستفهامِ مثْلُ (قد) في الإخبارِ(٣). والمقصودُ منه تقريرُ الجوابِ في قلبِ محمدٍ عليه السلامُ، وهذه الصيغةُ أبلغُ في ذلك، كما يقول المرءُ لصاحبِه: هل بلغك خبرُ كذا؟ فيتطلَّع السامعُ إلى معرفةِ ما يرمي إليه(٤). وقيل: إنَّه استفهامٌ معناه النَّفيُ، أي: ما أخبَرْناك قبْلَ هذه السُّورةِ بقصَّةِ مُوسى، ونحن الآن قاصُّونَ قِصَّتَه لِتَتسلَّى وتَتأسَّى(٥).

- وفيه مُناسَبَةٌ حسَنةٌ؛ حيث قال عَزَّ وجَلَّ هنا حكايةً عن قولِ موسى عليه السلامُ لأهْلِه: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]، وقال في آيةِ سورة (النمل): ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل: ٧]، وقال في (القَصصِ): ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٢٩]. وأيضًا قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٤).

فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾، إلى قوله: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١١-١٧]، وفي السُّورةِ الثَّانيةِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ * وَأَلۡقِ عَصَاكَ﴾ [النمل: ٨-١٠]، وكذلك جاء في سُورةِ (القصصِ): ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ [القصص: ٣٠، ٣١]؛ ووجهُ هذا الاختِلافِ على وجْهِ العُمومِ: أنَّ اللهَ تعالى لم يُخبِرْ أنَّه خاطَبَ مُوسى عليه السَّلامُ باللُّغةِ العربيةِ بألفاظٍ إذا عدَلَ عنها إلى غيرِها ممَّا يُخالِفُ معناها، كان اختلافًا في القُرآنِ فيه، بل مَعلومٌ أنَّ الخِطابَ كان بغيرِ هذه اللُّغةِ(١)، وأنَّ قولَ مُوسى عليه السَّلامُ لم تُرَدْ حِكايتُه إلَّا بالمعنى؛ لاختِلافِ اللِّسانينِ، والتَّرادُفُ فيما بين اللُّغتينِ في كُلِّ لفَظتينِ -يُرادُ بهما معنًى واحدٌ- غيرُ مُطَّرِدٍ؛ وعليه فلا إشكالَ في أنَّ المعنى قد يتوقَّفُ حُصولُه على الكَمالِ على تَعبيرينِ أو أكثَرَ، لا سيَّما مع ما في اللِّسانِ العربيِّ من الاشتراكِ، والعُمومِ والخُصوصِ، والإطلاقِ والتَّقييدِ، وغيرِ ذلك من عوارضِ الألفاظِ، فلا يُنْكَرُ اختِلافُ التَّعبيرِ عنِ المعنى الواحدِ بألفاظٍ وعباراتٍ مُختلفةٍ، بل لو كان المَحْكيُّ قولًا عربيًّا وحُكِيَ بالمعنى، لَمَا اسْتُنْكِرَ اختِلافُ العبارةِ؛ فكيف مع اختِلافِ اللِّسانينِ(٢)؟!

وأيضًا أنَّه تعالى أخبَرَ في بعضِ السُّورِ ببعضِ ما جرَى، وفي الأُخرى بأكثَرَ ممَّا أخبَرَ به في الَّتي قبْلَها، وليس يدفَعُ بعضُها بعضًا؛ فأمَّا قولُه تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٩١).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٣٧).

ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه: ١٠]، فهو معنى قولِه: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ [النمل: ٧]؛ لأنَّ الخبرَ الَّذي يأْتيهم به هو أنْ يجِدَ على النَّارِ مَن يَهْديه، ويُخبِرُه أنَّ الطَّريقَ ما هو عليه أو غيرُه، ووُجودُ الهُدى، وأنْ يُخبِرَ بخَبرِ اهتدائِه في طَريقِه أو غيرِه؛ شَيءٌ واحدٌ لا اختلافَ فيه. وأمَّا قولُه عَزَّ وجَلَّ: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ [طه: ١١، ١٢]، فهو ممَّا جَرى، ولم يُخبِرِ اللهُ تعالى به في سائرِ السُّورِ، فأخبَرَ به في هذه[(١)].

- وفيه وجْهٌ آخرُ: أنَّ قولَه تبارك وتعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ [طه: ٩-١٠]، وفي (النَّملِ): ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [النمل: ٧]، وفي (القصصِ): ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص: ٢٩]، فهذه الآياتُ تَشتمِلُ على ذِكْرِ رُؤيةِ مُوسى النَّارَ، وأمْرِه أهْلَه بالمُكْثِ، وإخبارِه إيَّاهم أنَّه آنَسَ نارًا، وإطْماعِهم أنْ يأتِيَهم بنارٍ يَصْطلون بها، أو بخبرٍ يَهْتدون به إلى الطَّريقِ الَّتي ضَلُّوا عنها، لكنَّه نقَصَ في النَّملِ ذكْرَ رُؤيتِه النَّارَ، وأمْرَه أهْلَه بالمُكْثِ؛ اكتفاءً بما تقدَّمَ، وزاد في القصصِ قَضاءَ مُوسى الأجَلَ المضروبَ، وسَيْرَه بأهْلِه إلى مصرَ؛ لأنَّ الشَّيءَ قد يُجْمَلُ ثمَّ يُفصَّلُ، وقد يُفصَّلُ ثمَّ يُجْمَلُ، وفي سُورةِ (طه) فَصَّلَ، وأجْمَلَ في (النَّملِ)، ثمَّ فصَّلَ في (القصصِ)، وبالَغَ فيه[(٢)].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٩١-٨٩٢).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٣-١٧٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٢).

- وفيه أيضًا: قولُه هنا: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه: ١٠]، أي: مَن يُخبِرُني بالطَّريقِ، فيَهْديني إليه، وإنَّما أخَّرَ ذِكْرَ المُخبِرِ فيهما، وقدَّمَه فيهما مرَّاتٍ؛ لفواصلِ الآيِ في السُّورِ جميعًا[١].

- وأمَّا تَكريرُ (لَعَلَّ) في (القصصِ) لفظًا، وفي (طه) و(النمل) معنًى؛ لأنَّ (أو) في قولِه: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ نائبٌ عن (لعلِّي)، و(سآتِيكُم) يَتضمَّنُ معنى (لعلِّي)[٢].

- وأمَّا تَكرارُ: ﴿أَوۡ ءَاتِيكُم﴾ [النمل: ٧] في سُورةِ (النَّملِ)، فليس فيه إلَّا تَكرارُ ما يُحرِزُ التَّأكيدَ، وتأكيدُ ما هو خبرٌ ليس أمْرًا ولا نهيًا إنَّما ثَمرتُه وفائدتُه صِدْقُ الإخبارِ، وذلك حاصِلٌ هنا سواءٌ تأكَّدَ أو لم يتأكَّدْ، وإذا كان الكلامُ على ما قُلْنا، والصِّدقُ حاصلٌ على كلِّ حالٍ؛ فلا يُنْكَرُ إذا حُكِيَ بمعناه. أو يُؤكَّدُ مرَّةً، ولا يُؤكَّدُ أُخرَى؛ إذ لا زِيادةَ للتَّأكيدِ فيه سِوى الجرْيِ على مُرتكباتِ العرَبِ في مثْلِه[٣]. وتَخصيصُ كُلِّ سُورةٍ من هذه السُّورِ بما ورَدَ فيها؛ لأنَّ فواصلَ هذه السُّوَرِ ومَقاطِعَ آيِها مُناسِبةٌ للواردِ فيها؛ فسُورةُ (طه) مقاطِعُ آيِها لازمةٌ الألِفَ المقصورةَ، وعلى ذلك آيُ السُّورِ كلِّها، وأمَّا النَّملُ والقصصُ فجاءتْ مقاطِعُ آياتِ هذه القِصَّةِ بالنُّونِ الواقعِ قبْلَها الياءُ والواوُ السَّاكنتانِ، بحسَبِ ما تقدَّمَهما مِن حَركتَيِ الضَّمَّةِ والكسرةِ.

وأيضًا في سُورةُ (النَّملِ) أوجَزَ في هذا المقصَدِ، وأمَّا سُورةُ (القصصِ) فإنَّ خبَرَ مُوسى عليه السَّلامُ فيها يكادُ يَستغرِقُ آيَها كلَّها، فناسَبه طولُ الوارِدِ فيها ممَّا

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٣٤).

فيه الكلامُ، وذلك غيرُ خافٍ. وتأمَّلِ الواردَ في سُورةِ (طه)؛ من قولِه تعالى مُخبِرًا عن نَبيِّه مُوسى عليه السَّلامُ مِن قولِه: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾، ومُناسَبةَ ذلك لِما بُنِيَتْ عليه سُورةُ (طه) من تأنيسِ نَبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم، وافتتاحَها بقولِه تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: ٢]؛ يَلُحْ لك التَّلاؤمُ والتَّناسُبُ، وقد وضَحَ أنَّ كلَّ ما في كلِّ سُورةٍ من السُّورِ الثَّلاثِ مِن هذه القصَّةِ لا يُلائِمُ غيرَها، وأنَّ كلَّ قصَّةٍ منها لا يَحسُنُ وُقوعُها في موضعِ الآخرِ؛ لعدَمِ المُناسَبةِ وبُعْدِ التَّلاؤُمِ[١].

والحاصِلُ: أنَّ قولَ مُوسى عليه السَّلامُ وسُؤالاتِه في هذه السُّورِ الثَّلاثِ قد يَرِدُ في سُورةٍ منها بَعضُ ذلك ممَّا ليس في الأُخرى، ولم يَتعارضْ شَيءٌ من ذلك. ووجْهُ اختصاصِ كلِّ سُورةٍ بما ورَدَ فيها: أنَّ الواردَ في كلِّ سُورةٍ مُناسِبٌ للسِّياقِ ولِمَا بُنِيَتْ عليه السُّورةُ؛ فسورة طه بُنِيتْ على التَّأنيسِ والبشارةِ لنَبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم، من لَدُنِ افتتاحِها إلى خِتامِها. وأمَّا سُورةُ الشُّعراءِ وسُورةُ القَصصِ فإنَّما بِناؤُهما على قَصصِ مُوسى عليه السَّلامُ، ولَمَّا كانتْ سُورةُ الشُّعراءِ مذْكورًا فيها قَصصُ الرُّسلِ مع أُمَمِهم ابتداءً واختتامًا -فيما يخُصُّ حالَ الرِّسالةِ، إلى أخْذِ كلِّ طائفةٍ بما أُخِذَت به- خُصَّتْ من قَصصِ مُوسى عليه السَّلامُ بما يُلائِمُ دُعاءً ومُحاورةً، إلى أخْذِ فِرْعونَ وملَئِه. ولَمَّا كان قولُه تعالى في سُورةِ القصصِ: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [القصص: ٣] تأنيسًا وتَنبيهًا لنَبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم، وفي آخِرِ السُّورةِ: الإفصاحُ من هذا التَّأنيسِ برُجوعِه إلى مكَّةَ بعْدَ أنْ أُخرِجَ عنها عليه السَّلامُ مُهاجِرًا لأجْلِ قومِه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾ [القصص: ٨٥]؛ ناسَبَ ذلك مِن

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٣٤-٣٣٥).

قَصصِ مُوسى عليه السَّلامُ خُروجُه إلى مَدْينَ ورُجوعُه إلى مِصْرَ؛ فتَناسَبَ هذا أكمَلَ مُناسَبةٍ في السُّورِ الثَّلاثِ، وإذا اعْتُبِرَ ذلك عُلِمَ أنَّه لا يُناسِبُ كلَّ سُورةٍ من الثَّلاثِ إلَّا ما خُصَّتْ به(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾

- قولُه: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ خَصَّ هذا الظَّرفَ بالذِّكرِ؛ لأنَّه يَزيدُ تَشويقًا إلى استعلامِ كُنْهِ الخبرِ؛ لأنَّ رُؤيةَ النَّارِ تَحتمِلُ أحوالًا كثيرةً. ورُؤيةُ النَّارِ تدُلُّ على أنَّ ذلك كان بلَيلٍ، وأنَّه كان بحاجةٍ إلى النَّارِ، ولذلك فُرِّعَ عليه: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾(٢).

- وجُملةُ: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ تَعليلٌ للأمْرِ أو المأمورِ به من المُكْثِ(٣)، وأكَّدَ الخبرَ بـ(إنَّ)؛ لقصْدِ الاهتمامِ به بِشارةً لأهْلِه؛ إذ كانوا في الظُّلمةِ(٤).

- وعبَّرَ بحرْفِ الاستعلاءِ في قولِه: ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ إمَّا لأنَّ أهْلَ النَّارِ يَسْتعلون المكانَ القريبَ منها، أو لأنَّ المُصْطلينَ بها والمُسْتمتعينَ إذا تكَنَّفوها قِيامًا وقُعودًا، كانوا مُشرِفين عليها(٥).

- قولُه: ﴿هُدًى﴾، أي: هاديًا يدُلُّني على الطَّريقِ، على أنَّه مَصدرٌ؛ سُمِّيَ به

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٥).

الفاعلُ مُبالَغةً(١).

- وفي هذه الآيةِ ما يُعرَفُ بالإبهامِ(٢)، وهو ضِدُّ الإيجازِ وضِدُّ الإطنابِ؛ فقد قال: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾، ولم يَبُتَّ في الأمْرِ؛ لئلَّا يَعِدَ ما ليس بمُستيقنٍ من الوفاءِ به، ثمَّ قال: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾، وهذا يَحْتوي على معنًى آخرَ ثَمَّ يتشعَّبُ، فالهِدايةُ هي المعنى الرَّئيسُ، ثمَّ إنَّ الهِدايةَ قد تكونُ بالنَّارِ نفْسِها بخاصَّةِ الإضاءةِ الكامنةِ فيها، وإمَّا بواسطةِ القومِ الَّذين يَقومون بإيقادِها، ويُفْهَمُ من هذا ضِمْنًا أنَّه ضَلَّ مع أهْلِه الَّذين يُرافِقونه(٣).

- وقال هنا: ﴿بِقَبَسٍ﴾، وفي القصصِ قال: ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٢٩]، وفي النَّملِ قال: ﴿بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ [النمل: ٧]، وهذا مِن التَّفنُّنِ في العِبارةِ؛ فهي في السُّورِ الثَّلاثِ عِبارةٌ عن معنًى واحدٍ؛ وذلِك أنَّ الجَذوةَ من النَّارِ: خَشبةٌ في رأْسِها قَبسٌ، به شِهابٌ(٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾

- بُنِيَ فِعْلُ النِّداءِ للمجهولِ ﴿نُودِيَ﴾؛ زِيادةً في التَّشويقِ إلى استطلاعِ القصَّةِ؛ فإبهامُ المُنادي يُشوِّقُ سامِعَ الآيةِ إلى مَعرفتِه، فإذا فاجأَهُ ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، عَلِمَ أنَّ المُناديَ هو اللهُ تعالى؛ فتمكَّنَ في النَّفسِ كَمالَ التَّمكُّنِ، ولأنَّه أدخَلُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٦).
(٢) الإبهامُ: هو أنْ يأتِيَ المُتكلِّمُ إلى المعنى الواحدِ الَّذي يُمكِنُه الدَّلالةُ عليه باللَّفظِ القليلِ، فيدُلُّ عليه باللَّفظِ الكثيرِ، لا لقصْدِ إفهامِ البليدِ، وسَماعِ البعيدِ، ولا للتَّقريرِ والتَّوكيدِ، بل للإتيانِ بمعنًى يتشعَّبُ إلى عِدَّةِ أُمورٍ، كلُّ واحدٍ منها مُستقِلُّ المفهوميَّةِ. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٧١).
(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٧١).
(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٤).

في تَصويرِ تلك الحالةِ بأنَّ مُوسى ناداهُ مُنادٍ غيرُ معلومٍ له؛ فحُكِيَ نِداؤُه بالفِعْلِ المَبْنيِّ للمجهولِ(١).

٤- قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾

- قولُه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ بيانٌ لجُملةِ: ﴿نُودِيَ﴾. وتأكيدُ الخَبرِ بحرْفِ (إنَّ)؛ لتحقيقِه لأجلِ غرابتِه. وتَكرارُ الضَّميرِ في ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾؛ لتَوكيدِ الدَّلالةِ، وتَحقيقِ المعرفةِ، وإماطةِ الشُّبهةِ(٢).

- والإخبارُ عن ضَميرِ المُتكلِّمِ بأنَّه ربُّ المُخاطَبِ ﴿رَبُّكَ﴾؛ لتَسكينِ رَوعةِ نفْسِه من خِطابٍ لا يَرى مُخاطِبَه؛ فإنَّ شأْنَ الرَّبِّ الرِّفقُ بالمَربوبِ(٣).

- والفاءُ في ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ لتَرتيبِ الأمْرِ على ما قبْلَها؛ فإنَّ رُبوبيَّتَه تعالى له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من مُوجباتِ الأمْرِ ودَواعيه(٤)، وإنَّما أمَرَه اللهُ بخلْعِ نعلَيْه؛ تَعظيمًا منه لذلك المكانِ الَّذي سيَسمَعُ فيه الكلامَ الإلهيَّ(٥)، أو لعِظَمِ الحالِ الَّتي حصَلَ فيها، كما يُخلَعُ عندَ المُلوكِ غايةً في التَّواضُعِ(٦).

- قولُه: ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ تَعليلٌ لوُجوبِ الخَلْعِ المأمورِ به، وبَيانٌ لسبَبِ وُرودِ الأمْرِ بذلك من شَرفِ البُقعةِ وقُدْسِها(٧). وفيه التَّعبيرُ بحرْفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٦-١٩٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٧).

التَّوكيدِ (إنَّ) المُفيدِ التَّعليلَ، كما هو شأْنُه في كلِّ مقامٍ لا يَقْتضي التَّأكيدَ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾

- قولُه: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ فيه الإخبارُ عنِ اختيارِ اللهِ تعالى مُوسى عن طريقِ الخبرِ الفعليِّ ﴿ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ المُفيدِ تَقويةَ الحُكْمِ؛ لأنَّ المقامَ ليس مقامَ إفادةِ الحَصرِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ فرْعٌ على الإخبارِ باختيارِه أنْ أُمِرَ بالاستماعِ للوحيِ؛ لأنَّه أثَرُ الاختيارِ؛ إذ لا معنى للاختيارِ إلَّا اختيارُه لِتَلقِّي ما سيُوحِي اللهُ[٣].

- وحَذْفُ الفاعلِ في ﴿يُوحَىٰٓ﴾ للعِلْمِ به، ويُحسِّنُه كونُه فاصلةً؛ فلو كان مَبْنِيًّا للفاعلِ لم يكُنْ فاصلةً[٤].

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ بَدلٌ من ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ دالٌّ على أنَّه مَقصورٌ على تَقريرِ التَّوحيدِ الَّذي هو مُنْتهَى العِلْمِ والأمْرِ بالعبادةِ الَّتي هي كَمالُ العملِ[٥]؛ فهو تَبيينٌ وتَفسيرٌ للإبهامِ في قولِه: ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾[٦].

- وتأكيدُ الجُملةِ بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾؛ لدفْعِ الشَّكِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٧).

عن مُوسى؛ نُزِّلَ مَنزلةَ الشَّاكِّ لأنَّ غَرابةَ الخبرِ تُعرِّضُ السَّامِعَ للشَّكِّ فيه.

وتَوسيطُ ضَميرِ الفصْلِ بقولِه: ﴿أَنَا﴾؛ لزِيادةِ تَقويةِ الخبرِ[١].

- قولُه: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ لتَرتيبِ المأمورِ به على ما قبْلَها؛ فإنَّ اختصاصَ الأُلوهيَّةِ به سُبحانه وتعالى من مُوجِباتِ تَخصيصِ العِبادةِ به عَزَّ وجَلَّ[٢].

- وخُصَّتِ الصَّلاةُ بالذِّكرِ، وأُفْرِدَتْ بالأمْرِ معَ اندراجِها في الأمْرِ بالعبادةِ؛ لفضْلِها وعُلوِّها على سائرِ العباداتِ بما نِيطَتْ به من ذِكْرِ المعبودِ سُبحانه، وشُغْلِ القلْبِ واللِّسانِ بذِكْرِه[٣]، أو لأنَّ الصَّلاةَ تجمَعُ أحوالَ العبادةِ[٤]، وتتضمَّنُ عبوديَّةَ القلبِ واللسانِ والجوارحِ[٥].

٧- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ لابتداءِ إعلامٍ بأصْلٍ ثانٍ مِن أُصولِ الدِّينِ بعْدَ أصْلِ التَّوحيدِ، وهو إثباتُ الجَزاءِ[٦].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ...﴾ تَعليلٌ لوُجوبِ العبادةِ، وإقامةِ الصَّلاةِ، أي: كائنةٌ لا مَحالةَ، وإنَّما عُبِّرَ عن ذلك بالإتيانِ؛ تَحقيقًا لحُصولِها بإبرازِها في مَعرِضِ أمْرٍ مُحقَّقٍ مُتوجِّهٍ نحوَ المُخاطَبينَ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠١).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨).

- وجُملةُ: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ مُعترِضةٌ بينَ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ وعِلَّتِها ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾، مُؤكِّدةٌ لمعنى الإخفاءِ(١). وقيل: وقَعَت (أكاد) زائدةً هنا بمَنزلةِ زيادةِ (كان) في بعضِ المواضعِ؛ تأكيدًا للإخفاءِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ تَخصيصُ السَّعيِ في مَعرِضِ الغايةِ لإتيانِها، مع أنَّه لجَزاءِ كلِّ نفْسٍ بما صدَرَ عنها، سواءٌ كان سَعيًا فيما ذُكِرَ، أو تقاعُدًا عنه بالمرَّةِ، أو سعيًا في تَحصيلِ ما يُضادُّه: للإيذانِ بأنَّ المُرادَ بالذَّاتِ من إتيانِها هو الإثابةُ بالعبادةِ، وأمَّا العِقابُ بترْكِها فمِن مُقتَضَياتِ سُوءِ اختيارِ العُصاةِ، وبأنَّ المأمورَ به في قُوَّةِ الوُجوبِ، والسَّاعةَ في شِدَّةِ الهولِ والفظاعةِ، بحيث يُوجِبانِ على كلِّ نفْسٍ أنْ تَسْعَى في الامتثالِ بالأمْرِ، وتَجِدَّ في تَحصيلِ ما يُنجِّيها من الطَّاعاتِ، وحينئذٍ تَحترِزُ عن اقترافِ ما يُرْدِيها من المعاصي(٣).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، وفي سُورةِ غافرٍ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [غافر: ٥٩]، فخَصَّصَ آيةَ (طه) بقولِه في وصْفِ السَّاعةِ: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ ووصَفَها في سُورةِ (غافرٍ) بقولِه: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾.

ووجْهُه: أنَّ آيةَ (طه) خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم -على قولٍ في التفسيرِ-، يتضمَّنُ تأْنيسَهُ وتَسليتَه عن حالِ كفَّارِ قُريشٍ في توقُّفِهم عن الإيمانِ، وجاء قولُه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]؛ تعريفًا بعَظيمِ خَفاءِ أمْرِ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨).

السَّاعةِ، حتَّى كأنَّ أمْرَها لم يُخْبَرْ عنه، ولا وقَعَ تعريفٌ بشَيءٍ منه، وذلك إعلامٌ بوصْفِ وحالِ مَن قدْ تقرَّرَ بوُقوعِها يَقينُه، وانْطوى على عِلْمِ كِيانِها إيمانُه، ولَمَّا كان هذا الخطابُ والتَّعريفُ لِمَن جَرى ذِكْرُه مِن تنزُّهِه صلَّى الله عليه وسلَّم عن الارتيابِ في أمْرِ السَّاعةِ؛ لم يَحْتَجْ إلى نفْيِ الرَّيبِ؛ إذ مقامُ النُّبوَّةِ في الإيمانِ بها المقامُ الَّذي لا يُدانى، فلم يكُنْ نفْيُ الارتيابِ لِيُلائِمَ ولا يُناسِبَ. أمَّا آيةُ غافرٍ، فأكثرُ الخِطابِ فيها لقُرَيشٍ وسائرِ كُفَّارِ العربِ، وهم المُجادِلونَ في أمْرِ السَّاعةِ، والجاهِلونَ بكِيانِها، فذَكَر فيها نَفْيَ الرَّيبِ -الَّذي هو صِفَتُهم- وأُتْبِعَ بتأْكيدِ الإخبارِ بدُخولِ اللَّامِ ونفْيِ الرَّيبِ في ذلك، وذلك أوضَحُ شَيءٍ في المُناسَبةِ؛ فكلٌّ من الآيتينِ واردٌ على أتَمِّ مُناسَبةٍ، ولا يُمكِنُ أنْ يقعَ عكسُ الواردِ في السُّورتَينِ[1].

- ومن المُناسَبةِ أيضًا قولُه هنا: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾، وفي (الحجِّ): ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ [الحج: ٧] بحذْفِ لامِ التَّأكيدِ، وقاله في (غافرٍ) بإثباتِها: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ﴾ [غافر: ٥٩]؛ لأنَّها إنَّما تُزادُ لتأْكيدِ الخبرِ، وتأكيدُه إنَّما يُحتاجُ إليه إذا كان المُخبَرُ بِهِ شاكًّا في الخبرِ، والمُخاطَبون في (غافرٍ) هم الكفَّارُ، فأُكِّدَ فيها باللَّامِ بخلافِ تَينِك[2].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ فرَّعَ على كونِها آتيةً، وأنَّها مُخفاةٌ التَّحذيرَ مِن أنْ يَصُدَّه عن الإيمانِ بها قومٌ لا يُؤمِنون بوُقوعِها اغترارًا بتأخُّرِ ظُهورِها؛ فالتَّفريعُ على قولِه: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أوقَعُ؛ لأنَّ ذلك الإخفاءَ هو الَّذي يُشَبِّهُ به الَّذين أنْكَروا البعثَ على النَّاسِ[3].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٣٥-٣٣٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٠-٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٣).

- وقولُه: ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ صِيغَ نهْيُ مُوسى عليه السَّلامُ عن الصَّدِّ عنها في صِيغَةِ نهْيِ مَن لا يُؤمِنُ بالسَّاعةِ عن أنْ يَصُدَّ مُوسى عن الإيمانِ بها؛ مُبالغةً في نهْيِ مُوسى عن أدْنَى شَيءٍ يحولُ بينَه وبينَ الإيمانِ بالسَّاعةِ؛ لأنَّه لمَّا وجَّهَ الكلامَ إليه، وكان النَّهيُ نهْيَ غيرِ المُؤمنِ عن أنْ يَصُدَّ مُوسى، عُلِمَ أنَّ المُرادَ نهْيُ مُوسى عن مُلابَسةِ صَدِّ الكافرِ عن الإيمانِ بالسَّاعةِ، أي: لا تكُنْ لَيِّنَ الشَّكيمةِ لمَن يصُدُّك، ولا تُصْغِ إليه؛ فيكونَ لِينُك له مُجَرِّئًا إيَّاه على أنْ يصُدَّك؛ فوقَعَ النَّهيُ عن المُسبَّبِ، والمُرادُ النَّهيُ عن السَّببِ، وهذا الأسلوبُ مِن قَبِيلِ قولِهم: (لا أعرِفَنَّك تفعَلُ كذا)، و: (لا أَرَيَنَّك هاهنا)[(١)].

- وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَنْهَا﴾ على قولِه تعالى: ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[(٢)].

- وزِيادةُ ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾؛ للإيماءِ بالصِّلةِ إلى تَعليلِ الصَّدِّ، أي: لا داعِيَ لهم للصَّدِّ عن الإيمانِ بالسَّاعةِ إلَّا اتِّباعُ الهوى، دونَ دليلٍ ولا شُبْهةٍ[(٣)].

- وفي قولِه: ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ فرَّعَ على النَّهيِ أنَّه إنْ صُدَّ عن الإيمانِ بالسَّاعةِ هلَكَ، والتَّفريعُ ناشِئٌ عنِ ارتكابِ المَنْهيِّ لا على النَّهيِ؛ ولذلك جِيءَ بالتَّفريعِ بالفاءِ، ولم يقَعْ بالجزاءِ المجزومِ[(٤)].

- ومِن لطائفِ البلاغةِ في هذه الآياتِ: أنَّه سُبحانه وتعالى كلَّما خاطَبَ كَلِيمَه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عليه السَّلامُ في مقامِ القُدسِ بخِطابٍ، رتَّبَ عليه بالفاءِ حُكْمًا؛ قال أوَّلًا: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، فعقَّبه بقولِه: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾، نبَّهَ به على تعظيمِ البُقعةِ، وعلى ألَّا يطَأَها إلَّا حافيًا. وثانيًا: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾، فعقَّبه بقولِه: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾، أي: اخترْتُك لذلك المَنصبِ العالي ابتداءً، لا أنَّه استحقاقٌ منك على اللهِ، فتأهَّبْ له، واجعَلْ نفْسَك وعقْلَك مَصروفًا إليه، فقولُه: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ يُفيدُ نِهايةَ اللُّطفِ والرَّحمةِ، وقولُه: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ﴾ غايةَ الهَيبةِ والرَّهبةِ. وثالثًا: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾، الفاءُ دلَّتْ على أنَّ إلَهيَّتَه هي الَّتي ألْزَمَتِ العِبادةَ. ورابعًا: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا﴾، رتَّبَ نَهيَ المُخاطَبِ عمَّا يصُدُّه عن الآياتِ على مَجيءِ السَّاعةِ، فقولُه: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ تَخليةٌ. والثَّلاثةُ الأُخرى تَحليةٌ[(١)]. وقد جاء خِطابُ اللهِ تعالى لمُوسى عليه السَّلامُ بطريقةِ الاستدلالِ على كلِّ حُكْمٍ وأمْرٍ أو نَهْيٍ؛ فابْتُدِئَ بالإعلامِ بأنَّ الَّذي يُكلِّمُه هو اللهُ، وأنَّه لا إلهَ إلَّا هو، ثمَّ فرَّعَ عليه الأمْرَ في قولِه: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾، ثمَّ عقَّبَ بإثباتِ السَّاعةِ، وعلَّلَ بأنَّها ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾، ثمَّ فرَّعَ عليه النَّهيَ عن أنْ يصُدَّه عنها مَن لا يُؤمِنُ بها، ثمَّ فرَّعَ على النَّهيِ أنَّه إنِ ارتكَبَ ما نُهِيَ عنه، هلَكَ وخسِرَ[(٢)].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٤٢-١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٤).

الآيات (١٧-٢٣)

﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا
عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ
٢٠ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ٢١ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ
تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ٢٣﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَتَوَكَّؤُاْ﴾: أي: أعتَمِدُ عليها، والتوكُّؤُ: التحامُلُ على العصا في المشْيِ، وأصلُ (وكا): يَدُلُّ على شدِّ شَيءٍ وشِدَّةٍ، ومنه: تَوَكَّأْتُ على كذا، أي اتَّكَأْتُ؛ لأنَّه يتَشَدَّدُ به ويَتَقَوَّى به[١].

﴿وَأَهُشُّ﴾: أي: أضرِبُ بها الشَّجرَ؛ لِيَسقُطَ وَرَقُه فترعاه الغَنَمُ، والهَشُّ: يقارِبُ الهزَّ في التَّحريكِ[٢].

﴿مَـَٔارِبُ﴾: أي: حاجاتٌ، واحِدُها: مَأرُبةٌ ومأرَبةٌ ومأْرِبةٌ، وأصلُ (أرب) هنا: الحاجةُ[٣].

﴿سِيرَتَهَا﴾: أي: هَيئتَها، وحالتَها التي كانت عليها مِن كَونِها عُودًا، وأصلُ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٢٧).

(سير): يدُلُّ على مُضِيٍّ وجَرَيانٍ[(١)].

﴿جَنَاحِكَ﴾: أي: جَنْبِك تَحتَ العضُدِ، وأصلُ (جنح): يدلُّ على المَيلِ، وسُمِّيَ الجناحانِ جَناحَينِ؛ لِمَيلِهما في الشِّقَّينِ[(٢)].

﴿سُوٓءٍ﴾: أي: آفَةٍ أو بَرَصٍ، والسُّوءُ: كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ، وأصلُ (سوء): يدلُّ على قُبحٍ[(٣)].

المَعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالى لِموسى عليه السلامُ: وما هذه التي في يمينِك يا موسى؟ قال موسى: هي عصايَ أعتَمِدُ عليها في المَشيِ، وأضرِبُ بها الشَّجَرَ؛ لِتَرعى غَنَمي ما يسقُطُ مِن وَرَقِه، ولي فيها منافِعُ أخرى.

قال اللهُ لموسى: ألقِ عصاك. فألقاها موسى على الأرضِ، فانقَلَبَت بإذنِ اللهِ حَيَّةً تسعى بسُرعةٍ وخِفَّةٍ، فقال اللهُ لِموسى: خُذِ الحيَّةَ ولا تَخَفْ منها، سوف نعيدُها إلى حالتِها وهيئتِها الأُولى عصًا كما كانت، وأدخِلْ يَدَك في جَيبِك واضمُمْها إلى جَنبِك تحتَ العَضُدِ، تخرُجْ بَيضاءَ كالثَّلجِ مِن غَيرِ عَيبٍ ومَرَضٍ كبَرَصٍ، علامةً أخرى لك؛ فعَلْنا ذلك لكي نُرِيَك -يا موسى- مِن أدِلَّتِنا الكبرى

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٨) و(٣/ ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٠٣، ٥١٩).

الدَّالَّةِ على قُدرَتِنا، وصِحَّةِ رِسالتِك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ الله لموسى أصلَ الإيمانِ؛ أراد أنْ يبيِّنَ له ويُريَه من آياتِه ما يَطمئِنُّ به قلبُه، وتقَرُّ به عينُه، ويَقوَى إيمانُه، بتأييدِ اللهِ له على عَدُوِّه، فقال[١]:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾.

أي: قال الله: وما تلك التي تمسِكُها بيَدِك اليُمنى يا موسى[٢]؟

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٨﴾.

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾.

أي: قال موسى: هي عصايَ، أعتَمِدُ عليها في حالِ قيامي، وحينَ أمشي[٣].

﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾.

أي: وأضرِبُ بها الشَّجرَ؛ لِيَسقُطَ ورَقُه، فترْعاه غَنَمي[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٩٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

قال ابنُ كثير: (قال عبد الرحمن بن القاسم، عن الإمام مالك: والهشُّ: أنْ يضَعَ الرجُلُ المِحجَنَ =

﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾.

أي: ولي في عَصاي هذه حوائِجُ أخرى، فأنتَفِعُ بها أيضًا في غيرِ الاتِّكاءِ عليها، والهشِّ بها[١].

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ۝١٩﴾.

أي: قال الله: ألقِ عَصاك التي بيَدِك اليُمنى يا موسى[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ [النمل: ١٠].

﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾.

أي: فألقَى موسى عصاه دونَ تردُّدٍ، فتحوَّلَتْ فورًا بأمرِ اللهِ إلى حيَّةٍ حَقيقيَّةٍ عظيمةٍ، تتحرَّكُ بسُرعةٍ وخِفَّةٍ[٣]!

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾.

= [أي: العصا المعوجَّةَ] في الغُصنِ، ثمَّ يحرِّكَه حتى يسقُطَ وَرَقُه وثَمَرُه، ولا يُكسَرُ العودُ؛ فهذا الهشُّ، ولا يُخبَط [أي: لا يُضرَبُ ضربًا شديدًا]. وكذا قال ميمونُ بنُ مهرانَ أيضًا. ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

وقد تَعَرَّض قومٌ لتَعدادِ منافعِ العَصا -بل ألَّف في ذلك بعضُ المتأخرينَ- فذكَروا مِن ذلك أشياءَ: منها ركزُها سترةً للصلاةِ، وسوقُ الدابةِ بها، والاعتمادُ عليها في المشيِ، وأنَّها تُؤَمِّنُ العثرَةَ، ويُلْقَى عليها الكساءُ فتقي الحرَّ، وتُدْني ما بَعُد، ويُقرعُ بها الأبوابُ، وتقي مِن عَقُورِ الكلابِ إلى غيرِ ذلك. يُنظر ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾.

أي: قال الله لموسى: خُذِ الحيَّةَ، ولا تخَفْ منها؛ فلن تَضُرَّك[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص: ٣١].

﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾.

أي: سنردُّ الحيَّةَ إلى هيئتِها وطبيعتِها الأُولَى، فتعودُ عصًا كما كانت[(٢)].

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾.

أي: وأدخِلْ يَدَك في جَيبِك -وهو فَتحةُ القَميصِ التي يَبرُزُ منها العُنُقُ[(٣)]- وألصِقْها بجَنبِك تحتَ عضُدِك[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

قال ابنُ تيميةَ: (هو أمرٌ مقرونٌ بخبرِه بما يزيلُ الخوفَ). ((منهاج السنة النبوية)) (٨/ ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٧).

قال السعدي: (فامتثَل موسى أمرَ الله إيمانًا به وتسليمًا، فأخَذها، فعادَتْ عصاه التي كان يعرِفُها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٧)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٨).

والعَضُدُ هو ما بين المرَفِق إلى الكَتِف. يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٤٨)، ((المفردات)) للراغب الأصفهاني (ص: ٥٧١).

كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [النمل: ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢].

﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾.

أي: تخرُجْ يَدُك بعدَ أنْ تضَعَها تحتَ عَضُدِك ساطعةَ البَياضِ، كالثَّلجِ مِن غَيرِ عَيبٍ ومَرَضٍ، كبَرَصٍ أو بَهقٍ وغيرِه، والحالُ أنَّها علامةٌ أخرى تدلُّ على نبوَّتِك مَعَ آيةِ العصا التي تحوَّلتْ حيَّةً[١].

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ٢٣﴾.

أي: فعَلْنا ذلك؛ لنُريَك مِن أدِلَّتِنا الكُبرى[٢] الدَّالَّةِ على عَظيمِ قُدرتِنا، وصِحَّةِ رِسالتِك، فيَطمَئِنَّ قَلبُك، وتَثِقَ بوَعدِ اللهِ بحِفظِك ونَصرِك، وتكونَ حُجَّةً لمن أُرسِلتَ إليهم[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ إذا قيل: ما وَجهُ استِخبارِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠، ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٨).

قال ابنُ جرير: (ثم ردَّها، فخَرَجت كما كانت على لونِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٠).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٨).

(٢) قال ابنُ عطية: (قوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ يحتملُ أنْ يريدَ وصفَ الآياتِ بالكبرِ... ويحتمل أنْ يريدَ تخصيصَ هاتين الآيتين؛ فإنهما أكبرُ الآياتِ، كأنَّه قال: لنريكَ الكبرى، فهما معنيانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٩).

اللهِ مُوسى عمَّا في يَدِه؟ ألم يكُنْ عالِمًا بأنَّ الذي في يَدِه عصًا؟

فالجوابُ مِن أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أنَّه إنَّما قال ذلك عزَّ ذِكرُه له؛ إذ أراد أنْ يحوِّلَها حَيَّةً تسعى، وهي خَشَبةٌ، فنَبَّهَه عليها وقرَّره بأنَّها خَشَبةٌ يتوكَّأُ عليها، ويَهُشُّ بها على غَنَمِه؛ لِيُعرِّفَه قُدرتَه على ما يشاءُ، وعِظَمَ سُلطانِه، ونفاذَ أمرِه فيما أحَبَّ، بتحويلِه إيَّاها حيَّةً تسعى؛ إذ أراد ذلك به ليجعَلَ ذلك لموسى آيةً مع سائرِ آياتِه إلى فِرعَونَ وقَومِه[١].

الثَّاني: إنَّما قال له ذلك على سَبيلِ الإيناسِ له؛ لإزالةِ الوَحشةِ عن موسى؛ لأنَّ موسى كان خائِفًا مُستَوحِشًا، كرجُلٍ دخل على مَلِكٍ وهو خائفٌ، فسأله عن شَيءٍ، فتزولُ بعضُ الوَحشةِ عنه بذلك، ويَستأنِسُ بسُؤالِه.

الثَّالثُ: إنَّما قال له ذلك على وَجهِ التَّقريرِ، أي: أمَّا هذه التي في يمينِك عصاك التي تَعرِفُها، فسترَى ما نصنَعُ بها الآنَ، ولكيلا يخافَ إذا صارتْ ثُعبانًا[٢].

الرَّابِعُ: إقامةُ البَيِّنةِ لديه بما يكونُ دَليلًا على السَّاعةِ مِن سُرعةِ القُدرةِ على إيجادِ ما لم يكُنْ، بقَلبِ العصا حيَّةً بعدَ تحقُّقِ أنَّها عصاه بقُرْبِ النَّظَرِ إليها عندَ السُّؤالِ عنها؛ ليزدادَ بذلك ثباتًا، ويُثَبِّتَ مَن يُرسَلُ إليهم[٣].

٢- قال الله تعالى عن موسى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ مِن أدَبِ موسى عليه السَّلامُ أنَّ الله لَمَّا سأله عمَّا في يمينِه، وكان السؤالُ محتَمِلًا عن السُّؤالِ عن عَينِها أو مَنفَعتِها، أجابه بعينِها ومَنفَعتِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ فيه الزيادةُ في الجوابِ على ما في السُّؤالِ(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ * فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ وحِكمةُ انقلابِها وقْتَ مُناجاتِه: تأْنيسُه بهذا المُعجِزِ الهائلِ؛ لئلَّا يفزعَ منها إذا ألقاها عند فِرعونَ؛ إذ قد جرَت له بذلك عادةٌ، وتَدريبُه في تلقِّي تكاليفِ النُّبوَّةِ، ومَشاقِّ الرِّسالةِ(٢)، وكذلك تَثبيتُ مُوسى، ودفْعُ الشَّكِّ عن أنْ يتطرَّقَه لو أمَرَه بذلك دونَ تَجرِبةٍ؛ لأنَّ مَشاهِدَ الخوارقِ تُسارِعُ النَّفْسُ بادئَ ذِي بَدْءٍ إلى تأويلِها(٣).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾، إن قيل: إنما كانت العصا واحدةً، وكان إلقاؤُها مرةً، فما وجهُ اختلافِ الأخبارِ عنها؛ فإنَّه يقولُ في (الأعرافِ): ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧] وهاهنا: ﴿حَيَّةٌ﴾ وفي مكانٍ آخرَ: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠] ليست بالعظيمةِ، والثعبانُ أعظمُ الحيَّاتِ؟

فالجواب: أمَّا الحيَّةُ فاسْمُ جنْسٍ يقَعُ على الذَّكرِ والأُنثى، والصَّغيرِ والكبيرِ. وأمَّا الثُّعبانُ والجانُّ فبينهما تَنافٍ؛ لأنَّ الثُّعبانَ العظيمَ من الحيَّاتِ، والجانُّ: الدَّقيقُ. وفي ذلك وجْهانِ:

أحدُهما: أنَّها كانت وقْتَ انقلابِها حيَّةً تنقلِبُ حيَّةً صَفراءَ دقيقةً، ثمَّ تتورَّمُ ويَتزايدُ جِرْمُها حتَّى تصيرَ ثُعبانًا، فأُرِيدَ بالجانِّ أوَّلُ حالِها، وبالثُّعبانِ مآلُها.

الثَّاني: أنَّها كانت في شخْصِ الثُّعبانِ، وسُرعةِ حَركةِ الجانِّ. والدَّليلُ عليه

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٤).

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾[1] [النمل: ١٠].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ فيه سؤالٌ: لَمَّا نُودِي موسى، وخُصَّ بتلك الكراماتِ العظيمةِ، وعَلِمَ أنَّه مبعوثٌ مِن عندِ الله تعالى إلى الخَلقِ، فلمَ خاف؟

الجوابُ: أنَّ ذلك الخَوفَ كان مِن نفرةِ الطَّبعِ؛ لأنَّه -عليه السَّلامُ- ما شاهد مِثلَ ذلك قط، وأيضًا فهذه الأشياءُ معلومةٌ بدلائِلِ العُقولِ، وعند الفَزَعِ الشديدِ قد يَذهَلُ الإنسانُ عنه، وقيل أيضًا: إنَّ ذلك الخوفَ مِن أقوى الدَّلائِلِ على صِدقِه في النبوَّةِ؛ لأنَّ السَّاحِرَ يعلَمُ أنَّ الذي أتَى به تمويهٌ، فلا يخافُه البتَّةَ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ دليلٌ على أنَّ أنْفُسَ البشرِ مجبولةٌ على الخَوفِ مِن المؤْذِياتِ؛ وأنَّ الخوفَ اللَّاحقَ بها عندَ رؤيتِها لها لا يَحُطُّ مِن دَرجةِ التوكُّلِ شيئًا[3].

٨- قال تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ وفي إعادتِها إلى ما كانت عليهِ: عِدَةٌ كَريمةٌ بإظهارِ مُعجزةٍ أُخرَى على يَدِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإيذانٌ بكونِها مُسَخَّرةً له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ ليكونَ على طُمَأْنينةٍ مِن أمْرِه، ولا يَعتريه شائبةُ تَزَلْزُلٍ عندَ مُحاجَّةِ فِرْعونَ[4]؛ فالغرَضُ مِن إظهارِ ذلك لمُوسى: أنْ يَعرِفَ أنَّ العصا تطبَّعَت بالانقلابِ حيَّةً، فيتذكَّرَ ذلك عندَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (٢/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١).

مُناظَرةِ السَّحرةِ؛ لئلَّا يحتاجَ حينئذٍ إلى وحْيٍ[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ...﴾ الجُملةُ معطوفةٌ على الجُمَلِ قبْلَها، انتقالًا إلى مُحاورةٍ أرادَ اللهُ منها أنْ يُرِيَ مُوسى كيفيَّةَ الاستدلالِ على المُرسَلِ إليهم بالمُعجزةِ العظيمةِ[(٢)].

- والاستفهامُ مستعملٌ في تحقيقِ حقيقةِ المسؤولِ عنه، والتَّنبيهِ إلى أهمِّيَّتِه، وظاهِرُه أنَّه سُؤالٌ عن شيءٍ أُشِيرَ إليه[(٣)].

- وتَكريرُ النِّداءِ ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾؛ لزِيادةِ التَّأنيسِ والتَّنبيهِ[(٤)].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾، إلى قولِه: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٧-٢١]، فذكَرَ العَصا وسُؤالَه وتَقريرَه على ما وُصِفَ مِن حالِها، فهو ممَّا جرى، ولم يُخبِرِ اللهُ تعالى به في سائرِ السُّورِ، وأخبَرَ به في هذه السُّورةِ.

ووجْهُه: أنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ في بعْضِ السُّورِ ببعْضِ ما جرَى، وفي الأُخرى بأكثَرَ ممَّا أخبَرَ به في الَّتي قبْلَها، وليس يدفَعُ بعْضُها بعضًا[(٥)].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٠٥، ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠).

(٥) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٩١).

مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴾

- قولُه: ﴿عَصَايَ﴾ نسَبَها إلى نفْسِه؛ تَحقيقًا لوجْهِ كونِها بيَمينِه، وتَمهيدًا لِما يعقُبُه من الأفاعيلِ المَنسوبةِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

- في قولِه: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ فنُّ الإطنابِ بذِكْرِ المُسنَدِ إليه ﴿هِيَ﴾، حيث كان الإيجازُ يَقْتضي أنْ يقولَ: (عَصَايَ)؛ فلمَّا قال: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ كان الأسلوبُ أُسلوبَ كلامِ مَن يتعجَّبُ من الاحتياجِ إلى الإخبارِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ ذكَرَ على التَّفصيلِ والإجمالِ المنافِعَ المُتعلِّقةَ بالعصا؛ كأنَّه أحَسَّ بما يعقُبُ هذا السُّؤالَ من أمْرٍ عظيمٍ يُحدِثُه اللهُ تعالى، فقال: ما هي إلَّا عصًا، لا تنفَعُ إلَّا منافِعَ بناتِ جنْسِها، وكما تنفَعُ العيدانُ؛ ليكونَ جوابُه مُطابِقًا للغرضِ الَّذي فهِمَه من فَحوى كلامِ ربِّه[٣]. وقيل: الحِكمةُ من زِيادةِ مُوسى عليه السَّلامُ في الجوابِ: رَغبتُه في مُطاوَلةِ مُناجاتِه لرَبِّه تعالى، وازديادِ لَذاذتِه، وتَعدادِه نِعَمَه تعالى عليه بما جعَلَ له فيها منَ المنافعِ[٤]، وقيل: لأنَّه سُئِلَ سُؤالًا ثانيًا: ما تصنَعُ بها؟ فأجاب بذلك. أو ذكَرَ ذلك؛ خوفًا مِن أنْ يُؤمَرَ بإلقائِها، كما أُمِرَ بإلقاءِ النَّعلينِ، أو لئلَّا يُنسَبَ إلى التَّعبِ في حمْلِها[٥].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ...﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٢).

بـ (التَّلفيفِ)؛ وهو أنْ يسألَ السَّائلُ عن حُكْمٍ هو نوعٌ من أنواعِ جنْسٍ تَدْعو الحاجةُ إلى بَيانِها كلِّها أو أكثَرِها، فيَعدِلَ المسؤولُ عن الجوابِ الخاصِّ عمَّا سُئِلَ عنه من تَبيينِ ذلك النَّوعِ، ويُجيبَ بجوابٍ عامٍّ يَتضمَّنُ الإبانةَ على الحُكْمِ المسؤولِ عنه، وعن غيرِه بدُعاءِ الحاجةِ إلى بَيانِه؛ فقولُ مُوسى عليه السَّلامُ جوابًا عن سُؤالِ اللهِ تعالى له: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾، هو الجوابُ الحقيقيُّ للسُّؤالِ، ثمَّ قال: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾؛ فأجاب عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنَّه توهَّمَ أنْ يُقالَ له: وما تفعَلُ بها؟ فقال مُعَدِّدًا منافِعَها[1].

- وقدَّمَ في الجوابِ مَصلحةَ نفْسِه في قولِه: ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا﴾، ثمَّ ثنَّى بمَصلحةِ رعيَّتِه في قولِه: ﴿وَأَهُشُّ﴾[2].

- قولُه: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ الظَّاهرُ أنَّه حِكايةٌ لقولِ مُوسى بمُماثِلِه؛ فيكونُ إيجازًا بعْدَ الإطنابِ، ويجوزُ أنْ يكونَ حِكايةً لقولِ مُوسى بحاصلِ معناهُ، أي: عَدَّ مَنافِعَ أُخرى؛ فالإيجازُ من نظْمِ القُرآنِ لا مِن كلامِ مُوسى عليه السَّلامُ[3]. ولم يقُلْ: (أُخَر)؛ رعْيًا للفواصلِ[4].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ يَنساقُ إليه الذِّهنُ؛ كأنَّه قيلَ: فماذا قال عَزَّ وجَلَّ؟ فقيل: قال...[5].

- في قولِه: ﴿قَالَ أَلۡقِهَا﴾ الْتِفاتٌ منَ التَّكلُّمِ الَّذي في قولِه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ إلى

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠).

الغَيبةِ، ودعا إلى هذا الالْتِفاتِ: وُقوعُ هذا الكلامِ حِوارًا مع قولِ مُوسى: ﴿هِىَ عَصَاىَ ...﴾ إلخ[١].

- وتَكريرُ النِّداءِ ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾؛ لتأكيدِ التَّنبيهِ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ وصَفَ الحيَّةَ بـ ﴿تَسْعَىٰ﴾؛ لإظهارِ أنَّ الحياةَ فيها كانت كاملةً بالمشيِ الشَّديدِ[٣]، وأيضًا في وصْفِها بأنَّها تَسعَى إزالةٌ لوهمٍ يُمكن وجودُه، وهو أنْ يُظَنَّ أنَّها تخييلٌ لا حقيقةٌ؛ فكونُها تَسعَى يُزيلُ هذا الوَهمَ[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾

- جاء فِعْلُ ﴿قَالَ خُذْهَا﴾ بدُونِ عطْفٍ؛ لوُقوعِه في سِياقِ المُحاوَرةِ[٥].

- وفي عطْفِ النَّهيِ ﴿وَلَا تَخَفْ﴾، على الأمْرِ ﴿خُذْهَا﴾: إشعارٌ بأنَّ عدَمَ النَّهيِ عنه مَقصودٌ لذاتِه، لا لِتَحقيقِ المأمورِ به فقط[٦].

- وقَولُه: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ دليلٌ على اختصارِ الكلامِ؛ لأنَّ ذِكْرَ الخَوفِ لم يتقَدَّمْ في اللَّفظِ، فدلَّ قولُه: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ على أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا رأى عصاه تحوَّلَتْ حيَّةً خاف منها[٧].

- وقولُه: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتَعليلِ الامتثالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٠).
(٧) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٨٦).

بالأمْرِ والنَّهيِ[(١)].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾

- والجَناحُ في قولِه: ﴿جَنَاحِكَ﴾ هو العضُدُ وما تحتَه إلى الإبْطِ، أُطْلِقَ عليه ذلك تَشبيهًا بجَناحِ الطَّائرِ[(٢)]، وفي الكلامِ إيجازٌ بالحذْفِ؛ إذ لا يترتَّبُ الخُروجُ على الضَّمِّ، وإنَّما يترتَّبُ على الإخراجِ، والتَّقديرُ: واضمُمْ يَدَكَ إلى جَناحِك تَنضَمَّ، وأخرِجْها تَخرُجْ؛ فحذَفَ من الأوَّلِ وأبقى مُقابِلَه، ومن الثَّاني وأبْقى مُقابِلَه وهو ﴿وَٱضْمُمْ﴾؛ لأنَّه بمعنى (أدخِلْ)، كما بُيِّنَ في الآيةِ الأُخرى[(٣)].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث جُعِلَ الجَناحُ -وهو اليَدُ- هنا مَضمومًا إليه في قولِه: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾؛ وفي سورة (القصص) مَضمومًا في قولِه: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ [القصص: ٣٢]؛ لأنَّ المُرادَ بالجَناحِ المضمومِ هو اليَدُ اليُمْنى، وبالمَضمومِ إليه اليدُ اليُسرى، وكلٌّ واحدةٍ مِن يُمْنى اليدين ويُسراهما جَناحٌ[(٤)].

- قولُه: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ فيه احتراسٌ؛ لأنَّه لو اقتصَرَ على قولِه: ﴿بَيْضَآءَ﴾، لأوهَمَ أنَّ ذلك من برَصٍ أو بَهَقٍ؛ فقولُه: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ كِنايةٌ عن البرصِ[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٢١، ٣٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٨٥).

٧- قولُه تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾

- فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ كأنَّه قِيلَ: فعلْنا ما فعلْنا من الأمْرِ والإظهارِ؛ لنُرِيَك بذلك بعضَ آياتِنا الكُبْرى[١].

- وقولُه: ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ حالٌ من ﴿ٱلْكُبْرَى﴾؛ قُدِّمَت عليها وإنْ كان ذو الحالِ مَعرِفةً؛ مُراعاةً للفواصلِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٦١).

الآيات (٢٤-٣٦)

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾
وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ
بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا
﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱشْرَحْ﴾: أي: وسِّع ونوِّرْ، وأصلُ (شرح): يدلُّ على الفَتحِ والبَيانِ[١].

﴿وَزِيرًا﴾: أي: عونًا، ومُؤازِرًا، ومُؤيِّدًا، وأصلُ الوِزارةِ مِن الوِزْرِ، كأنَّ الوَزيرَ يحمِلُ عَنِ السُّلطانِ الثِّقلَ والشُّغلَ، وأصلُ (وزر): يدلُّ على الثِّقلِ في الشَّيءِ[٢].

﴿أَزْرِى﴾: أي: ظَهْري، ومنه يُقالُ: آزَرْتُ فلانًا على الأمرِ، أي: قوَّيتُه عليه، وكنتُ له فيه ظَهيرًا، وأصلُ الأزْرِ: القوَّةُ والشِّدَّةُ[٣].

﴿سُؤْلَكَ﴾: أي: أُمنيتَك وطَلِبَتَك، والسُّؤْلُ: الحاجةُ التي تحرِصُ النَّفسُ عليها[٤].

المَعنى الإجماليُّ:

يبينُ الله تعالى لموسى عليه السلامُ المقصود مِن تأييدِه بهاتين المعجزتين،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

فيقولُ آمرًا له: اذهبْ -يا موسَى- إلى فِرعَونَ؛ إنَّه قد تجاوَزَ قَدْرَه وتمرَّد على رَبِّه، فادْعُه إلى توحيدِ اللهِ وعبادتِه.

فسأل موسى عليه السلامُ المعونةَ مِن الله، ودعا قائلًا: ربِّ وسِّعْ لي صَدري، وسَهِّلْ لي القيامَ بشأنِ الرِّسالةِ، وأطلِقِ الانحِباسَ الشَّديدَ الذي في لساني؛ لِيُبِينَ بفَصيحِ المَنطِقِ فيَفهَم النَّاسُ كلامي، واجعَلْ لي مُعينًا مِن أهلي: هارونَ أخي، قَوِّني به وشُدَّ به ظَهري، وأشرِكْه معي في النُّبُوَّةِ وتبليغِ الرِّسالةِ؛ كي نصلِّيَ لك، ونُنَزِّهَك بالتَّسبيحِ كَثيرًا، ونَذكُرَك كثيرًا فنَحمَدَك ونُثني عليك؛ إنَّك كنتَ بنا بَصيرًا، لا يخفَى عليك شَيءٌ مِن أفعالِنا، فأجاب الله تعالى دعاءَه وقال له: قد أعطيتُك كُلَّ ما سألتَ يا موسى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٢٤) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أظهَر اللهُ تعالى لموسى -عليه السَّلامُ- الآيتينِ، فعَلِمَ بذلك أنَّه مؤيَّدٌ مِن الله تعالى؛ أمَرَه اللهُ بالأمرِ العَظيمِ الذي مِن شأنِه أنْ يُدخِلَ الرَّوعَ في نفسِ المأمورِ به، وهو مواجهةُ أعظَمِ ملوكِ الأرضِ يَومَئذٍ بالموعِظةِ، ومكاشَفتُه بفَسادِ حالِه[١].

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٢٤) ﴾.

أي: اذهبْ -يا موسى- إلى فِرعونَ مَلِكِ مِصرَ، فادعُه إلى توحيدِ الله وطاعتِه، وإرسالِ بني إسرائيلَ معك، وعَدَمِ تَعذيبِهم؛ لأنَّه تجاوَزَ حدَّه، فادَّعى الربوبيَّةَ، وتمرَّدَ على ربِّه، وعلا في الأرضِ، وأفسَد فيها[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٠).

كما قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٧ - ١٩].

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾.

أي: قال موسى: يا ربِّ وسِّعْ لي صدري؛ لأعِيَ ما تُوحيه إليَّ، وأتجرَّأ على مخاطبةِ فِرعَونَ، وأتحمَّلَ أذاه ووعيدَه، فلا يضيقَ صدري(١).

﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾.

أي: وسَهِّلْ عليَّ -يا ربِّ- القيامَ بشأنِ الرِّسالةِ، ودَعوةِ فِرعَونَ، واجعَلْ ما تُكَلِّفُني به مِن الطاعاتِ، وما يعترِيني مِن الشَّدائدِ في سبيلِك هيِّنًا عليَّ(٢).

﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾.

أي: وأطلِق الانحِباسَ الشَّديدَ الذي في لِساني؛ كي ينطَلِقَ، ويسْهُلَ عليَّ الكلامُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٢، ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٠، ٢١١).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٢).

قال السعدي: (وكان في لسانِه ثقلٌ لا يكادُ يُفهَمُ عنه الكلامُ، كما قال المفسِّرونَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

قال ابنُ كثيرٍ: (ما سأل أنْ يزولَ ذلك بالكليَّة، بل بحيثُ يزولُ العِيُّ، ويحصُلُ لهم فَهمُ ما يُريدُ منه، وهو قَدرُ الحاجةِ. ولو سأل الجميعَ لزال، ولكنَّ الأنبياءَ لا يسألون إلا بحَسَبِ الحاجةِ، ولهذا بَقِيَتْ بقيَّةٌ، قال اللهُ تعالى إخبارًا عن فِرعَونَ أنَّه قال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] أي: يُفصِحُ بالكلام. وقال الحسنُ البصري: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ قال: حلَّ عقدةً واحدةً، ولو سأل أكثرَ مِن ذلك أُعطِي). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٢).

﴿يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾.

أي: فيفهَمَ النَّاسُ قولي حينَ أُخاطِبُهم(١).

﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩﴾.

أي: واجعَلْ لي مُعينًا مِن أهلِ بيتي أعتَمِدُ عليه، فيَحمِلُ عني بعضَ ثِقَلِ أمرِ الدَّعوةِ والرِّسالةِ، ويساعِدُني على ما كلَّفتَني به(٢).

﴿هَٰرُونَ أَخِي ٣٠﴾.

أي: اجعَلْ هارونَ أخي وزيري(٣).

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ موسى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا﴾ [الفرقان: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا﴾ [مريم: ٥٣].

﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿أَشْدُدْ﴾ بهمزةٍ مفتوحةٍ مقطوعةٍ، ﴿وَأُشْرِكْهُ﴾ بضَمِّ الهمزةِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٨٩)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٦٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

على وجهِ الإخبارِ، فأخبَرَ موسى عليه السلامُ بذلك عن نفسِه، فالمعنى: إن فعلتَ ذلك أَشدُدْ به أزري، وأُشرِكْه في أمري[١].

٢- قراءةُ ﴿ٱشۡدُدۡ﴾ بوَصلِ الألفِ، ﴿وَأَشۡرِكۡهُ﴾ بفتحِ الهمزةِ، أتَى بالكلامِ على طريقِ الدُّعاءِ، أي: اللهُمَّ اشدُدْ به أزري، وأَشرِكْه في أمري[٢].

﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١﴾.

أي: قَوِّ بهارونَ ظَهري، وأعِنِّي به[٣].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥].

﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾.

أي: واجمَعْ بيني وبينه في النبُوَّةِ، وتبليغِ الرِّسالةِ، فاجعَلْه نبيًّا مِثلَ ما جعلْتَني نبيًّا، وأرسِلْه معي إلى فِرعَونَ[٤].

﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣﴾.

(١) قرأ بها ابنُ عامرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٠)، ((البدور الزاهرة)) لعبد الفتاح القاضي (ص: ٢٠٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٤١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٥٢).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٠)، ((البدور الزاهرة)) لعبد الفتاح القاضي (ص: ٢٠٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٤١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

أي: اجعَلْ هارونَ أخي عضُدًا لي؛ مِن أجلِ أنْ نتعاوَنَ معًا على عبادتِك، فنصلِّيَ لك، ونعظِّمَك بالتَّسبيحِ لك كثيرًا، تنزيهًا عمَّا لا يليقُ بك(١).

﴿وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤﴾.

أي: ونذكُرَك ذِكرًا كثيرًا فنُثنيَ عليك ونحمَدَك على نِعَمِك، ونَصِفَك بما يليقُ بك من صِفاتِ كمالِك(٢).

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ٣٥﴾.

أي: إنَّك كنتَ بنا مُبصِرًا، لا يخفَى عليك شَيءٌ مِن أمْرِنا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

قال القرطبي: (قيل: معنى ﴿نُسَبِّحَكَ﴾: نصلِّيَ لك. ويحتمَلُ أنْ يكونَ التَّسبيحُ باللِّسانِ، أي: ننزِّهَك عما لا يليقُ بجلالك). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٤).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالتسبيحِ: الصلاةُ: مقاتلُ بنُ سليمان، والسمرقندي، والثعلبي، والسمعاني، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٣٩٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٢٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٥٧).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالتسبيحِ: التَّسبيحُ باللِّسانِ: أبو حيان، والنيسابوري، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٢٤).

وممن جمَع بينَ المعنيينِ السابقين: النَّسَفي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٦٣).

وذهَب البقاعيُّ إلى ما هو أعمُّ مِن ذلك، فقال: (﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ﴾ أي: بالقولِ، والفعلِ؛ بالصلاةِ وغيرِها). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦).

قال ابنُ كثيرٍ: (قولُه: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أي: في اصطفائِك لنا، وإعطائِك إيَّانا النبوةَ، =

﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾.

أي: قال الله: قد أُعطيتَ كلَّ ما طَلَبْتَه -يا موسى- مِن شَرحِ صَدرِك، وتيسيرِ أمرِك، وحَلِّ عُقدةٍ مِن لسانِك، وجَعْلِ أخيك هارونَ وزيرًا لك، وإشراكِه في الرِّسالةِ معك[1].

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ * وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٣ - ٣٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- سأل موسى عليه السلامُ ربَّه المعونةَ، وتيسيرَ الأسبابِ، التي هي من تمامِ الدعوةِ، فقال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ أي: وسِّعْه وأفسِحْه؛ لأتحمَّلَ الأذى القوليَّ والفِعليَّ، ولا يتكدَّرَ قلبي بذلك، ولا يضيقَ صدري؛ فإنَّ الصَّدرَ إذا ضاق لم يصلُحْ صاحِبُه لهدايةِ الخَلقِ ودَعوتِهم. وقال: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ ومِن تيسيرِ الأمرِ أنْ يُيسرَ للداعي أنْ يأتيَ جميعَ الأمورِ مِن أبوابِها، ويخاطِبَ كلَّ أحدٍ بما يناسبُ له، ويدعوه بأقربِ الطرقِ الموصلةِ إلى قَبولِ قولِه[2].

= وبعثتِك لنا إلى عدوِّك فرعونَ، فلك الحمدُ على ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٣).

وقال السعدي: (﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾ تعلمُ حالَنا، وضعفَنا، وعجزَنا، وافتقارَنا إليك في كلِّ الأمورِ، وأنت أبصرُ بنا مِن أنفسِنا وأرحمُ، فمُنَّ علينا بما سألناك، وأجِبْ لنا فيما دعوناك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

٢- الاستعانةُ إذا كانت بأُولي القُربى من أهلِ النَّسَبِ أو التَّربيةِ أو الاصطناعِ القديمِ للدَّولةِ، كانت أكمَلَ؛ لِما يقعُ في ذلك من مجانسةِ خُلُقِهم لخُلُقِه، فتَتِمَّ المُشاكَلةُ في الاستعانةِ؛ قال تعالى ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي * هَٰرُونَ أَخِي * ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي * وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾[1].

٣- قولُ الله تعالى حكايةً عن موسى: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾ في ختمِ الأدعيةِ بهذه الآيةِ فيه فوائدُ:

منها: تفويضُه إلى الله تعالى بأنَّه أعلَمُ بما فيه صلاحُهم، وأنَّه ما سأل سؤالَه إلَّا بحَسَبِ ما بلَغَ إليه عِلمُه[2]، وفيه من حسن الأدب ما لا يخفى.

ومنها: أنَّه عرَض فقرَه واحتياجَه على علمِه سبحانَه، وأنَّه مفتقرٌ إلى التعاونِ والتعاضدِ، ولهذا سأَل ما سأل.

ومنها: أنَّه أعلمُ بأحوالِ أخيه: هل يصلحُ لوزارتِه أم لا، وأنَّ وزارتَه هل تصيرُ سببًا لكثرةِ التسبيحِ والذكرِ.

وحينَ راعَى مِن دقائقِ الأدبِ، وأنواعِ حسنِ الطلبِ ما يجبُ رعايتُه، فلا جرمَ أجاب الله تعالى مطالبَه، وأنجحَ مآربَه، قائلًا: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ هذا سؤالٌ مِن موسى عليه السَّلامُ لربِّه عزَّ وجل: أنْ يَشرَحَ له صَدْرَه فيما بعَثَه به؛ فإنَّه قد أمَرَه بأمرٍ عظيمٍ، وخَطْبٍ جسيمٍ؛ بعَثَه إلى أعظَمِ مَلِكٍ على وَجهِ الأرض إذ ذاك، وأجبَرِهم وأشَدِّهم كُفرًا،

(١) يُنظر: ((تاريخ ابن خلدون)) (١/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٥٣٩).

وأكثرِهم جُنودًا، وأعمَرِهم مُلكًا، وأطغاهم وأبلَغِهم تمَرُّدًا، بلغَ مِن أمرِه أنِ ادَّعى أنَّه لا يَعرِفُ اللهَ، ولا يعلَمُ لرعاياه إلهًا غيرَه! هذا وقد مكث موسى في دارِه مُدَّةً وليدًا عندَهم في حِجرِ فِرعَونَ على فراشِه، ثمَّ قَتَل منهم نَفسًا فخافهم أنْ يقتُلوه، فهرب منهم هذه المدَّةَ بكمالِها، ثمَّ بعد هذا بعَثَه رَبُّه عزَّ وجَلَّ إليهم نذيرًا يدعوهم إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ أنْ يَعبُدوه وَحْدَه لا شَريكَ له[1].

٢- قولُ الله تعالى حكايةً عن نبيِّه موسى: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي * يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ فيه أنَّ فصاحةَ لسانِ الدَّاعيةِ إلى الدِّينِ، والواعِظِ المُنذِرِ؛ تُعينُ على تدبُّرِ ما يقولُ، وفِقهِه[2].

٣- قال الله تعالى حِكايةً عن موسى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي * هَٰرُونَ أَخِي * ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي * وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ لَمَّا أفهَمَ سُؤالُه هذا أنَّ له فيه أغراضًا، أشار إلى أنَّها ليست مَقصودةً له لأمرٍ يَعودُ على نفسِه، بِذِكرِ العلَّةِ الحَقيقيَّةِ، فقال: ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ﴾... فأفصحَ عن أنَّ المرادَ بالمعاضَدةِ إنَّما هو لتمهيدِ الطَّريقِ إلى اللهِ سُبحانَه[3].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي﴾ طلبُ موسى الوزيرَ إمَّا أنْ يكونَ لأنَّه خاف من نفسِه العَجزَ عن القيامِ بذلك الأمرِ، فطلبَ المُعينَ، أو لأنَّه رأى أنَّ للتعاونِ على الدِّينِ، والتظاهُرِ عليه مع مخالصةِ الوُدِّ، وزَوالِ التُّهمةِ؛ مَزيَّةً عَظيمةً في أمرِ الدُّعاءِ إلى اللهِ؛ ولذلك قال عيسى بنُ مريمَ: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾[4] [آل عمران: ٥٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٤٤).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي * هَٰرُونَ أَخِي﴾ سأل أنْ يكونَ مِن أهلِه؛ لأنَّه من بابِ البِرِّ، وأحَقُّ ببِرِّ الإنسانِ قَرابتُه[1]، ولأنَّه به أوثَقُ؛ لكونِه عليه أشفَقَ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تخلُّصٌ إلى ما هو المقصودُ مِن تَمهيدِ المُقدِّماتِ السَّالفةِ، فُصِلَ عمَّا قبْلَه مِن الأوامرِ؛ إيذانًا بأصالتِه[3].

- وخَصَّ فِرعَونَ بالذِّكرِ -مع أنَّ موسى عليه السلامُ كان مبعوثًا إلى الكُلِّ- لأنَّه ادَّعى الإلهيَّةَ وتكبَّر، وكان مَتبوعًا؛ فكان ذِكرُه أولى[4].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ أو لوُجوبِ المأمورِ به، وإنَّما صلَحَتْ للتَّعليلِ؛ لأنَّ المُرادَ ذَهابٌ خاصٌّ، وهو إبلاغُ ما أمَرَ اللهُ بإبلاغِه إليه؛ مِن تَغييرِه عمَّا هو عليه من عِبادةِ غيرِ اللهِ[5].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ قال هنا: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، وقال في (الشُّعراءِ): ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٠-١١]، وقال في (القَصصِ): ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢]؛ ففي الآيةِ الأُولى ذكَرَ فِرعونَ وحْدَه؛ لأنَّ قومَه تبَعٌ له، وكأنَّهم مذكورونَ معه، وفي الآيةِ الثَّانيةِ ذكَرَ قومَ فِرعونَ من دُونِه، ومعلومٌ أنَّه منهم، ومُخاطَبٌ بمثْلِ خِطابِهم، فإذا اتَّقوا وآمَنُوا، كان فِرعَونُ وحْدَه لا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٢٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٠).

يَقدِرُ على مُخالَفَتِهم، فترَكَ ذِكْرَه؛ لأنَّه في هذه الحالةِ في حُكْمِ التَّابعِ لهم، وخِطابُهم خِطابُه. أمَّا الموضعِ الثَّالثُ فإنَّ الحِكايةَ أتَتْ على فِرعونَ وملَئِه، فبيَّنَت ما انطوَتْ عليه الآياتُ قبْلُ مِنْ ذكْرِ بعضٍ، والاكتفاءِ به عن بعضٍ، وهذا كما قال في موضعٍ لمُوسى وحْدَه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٢٤]، وفي موضعٍ: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]؛ لأنَّ هارونَ تابعٌ له، وداخِلٌ في حُكْمِه، وأبانَ ذلك في موضعٍ، فقال: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، وقال في (طه): ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾(١) [طه: ٤٧].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ يَنساقُ إليه الذِّهْنُ؛ كأنَّه قيل: فماذا قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حين أُمِرَ بهذا الأمْرِ الخطيرِ، والخَطْبِ العسيرِ؟ فقيل: قال مُستعِينًا بربِّه عَزَّ وجَلَّ:...(٢).

- وحُكِيَ جَوابُ مُوسى عن كلامِ الرَّبِّ بفعْلِ القولِ غيرَ معطوفٍ؛ جرْيًا على طَريقةِ المُحاوَراتِ(٣).

- وفائدةُ لفظةِ ﴿لِي﴾ في قولِه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي﴾ مع أنَّ الكلامَ بدُونِه مُستتِبٌّ: أنَّه قد أُبْهِمَ الكلامُ أوَّلًا، فقيل: (اشرَحْ لي ويسِّرْ لي)؛ فعُلِمَ أنَّ ثَمَّ مَشروحًا ومُيسَّرًا، ثُم بُيِّنَ ورُفِعَ الإبهامُ بذِكْرِهما؛ فكان آكَدَ لطلَبِ الشَّرحِ والتَّيسيرِ لصَدْرِه وأمْرِه من أنْ يقولَ: (اشرَحْ صَدْري، ويسِّرْ أمْري) على الإيضاحِ السَّاذجِ؛ لأنَّه تكريرٌ للمعنى الواحدِ من طَريقيِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٩٥-٨٩٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٠).

الإجمالِ والتَّفصيلِ[(١)]. وأيضًا زيادةُ ﴿لِي﴾ بعدَ ﴿ٱشْرَحْ﴾ وبعدَ (يَسِّرْ) إطنابٌ؛ لأنَّ الكلامَ مفيدٌ بدُونِه، ولكن سلَك الإطنابَ لِمَا تُفيدُه اللامُ مِن معنى العِلَّةِ، أي: اشرحْ صدري لأجْلي، ويَسِّرْ أمْري لأجلي، وهي اللامُ المُلقَّبةُ (لامَ التَّبيينِ)، التي تُفيدُ تقويةَ البيانِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿صَدْرِى﴾ و﴿أَمْرِى﴾ واضحٌ أنَّ الشرحَ والتيسير متعلِّقان بِه؛ فكان قولُه: ﴿لِي﴾ فيهما زيادةَ بيانٍ، وهو هنا ضربٌ مِن الإلحاحِ[(٢)]. أو تكونُ فائدتُها الاعترافَ بأنَّ مَنفعةَ شرْحِ الصَّدرِ، وتَيسيرِ الأمْرِ راجعةٌ إليه، وعائدةٌ عليه؛ فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لا يَنتفِعُ بإرسالِه، ولا يَستعينُ بشرْحِ صَدْرِه، تعالى وتقدَّسَ[(٣)].

- وتَقديمُ هذا المجرورِ على مُتعلَّقِه في قولِه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾؛ لِيحصُلَ الإجمالُ ثُمَّ التَّفصيلُ؛ فيُفيدَ مُفادَ التَّأكيدِ من أجْلِ تكرُّرِ الإسنادِ[(٤)]. وأيضًا في تَقديمِ ﴿لِى﴾ وتَكريرِها: إظهارُ مَزيدِ اعتناءٍ بشأْنِ كلٍّ مِن المطلوبَيْنِ، وفضْلُ اهْتمامٍ باستدعاءِ حُصولِهما له، واختصاصِهما به[(٥)].

- وإضافةُ (أمْرٍ) إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ في قولِه: ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾؛ لإفادةِ مَزيدِ اختصاصِه به، وهو أمْرُ الرِّسالةِ[(٦)].

ومن المُناسَبةِ أيضًا: أنَّ قولَه هنا: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ طلَبُ أمانٍ له مِن أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٧-٣٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١١).

يُقتَلَ بمَن قتَلَه، وهذا معنى قولِه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدۡرِي﴾ [الشعراء: ١٢-١٣]؛ لأنَّهم لو صَدَّقوه لَمَا خاف أنْ يَقْتُلوه. وكذلك قولُه في السُّورةِ الثَّالثةِ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]، وقولُه: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: ٢٦]، مُشتمِلٌ على ذلك وغيرِه؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا يَسَّر له أمْرَه، لم يخَفِ القتْلَ(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي * يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾

- تَنكيرُ ﴿عُقۡدَةٗ﴾ في قولِه: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ﴾ للتَّعظيمِ، أي: عُقدةً شَديدةً. وعدَلَ عن أنْ يقولَ: (عُقدةَ لِساني) بالإضافةِ؛ ليَتأتَّى التَّنكيرُ المُشعِرُ بأنَّها عُقدةٌ شَديدةٌ(٢). أو لأنَّه طلَبَ حَلَّ بعْضِها إرادةَ أنْ يُفْهَمَ عنه فَهمًا جيِّدًا، ولم يطلُبِ الفصاحةَ الكاملةَ؛ كأنَّه قيل: عُقدةً من عُقَدِ لِساني(٣).

- في قولِه: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ شَبَّه حُبْسَةَ اللِّسانِ بالعُقْدةِ في الحبْلِ أو الخيطِ ونحْوِهما؛ لأنَّها تمنَعُ سُرعةَ استعمالِه(٤).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي * يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾، فهو معنى قولِه: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ١٣]، وكذلك في سُورةِ (القَصصِ): ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤]، فطلَبَ أنْ يَحُلَّ عُقدةً

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٩٣-٨٩٤)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) (١/ ٣١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٨٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١١).

مِن عُقَدِ لِسانِه، وأنْ يُؤيَّدَ بأخيه، فأُجِيبَ إليهما. وسائرُ ما ذُكِرَ في سُورةٍ ولم يُذْكَرْ في أُخرى ليس من الاختلافِ الَّذي يُعابُ(١).

وفيه وجْهٌ آخرُ: أنَّه صَرَّحَ بالعُقْدةِ هنا؛ لأنَّها السَّابقةُ، وفي (الشُّعراءِ): ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ [الشعراء: ١٣]، فكَنَّى عن العُقدةِ بما يقرُبُ من الصَّريحِ، وفي (القَصصِ) قال: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]، فكنَّى عن العُقدةِ كِنايةً مُبْهَمَةً؛ لأنَّ الأوَّلَ يدُلُّ على ذلك(٢).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَـٰرُونَ أَخِي﴾ خَصَّ هارونَ عليه السَّلامُ؛ لفرْطِ ثِقَتِه به، ولأنَّه كان فَصِيحَ اللِّسانِ مِقْوالًا؛ فكونُه من أهْلِه مَظِنَّةَ النُّصحِ له، وكونُه أخاهُ أقْوى في المُناصَحةِ، وكونُه الأخَ الخاصَّ؛ لأنَّه معلومٌ عنده بأصالةِ الرَّأيِ(٣).

- وقَدَّمَ ﴿وَزِيرًا﴾ على ﴿هَـٰرُونَ﴾؛ اعتناءً بشأْنِ الوِزارةِ(٤)، وبيانًا لاهتمامِه بالإعانةِ، كما يقتضيه الحالُ(٥).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَـٰرُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٩، ٣٠]، فصَرَّحَ بالوزيرِ؛ لأنَّه الأوَّلُ في الذِّكرِ، وكَنَّى عنه في (الشُّعراءِ)،

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٩٤-٨٩٥).
(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٣-٣٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٣).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٤).

حيث قال: ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ١٣]، أي: ليكونَ لي وزيرًا، وفي (القصصِ): ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا﴾ [القصص: ٣٤]، أي: اجعَلْه لي وزيرًا، فكنَّى عنه بقولِه: ﴿رِدۡءٗا﴾؛ لبَيانِ الأوَّلِ[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي * وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ كلاهما على صِيغَةِ الدُّعاءِ، وفُصِلَ الأوَّلُ عن الدُّعاءِ السَّابقِ -أي: لم يُعْطَفْ عليه-؛ لكَمالِ الاتِّصالِ بينهما؛ فإنَّ شَدَّ الأزْرِ عبارةٌ عن جَعْلِه وزيرًا، وأمَّا الإشراكُ في الأمْرِ فحيث كان من أحكامِ الوزارةِ توسَّطَ بينهما العاطِفُ[2].

- قولُه: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ المرادُ بالأزرِ الظَّهرُ؛ لِيُناسِبَ الشدَّ؛ فيَكونَ الكلامُ تَمثيلًا لهَيئةِ المُعينِ والمُعانِ بهَيئةِ مَشدودِ الظَّهرِ بحزامٍ ونحْوِه وشادِّه[3].

٦- قولُه تعالى: ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا * وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾ قَدَّمَ التَّسبيحَ؛ لأنَّه تنزيهُه تعالى في ذاتِه وصفاتِه، وبَراءتُه عن النَّقائصِ، ومَحلُّ ذلك القلْبُ، والذِّكْرُ والثَّناءُ على اللهِ بصفاتِ الكَمالِ، ومَحلُّه اللِّسانُ؛ فلذلك قَدَّمَ ما مَحلُّه القلْبُ على ما مَحلُّه اللِّسانُ[4]، أو لأنَّ التسبيحَ لما كان ذكرًا خاصًّا؛ لكونِه بالتنزيهِ الذي أعلاه التوحيدُ؛ أتبعَه العامَّ فقال: ﴿وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾[5]، وهذان الوجهانِ بناءً على تفسيرِ التسبيحِ بالتنزيهِ.

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٥).

٧- قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ تَعليلٌ لسُؤالِه شرْحَ صدْرِه وما بعْدَه[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾

- في تَكرارِ النِّداءِ ﴿يَـٰمُوسَىٰ﴾: تَشريفٌ له عليه السَّلامُ بشرَفِ الخِطابِ إثْرَ تَشريفِه بشرَفِ قَبولِ الدُّعاءِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤).

الآيات (٣٧-٤١)

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿التَّابُوتِ﴾: أي: الصُّندوقِ، قيل: وزنُه فَعْلوتٌ من التَّوْبِ، فإنَّه لا يزالُ يَرجِعُ إليه ما يخرُجُ منه(١).

﴿بِالسَّاحِلِ﴾: أي: شاطِئِ البَحرِ، قيل: أصلُه من: سَحَلَ الحديدَ، أي: بَرَدَه وقَشَرَه؛ لأنَّ الماءَ يفعلُ به ذلك، فقيل: أصلُه أنْ يكونَ مَسْحولًا، لكن جاء على لفظِ الفاعلِ، وقيل: بل هو على بابِه، وتُصوِّر منه أنَّه يَسْحَلُ الماءَ، أي: يُفرِّقه ويُضيِّعه(٢).

﴿يَكْفُلُهُ﴾: أي: يَضُمُّه، والكَفالةُ: الضَّمانُ، وأصلُه يدُلُّ على تَضَمُّنِ الشَّيءِ لِلشَّيءِ(٣).

﴿تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾: أي: تطيبَ نَفسُها، قيل: أصلُه من القُرِّ، أي: البَردِ، فَقَرَّتْ عينُه،

---

(١) يُنظر: ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٣)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٧).

قيل: معناه بَرَدَت فصحَّت، وقيل: هو من القَرارِ، والمعنى: أعطاه اللهُ ما تَسكُنُ به عينُه، فلا يطمَحُ إلى غيرِه(١).

﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾: أي: اختبَرناك اختبارًا، والفتنةُ في الأصْلِ: الاختِبارُ والابتِلاءُ والامتِحانُ، مأخوذةٌ من الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهَبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودتُه مِن رداءتِه(٢).

﴿قَدَرٍ﴾: أي: ميقاتٍ ووَقتٍ ومِقدارٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مبلغِ الشَّيءِ وكُنهِه ونهايتِه(٣).

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ﴾: أي: اصطفيتُك، واختَرتُك، والاصطِناعُ: المبالغةُ في إصلاحِ الشَّيءِ(٤).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مذكِّرًا موسى عليه السلامُ ببعضِ مِنَنِه عليه: ولقد أنعَمْنا عليك يا موسى -قبلَ هذه المرَّةِ- بنِعمةٍ أُخرى، حين كنتَ رَضيعًا، إذ ألهَمْنا أمَّك ما ألهمْناها مِن أمرٍ عظيمٍ يتعلَّقُ بنجاتِك، وهو أنْ تضَعَك في الصُّندوقِ،

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٣، ٧٣٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢ - ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣١).

ثمَّ تَقذِفَك في النِّيلِ، وبأمرِنا وقدرتِنا يُلقيك النِّيلُ على الشَّاطئِ، فيأخُذُك فِرعَونُ الذي هو عدوِّي وعَدُوُّك، وأحببتُك، ووضعْتُ لك القَبولَ بينَ النَّاسِ، فصِرتَ بذلك مَحبوبًا بينهم، ولِتُرَبَّى على عيني وفي حِفظي.

ومِن مظاهِرِ هذه العنايةِ والحِفظِ والمنَّةِ عليك ما يجِبُ تذكُّرُه، وذلك حينَ كانت أختُك تمشي تتَّبِعُك ثمَّ تقولُ لِمَن أخذوك: هل أدلُّكم على مَن يكفُلُه، ويُرضِعُه لكم؟ فرَدَدْناك إلى أمِّك بعدما صِرْتَ في يدِ فِرعَونَ؛ كي تطيبَ نَفسُها بسَلامتِك، ولا تحزَنَ على فَقْدِك، وقتَلْتَ الرَّجُلَ القِبطيَّ خطأً، فنجَّيناك مِن الغمِّ، واختَبرناك اختبارًا بإيقاعِك في المحنِ، وتخليصِك منها، فخرَجْتَ خائفًا إلى أهلِ «مَدْينَ»، فمَكَثْتَ سِنينَ فيهم، ثمَّ جِئْتَ إلى الوادِ المقدَّسِ في الموعدِ الذي قدَّرناه لِمَنحِك النبوَّةَ، مجيئًا مُوافِقًا لقَدَرِ اللهِ وإرادتِه، وأنعَمْتُ عليك -يا مُوسى- بهذه النِّعَمِ الكثيرةِ؛ لتكونَ لي حبيبًا مختَصًّا، ورسولًا لتبليغِ رِسالتي.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ٣٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مِنَّتَه على موسى -عليه السَّلامُ- في الدينِ والوَحيِ، والرِّسالةِ وإجابةِ سُؤالِه؛ ذكَرَ نِعمَتَه عليه وقتَ التَّربيةِ، والتنَقُّلاتِ في أطوارِه[(١)].

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ٣٧﴾.

أي: ولقد أحسنَّا إليك -يا موسى- وأنْعَمْنا عليك قبلَ هذه المرَّة -أي: قبلَ نِعمةِ الوحيِ والرِّسالةِ وإجابةِ الدُّعاءِ- مرَّةً أخرى، وأنت طفلٌ صغيرٌ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨﴾.

أي: وذلك قد وقع حينَ ألهَمْنا أمَّك في شأنِك ما يُلْهَمُ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾.

﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾.

أي: فأوحَينا إليها أنْ ألْقِ ابنَك موسى في الصُّندوقِ[(٢)].

﴿فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾.

أي: فاطرَحيه وهو في الصُّندوقِ في نهرِ النِّيلِ[(٣)].

= (١١/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨).

قال الواحدي: (﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ قال المفسرونَ: وَحْيُ إلهامٍ). ((البسيط)) (١٤/ ٣٩٣).

وقال ابن عاشور: (الوحيُ هنا: وحيُ الإلهامِ الصادقِ. وهو إيقاعُ معنًى في النفسِ ينثَلِجُ له نفسُ المُلقَى إليه، بحيثُ يجزمُ بنجاحِه فيه، وذلك مِن توفيقِ الله تعالى. وقد يكونُ بطريقِ الرُّؤيا الصالحةِ التي يُقذَفُ في نفسِ الرَّائي أنها صِدقٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦، ٥٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨).

قال الشنقيطي: (الضميرُ في قوله: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ﴾ راجعٌ إلى موسى بلا خلافٍ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٤)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾.

أي: فلْيُلقِ[(١)] نهرُ النِّيلِ موسى وهو في داخِلِ الصُّندوقِ بالشَّاطئِ[(٢)].

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾.

أي: وحينئذٍ يأخُذُ موسى فِرعَونُ الذي هو عدوٌّ لي وعدوٌّ لموسى[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾.

أي: أحبَبْتُكَ وجعلتُك محبوبًا لكلِّ من يراك، ووضعتُ لك القَبولَ بينَ النَّاسِ[(٤)].

= (١١/ ١٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨، ٩).

قال الرازي: (اليمُّ هو البحرُ، والمرادُ به هاهنا نيلُ مِصرَ في قولِ الجميعِ، واليمُّ: اسمٌ يقع على البحرِ وعلى النَّهرِ العظيم). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٤٧).

(١) قال الشنقيطي: (صيغةُ الأمرِ في قولِه: ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ فيها وجهانِ معروفانِ عند العُلَماءِ: أحدُهما: أنَّ صيغةَ الأمر معناها الخبَرُ؛ قال أبو حيان في «البحر المحيط»: ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾: أمرٌ معناه الخبَرُ، وجاء بصيغةِ الأمر مُبالغةً؛ إذ الأمرُ أقطَعُ الأفعالِ وأوجَبُها.

الوجهُ الثاني: أنَّ صيغةَ الأمرِ في قَولِه: ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ أريدَ بها الأمرُ الكونيُّ القَدَريُّ، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فالبَحرُ لا بدَّ أنْ يُلقيَه بالسَّاحِلِ؛ لأنَّ اللهَ أمَرَه بذلك كَونًا وقَدَرًا). ((أضواء البيان)) (٤/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨، ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩٧، ٣٩٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٧).

قال الواحدي: (قال في روايةِ سعيدِ بنِ جُبَير: «ألقى عليه منها [أي: امرأةِ فرعونَ] محبَّةً لم يُلقَ =

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾.

أي: ولتُغذَّى وتُربَّى في قصر فِرعَون على ما أُريدُ بمرأًى منِّي، وتحت حِفْظي ورعايتي[1].

= منها على أحدٍ مِن البشَرِ» وهذا كلامُ المفَسِّرينَ، فأمَّا ظاهِرُ اللَّفظِ فإنَّه يقتضي أنَّ الله تعالى أحبَّه، وحُبُّ الله تعالى إيَّاه أعظَمُ نِعمةٍ وأجملُ إحسانٍ). ((البسيط)) (١٤/ ٣٩٧).

وقال ابنُ عثيمين: (فقولُه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾: اختلفَ المفَسِّرونَ في معناها؛ فمِنهم من قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾، يعني: أنِّي أحبَبْتُك. ومنهم مَن قال: ألقيتُ عليك محبَّةً مِنَ النَّاسِ، والإلقاءُ مِنَ اللهِ، أي: أنَّ من رآك أحبَّك، وشاهِدُ هذا أنَّ امرأةَ فِرعَونَ لَمَّا رأتْه أحبَّتْه وقالت: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

ولو قال قائلٌ: أيمكِنُكم أن تَحمِلوا الآيةَ على المعنَيَينِ؟ لقُلْنا: نعمْ، بناءً على القاعدةِ، وهي: أنَّ الآيةَ إذا كانت تَحمِلُ مَعنيَينِ لا مُنافاةَ بينهما، فإنَّها تُحمَلُ عليهما جميعًا؛ فموسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ محبوبٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، ومحبوبٌ مِن النَّاسِ، إذا رآه الناسُ أحبُّوه، والواقِعُ أنَّ المعنَيَينِ متلازِمانِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى إذا أحبَّ عبدًا ألقى في قُلوبِ العبادِ محبَّتَه، ويُروى عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه قال: أحَبَّه اللهُ، وحَبَّبه إلى خَلقِه). ((شرح العقيدة الواسطية)) (١/ ٣١٩).

وقال الثعلبي: (قولُه سبحانه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ قال ابنُ عباسٍ: أحبَّه وحبَّبه إلى خلقِه). ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٢٤٤).

وقال البقاعي: (... لتكونَ أهلًا لما أريدُك له). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٢٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

قال ابنُ عاشور: (قرأه الجُمهورُ بكَسرِ اللَّامِ، على أنَّها لامُ كي، وبنَصبِ فِعلِ «لِتُصنَعَ»، وقرأه أبو جعفرٍ بسكونِ اللَّامِ، على أنَّها لامُ الأمرِ، وبجَزمِ الفِعلِ على أنَّه أمرٌ تكوينيٌّ، أي: وقلنا: لِتُصنَعْ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٨). ويُنظر: ((الدر المصون)) للحلبي (٨/ ٣٦).

وقال الشوكاني: (قيل: واللامُ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ، أي: فعَلْتُ ذلك لِتُصنَعَ. وقيل: متعلِّقةٌ بـ «ألقيتُ». وقيل: متعلقةٌ بما بعده، أي: ولِتُصنَعَ على عيني قدَّرْنا مشيَ أُختِك). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٣١).

قال ابنُ عثيمين: (ظاهِرُ الكلامِ: أنَّ تربيةَ موسى تكونُ على عَينِ اللهِ يرعاه ويكلؤُه بها. وهذا معنى قَولِ بَعضِ السَّلَفِ: «بمرأًى منِّي»؛ فإنَّ الله تعالى إذا كان يكلؤُه بعَينِه لزم من ذلك أنْ =

﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ﴾.

أي: حينَ[1] كانت أختُك تمشي لِتتبَّعَك حتى وجدَتْك في أيدي آلِ فِرعَونَ يَطلُبونَ لك مُرضِعًا فتقولُ لهم: هل أدلُّكم على من يضُمُّ هذا الطِّفلَ إليه، ويقومُ بمَصالحِه وخِدمتِه، فيُرضِعُه ويُربِّيه ويحفَظُه[2]؟

كما قال تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القصص: ١٠ - ١٢].

﴿ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾.

= يراه، ولازِمُ المعنى الصَّحيحِ جُزءٌ منه، كما هو معلومٌ مِن دَلالةِ اللَّفظِ؛ حيث تكونُ بالمطابقةِ والتضَمُّنِ والالتزام). ((القواعد المثلى)) (ص: ٦٧) بتصرف.

(١) قال الشنقيطي: (اختُلِف في العاملِ الناصبِ للظرفِ الذي هو «إذ» من قولِه: ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ ﴾ فقيل: هو «ألقيت» أي: ألقيتُ عليك محبةً مني حينَ تمشي أختُك. وقيل: هو «تصنع» أي «تصنع على عيني» حينَ تمشي أختُك. وقيل: هو بدلٌ مِن «إذ» في قولِه: ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ ﴾ [طه: ٣٨]. قال الزمخشري: فإن قلتَ: كيف يصِحُّ البدلُ، والوقتان مختلفان متباعدان؟ قلتُ: كما يصحُّ وإن اتَّسع الوقتُ، وتباعَد طرفاه أنْ يقولَ لك الرجلُ: لقيتُ فلانًا سنةَ كذا. فتقولُ: وأنا لقيتُه إذ ذاك. وربما لقِيه هو في أوَّلِها، وأنت في آخرِها). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٠).

وقال ابنُ عطية: (العاملُ في ﴿ إِذْ ﴾ فعلٌ مضمرٌ تقديرُه ومَنَنَّا إذْ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠، ٦١، ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٨).

أي: فرَدَدْناك إلى أمِّك بعدَما صرتَ في أيدي آلِ فِرعَون؛ لكي تفرَحَ بلُقياك وسَلامتِك، ولا تحزَنَ على فَقدِك وفِراقِك[(١)].

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾.

أي: وقتلتَ الرجُلَ القبطيَّ من آلِ فِرعَونَ حينَ استغاثَك الإسرائيليُّ عليه، وكانَ قتلُه له خطأً[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾.

أي: فنجَّيناك من غمِّك لَمَّا أراد آلُ فِرعَون قَتْلَك اقتصاصًا للقبطيِّ، ففَرَرتَ منهم خائفًا إلى مَدْينَ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۞ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٠، ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١١، ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٠).

﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾.

أي: واختَبرناك اختبارًا بإيقاعِك في المحنِ، وتخليصِك منها(١).

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾.

أي: فلمَّا خرجتَ من مصرَ خائفًا إلى مَدْينَ أقمتَ سنينَ كثيرةً عندَ أهلِها(٢).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٠١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٠٨)، ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٢٩٥).

وقال الشوكاني: (﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ الفتنةُ تكونُ بمعنَى المحنةِ، وبمعنَى الأمرِ الشَّاقِّ، وكُلِّ ما يبتلَى به الإنسانُ، والفتونُ يجوزُ أنْ يكونَ مصدرًا... أي: ابتليناكَ ابتلاءً، واختبرناكَ اختبارًا، ويجوزُ أَنْ يكونَ جمعَ فِتْنَةٍ... أيْ: خَلَّصناكَ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ مِمَّا وَقَعْتَ فيه مِنَ المحَنِ الَّتي سَبَق ذكرُها قبلَ أنْ يصطفيَه اللَّهُ لرسالَتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٣٢). ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣).

وممَّن اختار أنَّ قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ يعني: اختبرناك وامتحنَّاك: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، وابنُ القيم، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٣، ٧٠، ٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

قال ابنُ عطية: (وقالت فِرقةٌ: معناه: اختبرناك. وعلى هذا التأويلِ لا يُرادُ إلَّا ما اختُبِرَ به موسى بعد بلوغِه وتكليفِه، وما كان قبل ذلك فلا يدخُلُ في اختبارِ موسى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: خلَّصناك من المحَنِ تخليصًا: ابنُ عطية -ونسَبه لجمهورِ المفسرينَ-، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٨).

قال ابنُ عباسٍ فِي روايةِ سعيد بن جبير، ومجاهدٌ فِي روايةِ ابنِ أبي نَجِيحٍ: (الفُتونُ وقوعُه في محنةٍ بعدَ محنةٍ، خلَّصه اللهُ منها). يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٠٦).

وقال ابنُ القيمِ: (لفظُ الفِتنةِ في كتابِ الله تعالى يُراد بها الامتِحانُ الذي لم يُفتَتَنْ صاحِبُه، بل خَلَص مِن الافتِتانِ، ويُرادُ بها الامتحانُ الذي حصَلَ معه افتِتانٌ؛ فمِنَ الأوَّلِ: قولُه تعالى لموسى عليه السَّلامُ: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]. ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

كما قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢١-٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ۞ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا﴾ [القصص: ٢٧ - ٢٩].

﴿ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ﴾.

أي: ثم حَضَرتَ الآن -يا موسى- إلى الوادِ المقَدَّسِ في الوقتِ المحدَّدِ الذي قدَّرتُه، وأردتُ فيه منْحَك النبوَّةَ، وتكليفَك بإبلاغِ الرِّسالةِ إلى فِرعَونَ، بلا تقدُّمٍ ولا تأخُّرٍ[(١)].

﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾.

أي: واصطفيتُك وأنعمتُ عليك بالنِّعَم الكثيرةِ؛ لأجل أنْ تكونَ لي حبيبًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣).
قال الواحدي: (يعني: على رأسِ أربعينَ سنةً، وهو القَدرُ الذي يُوحَى فيه إلى الأنبياءِ، هذا قولُ المفسِّرينَ، والمعنى: على الوعدِ الذي وعَدَه الله وقَدَّره في عِلمِه أنْ يوحى إليه بالرِّسالةِ، وهو أربعون سنة). ((الوسيط)) (٣/ ٢٠٧).
وقال السعدي: (﴿ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: جئتَ مجيئًا قد مضى به القدرُ، وعلمه الله وأراده في هذا الوقتِ وهذا الزمانِ وهذا المكانِ، ليس مجيئُك اتفاقًا من غيرِ قصدٍ ولا تدبيرٍ منا، وهذا يدلُّ على كمالِ اعتناءِ الله بكليمِه موسى عليه السلام). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

مختَصًّا، ورسولًا لتبليغ رسالتي[(١)].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾ فيه سؤالٌ: لَمَ قال تعالى: ﴿مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾ مع أنَّه تعالى ذكَرَ مِننًا كثيرة؟

الجوابُ: أنَّه لم يَعنِ بـ﴿مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾ مرةً واحدةً مِن المِنَنِ؛ لأنَّ ذلك قد يُقالُ في القليلِ والكثيرِ[(٢)].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥ﴾ أصلٌ في الحضانةِ[(٣)].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗا﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ الله تعالى عدَّد أنواعَ مِنَنِه على موسى عليه السَّلامُ في هذا المقامِ، فكيف يليقُ بهذا الموضِعِ قَولُه: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗا﴾؟

والجوابُ مِن وُجوهٍ، منها:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ الفِتنةَ تَشديدُ المحنةِ، ولَمَّا كان التَّشديدُ في المحنةِ مِمَّا يُوجِبُ كثرةَ الثوابِ، لاجرمَ عدَّه اللهُ تعالى من جملةِ النِّعَمِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٩٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٤).

قال ابن تيمية: (لفظُ النفسِ في حقِّ الله تعالى ليس إلا الذَّاتَ والحقيقةَ؛ فقَولُه: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ كالتأكيدِ الدَّالِّ على مزيدِ المبالغةِ؛ فإنَّ الإنسان إذا قال: جعلت هذه الدارَ لنفسي وعَمَرتُها لنفسي؛ فُهِمَ منه المبالغةُ). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٧/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٦).

الوجهُ الثاني: أنَّ ﴿وَفَتَنَّكَ فُتُونًا﴾ أي: خَلَّصناك تخليصًا، مِن قَولِهم: فتَنْتُ الذَّهَبَ مِن الفِضَّةِ: إذا أردْتَ تخليصَه(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَقريرِ ما قبْلَه، وزيادةِ تَوطينِ نفْسِ مُوسى عليه السَّلامُ بالقَبولِ، ببَيانِ أنَّه تعالى حيثُ أنعَمَ عليه بتلك النِّعمِ التَّامَّةِ من غيرِ سابقةِ دُعاءٍ منه وطلَبٍ، فلأَنْ يُنعِمَ عليه بمِثْلِها وهو طالبٌ له وداعٍ أَوْلى وأحْرى(٢). وقيل: إنَّها معطوفةٌ على جُملةِ ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]؛ لأنَّ جُملةَ ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ تتضمَّنُ مِنَّةً عليه، فعُطِفَ عليها تَذكيرٌ بمِنَّةٍ عليه أُخرى في وقْتِ ازديادِه؛ ليَعلَمَ أنَّه لمَّا كان بمَحلِّ العنايةِ من رَبِّه من أوَّلِ أوقاتِ وُجودِه؛ فهذا طَمأنةٌ لفُؤادِه، وشَرْحٌ لصَدْرِه؛ ليَعلَمَ أنَّه سيكونُ مُؤيَّدًا في سائرِ أحوالِه المُستقبَلةِ(٣).

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ﴾ تَصديرُه بالقسَمِ؛ لكَمالِ الاعتناءِ، أي: وباللهِ لقد أنعَمْنا(٤)، وتأكيدُ الخبرِ بلامِ القسَمِ و(قد)؛ لتَحقيقِ الخبرِ(٥).

- وقولُه: ﴿مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ إجمالٌ يُفسِّرُه قولُه: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ...﴾(٦).

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ هذا كَلامٌ مُجمَلٌ؛ فائدتُه: الإشارةُ إلى أنَّه ليس كلُّ الأُمورِ ممَّا يُوحَى إلى النِّساءِ، كالنُّبوَّةِ ونحْوِها، أو

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٤٩-٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٥).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٢٩).

التَّعظيمُ والتَّفخيمُ أوَّلًا، كما في قولِه تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٤]، والبَيانُ ثانيًا بقولِه: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾[1].

- والتَّعبيرُ بالموصولِ ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ مُفيدٌ أهميَّةَ ما أُوحِيَ إليها، ومُفِيدٌ تأكيدَ كونِه إلهامًا من قِبَلِ الحقِّ[2].

- وفيه تَفسيرٌ بعْدَ الإبهامِ[3]، وهذا النَّوعُ يُؤْتَى به لتَفخيمِ أمْرِ المُبْهَمِ وإعظامِه، وذلك في قولِه تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾؛ ففي الآيةِ أبهَمَ الكلامَ، وأتى به مُجْملًا؛ ليتعلَّقَ الذِّهنُ، ويتطلَّعَ ما عسى أنْ يكونَ السُّؤالُ؟ وما هي المِنَّةُ الأُخرى؟ وما عسى أنْ يَرْدَفَها من مِنَنٍ وآلاءٍ، فيأتي قولُه بعْدَ ذلك مُفسِّرًا ما أُبْهِمَ، فيقولُ: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ * أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٦).

(٣) التفسيرُ بعدَ الإبهامِ: هو ذِكرُ الشيءِ الذي يقعُ عليه مُحتملاتٌ كثيرةٌ (المُبْهَم)، ثم يُفسَّرُ ويُوضَّحُ بإيقاعِه على واحدٍ منها، وهو كالتفصيلِ بعدَ الإجمالِ. وقريبٌ منه: الإيضاحُ بعدَ الإبهامِ، وهو أنْ يَذكُرَ المتكلِّمُ كلامًا في ظاهرِه لبسٌ، ثمَّ يوضِّحُه في بقيةِ كلامِه. وهذا النوعُ لا يُعمَدُ إلى استعمالِه إلا لضربٍ من المبالغةِ؛ لتفخيمِ أمرٍ مُبهَمٍ وإعظامِه؛ لأنه هو الذي يَطرُقُ السَّمعَ أولًا، كقولِه تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]، ففسَّر ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ بقولِه: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾، وفي إبهامِه أولًا وتفسيرِه بعدَ ذلك: تفخيمٌ للأمرِ، وتعظيمٌ لشأنِه؛ فإنَّه لو قال: (وقضينا إليه أنَّ دابر هؤلاء مقطوع)، لما كان بهذه المكانة من الفخامة؛ فإنَّ الإبهامَ أولًا يُوقِعُ السامعَ في حَيرةٍ وتفكُّرٍ، واستعظامٍ لِمَا قرَع سَمْعَه، وتشوُّفٍ إلى معرفتِه، والاطلاعِ على كنهِه. يُنظر: ((المثل السائر)) لابن الأثير (٢/ ١٥٧-١٦٢)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٥٩-٥٦١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ١٩٠- ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٩٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾.

- قد أُبْهِمَ ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾، ثمَّ فُسِّرَ بالأمْرِ بقذْفِه في التَّابوتِ وقذْفِه في البحرِ؛ أُبْهِمَ أوَّلًا؛ تَهويلًا له وتَفخيمًا لشأْنِه، ثمَّ فُسِّرَ؛ ليكونَ أقرَّ عندَ النَّفسِ(١).

- وقولُه: ﴿فَلۡيُلۡقِهِ﴾ قِيلَ: أمْرٌ معناهُ الخبرُ، وجاء بصِيغَةِ الأمْرِ مُبالَغةً؛ إذ الأمْرُ أقطَعُ الأفعالِ وأوجَبُها. وقيل: إنَّما ذكَرَهُ بلفظِ الأمْرِ لِسَابِقِ عِلْمِه بوُقوعِ المُخبَرِ به على ما أخبَرَ به، فكأنَّ البحرَ مأمورٌ مُمتثِلٌ للأمْرِ. أو فيه معنى المُجازاةِ، أي: اقْذفيهِ يُلْقِه الْيَمُّ(٢).

- في قولِه: ﴿يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥ﴾ كرَّرَ ﴿عَدُوّٞ﴾؛ للمُبالَغةِ والتَّصريحِ بالأمْرِ، والإشعارِ بأنَّ عَداوتَه له مع تحقُّقِها لا تُؤثِّرُ فيه ولا تضُرُّه، بل تُؤدِّي إلى المحبَّةِ. وقيل: إنَّ الأوَّلَ العدُوُّ باعتبارِ الواقعِ، والثَّاني باعتبارِ المُتوقَّعِ(٣).

- وفي قولِه: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾ نكَّرَ المحبَّةَ وأسْنَدَها إليه سُبحانَه؛ لأمْرينِ؛ الأوَّلِ: ما في التَّنكيرِ من الفَخامةِ الذَّاتيَّةِ، كأنَّها مَحبَّةٌ تَعْلو على الحُبِّ المُتعارَفِ المُتبادَلِ بين المخلوقاتِ. الثَّاني: ما في إسنادِها إليه من الفَخامةِ الإضافيَّةِ، أي: مَحبَّةً عظيمةً مِنِّي، وقد زرعْتُها في القُلوبِ، وركزْتُها في السَّرائرِ ومُنطوياتِ الضَّمائرِ؛ فسُبحانَ المُتكلِّمِ بهذا الكلامِ(٤)!

- والتعبيرُ بالإلقاءِ في قولِه: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾، يعني خَلْقَ المحَبَّةِ في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ١٩٣-١٩٤).

قلبِ المحبِّ بدونِ سببٍ عاديٍّ حتَّى كأنَّه وضعٌ باليدِ لا مُقتَضٍ له في العادةِ[١].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ قال هنا: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ فأُفرِدَتِ العينُ، خلافًا للجمْعِ في مِثْلِ قولِه تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

ووجْهُه: أنَّ قولَه سُبحانَه: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ مُضافٌ إلى ضَميرِ جَمْعٍ، والمُرادُ به اللهُ وحْدَه بلا نزاعٍ، ومِثْلُ هذا كثيرٌ في القُرآنِ؛ يُسمِّي الرَّبُّ نفْسَه مِن الأسماءِ المُضمرَةِ بصِيغَةِ الجَمْعِ على سَبيلِ التَّعظيمِ لنفْسِه، كقولِه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، وقولِه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢]، فلَمَّا كان المُضافُ إليه لَفْظُه لَفْظُ الجَمْعِ، جاء المُضافُ كذلك، فقيل: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، أمَّا في قِصَّةِ مُوسى فإنَّه لمَّا أَفرَدَ المُضافَ إليه أَفْرَدَ المُضافَ؛ فقيل: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[٢].

وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّ الإفرادَ هنا سَبَبُهُ الاختصاصُ الَّذي خُصَّ به مُوسى في قولِه تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾، فاقْتَضى هذا الاختصاصُ الاختصاصَ الآخرَ في قولِه: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾؛ فإنَّ هذه الإضافةَ إضافةُ تَخصيصٍ، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] وقولُه سُبحانَه: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧]، فليس فيه مِن الاختصاصِ ما في صُنْعِ مُوسى على عَينِه سُبحانه وتعالى، واصْطناعِه إيَّاهُ لنفْسِه، وما يُسْنِدُهُ سُبحانَه إلى نفْسِه بصِيغَةِ ضَميرِ الجَمْعِ قد يُريدُ به ملائكتَه، كقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]، وقولِه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٣] ونظائرِه؛ فتأمَّلْهُ[٣].

- ومن المُناسبةِ أيضًا في قولِه تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ عُدِّيَ الفِعْلُ بـ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٦).

(على)، خِلافًا للتَّعديةِ بالباءِ في مِثْلِ قولِه تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وقولِه سُبحانَه: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧].

ووجْهُه: أنَّ الآيةَ الأُولى وردتْ في إظهارِ أَمْرٍ كان خَفِيًّا؛ وإبْداءِ ما كان مَكْتومًا؛ فإنَّ الأطفالَ إذ ذاك كانوا يُغْذَونَ، ويُصنعونَ سِرًّا، فلمَّا أراد أنْ يُصْنَعَ مُوسى عليه السَّلامُ ويُغْذَى ويُرَبَّى على حالِ أمْنٍ وظُهورٍ، لا تحْتَ خَوفٍ واستسرارٍ، دخلَتْ (على) في اللَّفظِ؛ تَنبيهًا على المعنى؛ لأنَّها تُعْطِي الاستعلاءَ -والاستعلاءُ: ظُهورٌ وإبْداءٌ-، فكأنَّه يقولُ سُبحانَه وتعالى: (ولِتُصْنَعَ على أمْنٍ، لا تحتَ خوفٍ)، وذِكْرُ العينِ لِتَضَمُّنِها معنى الرِّعايةِ والكِلاءةِ، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، وقولُه سُبحانَه: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧]، فإنَّه إنَّما يُريدُ: برِعايةٍ مِنَّا وحِفْظٍ، ولا يريدُ إبْداءَ شَيءٍ، ولا إظْهارَه بعْدَ كَتْمٍ، فلم يُحْتَجْ في الكلامِ إلى معنى (على) بخلافِ ما تقدَّمَ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾

- قولُه: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ عبَّر بصِيغةِ المُضارعِ في الفعلينِ؛ لحِكايةِ الحالِ الماضيةِ[٢]، والاستفهامُ في ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ للعرْضِ[٣].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ فَصيحةٌ مُعرِبةٌ عن مَحذوفٍ قبْلَها يُعطَفُ عليه ما بعْدَها، أي: فقالوا: دُلِّينا عليها، فجاءت بأُمِّك، فرَجعْناك إليها[٤].

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦).

- قولُه: ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ﴾ عطَف نفْيَ الحُزنِ على قُرَّةِ العينِ؛ لتَوزيعِ المِنَّةِ؛ لأنَّ قُرَّةَ عَينِها برُجوعِه إليها، وانتفاءَ حُزْنِها بتَحقُّقِ سَلامتِه من الهَلاكِ ومن الغَرقِ، وبُوصولِه إلى أحسَنِ مأوًى. وتَقديمُ قُرَّةِ العينِ على انتفاءِ الحُزْنِ، مع أنَّها أخصُّ فيُغْني ذِكْرُها عن ذِكْرِ انتفاءِ الحُزْنِ؛ رُوعِيَ فيه مُناسبةُ تَعقيبِ ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ بما فيه من الحِكمةِ، ثمَّ أكمَلَ بذِكرِ الحِكمةِ في مَشْيِ أُخْتِه، فتقولُ: هل أدُلُّكم على مَن يَكفُلُه في بَيتِها؟ كما كانتِ العادةُ في ذلك الوقتِ[(١)].

- وجُملةُ: ﴿وَقَتَلۡتَ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾؛ لأنَّ المذكورَ في جُملةِ ﴿وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا﴾ مِنَّةٌ أُخرى ثالثةٌ، وقُدِّمَ ذِكْرُ قتْلِه النَّفسَ على ذِكْرِ الإنجاءِ من الغَمِّ؛ لتَعظيمِ المِنَّةِ، حيث افتُتِحَتِ القصَّةُ بذِكْرِ جِنايةٍ عظيمةِ التَّبِعَةِ، وهي قتْلُ النَّفسِ؛ ليكونَ لقولِه: ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ﴾ موقعٌ عظيمٌ من المِنَّةِ؛ إذ أنجاهُ من عُقوبةٍ لا يَنْجو مِن مثْلِها مثْلُه[(٢)].

- قولُه: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗا﴾ إجمالٌ لِمَا نالهُ في سفَرِه من الهجرةِ عنِ الوطنِ، ومُفارَقةِ الأحبابِ، والمَشْيِ راجلًا على حذَرٍ، وفَقْدِ الزَّادِ، وأجْرِ نفْسِه، إلى غيرِ ذلك. أوْ له ولِمَا سبَقَ ذِكْرُه[(٣)]، وفي الكلامِ إيجازٌ بالحذْفِ، والتَّقديرُ: وفتنَّاكَ فُتونًا، فخرجْتَ خائفًا إلى أهْلِ مَدْينَ، فلبِثْتَ سِنينَ...[(٤)].

- وأيضًا قولُه: ﴿فُتُونٗا﴾ مفعولٌ مُطلَقٌ -على أحدِ القولينِ- لتأكيدِ عامِلِه، وهو قولُه: (فَتَنَّاكَ)، وتَنكيرُه للتَّعظيمِ، أي: فُتونًا قويًّا عظيمًا. والتَّنوينُ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢١٩-٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٣).

﴿فُتُونًا﴾ للتَّقليلِ -فيما يظهرُ- وتكونُ جُملةُ ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ كالاستدراكِ على قولِه: ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾، أي: نجَّيناك وحصَلَ لك خوفٌ(١).

- قولُه: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ فيه كِنايةٌ عن العِنايةِ بتَدبيرِ إجراءِ أحوالِه على ما يُسفِرُ عن عاقِبَةِ الخيرِ(٢).

- وفي كَلمةِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ إيذانٌ بأنَّ مَجيئَه عليه السَّلامُ كان بعْدَ اللَّتيَّا والَّتي(٣)؛ من ضَلالِ الطَّريقِ، وتفرُّقِ الغنَمِ في اللَّيلةِ المُظْلمةِ الشَّاتيةِ، وغيرِ ذلك(٤).

- و﴿عَلَىٰ﴾ للاستعلاءِ، بمعنى التَّمكُّنِ؛ جعَلَ مَجيئَه في الوقْتِ الصَّالحِ للخيرِ بمَنزِلَةِ المُسْتعلي على ذلك الوقْتِ المُتمكِّنِ منه(٥).

- وقولُه: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تَشريفٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتَنبيهٌ على انتهاءِ الحكايةِ الَّتي هي تَفصيلُ المرَّةِ الأُخرى الَّتي وقعَتْ قبْلَ المرَّةِ المَحْكيَّةِ أوَّلًا(٦).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ خُتِمَ الامتنانُ بما هو كالفذلكة، وذلك جُملةُ ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ الَّذي هو بمَنزِلَةِ رَدِّ العجُزِ على الصَّدرِ(٧) على قولِه:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٠-٢٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٢٢).

(٣) بعْدَ اللَّتيَّا والَّتي: أي: بعدَ جَهدٍ وشِدَّةٍ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٤٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦).

(٧) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدر -ويُعرَف أيضًا بـ(التصدير)-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعينِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظينِ المُكرَّرينِ، أو المتجانسَينِ، أو المُلحقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّل: أنْ يُوافِقَ =

﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ * إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ ...﴾ الآيَةَ، وهو تخلُّصٌ بَديعٌ إلى الغرَضِ المقصودِ، وهو الخِطابُ بأعمالِ الرِّسالةِ، المُبتدأُ من قولِه: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣]، ومن قولِه: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[1] [طه: ٢٤].

- والعُدولُ في ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ عن نُونِ العَظمةِ الواقعةِ في قولِه: ﴿وَفَتَنَّٰكَ﴾ ونَظيرَيه السَّابقينِ: تَمهيدٌ لإفرادِ لفْظِ (النَّفسِ) اللَّائقِ بالمَقامِ؛ فإنَّه أدخَلُ في تَحقيقِ معنى الاصطناعِ والاستخلاصِ، أي: اصْطفيتُك بِرِسالاتي وبِكَلامي[2].



= آخِرُ الفاصلةِ آخِرَ كَلمةٍ في الصَّدرِ، كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والثاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه، كقولِه: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والثالث: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلماتِه، كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة (٢/ ٥١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧).

الآيات (٤٢ - ٥٥)

﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا
لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾
قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا
بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ
أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا
ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي
فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا
وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ تَنِيَا ﴾: أي: تَفتُرا، وتُقَصِّرا، وتَضعُفا، وأصلُ (وني): يدُلُّ على ضَعْفٍ[١].

﴿ يَفۡرُطَ ﴾: أي: يبادِرَ ويَعجَلَ، والفَرَطُ: التقَدُّمُ والسَّبقُ، وأصلُه يدُلُّ على إزالةِ شَيءٍ مِن مكانِه، وتَنحيتِه عنه[٢].

﴿ يَطۡغَىٰ ﴾: أي: يستعصي ويتَعَدَّى، وأصلُ الطُّغيانِ: مجاوزةُ الحَدِّ في العِصيانِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

﴿بَالُ﴾: أي: حالُ وشأنُ، والبالُ: الحالةُ التي يُكترَثُ لها[١].

﴿مَهْدًا﴾: أي: فِراشًا قَرارًا ثابِتَةً، والمهدُ والمِهادُ: المكانُ المُمَهَّدُ الموطَّأُ، وأصلُ (مهد): يدُلُّ على توطئةٍ، وتسهيلٍ للشَّيءِ[٢].

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾: أي: سهَّل لكم طرُقًا داخِلةً في الأرض مُتَخَلِّلةً فيها. والسَّلْكُ: إدخالُ الشَّيءِ في الشَّيءِ، والنُّفوذُ فيه، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على امتدادِ شَيءٍ[٣].

﴿أَزْوَاجًا﴾: أي: أنواعًا وأصنافًا، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ[٤].

﴿نَبَاتٍ شَتَّىٰ﴾: أي: مختَلِفِ الألوانِ والطُّعومِ والأنواعِ، وشتَّى جمعُ شتيتٍ، والشَّتيتُ: المتفرِّقُ، وأصلُ (شتت): يدُلُّ على تفرُّقٍ وتزَيُّلٍ[٥].

﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾: أي: لأصحابِ العُقولِ. وواحِدُ النُّهى نُهيَةٌ؛ سمِّيَ بذلك لأنَّه يُنتهَى به عن القَبائِحِ، وأصلُه يدُلُّ على الحَبسِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٥، ٤٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣).

(٦) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٢٢).

﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾: أي: مرةً أُخرَى، قيل: هو مِن تار الجرحُ: الْتَأم. وقيل: الفعلُ منها: أترت، أي: أعدتُ، تارةً، وتارتينِ، وتِيَرًا[١].

مُشكِلُ الإعراب:

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾

قَولُه: ﴿أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ في هذه الآيةِ وَجهانِ: أحدُهما: أن يكونَ ﴿كُلَّ﴾ مفعولًا أولَ، و﴿خَلۡقَهُۥ﴾ مَفعولًا ثانيًا، على معنى: أعطى كلَّ شيءٍ صورتَه وشكلَه الذي يطابقُ المنفعةَ المنوطةَ به، أو أعطى كلَّ حيوانٍ نظيرَه في الخَلْق والصُّورةِ، ولم يزاوِجْ شيءٌ منها غيرَ جنسِه، ولا ما هو مخالِفٌ لخَلْقِه. والثاني: أن يكونَ ﴿كُلَّ﴾ مَفعولًا ثانيًا مُقَدَّمًا، و﴿خَلۡقَهُۥ﴾ مفعولًا أوَّلَ مُؤخَّرًا، والمعنى: أعطى خليقتَه كلَّ شيءٍ يحتاجونَ إليه ويَرتفِقونَ به[٢].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مبينًا ما كلَّف به موسَى وهارونَ عليهما السلامُ: اذهَبْ -يا موسى- أنت وأخوك هارونُ بأدلَّتي ومُعجِزاتي الدالَّةِ على صِدقِكما، ولا تَضْعُفا عن ذِكري، بل داوِما عليه. اذهبَا معًا إلى فِرعَونَ؛ لأنَّه قد جاوز الحَدَّ في الكُفرِ والظُّلمِ والعِصيانِ، فقُولا له قولًا لَطيفًا لا غلظةَ فيه؛ وأنتما ترجوانِ أن يتذكَّرَ أو يخافَ حلولَ العذابِ فيطيعَ ربَّه.

ثمَّ يحكي الله تعالى ما قاله موسَى وهارونُ عندما كلَّفهما بما كلَّفهما به،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٥٣٧)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٨٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٦).

فيقولُ تعالى: قال موسى وهارونُ: ربَّنا إنَّنا نخافُ أن يُعاجِلَنا بالعُقوبةِ، أو أن يتمَرَّدَ على الحَقِّ فلا يقبَلَه.

قال الله لِموسى وهارونَ مثبتًا لهما: لا تخافا مِن فِرعَونَ؛ فإنَّني معكما بالنَّصرِ والإعانةِ والحِفظِ، أسمَعُ وأرى.

ثمَّ بيَّن الله تعالى لهما طريقةَ دعوةِ فرعونَ، فقال: فاذهبَا إليه وقولَا له: إنَّا رسولانِ إليك من رَبِّك، فأطلِقْ بني إسرائيلَ ولا تُعَذِّبْهم، قد أتيناك بمُعجزةٍ مِن رَبِّك تدُلُّ على صِدقِنا، والسَّلامةُ مِن عذابِ اللهِ تعالى لِمَن اتَّبَع هُداه. إنَّ الله قد أوحَى إلينا أنَّ عذابَه على مَن كذَّب، وأعرَضَ عن اتِّباعِ الحَقِّ.

ثمَّ ذكَر الله تعالى جانبًا مِن الحوارِ الذي دارَ بينَهما وبينَ فرعونَ، فقال تعالى: قال فِرعَونُ لهما: فمَن ربُّكما يا موسى؟ قال له موسى: ربُّنا الذي أعطى كلَّ مخلوقٍ صورتَه وشكلَه اللَّائِقَ به، وأعطاهم كلَّ ما يَحتاجونَه، ثمَّ هدى كلَّ مخلوقٍ إلى الانتِفاعِ بما خلَقَه الله له. قال فِرعَونُ لِموسى: فما شأنُ القُرونِ الماضيةِ، الذين لم يؤمِنْ أهلُها باللهِ؟ قال موسى لِفرعَونَ: عِلْمُ تلك القرونِ الماضيةِ وأعمالُ أهلِها كُلُّها مكتوبةٌ عند ربِّي في اللَّوحِ المحفوظِ، ولا عِلْمَ لي بهم، لا يخطئُ رَبِّي في أفعالِه وأحكامِه وتدبيرِ خَلقِه، ولا ينسى شيئًا مِن أعمالِ عبادِه، ولا يتركُ ما هو حكمةٌ وصوابٌ.

هو الذي جعل لكم الأرضَ مُمهَّدةً تَسكُنونَ عليها، وميسَّرةً للانتِفاعِ بها، وجعلَ لكم فيها طرُقًا كثيرةً، وأنزلَ مِن السَّماءِ مَطَرًا، فأخرجَ به أنواعًا مختلفةً مِن النَّباتِ.

كُلُوا -أيُّها النَّاسُ- من طيِّباتِ ما أنبَتْنا لكم، وارعَوا فيها بَهائِمَكم، إنَّ في كلِّ ما ذُكِرَ لَعلاماتٍ لذوي العُقولِ على قُدرةِ الله ورحمتِه واستحقاقِه للعبادةِ.

مِن هذه الأرضِ خَلَقْنا أباكم آدَمَ، الذي هو أصلُكم، وإليها تعودونَ بعدَ مَوتِكم، ومِنها تُبعَثونَ للحِسابِ والجزاءِ يومَ القيامةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عَدَّد اللهُ سُبحانَه وتعالى على موسى -عليه السَّلامُ- المِنَنَ الثَّمانيةَ[١] في مقابلةِ الالتماساتِ الثمانيةِ، رَتَّب على ذِكرِ ذلك أمرًا ونهيًا[٢].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى أمَرَ موسى -عليه السَّلامُ- بالذَّهابِ إلى فِرعَونَ، فلمَّا دعا ربَّه وطلب منه أشياءَ، كان فيها أن يُشرِكَ أخاه هارونَ، فذَكَرَ اللهُ أنَّه آتاه سُؤلَه، وكان منه إشراكُ أخيه، فأمَرَه هنا وأخاه بالذَّهابِ[٣].

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾.

أي: اذهَبْ أنت وأخوك هارونُ إلى فِرعَونَ بأدلَّتي وحُجَجي ومُعجِزاتي

(١) قال الرازي: (المِنَّةُ الأولَى: قولُه: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾...

المِنَّةُ الثَّانيةُ: قولُه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾...

المِنَّةُ الثَّالثةُ: قولُه: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾...

المِنَّةُ الرَّابعةُ: قولُه: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ﴾...

والمِنَّةُ الخامسةُ: قولُه: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾...

المِنَّةُ السَّادسةُ: قولُه: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾...

المِنَّةُ السَّابعةُ: قولُه تعالَى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾...

المِنَّةُ الثَّامنةُ: قولُه تعالَى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥١-٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٦).

الدالَّةِ على صِدقِكما(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ۞ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الفرقان: ٣٥، ٣٦].

﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾.

أي: ولا تَضعُفا، ولا تَفترُا عن ذِكري، بل لازِماه واستَمِرَّا عليه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٢، ٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦).

قال أبو السعود: (أي: بمُعجِزاتي التي أريتُكها من اليدِ والعصا؛ فإنَّهما وإن كانتا اثنتينِ لكِنْ في كلٍّ منهما آياتٌ شتَّى، كما في قَولِه تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٧]؛ فإنَّ انقلابَ العصا حيوانًا آيةٌ، وكَونَها ثعبانًا عَظيمًا لا يُقادَرُ قَدرُه آيةٌ أخرى، وسُرعةَ حَركتِه مع عِظَمِ جِرْمِه آيةٌ أخرى، وكَونَه مع ذلك مُسَخَّرًا له عليه السَّلامُ... آيةٌ أخرى، ثمَّ انقِلابَها عصًا آيةٌ أخرى، وكذلك اليَدُ؛ فإنَّ بياضَها في نفسِه آيةٌ، وشُعاعَها آيةٌ، ثمَّ رُجوعَها إلى حالتِها الأولى آيةٌ أخرى). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧).

وقال الشنقيطي: (قال بَعضُ أهلِ العِلمِ: المرادُ بالآياتِ في قَولِه هنا: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ الآياتُ التِّسعُ المذكورةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، وقَولِه: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ [النمل: ١٢]، والآياتُ التِّسعُ المذكورةُ هي: العصا، واليدُ البيضاءُ ... إلى آخِرِها). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٨٩-٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٤).

وممن اختار المعنى المذكورَ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر المصادر السابقة.

قال ابنُ كثير: (والمرادُ أنهما لا يفتُرانِ في ذِكرِ الله، بلْ يذكرانِ الله في حالِ مواجهةِ فِرعَونَ، ليكونَ ذكرُ الله عونًا لهما عليه، وقوةً لهما، وسلطانًا كاسرًا له). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٤).

وقال الرسعني: (﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ أي: لا تَفْتُرا... المعنى: لا تنسياني، وليكنْ دأبُكما وشعارُكما ذِكْري. وقيل: المعنى: لا تَنِيَا في تبليغِ رسالتي، وهو يدخلُ في القولِ الأوَّلِ؛ لأنَّ تبليغَ الرسالةِ =

﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾﴾.

أي: اذهَبا إلى فِرعَونَ؛ لأنه تمرَّدَ وتجاوَزَ الحَدَّ في الكفرِ والعِصيانِ، والتكَبُّرِ والعُدوانِ(١).

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾﴾.

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾.

أي: فقُولا له عندَ دعوتِه إلى الله قولًا رقيقًا لطيفًا، لا غِلظةَ فيه، ولا تنفيرَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٧ - ١٩].

﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾.

أي: اذهَبا إلى فِرعَونَ وأنتما ترجُوانِ(٣) بقَولِكما اللَّيِّنِ أن يتذكَّرَ ما هو غافِلٌ

= مِن جملةِ ذِكرِ الله تعالى). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥١٠).

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٤، ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥).

قال السعدي: (وقد فُسِّر القولُ اللَّيِّنُ في قولِه: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٨، ١٩] فإنَّ في هذا الكلامِ مِن لطفِ القول، وسهولتِه، وعدمِ بشاعته ما لا يخفَى على المتأمِّلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةِ أبي صالحٍ عنه، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦٠).

وقيل غير ذلك في تفسيرِ القولِ اللينِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦٠).

(٣) قال الشنقيطي: («لعلَّ» في القرآنِ بمعنى التعليلِ، إلا التي في سورةِ «الشعراء»: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩] فهي بمعنى كأنَّكم... وقال بعضُ أهلِ العلمِ: =

عنه مِن التَّوحيدِ الموافِقِ لِما في فطرتِه مِن العِلمِ الذي يَعرِفُ به رَبَّه، ويَعرِفُ إنعامَه عليه وإحسانَه إليه، وافتقارَه إليه، فيَدعُوَه ذلك إلى الإيمانِ باللهِ والرُّجوعِ

= ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ معناه على رجائِكما وطمعِكما، فالترجِّي، والتوقعُ المدلولُ عليه بـ «لعلَّ» راجعٌ إلى جهةِ البشرِ. وعزا القرطبيُّ هذا القولَ لكبراءِ النحويينَ، كسيبويه، وغيرِه). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٦).

وقال الرسعني: (وقال الفراءُ وكثيرٌ مِن المفسرينَ والنَّحْويينَ: «لعله» بمعنى: لكي). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥١٢).

وممَّن قال بأنَّ لعلَّ هنا تعني الرَّجاءَ الصَّادر من موسى وهارون: الواحدي، وابنُ عطية، والقرطبي وأبو حيان، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٠- ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١/ ١٥٦).

قال ابن عاشور: (الترجِّي المستفادُ مِن «لَعَلَّ» إما تمثيلٌ لشأنِ الله في دعوةِ فِرعَون بشأنِ الراجي، وإما أن يكون إعلامًا لموسى وفِرعَونَ بأن يرجوا ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٥).

قال ابنُ القيِّم: (التَّعليلُ بـ «لعلَّ»، وهي في كلامِ اللهِ سُبحانَه وتعالى للتَّعليلِ مجَرَّدةً عن معنى الترجِّي؛ فإنَّها إنَّما يقارنُها معنى الترجِّي إذا كانت مِنَ المخلوقِ، وأمَّا في حَقِّ مَن لا يصِحُّ عليه الترجِّي؛ فهي للتَّعليلِ المحضِ، كقَولِه تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾...، ومنه قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، وقَولُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، وقولُه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾؛ فـ «لعَلَّ» في هذا كُلِّه قد أُخلِصَت للتَّعليلِ، والرَّجاءُ الذي فيها متعَلِّقٌ بالمُخاطَبينَ). ((شفاء العليل)) (ص: ١٩٦).

قال ابنُ جرير: (قولُه: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ اختُلِفَ في معنى قَولِه: ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ في هذا الموضِعِ، فقال بعضُهم: معناها هاهنا الاستفهامُ، كأنَّهم وجَّهوا معنى الكلامِ إلى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ فانظُرا هل يتذكَّرُ ويُراجِعُ، أو يخشى اللهَ فيرتَدِعَ عن طُغيانِه... وقال آخرون: معنى «لعل» هاهنا «كي»، ووجَّهوا معنى الكلامِ إلى ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ فادعُواه وعِظاه ليتذكَّرَ أو يخشى، كما يقولُ القائِلُ: اعمَلْ عَمَلَك؛ لعلَّك تأخذُ أجرَك، بمعنى: لتأخُذَ أجرَك، وافرُغْ مِن عَمَلِك لعلَّنا نتغدَّى، بمعنى: لنتغدَّى، أو حتى نتغدَّى، ولكلا هذين القولينِ وجهٌ حَسَنٌ، ومذهبٌ صَحيحٌ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٥). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠١).

عن ضلالِه؛ أو يخشى حُلولَ العَذابِ فيَترُكَ طغيانَه، ويُطيعَ ربَّه[(١)].

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ٤٥﴾.

أي: قال موسى وهارونُ: ربَّنا إنَّنا نخافُ مِن فِرعونَ أن يعجِّلَ بعُقوبتِنا قبلَ أن نَدعُوَه إلى ما أمَرْتَنا به، أو أن يتكبَّرَ ويتمرَّدَ على طاعتِك[(٢)].

﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ﴾.

أي: قال اللهُ لهما: لا تخافَا مِن فِرعَونَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٦).
وقال ابنُ كثير: (التَّذكُّرُ: الرُّجوعُ عن المحذورِ، والخشيةُ: تحصيلُ الطَّاعةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٥).
وقال الشوكاني: (والتذكيرُ: النَّظَرُ فيما بَلَّغاهُ مِن الذكرِ، وإمعانُ الفكرِ فيه حتَّى يكونَ ذلك سببًا في الإجابةِ، والخشيةُ هي خشيةُ عقابِ اللَّهِ الموعودِ به على لسانِهما. وكلمةُ «أو» لمنعِ الخلُوِّ دونَ الجمعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٣٣).
قال البقاعي: (﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ ما مرَّ له من تطويرِ الله له في أطوارٍ مختلفةٍ، وحمله فيما يكرهُ على ما لم يقدِرْ على الخلاصِ منه بحيلةٍ، فيعلمُ بذلك أنَّ الله ربُّه، وأنَّه قادرٌ على ما يريدُ منه، فيرجع عن غيِّه فيؤمن ﴿أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ أي: أو يصلُ إلى حالِ مَن يخافُ عاقبةَ قولِكما لتوهُّمِ الصدقِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٢٩٠).
وقال ابنُ عاشور: (أي: لعلَّه ينظرُ نظرَ المتبصرِ فيعرف الحقَّ، أو يخشَى حلولَ العقابِ به فيطيعُ عن خشيةٍ لا عن تبصُّرٍ...، فالتذكُّر: أن يعرفَ أنه على الباطلِ، والخشية: أن يترددَ في ذلك فيخشى أن يكونَ على الباطلِ، فيحتاطُ لنفسِه بالأخذِ بما دعاه إليه موسَى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦).

﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

أي: إنَّني معكما بالنَّصرِ والإعانةِ والحِفظِ والتَّأييدِ، أسمَعُ كلامَكما وكلامَ فِرعونَ، وأراكم وأرى أفعالَكم وأحوالَكم جميعًا؛ فاطمَئِنَّا ولا تخافا منه(١).

﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧﴾.

﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾.

أي: فاذهَبا إلى فِرعونَ فقولا له: إنَّا رَسولانِ إليك مِن رَبِّك الذي خلَقَك وربَّاك(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦، ١٧].

﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡ﴾.

أي: فأطلِقْ بني إسرائيلَ لِيذهَبوا معنا، ولا تُعَذِّبْهم باستعبادِهم، وتَذبيحِهم، وتكليفِهم الأعمالَ الشاقَّةَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٦)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٧، ٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٣٥).

وممن اختار المعنى المذكورَ في قولِه: ﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡ﴾: ابنُ عطيةَ، والرسعني، وابنُ جُزي، والبقاعي، والشوكاني. يُنظر المصادر السابقة. =

﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾.

أي: قد أتيناك بمعجزةٍ من ربِّك تدلُّ على صِدقِنا(١).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٠ - ٣٣].

﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾.

أي: والسَّلامةُ مِن سَخَطِ الله وعذابِه في الدُّنيا والآخرةِ لِمن اتَّبَعَ هدى اللهِ

= قال الشنقيطي: (العذابُ الَّذي نهَى اللَّهُ فرعونَ أنْ يفعلَه ببني إسرائيلَ: هو المذكورُ في سورةِ «البقرةِ» في قولِه: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]، وفي سورةِ «إبراهيمَ» في قولِه تعالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦]، وفي سورةِ «الأعرافِ» في قولِه تعالَى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٤١]، وفي سورةِ «الدُّخانِ» في قولِه: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣٠-٣١]، وفي سورةِ «الشُّعراءِ» في قولِه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]. ((أضواء البيان)) (٤/ ١٦).

وممن اقتصر في تفسيرِ العذابِ على السخرةِ والأعمالِ الشاقةِ: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والقرطبي، والعليمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٣)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦).

قال الشنقيطي: (قولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ﴾ يرادُ به جنسُ الآيةِ الصَّادِقُ بالعصا واليد وغيرِهما؛ لدَلالةِ آياتٍ أُخَرَ على ذلك). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٧).

الَّذي شرَعَه لعبادِه[1].

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: إنَّا قد أوحَى اللهُ إلينا أنَّ عذابَه في الدُّنيا والآخرةِ[2] على من كذَّب بالحَقِّ، فلم يؤمِنْ باللهِ وما جاءَتْ به رسُلُه، وأعرَض عن اتِّباعِ الحَقِّ، وطاعةِ اللهِ[3].

كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ * لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٤-١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ * أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣١ - ٣٥].

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: فلمَّا أتَى موسَى وهارونُ إلى فِرعَونَ، وكلَّماه بما أمَرَهما الله، قال فِرعَونُ: فمَنْ ربُّكما الذي تعبُدانِه -يا موسى- وتَزعُمانِ أنَّه أرسَلَكما إليَّ[4]؟

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: قال موسى: ربُّنا الذي أعطى كلَّ مخلوقٍ صُورتَه التي تمَيِّزُه، وشَكلَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦).

(٢) قال القرطبي: (يعني الهلاكَ والدَّمارَ في الدنيا، والخلودَ في جهنَّمَ في الآخرة). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٨).

الذي يناسِبُه، وأعطى كلَّ ذكَرٍ وأنثَى الشَّكلَ المُناسِبَ له من جِنسِه في المناكحةِ، والأُلفةِ والاجتِماعِ، وأعطاهم كلَّ ما يحتاجونَه، ثمَّ هدى كلَّ مخلوقٍ إلى تحصيلِ مَنافِعِه، والحَذَرِ مِن مضارِّه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٤، ٢٠٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٦، ٧٨، ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٧، ٢٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٩، ٢٠).

قال الماوَردي: (قَولُه تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ فيه ثلاثةُ تأويلاتٍ:

أحدُها: أعطى كُلَّ شَيءٍ زَوجَه مِن جِنسِه، ثمَّ هداه لِنكاحِه. قاله ابنُ عبَّاسٍ والسُّدِّي.

الثَّاني: أعطى كلَّ شَيءٍ صُورتَه، ثمَّ هداه إلى معيشتِه ومَطعَمِه ومَشرَبِه. قاله مجاهِدٌ...

الثَّالثُ: أعطى كُلًّا ما يُصلِحُه، ثمَّ هداه له. قاله قتادةُ.

ويحتَمِلُ رابعًا: أعطى كلَّ شَيءٍ ما ألهَمَه مِن عِلمٍ أو صناعةٍ، وهداه إلى مَعرفتِه). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٠٦).

وقال الرسعني: (وقد رُوي عن ابنِ عبَّاسٍ معنيان:

أحدُهما: أعطى كلَّ حَيوانٍ شَكْلَه وصُورتَه؛ فأعطى الرَّجُلَ المرأةَ، وأعطى البَعيرَ النَّاقةَ، وأمثالُ ذلك.

والثاني: أعطى كلَّ نوعٍ مِن أنواعِ الحيوانِ صُورةً مختَصَّةً به مُغايِرةً لسائِرِ أنواعِ الحيوانِ؛ فصورةُ الآدميِّ ليست كصورةِ الفَرَس، وليست كصورةِ الجَمَل، ونحوُ ذلك). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥١٤).

قال ابن جزي: (﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ المعنى: أنَّ الله أعطَى خلقَه كلَّ شيءٍ يحتاجونَ إليه، فـ﴿خَلْقَهُۥ﴾ على هذا بمعنى المخلوقينَ، وإعرابُه مفعولٌ أولُ، و﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ مفعولٌ ثانٍ. وقيل: المعنى أعطَى كلَّ شيءٍ خلقتَه وصورتَه، أي: أكملَ ذلك وأتقنَه، فالخلقُ على هذا بمعنى الخِلقةِ، وإعرابُه مفعولٌ ثانٍ، و﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ مفعولٌ أولُ. والمعنى الأولُ أحسنُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨).

وقال ابنُ القَيِّم: (أي: أعطى كلَّ شَيءٍ صُورتَه التي لا يَشتَبِهُ فيها بغيرِه، وأعطى كلَّ عُضوٍ شَكلَه وهَيئتَه، وأعطى كُلَّ موجودٍ خَلْقَه المختَصَّ به، ثمَّ هداه إلى ما خَلَقَه له من الأعمالِ، وهذه هدايةُ الحيوانِ المتحَرِّك بإرادتِه إلى جَلبِ ما ينفَعُه، ودَفعِ ما يضُرُّه، وهدايةُ الجَمادِ المسَخَّر لما =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

وقال سُبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا استدَلَّ موسى عليه السَّلامُ بالدَّلالةِ القاطِعةِ على إثباتِ الصَّانعِ؛ قدحَ فِرعَونُ في تلك الدَّلالةِ بقَولِه: إن كان الأمرُ في قُوَّةِ هذه الدَّلالةِ على ما ذكَرْتَ، وجبَ على أهلِ القُرونِ الماضيةِ ألَّا يكونوا غافِلينَ عنها، فعارَضَ الحُجَّةَ بالتَّقليدِ(١).

= خُلِقَ له، فله هدايةٌ تليقُ به كما أنَّ لكُلِّ نَوعٍ مِن الحيوانِ هِدايةً تليقُ به، وإن اختَلَفَت أنواعُها وصُوَرُها، وكذلك كُلُّ عُضوٍ له هِدايةٌ تَليقُ به؛ فهدى الرِّجلينِ للمَشيِ، واليدينِ للبَطشِ والعَمَلِ، واللِّسانَ للكلامِ، والأُذُنَ للاستِماعِ، والعينَ لِكَشفِ المرئيَّات، وكلَّ عُضوٍ لما خُلِق له، وهدى الزَّوجينِ مِن كُلِّ حَيوانٍ إلى الازدواجِ والتناسُلِ وتربيةِ الولد، وهدى الولدَ إلى التقامِ الثَّدي عند وَضعِه، وطَلَبِه، ومراتِبُ هدايتِه سُبحانَه لا يُحصيها إلَّا هو، فتباركَ اللهُ رَبُّ العالمينَ!). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٣٥).

قال ابنُ الجوزي: وفي قَولِه: (﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: هدى كيف يأتي الذَّكَرُ الأُنثى. رواه الضحَّاكُ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال ابنُ جُبَير.

والثاني: هدى للمَنكَحِ والمَطعَمِ والمَسكَنِ. رواه ابنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ.

والثالثُ: هدى كلَّ شَيءٍ إلى معيشتِه. قاله مجاهِدٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦١).

وقال الشنقيطي: (لا مانعَ من شمولِ الآيةِ الكريمةِ لجميعِ الأقوالِ المذكورة؛ لأنَّه لا شكَّ أنَّ الله أعطى الخلائقَ كلَّ شيءٍ يحتاجون إليه في الدنيا، ثم هداهم إلى طريقِ الانتفاعِ به. ولا شكَّ أنه أعطى كلَّ صنفٍ شكلَه وصورتَه المناسبةَ له، وأعطَى كلَّ ذكرٍ وأنثى الشكلَ المناسبَ له من جنسِه في المناكحةِ، والألفةِ، والاجتماعِ. وأعطَى كلَّ عضوٍ شكلَه الملائمَ للمنفعةِ المنوطةِ به، فسبحانه جلَّ وعلا! ما أعظمَ شأنَه وأكملَ قدرتَه!). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥٩).

وأيضًا فإنَّ موسَى عليه السلامُ هدَّد بالعذابِ أوَّلًا في قولِه: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨]، فقال فِرعَون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ فإنَّها كذَّبتْ، ثمَّ إنَّهم ما عُذِّبوا[١]؟

وأيضًا لمَّا أجابَهُ مُوسى بجوابٍ مُسْكِتٍ، ولم يقدِرْ فِرعونُ على مُعارضَتِه فيه؛ انتقلَ إلى سُؤالٍ آخرَ، وهو: ما حالُ مَن هلَكَ من القُرونِ؟ وذلك على سَبيلِ الرَّوغانِ عن الاعترافِ بما قال مُوسى عليه السَّلامُ، وما أجابَه به، والحَيدةِ، والمُغالَطةِ[٢].

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ٥١﴾.

أي: قال فِرعَونُ: فما شأنُ القُرونِ الماضيةِ مِن قَبلِنا، الذين لم يؤمِنْ أهلُها باللهِ، وعَبَدوا غَيرَه؟ فلو كان ما تقولُه حَقًّا، لم يخْفَ على القُرونِ الأُولى ولم يُهمِلوه[٣].

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢﴾.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ﴾.

أي: قال له موسى: عِلمُ القُرونِ الماضيةِ وأعمالُ أهلِها كُلُّها مكتوبةٌ عندَ رَبِّي في اللَّوحِ المحفوظِ[٤]، فهم إنْ لم يُؤمِنوا باللهِ ويَعبُدوه وَحدَه، فسيُجازيهم على

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٨).

وقال السعدي: (أي: ما شأنُهم، وما خبَرُهم؟! وكيف وصلَت بهم الحالُ وقد سبقونا إلى الإنكارِ والكُفرِ والظُّلمِ والعِنادِ؟ ولنا فيهم أُسوةٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٦).

(٤) ممن اختار أنَّ الكتابَ هنا المرادُ به: اللوحُ المحفوظُ: مقاتلُ بنُ سليمان، والسمرقندي، =

ذلك ولا علمَ لي بهم[(١)].

﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾.

أي: لا يَشِذُّ عن عِلمِ رَبِّي شَيءٌ، ولا يفوتُه صَغيرٌ ولا كبيرٌ، ولا ينسَى شيئًا، فلا يُخطئُ في أفعالِه وتدبيرِ خَلقِه[(٢)]، ولا ينسى شيئًا مِن أعمالِ عبادِه وأحوالِهم وأخبارِهم، ولا يَترُكُ فِعلَ ما هو حِكمةٌ وصَوابٌ[(٣)].

= والثعلبي، والواحدي، والبغوي، والثعالبي، والقرطبي، والعليمي، والشوكاني، والسعدي.
يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٢٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٥)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧).
وقال ابنُ عطية: (وقوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ يريدُ في اللوحِ المحفوظِ، أو فيما كتَبه الملائكةُ مِن أحوالِ البشرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧).
وقال ابنُ كثيرٍ: (وهو اللَّوحُ المحفوظُ وكِتابُ الأعمالِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٨).
وقال ابن القيم: (﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي: أعمالُ تلك القُرونِ وكُفرُهم وشِركُهم معلومٌ لرَبِّي، قد أحصاه وحَفِظَه وأودَعَه في كتابٍ، فيُجازيهم عليه يومَ القيامةِ، ولم يُودِعْه في كتابٍ خَشيةَ النِّسيانِ والضَّلالِ؛ فإنَّه سُبحانَه لا يَضِلُّ ولا ينسى، وعلى هذا فالكِتابُ هاهنا كتابُ الأعمالِ، وقال الكلبي: «يعني به اللَّوحَ المحفوظَ»، وعلى هذا فهو كتابُ القَدَرِ السَّابق، والمعنى على هذا أنَّه سبحانَه قد عَلِمَ أعمالَهم وكَتَبَها عنده قبل أن يَعمَلوها، فيكونُ هذا من تمامِ قَولِه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ فتأمَّلْه). ((شفاء العليل)) (ص: ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧).

(٢) قال ابن جرير: (فإن كان عَذَّب تلك القرونَ في عاجلٍ، وعَجَّل هلاكَها؛ فالصَّوابُ ما فعَلَ، وإن كان أخَّرَ عِقابَها إلى القيامةِ، فالحَقُّ ما فَعَل؛ هو أعلَمُ بما يَفعَلُ، لا يُخطِئُ رَبِّي). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٣، ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾.

أي: اللهُ الذي جعَل لكم الأرضَ مُمهَّدةً تَسكُنونَ عليها، وتستَقِرُّونَ بها، وتَمشونَ وتُسافِرونَ على ظَهرِها، وتتمكَّنونَ مِن زَرعِها وغَرسِها، والبناءِ عليها وغيرِ ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢١).

قيل: هذه الآيةُ معترضةٌ في أثناء قِصَّة موسى، وليست من كلامِه، وممن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ القيمِ، وابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٥).

قال الشنقيطي: (والتَّحقيقُ أنَّه يَتعَيَّنُ كونُه خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ [أي: هو الَّذِي جَعَل لكم الأرضَ]؛ لأنَّه كلامٌ مستأْنفٌ مِن كلامِ اللَّهِ. ولا يصِحُّ تَعَلُّقُه بقولِ مُوسَى ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ يُعَيِّنُ أنَّه مِن كلامِ اللَّهِ، كما نَبَّهَ عليه أبو حَيَّانَ في «البحرِ»، والعلمُ عندَ اللَّهِ تعالَى). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢١). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٣).

وقيل: بل كلامُ موسى مستمِرٌّ إلى قولِه: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾. وممن ذهب إلى هذا القول: الواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٩).

وقيل: يحتملُ أنْ يكونَ ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ مِن كلامِ موسَى حكايةً عن اللَّهِ تعالَى على تقديرِ: يقولُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩).

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾﴾ [النبأ: ٦].

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾.

أي: وجعل اللهُ لأجْلِكم في الأرضِ بينَ أوديَتِها وجِبالِها طُرُقًا كثيرةً تَمشونَ فيها[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٠].

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا ذَكَر مِنَّةَ خَلْقِ الأرضِ؛ شَفَعها بمِنَّةِ إخراجِ النَّباتِ منها بما ينزِلُ عليها مِن السَّماءِ مِن ماءٍ[2]، فقال تعالى:

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾.

أي: وأنزل اللهُ من السَّماءِ مَطرًا[3].

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾.

أي: فأخرَجْنا بسَبَبِ المطَرِ أصنافًا من النَّباتاتِ المختلفةِ الألوانِ، والأشكالِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧).

والرَّوائِحِ، والطُّعومِ، والمنافِعِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال سُبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣].

وقال جلَّ جلاله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾.

أي: كلُوا -أيُّها النَّاسُ- مِن طَيِّبِ ما أنبَتْنا لكم من الأرضِ مِن الحُبوبِ والثِّمارِ، وارعَوا فيها إِبلَكم وبقَركم وغنَمَكم(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير الجلالين)) =

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا * ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا * فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا * وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا * وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا * وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا * وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا * مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾.

أي: إنَّ في ذلك[1] لعَلاماتٍ لأُولي العُقولِ تدُلُّهم على وحدانيَّةِ اللهِ، وقُدرتِه، ورَحمتِه، وأنَّه المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحدَه لا شريكَ له[2].

كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤].

= (ص: ٤١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣).

(١) قال أبو حيان: (وأشار بقولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ للآياتِ السَّابقةِ مِن جَعلِ الأرضِ مَهدًا، وسَلْكِ سُبُلِها، وإنزالِ الماءِ، وإخراجِ النباتِ). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٤). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤).

﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه منافِعَ الأرضِ والسَّماءِ؛ بيَّنَ أنَّها غيرُ مَطلوبةٍ لِذاتِها، بل هي مطلوبةٌ لِكَونِها وسائِلَ إلى منافِعِ الآخرةِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ كَرَمَ الأرضِ، وحُسْنَ شُكرِها؛ لِما يُنزِلُه الله عليها مِنَ المطرِ، وأنَّها بإذنِ رَبِّها تُخرِجُ النَّباتَ المختَلِفَ الأنواعِ؛ أخبَرَ أنَّه خلَقَنا منها[2]، فقال:

﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾.

أي: مِن تُرابِ الأرضِ خَلَقْنا -أيُّها النَّاسُ- أباكم آدَمَ الذي هو أصلُكم، وأنتم ذريَّتُه[3].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ﴾ [الأنعام: ٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧-٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٥٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤).

قال الشنقيطي: (التحقيقُ أن معنى خلْقِه تعالى النَّاسَ من ترابٍ أنَّه خلق أباهم آدَمَ منها... وما يزعُمُه بعضُ أهلِ العلم من أنَّ معنى خَلْقِهم من ترابٍ أنَّ النطفةَ إذا وقَعَت في الرَّحِمِ انطلق المَلَك الموكَّلُ بالرَّحِمِ فأخذ من ترابِ المكانِ الذي يُدفَنُ فيه فيَذُرُّه على النطفةِ، فيَخلُقُ اللهُ النَّسَمةَ مِن النطفةِ والترابِ معًا؛ فهو خلافُ التحقيقِ؛ لأنَّ القرآن يدُلُّ على أنَّ مرحلةَ النطفةِ بعدَ مرحلةِ الترابِ بمُهلةٍ... وكذلك ما يزعُمُه بعضُ المفَسِّرينَ مِن أنَّ معنى خَلقِهم من ترابٍ أنَّ المرادَ أنَّهم خُلِقوا من الأغذيةِ التي تتولَّدُ من الأرضِ؛ فهو ظاهِرُ السُّقوطِ كما ترى). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٤-٢٥).

وقال سُبحانَه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

وقال عزَّ مِن قائلٍ: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧- ٨].

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾.

أي: وفي الأرضِ نُعيدُكم بعدَ مَوتِكم، وتَصيرونَ تُرابًا في قُبورِكم، كما كنتُم قبل إنشائِنا لكم بشرًا سَوِيًّا[1].

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾.

أي: ومِن الأرضِ نَبعَثُكم أحياءً مرَّةً أُخرَى، كما كنتُم قَبلَ مَماتِكم أحياءً، فنُنشِئُكم منها كما أنشَأناكم أوَّلَ مَرَّةٍ، فتَخرُجونَ منها يومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ[2].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧).

وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق: ٤٢ - ٤٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المنكرِ لا بُدَّ أنْ يكونَ بالحِكمةِ والرِّفقِ واللِّينِ[١]، وأنَّه يستحبُّ إلانةُ القَولِ للظَّالمِ عند وَعظِه؛ لعلَّه يَرجِعُ[٢]، فإذا كان موسى أُمِرَ بأن يقولَ لِفرعونَ قولًا لَيِّنًا، فمَن دونَه أحرى بأن يَقتَدِيَ بذلك في خطابِه، وأمْرِه بالمعروفِ في كلامِه. وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣][٣]، والدعوةُ إلى اللهِ كذلك يجِبُ أن تكونَ بالرِّفقِ واللِّينِ، لا بالقَسوةِ والشِّدَّةِ والعُنفِ[٤].

٢- قال الله تعالى لموسى وهارونَ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ هذه الآيةُ فيها عِبرةٌ عظيمةٌ، وهي أنَّ فِرعَونَ في غايةِ العُتُوِّ والاستكبارِ، وموسى صَفوةُ اللهِ مِن خَلقِه إذ ذاك، ومع هذا أُمِرَ ألَّا يُخاطِبَ فِرعَونَ إلَّا بالملاطفةِ واللِّينِ، كما قال يزيدُ الرقاشيُّ عند قولِه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾: (يا من يتحَبَّبُ إلى مَن يُعاديه، فكيف بمن يتولَّاه ويُناديه؟!)[٥]. وقرأ رجلٌ عندَ يحيى بنِ معاذٍ هذه الآيةَ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾، فبكَى يحيى، وقال: (إلهي هذا رِفقُك بمن يقولُ: أنا

---

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١١٠).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٠).
(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٤).

الإلهُ، فكيف رفقُك بمن يقولُ: أنت الإلهُ؟!)[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ إرشادٌ إلى أنَّ الذي معه اللهُ لا يخافُ، وأنه لا بُدَّ أنْ يكونَ مَنصورًا[٢].

٤- إذا استحضَر العبدُ اطِّلاعَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ عليه في حالِ العَمَلِ له، وتحمُّلِ المشاقِّ لأجلِه؛ وتيقَّنَ أنَّ البلاءَ بِعَينِ مَن يحبُّه، هان عليه الألَمُ؛ كما أشار الله تعالى إلى ذلك بقولِه لموسى وهارونَ عليهما السَّلامُ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وقولِه لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾[٣] [الطور: ٤٨].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ يدُلُّ على أنَّ المحِقَّ يجِبُ عليه استِماعُ كَلامِ المُبطِلِ، والجوابُ عنه مِن غيرِ إيذاءٍ ولا إيحاشٍ، كما فعَلَ موسى عليه السَّلامُ بفِرعَونَ هاهنا، وكما أمَرَ الله تعالى رسولَه في قَولِه: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] وقال: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[٤] [التوبة: ٦].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ والفائدةُ في إرسالِهما، والمُبالَغةِ عليهما في الاجتهادِ، مع عِلمِه بأنَّه لا يُؤمِنُ: إلْزامُ الحُجَّةِ وقطْعُ المَعذرةِ[٥]،

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨).

وإظهارُ ما حدَثَ في تَضاعيفِ ذلك من الآياتِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ دليلٌ على المنعِ مِن فِعْلِ ما يؤدِّي إلى الحرامِ، ولو كان جائزًا في نفْسِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى أَمَرَ موسى وهارون -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنْ يُلِينا القولَ لأعظمِ أعدائِه، وأشدِّهم كُفرًا، وأعتاهم عليه؛ لئلَّا يكونَ إغلاظُ القولِ له -معَ أنَّه حقيقٌ به- ذريعةً إلى تنفيرِه، وعَدَمِ صبرِه لقيامِ الحُجَّةِ، فنهاهما عن الجائزِ؛ لئلَّا يترتبَ عليه ما هو أكرهُ إليه تعالى[٢]. وقيل: إنَّه أُمِر باللينِ معَ هذا الكافرِ الجاحدِ؛ لأنَّه عليه السلامُ كان قد ربَّاه فِرعَونُ، فأمَره أن يخاطبَه بالرفقِ؛ رعايةً لتلك الحقوقِ، وهذا تنبيهٌ على نهايةِ تعظيمِ حقِّ الأبوينِ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ التذكُّرُ سببُ الخشيةِ؛ والخشيةُ حاصلةٌ عن التذكُّرِ، فذَكَر التذكُّرَ الذي هو السببُ؛ وذَكَر الخشيةَ التي هي النتيجةُ -وإنْ كان أحدُهما مستلزِمًا للآخر- كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧]، وكما قال أهلُ النارِ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وقال: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فكلٌّ مِن النوعينِ يحصلُ به النجاةُ؛ لأنَّه مستلزمٌ للآخرِ[٤].

٤- قال الله تعالى لموسى وهارونَ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٨١).

وَأَرَىٰ﴾ وليس المرادُ منه النهيَ عن الخوفِ؛ لأنَّه من حيثُ كونُه أمرًا طبيعيًّا لا مدخلَ للاختيارِ فيه، لا يدخلُ تحت التكليف ثبوتًا وانتفاءً، بل المرادُ به التسلِّي بوعدِ الحفظِ والنصرةِ، كما يدلُّ عليه قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ بكمالِ الحفظِ والنُّصرةِ[١]، فالخوفُ الطبيعيُّ مِن الخلقِ، لا ينافي الإيمانَ، ولا يُزيلُه[٢]، والخوفُ من الأعداءِ سُنَّةُ اللهِ في أنبيائِه وأوليائِه معَ معرفتِهم به، وثِقَتِهم[٣].

٥- المعيَّةُ نوعانِ: مَعيَّةٌ عامَّةٌ تقتضي الإحاطةَ بالخَلقِ عِلمًا وقُدرةً، وسَمعًا وبَصرًا، وسُلطانًا وتدبيرًا، وغيرَ ذلك مِن معاني رُبوبيَّتِه، كقَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقَولِه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

ومعيَّةٌ خاصَّةٌ قد خُصَّت بشَخصٍ أو وَصفٍ، فهي تقتضي -مع ما سبَقَ- النَّصرَ والتأييدَ، والتَّوفيقَ والتَّسديدَ.

مِثالُ المَخصوصةِ بشَخصٍ: قَولُه تعالى لموسى وهارونَ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وقَولُه عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

ومثالُ المخصوصةِ بوَصفٍ: قَولُه تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وأمثالُها في القرآنِ كثيرةٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((روح البيان)) للخلوتي الحنفي (٥/ ٣٩١).

والقاعدةُ: أنَّه إذا كان متعلَّقُ الخطابِ مقدورًا حُمِل عليه، وإن كان غيرَ مقدورٍ صُرِف الخطاب لثمرته أو سببه. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٩٧).

٦- قولُه تعالى: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ جملةٌ استئنافيةٌ لبيانِ مُقتضَى هذه المعيَّةِ الخاصَّةِ ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ وهو السَّمعُ والرؤيةُ، وهذا سَمْعٌ ورؤيةٌ خاصَّانِ يقتضيانِ النَّصرَ والتأييدَ والحمايةَ مِن فِرعَونَ الذي قالا عنه: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾[1]. ولو قال قائلٌ: كيفَ يسمعُ، وكيفَ يرَى؟

فالجوابُ: السمعُ والبصرُ معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والجهميَّةِ في تأويلِهم صِفَتَي السَّمعِ والبَصَرِ إلى العِلْمِ والإحاطةِ؛ إِذْ لو كان معنى السَّمعِ والبَصرِ معنى العِلْمِ والإحاطةِ، لاقتصرَ -واللهُ أعلمُ- على: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ ولم يقُلْ: ﴿أَسۡمَعُ﴾، كما قال في سورةِ (المجادلةِ): ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْ﴾ [المجادلة: ٧]، فلمَّا قال: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ بعد تمامِ المعنى الذي يشيرونَ إليه، أزال كلَّ ريبٍ، وكشَفَ كلَّ غُمةٍ عن أنَّه يَسمَعُ بسَمعٍ، ويرى ببَصرٍ غيرِ مخلوقَينِ[3].

٨- قال تعالى: ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ * إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فتأمَّلْ حُسنَ سِياقِ هذه الجُمَلِ، وترتيبَ هذا الخِطابِ، ولُطفَ هذا القَولِ اللَّيِّنِ الذي سلَبَ القُلوبَ حُسنُه وحلاوتُه، مع جلالتِه وعَظَمتِه؛ كيف ابتدأ الخِطابَ بقَولِه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ وفي ضِمنِ ذلك: إنَّا لم نأتِك لِنُنازِعَك

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣١٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (٢/ ٢٨٨).

مُلكَك، ولا لِنَشرَكَك فيه، بل نحن عبدانِ مأمورانِ مُرسَلانِ مِن رَبِّك إليك. وفي إضافةِ اسمِ الرَّبِّ إليه هنا دونَ إضافتِه إليهما استِدعاءٌ لِسَمعِه وطاعتِه وقَبولِه، كما يقولُ الرَّسولُ للرَّجُلِ مِن عِندِ مَولاه: أنا رَسولُ مَولاك إليك وأستاذِك، وإن كان أستاذَهما معًا، ولكن ينبِّهُه بإضافتِه إليه على السَّمعِ والطَّاعةِ له.

ثمَّ إنَّهما طَلَبا منه أن يُرسِلَ معهما بني إسرائيلَ، ويُخَلِّيَ بينهم وبينهما ولا يُعَذِّبَهم، ومن طلَبَ مِن غَيرِه تَركَ العُدوانِ والظُّلمِ وتَعذيبِ مَن لا يَستَحِقُّ العذابَ، فلم يَطلُبْ منه شَطَطًا، ولم يُرهِقْه من أمرِه عُسرًا، بل طلبَ منه غايةَ النَّصَفِ.

ثمَّ أخبرَه بعد الطَّلَبِ بثلاثةِ إخباراتٍ: أحَدُها: قَولُه تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ فقد بَرِئْنا مِن عُهدةِ نِسبَتِك لنا إلى التقَوُّلِ والافتراءِ، بما جئناك به مِنَ البُرهانِ والدَّلالةِ الواضِحةِ، فقد قامت الحُجَّةُ، ثمَّ بعدَ ذلك للمُرسَلِ إليه حالتانِ: إمَّا أن يَسمَعَ ويُطيعَ فيكونَ مِن أهلِ الهُدى، والسَّلامُ على مَن اتَّبَع الهُدى، وإمَّا أن يُكَذِّبَ ويتولَّى، فالعذابُ على مَن كذَّب وتولَّى؛ فجَمَعَت الآيةُ طَلَبَ الإنصافِ، وإقامةَ الحُجَّةِ، وبيانَ ما يَستحِقُّ السَّامِعُ المطيعُ، وما يَستَحِقُّه المكَذِّبُ المتولِّي؛ بألطَفِ خطابٍ، وأليقِ قَولٍ، وأبلغِ ترغيبٍ وترهيبٍ(١).

٩- قال الله تعالى حِكايةً عن موسى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ إن قيل: ما الحِكمةُ في تسليمِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم على مَن اتَّبع الهُدَى في كتابِه إلى هِرَقلَ بلَفظِ النَّكِرةِ، ((سلامٌ على من اتَّبَعَ الهُدى))، وتسليمِ موسى عليهم هنا بلَفظِ المعرِفةِ؟

فالجوابُ عنه: أنَّ تَسليمَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم تسليمٌ ابتدائيٌّ؛ ولهذا

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٧٠).

صدَّرَ به الكتابَ، حيث قال: ((مِن محمَّدٍ رَسولِ اللهِ إلى هِرَقلَ عَظيمِ الرُّومِ، سلامٌ على من اتَّبع الهُدى))[١]؛ وتختصُّ النكرةُ بابتداءِ المكاتبةِ والمعرفةُ بآخرِها[٢]، وأمَّا قَولُ موسى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾؛ فليس بسلامِ تحيَّةٍ؛ فإنَّه لم يبتدِئْ به فِرعونَ، بل هو خبَرٌ محضٌ؛ فإنَّ مَن اتَّبع الهدَى له السَّلامُ المُطلَقُ دونَ مَن خالفَه؛ فإنَّه قال له: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ۞ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٧، ٤٨]؛ أفلا ترَى أنَّ هذا ليس بتحيَّةٍ في ابتداءِ الكلامِ ولا خاتمتِه، وإنَّما وقع متوسِّطًا بينَ الكلامَينِ إخبارًا مَحضًا عن وقوعِ السَّلامةِ وحُلولِها على مَن اتَّبَع الهُدى؛ ففيه استدعاءٌ لِفرعَونَ، وترغيبٌ له بما جُبلت النُّفوسُ على حُبِّه وإيثارِه مِنَ السَّلامةِ، وأنَّه إنِ اتَّبَع الهُدى الذي جاءَه به، فهو من أهلِ السَّلامِ. والله تعالى أعلَمُ[٣].

١٠- لا يجوزُ السلامُ على المُسْلِم بلفظ: «السلامُ على مَنِ اتَّبَعَ الهدَى»؛ وذلك لأنَّه ما صَدَر مِن موسَى عليه السلامُ إلَّا في سَلامِ الكفَّارِ، كما في قولِه لفرعونَ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾، وكذلك ما صدَر مِن النبيِّ صلَّى الله

(١) أخرجه مطولًا البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) واللَّفظُ له، مِن حديثِ أبي سفيانَ، رضي الله عنه.

(٢) والحكمة في ذلك هو أنَّ السَّلامَ دُعاءٌ وطَلَبٌ، وهم في ألفاظِ الدُّعاءِ والطَّلَبِ إنَّما يأتونَ بالنَّكِرةِ إمَّا مَرفوعةً على الابتداءِ، أو منصوبةً على المصدَرِ؛ فمِنَ الأوَّلِ: وَيلٌ له. ومِن الثاني: خيبةً له، وهذا في الدُّعاءِ عليه. وفي الدُّعاءِ له: سَقيًا وكرامةً ومَسَرَّةً؛ فجاء (سلامٌ عليكم) بلفظِ النَّكِرةِ كما جاء سائِرُ ألفاظِ الدُّعاءِ، وسِرُّ ذلك أنَّ هذه الألفاظَ جرت مجرى النُّطقِ بالفِعلِ؛ ألا ترى أنَّ (سَقيًا) جرى مجرى: (سقاك اللهُ)، وكذلك (سلامٌ عليك) جارٍ مجرى: (سلَّمك اللهُ)، والفِعلُ نَكِرةٌ؛ فأحبُّوا أن يجعلوا اللَّفظَ الذي هو جارٍ مَجراه وكالبَدلِ منه: نَكِرةً مِثلَه. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٦٩-١٧٠).

عليه وسلَّم إلَّا في سَلامِ الكفارِ(١).

١١- قولُه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فيه من تَرغيبِه في اتِّباعِهما على أَلْطَفِ وجْهٍ ما لا يَخْفى(٢). وكذلك قولُه: ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فيه من التَّلطيفِ في الوعيدِ -حيث لم يُصرِّحْ بحُلولِ العذابِ به- ما لا مَزِيدَ عليه(٣).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: (هذه أرجَى آيةٍ للمُوحِّدينَ؛ لأنَّهم لم يكَذِّبوا، ولم يتولَّوا)(٤).

١٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ فيه دليلٌ على مَنعِ السَّلامِ على الكافِرِ، وأنَّه إذا احتيجَ إليه في خِطابٍ أو كتابٍ يُؤتى بهذه الصِّفةِ(٥).

١٤- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ هذا مِن أقوى الدَّلائِلِ على أنَّ عِقابَ المؤمِنِ لا يدومُ؛ ذلك لأنَّ الألفَ واللَّامَ في قَولِه: ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ تفيدُ الاستِغراقَ، أو تفيدُ الماهيَّةَ، وعلى التَّقديرَينِ يقتضي انحصارَ هذا الجِنسِ فيمن كذَّب وتولَّى، فوجَبَ في غيرِ المكَذِّبِ المتولِّي ألَّا يَحصُلَ هذا الجِنسُ أصلًا(٦).

١٥- قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ مع أنَّ فِرعَون كان شديدَ القُوَّةِ، عَظيمَ الغَلَبةِ، كثيرَ العَسكَرِ؛ لكِنْ لَمَّا دعاه موسى عليه السَّلامُ إلى اللهِ

(١) يُنظر: ((الكنز الثمين في سؤالات ابن سنيد لابن عثيمين)) (ص: ١٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٤).
(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٦-١٧٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥٥).

تعالى لم يَشتَغِلْ معه بالبَطشِ والإيذاءِ، بل خرج معه في المناظَرةِ؛ وذلك لأنَّه لو شَرَع أوَّلًا في الإيذاءِ لَنُسِبَ إلى الجهلِ والسَّفاهةِ؛ فاستنكفَ مِن ذلك وشرَعَ أولًا في المناظَرةِ؛ وذلك يدُلُّ على أنَّ السَّفاهةَ مِن غيرِ الحُجَّةِ شَيءٌ ما كان يرتضيه فِرعَونُ مع كمالِ جَهلِه وكُفرِه؛ فكيف يليقُ ذلك بمن يدَّعي الإسلامَ والعِلمَ[١]؟!

١٦- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ﴾ يدُلُّ على أنَّه يجوزُ حِكايةُ كَلامِ المُبطِلِ؛ لأنَّه تعالى حكى كلامَ فِرعَونَ في إنكارِه الإلهَ، وحكى شُبُهاتِ مُنكري النبُوَّةِ، وشُبُهاتِ مُنكري الحَشرِ، إلَّا أنَّه يجِبُ أنَّك متى أوردْتَ السُّؤالَ، فاقرِنْه بالجوابِ؛ لئلَّا يبقَى الشَّكُّ، كما فعَلَ اللهُ تعالى في هذه المواضِعِ[٢].

١٧- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ﴾ خُصَّ موسى بالذِّكرِ، قيل: لأنَّه في وَقتِ الكلامِ إنَّما يتكلَّمُ واحِدٌ، فإذا انقطع وازَرَه الآخَرُ وأيَّدَه؛ فموسى وهارونُ جميعًا بلَّغا الرِّسالةَ، وإن كان هارونُ ساكِتًا، فصار لنا في هذا البِناءِ فائِدةُ عِلمٍ: أنَّ الاثنينِ إذا قُلِّدا أمرًا فقام به أحدُهما، والآخَرُ شَخصُه هناك موجودٌ، مُستغنًى عنه في وقتٍ دونَ وَقتٍ: أنَّهما أدَّيا الأمرَ الذي قُلِّدا، وقاما به واستوجَبا الثَّوابَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، وقال: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾، وقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ﴾ فأمرَهما جميعًا بالذَّهابِ وبالقَولِ، ثمَّ أعلَمَنا في وقتِ الخِطابِ بقَولِه: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ أنَّه كان حاضِرًا مع موسى[٣].

١٨- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ جمع جلَّ وعلا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٤).

في هذه الآيةِ بين الخَلقِ والهِدايةِ، وهو سُبحانَه في القرآنِ كثيرًا ما يجمَعُ بينهما، كقَولِه في أوَّلِ سورةٍ أنزَلَها على رَسولِه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]، وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ٨-١١]، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢، ٣]، وقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ...﴾ [النمل: ٦٠] الآيات، ثم قال: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [النمل: ٦٣] فالخَلقُ إعطاءُ الوجودِ العينيِّ الخارجيِّ، والهُدى إعطاءُ الوجودِ العلميِّ الذِّهنيِّ؛ فهذا خَلقُه، وهذا هُداه وتَعليمُه[١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ دَلالةٌ على تمامِ عنايةِ الخالقِ سُبحانَه بخَلْقِه، وهدايتِه العامَّةِ[٢]، فهذه هي الهدايةُ العامةُ المشاهَدةُ في جميعِ المخلوقاتِ، فكلُّ مخلوقٍ تجدُه يسعَى لما خُلِق له مِن المنافعِ، وفي دفعِ المضارِّ عنه[٣].

٢٠- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ هذا أحسَنُ استنباطٍ لكتابةِ الحَديثِ والعِلمِ[٤]، قال أبو المليحِ[٥]: (يَعيبونَ علينا الكتابَ، واللَّهُ يقولُ:

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٧٩).
(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٦٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٧).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٧).
(٥) أبو المَلِيحِ: هو الحسَنُ بنُ عُمرَ الرَّقِّيُّ، الإمامُ، المحدِّثُ، وَثَّقه أحمدُ بنُ حنبلٍ، وأبو زُرْعَةَ، =

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ﴾)[١].

٢١- قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ في ذلك إشارةٌ إلى تبكيتِ اليَهودِ بأنَّ ثُبوتَ النبُوَّةِ إن كان يتوقَّفُ على أن يخبِرَ النبيُّ عن كلِّ ما يُسأَلُ عنه، لَزِمَ أن يتوقَّفوا في نبُوَّةِ نَبيِّهم عليه السَّلامُ؛ لأنَّه لم يُخبِرْ فِرعَونَ عما سألَه عنه مِن أمرِ القُرونِ[٢].

٢٢- قال الله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ لِكمالِ عِلمِه وحِفظِه[٣]، فهو يَصِفُ علمَه تعالى بأنَّه بكُلِّ شَيءٍ مُحيطٌ، وأنَّه لا ينسى شيئًا، تبارك وتعالى وتقَدَّس، فإنَّ عِلمَ المخلوقِ يَعتريه نُقصانانِ: أحدُهما: عدَمُ الإحاطةِ بالشَّيءِ، والآخَرُ: نسيانُه بعد عِلمِه، فنَزَّه نفسَه عن ذلك[٤].

٢٣- قال الله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ لذلك كان بنو آدمَ كالأرضِ تمامًا: فيهم الحَزْنُ الصُّلْبُ الشَّديدُ، وفيهم السَّهْلُ، وفيهم ما بينَ ذلك، وفيهم الأبيضُ، وفيهم الأحمرُ، وفيهم الأسودُ؛ لأنَّ الأراضيَ تختَلِفُ هكذا[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ بيانٌ لجُملةِ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]. أو هي استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ

= توفِّي سنةَ إحدَى وثمانينَ ومائةٍ. يُنظر: ((تهذيب الكمال)) للمزي (٦/ ٢٨٠)، ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٨/ ١٩٤).

(١) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٤٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٦).

لِنَفۡسِي﴾ [طه: ٤١] يُؤذِنُ بأنَّه اختارَهُ وأعَدَّهُ لأمْرٍ عظيمٍ(١).

- والباءُ في ﴿بِـَٔايَـٰتِي﴾ للمُصاحَبةِ؛ لقصْدِ تطمينِ مُوسى بأنَّه سيكونُ مُصاحِبًا لآياتِ اللهِ(٢)؛ فالمُرادُ ذَهابُهما إلى فرْعونَ مُتلبِّسين بالآياتِ، مُتمسِّكينَ بها في إجْراءِ أحكامِ الرِّسالةِ، وإكْمالِ أمْرِ الدَّعوةِ، لا مُجرَّدُ إذْهابِها، وإيصالِها إليه(٣).

٢- قولُه تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ لمَّا حذَفَ مَن يُذْهَبُ إليه في قولِه: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾، نَصَّ عليه في هذا الأمْرِ الثَّاني، فقِيلَ: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾(٤).

وقيل: قولُه: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِي﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ كُلُّ واحدٍ منهما مأمورًا بالذَّهابِ على الانفرادِ، فقيل مَرَّةً أُخرى: ﴿ٱذۡهَبَآ﴾؛ ليعرفا أنَّ المرادَ منه أن يشتغِلا بذلك جميعًا، لا أن ينفرِدَ به هارونُ دونَ موسى. وقيل: إنَّ قولَه: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِي﴾ أمرٌ بالذَّهابِ إلى كُلِّ النَّاسِ مِن بني إسرائيلَ وقومِ فِرعونَ، ثمَّ إنَّ قولَه: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ أمرٌ بالذَّهابِ إلى فِرعونَ وَحدَه(٥).

- وجمَعَهما في صِيغَةِ أمْرِ الحاضرِ مع غَيبةِ هارونَ إذ ذاك؛ للتَّغليبِ(٦).

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بأنْ يَذْهبا إليه؛ فعُلِمَ أنَّه لقصْدِ كَفِّه عن طُغيانِه(٧).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ لتَرتيبِ ما بعْدَها على طُغيانِه؛ فإنَّ تَلْيِينَ القولِ ممَّا يَكسِرُ سَوْرةَ عِنادِ العُتاةِ، ويُلِينُ عَريكةَ الطُّغاةِ[١].

- قولُه: ﴿قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ شبَّهَ الكلامَ المُشتمِلَ على المعاني الحَسنةِ بالشَّيءِ اللَّيِّنِ[٢].

- قولُه: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ فيه تَقديمُ التَّذكُّرِ على الخَشيةِ؛ لأنَّ التَّذكُّرَ للمُتحقِّقِ، والخَشيةَ للمُتوهِّمِ؛ فقدَّمَ الأوَّلَ، أي: إنْ لم يَتحقَّقْ صِدْقُكما ولم يَتذكَّرْ؛ فلا أقَلَّ مِن أنْ يَتوهَّمَه فيَخْشى[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾

- قولُه: ﴿قَالَا رَبَّنَآ﴾ أُسْنِدَ القولُ إليهما، مع أنَّ القائلَ حقيقةً هو مُوسى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، بطَريقِ التَّغليبِ؛ إيذانًا بأصالتِه في كلِّ قوْلٍ وفِعْلٍ، وتَبعيَّةِ هارونَ عليه السَّلامُ له في كلِّ ما يأْتي ويذَرُ[٤].

- ولم يَذْكُرا مُتعلِّقَ ﴿يَطۡغَىٰ﴾ -وهو (عليك)- بمعنى القولِ فيك بما لا يَنْبغي، وذكَرَا مُتعلِّقَ ﴿يَفۡرُطَ﴾ -وهو ﴿عَلَيۡنَآ﴾-؛ لأنَّ مَعرَّتَه عائدةٌ إليهما؛ إجْلالًا للهِ تعالى، وتَهيُّبًا من عِزَّتِه، واستزادةً لِرَأفَتِه، واستِنْزالًا لرَحمتِه؛ فقولُه: ﴿أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾، أي: يقولَ فيك ما لا يَنْبغي، وفي المَجِيءِ به هكذا على الإطلاقِ، وعلى سَبيلِ الرَّمزِ: بابٌ من حُسْنِ الأدبِ، وتَحاشٍ عن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨).

التَّفوُّهِ بالعظيمةِ. وقيل: حُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿يَطْغَىٰ﴾؛ لدَلالةِ نَظيرِه عليه، وهو قولُه: ﴿عَلَيْنَآ﴾، وأُوثِرَ بالحذْفِ؛ لِرعايةِ الفواصلِ. والتَّقديرُ: أو أنْ يَطْغى علينا. وإظْهارُ كَلمةِ (أنْ) مع سَدادِ المعنى بدُونِها؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتناءِ بالأمْرِ، والإشعارِ بتَحقُّقِ الخوفِ من كلٍّ منهما(١).

٥- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على السُّؤالِ النَّاشئِ من النَّظْمِ الكريمِ، ولعلَّ إسنادَ الفِعْلِ إلى ضَميرِ الغَيبةِ؛ للإشعارِ بانتقالِ الكلامِ من مَساقٍ إلى آخَرَ(٢).

- وقولُه: ﴿لَا تَخَافَآ﴾ نهْيٌ مُكَنًّى به عن نفْيِ وُقوعِ المَنْهيِّ عنه(٣).

- وقولُه: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن الخوفِ الَّذي هو في مَعنى النَّفيِ، ومَزيدُ تَسليةٍ لهما(٤).

- ونُزِّلَ فِعْلَا ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ مَنزِلةَ اللَّازمينِ؛ إذ لا غرَضَ لِبيانِ مَفْعولِهما، بل المقصودُ: إنِّي لا يَخْفى عليَّ شَيءٌ، وفرَّعَ عليه إعادةَ الأمْرِ بالذَّهابِ إلى فِرْعونَ ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ ...﴾(٥).

٦- قولُه تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٧- ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٨).

قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾

- قولُه: ﴿ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ ... ﴾ أُمِرَا بإتيانِه الَّذي هو عبارةٌ عن الوُصولِ إليه بعْدَما أُمِرَا بالذَّهابِ؛ فلا تكْرارَ، وهو عطْفٌ على ﴿لَا تَخَافَآ﴾ باعتبارِ تَعليلِه بما بعْدَه. أُمِرَا بـ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾؛ تَحقيقًا للحقِّ من أوَّلِ الأمْرِ؛ ليَعرِفَ الطَّاغيةُ شأْنَهما، ويَبْني جَوابَه عليه، وكذا التَّعرُّضُ لرُبوبيَّتِه تعالى له[1].

- قولُه: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أمَرَهما أنْ يُخاطِباهُ بقولِهما: ﴿رَبِّكَ﴾؛ تَحقيرًا له، وإعلامًا أنَّه مَربوبٌ مَملوكٌ؛ إذ كان هو يَدَّعي الرُّبوبيَّةَ[2]، أو خَصَّا الرَّبَّ بالإضافةِ إلى ضَميرِ فِرْعونَ قَصْدًا لأقْصى الدَّعوةِ؛ لأنَّ كونَ اللهِ ربَّهما معلومٌ من قولِهما: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، وكونُه ربَّ النَّاسِ معلومٌ بالأحْرى؛ لأنَّ فِرعونَ علَّمَهم أنَّه هو الرَّبُّ[3].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، وقال في سُورةِ (الشُّعراءِ): ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]. ووجْهُه: أنَّ الرَّسولَ سُمِّيَ به، فحيثُ وحَّدَه حُمِلَ على المصدرِ، وحيث ثَنَّى حُمِلَ على الاسمِ. ويجوزُ أنْ يُقالَ: حيث وحَّدَ حُمِلَ على الرِّسالةِ؛ لأنَّهما أُرْسِلَا لشَيءٍ واحدٍ، وحيث ثَنَّى حُمِلَ على الشَّخصينِ[4].

- والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها؛ فإنَّ كونَهما رسولَيْ ربِّهِ ممَّا يُوجِبُ إرسالَهم معهما. أو لأنَّ المُرسَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨-١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٩).

(٤) ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٥).

منَ اللهِ تجِبُ طاعتُه. وقيل: أدخَلَ فاءَ التَّفريعِ على طلَبِ إطلاقِ بني إسرائيلَ؛ لأنَّه جعَلَ طلَبَ إطلاقِهم كالمُستقِرِّ المعلومِ عندَ فِرْعونَ؛ إمَّا لأنَّه سبقَتْ إشاعةُ عَزْمِهما على الحُضورِ عندَ فِرعونَ لذلك المطلَبِ، وإمَّا لأنَّه جعَلَه -لأهميَّتِه- كالمُقرَّرِ[١].

- وجُملةُ: ﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ جاريةٌ من الجُملةِ الأُولى -وهي ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾- مَجْرى البَيانِ والتَّفسيرِ؛ لأنَّ دَعوى الرِّسالةِ لا تثبُتُ إلَّا بِبيِّنَتِها الَّتي هي المَجيءُ بالآيةِ. أو تَقريرٌ لِمَا تَضمَّنَه الكلامُ السَّابقُ من دَعوى الرِّسالةِ، وتَعليلٌ لوُجوبِ الإرسالِ؛ فإنَّ مَجيئَهما بالآيةِ من جِهَتِه تعالى ممَّا يُحقِّقُ رِسالتَهما ويُقرِّرُها، ويُوجِبُ الامتثالَ بأمْرِهما[٢].

- إنَّما وحَّدَ قولَه: ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ ولم يُثَنِّ، ومعه آيتانِ؛ لأنَّ المُرادَ في هذا الموضعِ تَثبيتُ الدَّعوى ببُرْهانِها، فكأنَّه قال: قد جِئْناك بمُعْجِزةٍ وبُرْهانٍ وحُجَّةٍ على ما ادَّعيناهُ من الرِّسالةِ[٣]، فمعنى الآيةِ الإشارةُ إلى جنسِ الآياتِ، كأنَّه قال: قد جئناك ببيانٍ مِن عندِ الله. ثم يجوزُ أن يكونَ ذلك حجةً واحدة أو حججًا كثيرة[٤].

- قولُه: ﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ فيه إظهارُ اسمِ الرَّبِّ في مَوضِعِ الإضمارِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِ المُخاطَبِ؛ لتأكيدِ ما ذُكِرَ من التَّقريرِ والتَّعليلِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٦-٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٦-٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٥٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩).

- وفي قولِه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ عُبِّر بـ(عَلى) للتَّمكُّنِ، أي: سَلامةُ مَن اتَّبَع الهُدى ثابتةٌ لهم دونَ رَيبٍ، وهذا احتراسٌ ومُقدِّمةٌ للإنذارِ الَّذي في قولِه: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ فقولُه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ تَعريضٌ بأنْ يَطلُبَ فِرعونُ الهُدى الَّذي جاء به مُوسى عليه السَّلامُ[١]؛ ففيه إشارةٌ إلى التَّعريضِ؛ فاللَّامُ للجنْسِ، كأنَّه قال: جِنْسُ السَّلامِ على مَن اتَّبَعَ الهُدى؛ ففيه تَعريضٌ بأنَّ ضِدَّه عليكم[٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ لعلَّ تَغييرَ النَّظمِ والتَّصريحَ بالوعيدِ والتَّوكيد فيه؛ لأنَّ التَّهديدَ في أوَّلِ الأمْرِ أهَمُّ وأنجَعُ، وبالواقعِ ألْيَقُ[٣]، وفيه تَعريضٌ لإنذارِه على التَّكذيبِ قبْلَ حُصولِه منه؛ ليُبَلِّغَ الرِّسالةَ على أتَمِّ وجْهٍ قبْلَ ظُهورِ رأْيِ فِرعونَ في ذلك؛ حتَّى لا يُجابِهَه بعْدَ ظُهورِ رأْيِه بتَصريحِ تَوجيهِ الإنذارِ إليه[٤].

- وبُنِيَ ﴿أُوحِيَ﴾ لِمَا لم يُسَمَّ فاعِلُه، ولم يُذْكَرِ المُوحِي؛ لأنَّ فِرعونَ كانت له بادرةٌ[٥]؛ فرُبَّما صدَرَ منه في حَقِّ المُوحِي ما لا يَلِيقُ به[٦].

- ولمَّا دلَّ قولُه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ على التَّوبيخِ لِمَكانِ التَّعريضِ، كان قولُه: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ﴾ استِئنافًا مُنْطويًا على تَعليلِ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٠).

(٥) البادِرةُ: الحِدَّةُ. يُقالُ: بَدَرَت منه بوادِرُ غَضَبٍ، أي: سَقَطاتٌ وخَطأٌ عندما احتَدَّ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٩).

المفهومِ المقصودِ في الإيرادِ؛ كأنَّه قِيلَ: العذابُ على مَن كذَّبَ وتولَّى؛ لأنَّ اللهَ تعالى أوْحَى إلينا ذلك(١).

- وإطْلاقُ السَّلامِ والعذابِ دونَ تَقييدٍ بالدُّنيا أو الآخرةِ: تَعميمٌ للبِشارةِ والنِّذارةِ(٢).

٨- قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾

- في الكلامِ إيجازٌ بالحذْفِ، تَقديرُه: فأَتيَا فِرعونَ، وقالا له ما أمَرَهما اللهُ أنْ يُبلِّغاهُ، فقال:...، وإنَّما طُوِيَ ذِكْرُه للإيجازِ، والإشعارِ بأنَّهما كما أُمِرَا بذلك سارَعَا إلى الامتثالِ به من غيرِ تَلعثُمٍ، وبأنَّ ذلك منَ الظُّهورِ بحيثُ لا حاجةَ إلى التَّصريحِ به(٣).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؛ لتَرتيبِ السُّؤالِ على ما سبَقَ مِن كونِهما رسولَيْ ربِّهما، أي: إذا كُنْتُما رسولَيْ ربِّكما، فأخْبِرَا مَن ربُّكما الَّذي أرسلَكُما(٤).

- وجاء خِطابُه في قولِه: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ للاثنينِ، ووجَّهَ النِّداءَ إلى أحدِهما، وهو مُوسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّه الأصْلُ في النُّبوَّةِ، وهارونُ وَزيرُه وتابِعُه(٥)، ....

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣١).

ولأنَّه صاحبُ الرِّسالةِ والكلامِ والآيةِ[١]، أو لأنَّ المُجاوَبةَ إنَّما تكونُ من الواحِدِ، وإنْ كان الخِطابُ بالجماعةِ لا من الجَميعِ[٢].

- وفي قولِ فِرعونَ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ لم يُضِفِ الرَّبَّ إلى نفْسِه ولو بطَريقِ حِكايةِ ما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ لِغايةِ عُتوِّهِ ونِهايةِ طُغيانِه، بل أضافَه إليهما؛ لِمَا أنَّ المُرسِلَ لا بُدَّ أنْ يكونَ ربًّا للرَّسولِ، أو لأنَّهما قد صرَّحا برُبوبيَّتِه تعالى للكلِّ، بأنْ قالا: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] كما وقَعَ في سُورةِ (الشُّعراءِ)[٣]. وقيل: أعرَضَ عنِ الاعترافِ بالمَرْبوبيَّةِ ولو بحِكايةِ قولِهما؛ لئلَّا يقَعَ ذلك في سمْعِ أتْباعِه وقومِه، فيَحسِبوا أنَّه مُتردِّدٌ في مَعرفةِ ربِّه، أو أنَّه اعترَفَ بأنَّ له ربًّا[٤]. أو: لم يقُلْ: رَبِّي؛ حَيدةً عن سواءِ النَّظرِ، وصرفًا للكلامِ على الوجهِ الموضِّحِ لخِزيِه[٥].

٩- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾

- جَوابُ مُوسى عليه السَّلامُ بقولِه: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ سلَكَ فيه طَريقَ الإرشادِ والأُسلوبِ الحكيمِ، حيث كان الظَّاهرُ أنْ يقولَ: (ربُّ العالمينَ)؛ فما أخصَرَه وما أجمَعَه! وما أبْيَنَه لمَن ألْقَى الذِّهنَ، ونظَرَ بعَينِ الإنصافِ، وكان طالِبًا للحقِّ؛ فهو جَوابٌ في غايةِ البَلاغةِ؛ لاختصارِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٢).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٢٩٤).

وإعرابِه عن الموجوداتِ بأسْرِها على مَراتبِها، ودَلالتِه على أنَّ الغَنِيَّ القادرَ بالذَّاتِ، المُنعِمَ على الإطلاقِ هو اللهُ تعالى، وأنَّ جميعَ ما عداهُ مُفتقِرٌ إليه، مُنْعَمٌ عليه في حَدِّ ذاتِه وصِفاتِه وأفعالِه؛ ولذلك بُهِتَ الَّذي كفَرَ، فلم يَرَ إلَّا صَرْفَ الكلامِ عنه(١). وأيضًا أجاب مُوسى عليه السَّلامُ بإثباتِ الرُّبوبيَّةِ للهِ لجَميعِ الموجوداتِ، وفِرعونُ من جُملتِها، فهو داخلٌ في عُمومِها(٢)، ولقد ساق عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ جَوابَه على نمَطٍ رائقٍ، وأُسلوبٍ لائقٍ، وضَمَّنَه أنَّ إرسالَه تعالى إلى الطَّاغيةِ من جُملةِ هِداياتِه تعالى إيَّاه، بعْدَ أنْ هَداهُ إلى الحقِّ بالهداياتِ التَّكوينيَّةِ؛ حيث ركَّبَ فيه العقْلَ، وسائرَ المشاعرِ، والآلاتِ الظَّاهرةِ والباطنةِ(٣).

- ولم يُريدَا بضَميرِ المُتكلِّمِ ﴿رَبُّنَا﴾ أنفُسَهما فقط، حسْبَما أرادَ اللَّعينُ، بل جميعَ المخلوقاتِ؛ تَحقيقًا للحقِّ، ورَدًّا عليه، كما يُفْصِحُ عنه ما في حَيِّزِ الصِّلَةِ، أي: هو ربُّنا الَّذي أعْطَى كلَّ شَيءٍ مِن الأشياءِ خَلْقَه(٤).

- قولُه: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ لمَّا كان الخلْقُ مُتقدِّمًا على الهدايةِ وُسِّطَ بينهما كَلِمةُ التَّراخي (ثُمَّ)(٥)، وفيه إيجازٌ بليغٌ؛ لأنَّه حذَفَ جُمَلًا لا يقَعُ عليها الحصْرُ؛ لأنَّه ليس بالمُتاحِ إحصاءُ المخلوقاتِ الحيَّةِ وغيرِ الحيَّةِ، العاقلةِ وغيرِ العاقلةِ الَّتي خلَقَها اللهُ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٠١).

١٠- قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾

- إيثارُ كَلِمةِ (البال) هنا من دَقيقِ الخصائصِ البلاغيَّةِ؛ أراد فِرعونُ أنْ يُحاجَّ مُوسى بما حصَل للقُرونِ الماضيةِ الَّذين كانوا على مِلَّةِ فِرعونَ، أي: ما حالُهم؛ أفتزْعُمُ أنَّهم اتَّفَقوا على ضَلالةٍ؟! وهذه طبيعةُ مَن لا يَجِدُ حُجَّةً، فيَعمِدُ إلى التَّشغيبِ بتَخييلِ استبعادِ كَلامِ خَصْمِه. ويجوزُ أنَّ فِرعونَ أراد التَّشغيبَ على مُوسى حين نهَضَتْ حُجَّتُه بأنْ يَنقِلَه إلى الحديثِ عن حالِ القُرونِ الأُولى: هل هم في عذابٍ؟ بمُناسَبةِ قولِ مُوسى: ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨]، فإذا قال: إنَّهم في عذابٍ، ثارتْ ثائرةُ أبنائِهم، فصاروا أعداءً لمُوسى، وإذا قال: هم في سَلامٍ، نهَضَتْ حُجَّةُ فِرعونَ؛ لأنَّه مُتابِعٌ لِدينِهم، ولأنَّ مُوسى لمَّا أعلَمَه بربِّه، وكان ذلك مُشعِرًا بالخلْقِ الأوَّلِ؛ خطَر ببالِ فِرعونَ أنْ يسأَلَه عن الاعتقادِ في مَصيرِ النَّاسِ بعدَ الفَناءِ، فسأَلَ: ما بالُ القُرونِ الأُولى؟ ما شأْنُهم؟ وما الخبَرُ عنهم؟ وهو سُؤالُ تَعجيزٍ وتَشغيبٍ(١).

١١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾

- قولُه: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ فيه إظهارُ ﴿رَبِّى﴾ في مَوقعِ الإضمارِ؛ للتَّلذُّذِ بذِكْرِه، ولزِيادةِ التَّقريرِ والإشعارِ بعِلَّةِ الحُكْمِ؛ فإنَّ الرُّبوبيَّةَ ممَّا يَقْتضي عدَمَ الضَّلالِ والنِّسيانِ حتْمًا(٢).

- والغرَضُ من قولِه: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ﴾ التَّوكيدُ بأنَّ أسرارَها مَعلومةٌ له، لا يَزولُ شَيءٌ منها، ويتأكَّدُ هذا بقولِه: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٣-٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٢).

- وقولُه: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ فيه تعريضٌ بفرعونَ يستلزمُ إبطالَ دعواه الربوبيةَ[١].

١٢- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ على عادةِ القُرآنِ مِن تفنُّنِ الأغراضِ؛ لتَجديدِ نَشاطِ الأذهانِ. وتَعريفُ جُزأَيِ الجُملةِ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ يُفيدُ الحصْرَ، أي: الجاعِلُ الأرضَ مِهادًا؛ فكيف تَعْبُدون غيرَه؟! وهذا قصْرٌ حَقيقيٌّ، غيرُ مَقصودٍ به الرَّدُّ على المُشرِكين، ولكنَّه تَذكيرٌ بالنِّعمةِ، وتَعريضٌ بأنَّ غيرَه ليس حَقيقًا بالإلهيَّةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ انتقَلَ من لفْظِ الغَيبةِ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ إلى لفْظِ المُتكلِّمِ المُطاعِ؛ للافتنانِ، وللتَّنبيهِ على ظُهورِ ما فيهِ منَ الدَّلالةِ عَلى كَمالِ القُدرةِ والحِكمةِ، والإيذانِ بأنَّه مُطاعٌ تَنقادُ الأشياءُ المُختلِفةُ لأمْرِه، وتُذعِنُ الأجناسُ المُتفاوِتةُ لمَشيئتِه، لا يَمتنِعُ شَيءٌ على إرادتِه[٣]. وفي هذا الالْتِفاتِ تَخصيصٌ أيضًا بأنَّا نحن نقْدِرُ على مثْلِ هذا، ولا نَدخُلُ تحتَ قُدرةِ أحَدٍ[٤]. وأيضًا هذا الالتفاتُ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ بصِيغةِ التعظيمِ يدلُّ على تَعظيمِ شأنِ إنباتِ النباتِ؛ لأنَّه لو لم يَنزِلِ الماءُ، ولم يَنبُتْ شيءٌ، لهَلَك الناسُ جُوعًا وعطشًا؛ فهو يدلُّ على عَظمتِه جلَّ وعلا، وشِدَّةِ احتياجِ الخَلقِ إليه، ولُزومِ طاعتِهم له جلَّ وعلا[٥]. وحسَّنَ هذا الالْتِفاتَ: أنَّه بعْدَ أنْ حَجَّ المُشرِكينَ بحُجَّةِ

(١) يُنظر: ((حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي)) (٦/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٨-٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٣).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٢).

انفِرادِه بخلْقِ الأرضِ، وتَسخيرِ السَّماءِ ممَّا لا سَبيلَ بهم إلى نُكرانِه؛ ارْتَقَى إلى صِيغَةِ المُتكلِّمِ المُطاعِ؛ فإنَّ الَّذي خلَقَ الأرضَ، وسخَّرَ السَّماءَ حَقيقٌ بأنْ تُطِيعَه القُوى والعناصِرُ، فهو يُخرِجُ النَّباتَ من الأرضِ بسبَبِ ماءِ السَّماءِ، فكان تَسخيرُ النَّباتِ أثَرًا لتَسخيرِ أصْلِ تكوينِه من ماءِ السَّماءِ وتُرابِ الأرضِ(١).

- قولُه: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ كِنايةٌ عن كثْرَتِها في جِهاتِ الأرضِ(٢).

- قولُه: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ لمَّا ذكَرَ مِنَّةَ خلْقِ الأرضِ، شفَعَها بمِنَّةِ إخراجِ النَّباتِ منها بما يُنزِلُ عليها من السَّماءِ من ماءٍ. وتلك مِنَّةٌ تُنْبِئُ عن خلْقِ السَّمواتِ؛ حيث أجْرى ذِكْرَها لقصْدِ ذلك التَّذكيرِ؛ ولذا لم يقُلْ: وصبَبْنا الماءَ على الأرضِ، كما في آيةِ: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٥، ٢٦]. وهذا إدماجٌ بَليغٌ(٣).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾، وقال في سُورةِ الزُّخرفِ: ﴿وَجَعَلَ﴾ [الزخرف: ١٠]. ووجْهُه: أنَّ لفْظَ السُّلوكِ مع السَّبيلِ أكثرُ استعمالًا، فخُصَّت به سُورةُ (طه)، وخُصَّت سُورةُ الزُّخرفِ بـ(جَعَل)؛ ازدواجًا للكلامِ، ومُوافقةً لِمَا قبْلَها وما بعْدَها(٤).

١٣- قولُه تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ مقولُ قَولٍ مَحذوفٍ هو حالٌ من ضَميرِ ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾، والتَّقديرُ: قائلينَ: كُلوا وارْعَوا أنعامَكم، والأمْرُ للإباحةِ، مُرادٌ به المِنَّةُ، والتَّقديرُ: كُلوا منها، وارْعَوا أنعامَكم منها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٥).

وهذا مِن مُقابَلةِ الجمْعِ -في قولِه: ﴿نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾- بالجمْعِ؛ لقصْدِ التَّوزيعِ[(١)].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ مُؤكِّدةٌ للاستدلالِ. وتأكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ)؛ لتنزيلِ المُخاطَبينَ مَنزِلَةَ المُنكرينَ؛ لأنَّهم لم يَنْظروا في دَلالةِ تلك المخلوقاتِ على وَحدانيَّةِ اللهِ، وهم يَحْسبون أنفُسَهم من أُولي النُّهى[(٢)].

- واسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ من شُؤونه تعالى وأفعالِه، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتْبتِه، وبُعْدِ مَنزلتِه في الكَمالِ[(٣)].

- وتَنكيرُ ﴿لَآيَٰتٍ﴾؛ للتَّفخيمِ كمًّا وكَيفًا، أي: لآياتٍ كثيرةً جَليلةً، واضحةَ الدَّلالةِ على شُؤونِ اللهِ تعالى في ذاتِهِ وصِفاتِه وأفعالِه، وعلى صِحَّةِ نُبوَّةِ مُوسى وهارونَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ. وتَخصيصُ كونِها آياتٍ بأُولي النُّهَى -مع أنَّها آياتٌ للعالمينَ- باعتبارِ أنَّهم المُنتفِعونَ بها[(٤)].

١٤- قولُه تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ مُستأنفٌ استئنافًا ابتدائيًّا، وهذا إدماجٌ[(٥)] للتَّذكيرِ بالخلْقِ الأوَّلِ؛ ليكونَ دَليلًا على إمكانِ الخلْقِ الثَّاني بعْدَ الموتِ[(٦)].

- وقُدِّمَتِ المجروراتُ الثَّلاثةُ -﴿مِنْهَا﴾ ﴿وَفِيهَا﴾ ﴿وَمِنْهَا﴾- على مُتعلِّقاتِها؛ فأمَّا المجرورُ الأوَّلُ والمجرورُ الثَّالثُ فَلِلاهتمامِ بكونِ الأرضِ مبدَأَ الخلْقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٣٩-٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدم تعريفُه (ص: ٢١٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٠).

الأوَّلِ، والخلْقِ الثَّاني. وأمَّا تَقديمُ ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ فَلِلْمُزاوجةِ[١] مع نَظيرَيْه[٢].

- قولُه: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ إيثارُ كَلِمةِ (في) على كَلمةِ (إلى)؛ للدَّلالةِ على الاستقرارِ المَديدِ فيها[٣].

- قولُه: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ إخراجَ الأجسادِ من الأرضِ بإعادةِ خلْقِها كما خُلِقَت في المرَّةِ الأُولى[٤].

- والآيةُ كالتَّتميمِ للآيةِ الأُولى، والتَّكميلِ للمنافِعِ المنوطةِ بالأرضِ[٥]؛

(١) المُزاوجَةُ لُغةً: مصدرُ: زاوَجَ بين الشَّيئينِ؛ قرَنَ بينهما.
واصطلاحًا: أنْ يُجمَعَ بين الشَّرطِ والجزاءِ في ترتُّبِ لازمٍ من اللَّوازمِ عليهما معًا، نحوُ قولِ الشاعرِ:
إذا ما بَدَتْ فازدادَ منهما جمالُها ... نظَرْتُ لها فازداد مِنِّي غرامُها
فقد زاوَجَ بين معنيينِ؛ هما: بُدُوُّها وظُهورُها ونظَرُه لها في الشَّرطِ والجزاءِ، في أنْ رتَّبَ عليهما لُزومَ شَيءٍ، وهو ازديادُ الجمالِ وازديادُ الغرامِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٢٣)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٢٥)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤١).

(٥) التَّتميم: من أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ من الكلام نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التتميمِ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّنَ أنَّها العزةُ المذمومةُ المُؤثِّمُ صاحِبُها.
والتكميلُ هو الاحتراسُ، والفَرقُ بينه وبين التَّتميم: أنَّ الاحتراسَ يجبُ أنْ يكونَ لرَفْعِ إيهامٍ =

دلَّتِ الأُولى على بَيانِ مَرافقِهم وأصنافِ انتفاعِهم، وهذه على أنَّها أصْلُهم، وفيها تقلُّبُهم أحياءً وأمواتًا(١).



= خِلافِ المقصودِ، وأمَّا التتميم فإنَّه يكونُ في كلامٍ لا يُوهِمُ خِلافَ المقصودِ؛ فالنِّسبةُ بينهما -إذن- هي التباينُ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠ - ٢٤١).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١/ ١٨٦).

الآيات (٥٦-٦٤)

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ۝٦٣ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ۝٦٤﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿سُوًى﴾: أي: وسَطًا، وهو مِن الاستواءِ؛ لأنَّ المسافةَ مِن الوسَطِ إلى الطَّرفينِ لا تفاوُتَ فيها، بل هي مُستويةٌ، وأصلُ (سوي): يدلُّ على استِقامةٍ، واعتِدالٍ بين شيئَينِ[1].

﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾: يومُ عيدٍ لهم، وأصلُ (زين): يدُلُّ على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه[2].

﴿كَيْدَهُۥ﴾: أي حِيلَه ومَكْرَه، والكَيدُ: ضَربٌ مِن الاحتيالِ، وقد يكونُ مَذمومًا وممدوحًا، وإن كان يُستعمَلُ في المذمومِ أكثَرَ[3].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠، ٤٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٣)، =

﴿فَيُسْحِتَكُم﴾: أي: يُهلِكَكم ويَستأْصِلَكم، وأصلُ (سحت): القِشرُ الذي يُستأصَلُ[(١)].

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾: أي: أخفَوا كلامَهم، والإسرارُ: خِلافُ الإعلانِ، والنَّجوى: المناجاةُ، وأصلُ (نجو): يدُلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ[(٢)].

﴿بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾: قيل: أي: بجَماعتِكم الأشراف، والعَرَبُ تقولُ للرَّجُلِ الفاضِلِ: هذا طَريقةُ قَومِه؛ فإنَّ الطريقةَ اسمٌ للأفاضِلِ على معنى أنَّهم الذين يُقتَدى بهم ويُتَّبَعُ آثارُهم، وقيل: أراد سُنَّتَكم ودِينَكم، والمثلَى تأنيثُ الأمثلِ، وهو الأفضلُ[(٣)].

﴿ٱسْتَعْلَىٰ﴾: أي: غلَبَ وأفلَحَ، وأصْلُ (علو): يدُلُّ على السُّموِّ والارتفاعِ[(٤)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٧) و(٥/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢١).

﴿إِنْ﴾ مُخففَّةٌ مِنَ الثَّقيلةِ مُهمَلةٌ، ﴿هَٰذَٰنِ﴾ مبتدأٌ مرفوعٌ بالألفِ، ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾ خبرُ المبتدأِ، و(اللامُ) هي الفارِقةُ بينَ إنِ النَّافيةِ والمخَفَّفةِ. وقال الكوفيُّونَ: ﴿إِنْ﴾ نافيةٌ بمعنى (ما)، واللامُ في ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾ بمعنى (إلَّا)، أي: ما هذان إلَّا ساحرانِ. وقيل: ﴿إِنْ﴾ مُخَفَّفةٌ عامِلةٌ، واسمُها ضميرُ الشَّأنِ محذوفٌ، ﴿هَٰذَٰنِ﴾ مبتدأٌ مرفوعٌ، ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾ (اللامُ) لامُ الابتِداءِ، (ساحرانِ) خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه: هما. وجملةُ (هما ساحرانِ) في محلِّ رفعٍ خبَرُ المبتدأِ (هذان)، وجملةُ (هذان لَهُما ساحِرانِ) في محلِّ رَفعٍ خبَرُ (إن) المخفَّفةِ.

وفي قراءةٍ: بتَشديدِ (إنَّ)[1]، وفي تخريجِها وجوهٌ عِدَّةٌ أجوَدُها وأرجَحُها: أنَّها (إنَّ) النَّاصبةُ، (هذان) اسم (إنَّ) منصوبٌ بها، واللامُ لامُ الابتداءِ المُزحلَقةُ، و (ساحرانِ) خبرُ (إنَّ) مرفوعٌ. ومجيءُ اسمِ الإشارةِ بالألفِ هنا مع أنَّه منصوبٌ: جارٍ على لغةِ بعضِ العَرَبِ مِن إجراءِ المثنَّى بالألفِ مُطلَقًا؛ يجعَلونَ المثنَّى كالمقصورِ، فيُثبِتونَ ألفًا في جميعِ أحوالِه، ويُقَدِّرونَ إعرابَه بالحَركاتِ. وقيل: إنَّ ﴿هَٰذَٰنِ﴾ مبنيٌّ؛ لتضَمُّنِه معنى الإشارةِ كمُفرَدِه وجَمعِه. وقيل غيرُ ذلك[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا مدَى تعنُّتِ فرعونَ، واستكبارِه عن قَبولِ الحقِّ: ولقد أَرينا فِرعَونَ جميعَ أدِلَّتِنا وحُجَجِنا الدالَّةِ على صِدْقِ رسالةِ موسى، فكذَّب بها

---

(١) قرأ ﴿إِنْ﴾ بالتخفيفِ ابنُ كثيرٍ وحفصٌ عن عاصمٍ، وقرأها الباقون بتشديدِ النونِ: ﴿إِنَّ﴾. يُنظر: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٤٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((أمالي ابن الحاجب)) (١/ ١٥٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٣)، ((حاشية الصبان)) (١/ ١١٩)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٣٣)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٦/ ٣٨٥).

فِرعَونُ وامتنَعَ عن قَبولِ الحَقِّ.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى ما قاله فرعونُ لموسى عليه السلامُ على سبيلِ التهديدِ والوعيدِ، فيقول: قال فِرعَونُ: هل جِئتَنا -يا موسى- لِتُخرِجَنا مِن ديارِنا بسِحرِك هذا؟ فلَنأتينَّك بسِحرٍ مِثلِ سِحرِك، فاجعَلْ بيننا وبينك مَوعِدًا مُحدَّدًا لا نُخلِفُه نحن ولا أنت، في مكانٍ وَسَطٍ بيننا. قال موسى لفِرعَونَ: مَوعِدُكم للاجتِماعِ يومُ الزينةِ، حين يتزيَّنُ النَّاسُ ويَجتَمِعونَ في المكان المعتاد لذلك، وأن يساقَ الناسُ للحضورِ في وَقتَ الضُّحَى.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى ما كان مِن فرعونَ بعدَ تحديدِ الموعدِ، فيقولُ: فتولَّى فِرعَونُ، فجمَعَ سَحَرتَه، ثمَّ جاء بعد ذلك لموعدِ الاجتِماعِ بموسى.

ويخبرُ الله تعالى عمَّا دارَ بينَ موسَى عليه السلامُ والسحرةِ، فيقول تعالى: قال موسى للسَّحَرةِ يَعِظُهم: ويلَكم! لا تختَلِقوا على اللهِ الكَذِبَ فيُهلِكَكم ويَستأصِلَكم بعَذابٍ مِن عِندِه، وقد خَسِرَ مَن اختلقَ على اللهِ كَذِبًا.

فاختلَف السَّحرةُ، وتحادَثوا سِرًّا فيما بينهم، قالوا: ما موسى وهارونُ إلَّا ساحرانِ، يُريدانِ أن يُخرِجاكم من أرضِ مِصرَ بسِحرِهما، ويَذهَبا بدينِكم وشريعتِكم، فأحكِموا سِحرَكم، واعزِموا على كيدِ موسى مِن غَيرِ اختِلافٍ بينكم، ثمَّ ائتُوا صفًّا واحِدًا، وقد ظَفِرَ بمَطلوبِه اليومَ مَن علا على صاحِبِه، فغَلَبه وقَهَرَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ٥٦﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾.

أي: ولقد أرَيْنا فِرعَونَ جميعَ مُعجِزاتِنا الدالَّةِ على نبوَّةِ موسى، وصِحَّةِ ما

يدعو إليه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٤٦-٥٠].

﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾.

أي: فكذَّب فِرعَونُ بآياتِ اللهِ، ولم يَقبَلْ ما جاء به موسى وهارونُ مِن توحيدِ اللهِ وطاعتِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ * كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١، ٤٢].

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧﴾.

أي: قال فِرعَونُ: هل جِئتَنا لِتُخرِجَنا مِن دُورِنا ومَنازِلِنا في مِصرَ، وتستوليَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩).

قال الشنقيطي: (المرادُ بـ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ المعهودةِ لموسى كلِّها هي التِّسعُ المذكورةُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ الآية [الإسراء: ١٠١]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ الآية [النمل: ١٢]. ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦).

عليها بسِحرِك يا موسى(١)؟

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ * قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ * قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٦ - ٧٨].

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾.

أي: لكنَّ مرادَكَ هذا لن يتحقَّقَ يا موسى؛ فلَنُعارِضَنَّك بسِحرٍ مِثلِ سِحرِك، بواسِطةِ سَحَرتِنا الذين نُحضِرُهم إلينا(٢).

﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾.

أي: فحدِّدْ بيننا وبينك وَقتًا معيَّنًا ومَكانًا محدَّدًا نجتَمِعُ فيه، فننظُرُ أيُّنا يغلِبُ الآخَرَ، ولا نَقعُدُ نحن ولا أنت عن إتيانِ ذلك الموعِدِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١١، ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣١).

قال الجمل: (وقوله: ﴿مَوْعِدًا﴾ يجوزُ أن يكونَ زمانًا، ويرجِّحُه قَولُه: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾. والمعنى: عيِّنْ لنا وقتَ اجتماعٍ؛ ولذلك أجابهم بقَولِه: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾، ويجوزُ أن يكونَ مكانًا، والمعنى: بيِّنْ لنا مكانًا معلومًا نَعرِفُه نحن وأنت، فنأتيه، وهذا يؤيِّدُه قولُه: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾، ويجوزُ أن يكونَ مَصدرًا، ويؤيِّدُ هذا قَولُه: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾؛ لأنَّ المواعَدةَ =

﴿ مَكَانًا سُوًى ﴾.

أي: في مكانٍ وَسَطٍ[(١)].

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾.

أي: قال موسى: مَوعِدُكم هو اليَومُ المخصَّصُ لاجتِماعِ النَّاسِ فيه، وتَزَيُّنِهم وتفَرُّغِهم مِن أعمالِهم، في المكانِ المعتادِ لذلك[(٢)].

﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾.

= تُوصَفُ بالخُلْفِ وعَدَمِه). ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٣/ ١٠٣، ١٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠١-٣٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٨).

قيل: المعنى: في مكانٍ وسَطٍ بينَنا وبينَك. وممن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والزجَّاج، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٨٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠١-٣٠٢).

وقيل: المرادُ: في مكانٍ وسَطَ البلدِ؛ ليتمكَّنَ جميعُ النَّاسِ من الحضور. وممن قال بذلك: الشنقيطي. قال الشنقيطي: (أصح الأقوالِ في قولِه: ﴿سُوًى ﴾ على قراءةِ الكسرِ والضمِّ: أنَّه مكانٌ وسَطٌ تستوي أطرافُ البلدِ فيه؛ لتوسُّطِها بينها، فلم يكنْ أقرَبَ للشَّرقِ مِن الغَربِ، ولا للجنوبِ مِن الشَّمالِ، وهذا هو معنى قولِ المفسِّرينَ: ﴿مَكَانًا سُوًى ﴾ أي: نصَفًا وعَدلًا؛ ليتمَكَّنَ جميعُ النَّاسِ أن يحضُروا). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

قال البقاعي: (أي: عيدُكم الذي اعتَدْتُم الاجتِماعَ فيه في المكانِ الذي اعتَدتُموه، فآثَرَ هنا ذِكرَ الزَّمانِ وإن كان يتضمَّنُ المكانَ؛ لِما فيه من عادةِ الجَمعِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٠٢).

وقال الشنقيطي: (أقوالُ أهلِ العلم في يومِ الزينةِ راجعةٌ إلى أنَّه يومٌ معروف لهم، يجتَمِعونَ فيه ويتزَيَّنونَ. سواءٌ قلنا: إنَّه يومُ عيدٍ لهم، أو يومُ عاشوراءَ، أو يومُ النيروز، أو يومٌ كانوا يتَّخِذونَ فيه سوقًا ويتزَيَّنون فيه بأنواعِ الزينةِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٩).

أي: وأن يُساقَ جَميعُ النَّاسِ مِن كلِّ ناحيةٍ لِحُضورِ اجتِماعِنا في وقتِ الضُّحَى[(١)].

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾.

أي: فتولَّى فِرعَونُ[(٢)]، وشرَعَ يجمَعُ السَّحرةَ مِن المدائِنِ، ثمَّ جاء لموعِدِ يومِ الزِّينةِ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ * فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الشعراء: ٣٦ - ٤٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

قال ابنُ عاشور: (فقوله: ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ تعيينٌ للوَقتِ، وقوله: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ تعيينٌ للمكانِ، وقوله: ﴿ ضُحًى ﴾ تقييدٌ لمطلَقِ الوَقتِ. والضُّحى: وقتُ ابتداء حرارة الشَّمسِ بعد طلوعِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٦).

(٢) قيل: المعنى: انصرف ليجمَعَ السَّحرةَ ويهيِّئَ ما يريدُ من الكيد. وممَّن قال بذلك: ابن كثير، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٧).

وقيل: المعنى: فأدبر فِرعَونُ مُعرِضًا عمَّا أتاه به من الحَقِّ. وممن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٣).

وجَمَع البقاعي بين المعنيينِ فقال: (﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ ﴾ عن موسى إلى تهيئةِ ما يريدُ مِن الكيدِ، بعد تولِّيه عن الانقيادِ لأمرِ اللهِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٧، ٢٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٢).

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾.

أي: قال موسى للسَّحَرةِ[١]: ويلَكم! لا تختَلِقوا كَذبًا على اللهِ[٢]؛ فيَستأصِلَكم بهلاكٍ وعذابٍ مِن عِندِه[٣].

﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾.

أي: وقد فات ما رجاه وطَلَبه وأمَّلَه مِن وراءِ كَذِبه على اللهِ: مَن فَعَل ذلك[٤].

---

(١) ممن نصَّ على أنَّ الخطابَ كان للسحرةِ: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والبغوي، وابنُ عطيةَ، وابنُ الجوزي، والرسعني، والنسفي، والخازنُ، والعُليمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢١١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦٣)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٠).

وقيل: الخطابُ لفرعونَ ومَن معَه مِن السحرةِ. وممن اختاره القرطبي، والمظهري. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١٤)، ((التفسير المظهري)) (٦/ ١٤٨).

قال البقاعي: ﴿ قَالَ لَهُم ﴾ أي: لأهلِ الكيدِ، وهم السحرةُ وغيرُهم. ((نظم الدرر)) (١/ ١٧).

(٢) قيل: المراد: أي: لا تخيِّلوا للنَّاسِ بأعمالِكم إيجادَ أشياءَ لا حقائِقَ لها، وأنَّها مخلوقةٌ وليست مخلوقةً؛ فتكونوا قد كذبتُم على الله. وممن قال بذلك: ابن كثير، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٣١).

وقيل: المعنى: لا تَدْعُوا آياتِه ومعجزاتِه سِحرًا. وممن اختار هذا المعنى: الزمخشري، والبيضاوي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٠).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾

أي: فلمَّا سَمِعَ السَّحَرةُ كلامَ موسى اختَلَفوا[(١)]، وتجاذَبوا الحديثَ سِرًّا فيما بينَهم، وبالَغوا في إخفائِه مِن فِرعَونَ[(٢)].

---

(١) وممن اختار أنَّ التنازُعَ وقَع بينَ السحرةِ: ابنُ جريرٍ، والزجَّاجُ، والواحديُّ، والسمرقنديُّ، وابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٠).

قال الرازي: (قال بعضُهم: دخَل في التنازعِ فرعونُ وقومُه، ومنهم مَن يقولُ: بل هم السحرةُ وحدَهم، والكلامُ محتملٌ، وليس في الظاهرِ ما يدلُّ على الترجيحِ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٩٥، ٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠٤).

وقال ابن كثير: (﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ قيل: معناه: أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقائلٌ يقولُ: ليس هذا بكلامِ ساحرٍ، إنما هذا كلام نبيٍّ. وقائلٌ يقول: بل هو ساحرٌ. وقيل غير ذلك، والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠١).

قال القرطبي: (﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ قال قتادةُ: قالوا: إن كان ما جاء به سحرًا فسنغلبُه، وإن كان مِن عندِ الله فسيكون له أمرٌ، وهذا الذي أسرُّوه. وقيل: الذي أسرُّوا قولُهم: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣] الآيات، قاله السديُّ ومقاتلٌ. وقيل: الذي أسرُّوا قولُهم: إن غلَبنا اتَّبعْناه، قاله الكلبيُّ، دليلُه ما ظهر مِن عاقبةِ أمرِهم. وقيل: كان سرُّهم أن قالوا حين قال لهم موسَى: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [طه: ٦١]: ما هذا بقولِ ساحرٍ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١٥).

﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما أسَرُّوه مِن النَّجوَى؛ حكَى عنهم ما أظهَروه، ومجموعُه يدُلُّ على التَّنفيرِ عن موسى -عليه السَّلامُ- ومتابعةِ دينِه[1].

﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾.

أي: قال السَّحرةُ: ما موسى وهارونُ إلَّا ساحرانِ[2].

﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا ﴾.

أي: يريدُ موسى وهارونُ أن يُخرِجاكم مِن وطَنِكم؛ أرضِ مِصرَ، بالاستيلاءِ عليها بسِحرِهما الذي أظهراه[3].

﴿ وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴾.

ويَذْهبا بدينِكم وشريعتِكم ومذهبِكم الذي هو أفضلُ المذاهبِ، بإظهارِ مذهبِهما، وإعلاءِ دينِهما[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((الجُمَل في النحو)) للخليل بن أحمد (ص: ١٥٩، ١٦٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤١).

قال ابنُ كثير: (يُريدانِ في هذا اليومِ أنْ يَغْلِباكم وقومَكم ويَسْتوليا على النَّاسِ، وتتبَعَهما العامَّةُ، ويُقاتِلا فرعونَ وجنودَه، فينتَصِرا عليه ويُخْرِجاكم مِن أرضِكم). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٣٦).

قال ابنُ الجوزي: (وفي الطريقةِ قولانِ: =

= أحدُهما: بدينِكم المُستقيمِ. رواه الضَّحَّاكُ عن ابنِ عبَّاسٍ. وقال أبو عُبيدةَ: بسُنَّتِكم ودينِكم وما أنتم عليه، يقالُ: فلانٌ حَسَنُ الطَّريقةِ.

والثاني: بأمثَلِكم. رواه ابنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ. وقال مجاهِدٌ: بأُولي العَقلِ، والأشرافِ، والأسنانِ. وقال الشعبيُّ: يَصرِفانِ وُجوهَ النَّاسِ إليهما. قال الفرَّاءُ: الطريقةُ: الرِّجالُ الأشرافُ، تقولُ العرَبُ للقَومِ الأشرافِ: هؤلاء طريقةُ قَومِهم، وطرائِقُ قَومِهم... وقال الزجَّاجُ: ومعنى المُثلى والأمثَلُ: ذو الفَضلِ الذي به يَستحِقُّ أن يُقالَ: هذا أمثَلُ قَومِه، قال: والذي عندي أنَّ في الكلامِ مَحذوفًا، والمعنى: يذهبَا بأهلِ طَريقتِكم المُثلى، وقَولُ العَرَبِ: هذا طريقةُ قَومِه، أي: صاحِبُ طَريقتِهم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦٥).

وممن اختار في الجملةِ أنَّ الطريقةَ تعني الدينَ والشريعةَ والمذهبَ والسنةَ والعادةَ: الكسائي -كما في ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٥٢)-، وأبو عبيدة، والسمعاني، والزمخشري، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والعُليمي، والألوسي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٥).

وممن اختار أنَّ الطريقةَ تعني الرجالَ الأشرافَ: الفرَّاءُ، وابنُ قتيبةَ، وابنُ جريرٍ، والسمرقندي، ومكي، والواحدي، والمحلي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٨٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٠٤)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٦٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤١١).

قال الواحدي: (والمعنى: أنْ يَغلِبا بسِحرِهما، فتَمْثُلَ إليهما السَّادةُ والأشرافُ منكم. وقال قتادة: «طريقتُكم المثلى يومَئذٍ بنو إسرائيل كانوا أكثَرَ القَومِ عددًا وأموالًا، فقالوا: إنَّما يريد أن يذهَبَا بهما لأنفُسِهم». فجعل قتادةُ هؤلاء الأفاضِلَ من بني إسرائيلَ. وهذا قولُ ابن عباس في رواية الوالبي: «هم بنو إسرائيل». هذا الذي ذكَرْنا قولُ المفَسِّرين، وأهلِ التأويلِ، وعلى هذا مقاتِلٌ والكلبيُّ). ((البسيط)) (١٤/ ٤٥٢).

وقال الزجَّاجُ: (والذي عندي -والله أعلم- أنَّ في الكلام محذوفًا يدُلُّ عليه ما بَقِي. إنَّما المعنى: يذهبا بأهلِ طَريقتِكم المُثْلى). ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٦٤). =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا۟﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿فَاجْمَعُوا﴾ مِن الجَمعِ. أي: فاجمَعوا سِحرَكم، فلا تَدَعوا مِن كَيدِكم شيئًا إلَّا جِئتُم به[١].

٢- قراءةُ ﴿فَأَجْمِعُوا۟﴾ من العَزمِ والإحكامِ. أي: فأحكِموا سِحرَكم واعزِمُوا كلُّكم على كَيدِ عَدُوِّكم[٢].

﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾.

أي: قال السَّحرةُ بعضُهم لبعضٍ[٣]: فاجتَهِدوا في إحكامِ سحرِكم، واعزِموا

= وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ طريقةُ السِّحرِ: ابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

وقال البقاعي: (﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ هذه السِّحريةِ التي تَعِبتُم في تمهيدِها، وأفنى فيها أسلافُكم أعمارَهم، حتى بلغ أمرُها الغايةَ؛ وبدينِكم الذي به قِوامُكم). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٠٥).

وقيل: المرادُ بالطريقةِ: السيرة والمملكةُ والحالُ التي عليها. وممن اختاره ابنُ عطيةَ، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥١).

(١) قرأ بها أبو عمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٤٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٥١-١٥٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٥٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٤٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٥١-١٥٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٥٦).

(٣) قال أبو حيان: (قيل: هو مِن كلامِ فرعونَ، والظاهرُ أنَّه مِن كلامِ السحرةِ بعضِهم لبعضٍ). =

كُلُّكم على كيدِ موسى، ثمَّ احضُروا مُجتَمِعينَ في صَفٍّ[1].

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾.

أي: وقد فاز اليومَ بمَطلوبِه مَن غلَبَ خَصْمَه، وقَهَره[2].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ هذا كلامُ فِرعَونَ الذي زَوَّقه وصَنَّعه ونَمَّقه، فأوقف به قَومَه عن السَّعادةِ، واستمَرَّ يقودُهم بأمثالِه، حتى أورَدَهم البَحرَ فأغرَقَهم، ثمَّ في غمراتِ النَّارِ أحرَقَهم؛ فعلى الكَيِّسِ الفَطِنِ أن ينقُدَ الأقوالَ والأفعالَ، والخواطِرَ والأحوالَ، ويَعرِضَها على محَكِّ الشَّرعِ: الكتابِ والسُّنَّةِ، فما وافَقَ لَزِمَه، وما لا تركَه[3].

= ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥١). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٠٤ - ١٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٧).

قال السعدي: (﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ ليكون أمكن لعملِكم، وأهيبَ لكم في القلوبِ، ولئلا يتركَ بعضُكم بعضَ مقدوره من العملِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦).

قيل: الصَّفُّ هنا مرادٌ به الجِنسُ لا الواحِدةُ، أي: ثمَّ ائتوا صفوفًا. وممن قال بذلك: ابن جرير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٧).

وقيل: المعنى: اجتَمِعوا كلُّكم صفًّا واحدًا، وألقُوا ما في أيديكم دفعةً واحدةً. وممن ذهب إلى ذلك: ابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٧).

قال ابن كثير: (﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ أي: مِنَّا ومنه، أما نحن فقد وعَدَنا هذا المَلِكُ العطاءَ الجزيلَ، وأما هو فينالُ الرِّياسةَ العظيمةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠٢).

٢- موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ جُمِع له السَّحَرةُ المَهَرةُ الذين وَضَعوا العِصِيَّ والحِبالَ، فكانت هذه العِصِيُّ والحِبالُ يُخَيَّلُ إلى النَّاسِ أنَّها حيَّاتٌ تسعى، حتى موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع إيمانِه وقُوَّتِه أوجس في نفسِه خِيفةً! لكِنَّه قال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ هذه الكَلِمةُ أثَّرت تأثيرًا عظيمًا ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، وإذا حصل النِّزاعُ حَصَل الفَشَلُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]. تنازعوا أمرَهم بينهم، وأخيرًا آمَنَ السَّحرةُ! فكَلِمةُ الحَقِّ تؤثِّرُ إذا صدرت من إنسانٍ مُخلِصٍ، لا يريدُ أن يَفرِضَ قَولَه على غيره، إنَّما يريدُ أن يهديَ غَيرَه للحَقِّ الذي هو مرادُ الجميع؛ فإنَّه سيُؤَثِّرُ بإذنِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ ولهذا لا تَحقِرَنَّ كَلِمةَ الحَقِّ، ولا تَقُلْ: إنَّها لا تنفَعُ؛ فما من قلبٍ مِن قلوبِ بني آدَمَ إلَّا وهو بين إصبَعينِ مِن أصابعِ الرَّحمنِ يُقَلِّبُه كيف يشاءُ[١].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى حِكايةً عن فِرعَونَ: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾ زعم أنَّ هذه الآياتِ التي أراه إيَّاها موسى سِحرٌ وتمويهٌ، المقصودُ منها إخراجُهم مِن أرضِهم، والاستيلاءُ عليها؛ ليكونَ كلامُه مُؤَثِّرًا في قلوبِ قَومِه؛ فإنَّ الطِّباعَ تَميلُ إلى أوطانِها، ويَصعُبُ عليها الخروجُ منها ومُفارقتُها، فأخبَرَهم أنَّ موسى هذا قَصدُه؛ لِيُبغِضوه ويَسْعَوا في محاربتِه[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ إنما واعَدَهم ذلك اليومَ لِيَكونَ عُلُوُّ كلمةِ الله، وظُهورُ دينِه، وكَبتُ الكافِرِ، وزهوقُ الباطِلِ:

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٧/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

على رؤوسِ الأشهادِ، وفي المَجمَعِ الغاصِّ[١]؛ لِتَقوى رغبةُ مَن رَغِبَ في الحَقِّ، ويَكِلَّ حَدُّ المُبطِلينَ وأشياعِهم، ويَكثُرَ المحَدِّثُ بذلك الأمرِ العَلَمِ في كلِّ بَدْوٍ وحَضَرٍ، ويَشيعَ في جَمعِ أهلِ الوَبَرِ والمَدَرِ[٢]؛ لأنَّ يوم الزينةِ ووقتَ الضحى يحصلُ فيه مِن كثرةِ الاجتماعِ، ورؤيةِ الأشياءِ على حقائقِها، ما لا يحصلُ في غيره، فيكون أظهرَ وأجلَى، وأبينَ وأوضحَ[٣].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ﴾ الخِطابُ بقَولِه: ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾ يجوزُ أن يكونَ أراد به حقيقةَ الدُّعاءِ، فيكونَ غيرَ جارٍ على ما أُمِرَ به من إلانةِ القَولِ لفِرعَونَ؛ إمَّا لأنَّ الخِطابَ بذلك لم يكُنْ مُواجِهًا به فِرعَونَ، بل واجَهَ به السَّحَرةَ خاصَّةً، الذين اقتضاهم قَولُه تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ﴾، أي: قال موسى لأهلِ كيدِ فِرعَونَ. وإمَّا لأنه لَمَّا رأى أنَّ إلانةَ القَولِ له غيرُ نافعةٍ؛ إذ لم يَزَل على تَصميمِه على الكُفرِ: أغلظَ القَولُ زَجرًا له بأمرٍ خاصٍّ مِن اللهِ في تلك السَّاعةِ؛ تقييدًا لمُطلَقِ الأمرِ بإلانةِ القَولِ. وإما لأنَّه لما رأى تمويهَهم على الحاضرينَ أنَّ سحرَهم معجزةٌ لهم مِن آلهتِهم ومِن فِرعَونَ ربِّهم الأعلَى وقالوا: ﴿بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] رأى واجبًا عليه تغييرَ المنكرِ بلسانِه بأقصَى ما يستطيعُ؛ لأنَّ ذلك التغييرَ هو المناسبُ لمقامِ الرسالةِ.

ويجوزُ أن تكونَ كلمةُ ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾ مُستعمَلةٌ في التعجُّبِ من حالٍ غَريبةٍ، أي: أعجَبُ منكم وأحَذِّرُكم؛ فحُكِي تَعجُّبُ موسى باللَّفظِ العَربيِّ الدَّالِّ على العَجَبِ الشَّديدِ[٤].

---

(١) الغاصُّ: المُمتَلِئ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٨-٢٤٩).

٤- ضَمِنَ سُبحانَه أنَّه لا بُدَّ أن يخيبَ أهلُ الافتراءِ وأنَّه لا يهديهم، وأنَّه يستأصِلُهم بعذابِه؛ قال تعالى إخبارًا عن كليمِه موسى أنَّه قال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾[1]، ففيه دَلالةٌ على عِظَمِ الافتراءِ، وأنَّه يترتَّبُ عليه هَلاكُ الاستئصالِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ هذه الجُملةُ بينَ الجُمَلِ الَّتي حكَتْ مُحاورةَ مُوسى وفِرعَونَ، وقعَتْ هذه كالمُقدِّمةِ لإعادةِ سَوقِ ما جَرى بين مُوسى وفِرعونَ من المُحاورةِ؛ فيجوزُ أنْ تكونَ مَعطوفةً على جُملةِ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]؛ باعتبارِ ما يُقدَّرُ قبْلَ المعطوفِ عليها مِن كلامٍ حُذِفَ اختصارًا، تقديرُه: فأتَياهُ، فقالا ما أمَرْناهما أنْ يقولاهُ، قال: فمَن ربُّكما... إلخ. ويجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُعترِضةً بينَ ما قبْلَها، والواوُ اعتراضيَّةٌ[3].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ فيه التَصديرُ بالقسَمِ؛ لإبرازِ كَمالِ العنايةِ بمَضمونِها. وإسنادُ الإراءةِ إلى نُونِ العظمةِ؛ لتَهويلِ أمْرِ الآياتِ، وتَفخيمِ شأْنِها، وإظهارِ كَمالِ شَناعةِ اللَّعينِ وتَماديهِ في المُكابَرةِ والعنادِ[4]. وفيه تأكيدُ الكلامِ بلامِ القسَمِ، و(قد) مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن تصلُّبِ فِرعونَ في عنادٍ. وتأكيدُ الآياتِ بأداةِ التَّوكيدِ ﴿كُلَّهَا﴾؛ لِزيادةِ التَّعجيبِ مِن عِنادِه[5].

- وقولُه: ﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ ليس عامًّا؛ إذ لم يُرِهِ تعالى جميعَ الآياتِ،

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤١-٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٢).

وإنَّما المعنى: آياتِنا الَّتي رآها؛ فكانتِ الإضافةُ تُفِيدُ ما تُفِيدُه الألِفُ واللَّامُ من العهْدِ. وإنَّما رأى العصَا واليدَ، وغيرَ ذلك ممَّا رآهُ، فجاء التَّوكيدُ بالنِّسبةِ لهذه الآياتِ المعهودةِ[١]. وقيل: المعنى: آياتٍ بكَمالِها. وأضافَ الآياتِ إليه على حسَبِ التَّشريفِ، كأنَّه قال: آياتٍ لنا[٢]، وقيل غير ذلك[٣].

- وأُجْمِلَتِ الآياتُ وعُمِّمَت فلم تُفصَّلْ؛ لأنَّ المقصودَ هنا بَيانُ شِدَّةِ تصلُّبِه في كُفْرِه، بخلافِ آيةِ سُورةِ (الأعرافِ) الَّتي قُصِدَ منها بَيانُ تعاقُبِ الآياتِ ونُصْرَتِها[٤].

- قولُه: ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾، أي: فكذَّبها جميعًا، وأَبى أنْ يقبَلَ شيئًا منها. وقيل: فكذَّبَ الآياتِ، وأَبى قَبولَ الحقِّ؛ فحُذِفَ مفعولُه إمَّا بواسطةِ القرينةِ الظَّاهرةِ أو المعنويَّةِ؛ فعلى المعنى الأوَّلِ: (أبى): تَتميمٌ، وعلى الثَّاني: تَكميلٌ؛ لأنَّ الحقَّ أعمُّ من المُعجِزاتِ[٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لكَيفيَّةِ تكذيبِه وإبائِه، والهمزةُ في ﴿أَجِئۡتَنَا﴾ لإنكارِ الواقعِ واستقباحِه، وادِّعاءِ أنَّه أمْرٌ مُحالٌ[٦]؛ ولذلك فُرِّعَ عليه القسَمُ على أنْ يأْتِيَه بسِحْرٍ مثْلِه، والقسَمُ من أساليبِ إظهارِ الغضَبِ[٧].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ١٨٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٥).

- قولُه: ﴿بِسِحْرِكَ﴾ تَعلُّلٌ وتَحيُّرٌ؛ وإلَّا فكيف يَخْفَى عليه أنَّ ساحرًا لا يقدِرُ أنْ يُخرِجَ مَلِكًا مثْلَه من أرْضِه، ويَغْلِبَه على مُلْكِه بالسِّحرِ[١]؟ وإضافَتُه السِّحرَ إلى ضَميرِ مُوسى قصَدَ منها تَحقيرَ شأْنِ هذا الَّذي سمَّاهُ سِحْرًا[٢].

- وإنَّما جعَلَ فِرعونُ العِلَّةَ في مَجِيءِ مُوسى إليه أنَّها قصْدُه أنْ يُخرِجَهم من أرْضِهم، قياسًا منه على الَّذين يَقومون بدَعوةٍ ضِدَّ المُلوكِ؛ أنَّهم إنَّما يَبْغُون بذلك إزالَتَهم عن المُلْكِ، وحُلولَهم مَحلَّهم؛ فضَميرُ المُتكلِّمِ المُشارِكِ مُستعمَلٌ في التَّعظيمِ، لا في المُشارَكةِ؛ لأنَّ مُوسى لم يَصدُرْ عنه ما يُشَمُّ منه إخراجُهم من أرْضِهم. ويجوزُ أنْ يكونَ ضَميرُ المُتكلِّمِ المُشارِكِ مُستعمَلًا في الجماعةِ تَغليبًا، ونزَّلَ فِرعونُ نفْسَه واحدًا منها[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾

- قولُه: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ الفاءُ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها، واللَّامُ جوابُ قسَمٍ مَحذوفٍ[٤]، وأسنَدَ الإتيانَ ﴿بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ إلى ضَميرِ نفْسِه؛ تَعظيمًا لشأْنِه[٥].

- قولُه: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ تَقديمُ ضَميرِه على ضَميرِ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتوسيطُ كَلمةِ النَّفيِ بينهما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٤).

في قولِه: ﴿نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾؛ للإيذانِ بمُسارَعتِه إلى عدَمِ الإخلافِ، وأنَّ عدَمَ إخلافِه لا يُوجِبُ إخلافَه عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ؛ ولذلك أُكِّدَ النَّفيُ بتَكريرِ حرْفِه(١).

- قولُه: ﴿مَوْعِدًا﴾ الموعِدُ هنا يجوزُ أنْ يُرادَ به المصدرُ المِيميُّ، أي: الوعدُ، وأنْ يُرادَ به مكانُ الوعْدِ، وهذا إيجازٌ في الكلامِ(٢).

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾

- إن قيل: كيف طابَقَ جوابُ موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾، -ولا بُدَّ مِن أنْ تجعلَه زمانًا- قولَ فرعونَ: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾؛ والسُّؤالُ واقِعٌ عن المكانِ لا عن الزَّمانِ، **فالجوابُ**: لأنَّه مُطابِقٌ معنًى وإنْ لم يُطابِقْ لفْظًا؛ لأنَّهم لا بُدَّ لهم مِن أنْ يَجتمِعوا يومَ الزِّينةِ في مكانٍ بعَينِه، مُشتهَرٌ باجتماعِهم فيه في ذلك اليومِ، فبذِكْرِ الزَّمانِ عُلِمَ المكانُ؛ فتَعيينُ الموعِدِ غيرِ المُخْلَفِ يَقْتضي تَعيينَ زمانِه لا مَحالةَ؛ إذ لا يُتصوَّرُ الإخلافُ إلَّا إذا كان للوعدِ وقْتٌ مُعيَّنٌ، ومكانٌ مُعيَّنٌ، فمِن ثَمَّ طابَقَه جوابُ مُوسى بقولِه: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾؛ فقولُه: ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ تَعيينٌ للوقْتِ، وقولُه: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ تَعيينٌ للمكانِ، وقولُه: ﴿ضُحًى﴾ تَقييدٌ لمُطلَقِ الوقْتِ(٣).

- قولُه: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ بناه للمَفعولِ؛ لأنَّ القَصدَ الجَمعُ، لا كونُه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٦).

مُعَيَّنٍ(١).

٥- قولُه تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ في تَفريعِ التَّولِّي وجمْعِ الكيدِ على تَعيينِ مُوسى للموعِدِ: إشارةٌ إلى أنَّ فِرعونَ بادَرَ بالاستعدادِ لهذا الموعِدِ، ولم يُضِعِ الوقْتَ للتَّهيئةِ له(٢).

- قولُه: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ (ثُمَّ) للمُهلةِ الحقيقيَّةِ والرُّتبيَّةِ معًا؛ لأنَّ حُضورَه للموعِدِ كان بعْدَ مُضيِّ مُهْلةِ الاستعدادِ، ولأنَّ ذلك الحُضورَ بعْدَ جمْعِ كيدِه أهَمُّ من جمْعِ الكيدِ؛ لأنَّ فيه ظُهورَ أثرِ ما أعَدَّه(٣).

٦- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على السُّؤالِ، يَقْضي بأنَّ المُترقَّبَ من أحوالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينئذٍ، والمُحتاجَ إلى السُّؤالِ والبَيانِ، ليس إلَّا ما صدَرَ عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من الكلامِ، وأمَّا إتيانُه أوَّلًا فأمرٌ مُحقَّقٌ غَنِيٌّ عن التَّصريحِ بهِ، كأنَّهُ قِيلَ: فماذا صنَعَ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عندَ إتيانِ فِرعونَ بما جمَعَهُ من السَّحرةِ؟ فقيل: قال لهم بطَريقِ النَّصيحةِ: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾(٤).

- قولُه: ﴿لَا تَفْتَرُواْ﴾ الافتراءُ: اختِلاقُ الكذِبِ، والجمْعُ بينَه وبينَ ﴿كَذِبًا﴾؛ للتَّأكيدِ(٥).

- جُملةُ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَها، وهي

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٤٩).

مَسوقةٌ مَساقَ التَّعليلِ للنَّهيِ؛ بعْدَ أنْ وعَظَهم، فنهاهُمْ عن الكذِبِ على اللهِ، وأنذَرَهم عذابَه؛ ضرَبَ لهم مثَلًا بالأُمَمِ البائدةِ الَّذين افْترَوا الكذِبَ على اللهِ، فلم يَنْجَحوا فيما افترَوا لأجْلِه. و(مَن) الموصولةُ للعُمومِ[(١)].

٧- قولُه تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ جعْلُ النَّجْوى مَعمولًا لـ ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ يُفِيدُ المُبالَغةَ في الكِتْمانِ؛ كأنَّه قيل: أَسَرُّوا سِرَّهم. وزادَهُ مُبالَغةً قولُه: ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ المُقْتضي أنَّ النَّجْوى بين طائفةٍ خاصَّةٍ لا يَشترِكُ معهم فيها غيرُهم[(٢)].

٨- قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾

- نَسَبوا السِّحرَ أيضًا لهارونَ؛ لَمَّا كان مُشترِكًا معه في الرِّسالةِ، وسالِكًا طَريقتَه، وعلَّقُوا الحُكْمَ على الإرادةِ -وهم لا اطِّلاعَ لهم عليها-؛ تَنقيصًا لهما، وحَطًّا من قدْرِهما، وقد كان ظَهَرَ لهم من أمْرِ اليَدِ والعصا ما يدُلُّ على صِدْقِهما[(٣)].

٩- قولُه تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾

- قولُه: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ تَصريحٌ بالمطلوبِ إثْرَ تَمهيدِ المُقدِّماتِ[(٤)].

- وأُطْلِقَ الجمْعُ على التَّعاضُدِ والتَّعاوُنِ -على قِراءةِ ﴿فَاجْمَعُوا﴾ بهمزةِ وصلٍ وفتحِ الميمِ-؛ تَشبيهًا للشَّيءِ المُختلِفِ بالمُتفرِّقِ، وهو مُقابِلُ قولِه: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾. وسَمُّوا عمَلَهم كيدًا؛ لأنَّهم تَواطؤوا على أنْ يُظْهِروا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦).

للعامَّةِ أنَّ ما جاء به مُوسى ليس بعَجيبٍ، فهم يأْتون بمثْلِه أو أشَدَّ منه؛ ليَصْرِفوا النَّاسَ عن سَماعِ دَعوتِه، فيَكيدوا له بإبطالِ خصِّيصيَّةِ ما أتى به[١].

- قولُه: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ من قِبَلِهم مُؤكِّدٌ لِمَا قبْلَه من الأمرينِ؛ فهو تَذييلٌ للكلامِ يجمَعُ ما قَصَدوه مِن تآمُرِهم، بأنَّ الفلاحَ يكونُ لمَن غلَبَ وظهَرَ في ذلك الجمْعِ. فـ﴿ٱسْتَعْلَىٰ﴾ مُبالَغةٌ في عَلا، أي: علا صاحِبَه وقهَرَه، فالسِّينُ والتَّاءُ للتَّأكيدِ مثْلُ استأْخَرَ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٧).

الآيات (٦٥-٧٦)

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ
وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ
حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ
لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي
جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ
وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا
خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ
لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ
﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿يُخَيَّلُ﴾: أي: يُشَبَّهُ ويُظَنُّ، وأصلُ (خيل): يدُلُّ على حركةٍ في تلوُّنٍ[1].

﴿فَأَوۡجَسَ﴾: أي: أضمرَ وأحَسَّ، والوَجْسُ: الصَّوتُ الخفيُّ، وأصلُه يدُلُّ على إحساسٍ بِشَيءٍ، وتَسَمُّعٍ له[2].

﴿خِيفَةٗ﴾: أي: خَوفًا، والخَوفُ: توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مَظنونةٍ أو معلومةٍ، وأصلُه يدُلُّ على الذُّعرِ والفَزَعِ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٠)، ((غريب =

﴿تَلْقَفُ﴾: أي: تَلْتَهِمْ وتبتلِعْ، يقال: لَقِفتُ الشَّيءَ ألقَفُه، وتَلقَّفتُه: أي: تَناوَلتُه بسُرعةٍ[(١)].

﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾: أي: مخالفًا في قَطعِ ذلك منكم؛ يَدِه اليُمنى ورِجلِه اليُسرى، يخالِفُ بينَ قَطعِهما[(٢)].

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾: أي: لأجعَلَنَّكم مُثلةً، ولأقتُلَنَّكم، والصَّلبُ: تعليقُ الإنسانِ للقَتلِ، قيل: هو شدُّ صُلْبِه على خَشَبٍ[(٣)].

﴿نُّؤْثِرَكَ﴾: أي: نختارَك، وأصلُ (أثر): يدُلُّ على تَقديمِ الشَّيءِ[(٤)].

﴿تَزَكَّىٰ﴾: أي: تطهَّرَ مِن الشِّركِ والفواحِشِ، وأصلُ (زكي): يدلُّ على نماءٍ وزيادةٍ[(٥)].

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبرُ اللهُ تعالى عمَّا جرَى بينَ موسَى عليه السلامُ والسحرةِ، وأنَّ السَّحَرةَ قالوا لِموسَى عليه السَّلامُ: إمَّا أن تُلقِيَ عَصاك أوَّلًا، وإمَّا أن نبدأَ فنُلقِيَ حِبالَنا وعِصِيَّنا قَبلَك. قال لهم موسى: بل ألقُوا أنتم. فألقَوا حبالَهم وعِصِيَّهم، فخُيِّلَ لموسى مِن قُوَّةِ سِحرِهم أنَّها حَيَّاتٌ تتحرَّكُ! فشعَرَ موسى في نفسِه بالخَوفِ، فقال الله لموسى: لا تَخَفْ؛ فإنَّك أنت الأعلى المنتَصِرُ على هؤلاء السَّحَرةِ، وعلى فِرعَونَ وجُندِه، وألقِ عَصاك التي في يمينِك تَبتَلِعْ حِبالَهم وعِصِيَّهم؛ فإنَّ الذي عَمِلوه مَكرُ ساحِرٍ وتخييلُ سِحْرٍ، ولا يظفَرُ السَّاحِرُ بمَطلوبِه أينما كان.

فألقى موسى عَصاه، فابتلَعَت عِصِيَّ السَّحَرةِ وحِبالَهم، وظهَرَ الحقُّ وقامت الحُجَّةُ عليهم. فألقى السَّحَرةُ أنفُسَهم على الأرضِ ساجدينَ، وقالوا: آمَنَّا برَبِّ هارونَ وموسى.

ثم بيَّن الله تعالى موقفَ فرعونَ مِن السحرةِ، واتهامَه لهم، ثم تهديدَهم، فقال تعالى: قال فِرعَونُ للسَّحَرةِ: أصدَّقتُم بموسى واتَّبَعتُموه، وأقرَرْتُم له بالنُبُوَّةِ قبل أن آذَنَ لكم بذلك؟ إنَّ موسى لَعظيمُكم ورئيسُكم الذي عَلَّمكم السِّحرَ، لأُقطِّعنَّ مِن كُلِّ واحدٍ منكم يدَه اليُمنى مع رِجلِه اليُسرى أو العكس، ولأُصلِّبَنَّكم على جذوعِ النَّخلِ، ولتعلَمُنَّ -أيُّها السَّحَرةُ- مَن هو أشَدُّ عذابًا وأدوَمُ له!

ثمَّ ذكَر الله تعالى موقفَ السحرةِ مِن تهديدِ فرعونَ لهم، فقال تعالى: قال السَّحَرةُ لِفرعَونَ: لن نُفَضِّلَك على ما جاءنا مِن البيِّناتِ الدَّالَّةِ على صِدقِ موسى، ولن نُفَضِّلَك على اللهِ الذي خلَقَنا، فافعَلْ ما أنت فاعِلٌ بنا، إنَّما ينفُذُ أمرُك في هذه الحياةِ الدُّنيا، وعذابُك فيها ما هو إلَّا عذابٌ مُنتَهٍ بانتهائِها، إنَّا آمَنَّا برَبِّنا وصدَّقْنا رَسولَه؛ لِيَغفِرَ لنا ذُنوبَنا مِن الكُفرِ والمعاصي، وما أكرَهْتَنا عليه مِن

عَمَلِ السِّحرِ في مُعارضةِ موسى. واللهُ خيرٌ لنا مِنك -يا فِرعَونُ- وأجرُه خَيرٌ لنا مِن أجرِك، وهو أدوَمُ عذابًا لِمَن عصاه، وخالَف أمْرَه.

إنَّه مَن يأتِ رَبَّه كافرًا به، فإنَّ له نارَ جهنَّمَ يُعَذَّبُ بها، لا يموتُ فيها فيَستريحَ، ولا يحيا حياةً يتلذَّذُ بها، ومَن يأتِ رَبَّه مُؤمِنًا به قد عَمِلَ الأعمالَ الصَّالحةَ، فله المنازِلُ العاليةُ؛ وهي جنَّاتُ إقامةٍ دائمةٍ، تجري مِن تحتِ أشجارِها وغُرَفِها الأنهارُ، ماكثينَ فيها أبدًا، وذلك النَّعيمُ المقيمُ ثَوابٌ مِن الله لِمَن طهَّر نَفسَه مِن الشِّركِ والمعاصي، ونمَّاها بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥﴾.

أي: فأجمَعَ السَّحَرةُ كَيدَهم، وجاؤوا صَفًّا، وقالوا: يا موسى اختَرْ، فإمَّا أن ترميَ عَصاك قَبْلَنا، وإمَّا أن نرميَ حِبالَنا وعِصِيَّنا قَبلَك(١).

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥].

﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦﴾.

﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْ﴾.

أي: قال لهم موسى: بل ألْقُوا أنتم أوَّلًا ما تريدونَ إلقاءَه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٠٧، ١٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٧٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٣).
قال السعدي: (خيَّروه موهمينَ أنَّهم على جَزمٍ مِن ظُهورِهم عليه بأيِّ حالةٍ كانت) ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٢)، ((أضواء البيان)) =

كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ * فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٣، ٤٤].

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.

أي: فألقَى السَّحرةُ ما معهم فإذا حبالُهم وعِصِيُّهم يُشَبَّهُ لموسى بسَبَبِ سِحرِهم أنَّها تتحرَّكُ[1]!

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: فوجَدَ موسى في نفسِه خوفًا[2].

= للشنقيطي (٤/ ٣٣، ٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٠٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٨).

قال الشنقيطي: (اختلف العُلَماءُ في السِّحرِ: هل هو حقيقةٌ أو هو تخييلٌ لا حقيقةَ له؟ والتحقيقُ أنَّ منه ما هو حقيقةٌ، ومنه ما هو تخييلٌ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١، ٥٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٢، ٤٤٣).

قال ابنُ عطيَّةَ: (وقولُه تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ﴾ عبارةٌ عما يعتري نَفسَ الإنسانِ إذا وقع ظَنُّه في أمرٍ على شَيءٍ يَسوءُه، وظاهِرُ الأمرِ كُلِّه الصَّلاحُ، فهذا الفِعلُ مِن أفعالِ النَّفسِ يُسمَّى الوجيسَ، وعَبَّر المفسِّرون عن «أَوْجَسَ» بـ«أضمَرَ»، وهذه العبارةُ أعَمُّ مِن الوَجيسِ بكثيرٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١).

قال ابنُ الجوزي: (في خَوفِه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّه خوفُ الطَّبعِ البَشَريِّ.

والثاني: أنَّه لَمَّا رأى سِحْرَهم مِن جِنسِ ما أراهم في العصا، خاف أن يلتَبِسَ على النَّاسِ أمرُه ولا يؤمِنوا، فقيل له: لا تخَفْ؛ إنَّك أنت الأعلى عليهم بالظَّفَرِ والغَلَبةِ، وهذا أصحُّ مِنَ الأوَّلِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦٧). =

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: قُلْنا لموسى تثبيتًا وتَطمينًا: لا تخفْ؛ إنَّك أنت الغالِبُ القاهِرُ، المنتَصِرُ على فِرعَونَ وسَحَرتِه وجُندِه[1].

﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾.

أي: وألقِ عصاك التي في يمينِك تبتَلِعْ بقُوَّةٍ وسُرعةٍ حِبالَهم وعِصِيَّهم التي خَيَّلوا إلى النَّاسِ بسِحرِهم أنها حيَّاتٌ تتحَرَّكُ[2].

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ﴾.

أي: إنَّ الذي صَنَعه هؤلاء السَّحرةُ حِيلةٌ من ساحِرٍ[3].

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

أي: ولا يظفَرُ السَّاحِرُ بمَطلوبِه أينما توَجَّه، لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ فكَيدُه

= وممَّن قال بنحوِ القولِ الثاني: ابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٢).

وقال ابن عاشور: (وإنما خاف موسى مِن أن يَظهرَ أمرُ السَّحرةِ فيُساويَ ما يَظهَرُ على يديه مِن انقلابِ عصاه ثُعبانًا؛ لأنَّه يكونُ قد ساواهم في عملِهم، ويكونون قد فاقوه بالكثرةِ، أو خشِيَ أن يكونَ اللهُ أراد استدراجَ السَّحرةِ مُدَّةً، فيُمليَ لهم بظُهورِ غَلَبِهم عليه ومَدِّه لِما تكونُ له العاقِبةُ، فخَشِيَ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٩).

وذكَر الرازي في سببِ هذا الخوفِ أوجهًا أُخرَى. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٨).

ليس بمُثمِرٍ له ولا ناجِحٍ[(١)].

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠﴾.

أي: فألقَى موسى عصاه، وابتلَعَت عِصِيَّ السَّحَرةِ وحِبالَهم، فعَلِموا عِلمَ اليَقينِ أنَّ هذا الأمرَ ليس مِن قَبيلِ السِّحرِ والحِيَلِ، وأنَّه حَقٌّ لا مِريةَ فيه، ومُعجزةٌ مِن الإلهِ الحَقِّ الذي يقولُ للشَّيءِ كُن فيكونُ، فحينَها وقَعَ السَّحَرةُ على الأرضِ ساجِدينَ لله قائلينَ: آمَنَّا باللهِ رَبِّ هارونَ وموسى[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ * وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ * قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧-١٢٢].

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝٧١﴾.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾.

أي: قال فِرعَونُ للسَّحرةِ: أصدَّقتُم بموسى، وأقرَرْتُم له بالنُّبُوَّةِ قبلَ أن أسمَحَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ١٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٩، ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٢).

قال القرطبي: (لِمَا رأوا من عظيمِ الأمرِ، وخرقِ العادةِ في العصا، فإنها ابتلعت جميعَ ما احتالوا به مِن الحبالِ والعصيِّ... ثم عادت عصا، لا يعلمُ أحدٌ أين ذهبتِ الحبالُ والعصيُّ إلا الله تعالى!). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٤).

لكم بالإيمانِ بما يدعوكم إليه؟! فهذا سوءُ أدبٍ منكم، وتجرُّؤٌ عليَّ[(١)]!!

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾.

أي: إنَّ موسى لَعظيمُكم ورئيسُكم الكبيرُ الَّذي علَّمَكم السِّحرَ، واتَّفقتُم معه على أن يَغلِبَكم؛ مكيدةً لي ولِقَومي[(٢)]!

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ فِرعَونَ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣].

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾.

أي: قال فِرعَونُ للسَّحرةِ مُقْسِمًا: لأقطِّعَنَّ مِن كلِّ ساحرٍ منكم يَدَه ورِجلَه مِن جِهَتينِ مُختَلِفَتينِ. أي: يقطَعُ يمنى اليدينِ ويُسرى الرِّجلَينِ، أو يُسرى اليَدَينِ، ويُمنى الرِّجلينِ[(٣)].

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾.

أي: ولأُصلِّبنَّكم على جُذوعِ النَّخلِ؛ تبشيعًا لقَتلِكم، ورَدعًا لأمثالِكم[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٠٦)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ١٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣١٢).

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

أي: ولتعلَمُنَّ -أيُّها السَّحرةُ- مَن هو أشَدُّ عذابًا، وأدومُ عِقابًا[(١)]!

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

أي: قال السَّحَرةُ بعد إيمانِهم: لن نُقَدِّمَك -يا فِرعَونُ- على الحَقِّ، فلن نتَّبِعَك ونختارَ دينك؛ طَلَبًا لما وعَدْتَنا مِن الأجرِ، أو السلامةِ مِما توعدْتَنا مِن العذابِ، ونكَذِّبَ لأجْلِك موسى بعدَ أن رأينا المعجزاتِ الواضِحةَ الدَّالَّةَ على نبوتِه، وصِحَّةِ ما يدعو إليه[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩).

قيل: المراد: يعني أنا، أو موسى أشدُّ عذابًا وأبقى. وممَّن اختار ذلك: يحيى بن سلام، وابن جرير. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٦).

وقيلَ: المرادُ: أنا أم رَبُّ موسى أشدُّ عذابًا وأبقى. وممن اختار ذلك: القرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩).

قال الشِّنقيطيُّ: (قَولُه في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ قال بعضُ أهل العلم: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ﴾: يعني: أنا أم رَبُّ موسى ﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾. واقتصرَ على هذا القرطبيُّ. وعليه فِفرعَونُ يدَّعي أنَّ عَذابَه أشدُّ وأبقى مِن عذابِ الله! وهذا كقولِه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وقَولِه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، وقَولِه: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾. وقال بعضُهم: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ﴾: أنا أمْ موسى أشدُّ عذابًا وأبقى. وعلى هذا فهو كالتهَكُّم بموسى لاستضعافِه له، وأنَّه لا يقدرُ على أن يُعَذِّبَ مَن لم يُطِعْه، كقَولِه: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾. واللهُ جلَّ وعلا أعلَمُ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٥).

﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾.

أي: ولن نُؤثِرَك على اللهِ الذي خلَقَنا، وأنشَأَنا من العَدَمِ، وابتدأَ خَلْقَنا مِن طينٍ؛ فهو المستَحِقُّ للعبادةِ والخُضوعِ لا أنت[١].

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾.

أي: فاصنَعْ ما شِئتَ أن تَصنَعَه بنا، وافعَلْ ما بدا لك؛ فلن نَرجِعَ عن إيمانِنا باللهِ[٢].

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٣٥).

قال الشنقيطي: (الواوُ في قوله: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ عاطفةٌ على ﴿مَا﴾ مِن قَولِه: ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: لن نختارَك على ما جاءنا مِن البيِّناتِ، ولا على الذي فَطَرنا أي: خلَقَنا وأبرَزَنا من العَدَمِ إلى الوجود. وقيل: هي واو القَسَم، والمقسَمُ عليه محذوفٌ دَلَّ عليه ما قبله، أي: والذي فَطَرَنا لا نُؤثِرُك على ما جاءنا من البيِّناتِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٦٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٤).

وممن اختار أنَّ الواوَ عاطفةٌ: الفراء، والأخفش، وابن جرير، والزجاج، والواحدي، وابن كثير، وأبو السعود، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٨٧)، ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٦٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٥).

وجوَّز احتمالَ كونِها واوَ قَسَمٍ، من هؤلاء المفسرين: الفراءُ، وابنُ جرير، والزجاجُ، وابنُ كثير.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٥).

قال ابنُ عطيةَ: (هؤلاء السَّحَرةُ اختَلَف النَّاسُ: هل نفَذَ فيهم وعيدُ فِرعونَ؟ فقالت طائفةٌ: =

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صَلَّى الله عليه وسَلَّم قال: ((ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ بهنَّ حَلاوةَ الإيمانِ: مَن كان اللهُ ورَسولُه أحَبَّ إليه مِمَّا سواهما، وأن يحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلَّا لله، وأن يَكرَهَ أن يَعودَ في الكُفرِ بعد أن أنقَذَه اللهُ منه، كما يكرَهُ أن يُقذَفَ في النَّارِ))[١].

﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾.

أي: إنما ينفُذُ أمرُك، وتتسلَّطُ علينا، وتَقدِرُ على تعذيبِنا في هذه الحياةِ الدُّنيا الفانيةِ، وعذابُك فيها ينقضي ويَزولُ، ولا يضُرُّنا، ولا قَضاءَ لك ولا سُلطانَ علينا في الحياةِ الآخرةِ الباقيةِ التي نرجو فيها مِن رَبِّنا الجزاءَ الخالِدَ[٢].

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾.

أي: إنَّا آمَنَّا بربِّنا وأقرَرْنا بتوحيدِه؛ لِيَغفِرَ لنا ذُنوبَنا من الكُفرِ والمعاصي، فيَستُرَها

= صلَبَهم على الجذوعِ كما قال، فأصبحَ القَومُ سَحَرةً، وأمسَوا شُهَداءَ بلُطفِ اللهِ لهم وبرَحمتِه! وقالت فرقةٌ: إنَّ فِرعونَ لم يفعَلْ ذلك، وقد كان الله تعالى وعد موسى أنَّه ومن معه الغالبونَ. وهذا كلُّه مُحتَمَلٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣).

وممَّن رأى أنهم قُتِلوا: ابن كثير، فقال: (الظاهِرُ أنَّ فِرعونَ -لعَنَه الله- صمَّم على ذلك، وفعَلَه بهم، رَحِمَهم الله؛ ولهذا قال ابنُ عباس وغيرُه مِن السلفِ: أصبحوا سحَرةً، وأمسَوا شُهَداءَ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٥).

وممَّن رأى أنهم لم يُقتَلوا: الشنقيطي، فقال بعدَ أن ذكَر القولينِ: (وأظهرهما عندي: أنَّه لم يقتُلْهم، وأنَّ اللهَ عصمهم منه لأجلِ إيمانهم الراسِخِ بالله تعالى؛ لأنَّ الله يقول لموسى وهارون: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]، والعِلمُ عند الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٤/ ٦٥).

(١) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٦، ١١٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٧).

علينا، ويتجاوَزَ عن مؤاخَذتِنا بها، ويَغفِرَ لنا ما أكرَهْتَنا عليه من العَمَلِ بالسحر، ومن ذلك معارضةُ مُعجزاتِ موسى به[١].

﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾.

أي: واللهُ خَيرٌ لنا منك، وأجرُه خَيرٌ لنا مِن أجرِك، وهو أدوَمُ ثوابًا للطائعينَ، وأدوَمُ عَذابًا للكافرينَ، وهو الحيُّ الذي لا يموتُ، ولا يزولُ مُلكُه، أما أنت ففانٍ هالكٌ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۞ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ [النحل: ٩٥، ٩٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧].

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤﴾.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾.

أي: إنَّه من يَمُتْ ويُلاقِ رَبَّه يومَ القيامةِ لِيُجازِيَه بعَمَلِه، والحالُ أنَّه كافِرٌ باللهِ؛ فإنَّ جزاءَه جهنَّمُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٥، ٢٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٧، ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٨).

قال ابن عطية: (قالت فِرقةٌ: هذه الآيةُ بجُملتِها من كلامِ السَّحَرةِ لِفرعَونَ على جهةِ الموعظةِ له والبيانِ فيما فعلوه، وقالت فرقة: بل هي مِن كلامِ الله تعالى لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ =

﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾.

أي: لا يموتُ الكافِرُ في جهنَّمَ فيَستريحَ من العذابِ، ولا يحيا حياةً هَنِيَّةً يتلَذَّذُ بها وينتَفِعُ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾ [فاطر: ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٢، ١٣].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أمَّا أهلُ النَّارِ الذين هم أهلُها، فإنَّهم لا يموتونَ فيها ولا يَحيَونَ، ولكِنْ ناسٌ أصابَتْهم النَّارُ بذُنوبِهم -أو قال: بخطاياهم- فأماتهم إماتةً، حتى إذا كانوا

= تنبيهًا على قبحِ ما فعَل فِرعَونُ، وحُسنِ ما فعل السَّحَرةُ، وتحذيرًا قد ضُمِّنَت القِصَّةُ المذكورةُ مِثالَه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٤).

وممن ذهَب إلى الرأيِ الأوَّلِ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٥).

وممن ذهَب إلى الرأيِ الثاني: الواحدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٨).

قال القرطبي: (مَن قال: هذا مِن قولِ السَّحرة قال: لعلَّ السحرةَ سمعوه مِن موسَى أو مِن بني إسرائيلَ إذ كان فيهم بمصرَ أقوامٌ، وكان فيهم أيضًا المؤمنُ مِن آلِ فِرعَون. قلتُ: ويحتملُ أن يكونَ ذلك إلهامًا مِن الله لهم أنطَقهم بذلك لما آمنوا، والله أعلم). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٨).

قال ابنُ عطية: (قولُه: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ مختَصٌّ بالكافِرِ؛ فإنَّه مُعَذَّبٌ عذابًا ينتهي به إلى الموتِ، ثمَّ لا يُجهَزُ عليه فيستريحَ، بل يعادُ جِلْدُه، ويجَدَّدُ عذابُه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣).

فَحمًا، أذِنَ بالشَّفاعةِ، فجيءَ بهم ضبائِرَ ضبائِرَ[١]، فبُثُّوا[٢] على أنهارِ الجَنَّةِ، ثم قيلَ: يا أهلَ الجَنَّةِ، أفيضوا عليهم، فيَنبُتونَ نباتَ الحِبَّةِ[٣] تكونُ في حَميلِ السَّيلِ[٤]))[٥].

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ٧٥﴾.

أي: ومَن يَمُت ويلاقِ رَبَّه يومَ القيامةِ، والحالُ أنَّه مُؤمِنٌ باللهِ وَحدَه لا شريكَ له، وقد عَمِلَ الأعمالَ الصَّالحاتِ؛ فأولئك لهم عندَ اللهِ الدَّرَجاتُ العاليةُ[٦].

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: وتلك الدَّرَجاتُ العُلا هي بساتينُ إقامةٍ تجري مِن تحتِ أشجارِها وغُرَفِها الأنهارُ، ماكِثينَ فيها أبدًا[٧].

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

أي: وذلك الثَّوابُ هو جزاءُ من طهَّر نَفَسه مِن الكُفرِ، والشِّركِ، والمعاصي،

---

(١) الضبائرُ هم الجماعاتُ في تفرقةٍ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٧١).

(٢) فبُثُّوا أي: فرِّقوا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٣٨).

(٣) الحِبَّةُ: هي بزرُ البقولِ والعشبِ تنبتُ في البراري، وجوانبِ السُّيولِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢٣).

(٤) حميل السَّيلِ: هو ما يجيءُ به السيلُ مِن طينٍ وغيره. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٠٨).

(٥) رواه مسلم (١٨٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٧).

ونمَّاها بالإيمانِ، والعَمَلِ الصَّالحِ[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ في هذا الكلامِ مِن السَّحرةِ دليلٌ على أنَّه ينبغي للعاقِلِ أن يوازِنَ بينَ لذَّاتِ الدُّنيا ولذَّاتِ الآخرةِ، وبينَ عذابِ الدُّنيا وعذابِ الآخرةِ[(٢)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ أظهَرَ السَّحرةُ استخفافَهم بوعيدِ فِرعَون وبتَعذيبِه؛ إذ أصبَحوا أهلَ إيمانٍ ويَقينٍ، وكذلك شأنُ المؤمنينَ بالرُّسُلِ إذا أشرَقَت عليهم أنوارُ الرِّسالةِ؛ فسُرعانَ ما يكونُ انقلابُهم عن جَهالةِ الكُفرِ وقَساوتِه، إلى حِكمةِ الإيمانِ وثَباتِه[(٣)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ بيانُ أنَّ الإيمانَ واليقينَ إذا دَخَلا القلبَ لا يفتنُه شيءٌ؛ فالسَّحَرةُ -جنودُ فِرعَون- كانوا في أوَّلِ النَّهارِ سَحرةً كَفَرةً، وفي آخرِ النَّهارِ مُؤمِنينَ بَرَرةً؛ يتَحدَّونَ فِرعَون؛ لِمَا دَخَلَ في قَلبِهم مِن الإيمانِ[(٤)].

٤- الإيمانُ مُكفِّرٌ للسيِّئاتِ، والتوبةُ تجُبُّ ما قبلَها؛ قال تعالى حكايةً عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٣٣٨).

سحرةِ فرعونَ: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾[(١)].

الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال هذا النبيُّ الكريمُ للسَّحَرةِ ﴿أَلْقُواْ﴾ أي: ألقُوا حبالَكم وعِصِيَّكم، يعني: اعملوا السِّحرَ، وعارِضوا به مُعجِزةَ اللهِ التي أيَّدَ بها رسولَه، وهذا أمرٌ مُنكَرٌ؟

والجوابُ: هو أنَّ قَصدَ موسى بذلك قَصدٌ حَسَنٌ يَستَوجِبُه المقامُ؛ لأنَّ إلقاءَهم قَبلَه يستلزِمُ إبرازَ ما معهم من مكايِدِ السِّحرِ، واستِنفادَ أقصى طُرُقِهم ومجهودِهم، فإذا فعلوا ذلك كان في إلقائِه عصاه بعدَ ذلك، وابتلاعِها لجَميعِ ما ألقَوا؛ من إظهارِ الحَقِّ وإبطالِ الباطِلِ ما لا جِدالَ بَعدَه في الحَقِّ لأدنى عاقِلٍ؛ ولأجل هذا قال لهم: ﴿أَلْقُواْ﴾، فلو ألقَى قَبلَهم، وألقَوا بَعدَه، لم يحصُلْ ما ذكَرْنا، والعِلمُ عندَ الله تعالى[(٢)].

٢- قال موسى عليه السَّلامُ للسَّحَرةِ: ﴿أَلْقُواْ﴾ أي: أنتم أولًا قبلي، والحِكمةُ في هذا -والله أعلَمُ- ليرى النَّاسُ صَنيعَهم ويتأمَّلوه، فإذا فُرِغَ مِن بَهرَجِهم ومِحالِهم، جاءهم الحقُّ الواضِحُ الجَلِيُّ بعد تطَلُّبٍ له والانتظارِ منهم لمجيئِه؛ فيكونُ أوقَعَ في النُّفوسِ، وكذا كان[(٣)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ ما يُوهِمُه السَّحَرةُ مِن تغييرِ خَلقِ الصُّورِ تَخييلٌ لا حقيقةٌ؛ فالسِّحرُ لا يؤثِّرُ في قلبِ الأعيانِ، فلا يجعَلُ الحديدَ خَشَبًا، ونحو ذلك، ومَن زعم أنَّ السَّحَرةَ يَقدِرونَ على تغييرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٦).

الصُّوَرِ وتحويلِها عمَّا خلَقَها اللهُ إلى غيرِها: فقد كَفَر؛ لِمُساواتهم بأفعالِهم رَبَّ العالَمينَ، لكِنْ مع ذلك فلِلسِّحرِ حقيقةٌ؛ فإنَّه يؤثِّرُ: يُمرِضُ الإنسانَ، وربَّما يُفسِدُ فِكرَه، وربَّما يَلحَقُه جنونٌ... إلى غيرِ ذلك، خِلافًا للمُعتزِلةِ الذين قالوا: إنَّ السِّحرَ يقعُ تَخَيُّلًا وليس حقيقةً[1].

٤- إنْ قيلَ: قَولُه: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ﴾، وقَولُه: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦] الدَّالانِ على أنَّ سِحرَ سَحَرةِ فِرعَونَ خَيالٌ لا حَقيقةَ له: قد يُظَنُّ تعارُضُهما مع قَولِه: ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]؛ لأنَّ وَصْفَ سِحرِهم بالعِظَمِ قد يُتوَهَّمُ منه أنَّه غيرُ خيالٍ.

فالذي يظهَرُ في الجوابِ -واللهُ أعلمُ- أنَّهم أخَذوا كثيرًا مِن الحِبالِ والعِصِيِّ، وخَيَّلوا بسِحرِهم لأعيُنِ النَّاسِ أنَّ الحِبالَ والعِصِيَّ تسعى وهي كثيرةٌ، فظَنَّ النَّاظِرونَ أنَّ الأرضَ مُلِئَت حيَّاتٍ تسعى؛ لِكَثرةِ ما ألقَوا من الحِبالِ والعِصِيِّ، فخافوا مِن كَثرتِها، وبتَخييلِ سَعيِ ذلك العددِ الكثيرِ وُصِفَ سِحرُهم بالعِظَمِ، وهذا ظاهِرٌ لا إشكالَ فيه[2].

٥- قال الله عز وجل: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾، قولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمة: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ...﴾ يعمُّ نفيَ جميعِ أنواعِ الفلاحِ عن الساحرِ، وأكَّد ذلك بالتعميمِ في الأمكنةِ بقولِه: ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾، وذلك دليلٌ على كفرِه؛ لأنَّ الفلاحَ لا يُنفَى بالكليةِ نفيًا عامًّا إلَّا عمَّن لا خيرَ فيه، وهو الكافرُ[3].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٨٩)، ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٩).

٦- قال الله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ قال الأصبهانيُّ: (سبحانَ اللهِ، ما أعظَمَ شَأنَهم! ألقَوا حِبالَهم وعِصِيَّهم للكُفرِ والجُحودِ، ثمَّ ألقَوا رؤوسَهم بعد ساعةٍ للشُّكرِ والسُّجودِ، فما أعظَمَ الفَرقَ بينَ الإلقاءينِ)(١)!!

٧- قولُ فرعونَ فيما حكاه الله تعالى عنه: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ دليلٌ على وَهنِ أمرِه؛ لأنَّه إنَّما جعَل ذنبَهم مفارقةَ الإذنِ، ولم يجعَلْه نفسَ الإيمانِ إلَّا بشرطٍ(٢).

٨- قال تعالى حكايةً لقولِ فرعونَ للسحرةِ: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾، فهَدَّدَهم فرعونُ مُقسِمًا على أنَّه يقطعُ أيديَهم وأرجلَهم مِن خلافٍ؛ لأنَّه أشدُّ على الإنسانِ مِن قطعِهما مِن جهةٍ واحدةٍ؛ لأنَّه إن كان قطعُهما مِن جهةٍ واحدةٍ يبقى عندَه شِقٌّ كاملٌ صحيحٌ، بخلافِ قَطْعِهما مِن خلافٍ. فالجنبُ الأيمنُ يَضْعُفُ بقطعِ اليدِ، والأيسرُ يَضْعُفُ بقطعِ الرِّجلِ كما هو معلومٌ. وأنَّه يُصَلِّبُهم في جذوعِ النَّخلِ، وجذعُ النَّخلةِ هو أخشنُ جِذعٍ مِن جذوعِ الشَّجرِ، والتَّصليبُ عليه أشدُّ مِن التَّصليبِ على غيرِه مِن الجذوعِ كما هو مَعروفٌ(٣).

٩- هنا سؤالٌ معروفٌ، وهو أن يُقالَ: قَولُهم: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ يدُلُّ على أنَّه أكرهَهم عليه، مع أنَّه قد يُفهَمُ من آياتٍ أُخَرَ أنَّهم فعلوه طائعينَ غيرَ مُكرَهينَ، كقَولِهم: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾، وكذلك قَولُه عنهم في

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٤٠).
(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٣).

(الشُّعَراء): ﴿قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۞ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢]، وقَولُه في (الأعرافِ): ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۞ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٤]

فتلك الآياتُ يُفهَمُ منها أنَّهم غيرُ مُكرَهينَ.

وللعُلَماءِ عن هذا السُّؤالِ أجوبةٌ مَعروفةٌ:

منها: أنَّه أكرَههم على الشُّخوصِ من أماكِنِهم؛ لِيُعارِضوا موسى بِسِحرِهم، فلمَّا أُكرِهوا على القُدومِ وأُمِروا بالسِّحرِ أتَوه طائِعينَ، فإكراهُهم بالنِّسبةِ إلى أوَّلِ الأمرِ، وطَوعُهم بالنِّسبةِ إلى آخِرِ الأمرِ، فانفَكَّت الجِهةُ، وبذلك ينتفي التعارُضُ، ويدُلُّ لهذا قَولُه: ﴿وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦]، وقَولُه: ﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١١].

ومنها: أنَّه كان يُكرِهُهم على تعليمِ أولادِهم السِّحرَ في حالِ صِغَرِهم، وأنَّ ذلك هو مرادُهم بإكراهِهم على السِّحرِ، ولا ينافي ذلك أنَّهم فعَلوا ما فعلوا من السِّحرِ بعد تعلُّمِهم وكِبَرِهم طائِعينَ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ دليلٌ على أنَّ المجرمَ في القرآنِ واقعٌ على الكافِرِ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ ناشِئٍ من حِكايةِ ما جَرَى بينَ السَّحرةِ مِن المُقاوَلةِ؛ كأنَّه قيلَ:

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٩١).

فماذا فعَلُوا بعْدَما قالوا فيما بينَهم ما قالوا؟ فقِيلَ: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ﴾. وإنَّما لم يتعرَّضْ لإجماعِهم؛ وإتيانِهم بطَريقِ الاصطفافِ؛ إشعارًا بظُهورِ أمْرِهما وغِناهما عن البَيانِ[(١)]؛ ففيه إيجازٌ بالحذْفِ، تَقديرُه: فجَاؤوا مُصطفِّينَ إلى مكانِ الموعِدِ، وبيَدِ كلِّ واحدٍ منهم عصًا وحبْلٌ، وجاء مُوسى وأخوه ومعه عصاهُ، فوقفوا، وقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ ...﴾ وذَكَروا الإلقاءَ؛ لأنَّهم عَلِموا أنَّ آيةَ مُوسى في إلقاءِ العصا. قيل: خيَّرُوه ثِقَةً منهم بالغَلبِ لمُوسى، وكانوا يَعْتَقِدون أنَّ أحدًا لا يُقاوِمُهم في السِّحرِ[(٢)].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْ﴾ استئنافٌ ناشِئٌ من حِكايةِ تَخييرِ السَّحرةِ إيَّاهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، كأنَّه قيلَ: فماذَا قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؟ فقيلَ: ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْ﴾[(٣)].

- وفيه إيجازٌ بالحذْفِ، تَقديرُه: فألْقَوا، فإذَا...؛ فالفاءُ فَصيحةٌ مُعرِبةٌ عن مُسارَعتِهم إلى الإلقاءِ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾[(٤)] [الشعراء: ٦٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾ هذا الخوفُ على ما هو طَبْعُ البَشرِ، وللنظرِ إلى الطَّبعِ عبَّرَ بالنَّفْسِ لا القَلبِ مثلًا[(٥)]، وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٠٧).

- وزيادةُ ﴿فِي نَفْسِهِۦ﴾ هنا؛ للإشارةِ إلى أنَّها خِيفَةُ تَفكُّرٍ، لم يظهَرْ أثَرُها على مَلامِحِه[1].

- وتأخيرُ الفاعلِ ﴿مُّوسَىٰ﴾؛ لمُراعاةِ الفواصلِ، معَ ما فيه مِن التَّشويقِ إلى المؤخَّرِ، والاهتمامِ بالمُقدَّمِ[2].

٤- قولُه تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ، وتَقريرٌ لِغَلبتِه وقهْرِه، وقدِ اشتملَتْ هذه الآيةُ على عِدَّةِ مُؤكِّداتٍ:

أ- الاستئنافُ، وهو قولُه تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، ولم يقُلْ: لأنَّك أنت الأعْلَى؛ فكان ذلك أبلَغَ في إيقانِ مُوسى عليه السَّلامُ بالغَلبةِ والاستعلاءِ، وأثبَتَ ذلك في قَرارةِ نفْسِه بما لا يدَعُ أيَّ مجالٍ للشَّكِّ.

ب- (إِنَّ) المُشدَّدةُ، الَّتي من شأْنِها الإثباتُ لِمَا يأْتي بعْدَها، وتأْكيدُه.

ج- تكريرُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾.

د- لامُ التَّعريفِ في قولِه: ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾، أي: دونَ غيرِك.

هـ- لفْظُ (العُلو) الدَّالِّ على أنَّ الغَلبةَ ثابتةٌ له من جِهَةِ العُلوِّ، وعبَّرَ بـ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ على وزْنِ (الأفْعَل) الَّذي من شأْنِه التَّفضيلُ، ولم يقُل: العالي؛ فهو أعْلى من كلِّ عَالٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٥٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢١٥).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ فيه ما يُعْرَفُ بالإبهامِ؛ حيثُ أُبْهِمَ ما في يَمينِ مُوسى ولم يقُل: (وألْقِ عصاكَ)؛ لأمرينِ مُتضادَّينِ؛ أوَّلِهما: استصغارُ أمْرِها، أي: لا تُبالِ بكثْرةِ حِبالِهم وعِصِيِّهم، وألْقِ العُوَيدَ الفرْدَ الصَّغيرَ الجِرْمِ الَّذي بيَدِك؛ فإنَّه بقُدْرةِ اللهِ تعالى يتلقَّفُها على وَحْدتِه وكَثرتِها، وصِغَرِه وعِظَمِها. وثانيهما: تَعظيمُ أمْرِها، أي: لا تعبَأْ بهذه الأجرامِ الكبيرةِ الكثيرةِ؛ فإنَّ في يَمينِك شيئًا هو أعظَمُ منها كلِّها؛ فألْقِها، تمْحَقْها وتُطِحْ بها بإذنِ اللهِ. وفيه نُكتةٌ أُخرى، وهي: أنَّ مُوسى عليه السَّلامُ أوَّلَ ما عَلِمَ أنَّ العصا آيةٌ مِن اللهِ تعالى عندَما سألَه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]، ثمَّ أظهَرَ له تعالى آيتَها، فلمَّا دخَلَ وقْتُ الحاجةِ إلى ظُهورِ الآيةِ منها، قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾؛ لِيَتيقَّظَ بهذه الصِّيغَةِ للوقْتِ الَّذي قال اللهُ تعالى له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾، وقد أظهَرَ له آيتَها؛ فيكونُ ذلك تَنبيهًا له وتأْنيسًا؛ حيث خُوطِبَ بما عهِدَ أنْ يُخاطَبَ به في وقْتِ ظُهورِ آيتِها، وذلك مَقامٌ يُناسِبُ التَّأْنيسَ والتَّثبيتَ في موقفٍ يُزايِلُ الوَقارُ أشدَّ النُّفوسِ قوَّةً ورِباطةً؛ فعَبَّر عنِ العصا بـ(ما) الموصولةِ تَذكيرًا له بيَومِ التَّكليمِ؛ إذ قال له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]؛ ليحصل له الاطمئنانُ بأنَّها صائرةٌ إلى الحالةِ التي صارتْ إليها يومئذٍ، ولذلك لم يقل له: وألق عصاك(١).

- والجُملةُ الأمْرِيَّةُ ﴿وَأَلْقِ﴾ مَعطوفةٌ على النَّهيِ، مُتمِّمةٌ بما في حَيِّزِها لتَعليلِ مُوجِبِه ببَيانِ كيفيَّةِ غلَبتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وعُلوِّه؛ فإنَّ ابتلاعَ عصاهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧-٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢١٦).

لأباطيلِهم -الَّتي منها أوجَسَ في نفْسِه ما أوجَسَ- ممَّا يقلعُ مادَّتَه بالكُلِّيَّةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿تَلْقَفْ﴾ حمْلٌ على معْنى (ما) لا على لفْظِها؛ إذ أُطْلِقَتْ (ما) على العصا، والعصا مُؤنَّثةٌ، ولو حُمِلَ على اللَّفظِ لكان (يَلْقَف) بالياءِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ التَّعبيرُ عنها بـ﴿مَا صَنَعُوٓاْ﴾؛ للتَّحقيرِ، والإيذانِ بالتَّمويهِ والتَّزويرِ[٣].

- وقولُه: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖ...﴾ تَعليلٌ لقولِه: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾، وقولُه: ﴿كَيْدُ سَٰحِرٖ﴾، أي: كيدُ جنْسِ السَّاحرِ. وعدَمُ التَّعرُّضِ لشأْنِ العصا، وكونِها مُعجِزةً إلهيَّةً، مع ما في ذلك من تَقويةِ التَّعليلِ؛ للإيذانِ بظُهورِ أمْرِها[٤].

- وتَنكيرُ ﴿سَٰحِرٖ﴾؛ للتَّوسُّلِ به إلى تَنكيرِ ما أُضِيفَ إليه للتَّحقيرِ[٥]. ونَكَّرَ أوَّلًا في قولِه: ﴿كَيْدُ سَٰحِرٖ﴾، وعرَّفَ ثانيًا في قولِه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾؛ لأنَّه نكَّرَ من أجْلِ تَنكيرِ المُضافِ، لا من أجْلِ تَنكيرِه في نفْسِه، كأنَّه قيل: إنَّ ما صَنَعوا كيدٌ سِحْرِيٌّ، وفي سَعْيٍ دُنيويٍّ[٦].

- وجُملةُ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ من تَمامِ الجُملةِ الَّتي قبْلَها؛ فهي مَعطوفةٌ عليها، وتَعريفُ السَّاحرِ تَعريفَ الجِنْسِ؛ لقصْدِ الجِنْسِ المعروفِ، أي: لا يُفلِحُ بها كلُّ ساحرٍ. واختِيرَ فِعْلُ (أتى) دونَ نحوِ: حيثُ كان، أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٧).

حيثُ حَلَّ؛ لمُراعَاةِ كونِ مُعظَمِ أولئك السَّحرةِ مَجْلوبونَ من جِهاتِ مصْرَ، وللرِّعايةِ على فواصلِ الآياتِ الواقعةِ على حرْفِ الألِفِ المقصورةِ. وتَعميمُ ﴿حَيۡثُ أَتَىٰ﴾ لعُمومِ الأمكنةِ الَّتي يَحضُرُها، أي: بسِحْرِه. وتَعليقُ الحُكْمِ بوصْفِ السَّاحرِ يَقْتضي أنَّ نفْيَ الفلاحِ عن السَّاحرِ في أُمورِ السِّحرِ، لا في تِجارةٍ أو غيرِها. وهذا تأكيدٌ للعُمومِ المُستفادِ من وُقوعِ النَّكرةِ في سِياقِ النَّفيِ؛ لأنَّ عُمومَ الأشياءِ يَستلزِمُ عُمومَ الأمكنةِ الَّتي تقَعُ فيها(١).

- ووحَّدَ ﴿سَٰحِرٍ﴾ ولم يَجْمَعْ؛ لأنَّ القصْدَ في هذا الكلامِ إلى معنى الجنسيَّةِ، لا إلى معنى العدَدِ، فلو جمَعَ، لَخُيِّلَ أنَّ المقصودَ هو العددُ؛ ألَا ترَى إلى قولِه: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾، أي: هذا الجِنْسُ(٢).

٦- قولُه تعالى: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾

- الفاءُ في ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا﴾ فَصيحةٌ مُعْرِبَةٌ عن مَحذوفينِ يَنساقُ إليهما النَّظمُ الكريمُ، غَنِيَّينِ عن التَّصريحِ بهما؛ لعدَمِ احتمالِ تَردُّدِ مُوسى عليه السَّلامُ في الامتثالِ بالأمْرِ، واستحالةِ عدَمِ وُقوعِ اللَّقْفِ الموعودِ، أي: فألْقاه عليه السلامُ، فوقَع ما وقَع مِن اللَّقْفِ ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا﴾(٣).

- قولُه: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ ولم يأْتِ (فسَجَدوا)؛ كأنَّه جاءهم أمْرٌ وأزعَجَهم وأخَذَهم، فصنَعَ بهم ذلك، وهو عبارةٌ عن سُرعةِ ما تأثَّروا لذلك الخارقِ العظيمِ، فلم يَتَمالكوا أنْ وَقَعوا ساجدينَ(٤). أو أُسْنِدَ الفِعْلُ إلى المجهولِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٠-٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٧).

لأنَّهم لا مُلْقِيَ لهم إلَّا أنفُسُهم، فكأنَّه قيل: فألْقَوا أنفُسَهم سُجَّدًا[١].

- في قولِه: ﴿فَأُلْقِيَ﴾ فَنُّ التَّكريرِ؛ فقد تكرَّرَ لفْظُ الإلقاءِ، ولكنَّه تكرُّرٌ لم يطَّرِدْ على وَتيرةٍ واحدةٍ، وإنَّما هو لفظٌ واحدٌ في مَعنيينِ مُتضادَّينِ مُتناقضَينِ، نقَلَ بهما سُبحانه عِبادَه من غايةِ الكُفْرِ والعنادِ، إلى نِهايةِ الإيمانِ والسَّدادِ[٢].

- وتَعبيرُهم عن الرَّبِّ بطَريقِ الإضافةِ إلى هارونَ ومُوسى؛ لأنَّ اللهَ لم يكُنْ يُعْرَفُ بينهم يومئذٍ إلَّا بهذه النِّسبةِ؛ لأنَّ لهم أربابًا يَعْبُدونها ويَعْبُدها فِرعونُ[٣].

- وقُدِّمَ مُوسى في (الأعرافِ) وأُخِّرَ هارونُ؛ لأجْلِ الفواصلِ، ولكونِ مُوسى هو المنسوبَ إليه العصا الَّتي ظهَرَ فيها ما ظهَرَ مِن الإعجازِ، وأُخِّرَ مُوسى في سورة (طه)؛ لأجْلِ الفواصلِ أيضًا. ويحتمِلُ أنْ يكونَ القولانِ من قائلَينِ: نطقَتْ طائفةٌ بقولِهم: رَبِّ مُوسى وهارونَ، وطائفةٌ بقولِهم: ربِّ هارونَ ومُوسى، ولمَّا اشْتَرَكوا في المعنى صَحَّ نِسبةُ كلٍّ من القولينِ إلى الجميعِ. وقيل: قُدِّمَ هارونُ هنا؛ لأنَّه كان أكبَرَ سِنًّا من مُوسى. وقيل: لأنَّ فِرعونَ كان قد ربَّى مُوسى، فبدَؤوا بهارونَ؛ ليَزولَ تَمويهُ فِرعونَ أنَّه ربَّى مُوسى، فيقول: أنا رَبَّيْتُه. وقالوا: ربِّ هارونَ ومُوسى، ولم يَكْتَفوا بقولِهم: بربِّ العالمينَ؛ للنَّصِّ على أنَّهم آمنوا بربِّ هذينِ، وكان فيما قبْلُ يزعُمُ أنَّه ربُّ العالمينَ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٧-٣٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨-٢٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٣).

- وتَقديمُ هارونَ على مُوسى هنا، وتَقديمُ مُوسى على هارونَ في قولِه تعالى في سُورةِ (الأعراف): ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]، لا دَلالةَ فيه على تَفضيلٍ ولا غيرِه؛ لأنَّ الواوَ العاطفةَ لا تُفِيدُ أكثَرَ مِن مُطلَقِ الجمْعِ في الحُكمِ المعطوفِ فيه، فهم عَرَّفوا اللهَ بأنَّه رَبُّ هذينِ الرَّجُلينِ، فحُكِيَ كلامُهم بما يدُلُّ على ذلك؛ ألَا ترى أنَّه حُكِيَ في سُورةِ (الأعرافِ) قولُ السَّحرةِ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢١]، ولم يُحْكَ ذلك هنا؛ لأنَّ حِكايةَ الأخبارِ لا تَقْتضي الإحاطةَ بجميعِ المَحْكيِّ، وإنَّما المقصودُ موضِعُ العِبْرةِ في ذلك المقامِ بحسَبِ الحاجةِ[1].

٧- قولُه تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾، قولُه: ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ﴾ ترقٍّ في موجبِ التوبيخِ، أي: لم يكْفِكم أنَّكم آمنتُم بغيري حتَّى فعلتُم ذلك عن غيرِ استئذانٍ، وفصلُها عمَّا قبلَها؛ لأنَّها تعدادٌ للتوبيخِ[2].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ﴾ لتَضمينِ الفِعْلِ معنى الاتِّباعِ[3].

- وفيه استكبارٌ باقْتدارِه وقهْرِه، وما ألِفَه من تَعذيبِ النَّاسِ بأنواعِ العذابِ، وتَوضيعٌ لمُوسى عليه السَّلامُ، واستضعافٌ مع الهُزْءِ به. وإمَّا لإراءةِ أنَّ إيمانَهم لم يكُنْ عن مُشاهَدةِ المُعجِزةِ، ومُعايَنةِ البُرهانِ، بل كان عن خَوفٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٥٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩).

من قِبَلِ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، حيث رَأَوا ابتلاعَ عصاهُ لحِبالِهم وعِصِيِّهم، فخافوا على أنفُسِهم أيضًا[(١)].

- قولُه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ التَّصليبُ: مُبالَغةٌ في الصَّلْبِ، عدَلَ عن حرْفِ الاستعلاءِ (على) إلى حرْفِ الظَّرفيَّةِ (في)؛ تَشبيهًا لشِدَّةِ تمكُّنِ المصلوبِ من الجذْعِ بتمكُّنِ الشَّيءِ الواقعِ في وِعائِه؛ فتَعديةُ فِعْلِ ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ بحرْفِ (في) مع أنَّ الصَّلْبَ يكونُ فوقَ الجذْعِ لا داخِلَه؛ ليدُلَّ على أنَّه صَلْبٌ مُتمكِّنٌ يُشْبِهُ حُصولَ المظروفِ في الظَّرفِ، وأيضًا لما كانت الجذوعُ تضمُّهم كما يضمُّ الوعاءُ ما فيه؛ قيل: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[(٢)].

٨- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ فيه تَوهينٌ له، واستصغارٌ لِمَا هدَّدَهم به، وعدَمُ اكتراثٍ بقولِه. وفي نِسْبةِ المَجيءِ إليهم -وإنْ كانتِ البيِّناتُ جاءت لهم ولغيرِهم-؛ لأنَّهم كانوا أعرَفَ بالسِّحرِ من غيرِهم، وقد عَلِموا أنَّ ما جاء به مُوسى ليس بسِحْرٍ؛ فكانوا على جَلِيَّةٍ من العِلْمِ بالمُعجِزِ، وغيرُهم يُقلِّدُهم في ذلك، وأيضًا فكانوا هم الَّذين حصَلَ لهم النَّفعُ بها، فكانت بيِّناتٍ واضحةً في حَقِّهم[(٣)].

- قولُه: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا﴾ التَّفضيلُ بينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٦٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٩).

فِرعونَ وما جاءهم من البيِّناتِ مُقْتَضٍ حذْفَ مُضافٍ يُناسِبُ المُقابَلةَ بالبيِّناتِ، أي: لن نُؤثِرَ طاعتَك أو دِينَك على ما جاءنا من البيِّناتِ الدَّالَّةِ على وُجوبِ طاعةِ اللهِ تعالى، وبذلك يَلْتَئِمُ عطْفُ ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾، أي: لا نُؤثِرُك في الرُّبوبيَّةِ على الَّذي فطَرَنا. وَجِيءَ بالموصولِ ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾؛ للإيماءِ إلى التَّعليلِ؛ لأنَّ الفاطِرَ هو المُستحِقُّ بالإيثارِ[(١)].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ عطْفٌ على ﴿مَا جَآءَنَا﴾، أي: وعلى الَّذي فطَرَنا. وتأخيرُه؛ لأنَّ ما في ضِمْنِه آيةٌ عقْليَّةٌ نظريَّةٌ، وما شاهدوهُ آيةٌ حِسِّيَّةٌ ظاهرةٌ، ولمَّا لاحَتْ لهم حُجَّةُ اللهِ في المُعجِزةِ بَدَؤوا بها، ثمَّ تَرَقَّوا إلى القادرِ على خرْقِ العادةِ، وهو اللهُ تعالى. وإيرادُه تعالى بعُنوانِ فاطِريَّتِه تعالى لهم؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الحُكْمِ؛ فإنَّ خالِقيَّتَه تعالى لهم وكونَ فِرعونَ من جُملةِ مخلوقاتِه، ممَّا يُوجِبُ عدَمَ إيثارِهم له عليه سُبحانَه وتعالى، وهذا جوابٌ منهم لتَوبيخِ فِرعونَ بقولِه: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؛ فذَكَروا وصْفَ الاختراعِ، وهو قولُهم: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾؛ تَبْيينًا لعجْزِ فِرعونَ، وتكذيبِه في ادِّعاءِ رُبوبيَّتِه وإلاهيَّتِه، وهو عاجِزٌ عن صرْفِ ذُبابةٍ، فضْلًا عنِ اختراعِها[(٢)].

وأيضًا أُخِّرَ ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ عن ﴿مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ لأنَّ البيِّناتِ دليلٌ على أنَّ الَّذي خلَقَهم أراد منهم الإيمانَ بمُوسى، ونبْذَ عِبادةِ غيرِ اللهِ، ولأنَّ فيه تَعريضًا بدَعوةِ فِرعون للإيمانِ باللهِ[(٣)].

- وصِيغَةُ الأمْرِ في قولِه: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ مُستعمَلةٌ في التَّسويةِ؛ لأن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٦- ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩- ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٦).

﴿مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ تصدق على ما توعدهم به مِن تَقطيعِ الأيدي والأرجُلِ والصَّلْبِ، أي: سواءٌ علينا ذلك: بعْضُه، أو كلُّه، أو عدَمُ وُقوعِه، فلا نطلُبُ منك خَلاصًا منه جَزاءَ طاعتِك، فافْعَلْ ما أنت فاعِلٌ(١).

- وقولُه: ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ تَمهيدٌ لِمَا بعْدَه(٢)، وهو أيضًا مع ما بعْدَه تَعليلٌ لعدَمِ المُبالاةِ المُستفادِ ممَّا سبَقَ من الأمْرِ بالقضاءِ، أي: إنَّما تصنَعُ ما تهواهُ، أو تحكُمُ بما تراهُ في هذه الحياةِ الدُّنيا فحسْبُ، وما لنا من رَغبةٍ في عذْبِها، ولا رَهْبةٍ من عذابِها(٣).

- والقصْرُ المُستفادُ من (إنَّما) قصْرُ مَوصوفٍ على صِفَةٍ، أي: إنَّك مقصورٌ على القضاءِ في هذه الحياةِ الدُّنيا، لا يَتجاوَزُه إلى القضاءِ في الآخرةِ؛ فهو قصْرٌ حَقيقيٌّ(٤).

٩- قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾

- جُملةُ: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا ...﴾ في مَحلِّ العِلَّةِ لِمَا تضمَّنَه كلامُهم(٥).

- قولُه: ﴿وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِ﴾ خَصُّوا السِّحرَ بالذِّكْرِ مع اندراجِه في خَطاياهم؛ إظهارًا لغايةِ نُفْرَتِهم عنه، ورَغْبتِهم في مَغْفرتِه. وذِكْرُ الإكراهِ؛ للإيذانِ بأنَّه ممَّا يجِبُ أنْ يُفرَدَ بالاستغفارِ منه مع صُدورِه عنهم بالإكراهِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٦- ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وفيه نوعُ اعتذارٍ لاستجلابِ المَغْفرةِ(١).

- وجُملةُ: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ في موضعِ الحالِ، أو مُعترِضةٌ في آخرِ الكلامِ؛ للتَّذييلِ(٢).

١٠- قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾

- فيه تَقديمُ ذِكْرِ حالِ المُجْرِمِ؛ للمُسارَعةِ إلى بَيانِ أشَدِّيَّةِ عَذابِه ودوامِه؛ ردًّا على ما ادَّعاهُ فِرعونُ بقولِه: ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾(٣).

- قولُهم: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ ...﴾ إلى آخرِ الشَّرطيتينِ تَعليلٌ من جِهَتِهم؛ لكونِه تعالى خيرًا وأبقَى، وتَحقيقٌ له، وإبطالٌ لِمَا ادَّعاهُ فِرعونُ، وتَصديرُهما بضَميرِ الشَّأنِ في ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ للتَّنبيهِ على فَخامةِ مَضمونِهما؛ لأنَّ مناطَ وضْعِ الضَّميرِ مَوضِعَه ادِّعاءُ شُهْرَتِه المُغْنيةِ عن ذِكْرِه، مع ما فيه من زِيادةِ التَّقريرِ؛ فإنَّ الضَّميرَ لا يُفْهَمُ منه من أوَّلِ الأمْرِ إلَّا شأْنٌ مُبْهَمٌ لهُ خطَرٌ، فيَبْقى الذِّهنُ مُترَقِّبًا لِمَا يعقُبُه، فيَتمكَّنُ عندَ وُرودِه له فضْلَ تَمكُّنٍ؛ كأنَّه قيل: إنَّ الشَّأنَ الخطيرَ هذا، أي: قولَه تعالى: ﴿مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا﴾ بأنْ مات على الكُفْرِ والمعاصي، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيَنْتهي عذابُه، وهذا تَحقيقٌ لكونِ عَذابِه أبْقَى، ﴿وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ حياةً يَنتفِعُ بها(٤).

١١- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى (مَنْ)، والجمْعُ باعتبارِ معناها، كما أنَّ الإفرادَ في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفِعْلينِ السَّابقينِ باعتبارِ لفْظِها. وما في (أولئك) من معنى البُعْدِ؛ للإشعارِ بعُلوِّ دَرجتِهم، وبُعْدِ مَنزلتِهم، أي: فأولئك المُؤمِنون العامِلون للصَّالحاتِ[1]، وللتَّنبيهِ كذلك على أنَّهم أحرياءُ بما يُذْكَرُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ من أجْلِ ما سبَقَ اسمَ الإشارةِ[2].

١٢- قوله تعالى: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾

- قولُه: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (ذلِكَ) إشارةٌ إلى ما أُتيحَ لهم من الفوزِ بما ذُكِرَ من الدَّرجاتِ العُلى، وما فيه من معنى البُعدِ للتَّفخيمِ. وقولُه: ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ تَحقيقٌ لكونِ ثوابِه تعالى أبْقَى[3].

- والآياتُ الثَّلاثُ ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ...﴾، إلى قولِه: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ -على القولِ بأنَّها خبرٌ منَ اللهِ-، هي جُمَلٌ مُعترِضةٌ بين حِكايةِ قِصَّةِ السَّحرةِ، وبين ذِكْرِ قِصَّةِ خُروجِ بني إسرائيلَ، ساقَها اللهُ؛ موعظةً وتأييدًا لِمَقالةِ المُؤمِنين من قوم فِرعونَ[4].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٨).

الآيات (٧٧-٧٩)

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَسۡرِ﴾: أي: سِرْ بِهم لَيلًا، والسُّرَى: سَيرُ اللَّيلِ، وأصلُ (سير): يدُلُّ على مُضِيٍّ وجَرَيانٍ[1].

﴿يَبَسٗا﴾: أي: يابِسًا، واليَبَسُ: المكانُ يكونُ فيه ماءٌ فيَذهَبُ، وأصلُ (يبس): يدُلُّ على جَفافٍ[2].

﴿دَرَكٗا﴾: أي: تَبِعةً أو لَحاقًا، وأصلُ (درك): لحوقُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، ووُصولُه إليه[3].

﴿فَغَشِيَهُم﴾: أي: أصابَهم وغطَّاهم، والغِشاوةُ: الغِطاءُ والسَّاتِرُ، مِن غَشِيَ الشَّيءَ، أي: غطَّاه وستَرَه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((تفسير =

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ولقد أوحَينا إلى موسى أن يَخرُجَ ليلًا ببني إسرائيلَ مِن أرضِ «مصرَ»، فيتَّخِذَ لهم في البَحرِ طريقًا يابسًا، غيرَ خائفٍ مِن فِرعَونَ وجُنودِه أن يَلحَقوهم، ولا من البَحرِ أن يغرَقَ فيه.

ولَمَّا عَلِمَ فِرعونُ بخُروجِ موسى وبني إسرائيلَ مِن مِصرَ، أتبَعَهم بجُنودِه، فأصاب فِرعَونَ وجُندَه مِن البَحرِ شَيءٌ عظيمٌ لا يعلَمُ كُنهَه إلَّا اللهُ تعالى، فغَرِقوا جميعًا ونجا موسى وقَومُه، وأضلَّ فِرعَونُ قَومَه عن طَريقِ الحقِّ بما زيَّنه لهم من الكُفرِ والتَّكذيبِ، ولم يسلُكْ بهم طريقَ الهدايةِ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ الله سُبحانَه استكبارَ فِرعونَ المُدعَّى في قَولِه ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾، وختَمَه سُبحانَه بأنَّه يُهلِكُ العاصيَ كائنًا مَن كان، ويُنجِّي الطائِعَ؛ أتبعَ ذلك شاهدًا مَحسوسًا عليه، كفيلًا ببيانِ أنَّه لم يُغنِ عن فِرعَونَ شَيءٌ مِن قُوَّتِه ولا استِكبارِه، فقال[1]:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾.

أي: ولقد أوحَينا إلى موسى أنْ سِرْ ليلًا من أرضِ مِصرَ مع قَومِك بني

= القرطبي)) (١١/ ٢٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣١٦).

إسرائيلَ؛ لِتُخرِجَهم من قَبضةِ فِرعَونَ الذي امتنعَ مِن إرسالِهم، وأبى قَبولَ الحقِّ الذي جاءَه مِن عندِ ربِّه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣].

﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾.

أي: فاتَّخِذْ -يا موسى- لبني إسرائيلَ طَريقًا في البَحرِ يابسًا، لا ماءَ فيه ولا طينَ[(٢)].

﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾.

أي: لا تخافُ -يا موسى- أن يُدرِكَكم فِرعَونُ وجُندُه، فينالَكم بسوءٍ، ولا تخشى الغرَقَ في البَحرِ[(٣)].

﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٦٩).

قال البقاعي: (﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ﴾ أي: اعمَلْ بضربِ البحرِ بعصاك، ولذلك سمَّاه ضربًا. ولما كان ضربُ البحرِ بالعصا سببًا لوجودِ الطريقِ الموصوفة، أوقَع الفعل عليها فقال: ﴿طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣١٦-٣١٧).

وقال ابن عاشور: (الضربُ: هنا بمعنى الجعلِ كقولهم: ضرب الذهبَ دنانيرَ. وفي الحديث: «واضربوا لي معكم بسهمٍ»، وليس هو كقولِه: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ [الشعراء: ٦٣]؛ لأنَّ الضربَ هنالك متعدٍّ إلى البحرِ وهنا نصب طريقًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧١).

أي: فلَحِقَ فِرعَونُ ومعه جنودُه موسى ومَن معه حين قَطَعوا البَحرَ، فأصاب فِرعَونَ وجُندَه مِن البَحرِ شَيءٌ عظيمٌ يفوقُ الوَصفَ، فغَرِقوا جميعًا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًا﴾ [يونس: ٩٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ * وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ * ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٤ - ٦٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤].

﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾.

أي: وصَرَف فِرعَونُ قَومَه القِبطَ عن طَريقِ الحقِّ، ولم يهْدِهم إليه، فلم يُحصِّلوا الخيرَ والنَّجاةَ(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾، فيه سؤالٌ: ما الحكمةُ في أن يسري بهم ليلًا؟

والجوابُ أنَّ ذلك لوجوهٍ:

الوجه الأول: أن يكون اجتماعُهم لا بمشهدٍ من العدوِّ، فلا يمنعُهم عن استكمالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٧٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧١، ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٣).

مرادِهم في ذلك.

الوجه الثاني: ليكونَ عائقًا عن طلبِ فِرعَون ومتَّبِعيه.

الوجه الثالث: ليكونَ إذا تقارَب العسكرانِ، لا يرَى عسكرُ موسى عسكرَ فِرعَون، فلا يهابوهم[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ موسى -عليه السَّلامُ- في تلك الحالةِ كَثُرَ مُستجيبوه، فأراد اللهُ تعالى تمييزَهم من طائفةِ فِرعَونَ وخلاصَهم، فأوحى إليه أن يسريَ بهم ليلًا[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ افتتاحُ الجُملةِ بالقسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ (قد)؛ للاهتمامِ بالقِصَّةِ؛ لِيُلْقِيَ السَّامعونَ إليها أذهانَهم. وتَغييرُ الأسلوبِ في ابتداءِ هذه الجُملةِ مُؤذِنٌ بأنَّ قِصَصًا طُوِيَت بين ذِكْرِ القِصَّتَينِ؛ فلوِ اقْتُصِرَ على حرْفِ العطْفِ، لَتُوهِّمَ أنَّ حِكايةَ القِصَّةِ الأُولى لم تزَلْ مُتَّصلةً، فيُتَوَهَّمُ أنَّ الأمْرَ بالخُروجِ وقَعَ مُواليًا لانتهاءِ مَحْضرِ السَّحرةِ، مع أنَّ بينَ ذلك قِصَصًا كثيرةً ذُكِرَت في سُورةِ (الأعرافِ) وغيرِها؛ فجُملةُ ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ ابتدائيَّةٌ، والواوُ عاطفةٌ قِصَّةً على قِصَّةٍ، وليست عاطفةً بعْضَ أجزاءِ قِصَّةٍ على بعْضٍ آخرَ[٣].

- قولُه: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ فيه التَّعبيرُ عنهم بعُنوانِ كونِهم عِبادًا له تعالى؛ لتَشريفِهم، وتَقريبِهم، ولإظهارِ المَرْحمةِ والاعتناءِ بأمْرِهم، والتَّنبيهِ على

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٩- ٢٧٠).

غايةِ قُبْحِ صَنِيعِ فِرعونَ بهم؛ حيث استعْبَدَهم وهم عِبادُه عَزَّ وجَلَّ، وفعَلَ بهم من فُنونِ الظُّلمِ ما فعَلَ، والإيماءِ إلى تَخليصِهم من استعبادِ القبْطِ(١).

- وقولُه: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ وعْدٌ لمُوسى، وقدِ اقْتُصِرَ على وعْدِه دونَ بَقِيَّةِ قومِه؛ لأنَّه قُدوتُهم، فإذا لم يَخَفْ هو تَشَجَّعوا، وقوِيَ يَقينُهم، فهو خَبرٌ مُرادٌ به البُشرى(٢).

- وتَقديمُ نفْيِ الخوفِ المذكورِ؛ للمُسارَعةِ إلى إزاحةِ ما كانوا عليه مِن الخوفِ العظيمِ، حيث قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾(٣) [الشعراء: ٦١].

- وفي قولِه: ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ حُذِفَ مفعولُه؛ لإفادةِ العُمومِ، أي: لا تَخْشى شيئًا، وهو عامٌّ مُرادٌ به الخُصوصُ، أي: لا تَخْشى شيئًا ممَّا يُخْشى من العدُوِّ ولا من الغرَقِ(٤).

- قَولُه: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ أي: لا تخافُ إدراكَ فِرعونَ، ولا تخشى غرَقًا في البحرِ، وإلَّا فالخَوفُ والخَشيةُ مُترادِفانِ، وغايَرَ بينهما لفظًا؛ رعايةً للبلاغةِ(٥).

٢- قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾

- قولُه: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ الفاءُ فَصيحةٌ، مُعرِبةٌ عن مُضمَرٍ قد طُوِيَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣١- ٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧١).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٦).

ذِكْرُه؛ ثِقَةً بغايةِ ظُهورِه، وإيذانًا بكَمالِ مُسارَعةِ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى الامتثالِ بالأمْرِ، أي: ففعَلَ ما أُمِرَ بِهِ؛ مِن الإسراءِ بهم، وضَرْبِ الطَّريقِ وسُلوكِه، فأتبَعَهم فِرعونُ بجُنودِه بَرًّا وبحْرًا[١].

- قولُه: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾ فيه إبهامٌ، أي: علاهم وغمَرَهم من الأمْرِ الهائلِ الَّذي ليس في طَوقِهم احتمالُه، ما لا يُمْكِنُ إدراكُ كُنْهِه، ولا سَبْرِ غَورِه، وهو مِن جوامعِ الكَلِمِ الَّتي يَقِلُّ لَفْظُها، ويتشعَّبُ القولُ في مَعناها، حيثُ أوجزَ فهَوَّلَ بقولِه: ﴿مَا غَشِيَهُمۡ﴾، أي: أمرٌ لا تَحتمِلُ العقولُ وصْفَه حقَّ وصْفِه، ومِن المعلومِ أنَّهم غَشِيَهم غاشٍ؛ فتعيَّن أنَّ المقصودَ منه التهويلُ، أي: بلَغَ من هولِ ذلك الغرقِ أنَّه لا يُستطاعُ وصفُه؛ فالتعبيرُ بالاسمِ المُبهَمِ الذي هو الموصولُ يدلُّ على تعظيمِ الأمرِ، وتَفخيمِ شأنِه[٢].

- وكرَّر فِعل (غَشي) على معنى التعظيمِ والمعرفةِ بالأمرِ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ تَقريرٌ لإضلالِه، وتأكيدٌ له؛ فعطْفُ ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ على ﴿وَأَضَلَّ﴾ إمَّا من عطْفِ الأعَمِّ على الأخصِّ؛ لأنَّ عدَمَ الهُدى يصدُقُ بترْكِ الإرشادِ من دونِ إضلالٍ، وإمَّا أنْ يكونَ تأكيدًا لَفظيًّا بالمُرادِفِ، مُؤكِّدًا لنفْيِ الهُدى عن فِرعونَ لقومِه؛ فيكونَ قولُه: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ تأكيدًا لـ (أَضَلَّ)

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٩).

بالمُرادِفِ؛ إذ رُبَّ مُضِلٍّ قد يُرشِدُ مَن يُضِلُّه إلى بَعضِ مَطالِبِه، أو يهديه بعْدَ إضلالِه. وفيه نوعُ تَهكُّمٍ به في قولِه: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، أي: في قولِه: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ تلميحٌ إلى قِصَّةِ قولِه المحكيِّ في سُورة (غافِر)، وما هنا في سُورةِ (طه) مِن قولِه: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ [طه: ٦٣]، أي: هي هُدًى؛ فإنَّ نفْيَ الهِدايةِ عن شخْصٍ مُشْعِرٌ بكونِه ممَّن يُتصوَّرُ منه الهدايةُ في الجُملةِ، وذلك إنَّما يُتصوَّرُ في حَقِّه بطَريقِ التَّهكُّمِ[1]. وقيل: لَمَّا كان إثباتُ الفِعلِ لا يُفيدُ العُمومَ، نفَى ضِدَّه؛ ليُفيدَه، مع كونِه أوكدَ وأوقعَ في النفْسِ وأروعَ لها، فقال: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ أي: ما وقَع منه شيءٌ من الهدايةِ، لا لنَفْسِه ولا لأحدٍ مِن قومه[2].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٢-٢٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣١٨).

الآيات (٨٠-٨٢)

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ٨١ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ٨٢ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡمَنَّ﴾: المنُّ: شيءٌ حُلوٌ كان يسقُطُ على شَجَرِهم، فيجتَنونَه فيأكلونَه، وقيل: المنُّ مصدرٌ يَعُمُّ جميعَ ما مَنَّ اللَّه به على عبادِه مِن غيرِ تَعَبٍ ولا زَرْعٍ، وأصلُ (منن): اصطِناعُ خَيْرٍ[(١)].

﴿وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾: السَّلْوَى: طائِرٌ يُشبِهُ السُّمانَى، لا واحِدَ له مِن لفظِه، واشتقاقُ السَّلوى من السَّلوةِ؛ لأنَّه لطِيبِه يُسَلِّي عن غَيرِه[(٢)].

﴿فَيَحِلَّ﴾: أي: يجِبَ، ويلزمَ، مِن: حَلَّ الدَّينُ يَحِلُّ -بكسرِ الحاءِ-؛ إذا وَجَب أداؤُه، وأصلُ (حلل): فتحُ الشَّيءِ[(٣)].

﴿هَوَىٰ﴾: أي: هلَك، وصار إلى الهاويةِ، يُقالُ: هَوَتْ أُمُّه: أي: سقَط سُقوطًا لا نهوضَ بعدَه، وأصلُه أنْ يسقُطَ مِن جبلٍ أو نحوِه، فيَهوِيَ إلى الأرضِ فيَهلِكَ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٤٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٨).

وأصلُ (هوي): يدُلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ[(١)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مذكِّرًا بني إسرائيلَ بنِعَمِه عليهم: يا بني إسرائيلَ قد أنجَيناكم مِن عَدُوِّكم فِرعَونَ، وواعدْناكم جانِبَ جبَلِ الطُّورِ الأيمَنَ؛ لإنزالِ التَّوراةِ عليكم، ونزَّلْنا عليكم الرِّزقَ الطيِّبَ الذي تحصُلونَ عليه بلا كُلفةٍ. كُلُوا مِن رِزقِنا الطَّيِّبِ، ولا تعتَدُوا فيه بالجُحودِ وتَركِ الشُّكرِ؛ فيَحِقَّ عليكم غَضَبي، ومَن يَحِقَّ عليه غَضَبي فقد هلك وخَسِرَ. وإنِّي لَغفَّارٌ لِمَن تاب مِن ذَنبِه وكُفرِه، وآمَنَ بي وعَمِلَ الأعمالَ الصَّالحةَ، ثمَّ اهتدى إلى الحَقِّ واستقامَ عليه حتَّى مَماتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠ ﴾.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ ﴾.

أي: قال الله تعالى: يا بني إسرائيلَ[(٢)] قد أنجيناكم مِن عَدُوِّكم فِرعَونَ، فأغرقناه وجُنودَه[(٣)].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٦).

(٢) قيل: الخطابُ لبني إسرائيلَ بعدَ إنجائِهم مِن البحرِ، وإهلاكِ فرعونَ، على إضمارِ: (قلنا)، وقيل: الخطابُ لليهودِ المعاصرينَ لنبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ النعمةَ على الآباءِ معدودةٌ مِن النعمِ على الأبناءِ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير القنوجي)) (٨/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٤٩، ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣٠، ٣١].

﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾.

أي: وواعَدْناكم جانِبَ جَبَلِ الطُّورِ الأيمنَ(١) لإنزالِ التَّوراةِ؛ لتهتَدوا بها(٢).

(١) قال ابنُ جزي: (والطورُ هو الجبلُ، واختُلِف هل هذا الطورُ هو الذي رأى فيه موسى النارَ في أولِ نبوتِه، أو هو غيرُه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١).

وقال الرازي: (قال المفسِّرون: ليس للجبلِ يمينٌ ولا يسارٌ، بل المرادُ أنَّ طورَ سيناءَ عن يمينِ مَن انطلَق مِن مصرَ إلى الشامِ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٨٣).

وقال ابن عطية: (وقوله ﴿ٱلْأَيْمَنَ﴾ إمَّا أن يريدَ اليُمنَ، وإما أن يريدَ اليمينَ بالإضافةِ إلى ذي يمينِ إنسانٍ أو غيرِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦).

وقال ابنُ عاشور: (وجانِبُ الطورِ: سَفحُه. ووصفُه بالأيمنِ باعتِبارِ جِهةِ الشَّخصِ المُستَقبِلِ مَشرِقَ الشَّمسِ، وإلَّا فليس للجَبَلِ يمينٌ وشِمالٌ مُعَيَّنانِ، وإنما تُعرَفُ بمعرفةِ أصلِ الجِهاتِ، وهو مَطلِعُ الشَّمسِ، فهو الجانِبُ القِبليُّ باصطلاحِنا. وجَعَل محَلَّ المواعَدةِ الجانِبَ القِبليَّ وليس هو من الجانِبِ الغربيِّ الذي في سورة «القَصَص»: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ وقال فيها: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤] فهو جانبٌ غربيٌّ، أي: من جهةِ مَغربِ الشَّمسِ مِن الجبَلِ، وهو الذي آنس موسى منه نارًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٣-٢٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٤).

قيل: كانت المواعدةُ لموسى. وممَّن قال بذلك: الواحدي، والسعدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾.

أي: ونزَّلْنا عليكم[1] -يا بني إسرائيلَ- رِزقًا طيِّبًا سَهلًا، تحصُلونَ عليه بلا كُلفةٍ، ولا مَشقَّةٍ[2].

= وقال القرطبي: (تقديرُ الآيةِ: وواعَدْناكم إتيانَ جانبِ الطورِ، ثم حذفَ المضافَ. قال النحاسُ: أي: أمرْنا موسى أن يأمرَكم بالخروجِ معه ليكلمَه بحضرتِكم فتسمعوا الكلامَ. وقيل: وعد موسى بعدَ إغراقِ فِرعَونَ أن يأتيَ جانبَ الطورِ الأيمنَ فيؤتيه التوراةَ، فالوعدُ كان لموسى، ولكن خُوطِبوا به؛ لأنَّ الوعدَ كان لأجلِهم). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٠).

وممن قال بأنَّ المواعدةَ كانت لبني إسرائيلَ جميعًا: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣١٩).

وقيل: المواعدةُ كانت لموسى ومَن اختارهم لميقاتِ رَبِّه. وممَّن ذهب إلى ذلك: الزمخشري، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٤-٢٧٥).

(١) قيل: نزولُ المنِّ والسلوى المذكورُ هنا كان في التِّيهِ. وممَّن قال بذلك: الواحدي، والقرطبي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠).

قال الواحدي: (﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ يعني في التِّيهِ، وهذا مخاطبتُه لمن كان في عصرِ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم من اليهودِ). ((الوسيط)) (٣/ ٢١٦).

وقال أبو حيان: (الظاهِرُ أنَّ الخِطابَ لِمن نجا معَ موسى بعدَ إغراقِ فِرعَونَ. وقيل: لمعاصري الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم اعتراضًا في أثناءِ قِصَّةِ موسى؛ توبيخًا لهم إذ لم يصبِرْ سَلَفُهم على أداءِ شُكرِ نِعَمِ الله، فهو على حذفِ مُضافٍ، أي: أنجينا آباءَكم مِن تعذيبِ آلِ فِرعَون). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٣-٣٦٤).

وقيل: نزولُ المنِّ والسلوَى كان في المواعدةِ لإنزالِ التوراةِ. وممن قال بذلك: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠).

قال الشِّنقيطي: (أكثَرُ العُلَماءِ على أنَّ المَنَّ: التُّرَنْجَبينُ، وهو شيءٌ ينزِلُ من السَّماءِ كنُزولِ =

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ٨١﴾.

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾.

أي: وقُلْنا لبني إسرائيلَ: كُلُوا من الطَّعامِ الحَلالِ اللَّذيذِ الذي رزَقْناكم[(١)].

﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ قراءتانِ:

١- ﴿فَيَحُلَّ﴾ ﴿يَحْلُلْ﴾ بضمِّ الحاءِ فيهما، مِن حَلَّ يَحُلُّ، أي: نَزَل[(٢)].

٢- ﴿فَيَحِلَّ﴾ ﴿يَحۡلِلۡ﴾ بكسر الحاء فيهما، مِنْ حَلَّ عليه كذا يَحِلُّ، أي:

= الندى ثم يتجَمَّدُ، وهو يشبهُ العَسَل الأبيض. والسَّلوى: طائر يُشبِهُ السُّمَانى. وقيل: هو السُّمانى. وهذا قولُ الجمهورِ في المنِّ والسَّلوى... والأظهَرُ عندي في المَنِّ: أنَّه اسمٌ جامِعٌ لِما يمُنُّ الله به على عبدِه مِن غيرِ كَدٍّ ولا تعَبٍ، فيدخُلُ فيه التُّرَنْجَبينُ الذي منَّ الله به على بني إسرائيلَ في التِّيهِ، ويَشملُ غيرَ ذلك مما يماثِلُه، ويدُلُّ على هذا قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم الثابِتُ في الصَّحيحينِ: «الكَمْأةُ مِن المَنِّ» والأظهَرُ عندي في السلوى: أنَّه طائرٌ سواءٌ قلنا: إنَّه السُّمانى، أو طائرٌ يُشبِهُه؛ لإطباقِ جمهورِ العُلَماءِ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ على ذلك). ((أضواء البيان)) (٤/ ٧٤، ٧٥).

ويُنظر ما تقدَّم مِن تفسيرِ المنِّ والسلوَى في سورةِ البقرةِ آية رقم (٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٥).

(٢) قرَأ بها الكسائيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢١). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٥٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٦٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٨٦).

وَجَب[1].

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾.

أي: ولا تتجاوَزوا الحدَّ فيما رَزَقْناكم -ومِن ذلك أن تَكفُروا هذه النِّعمةَ، وتَترُكوا شُكري، وتسْتَعينوا برِزْقي على معصيتي، وتمْنَعوا الحقوقَ الواجبةَ عليكم- فيَجِبَ عليكم حينئذٍ غَضَبي، وتلزَمَكم عُقوبتي[2].

﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾.

أي: ومن يجِبْ عليه غضبي فقد هلك وشَقِيَ[3].

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حَذَّرَ الله تعالى من الطُّغيانِ فيما رَزَق، وحَذَّر مِن حُلولِ غَضَبِه؛ فتَحَ بابَ

(١) قرَأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢١). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٥٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٦٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٥).

قال الرازي: (في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ﴾ وجوه:

أحدُها: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تطغَوا، أي: لا يظلِمْ بعضُكم بعضًا فيأخُذَه من صاحبه.

وثانيها: قال مقاتل والضحاك: لا تظلموا فيه أنفُسَكم بأن تتجاوزوا حدَّ الإباحة.

وثالثها: قال الكلبي: لا تكفُروا النِّعمةَ، أي: لا تستعينوا بنعمتي على مخالفتي، ولا تُعرِضوا عن الشُّكرِ، ولا تَعدِلوا عن الحلالِ إلى الحرامِ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٦).

الرَّجاءِ للتَّائبينَ، وهي قولُه[١]:

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾.

أي: وإنِّي لكثيرُ المغفرةِ لِمن رجَعَ عمَّا كان فيه من كُفرٍ أو شِركٍ، أو نفاقٍ أو مَعصيةٍ، وآمَنَ بكلِّ ما يجِبُ الإيمانُ به، وأخلَصَ لله في عبادتِه، وعَمِلَ الأعمالَ الصَّالِحةَ تَصديقًا لإيمانِه، ثمَّ[٢] لَزِمَ ذلك فثَبَت على التَّوبة، وأقام على الإيمانِ، واستمرَّ على القيامِ بالأعمالِ الصَّالحةِ حتى مماتِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

وعن سُفيانَ بنِ عَبدِ اللهِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رسولَ اللهِ، قلْ لي في الإسلامِ قولًا لا أسألُ عنه أحدًا بَعدَك، قال: قل: آمَنتُ باللهِ، فاستَقِمْ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٥).

(٢) قال ابنُ كثير: («ثمَّ» هاهنا لترتيبِ الخبرِ على الخبرِ، كقَولِه تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد: ١٧]). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٦-٧٧).

(٤) رواه مسلم (٣٨).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ فيه أنَّ من تاب من الكُفرِ والبِدعةِ والفُسوقِ، وآمن باللهِ ومَلائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليومِ الآخِرِ، وعَمِلَ صالِحًا من أعمالِ القَلبِ والبَدَنِ، وأقوالِ اللِّسانِ، وسلَك الصِّراطَ المستقيمَ، وتابَعَ الرَّسولَ الكريمَ، واقتدى بالدِّينِ القويم؛ فهذا يَغفِرُ اللهُ أوزارَه، ويعفو عما تقَدَّمَ مِن ذَنبِه وإصرارِه؛ لأنَّه أتى بالسَّبَبِ الأكبَرِ للمَغفرةِ والرَّحمةِ، بل الأسبابُ كلُّها منحصرةٌ في هذه الأشياءِ؛ فإنَّ التوبةَ تجبُّ ما قبلَها، والإيمانَ والإسلامَ يهدمُ ما قبلَه، والعملَ الصالحَ -الذي هو الحسناتُ- يُذهِبُ السيئاتِ، وسلوكُ طرقِ الهدايةِ بجميعِ أنواعِها؛ مِن تعلُّمِ عِلمٍ، وتدبُّرِ آيةٍ أو حديثٍ، حتى يتبينَ له معنى مِن المعاني يهتدي به، ودعوةٍ إلى دينِ الحقِّ، وردِّ بدعةٍ أو كفرٍ أو ضلالةٍ، وجهادٍ، وهجرةٍ، وغيرِ ذلك مِن جزئياتِ الهدايةِ، كلُّها مكفراتٌ للذنوبِ، محصِّلاتٌ لغايةِ المطلوبِ[1].

٢- مِن أعجبِ ما ظاهرُه الرجاءُ، وهو شديدُ التخويفِ، قولُه تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾؛ فإنه علَّق المغفرةَ على أربعةِ شروطٍ، يصعبُ تصحيحُها[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ مَن تاب وآمنَ وعَمِلَ صالِحًا، فلا بُدَّ أن يكونَ مُهتَدِيًا، فما معنى قَولِه: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ بعد ذِكرِ هذه الأشياءِ؟

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((مختصر منهاج القاصدين)) لأبي العباس ابن قدامة (ص: ٣٠٨).

الجوابُ مِن وجوهٍ؛ منها:

الوجهُ الأوَّل: أنَّ المرادَ منه الاستمرارُ على تلك الطَّريقةِ؛ إذ المهتدي في الحالِ لا يكفيه ذلك في الفَوزِ بالنَّجاةِ حتى يستَمِرَّ عليه في المُستقبَلِ، ويموتَ عليه. ويؤكِّدُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠].

الوجهُ الثاني: أنَّ المرادَ مِن قَولِه: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: عَلِمَ أنَّ ذلك بهدايةِ اللهِ وتوفيقِه، وبَقِيَ مُستعينًا باللهِ في إدامةِ ذلك مِن غَيرِ تَقصيرٍ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾

- رُتِّبَ ذِكْرُ هذه النِّعمِ تَرتيبًا حَسنًا، حيث قُدِّمَت عليها النِّعمةُ العظيمةُ، وهي خَلاصُهم مِن استعبادِ الكَفرةِ؛ فبدَأَ بإزالةِ ما كانوا فيه مِن الضَّررِ مِن الإذلالِ والخراجِ والذَّبحِ، وهي آكَدُ أنْ تكونَ مُقدَّمةً على المَنفعةِ الدُّنيويَّةِ؛ لأنَّ إزالةَ الضَّررِ أعظَمُ في النِّعمةِ من إيصالِ تلك المنفعةِ، ثمَّ أعقَبَ ذلك بذِكْرِ المنفعةِ الدِّينيَّةِ، وهي قولُه: ﴿وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾؛ إذ أنزَلَ على نَبيِّهم مُوسى كِتابًا فيه بَيانُ دِينِهم وشَرْحُ شَريعتِهم، ثمَّ ذكَرَ المنفعةَ الدُّنيويَّةَ، وهي قولُه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾[2].

- قولُه: ﴿وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ عَدَّى المُواعدةَ إليهم؛ لأنَّها لَابَسَتْهم واتَّصلَتْ بهم، حيث كانت لنَبيِّهم ونُقبائِهم، وإليهم رجعَتْ منافِعُها الَّتي قام

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٣).

بها دِينُهم وشرْعُهم، وفيما أفاض عليهم من سائِرِ نِعَمِه وأرزاقِه، وإيفاءً لمقامِ الامتنانِ حَقَّه[١].

٢- قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾

- قولُه: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ لبَيانِ إباحةِ ما ذُكِرَ لهم، وإتْمامًا للنِّعمةِ عليهم[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾

- جُملةُ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ﴾ إلى آخرِها، استطرادٌ بعْدَ التَّحذيرِ مِن الطُّغيانِ في النِّعمةِ، بالإرشادِ إلى ما يُتدارَكُ به الطُّغيانُ إنْ وقَعَ بالتَّوبةِ، والعمَلِ الصَّالحِ[٣].

- وقولُه: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ (ثمَّ) للتَّراخي في الرُّتبةِ، واستُعمِلَتْ للدَّلالةِ على التَّبايُنِ بين الشَّيئينِ في المنزلةِ، كما كانت للتَّبايُنِ بين الوقْتينِ في الحُدوثِ؛ فمَنزِلَةُ الاستِقامةِ على الخيرِ مُبايِنَةٌ لمَنزِلَةِ الخيرِ نفْسِه؛ لأنَّها أعلَى منها وأفضَلُ؛ فلَمَّا كانتْ رُتبةُ الاستمرارِ على الاستقامةِ في غايةِ العُلوِّ، عبَّر عنها بأداةِ التراخِي فقال: ﴿ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٤- ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٦).

الآيات (٨٢-٨٩)

﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾: أي: بالقربِ مني، وموالُونَ لي في الوُصولِ، ويأتونَ خَلْفي، والأثَرُ: ما يترُكه الماشي على الأرضِ مِن عَلاماتِ قَدَمٍ أو حافِرٍ أو خُفٍّ، وأصلُ (أثر): يدلُّ على رَسمِ الشَّيءِ الباقي[1].

﴿وَعَجِلۡتُ﴾: العَجَلةُ: طَلَبُ الشَّيءِ، وتحرِّيه قبل أوانِه، وهي خلافُ البُطءِ. وأصلُه: يدلُّ على إسراعٍ[2].

﴿بِمَلۡكِنَا﴾: أي: بِطاقَتِنا، واختيارِنا، وقُدرتِنا، وأصلُ (ملك): يدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٤، ٥٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

﴿أَوْزَارًا﴾: أي: أثقالًا وأحمالًا، والوِزْرُ: الثِّقلُ، ويُعبَّرُ به أيضًا عن الإثمِ، وأصلُ (وزر) هنا: الثقلُ في الشيءِ[١].

﴿زِينَةِ الْقَوْمِ﴾: أي: حُلِيِّ آلِ فِرعَونَ، وأصلُ (زين): يدُلُّ على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه[٢].

﴿خُوَارٌ﴾: الخُوارُ: صَوتُ البَقَرِ، وأصلُ (خور): يدُلُّ على صَوْتٍ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن فتنةِ قومِ موسَى عليه السلامُ، وإضلالِ السامريِّ لهم، بعدَ أنْ ذهَب موسَى عليه السلامُ لمناجاةِ ربِّه، فيقول تعالى: وأيُّ شَيءٍ أعجَلَك عن قَومِك -يا موسى- فسبقتَهم إلى الطُّورِ؟ قال: إنَّهم خلفي سوف يَلحَقونَ بي، وسبقتُهم إليك -يا ربِّي- مُسارعةً في رِضاك! قال الله لموسى: فإنَّا قد ابتَلَينا قَومَك بعدَ فِراقِك لهم بعبادةِ العِجلِ، وأَضَلَّهم السَّامريُّ، الذي أخرجَ لهم العِجلَ، ودعاهم إلى عبادتِه فأطاعوه.

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن رجوعِ موسَى عليه السلام إلى قومِه، وما قاله لهم، فيقول تعالى: فرجَعَ موسى إلى قَومِه غَضبانَ عليهم حزينًا، وقال لهم: يا قومِ،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٢، ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٧٥).

ألم يَعِدْكم ربُّكم وعدًا حَسَنًا، كإنزالِ التَّوراةِ، والنَّصرِ على أعدائِكم، وغيرِ ذلك؟! أفطال عليكم العَهدُ واستبطأتُم الوَعدَ؟! بل أردتُم بفِعلِكم هذا أن يَحِلَّ عليكم غَضَبٌ مِن رَبِّكم، فعَبدتُم العِجلَ، وتركتُم الالتزامَ بأوامري!

ثمَّ يحكي الله سبحانَه عمَّا اعتذروا به مِن اعتذاراتٍ واهيةٍ، وتبريراتٍ سخيفةٍ، فيقول تعالى: قالوا: يا موسى، ما أخلَفْنا مَوعِدَك باختيارِنا، ولكنَّا حُمِّلْنا أثقالًا مِن حُلِيِّ قَومِ فِرعَونَ، فألقَيناها في النَّارِ، فكذلك ألقى السَّامريُّ ما كان في يَدِه، فأخرَجَ السَّامريُّ لبني إسرائيلَ مِن الحُلِيِّ عِجلًا جَسَدًا يخورُ خُوارَ البَقَرِ، فقال السَّامِريُّ والمفتونونَ به منهم: هذا هو إلهُكم وإلهُ موسى، نَسِيَه موسى وغَفَل عنه هنا. أفلا يرى الذين عَبَدوا العِجلَ أنَّه لا يُكَلِّمُهم، ولا يرُدُّ عليهم جَوابًا، ولا يَقدِرُ على دَفعِ ضَرٍّ عنهم، أو جَلبِ نَفعٍ لهم؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣﴾.

أي: وأيُّ شَيءٍ حَمَلَك -يا موسى- على أن تَسبِقَ قَومَك إلى الطُّورِ، ولم تَصبِرْ حتى تَقْدَمَ معهم[1]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١).

قال ابن عاشور: (الذي يُؤخَذُ مِن كَلامِ المفَسِّرينَ وتُشيرُ إليه الآيةُ: أنَّ موسى تعجَّلَ مُفارقةَ قَومِه ليحضُرَ إلى المناجاةِ قبلَ الإبَّانِ الذي عَيَّنَه الله له؛ اجتهادًا منه، ورغبةً في تلقِّي الشريعةِ حَسَبما وعده الله قبل أن يحيطَ بنو إسرائيلَ بجَبَلِ الطورِ، ولم يراعِ في ذلك إلا السَّبقَ إلى ما فيه خيرٌ لِنَفسِه ولقومِه، فلامه الله على أن غَفَلَ عن مراعاةِ ما يحفُّ بذلك من ابتعادِه عن قَومِه قبل أن يوصِيَهم الله بالمحافظةِ على العَهدِ، ويحَذِّرَهم مكرَ مَن يتوسَّمُ فيه مَكرًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٧).

﴿ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى ﴾.

أي: قال موسى: هم قادِمونَ مِن ورائي، وسيلحَقونَ بي[(١)].

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾.

أي: وسبقتُ قومي إلى الطورِ -يا ربِّ- مسارعةً في طَلَبِ رِضاك[(٢)].

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ ﴾.

أي: قال الله لموسى: فإنَّا قد ابتَلَينا قَومَك مِن بَعدِ فِراقِك لهم بعبادةِ العِجلِ[(٣)]!

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١).

وقال ابنُ عاشور: (قولُه هنا: ﴿هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ يدُلُّ على أنَّهم كانوا سائرينَ خَلفَه، وأنَّه سَبَقَهم إلى المناجاةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١).

قال ابن عطية: (أعلَمه الله تعالى أنَّه قد فتَن بني إسرائيلَ، أي: اختبرهم بما صنَعه السامريُّ. ويحتملُ أن يريدَ: ألقيناهم في فتنةٍ، أي: في ميلٍ مع الشهواتِ، ووقوعٍ في اختلافِ كلمةٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧).

وقال ابن عاشور: (إسنادُ الفَتنِ إلى الله تعالى باعتبارِ أنَّه مُقَدِّره وخالقُ أسبابِه البعيدةِ. وأما إسنادُه الحقيقي فهو الذي في قولِه: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾؛ لأنه السَّبَبُ المباشِرُ لضَلالِهم المسَبِّبِ لِفتنتِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٩).

أي: وأضلَّ قومَك السَّامريُّ[١] الذي أخرجَ لهم العِجلَ، ودعاهم إلى عبادتِه فأطاعوه[٢].

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦﴾.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾.

أي: فانصرفَ موسى من الطُّورِ إلى قَومِه بني إسرائيلَ في حالِ غَضَبٍ شَديدٍ منهم، وحُزنٍ على ما أحدَثوه مِن ضَلالٍ وكُفرٍ في غيابِه[٣].

---

(١) السامري هو الرجلُ الذي كان سببًا في ضلالِ بنى إسرائيلَ، قيل: كان مِن بني إسرائيلَ، وقيل: لم يكنْ منهم، وقد اختُلف في اسمِه، وفي سببِ تسميتِه بالسامريِّ، وذُكِرتْ في نشأتِه قصةٌ، قال القاسمي: (وقد قال بالظنِّ مَن ادَّعَى تسميتَه، أو حاوَل تعيينَه). يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ١٤٣)، (٤/ ٦١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٩-٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١).

وممَّن فسَّر الأسَفَ هنا بالحزنِ: ابنُ جريرٍ، والسمعاني، والبغوي، وابنُ عطيةَ، والخازنُ، والفيروزابادي، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢١٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ١٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨١).

ونسَب الرازي للأكثرينَ أن المعنى: حُزْنًا وجَزَعًا. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٨٧).

قال ابنُ عطية: (رجَع موسى إلى قومِه غَضبانَ أَسِفًا عليهم؛ مِن حيثُ له قُدرةٌ على تغييرِ مُنكَرِهم. أَسِفًا، أي: حَزينًا؛ مِن حيثُ عَلِمَ أنَّه موضِعُ عُقوبةٍ لا يَدَ له بدَفعِها، والأسَفُ في كلامِ العَرَبِ متى كان مِن ذي قُدرةٍ على مَن دُونَه، فهو غَضَبٌ، ومتى كان من الأقَلِّ على الأقوى فهو حُزنٌ، =

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًا﴾.

أي: قال موسى: يا قومِ، ألم يَعِدْكم رَبُّكم وَعدًا حَسَنًا بحُصولِ الخَيرِ لكم في الدُّنيا والآخرةِ، كإنزالِ التَّوراةِ، والنَّصرِ على أعدائِكم، وغيرِ ذلك مِن أياديه عِندَكم، ووَعَدَكم مَغفِرةَ ذُنوبِكم، ودُخولَ الجَنَّةِ إن أطعتُموه[1]؟

﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾.

أي: فهل طال عليكم انتِظارُ ما وعَدَكم اللهُ، ونَسِيتُم نِعَمَه عليكم؟! فإنَّ زَمَنَ ذلك لم يَبعُدْ حتَّى تيأسوا مِن الوفاءِ، وتكفُروا وتَعبُدوا غيرَه، وتكونَ لكم شُبهةُ

= وتأمَّلْ ذلك فهو مطَّرِدٌ إن شاء اللهُ عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، والسُّدِّي، وقتادةُ، ومجاهدٌ، والحسنُ، ومالكُ بنُ دينارٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٥/ ١٥٦٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ١٥٦).

وقيل: الأسَفُ هنا هو شِدَّةُ الغَضَبِ. وممَّن اختار ذلك: الرسعني، والقرطبي، وابنُ كثير، والعليمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٢/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٧٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: أبو الدرداءِ، فقال: الأسفُ منزلةٌ وراءَ الغضبِ أشدُّ مِن ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥٠).

قال الواحدي: (والقولانِ مُتقاربانِ؛ لأنَّ الغَضَبَ مِن الحُزنِ، والحُزنَ مِنَ الغَضَبِ؛ فإذا جاءك ما تكرهُ ممَّن هو دونَك غَضِبتَ، وإذا جاءك ممَّن هو فوقك حَزِنتَ، يُسمَّى أحدُهما: حُزنًا، والآخَرُ: غَضَبًا، وأصلُهما أن يُصيبَك ما تكرهُ). ((البسيط)) (٩/ ٣٦٦).

وقال الراغب: (الأَسَفُ: الحزن والغضب معًا، وقد يقال لكل واحدٍ منهما على الانفراد). ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٢).

عُذرٍ في الإعراضِ عن عبادةِ اللهِ[١].

﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾.

أي: بل[٢] أردتُم أن يجِبَ عليكم غضَبٌ مِنَ الله، فتَستَحِقُّوه؛ لِتَركِكم اتِّباعي إلى الطُّورِ، وعُكوفِكم على عبادةِ العِجلِ مِن بَعدِي[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٢، ٢٨٣).

وممَّن قال بالمعنى المذكور هنا لطولِ العهد في الجملةِ: ابنُ كثير، والألوسي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٢).

وقيل: المراد: أَفَطَالَت عليكم مدة مفارقتي إياكم؟ وممَّن قال بذلك: الواحدي، والزمخشري، وابن الجوزي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧١).

قال السعدي: (أي: المدة، فتطاولتُم غَيبتي وهي مدةٌ قصيرة؟ هذا قولُ كثيرٍ مِن المفسِّرينَ، ويحتملُ أن معناه: أفطال عليكم عَهدُ النُّبوَّة والرسالة، فلم يكن لكم بالنُّبوَّة عِلمٌ ولا أثَرٌ، واندرست آثارُها، فلم تَقِفوا منها على خبرٍ، فانمحت آثارُها لبُعدِ العَهدِ بها، فعبدتُم غيرَ الله؛ لغلبة الجَهلِ، وعَدَمِ العلم بآثار الرسالة؟ أي: ليس الأمرُ كذلك، بل النبوةُ بين أظهُرِكم، والعِلمُ قائمٌ، والعُذرُ غيرُ مَقبولٍ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١).

(٢) ممن قال بأن «أم» هاهنا بمعنى «بل»، وهي للإضرابِ عن الكلامِ الأوَّلِ، وعدولٌ إلى الثاني: ابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١).

وقال الشنقيطي: (قوله: ﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ قال بعضُ العلماءِ: «أم» هنا هي المنقطعةُ، والمعنى: بل أردتُم أن يحلَّ عليكم غضبٌ مِن ربِّكم، ومعنى إرادتهم حلولَ الغضبِ: أنهم فعلوا ما يستوجبُ غضبَ ربِّهم بإرادتِهم. فكأنهم أرادوا الغضبَ لمَّا أرادوا سببَه، وهو الكفرُ بعبادةِ العجلِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨١).

﴿ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧ ﴾.

﴿ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا ﴾.

أي: قال بنو إسرائيلَ لِموسى: ما أخلَفْنا ما عَهِدتَ إلينا بإرادتِنا واختيارِنا، ولم نكنْ نَملِكُ أمْرَنا(١).

﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا ﴾.

أي: ولكِنَّا حُمِّلْنا(٢) ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٢-١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٤).
قال ابنُ جرير: (اختَلَفَ أيضًا أهلُ التأويلِ في تأويلِه، فقال بعضُهم: معناه: ما أخلَفْنا مَوعِدَك بأمْرِنا... وقال آخرون: معناه: بطاقتِنا... وقال آخرون: معناه: ما أخلَفْنا مَوعِدَك بهَوانا، ولكِنَّا لم نملِكْ أنفُسَنا... وكل هذه الأقوال الثلاثةِ في ذلك متقاربات المعنى؛ لأنَّ مَن لم يَملِكْ نَفسَه لِغَلَبةِ هواه على ما أُمِرَ، فإنَّه لا يمتَنِعُ في اللغةِ أن يقولَ: فعَلَ فلانٌ هذا الأمرَ وهو لا يملِكُ نَفسَه وفِعلَه، وهو لا يضبِطُها وفِعلَه، وهو لا يطيقُ تَرْكَه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٣-١٣٥).
وقال الشنقيطي: (المعنى: ما أخلفنا موعدَك بأن ملكنا أمرَنا، فلو ملكنا أمرَنا ما أخلفنا موعدَك. وهو اعتذارٌ منهم بأنهم ما أخلفوا الموعدَ باختيارِهم، ولكنهم مغلوبون على أمرِهم مِن جهةِ السامريِّ وكيدِه! وهو اعتذارٌ باردٌ ساقطٌ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٨١).

(٢) قال الأزهري: (قرأ أبو عمرو وأبو بكرٍ عن عاصمٍ وحمزةَ والكسائي: ﴿حَمَلْنَا﴾ مفتوحةَ الحاءِ والميمَ خفيفةً. وقرأ الباقون: ﴿حُمِّلۡنَآ﴾ بضمِّ الحاءِ وتشديدِ الميمِ... قال أبو منصورٍ: هما -كما قال أبو عمرو- سواء في مرجعِ المعنى إليه). ((معاني القراءات)) (٢/ ١٥٧، ١٥٨).
وذكَر ابنُ جريرٍ أنَّه على قراءةِ: ﴿حُمِّلۡنَآ﴾ بضمِّ الحاءِ وتشديدِ الميمِ، فالمعنى أنَّ موسى يحمِّلُهم ذلك. وعلى قراءةِ ﴿حَمَلْنَا﴾ بتخفيفِ الحاءِ والميمِ وفتحِهما، بمعنى أنهم حملوا ذلك مِن غيرِ أن يكلفَهم حملَه أحدٌ، ثم قال: (والقولُ عندي في تأويل ذلك أنَّهما قراءتان مشهورتانِ متقاربتا المعنَى؛ لأنَّ القومَ حملوا، وأنَّ موسَى قد أمرهم بحملِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٧-١٣٨).

مِن حُلِيِّ آلِ فِرعَون، فألقَيناها في النَّارِ(١).

﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾.

أي: فكما قَذَفْنا نحن تلك الأثقالَ مِن الحُلِيِّ، ألقَى السَّامِريُّ أيضًا ما كان في يَدِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨٣).
قال ابن جُزَي: (وزينةُ القَومِ هي: حُلِيُّ القِبطِ قَومِ فِرعَونَ، كان بنو إسرائيلَ قد استعاروه منهم قبلَ هلاكِهم. وقيل: أخذوه بعد هلاكِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢).
وقال القرطبي: (وسُمِّيَت أوزارًا بسَبَبِ أنَّها كانت آثامًا، أي: لم يحِلَّ لهم أخذُها ولم تحِلَّ لهم الغنائِمُ، وأيضًا فالأوزارُ هي الأثقالُ في اللغةِ. ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾ أي: ثَقُل علينا حَملُ ما كان معنا من الحُليِّ فقَذَفناه في النَّارِ لِيَذوبَ، أي: طرَحْناه فيها. وقيل: طرَحْناه إلى السامريِّ لترجِعَ فترى فيها رأيَك). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٥).
وقال ابنُ كثير: (﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾ أي: ألقَيناها عنَّا... وحاصِلُ ما اعتذر به هؤلاء الجَهَلةُ أنَّهم تورَّعوا عن زينةِ القِبطِ فألقَوها عنهم، وعَبَدوا العِجلَ! فتوَرَّعوا عن الحقيرِ وفعلوا الأمرَ الكبيرَ!). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٠-٣١١).
وقال الشنقيطي: (أظهَرُ الأقوالِ عندي في ذلك: هو أنَّهم جعلوا جميعَ الحُلِيِّ في النارِ ليذوبَ فيصيرَ قطعةً واحدة؛ لأنَّ ذلك أسهَلُ لحِفظِه حتى يرى نبيُّ الله موسى فيه رأيَه، والسَّامريُّ يريدُ تدبيرَ خطَّةٍ لم يطَّلِعوا عليها). ((أضواء البيان)) (٤/ ٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٦).
قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنَّه ألقَى حُلِيًّا كما ألقَوا. والثاني: ألقَى ما كان مِن ترابِ حافِرِ فَرَسِ جبريلَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧٢).
ويُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٧٩).
وممن قال بالقولِ الأوَّلِ: الزجَّاج، والواحدي، والخازنُ، والعليمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٣٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٥). =

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾.

أي: فأخرَجَ السَّامِريُّ لبني إسرائيلَ مِن الحُلِيِّ التي قَذَفوها في النَّارِ عِجلًا جسدًا، له صوتُ البَقَرِ(١).

= وممن قال بالقولِ الثاني: ابنُ جريرٍ، والزمخشري، والرسعني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١).

قال ابنُ جُزَي: (كان السَّامِريُّ قد رأى جبريلَ عليه السَّلامُ، فأخذ مِن وَطءِ فَرَسِه قَبضةً مِن تُرابٍ، وألقى اللهُ في نَفسِه أنَّه إذا جعَلَها على شَيءٍ مواتٍ صار حيوانًا، فألقاها على العِجلِ فخار العِجلُ، أي: صاح صِياحَ العُجولِ، فالمعنى: أنَّهم قالوا: كما ألقَينا الحُلِيَّ في الحُفرةِ ألقى السَّامريُّ قَبضةَ التُّرابِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ١٥٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٢١٨، ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٦).

وممن اختار أنَّ العجلَ لم تكُنْ له روحٌ: ابنُ الأنباري -كما حكاه عنه ابنُ الجوزي- واختاره أيضًا: السجستاني، والزجاج، وابنُ الجوزي، وابنُ عطية، وابنُ تيمية، وابنُ عاشور. يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ١٥٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٢١٨، ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٦).

قال ابنُ الجوزي: (قال ابنُ الأنباري: ذِكرُ الجسَدِ دَلالةٌ على عدَمِ الرُّوحِ منه، وأنَّ شَخصَه شَخصُ مِثالٍ وصورةٍ، غيرُ مُنضَمٍّ إليهما روحٌ ولا نَفْسٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ١٥٥).

وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، فقد قال: (فلمَّا ألقاها فيه خار كما يخورُ العجلُ الحقيقيُّ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ١٤٧).

وقال ابنُ تيمية: (ليس المرادُ مِن العجلِ أن له بدنًا مثل بدَنِ الآدميين، ولا بدنًا كأبدانِ البَقرِ؛ فإنَّ العجلَ لم يكنْ كذلك... والمقصودُ: أنَّ ما أخرجَه كان جسَدًا مُصمَتًا لا رُوحَ فيه حتى تَبَيَّن نَقصُه، وأنَّه كان مَسلوبَ الحياةِ والحَركةِ). ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ٢١٨، ٢١٩).

وقال ابن عاشور: (والجَسَدُ: الجسمُ ذو الأعضاءِ، سواءٌ كان حيًّا أم لا؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ [ص: ٣٤]. قيل: هو شِقُّ طِفلٍ ولدَتْه إحدى نسائِه، كما ورد في الحديثِ. قال =

كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

﴿فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾.

أي: فقالوا[١]: هذا العِجلُ هو معبودُكم ومعبودُ موسى الذي غَفَل عنه موسى

= الزجاجُ: الجسدُ هو الذي لا يعقلُ ولا يميزُ، إنما هو الجثةُ، أي: أخرج لهم صورةَ عجلٍ مجسدةً بشكلِه وقوائمِه وجوانبِه، وليس مجردَ صورةٍ منقوشةٍ على طبقٍ مِن فضةٍ أو ذهبٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٦).

قال ابن الجوزي: (وكان مجاهدٌ يقولُ: خوارُه حفيفُ الريحِ فيه. وهذا يدلُّ على أنَّه لم يكنْ فيه روحٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ١٥٥).

وذهب الواحدي والشنقيطي إلى أنَّ العجلَ صار جسدًا ذا لحم ودمٍ، وعزاه الواحدي إلى أكثرِ أهلِ التفسيرِ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٧٩).

قال السمعاني: (واخْتلفُوا في الخوارِ: فالأكثرونَ أنَّه صَوتُ عجلٍ حَيٍّ، وهو قولُ ابنِ عَبَّاسٍ، والحسنِ، وقتادةَ، وجماعةٍ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٤٩).

وقال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: جعَلَ الله بقدرتِه ذلك الحليَّ المصوغَ جَسدًا مِن لحمٍ ودمٍ، وهذا هو ظاهِرُ قَولِه ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾. وقال بعضُ العلماءِ: لم تكنْ تلك الصورةُ لحمًا ولا دمًا، ولكن إذا دخلَتْ فيها الرِّيحُ صَوَّتَت كخُوار العِجلِ. والأوَّلُ أقرب لظاهِرِ الآية، والله تعالى قادرٌ على أن يجعَلَ الجَمادَ لَحمًا ودَمًا، كما جعل آدَمَ لحمًا ودمًا، وكان طينًا). ((أضواء البيان)) (٤/ ٧٩).

(١) قيل: الضميرُ في (قالوا) يعودُ إلى السامري ومَن تابَعه ووافَقه ممن افتتَن بالعجلِ. وممن اختاره الواحدي، والرسعني، والقرطبي، والخازنُ، والعليمي، والشوكاني، يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢١٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٩).

وقيل: الضميرُ يعودُ إلى قومِ موسى الذين عبدوا العجلَ، وافتتنوا به. وممن اختاره: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١١).

هاهنا، وذهبَ إلى الجبلِ ليطلُبَه[(١)]!

قالَ اللَّهُ تعالَى رَدًّا عليهم، وتقريعًا لهم، وبيانًا لفضيحَتِهم، وسَخافةِ عقولِهم فيما ذَهَبوا إليه[(٢)]:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾.

أي: أفلا يرى الذين عبدوا العِجلَ أنَّه لا يكَلِّمُهم، ولا يرُدُّ عليهم إنْ كَلَّموه[(٣)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٠، ١٤٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٣)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٤٢).

وممن ذهَب إلى أنَّ الضميرَ في (نَسِيَ) يعودُ إلى موسى: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والرازي، والقرطبي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٤٢).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، ومجاهدٌ، والسُّدِّي، وابنُ زيدٍ، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤١).

وعزا الرازي القولَ بأنَّ معنَى الآيةِ: أنَّ هذا إلهُكم وإلهُ مُوسَى، فنَسِي مُوسى أنَّ هذا هو الإلهُ، فذَهَب يطلُبُه في موضعٍ آخَرَ- إلى الأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٠).

وقيل: المعنى: فنسِي موسى أن يخبرَكم أنَّ هذا إلهُه. وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧٢).

وقيل: الضميرُ يعودُ إلى السامري. واستظْهَر هذا القولَ أبو حيان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٣)، ((مدارج =

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

أي: وأنَّه لا يَقدِرُ على ضَرِّهم بشَيءٍ، ولا على نَفعِهم بشَيءٍ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ؟ فكيف يكونُ إلهًا مَن تلك صِفاتُه[(١)]؟!

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قولُه تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ يحتمِلُ أنَّ الله تعالى أراد بسُؤالِ موسى عليه السلامُ عن سبَبِ العجلةِ -وهو أعلَمُ-: أنْ يُعلِّمَ مُوسى أدَبَ السَّفرِ، وهو أنَّه يَنْبغي تأخيرُ رئيسِ القومِ عنهم في المَسيرِ؛ ليكونَ نظَرُه مُحيطًا بطائفتِه، ونافِذًا فيهم، ومُهيمِنًا عليهم. وهذا المعنى لا يحصُلُ في تقدُّمِه عليهم، ألَا تَرى اللهَ عَزَّ وجَلَّ كيف علَّمَ هذا الأدبَ لُوطًا، فقال: ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ [الحجر: ٦٥]، فأمَرَه أنْ يكونَ أخِيرَهم. على أنَّ مُوسى عليه السَّلامُ إنَّما أغفَلَ هذا الأمْرَ؛ مُبادَرةً إلى رِضَا اللهِ عَزَّ وجَلَّ، ومُسارَعةً إلى الميعادِ، وذلك شأْنُ الموعودِ بما يسُرُّه؛ يَوَدُّ لو رُكِّبَ إليه أجنحةُ الطَّيرِ، ولا أسَرَّ من مُواعدةِ اللهِ تعالى له صلَّى الله عليه وسلَّم[(٢)]. وممَّا أفادَهُ السُّؤالُ أيضًا: تَعريفُ المسؤولِ بما يَجهَلُه من أُمورٍ، وقد أراد سُبحانَه تَعريفَه بفِتْنةِ قومِه؛ ووُقوعِهم في عِبادةِ العِجْلِ[(٣)].

= السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٣)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((حاشية ابن المنير على الكشاف)) (١/ ١٥٥١).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) (٦/ ٢٣٠).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لَمَّا استدعى الله تعالى موسى عليه السَّلامُ لِمُناجاتِه وكلامِه؛ أسرَعَ إليه، فقال له ربُّه: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ فدَلَّ على أنَّ المسارعة إلى مناجاةِ اللهِ تُوجِبُ رِضاه، وهذا دليلٌ حَسَنٌ على فَضلِ الصَّلاةِ في أوَّلِ أوقاتِها[١]، وكذلك المبادرةُ إلى أعمالِ البرِّ.

٢- قَولُ موسى عليه السلام فيما يحكيه الله عنه: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾، فيه سؤالٌ: أنه قال: ﴿وَعَجِلۡتُ﴾ والعجلةُ مذمومةٌ؟

والجواب: أنَّها ممدوحةٌ إذا كانت في الدينِ؛ قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾[٢] [آل عمران: ١٣٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾، فيه سؤال: كيف كان رجوعُ قومِ موسى وهم مِن العقلاءِ المكلَّفين عن الدينِ الحقِّ دفعةً واحدةً إلى عبادة عجلٍ يُعرفُ فسادُها بالضرورةِ؟

والجوابُ من أوجهٍ:

الوجه الأول: أنَّ هذا غيرُ ممتنعٍ في حقِّ البُلْهِ مِن الناس[٣].

الوجه الثاني: أنهم اغتروا بما موَّه لهم مِن أنَّه إلههم المنشودُ مِن كثرةِ ما سمعوا مِن رسولِهم أنَّ الله معهم أو أمامهم، ومما جاش في خواطِرِهم مِن الطمعِ في رؤيتِه تعالى[٤].

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٤).

الوجه الثالث: أنَّه لما رأوا ما صاغه السامريُّ في صورةِ معبودٍ كانوا قد عرفوه من قبلُ، ورأوه يزيدُ عليه بأنَّ له خوارًا، رسَخ في أوهامِهم الفاسدةِ أنَّ ذلك هو الإلهُ الحقيقيُّ؛ لأنَّهم رأوه مِن ذهبٍ أو فضةٍ، فتوهموا أنَّه أفضلُ مِن العجلِ الذي عرفوه مِن قبلُ(١).

الوجه الرابع: أنَّ الاستعبادَ الطويلَ، والذلَّ الطويل في ظلِّ الفِرعَونية الوثنيةِ، كان قد أفسد طبيعةَ القومِ، وأضعَف استعدادَهم لاحتمالِ التكاليفِ والصبرِ عليها، والوفاءِ بالعهدِ والثباتِ عليه، وترَك في كِيانِهم النفسيِّ خلخلةً واستعدادًا للانقيادِ والتقليدِ المريح، فما يكادُ موسى يتركُهم في رعايةِ هارونَ، ويبعدُ عنهم قليلًا، حتى تتخلخلَ عقيدتُهم كلُّها، وتنهارَ أمامَ أولِ اختبارٍ.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ جعَل امتناعَ صِفةِ الكَلامِ والتَّكليمِ، وعَدَمَ مِلكِ الضَّرِّ والنَّفعِ دَليلًا على عَدَمِ الإلهيَّةِ، وهذا دليلٌ عقليٌّ سَمعيٌّ على أنَّ الإلهَ لا بُدَّ أن يُكَلِّمَ ويتكَلَّمَ، ويَملِكَ لعابدِه الضَّرَّ والنَّفعَ، وإلَّا لم يكن إلهًا(٢)، فالإلهُ لا بدَّ أن يكونَ موصوفًا بهذه الصفاتِ(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ سُؤالٌ عن سببِ العَجلةِ، وأجاب بقولِه: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ تضمَّنَ تأخُّرَ قومِه عنه، فأجاب مُشيرًا إليهم -لقُربِهم منه- أنَّهم على أثَرِه، جائينَ للموعدِ، وذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٩١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٠).

على ما كان عهِدَ إليهم أنْ يَجِيئوا للموعدِ. ثمَّ ذكَرَ السَّببَ الَّذي حمَلَه على العجلةِ، وهو ما تضمَّنَه قولُه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾، من طلَبِه رِضا اللهِ تعالى في السَّبقِ إلى ما وعَدَهُ ربُّه[١].

- شَبَّه الجائِيَ المُوالِيَ بالَّذي يَمْشي على علاماتِ أقدامِ مَن مَشى قبْلَه قبْلَ أنْ يتغيَّرَ ذلك الأثَرُ بأقدامٍ أُخرى، ووجْهُ الشَّبهِ: هو مُوالاتُه، وأنَّه لم يَسْبِقْه غيرُه. والمعنى: هم أولاءِ سائرونَ على مواقعِ أقْدامي، أي: مُوالونَ لي في الوُصولِ[٢].

- وزِيادةُ ﴿رَبِّ﴾ في قولِه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾؛ لمَزيدِ الضَّراعةِ والابتهالِ؛ رغبةً في قَبولِ العُذْرِ[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ استئنافٌ مَبْنِيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ من حِكايةِ اعتذارِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهو السِّرُّ في وُرودِه على صِيغَةِ الغائبِ ﴿قَالَ﴾، لا أنَّه الْتِفاتٌ مِنَ التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ؛ لأنَّ المُقدَّرَ فيما سبَقَ من الموضعينِ على صِيغَةِ التَّكلُّمِ؛ كأنَّه قِيلَ من جِهَةِ السَّامعينَ: فماذا قال له ربُّه حينئذٍ؟ فقيل: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾[٤].

- والفاءُ في ﴿فَإِنَّا﴾ لترتيبِ الإخبارِ بما ذُكِرَ من الابتلاءِ على إخبارِ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعَجَلتِه؛ لِمَا بينهما من المُناسَبةِ المُصحِّحةِ للانتقالِ مِن أحدِهما إلى الآخرِ، من حيث إنَّ مَدارَ الابتلاءِ المذكورِ عجَلةُ القومِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٣- ٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٤).

- وقولُه: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ فيه ضَرْبٌ من المَلامِ على التَّعجُّلِ بأنَّه تسبَّبَ عليه حُدوثُ فِتْنةٍ في قومِه؛ لِيُعْلِمَه ألَّا يَتجاوزَ ما وُقِّتَ له، ولو كان لرَغبةٍ في الازديادِ مِن الخيرِ[1].

٣- قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾

- قولُه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ ...﴾ استئنافٌ مَبْنِيٌّ على سُؤالٍ ناشئٍ من حِكايةِ رُجوعِه كذلك؛ كأنَّه قِيلَ: فماذا فعَلَ بهم؟ فقيل: قال...[2].

- وافتتاحُ الخِطابِ بـ﴿يَٰقَوْمِ﴾ تَمهيدٌ للَّومِ؛ لأنَّ انجرارَ الأذى للرَّجلِ مِن قومِه أحَقُّ في تَوجيهِ المَلامِ عليهم، وذلك قولُه: ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾[3].

- قولُه: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ﴾ همزةُ الاستفهامِ لإنكارِ عدَمِ الوعدِ ونفْيِه، وتَقريرِ وُجودِه على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه، أي: وعَدَكم بحيثُ لا سَبيلَ لكم إلى إنكارِه[4]؛ فالاستفهامُ في ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ إنكاريٌّ؛ نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن زعَمَ أنَّ اللهَ لم يَعِدْهم وعْدًا حَسنًا؛ لأنَّهم أجْرَوا أعمالَهم على حالِ مَن يزعُمُ ذلك، فأنكَرَ عليهم زعْمَهم. ويجوزُ أنْ يكونَ الاستفهامُ تَقريريًّا، وشأْنُه أنْ يكونَ على فرْضِ النَّفيِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٢).

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ مُفرَّعٌ على قولِه: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾، وهو استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: أوعَدَكُم ذلك، فطال زمانُ الإنجازِ، فأخطأْتُم بسبَبِه[(١)]؟!

- قولُه: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ (أم) للإضرابِ الإبطاليِّ، والاستفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) إنكاريٌّ أيضًا؛ إذِ التَّقديرُ: بل أردْتُم أنْ يَحِلَّ عليكم غضَبٌ؛ فلا يكونُ كُفْرُكم إذنْ إلَّا إلقاءً بأنْفُسِكم في غضَبِ اللهِ، كحالِ مَن يُحِبُّ أنْ يَحِلَّ عليه غضَبٌ من اللهِ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾، أي: وَعْدَكم إيَّايَ بالثَّباتِ على ما أمرْتُكم به، إلى أنْ أرجِعَ مِن الميقاتِ، على إضافةِ المصدرِ إلى مَفعولِه؛ للقصْدِ إلى زِيادةِ تَقبيحِ حالِهم؛ فإنَّ إخلافَهم الوعدَ الجارِيَ فيما بينَهم وبينَه عليهِ السَّلامُ مِنْ حيثُ إضافتُه إليه عليه السَّلامُ: أشنَعُ منه مِن حيث إضافتُه إليهم. والفاءُ لتَرتيبِ ما بعْدَها على كلِّ واحدٍ من شِقَّيِ التَّرديدِ على سَبيلِ البدلِ؛ كأنَّه قيل: أنَسيتُمُ الوعْدَ بطُولِ العهْدِ، فأخلَفْتُموه خطَأً، أمْ أردتُمْ حُلولَ الغضبِ عليكم، فأخلَفْتُموه عَمْدًا[(٣)]؟!

٤- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾

- وقعَتْ جُملةُ ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ غيرَ مَعطوفةٍ؛ لأنَّها جرَتْ في المُحاوَرةِ جوابًا عن كلامِ مُوسى عليه السَّلامُ[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٣).

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ﴾، أي: وعْدَنا إيَّاكَ الثَّابِتَ على ما أمرْتَنا به، وإيثارُه على أنْ يُقالَ: (مَوعدَنا) على إضافةِ المصدرِ إلى فاعِلِه؛ للقصْدِ إلى زِيادةِ تَقبيحِ حالِهم[١].

- قولُه: ﴿وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ ...﴾ استدراكٌ عمَّا سبَقَ، واعتذارٌ عمَّا فَعَلوا ببيانِ منشَأِ الخطَأِ[٢]، والاستدراكُ راجِعٌ إلى ما أفادهُ نفْيُ أنْ يكونَ إخلافُهم العهْدَ عن قصْدٍ للضَّلالِ، والجُملةُ الواقعةُ بعْدَه وقعَتْ بإيجازٍ عن حُصولِ المقصودِ من التَّنصُّلِ من تَبِعَةِ نَكْثِ العهْدِ. ومَحلُّ الاستدراكِ هو قولُه: ﴿فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ﴾، وما قبْلَه تَمهيدٌ له؛ فعُطِفَتِ الجُمَلُ قبْلَه بحرْفِ الفاءِ، واعْتَذروا بأنَّهم غُلِبوا على رأْيِهم بتَضليلِ السَّامريِّ؛ فأُدْمِجَتْ في هذا الاعتذارِ الإشارةُ إلى قضيَّةِ صَوغِ العجْلِ الَّذي عَبَدوه[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ فيه تأخيرُ المفعولِ ﴿عِجْلًا﴾ -مع كونِه مَفعولًا صَريحًا- عن الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُمْ﴾؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، مع ما فيه من نَوعِ طُولٍ يُخِلُّ تَقديمُه بتجاوُبِ أطرافِ النَّظمِ الكريمِ[٤].

- على القولِ بأنَّ الذي نَسِيَ هو السامريُّ فتَفريعُ ﴿فَنَسِىَ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٦).

تَفريعًا على ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ﴾ تَفريعَ عِلَّةٍ على مَعلولٍ؛ فالضَّميرُ عائدٌ إلى السَّامريِّ، أي: قال السَّامريُّ ذلك؛ لأنَّه نَسِيَ ما كان تلقَّاهُ من هَدْيٍ. أو تَفريعَ مَعلولٍ على عِلَّةٍ، أي: قال ذلك، فكان قولُه سببًا في نِسيانِه ما كان عليه مِن هَدْيٍ؛ إذ طبَعَ اللهُ على قلْبِه بقولِه ذلك، فحرَمَه التَّوفيقَ من بعْدُ[1].

٦- قولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ فيه الإتيانُ بهَمزةِ الإنكارِ داخِلةً على الفاءِ العاطفةِ، وهما يَستدعيانِ العطفَ على مُقدَّرٍ يَقْتضيه المَقامُ، وهو فِعلٌ يَصلُحُ أنْ يكونَ مَعطوفًا عليه لِمَا بعدَ الفاءِ، والتقديرُ: أَحُرِموا العَقلَ الهادي؛ فلا يَتفكَّرونَ، ولا يَنظُرونَ بنَظرِ البَصيرةِ أنَّ هذا المُتَّخذَ مِن هذه الأجرامِ لا يَصلُحُ للإلهيةِ، أم عَمُوا وصَمُّوا فلا يَهتدون إلى أنَّ الإلهَ ينبغي أنْ يكونَ سامعًا لدعاءِ عابدِه، عالِمًا بأفعالِه، دافعًا عنه المضارَّ، مُثيبًا ومعاقبًا؟! وهو إنكارٌ وتَقبيحٌ من جِهَتِه تعالى لحالِ الضَّالِّينَ والمُضلِّينَ جميعًا، وتَسفيهٌ لهم فيما أقْدَموا عليه مِن المُنكَرِ الَّذي لا يَشْتَبِهُ بُطلانُه واستحالتُه على أحدٍ، وهو اتِّخاذُه إلهًا[2].

- وقيل: الرؤيةُ هنا في قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا...﴾ بصريَّةٌ مُكنى بها، أو مُستعمَلةٌ في مُطلَقِ الإدراكِ، فآلتْ إلى معنى الاعتقادِ والعِلمِ، ولا سيَّما بالنِّسبةِ لجُملةِ ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾؛ فإنَّ ذلك لا يُرى بالبصرِ، بخلافِ ﴿أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾. والاستفهامُ في قولِه أيضًا: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ﴾ إنكاريٌّ؛ نُزِّلُوا مَنزِلةَ مَن لا يرى العِجْلَ؛ لعدَمِ جَريِهم على مُوجِبِ البَصرِ؛ فأَنكَر عليهم عدَمَ رُؤيتِهم ذلك معَ ظُهورِه، أي: كيف يدَّعونَ الإلهيَّةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٦).

للعِجْلِ، وهم يَرونَ أنَّه لا يَتكلَّمُ، ولا يَستطيعُ نفْعًا ولا ضَرًّا[١]؟!

- قولُه: ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ قَدَّمَ الضَّرَّ على النَّفعِ؛ قطْعًا لعُذْرِهم في اعتقادِ إلهيَّتِه؛ لأنَّ عُذْرَ الخائفِ من الضَّرِّ أقْوى من عُذْرِ الرَّاغبِ في النَّفعِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٨٩).

الآيات (٩٠-٩٤)

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَن نَّبْرَحَ﴾: أي: لن نَزالَ، وأصلُ (برح): يدلُّ على زوالٍ وبُروزٍ وانكشافٍ[1].

﴿عَٰكِفِينَ﴾: أي: مُقيمينَ، والعُكوفُ: الإقبالُ على الشَّيءِ، ومُلازمتُه على سَبيلِ التَّعظيمِ له، وأصلُ (عكف): يدُلُّ على حَبسٍ[2].

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾: أي: لم تُراعِ وتحفَظْ، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انتصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا موقفَ هارونَ عليه السلامُ، مِن هؤلاءِ الجاهلينَ الذين عبَدوا العجلَ: ولقد قال هارونُ لبني إسرائيلَ مِن قَبلِ رُجوعِ موسى إليهم: يا قَومِ، إنَّما اختُبِرتُم بهذا العِجلِ؛ ليظهَرَ المؤمِنُ منكم مِن الكافِرِ، وإنَّ رَبَّكم الرَّحمنُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢).

لا غَيرُه؛ فاتَّبِعوني فيما أدعوكم إليه مِن عبادةِ اللهِ، وأطيعوني فيما أمَرتُكم به.
قال عَبَدةُ العِجلِ: لن نزالَ مُقيمينَ على عبادةِ العِجلِ حتى يرجِعَ إلينا موسى.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى ما قاله موسَى لأخيه هارونَ، وما فعَله به، لَمَّا رجَع ورأى ما حدَث، فيقولُ تعالى: قال موسى لأخيه هارونَ: أيُّ شيءٍ مَنعَك مِن اتِّباعي حين رأيتَهم ضلُّوا عن طَريقِ الحَقِّ، أفعَصيتَ أمري؟ ثم أخَذَ موسى بلحيةِ هارونَ ورأسِه يجرُّه إليه، فقال له هارونُ مُستَعطِفًا: يا ابنَ أمِّي، لا تُمسِكْ بلِحيَتي ولا بشَعرِ رأسي، إنِّي خِفتُ إن تركْتُهم ولحِقْتُ بك أن تقولَ لي: فرَّقتَ بينَ بني إسرائيلَ، ولم تحفَظْ وصِيَّتي بحُسنِ رِعايتِهم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾.

أي: ولقد قال هارونُ لِعَبَدةِ العِجلِ مِن قَومِه، ناصحًا لهم مِن قَبلِ رُجوعِ موسى إليهم: يا قومِ، إنَّما اختبَرَكم اللهُ وابتلاكم بهذا العِجلِ؛ لِيَظهرَ مَن يَثبُتُ منكم على إيمانِه بالله، ومَن يُفتَنُ بالعِجلِ فيَكفُرُ[1].

﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴾.

أي: وإنَّ ربَّكم الرَّحمنُ الذي يَرحَمُكم، ويُنعِمُ عليكم بالنِّعَمِ الظاهرةِ والباطنةِ، لا العِجلُ الذي تَعبُدونَه؛ فاتَّبِعوني على ما آمُرُكم به مِن عِبادةِ الله، وتَرْكِ عبادةِ العِجلِ، وأطيعوني فيما أمَرتُكم به مِن طاعةِ الله، وإخلاصِ العبادةِ له، ولا تُطيعوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨٧).

السَّامِريَّ[١].

﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ٩١﴾.

أي: قال عَبَدةُ العِجلِ: سنظَلُّ مُقيمينَ على عبادةِ العِجلِ، حتى يأتيَ إلينا موسى من الطُّورِ، فنسمَعَ كلامَه في شأنِ العِجلِ، أو ننظُرَ صنيعَه فيه[٢].

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ٩٣﴾.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾.

أي: قال موسى لأخيه لائمًا له لَمَّا رجَعَ إلى قَومِه، فرأى ما حَدَث فيهم مِن الخَطبِ العَظيمِ: يا هارونُ، أيُّ شَيءٍ مَنَعَك حين رأيتَ بني إسرائيلَ قد أخطؤوا طريقَ الحَقِّ بعبادتِهم العِجلَ وكَفَروا باللهِ: أن تلحَقَ بي[٣]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٦، ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).
قال ابنُ عطية: (وقولُه تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ بمعنى: ما منَعك أن تتَّبِعَني). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٠)، ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٨٩، ٩٠).
وممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾: أي: أنْ تتَّبعني وتلحقَ بي: ابنُ جريرٍ، والواحدي، وابنُ كثيرٍ. يُنظر المصادر السابقة.
قال ابنُ كثيرٍ: (﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي: فتُخبرني بهذا الأمرِ أولَ ما وقَع). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢). ويُنظر أيضًا: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).
وقال الألوسي: (كان موسى عليه السَّلامُ رأى أنَّ مُفارقةَ هارونَ لهم، وخُروجَه من بينِهم بعد تلك النَّصائحِ القَوليَّةِ: أزجَرُ لهم مِنَ الاقتصارِ على النَّصائحِ؛ لِما أنَّ ذلك أدَلُّ على الغضَبِ، وأشَدُّ في الإنكارِ، لا سيَّما وقد كان عليه السَّلامُ رئيسًا عليهم محبوبًا لديهم، وموسى يعلَمُ =

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾.

أي: هل عَصَيتَ -يا هارونُ- أمري لك بأن تَخلُفَني في قومي، وأن تُصلِحَ، ولا تتَّبِعَ سَبيلَ المُفسِدينَ[(١)]؟

كما قال الله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾.

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾.

أي: ثمَّ أخَذ موسى بلِحيةِ أخيه هارونَ ورأسِه يجُرُّه إليه، فقال هارونُ

= ذلك، ومُفارقةُ الرَّئيسِ المحبوبِ كراهةً لأمرٍ: تَشُقُّ جِدًّا على النُّفوسِ، وتستدعي تَرْكَ ذلك الأمرِ المكروهِ له الذي يوجِبُ مُفارقتَه، وهذا ظاهِرٌ لا غُبارَ عليه عند من أنصَفَ). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٦٠).

وقال ابنُ الجوزي في بيانِ أقوالِ المفسِّرينَ في قولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾: (وفي المعنى ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: تسيرُ ورائي بمن معك من المؤمِنينَ وتفارِقُهم. رواه سعيدُ بنُ جُبير عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثاني: أن تُناجِزَهم القِتالَ. رواه أبو صالحٍ عن ابن عبَّاسٍ.

والثالث: في الإنكارِ عليهم. قاله مقاتِلٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩١)..

وقيل: المرادُ: أنَّ مقامَك بينهم وقد عبدوا غيرَ الله تعالى عصيانٌ منك لي. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٧).

مُستَعطِفًا أخاه: يا ابنَ أمَّ، لا تأخُذْ بلِحيتي، ولا بشَعرِ رأسي[١].

﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

أي: إنِّي خَشِيتُ أن تقولَ لي إن لحقتُ بك: فَرَّقْتَ بينَ جماعةِ بني إسرائيلَ[٢].

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.

أي: وخَشِيتُ أن تقولَ: ولم تحفَظْ وصِيَّتي وتعمَلْ بها، ولم تراعِ ما أمَرْتُك به حين استخلَفْتُك على قومي[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ * أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

قيل: المعنى: إن لحقتُ بكَ مع الذين لم يعبدوا العجلَ أن تقولَ لي: فرقتَ بين بني إسرائيل بأن جئتَ ببعضِهم، وتركتَ بعضهم. وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٦).

قال القرطبي: (أي: خشيتُ أن أخرُجَ وأترُكَهم وقد أمرتَني أن أخرُجَ معهم؛ فلو خرجتُ لاتَّبَعني قومٌ ويتخلَّف مع العِجلِ قومٌ، وربما أدَّى الأمرُ إلى سَفكِ الدماء، وخَشيتُ إن زجَرتُهم أن يقعَ قِتالٌ فتلومَني على ذلك). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٩).

وقيل: المعنى: إنِّي خَشِيتُ إن لَحِقتُ بك لأخبِرَك بهذا الخَطبِ الذي وقع أن تقولَ لي: لم تركْتَهم وحدَهم وليس عندهم راعٍ ولا خليفةٌ؛ فإنَّ هذا يفَرِّقُهم ويشَتِّتُ شَملَهم. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩١).

* ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ فيه أنَّ حِفظَ الأصلِ الأصيلِ للشَّريعةِ أهَمُّ مِن حِفظِ الأصولِ المتفرِّعةِ عليه؛ لأنَّ مَصلحةَ صَلاحِ الاعتقادِ هي أمُّ المصالحِ التي بها صَلاحُ الاجتِماعِ؛ ولذلك لم يكُنْ موسى خافيًا عليه أنَّ هارونَ كان مِن واجِبِه أن يترُكَهم وضَلالَهم، وأن يلتَحِقَ بأخيه مع عِلمِه بما يُفضي إلى ذلك مِن الاختِلافِ بينهم؛ فإنَّ حُرمةَ الشَّريعةِ بحِفظِ أُصولِها، وعَدَمِ التَّساهُلِ فيها، وبحُرمةِ الشَّريعةِ يبقَى نفوذُها في الأمَّةِ، والعَمَلُ بها[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي﴾ هاهنا دقيقةٌ وهي أنَّ الرافضةَ تمسَّكوا بقولِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام لعليٍّ: ((أنت مني بمنزلةِ هارونَ مِن موسَى))[2]، ثم إنَّ هارونَ ما منَعته التقيةُ في مثلِ هذا الجمعِ، بل صعِد المنبرَ، وصرَّح بالحقِّ، ودعا الناسَ إلى متابعةِ نفسِه، والمنعِ مِن متابعة غيرِه، فلو كانت أمةُ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم على الخطأِ، لكان يجبُ على عليٍّ رضي الله عنه أن يفعلَ ما فعَله هارونُ عليه السلام، وأن يَصعدَ على المنبرِ مِن غيرِ تقيةٍ وخوفٍ، وأن يقولَ: فاتبعوني، وأطيعوا أمري. فلمَّا لم يفعَلْ ذلك، علِمْنا أنَّ الأمةَ كانوا على الصوابِ[3].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٣-٢٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤) واللفظ له، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩١-٩٢).

رَبُّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾، سلَك هارونُ عليه السلامُ في هذا الوعظِ أحسنَ الوجوهِ؛ لأنَّه زجَرهم عن الباطلِ أولًا بقولِه: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾، ثم دعاهم إلى معرفةِ الله تعالى ثانيًا بقولِه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ثم دعاهم ثالثًا إلى معرفةِ النبوةِ بقولِه: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾، ثم دعاهم إلى الشرائعِ رابعًا بقولِه: ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾، وهذا هو الترتيبُ الجيدُ؛ لأنَّه لا بدَّ قبلَ كلِّ شيءٍ مِن إماطةِ الأذى عن الطريقِ، وهو إزالةُ الشبهاتِ في حالِ وجودِها، وكونِ الانحرافِ بسببِها، ثم معرفةُ الله تعالى هي الأصلُ، ثم النبوةُ، ثم الشريعةُ، فثبَت أنَّ هذا الترتيبَ على أحسنِ الوُجوهِ(١).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾، ذكَرَ وَصفَ (الرَّحمةِ)؛ تنبيهًا على أنَّهم متى تابوا قَبِلَهم، وتذكيرًا لتَخليصِهم مِن فِرعَونَ زمانَ لم يوجَدِ العِجلُ(٢).

٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ (لن) لا تَقتَضي التأبيدَ -كما زعم الزَّمخشريُّ- إذ لو كان مِن مَوضوعِها التأبيدُ، لَما جازت التَّغيِيَةُ بـ (حتى)؛ لأنَّ التَّغيِيَةَ لا تكونُ إلَّا حيثُ يكونُ الشَّيءُ مُحتَمِلًا، فيزيلُ ذلك الاحتِمالَ بالتَّغيِيَةِ(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۞ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ دَلالةٌ على أنَّ كلَّ نهيٍ ففيه طلبٌ واستِدعاءٌ لِمَا يقصِدُه النَّاهي، فهو أمرٌ؛ فالأمرُ يتناولُ هذا وهذا، فالأمرُ أصلٌ، والنهيُ فرعٌ؛ فإنَّ النهيَ نوعٌ مِن الأمرِ؛ إذ الأمرُ هو الطلبُ والاستدعاءُ والاقتضاءُ، وهذا يدخلُ فيه طلبُ الفعلِ، وطلبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

التركِ، لكن خُصَّ النهيُ باسمٍ خاصٍّ؛ فإنَّ موسى قال لأخيه: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ * أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾، وموسى قال له: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] وهذا نهيٌ، وهو لامَه على أنَّه لم يَتَّبِعْه، وقال: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾، وعُبَّادُ العِجْلِ كانوا مُفسِدينَ، وقد جَعَلَ هذا كلَّه أمرًا[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تدلُّ على اقتضاءِ الأمرِ للوجوبِ؛ لأنَّه أطلَق اسمَ المعصيةِ على عدمِ امتثالِ الأمرِ[٢]، فتاركُ المأمورِ به عاصٍ، والعاصي مستحقٌّ للعقابِ[٣].

٧- إعفاءُ اللِّحيةِ هو مِن هَديِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، ففي قَولِه تعالى عن هارونَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ دَليلٌ على أنَّ لهارونَ لِحْيَةً يمكنُ الإمساكُ بها[٤]، وهذه الآيةُ الكريمةُ بضميمةِ آيةِ (الأنعام) إليها تدلُّ على لزومِ إعفاءِ اللحيةِ، فهي دليلٌ قرآنيٌّ على إعفاءِ اللحيةِ وعدمِ حلقِها. وآيةُ الأنعامِ المذكورةُ هي قولُه تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ...﴾ الآية [الأنعام: ٨٤]. ثم إنَّه تعالى قال بعدَ أن عدَّ الأنبياءَ الكرامَ المذكورين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، فدلَّ ذلك على أنَّ هارونَ من الأنبياءِ الذين أُمِر نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم بالاقتداءِ بهم، وأمرُه صلَّى الله عليه وسلَّم بذلك أمرٌ لنا؛ لأنَّ أمرَ القدوةِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٧٣)، (٢٠/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١١/ ١٢٦).

أمرٌ لأتباعِه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ﴾ جُملةٌ قَسَميةٌ مُؤكِّدةٌ لِما قبْلَها من الإنكارِ والتَّشنيعِ، ببَيانِ عُتوِّهم واستعصائِهم على الرَّسولِ إثْرَ بَيانِ مُكابَرَتِهم لقضيَّةِ العُقولِ[٢].

- وافتتاحُ خِطابه بـ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ تَمهيدٌ لمَقامِ النَّصيحةِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ القصْرُ المُستفادُ من كَلمةِ ﴿إِنَّمَا﴾ إلى نفْسِ الفِعْلِ، على معنى: إنَّما فُعِلَ بكمُ الفِتْنةُ، لا الإرشادُ إلى الحقِّ[٤].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ إرشادٌ لهم إلى الحقِّ إثْرَ زجْرِهم عن الباطلِ. والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ والرَّحمةِ؛ للاعتناءِ باستمالَتِهم إلى الحقِّ، وفي ذلك تذكيرٌ لتخليصِهم مِن فرعونَ زمانَ لم يُوجَدِ العجلُ. وكذا -على ما قيل- تنبيهٌ على أنَّهم متى تابوا قَبِلهم[٥].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها من مَضمونِ الجُملتينِ، أي: إذا كان الأمْرُ كذلك، فاتَّبِعوني في الثَّباتِ على الدِّينِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٧)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٥٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٧).

- قولُه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فيه توكيدٌ بـ (إنَّ)، والحصْرُ بتَعريفِ طرفَيِ الجُملةِ، أي: إنَّ ربَّكم المُستحِقَّ للعبادةِ هو الرَّحمنُ لا غيرُ(١).

- وفي إيثارِ المُضارعِ في قولِه: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ﴾، وعطْفِ ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ﴾ عليه؛ للدَّلالةِ على استحضارِ تلك الحالةِ الفظيعةِ في ذِهْنِ السَّامعِ، واستدعاءِ الأفكارِ عليهم(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾ ﴿عَلَيۡهِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿عَٰكِفِينَ﴾، قُدِّمَ على مُتعلَّقِه لتَقويةِ الحُكْمِ، أو أرادوا: لنْ نبرَحَ نخُصُّه بالعُكوفِ، لا نعكُفُ على غيرِه؛ فيكونُ التَّقديمُ للاختصاصِ(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ من حِكايةِ جَوابِهم لهارونَ عليه السَّلامُ؛ كأنَّه قيلَ: فماذا قال مُوسى لهارونَ عليهما السَّلامُ حين سمِعَ جوابَهم له؟ وهل رَضِيَ بسُكوتِه بعْدَما شاهَدَ منهم ما شاهَدَ؟ فقِيلَ: قال له وهو مُغتاظٌ قد أخَذَ بلِحْيَتِه ورأْسِه...(٤).

- وفيه إيجازٌ بالحذْفِ، تَقديرُه: فرجَعَ مُوسى، ووجَدَهم عاكِفينَ على عِبادةِ العِجْلِ، قال: يا هارونُ...(٥).

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ إنكاريٌّ، أي: لا مانِعَ لك من اللَّحاقِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٢٢٩)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٥٩).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٢٢٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٧٤).

بي؛ لأنَّه أقامَهُ خليفةً عنه فيهم، فلمَّا لم يَمْتَثِلوا أمْرَه، كان عليه أنْ يرُدَّ الخِلافةَ إلى مَنِ استخلَفَه[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ الاستفهامُ للإنكارِ التَّوبيخيِّ، والفاءُ في ﴿أَفَعَصَيْتَ﴾ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المَقامُ، أي: ألَمْ تتَّبِعني؟ أو أخالَفْتَني فعصَيْتَ أمْري[٢]؟

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ مُفرَّعٌ على الإنكارِ، فهو إنكارٌ ثانٍ على مُخالَفةِ أمْرِه، مَشوبٌ بتَقريرٍ للتَّهديدِ[٣].

- و(لَا) في قولِه: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ زائدةٌ؛ للتَّوكيدِ، أي: ما مَنعَكَ أنْ تَتَّبِعني؛ فزِيادةُ لَفظةِ (لا) لتوكيدِ الكلامِ وتَقويتِه أسلوبٌ مِن أساليبِ اللُّغةِ العربيَّةِ، وهو أغلبُ في النفيِ وما يُشبِهُه، كالمنعِ هنا في قولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾

- قولُه: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ عدَلَ عن (يا أخِي) -وإنْ كان شقيقَه- إلى (ابنَ أُمَّ) فخَصَّ الأُمَّ بالإضافةِ؛ استِعظامًا لحَقِّها، واستِعْطافًا وترقيقًا لقَلْبِه؛ فذِكْرُ الأُمِّ هاهنا أَرَقُّ وأبلغُ، وهو تَذكيرٌ بأقْوى أواصرِ الأُخوَّةِ، وهي آصِرَةُ الوِلادةِ من بطْنٍ واحدٍ، والرَّضاعُ من لِبانٍ واحدٍ، ولأنَّ الأمَّ يَسوءُها ما يَسوءُه، وهي أرقُّ مِن الأبِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٨)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٢).

- وعطَفَ الرَّأسَ على اللِّحْيةِ؛ لأنَّ أخْذَه مِن لِحيَتِه أشَدُّ ألَمًا، وأنْكى في الإذلالِ[1].

- قولُه: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ استئنافٌ سِيقَ لتَعليلِ مُوجِبِ النَّهيِ، ببَيانِ الدَّاعي إلى ترْكِ المُقاتَلةِ، وتَحقيقِ أنَّه غيرُ عاصٍ لأمْرِه، بل مُمْتَثِلٌ به[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٨).

الآيات (٩٥-٩٨)

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَطْبُكَ﴾: أي: أمرُك وشَأنُك، والخَطبُ: الأمرُ يقَعُ؛ وإنَّما سُمِّيَ بذلك لِما يقَعُ فيه من التخاطُبِ والمُراجَعةِ[(١)].

﴿بَصُرْتُ﴾: أي: رأيتُ وعلِمتُ، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على العِلمِ بالشَّيءِ[(٢)].

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾: أي: قَذَفتُها، وألقَيْتُها، وأصلُ النَّبذِ: طَرْحُ الشَّيءِ وإلقاؤُه[(٣)].

﴿سَوَّلَتْ﴾: أي: زَيَّنَتْ، والتَّسْويلُ: تزيينُ النَّفسِ لِما تَحرِصُ عليه، وتصويرُ القَبيحِ منه بصورةِ الحَسَنِ[(٤)].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٣٩)، ((غريب =

﴿لَا مِسَاسَ﴾: أي: لا تَمسُّ النَّاسَ ولا يمَسُّونَك، أو كنايةٌ عن الطَّردِ والوَحدةِ، وأصلُ (مسَّ): جَسُّ الشَّيءِ باليَدِ[1].

﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾: أي: دُمتَ وأقَمْتَ عليه، يُقَال: ظَلَّ يفعَلُ كذا: إذا فعَلَه نَهارًا[2].

﴿لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾: أي: لَنَقذِفَنَّه ولَنُذرِّيَنَّه، يقال: نَسَفت الريحُ الشَّيءَ: إذا اقتَلَعَتْه وأزالَتْه، وأصلُ (نسف): يدُلُّ على كشفِ شيءٍ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن موسَى عليه السلامُ أنَّه بعدَ أن انتهَى مِن سماعِ اعتذارِ أخيه هارونَ، اتَّجهَ إلى السَّامِريِّ أصلِ الفتنةِ، فسأله موبخًا له: فما شأنُكَ يا سامِريُّ، وما الذي حَمَلك على ما صَنعْتَ؟ قال السَّامريُّ: رأيتُ ما لم يرَ بنو إسرائيلَ، وعلمْتُ ما لم يَعْلَموا، فأخذتُ بكَفِّي ترابًا مِن أثَرِ حافِرِ فَرَسِ جِبريلَ، فألقيتُه على الحُلِيِّ الذي صَنعتُ منه العِجلَ، فكان عِجلًا جَسَدًا له خُوارٌ، وكذلك زيَّنَت لي نَفسي.

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٥).

قال موسى للسَّامريِّ: فاذهَبْ، فإنَّ لك مدَّةَ حياتِك الدُّنيا أن تعيشَ منبوذًا قائلًا لكلِّ أحَدٍ: لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ؛ عقوبةً لك على إضلالِك بني إسرائيلَ، وإنَّ لك مَوعِدًا لعذابِك لن يُخْلِفَك اللهُ إيَّاه، وانظُرْ إلى مَعبودِك الذي أقمْتَ على عبادتِه، لنُحَرِّقَنَّه في النَّارِ، ثم لَنُفرِّقَنَّ أجزاءَه في البَحرِ تفريقًا لا يبقَى معه شَيءٌ منه. إنَّما إلهُكم هو اللهُ الذي لا معبودَ بحَقٍّ إلَّا هو، وَسِعَ عِلمُه كُلَّ شَيءٍ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ٩٥﴾.

أي: قال موسى: فما شأنُكَ -يا سامِريُّ-، وما الذي حَمَلك على ما صَنعْتَ[(١)]؟!

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ٩٦﴾.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾.

أي: قال السَّامريُّ لموسى: رأيتُ ما لم يرَ بنو إسرائيلَ، وعلمْتُ ما لم يَعْلَموا[(٢)]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٥).

قال ابن عطية: (يحتمل أن يرادَ مِن البصيرةِ، ويحتَملُ أن يُرادَ مِن البَصَر). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦١).

وممن فسر ﴿بَصُرْتُ﴾ بالعلم: مقاتل بن سليمان، وأبو عبيدة، وابن جرير، والزجاج، ومكي، والواحدي، والزمخشري، والعُليمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٠)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٧٤)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٧/ ٤٦٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٤)، ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٣٢٠). =

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾.

أي: فأخذتُ بكَفِّي ترابًا من أثَرِ حافِرِ فَرَسِ جِبريلَ(١)!

= ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٥).

وممن فسَّره بالرؤية: السمعاني، وابنُ جزي، والقرطبي، وابن كثير، وأبو السعود، وهو ظاهرُ كلامِ السعدي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

وممن جمع بين المعنيين السابقين: السمرقندي، والقنوجي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير القنوجي)) (٨/ ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٤٩ - ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٥).

قال الواحدي: (قال ابنُ عباسٍ وجميعُ المفسِّرين: يريدُ أثَرَ فَرَسِ جبريلَ). ((البسيط)) (١٤/ ٥٠٧).

وقال الرازي: (عامَّةُ المفَسِّرين قالوا: المرادُ بالرَّسولِ: جِبريلُ عليه السَّلامُ، وأراد بأثَرِه: التُّرابَ الذي أخذَه من مَوضِعِ حافِرِ دابَّتِه). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٥).

وقال الألوسي عن هذا القول: (ما ذُكِرَ مِن تفسيرِ الآيةِ هو المأثورُ عن الصَّحابةِ والتَّابِعينَ رَضِيَ الله تعالى عنهم، وتَبِعَهم جُلُّ أجِلَّةِ المفَسِّرينَ). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٦٣).

قال ابنُ كثير: (أخذ [أي: السَّامريُّ] ما كان استعاروه من الحُلِيِّ، فصاغ منه عِجلًا، وألقى فيه قَبضةً من الترابِ كان أخَذَها مِن أثرِ فَرَسِ جبريلَ حين رآه يومَ أغرَقَ اللهُ فِرعَونَ على يديه، فلمَّا ألقاها فيه خار كما يخورُ العِجلُ الحقيقيُّ، ويقال: إنَّه استحال عِجلًا جَسَدًا، أي: لحمًا ودمًا، حَيًّا يخورُ. قاله قتادةُ وغيرُه. وقيل: بل كانت الرِّيحُ إذا دخَلَت مِن دُبُرِه خرَجَت مِن فَمِه، فيخورُ كما تخورُ البَقَرةُ، فيرقُصونَ حَولَه ويَفرَحونَ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ١٤٧).

والقولُ الثاني في الآيةِ: أنَّ المرادَ بالرَّسولِ: موسى، وأنَّ أثَرَه: شَريعتُه التي شرَعَها، وسُنَّتُه التي سَنَّها، وأنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾، أي: طَرَحتُ شَريعةَ موسى، ونبَذْتُ سُنَّتَه، ثمَّ اتَّخذْتُ العِجلَ جَسَدًا له خُوارٌ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٢٣).

وهذا القولُ الثاني ذكَره أبو مسلم الأصبهاني، ورجَّحه الرازي، ومال إليه ابنُ عاشورٍ، واختاره المراغي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٥، ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٦)، ((تفسير المراغي)) (١٦/ ١٤٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٤٤). =

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾.

أي: فألقيتُ قَبضةَ التُّرابِ[1]، ....

= قال ابن عاشور: (قال جمهورُ المفسِّرينَ: المرادُ بِالرَّسولِ جبريلُ، ورَوَوْا قِصَّةً قالوا: إنَّ السَّامِرِيَّ فَتَنَه اللَّهُ، فأراه اللَّهُ جبريلَ راكِبًا فَرَسًا فَوَطِئَ حافِرُ الفرسِ مكانًا فإذا هو مُخْضَرٌّ بالنَّباتِ. فعلِمَ السَّامِرِيُّ أنَّ أثرَ جبريلَ إذا أُلقِيَ في جمادٍ صارَ حَيًّا، فأخذَ قبضةً من ذلك التُّرابِ وصَنَع عجلًا وألقى القبضةَ عليه فصارَ جسدًا، أي حَيًّا، له خوارٌ كخوارِ العجلِ، فعَبَّر عن ذلك الإلقاءِ بالنَّبْذ. وهذا الَّذي ذكروه لا يوجدُ في كُتُبِ الإسرائيليِّينَ، ولا ورَدَ به أثرٌ مِن السُّنةِ، وإنَّما هي أقوالٌ لبعضِ السَّلَفِ، ولَعَلَّها تَسَرَّبَتْ لِلنَّاسِ مِنْ رواياتِ الْقَصَّاصينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٦).

وقال الماتريدي: (عامَّةُ أهلِ التأويلِ... يقولون: إنَّه قَبَض قَبضةً مِن ترابٍ مِن أثرِ فَرسِ جبريلَ فنَبذَها، وليس في الآيةِ ذِكرُ التُّرابِ ولا ذِكرُ الفَرَسِ، ولا أنَّ ذلك الرَّسولَ جبريلُ أو غيرُه، ويُشبِهُ أن يكونَ الذي قبَضَه هو ترابٌ مِن أثرِ الفَرَسِ، على ما قاله أهلُ التأويلِ، وقد ذُكِرَ في حرفِ أُبَيٍّ: (فقبضتُ قَبضةً مِن أثَرِ فَرَسِ الرَّسولِ)، فإنْ ثبت ما قالوا وإلَّا لم نَزِدْ على ما ذُكِرَ في الكتابِ مِن هذه الأنباءِ والقِصَصِ التي كانت في كتُبِهم، فذُكِرَت في القرآنِ؛ لِيَحتجَّ بها رسولُ الله على أولئك؛ لِيَعرِفوا أنَّه إنما عَرَفَ بالله تعالى، فلو زِيدَ أو نُقِصَ عمَّا في كُتُبِهم لذهب موضِعُ الاحتجاجِ عليهم، بل يُوجِبُ ذلك شِبْهَ الكذِبِ عليهم؛ لذلك وجَبَ حِفظُ ما حُكي في الكتابِ مِن الأنباءِ والأخبارِ مِن غيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ؛ مخافةَ الكَذِبِ، إلَّا إن ثبت شيءٌ يُذكَرُ عن رَسولِ الله أنَّه كان؛ فعند ذلك يُقالُ، وإلَّا فالكَفُّ أَولى؛ لِما ذكَرْناه). ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٣٠٣-٣٠٤).

(١) والمعنى: فنبذتُها على العِجلِ. وممن قال بذلك: ابن أبي زمنين، والقرطبي، والعُليمي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٠)، ((تفسير العُليمي)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٦٤).

قال الشنقيطي: (﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ يعني: من أثَرِ حافرِ فَرَسِ الرَّسولِ، يعني: جبريلَ. ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: على العِجْلِ، فجعله اللهُ جَسَدًا له خُوارٌ، فلما ألقى السَّامريُّ ذلك الترابَ على العِجلِ صار ذلك العِجلُ المصوغُ مِن الحُليِّ جَسدًا له خُوارٌ). ((العذب النمير)) (٤/ ١٦٤).

وقال ابن جزي: (﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: ألقَيتُها على الحُليِّ فصار عِجلًا، أو على العِجلِ فصار له =

فكان منها ما تَراه[١].

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾.

أي: وكذلك[٢] زيَّنَتْ وحسَّنَت لي نفسي[٣].

= خُوارٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٦).

قال الشنقيطي: (وأظهَرُ الأقوالِ عندي في ذلك: هو أنَّهم جعلوا جميعَ الحُلِيِّ في النارِ ليذوبَ فيصيرَ قطعةً واحدة؛ لأنَّ ذلك أسهَلُ لحِفظِه حتى يرى نبيُّ الله موسى فيه رأيَه، والسَّامريُّ يريدُ تدبيرَ خطَّةٍ لم يطَّلِعوا عليها، وذلك أنَّه لَمَّا جاء جبريلُ ليذهَبَ بموسى إلى الميقاتِ وكان على فَرَسٍ، أخذَ السَّامريُّ ترابًا مَسَّه حافِرُ تلك الفَرَس، ويزعمون في القِصَّةِ أنَّه عاين موضِعَ أثَرِها يَنبُتُ فيه النباتُ، فتفَرَّسَ أنَّ الله جعل فيها خاصيَّةَ الحياة، فأخَذ تلك القبضةَ مِن الترابِ واحتفَظ بها، فلمَّا أرادوا أن يَطرَحوا الحُلِيَّ في النَّارِ لِيَجعَلوه قِطعةً واحدةً، أو لغيرِ ذلك مِن الأسبابِ، وجَعَلوه فيها؛ ألقَى السامريُّ عليه تلك القَبضةَ مِن الترابِ المذكورةَ، وقال له: كنْ عِجْلًا جسدًا له خوارٌ، فجعَلَه الله عِجلًا جسدًا له خوارٌ، فقال لهم: هذا العِجلُ هو إلهُكم وإلهُ موسى، كما يشيرُ إلى ذلك قولُه تعالى عن موسى: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ * قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾). ((أضواء البيان)) (٤/ ٨٣).

(٢) قال ابن جرير: (﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾ [طه: ٩٦] يقولُ: وكما فعلتُ مِن إلقائي القبضةَ التي قبضتُ مِن أثرِ الفرسِ على الحليةِ التي أُوقِد عليها حتى انسَبَكت فصارتْ عجلًا جسدًا له خوارٌ ﴿سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾ يقولُ: زيَّنت لي نفسي أنَّه يكونُ ذلك كذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٢).

وقال البقاعي: (﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي وكما سوَّلت لي نفسي أخذَ أثرِه ﴿سَوَّلَتۡ﴾ أي: حسَّنت وزيَّنت ﴿لِي نَفۡسِي﴾ نبذَها في الحلي فنبذْتُها، فكان منها ما كان، ولم يدْعُني إلى ذلك داعٍ، ولا حملني عليه حاملٌ غير التسويلِ). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾.

أي: قال موسى للسَّامريِّ: فلأنَّك أخذْتَ ومَسِستَ ما لم ينبغِ لك أخْذُه ومَسُّه مِن أثَرِ الرَّسولِ، فاخرجْ مِن بَينِنا وتباعَدْ منَّا؛ فإنَّ لك مدَّةَ حياتِك الدُّنيا أن تقولَ: لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ، فلا يمسُّك ولا يخالِطُك ولا يقربُك أحدٌ من النَّاسِ، ولا تمسُّ ولا تخالطُ ولا تقربُ أحدًا منهم؛ عقوبةً لك على إضلالِك بني إسرائيلَ[(١)].

﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٣، ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٧، ٢٩٨).

قال الواحدي: (الصَّحيحُ ما ذُكِرَ في التفسيرِ مِن وجهٍ آخَرَ: أنَّه جعَل يهيمُ في البريَّة مع الوحوشِ والسِّباعِ لا يَمَسُّ أحدًا ولا يمَسُّه أحدٌ، عاقبَه الله بذلك، وكان إذا لقي أحدًا يقول: لا مِساسَ، أي: لا تقرَبْني ولا تمَسَّني، وصار ذلك عقوبةً له). ((البسيط)) (١٤/ ٥١١).

وقال البقاعي: (مُنِع من مخالطةِ الناسِ منعًا كليًّا؛ فلا يتَّصِلُ بأحدٍ، ولا يتَّصِلُ به أحدٌ، بل يكونُ وحيدًا طريدًا ما دام حيًّا). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٣٦).

وقال ابنُ عاشور: (لم يزدْ موسَى في عقابِ السامريِّ على أن خلَعَه مِن الأمَّة، إمَّا لأنَّه لم يكُنْ مِن أنفُسِهم، فلم يكُنْ بالذي تجري عليه أحكامُ الشَّريعةِ، وإمَّا لأنَّ موسى أُعلِمَ بأنَّ السَّامريَّ لا يُرجَى صلاحُه، فيكونُ ممَّن حَقَّت عليه كَلِمةُ العذابِ... فجعل حَظَّه في حياتِه أن يقولَ: لا مِساسَ، أي: سلَبَه الله الأُنسَ الذي في طَبعِ الإنسانِ، فعَوَّضه به هَوَسًا ووِسواسًا وتوحُّشًا، فأصبَح متباعِدًا عن مخالطةِ النَّاسِ، عائشًا وحدَه، لا يترُكُ أحدًا يقتَرِبُ منه، فإذا لَقِيه إنسانٌ قال له: لا مِساسَ، يخشَى أن يمَسَّه، أي: لا تمسُّني ولا أمَسُّك، أو أراد: لا اقترابَ مني؛ فإن المسَّ يُطلَقُ على الاقترابِ، كَقولِه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٦٤]، وهذا أنسَبُ بصيغةِ المفاعَلةِ، أي: لا مُقاربةَ بيننا، فكان يقولُ ذلك، وهذه حالةٌ فظيعةٌ أصبح بها سُخريةً!). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٧-٢٩٨).

أي: وإنَّ لك -يا سامريُّ- وعدًا لِعَذابِك لن يُخلِفَكه اللهُ(١).

﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾.

أي: وانظُرْ -يا سامِريُّ- إلى مَعبودِك العِجلِ الذي بَقِيتَ مُلازِمًا لعبادتِه، واللهِ لَنُحَرِّقَنَّه في النَّارِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٤، ١٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٩، ٣٠٠).

قال الشنقيطي: (على أنَّ التحريقَ معناه التحريقُ بالنارِ -كما قاله جماعةٌ مِن العلماءِ- فيظهرُ أنَّ العجلَ صار جسدًا لحمًا ودمًا؛ لأنَّ اللحمَ والدمَ إذا أُحرِق بالنارِ يبسَ، وأمكَن دقُّه ونسفُه في البحرِ؛ لأنَّ الذهبَ والفضةَ لا يمكنُ دقُّهما ونسفُهما في البحرِ، وأمَّا على أنَّ المعنى ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾: نبردنَّه بالمباردِ كما تشهدُ له القراءةُ الأُخرى: ﴿لَنَحْرُقَنَّهُ﴾ فعلى هذا المعنى فالأليقُ أن يكون بقِي ذهبًا وفضةً إلا أنَّه يصوِّت صَوْتَ البَقَرِ إذا دخلتِ الريحُ في داخِلِه). ((العذب النمير)) (٤/ ١٦٦). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٩٩).

قال أبو حيان: (وذكر أبو عليٍّ أنَّ التَّشديدَ قد يكونُ مُبالغةً في «حَرَقَ»: إذا بُرِدَ بالمِبْرَدِ. وفي مُصحَفِ أُبَيٍّ وعبدِ اللهِ: «لَنَذْبَحَنَّهُ ثُمَّ لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ» وتوافِقُ هذه القراءةُ مَن روى أنَّه صار لحمًا ودمًا ذا رُوحٍ، ويترتَّبُ الإحراقُ بالنَّارِ على هذا، وأمَّا إذا كان جمادًا مَصوغًا مِن الحُليِّ فيترتَّبُ بَرْدُه لا إحراقُه، إلَّا إن عُنِيَ به إذابتُه). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨٠).

قال ابنُ جُزي: (والصَّحيحُ أنَّ المقصودُ بإحراقِه بالنَّارِ: إذابتُه وإفسادُ صُورتِه، فيَصِحُّ حَملُ قراءةِ الجماعةِ على ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤).

وقال الزجاج: (قوله: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾... إذا شَدَّدَ [أي: الراء] فالمعنى: نُحرقُه مرةً بعدَ مرةٍ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٣٧٥).

وقال السعدي: (كان قد أُشرِبَ العِجلُ في قلوبِ بني إسرائيلَ، فأراد موسى عليه السَّلامُ إتلافَه وهم ينظُرونَ، على وَجهٍ لا تُمكِنُ إعادتُه بالإحراقِ والسَّحقِ وذَرْيِه في اليَمِّ ونَسفِه؛ ليزولَ ما في قلوبِهم مِن حُبِّه، كما زال شَخصُه، ولأنَّ في إبقائِه مِحنةً؛ لأنَّ في النُّفوسِ أقوى داعٍ إلى الباطِلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾.

أي: ثم لَنُفرِّقَنَّ أجزاءَه في البَحرِ تفريقًا لا يبقَى معه شَيءٌ منه(١).

﴿إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا فَرَغ موسى عليه السَّلامُ مِن إبطالِ ما عَمِلَه السَّامريُّ؛ عاد إلى بيانِ الدِّينِ الحَقِّ(٢).

﴿إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: إنَّما معبودُكم اللهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحدَه، الذي لا معبودَ بحَقٍّ إلَّا هو(٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١].

﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

أي: أحاط اللهُ بكُلِّ شَيءٍ عِلمًا، فلا يخفَى عليه شَيءٌ، ولا يَضيقُ عليه عِلمُ جَميعِ ذلك(٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٧)، ((الهداية)) لمكي (٧/ ٤٦٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

هذه الآيةُ أصلٌ في نَفيِ أهلِ البِدَعِ والمعاصي، وهِجرانِهم، وألَّا يُخالَطوا[١].

٢- مَرتبةُ تغييرِ المنكَرِ باليَدِ سَنَّها أبو الأنبياءِ إبراهيمُ، حين راغ على تلك الأوثانِ ضَربًا باليَمينِ حتى جعَلَها جُذاذًا وحَطَّمها تحطيمًا، وتَبِعَه فيها موسى حينما قال للسَّامريِّ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾، وتَبِعَهما خِتامُهم وأفضَلُهم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، فحَطَّم أوثانَ العَرَبِ المحيطةَ بمكَّةَ، وأرسلَ أصحابَه يَهدِمونَها في كلِّ حيٍّ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ قد يستدل به على جواز إتلاف الحيوان إذا كانت المصلحة تقتضي ذلك، ومنه قتلُ البهيمةِ المفعولِ بها[٣]، وهذا على اعتبارِ أنَّ العجلَ كان حقيقيًّا.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ استئنافٌ وقَعَ جوابًا عمَّا نشَأَ من حِكايةِ ما سلَفَ مِن اعتذارِ القومِ بإسنادِ الفسادِ إلى السَّامريِّ، واعتذارِ هارونَ عليه السَّلامُ؛ كأنَّه قِيلَ: فماذا صنَعَ مُوسى عليه السَّلامُ بعْدَ سَماعِ ما حُكِيَ من الاعتذارينِ واستقرارِ أصْلِ الفِتْنةِ على السَّامريِّ؟ فقيل: قال مُوبِّخًا له: هذا شأْنُهم، فما خطْبُك[٤]؟

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي)) (١/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٨).

ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴾

- قولُه: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا﴾ الرَّسولُ هو جِبريلُ عليه السَّلامُ -على أحدِ القولين في التفسيرِ-، ولعلَّه لم يُسَمِّه؛ لأنَّه لم يعرِفْه إلا بهذا العنوانِ، أو لأنَّ ذِكْرَه بعُنوانِ الرِّسالةِ فيه إشعارٌ بوُقوفِه على ما لم يَقِفْ عليه القومُ من الأسرارِ الإلهيَّةِ؛ تأكيدًا لِمَا صَدَّرَ به مَقالتَه. أو أرادَ أنْ يُنبِّهَ على وقْتِ أخْذِ ما أخَذَ[١].

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾ (كذلك) إشارةٌ إلى مَصدرِ الفِعْلِ المذكورِ بعْدَه، ومَحلُّ (كذلك) في الأصلِ النَّصْبُ، على أنَّه مَصدرٌ تَشبيهيٌّ، أي: نَعتٌ لمصدرٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: سوَّلَتْ لي نفْسي تَسويلًا كائنًا مثْلَ ذلك التَّسويلِ؛ فقُدِّمَ على الفِعْلِ لإفادةِ القصْرِ، واعتُبِرَتِ الكافُ مُقْحَمةً؛ لإفادةِ تأكيدِ ما أفادَهُ اسمُ الإشارةِ من الفَخامةِ؛ فصار نفْسَ المَصدرِ المُؤكِّدِ لا نَعتًا له، أي: ذلك التَّزيينَ البديعَ زَيَّنَت لي نفْسي ما فعَلْتُه، لا تَزيينًا أدْنى منه؛ ولذلك فعلْتُه[٢].

- والتَّشبيهُ في قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي﴾ تَشبيهُ الشَّيءِ بنفْسِه، أي: كذلك التَّسويل سوَّلَت لي نفْسي، أي: تَسويلًا لا يقبَلُ التَّعريفَ بأكثَرَ من ذلك[٣].

- وفي هذه الآياتِ إيجازٌ واضحٌ جِدًّا؛ لأنَّ تَسَلْسُلَ الحوادثِ يَقْتضي تَقديرَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٧).

جُمَلٍ لا بُدَّ منها، وقد ورَدَ الحذْفُ في قولِه تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾؛ فقد حُذِفَ المُضافُ مُكرَّرًا هنا، والتَّقديرُ: من أثَرِ حافِرِ فرَسِ الرَّسولِ(١).

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾

- قولُه: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ دخلَتِ الفاءُ للتَّعقيبِ إثْرَ المُحاوَرةِ، وطَرْدِه بلا مُهلةٍ زمانيَّةٍ. وعبَّرَ بالمُماسَّةِ عن المُخالَطةِ؛ لأنَّها أدنَى أسبابِ المُخالَطةِ، فنبَّهَ بالأدنَى على الأعلَى(٢).

- وقولُه: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ...﴾ تعليلٌ لمُوجِبِ الأمْرِ(٣).

- وفي قولِه: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ جعَلَ الاستدلالَ بالنَّظرِ إشارةً إلى أنَّه دليلٌ بيِّنٌ، لا يَحتاجُ المُستدِلُّ به إلى أكثَرَ من المُشاهَدةِ؛ فإنَّ دَلالةَ المحسوساتِ أوضَحُ مِن دَلالةِ المعقولاتِ. وأُضِيفَ الإلهُ إلى ضَميرِ السَّامريِّ في قولِه: ﴿إِلَٰهِكَ﴾؛ تهكُّمًا بالسَّامريِّ وتَحقيرًا له، ووصَفَ ذلك الإلهَ المزعومَ بطَريقِ الموصوليَّةِ ﴿ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾؛ لِما تدُلُّ عليه الصِّلةُ مِن التَّنبيهِ على الضَّلالِ والخطَأِ، أي: الَّذي لا يَستحِقُّ أنْ يُعْكَفَ عليه(٤).

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٩).

- وتَقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿عَلَيۡهِ عَاكِفٗا﴾؛ للتَّخصيصِ، أي: الَّذي اخترْتَه للعِبادةِ دونَ غيرِه، أي: دونَ اللهِ تعالى[1].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ (ثُمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ نَسْفَ العِجْلِ أشَدُّ في إعدامِه من تَحريقِه وأذَلُّ له. وأُكِّدَ (نَنْسِفنَّه) بالمفعولِ المُطلَقِ ﴿نَسۡفًا﴾؛ إشارةً إلى أنَّه لا يَتردَّدُ في ذلك، ولا يَخْشَى غضَبَه، كما يَزْعمون أنَّه إلَهٌ[2].

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ...﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتَحقيقِ الحقِّ إثْرَ إبطالِ الباطلِ، بتَلوينِ الخِطابِ وتَوجيهِه إلى الكلِّ، أي: إنَّما مَعبودُكم المُستحِقُّ للعِبادةِ اللهُ[3].

- وهذه الجُملةُ من حِكايةِ كَلامِ مُوسى عليه السَّلامُ؛ فمَوقِعُها موقِعُ التَّذييلِ لوعْظِه، وقدِ الْتَفَتَ من خِطابِ السَّامريِّ إلى خِطابِ الأُمَّةِ؛ إعراضًا عن خِطابِه؛ تَحقيرًا له، وقصْدًا لتَنبيهِهم على خطَئِهم، وتَعليمِهم صِفاتِ الإلهِ الحقِّ. واقتصَرَ منها على الوَحدانيَّةِ، وعُمومِ العِلْمِ؛ لأنَّ الوحدانيَّةَ تجمَعُ جَميعَ الصِّفاتِ، وأمَّا عُمومُ العِلْمِ فهو إشارةٌ إلى عِلْمِ اللهِ تعالى بجَميعِ الكائناتِ الشَّاملةِ لأعمالِهم؛ ليَرقُبُوه في خاصَّتِهم[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٩٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٠- ٣٠١).

- قولُه: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أفاد لفْظُ (كل) العُمومَ؛ فالمعنى: وسِعَ عِلْمُه كلَّ شَيءٍ، بحيثُ لا يَضِيقُ عِلْمُه عن شَيءٍ، أي: لا يَقْصُرُ عنِ الاطِّلاعِ على أخْفى الأشياءِ(١).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠١).

الآيات (٩٩-١٠٤)

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ
عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ
فِى ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾
نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زُرْقًا﴾: قيل: أي: زُرقَ العُيونِ، وقيل: بِيضَ العيونِ مِن العمَى، قد ذهَب السَّوادُ والنَّاظِرُ، وأصلُ الزُّرقةِ: يدُلُّ على لَونٍ[1].

﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾: أي: يَتسارُّونَ، ويتهامَسونَ بينَهم، وأصلُ (خفت): يدلُّ على إسرارٍ وكِتمانٍ[2].

﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾: أي: أعدَلُهم رَأيًا، أو عَمَلًا وقَولًا، يُقالُ: فلانٌ أمثَلُ بني فلانٍ: أي: أدناهم للخَيرِ، أي: إنَّه مُماثِلٌ لأهلِ الصَّلاحِ والخَيرِ، وهؤلاءِ أماثِلُ القَومِ، أي: خيارُهم. وأصلُ (مثل): يدُلُّ على نظيرِ الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: كما قَصَصْنا عليك -يا مُحمَّدُ- قصَّةَ موسى وفِرعَونَ وقَومِهما، كذلك نقُصُّ عليك أنباءَ السَّابقينَ لك، وقد آتيناك مِن عِندِنا هذا القُرآنَ العَظيمَ.

ثمَّ بيَّن تعالى عاقبةَ مَن يعرِضُ عن هذا القرآنِ، فقال: مَن أعرَضَ عنه فلم يؤمِنْ به ولم يعمَلْ بما فيه، فإنَّه يأتي رَبَّه يومَ القيامةِ يحمِلُ إثمًا عظيمًا، خالدينَ في جزاء هذا الإثمِ في النارِ، وبِئسَ ذلك الحِملُ الثَّقيلُ يومَ القيامةِ.

ثمَّ بيَّن سبحانَه أحوالَ المجرمينَ عندَ الحشرِ، فقال: يومَ يَنفُخُ الملَكُ في «القَرنِ» فتُبعَثونَ بأمرِ اللهِ، ونحشُرُ الكافرينَ ذلك اليومَ وهم زُرقٌ. يتهامَسونَ بينهم، يقولُ بَعضُهم لبعضٍ: ما لَبِثْتُم في الحياةِ الدُّنيا إلَّا عَشَرةَ أيَّامٍ فحَسْبُ. نحن أعلَمُ بما يقولونَ ويُسِرُّونَ حين يقولُ أعلَمُهم وأعدَلُهم قَولًا: ما لبثْتُم في الدُّنيا إلَّا يومًا واحدًا!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما بدأت السورةُ بالحديثِ عن القرآنِ، وأنَّه لم ينزلْ على الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم ليشقَى به أو بسببِه. وكان مِن القرآنِ قصةُ موسَى عليه السلام وما يبدو فيها مِن رعايةِ الله وعنايتِه بموسَى وأخيه وقومِه- أعقَب السياقَ على القصةِ بالعودةِ إلى القرآنِ ووظيفتِه، وعاقبةِ مَن يُعرِض عنه.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَ﴾.

أي: كما قَصَصْنا عليك -يا مُحمَّدُ- قصَّةَ موسى وفِرعَونَ وقَومِه، وأخبارَ بني

إسرائيلَ مع موسى؛ كذلك[١] نقصُّ عليك مِن[٢] الأخبارِ الماضيةِ التي سَبَقت مِن قَبلِك، فلم تُشاهِدْها[٣].

كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾.

أي: وقد أعطَيْناك -يا محمَّدُ- مِن عِندِنا عطيَّةً نفيسةً، وهي القرآنُ الكريمُ[٤].

---

(١) قال ابن كثير: (يقولُ تعالى لنبيه محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: كما قصصنا عليك خبرَ موسَى، وما جرَى له مع فرعونَ وجنودِه على الجليةِ والأمرِ الواقعِ، كذلك نقصُّ عليك الأخبارَ الماضيةَ، كما وقعتْ مِن غيرِ زيادةٍ ولا نقصٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٥).
وقال البقاعي: (كأنَّه قيل: هل يعادُ شيءٌ مِن القصصِ على هذا الأسلوبِ البديعِ والمثالِ الرفيعِ؟ فقيل: نَعم ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثلَ هذا القصِّ العالي، في هذا النظمِ العزيزِ الغالي، لقصةِ موسى ومَن ذُكر معه). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٣٩).

(٢) قال الشنقيطي: (الظاهِرُ أنَّ «مِن» في قولِه ﴿مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ للتبعيض، ويُفهَمُ مِن ذلك أنَّ بَعضَهم لم يُقصَصْ عليه خَبَرُه). ((أضواء البيان)) (٤/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٣، ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٢)، ((أضواء =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ١٠٠﴾.

أي: مَن أعرَضَ عن القُرآنِ، فلم يؤمِنْ به، ولم يَعمَلْ بما فيه؛ فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ وهو يحمِلُ إثمًا عظيمًا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ١٠١﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾.

أي: ماكِثينَ في جزاءِ هذا الوزرِ؛ في النَّارِ، لا يَخرُجونَ منها(٢).

= البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٥).

قال الشِّنقيطي: (قد دلَّت آياتٌ كثيرةٌ مِن كتابِ الله على أنَّ المجرمينَ يأتونَ يوم القيامة يحمِلونَ أوزارَهم، أي: أثقالَ ذنوبِهم على ظهورِهم... المرادُ بذلك الوِزرِ المحمولِ: أثقالُ ذُنوبِهم وكُفرِهم، يأتونَ يومَ القيامة يحملونَها، سواءٌ أقُلْنا: إنَّ أعمالَهم السيئةَ تتجَسَّمُ في أقبحِ صورةٍ وأنتَنِها، أو غيرَ ذلك). ((أضواء البيان)) (٤/ ٩٥، ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٥). =

﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا﴾.

أي: وبِئسَ للمُعرِضينَ عن القُرآنِ حِملُهم الثَّقيلُ مِن الآثامِ يومَ القيامةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾.

أي: وذلك يومَ يُنفَخُ في القَرْنِ بأمرِ الله، فيُحيي سبحانَه الموتَى بتلك النَّفخةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن

= قال بعضُ المفسرين: المعنى: خالدين في جزاءِ الوزرِ. وقال آخرون: في عذابِ الوزرِ. وقال آخرون: عقوبةِ الوزرِ. والمعاني المذكورةُ متقاربةٌ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧٥)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥٤).

وقال ابنُ جرير: (خالِدونَ في أوزارِهم، والمعنى: أنهم خالدونَ في النَّارِ بأوزارِهم، ولكِنْ لما كان معلومًا المرادُ مِن الكلامِ، اكتفى بما ذُكِرَ عمَّا لم يُذكَرْ). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٩).

وقال السعدي: (﴿خَـٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أي: في وِزرِهم؛ لأنَّ العذابَ هو نفسُ الأعمالِ، تنقَلِبُ عذابًا على أصحابِها، بحَسَبِ صِغَرِها وكِبَرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢-٥١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٦).

وقال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وساءَ ذلك الحملُ والثقلُ مِن الإثمِ يومَ القيامةِ حملًا، وحقَّ لهم أن يسوءَهم ذلك، وقد أوردهم مهلكةً لا منجَى منها). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣).

شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((كيف أنعَمُ وقد الْتقمَ صاحبُ القَرنِ القَرنَ، وحنَى جَبهَتَه، وأصْغَى سَمعَه، ينتظِرُ أن يُؤمَرَ أن يَنفُخَ فينفُخَ، قال المُسلِمونَ: فكيف نقولُ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: قولوا: حَسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، توكَّلْنا على اللهِ ربِّنا)) وربَّما قال سُفيانُ: على اللهِ توكَّلْنا[1].

﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾.

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٤٣) واللفظ له، وأحمد (١١٠٣٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

حسَّنه الترمذي، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٤٣).

ويشهدُ له ما أخرجه أحمد (٣٠٠٨)، والطبراني (١٢/ ١٢٨) (١٢٦٧١)، والحاكم (٨٦٧٧) من حديثِ ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما.

جوَّده ابنُ كثير في ((التفسير)) (٢/ ١٤٨)، والشوكاني في ((تفسيره)) (١/ ٥٩٨)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٥٩٢)، ويُنظر شواهد الحديث الأخرى في ((السلسلة الصحيحة)) للألباني (١٠٧٩).

تنبيهٌ: قال ابنُ حَجَر: (اشتَهَر أنَّ صاحِبَ الصورِ إسرافيلُ عليه السَّلامُ، ونقل فيه الحليمي الإجماعَ... وجاء أنَّ الذي ينفُخُ في الصورِ غَيرُه... فإن ثبَت حُمِلَ على أنَّهما جميعًا يَنفُخانِ، ويؤيِّدُه ما أخرجَه هنَّاد بن السري في كتابِ الزهدِ بسَنَدٍ صَحيحٍ لكِنَّه موقوفٌ على عبد الرَّحمنِ ابن أبي عَمرةَ قال: «ما مِن صَباحٍ إلَّا ومَلَكانِ مُوَكَّلانِ بالصُّورِ»، ومن طريقِ عبدِ اللهِ بنِ ضَمرةَ مِثلُه، وزاد: «ينتظرانِ متى يَنفُخانِ»، ونحوُه عند أحمدَ مِن طريق سُلَيمانَ التيمي عن أبي هريرةَ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أو عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «النَّافِخانِ في السَّماءِ الثانيةِ رأسُ أحَدِهما بالمَشرِقِ ورِجلاه بالمَغرِب -أو قال بالعكس- ينتَظِرانِ متى يُؤمَرانِ أن يَنفُخَا في الصُّورِ فيَنفُخا»، ورجالُه ثِقاتٌ، وأخرجه الحاكمُ من حديث عبدِ الله بن عمرٍو بغيرِ شَكٍّ، ولابن ماجه والبزَّار من حديثِ أبي سعيدٍ رفَعَه: «إنَّ صاحِبَي الصورِ بأيديهما قَرنانِ يُلاحِظانِ النَّظَرَ متى يؤمَرانِ»). ((فتح الباري)) (١١/ ٣٦٨، ٣٦٩).

أي: ونحشُرُ الكافِرينَ والمُشرِكينَ[(١)] يومَ القيامةِ زُرقًا[(٢)].

﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ ﴾.

أي: يتهامَسُ المُجرِمونَ بينهم، يقولُ بَعضُهم لبعضٍ سِرًّا: ما لَبِثتُم في الدُّنيا إلَّا عَشَرةَ أيَّامٍ فحَسْبُ[(٣)]!

---

(١) قيل: يُحشرونَ لموقفِ القيامةِ، وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٥). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ١٦).

وقيل: يُحشرونَ إلى النَّارِ، وممن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمانَ، ويحيي بنُ سلَّام. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤١)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٤).

قيل في معنى ﴿زُرۡقٗا﴾: أي زُرقَ العُيونِ، وممن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥٥).

وقيل: المراد: زُرقةُ ألوانِهم، وممن قال بذلك: السعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٤).

قال السعدي: (المجرمون يحشرون زرقًا ألوانُهم مِن الخوف والقلقِ والعطشِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣).

وقال ابن عاشور: (والزرقُ: جمع أزرقَ، وهو الذي لونُه الزرقةُ... وهو في جلدِ الإنسانِ قبيحُ المنظرِ؛ لأنَّه يشبهُ لونَ ما أصابَه حرقُ نارٍ. وظاهرُ الكلام أنَّ الزرقةَ لونُ أجسادِهم، فيكونُ بمنزلةِ قولِه: ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ ﴾[آل عمران: ١٠٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٤).

وقال ابنُ جرير: (فقيل: عنى بالزُّرقِ في هذا الموضعِ: ما يظهَرُ في أعيُنِهم مِن شِدَّةِ العَطَشِ الذي يكونُ بهم عند الحَشرِ، لرأيِ العَينِ، مِن الزُّرقِ. وقيل: أُريدَ بذلك أنهم يُحشَرونَ عُميًا، كالذي قال الله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا﴾ [الإسراء: ٩٧]). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦١). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير ابن =

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ١٠٤﴾.

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

أي: نحنُ أعلَمُ منهم بما يقولُ بَعضُهم لبعضٍ، ونَسمَعُ تناجيَهم، لا يخفَى علينا منه شيءٌ[1].

= كثير)) (٥/ ٣١٥، ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣).

ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ﴾ أي: في الدنيا: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. تُنظر: المصادر السابقة.

وممن اختاره أيضًا: البغوي، والزمخشري، وابنُ جزي، وابنُ القيِّمِ، والبقاعي، والعليمي، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٤٣)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥٧).

قال البيضاوي: (يَستقصِرونَ مُدَّةَ لُبثِهم فيها؛ لزوالِها، أو لاستِطالتِهم مُدَّةَ الآخرةِ، أو لتأسُّفِهم عليها لَمَّا عاينوا الشَّدائدَ، وعَلِموا أنَّهم استحَقُّوها على إضاعتِها في قضاءِ الأوطارِ، واتِّباعِ الشَّهَواتِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٨). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٧٠).

وقيل: المرادُ بقولِه تعالى: ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ﴾ أي: في القبورِ. وممن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمرقندي، وأبو السعودِ، والألوسي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤١)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٥).

قال الألوسي: (ومرادُهم مِن هذا القَولِ استِقصارُ المدَّةِ، وسُرعةُ انقِضائِها، والتَّنديمُ على ما كانوا يزعُمونَ؛ حيثُ تبيَّنَ الأمرُ على خلافِ ما كانوا عليه مِن إنكارِ البَعثِ وعَدِّه من قبيلِ المُحالاتِ، كأنَّهم قالوا: قد بُعِثتُم وما لَبِثتُم في القبرِ إلَّا مُدَّةً يسيرةً، وقد كنتُم تَزعُمونَ أنَّكم لن تقوموا منه أبدًا). ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٧٠). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣).

﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

أي: حينَ يَقولُ أعقَلُهم، وأعلَمُهم، وأعدَلُهم قولًا، وأقرَبُهم إلى التَّقديرِ: ما لَبِثتُم في الدُّنيا إلَّا يومًا واحِدًا[1]!

كما قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ * قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- يجِبُ على الأمَّةِ تلَقِّي القرآنِ بالقَبولِ والتَّسليمِ، والانقيادِ والتَّعظيمِ، وأن يُهتدَى بنُورِه إلى الصِّراطِ المُستقيمِ، وأن يُقبِلوا عليه بالتعَلُّمِ والتَّعليمِ. وأمَّا مُقابلَتُه بالإعراضِ، أو ما هو أعظمُ منه مِن الإنكارِ؛ فإنَّه كُفرٌ لهذه النِّعمةِ، ومَن فعَلَ ذلك فهو مُستَحِقٌّ للعقوبةِ؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا * مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾، وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣).
وقال الشوكاني: (نسبةُ هذا القَولِ إلى أمثَلِهم؛ لِكَونِه أدَلَّ على شِدَّةِ الهَولِ، لا لِكَونِه أقرَبَ إلى الصِّدقِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥٦).
وقال السعدي: (والمقصودُ مِن هذا الندمُ العظيمُ، كيف ضيَّعوا الأوقاتَ القصيرةَ، وقطعوها ساهينَ لاهينَ، معرضينَ عما ينفعُهم، مقبلين على ما يضرُّهم، فها قد حضر الجزاءُ، وحقَّ الوعيدُ، فلم يبقَ إلا الندمُ، والدعاءُ بالويلِ والثبورِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٢).

جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [يونس: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ۝ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٣-١١٤]، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ فهذه الآيات فيها كفايةٌ في قِصَرِ الأمَلِ، وهو العلمُ بقُرْبِ الرَّحيلِ، وسُرعةِ انقضاءِ مُدَّةِ الحياةِ، وهو مِن أنفعِ الأمورِ للقَلبِ؛ فإنَّه يَبعَثُه على مُغَافَصةِ[1] الأيَّامِ، وانتهازِ الفُرَصِ التي تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ، ومبادرةِ طَيِّ صحائفِ الأعمالِ، ويُثيرُ ساكنَ عَزَماتِه إلى دارِ البقاءِ، ويَحُثُّه على قضاءِ جَهازِ سَفرِه، وتدارُكِ الفارطِ، ويُزَهِّدُه في الدنيا، ويُرَغِّبُه في الآخرةِ، فيقومُ بقَلبِه إذا داوَمَ مُطالعةَ قِصَرِ الأمَلِ شاهِدٌ مِن شواهِدِ اليَقينِ، يريدُ فَناءَ الدُّنيا، وسُرعةَ انقضائِها، وقِلَّةَ ما بَقِيَ منها، وأنَّها قد ترحَّلَت مُدبِرةً، وأنَّها لم يبقَ منها إلَّا كما بَقِيَ مِن يوم صارت شَمسُه على رُؤوسِ الجبالِ، ويُريه بقاءَ الآخرةِ ودوامَها، وأنَّها قد ترحَّلَت مُقبِلةً، وقد جاء أشراطُها وعلاماتُها، وأنَّه مِن لقائِها كمُسافرٍ خَرَج صاحِبُه يتلَقَّاه، فكُلٌّ منهما يسيرُ إلى الآخَرِ، فيُوشِكُ أن يلتَقِيَا سريعًا[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا﴾ في تسميةِ القرآنِ بالذِّكرِ وُجوهٌ:

أحدُها: أنه كتابٌ فيه ذِكرُ ما يحتاجُ إليه النَّاسُ مِن أمرِ دينِهم ودنياهم.

---

(١) مُغافَصَة، أي: مُغالَبة. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٨).

وثانيها: أنَّه يذكِّرُ أنواعَ آلاءِ الله تعالى ونعمائِه، ففيه التذكيرُ والمواعِظُ.

وثالثها: فيه الذِّكرُ والشَّرَفُ لك ولِقَومِك على ما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾(١) [الزخرف: ٤٤].

٢- في قَولِ الله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ إنْ قيل: إمَّا أن يُقالَ: إنَّهم نَسُوا قَدْرَ لُبثِهم في الدُّنيا، أو ما نَسُوا ذلك؛ والأوَّلُ غيرُ جائزٍ؛ إذ لو جاز ذلك لجاز أن يبقَى الإنسانُ خمسين سَنةً في بلدٍ ثمَّ ينساه. والثَّاني غيرُ جائزٍ؛ لأنَّه كَذِبٌ، وهذا الكَذِبُ لا فائدةَ فيه؟

والجوابُ فيه وجوهٌ:

الوجهُ الأوَّلُ: لعَلَّهم إذا حُشِروا في أوَّلِ الأمرِ وعاينوا تلك الأهوالَ؛ فلشِدَّةِ وَقْعِها عليهم ذَهَلوا عن مِقدارِ عُمُرِهم في الدُّنيا، وما ذكَروا إلَّا القليلَ، والإنسانُ عندَ الهولِ الشَّديدِ قد يَذهَلُ عن أظهرِ الأشياءِ، وتمامُ تقريرِه مذكورٌ في سورةِ الأنعام في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

الوَجهُ الثَّاني: أنَّهم عالِمونَ بمِقدارِ عُمُرِهم في الدُّنيا إلَّا أنَّهم لَمَّا قابلوا أعمارَهم في الدُّنيا بأعمارِ الآخرةِ وَجدوها في نهايةِ القِلَّةِ، فقال بعضُهم: ما لَبِثْنا في الدُّنيا إلَّا عَشَرةَ أيامٍ! وقال أعقَلُهم: بل ما لَبِثْنا إلَّا يومًا واحدًا، أي: قَدْرُ لُبثِنا في الدُّنيا بالقياسِ إلى قَدْرِ لُبثِنا في الآخِرةِ كعَشَرةِ أيامٍ، بل كاليَومِ الواحِدِ، بل كالعَدَمِ! وإنَّما خُصَّ العَشَرةُ والواحِدُ بالذِّكرِ؛ لأنَّ القليلَ في أمثالِ هذه المواضِعِ لا يُعبَّرُ عنه إلَّا بالعَشَرةِ والواحِدِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٧).

الوَجهُ الثَّالثُ: أنَّهم لَمَّا عايَنوا الشَّدائدَ تذكَّروا أيامَ النِّعمةِ والسُّرورِ، وتأسَّفوا عليها، فوصَفوها بالقِصَرِ؛ لأنَّ أيامَ السُّرورِ قِصارٌ.

الوَجهُ الرَّابِعُ: أنَّ أيامَ الدُّنيا قد انقَضَت، وأيَّامُ الآخرةِ مُستَقبَلةٌ، والذَّاهِبُ وإن طالت مُدَّتُه قليلٌ بالقياسِ إلى الآتي وإن قَصُرت مدتُه، فكيف والأمرُ بالعَكسِ؟! ولهذه الوجوهِ رجَّح اللهُ تعالى قَولَ مَن بالغَ في التَّقليلِ، فقال: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾[1].

٣- إذا ذُكِرَ العددُ دونَ مَعدودِه المُذَكَّرِ، جاز فيه الوَجهانِ؛ حذفُ التاءِ، وذِكرُها، وعلى هذا جاء قَولُه تعالى: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾، فالعَشْرُ هنا أيامٌ؛ بدَليلِ ما بَعدَها: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ تذييليَّةٌ؛ خُوطِبَ بها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بطَريقِ الوعْدِ الجميلِ بتَنزيلِ أمثالِ ما مَرَّ من أنباءِ الأُمَمِ السَّالفةِ. و(ذلك) إشارةٌ إلى اقتصاصِ حَديثِ مُوسى عليه السَّلامُ، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتْبتِه، وبُعدِ مَنزلتِه في الفضْلِ[3].

- وفي قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ تَشبيهٌ، والتَّقديرُ: مثْلَ هذا القَصصِ نقَصُّ عليك من أنباءِ القُرونِ الماضيةِ؛ فالتَّشبيهُ راجعٌ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٩)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٢).

تَشبيهِها بنفْسِها؛ كِنايةً عن كونِها إذا أُرِيدَ تَشبيهُها وتَقريبُها بما هو أعرَفُ منها في بابِها، لم يجِدْ مُريدُ ذلك طَريقًا لنفْسِه في التَّشبيهِ إلَّا أنْ يُشبِّهَها بنفْسِها؛ لأنَّها لا يَفوقُها غيرُها في بابِها حتَّى تُقرَّبَ به[١].

- والمُرادُ بقولِه: ﴿نَقُصُّ﴾: قَصَصْنا، وإنَّما صِيغَ المُضارِعُ؛ لاستحضارِ الحالةِ الحَسنةِ في ذلك القَصصِ[٢].

- وتَقديمُ ﴿عَلَيْكَ﴾ على قولِه: ﴿مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[٣].

- قولُه: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ توكيدٌ لمعنى ﴿ءَاتَيْنَٰكَ﴾، وتَنويهٌ بشأْنِ القُرآنِ بأنَّه عطيَّةٌ كانت مَخزونةً عندَ اللهِ، فخَصَّ بها خيرَ عِبادِه[٤].

- ونُكِّرَ ﴿ذِكْرًا﴾ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ[٥].

- وتأخيرُه عن الجارِّ والمجرورِ -﴿مِن لَّدُنَّا﴾-؛ لِمَا أنَّ مَرجِعَ الإفادةِ في الجُملةِ كونُ المُؤْتَى من لدُنْه تعالى ذِكْرًا عَظيمًا، وقُرآنًا كريمًا جامِعًا لكلِّ كَمالٍ، لا كونُ ذلك الذِّكْرِ مُؤْتًى من لدُنْه عَزَّ وجَلَّ، مع ما فيه مِن نَوعِ طُولٍ بما بعْدَه مِن الصِّفةِ، فتَقديمُه يَذهَبُ برَونقِ النَّظمِ الكريمِ[٦].

٢- قوله تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٠- ٤١).

- قولُه: ﴿فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا﴾ يُرِيدُ بالوزْرِ: العُقوبةَ الثَّقيلةَ الباهظةَ، سمَّاها وِزْرًا؛ تَشبيهًا في ثِقَلِها على المُعاقَبِ، وصُعوبةِ احتمالِها؛ بالحِمْلِ الَّذي يُثقِلُ الحامِلَ، وينقُضُ ظَهْرَه. أو لأنَّها جَزاءُ الوِزْرِ، وهو الإثْمُ[(١)]، فعبَّرَ عن العُقوبةِ بالوِزرِ؛ لأنَّه سَبَبُها[(٢)].

٣- قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾

- جمَعَ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ على المعنى؛ لِمَا أنَّ الخُلودَ في النَّارِ ممَّا يَتحقَّقُ حالَ اجتماعِ أهْلِها[(٣)].

- قولُه: ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾ المَخصوصُ بالذَّمِّ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ الوِزْرِ السَّابقِ عليه، تَقديرُه: ساء حِمْلًا وِزْرُهم. واللَّامُ في قولِه: ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ﴾ لامُ التَّبيينِ. وهي مُبيِّنةٌ للمفعولِ في المعنى؛ لأنَّ أصْلَ الكلامِ: ساءَهُم الحِمْلُ؛ فَجِيءَ باللَّامِ لزِيادةِ تَبْيينِ تعلُّقِ الذَّمِّ بحمْلِه، فاللَّامُ لبَيانِ الَّذين تعلَّقَ بهم سُوءُ الحمْلِ[(٤)].

- وإعادةُ يومِ القيامةِ؛ لِزيادةِ التَّقريرِ، وتَهويلِ الأمْرِ[(٥)]، فإنهم لَمَّا كانوا مُنكِرينَ لِيَومِ القيامةِ، صرَّحَ بذِكرِه ثانيًا مع قُربِ العَهدِ، قارِعًا لأسماعِهم به،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٦- ٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤١).

مُجريًا له إجراءَ ما هو به جَديرٌ مِن أنَّه مُتحقِّقٌ، لا مِرية فيه(١).

٤- قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾

- قولُه: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ بدَلٌ من ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ في قولِه: ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴾، وهو اعتراضٌ بينَ جُملةِ ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ [طه: ٩٩] وما تَبِعَها، وبين جُملةِ ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [طه: ١١٣]؛ تخلُّصٌ لذِكْرِ البَعْثِ، والتَّذكيرِ به، والنِّذارةِ بما يحصُلُ للمُجْرِمين يومئذٍ(٢).

- قولُه: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يومَ إذ يُنْفَخُ في الصُّورِ، وذِكْرُه صَريحًا مع تَعيُّنِ أنَّ الحشْرَ لا يكونُ إلَّا يومئذٍ؛ للتَّهويلِ(٣).

٥- قوله تعالى: ﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾

- قولُه: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿ يَتَخَافَتُونَ ﴾(٤)، والتَّقديرُ: إنْ لبِثْتُم إلَّا عشَرةَ أيَّامٍ، وحسَّنَ الحذفَ هنا كونُ ذلك فاصِلَةَ رأْسِ آيةٍ(٥).



(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٣- ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨٣).

الآيات (١٠٥-١١٠)

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى
فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا
تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَنسِفُهَا﴾: أي: يَقلَعُها مِن أُصولِها، ويُقالُ: يُذريها ويُطَيِّرُها، يُقالُ: نَسَفَت الريحُ الشَّيءَ: أي: اقتلَعَتْه وأزالَتْه[١].

﴿قَاعًا﴾: أي: سهلةً مُستويةً، والقاعُ والقِيعُ: المستوي مِن الأرضِ، والموضعُ المنكشفُ، وأصلُ (قوع): يدلُّ على تبسُّطٍ في مكانٍ[٢].

﴿صَفْصَفًا﴾: أي: خاليةً، مَلساءَ، لا نباتَ فيها، ولا بِناءَ ولا ارتفاعَ ولا انْحِدارَ، والصَّفْصَفُ: المستوي مِن الأرضِ، كأنَّه على صفٍّ واحدٍ، وأصلُ (صفف): يدلُّ على استواءٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٧)، ((الغريبين)) للهروي (٤/ ١٠٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٥) و(٥/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٩١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٧)، ((الغريبين)) للهروي (٤/ ١٠٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٥) و(٥/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٣).

﴿عِوَجًا﴾: أي: هبوطًا أو مَيلًا، وأصل (عوج): يدلُّ على مَيلٍ في الشَّيءِ[١].

﴿أَمْتًا﴾: أي: ارتفاعًا، والأمتُ: المكانُ المُرتَفِعُ، وأصلُ الأمتِ: أن يَغلُظَ مكانٌ، ويَرِقَّ مكانٌ[٢].

﴿هَمْسًا﴾: أي: صَوتًا خَفيفًا، وقيل: هو الوَطءُ الخَفيُّ؛ وطءُ الأقدامِ، وأصلُ (همس): يدُلُّ على خَفاءِ صَوتٍ وحِسٍّ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا أحوالَ الجبالِ، وأحوالَ الناسِ يومَ القيامةِ: ويسألُك -يا محمَّدُ- قَومُك عن مصيرِ الجِبالِ يَومَ القيامةِ، فقُلْ لهم: يُزيلُها ربِّي عن أماكِنِها فيَجعَلُها هباءً مُنبَثًّا، فيترُكُ مواضِعَ الجبالِ حينئذٍ مُستويةً مَلساءَ، لا نباتَ فيها ولا بناءَ. لا يرى النَّاظِرُ إليها مَيْلًا ولا ارتِفاعًا ولا انخِفاضًا.

في ذلك اليومِ يَتبَعُ النَّاسُ صَوتَ الدَّاعي إلى مَوقِفِ القيامةِ، لا يَنحَرِفونَ عنه ولا يَزيغونَ. وسَكَنَت الأصواتُ؛ خُضوعًا للرَّحمنِ وخَوفًا، فلا تسمَعُ منها إلَّا صوتًا خفيًّا. في ذلك اليومِ لا تنفعُ الشَّفاعةُ أحدًا من الخَلقِ، إلَّا مَن أَذِنَ له الرَّحمنُ أن يَشفَعَ أو يُشفَعَ له، ورَضِيَ اللهُ قَولَ الشافعِ والمشفوعِ له، يعلَمُ اللهُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٤).

ما يَستَقبِلُه النَّاسُ مِن أمرِ القيامةِ، وما خَلْفَهم مِن أمرِ الدُّنيا، وهم لا يحيطُون بما بينَ أيديهم، ولا بما خلفَهم عِلمًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن بعضِ ما سبق، ثمَّ عن بعضِ ما يأتي من أحوالِ المُعرِضينَ عن هذا الذِّكرِ فيما يُنتِجُه لهم إعراضُهم عنه، وختَم ذلك باستقصارِهم مُدَّةَ لُبثِهم في هذه الدَّارِ؛ أخبَرَ عن بعضِ أحوالِهم في الإعراضِ، فقال[1]:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾.

أي: ويسألُك قومُك عن الجِبالِ -يا محمَّدُ- ما حالُها يومَ القيامةِ[2]؟!

﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾.

أي: فقُلْ لهم: يُزيلُ اللهُ الجبالَ يومَ القيامةِ مِن أماكِنِها، ويَدُكُّها دكًّا، ويُفَتِّتُها ثمَّ يُطَيِّرُها في الهواءِ[3].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ [المرسلات: ١٠].

﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ ﴾.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٧).

أي: فيَترُكُ اللهُ مواضِعَ الجبالِ أرضًا سهلةً مُستويةً، لا نباتَ فيها ولا بناءَ ولا ارتفاعَ[(١)].

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمۡتًا ١٠٧﴾.

أي: لا ترى -أيُّها النَّاظِرُ- في الأرضِ يوم القيامةِ مَيلًا عن الاستواءِ؛ لا ارتفاعًا ولا انخفاضًا، ولو كان ذلك يسيرًا[(٢)].

﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ١٠٨﴾.

﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾.

أي: في ذلك اليومِ الذي تقَعُ فيه تلك الأحوالُ والأهوالُ يتَّبِعُ النَّاسُ -حين يَخرُجونَ مِن قُبورِهم- صوتَ المَلَكِ الذي يدعوهم جميعًا بلا استثناءٍ إلى مَوقِفِ القيامةِ، فيَقصِدونَه مِن كُلِّ ناحيةٍ، لا يَنحَرِفونَ ولا يَزيغونَ عنه، بل يتوجَّهونَ صَوبَ ناحيتِه وصَوتِه[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ * خُشَّعًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٧).
وذهَب القرطبي وابنُ كثيرٍ إلى أنَّ المعنى واحدٌ في القاعِ والصفصفِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٤، ١٦٦، ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٦، ٢٤٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠٠).

﴿أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ * مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ [القمر: ٦ - ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ * يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ * إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ * يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ [ق: ٤١ - ٤٤].

﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾.

أي: وسكَنَت أصواتُ الخلائِقِ يومَ القيامةِ للرَّحمنِ خُضوعًا له وخَوفًا وهَيبةً منه، مُنتَظِرينَ لحُكمِه، فلا تَسمَعُ لهم -أيُّها السَّامِعُ[1]- إلَّا صَوتًا خَفيضًا لوطءِ أقدامِهم، أو لحديثِهم الخافِتِ[2].

﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩﴾.

أي: في يَومِ القيامةِ لا تَنفَعُ الشَّفاعةُ أحدًا مِن الناسِ لا الشَّافِعَ ولا المشفوعَ له، إلَّا شفاعةَ مَن أذِنَ له الرَّحمنُ أن يَشفَعَ أو يُشفَعَ له، ورَضِيَ اللهُ قَولَ الشَّافِعِ والمشفوعِ له[3].

(١) قال ابن عاشور: (الخطابُ بقولِه: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا﴾ وقولِه: ﴿فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ خطابٌ لغيرِ معينٍ، أي: لا يرى الرائي، ولا يسمعُ السامعُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦٧، ١٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٤، ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٨٧ - ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٠). =

= ممن اختار أنَّ الإذنَ والرضا للشافعِ: ابن جرير، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٠).

قال ابنُ عاشور: (واستثناءُ ﴿مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مِن عمومِ الشَّفاعةِ باعتبارِ أنَّ الشَّفاعةَ تقْتَضي شافعًا؛ لأنَّ المصدرَ فيه معنَى الفعلِ، فيقْتَضي فاعلًا، أي: إلَّا أنْ يشفَعَ مَن أذِن له الرحمنُ في أنْ يشفَعَ... وقولُه ﴿وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ عائدٌ إلى ﴿مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ وهو الشَّافعُ). ((تفسير ابن عاشور (١٦/ ٣١٠).

وممن اختار أنَّ الإذنَ ورضا القول للمشفوعِ له: الواحدي، وابن الجوزي، والرازي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠١).

وذكر الرازي ثلاثة أوجه في ترجيح هذا القولِ، ومنها: (أنَّ مِن المعلومِ بالضَّرورةِ أنَّ درجةَ الشَّافعِ درجةٌ عظيمةٌ؛ فهي لا تحصُلُ إلَّا لمَنْ أذِنَ اللَّه له فيها وكان عندَ اللَّه مَرْضِيًّا، فلو حَمَلْنا الآيةَ على ذلك صارَتْ جاريةً مجرَى إيضاحِ الواضحاتِ، أمَّا لو حَمَلْنا الآيةَ على المشفوعِ له لم يَكُنْ ذلك إيضاحَ الواضحاتِ؛ فكان ذلك أولَى). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠١).

وممن اختار أن الإذن للشافع، ورضا القول للمشفوع له: ابن الجوزي، وابن القيم، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٢١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٢٧).

قال ابن القيم: (وقال: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ فأخبر اللهُ تعالى أنه لا يحصُلُ يومئذٍ شفاعةٌ تَنفعُ إلَّا بعدَ أن يرضَى اللهُ سُبحانَه قَولَ المَشفوعِ له، ويأذَنَ للشَّافِعِ فيه ... فإنَّه سبحانه علَّقها بأمرين: رضاه عن المشفوعِ له، وإذنِه للشافعِ، فما لم يوجدْ مجموعُ الأمرينِ لم تُوجدِ الشفاعةُ). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٢٢٠).

وممَّن جمَع بين المعاني السَّابقةِ: ابنُ تيميَّةَ، فقال: (الشَّفاعةُ مَصدرٌ لا بدَّ لها من شافعٍ ومَشفوعٍ له. والشَّفاعةُ: تعُمُّ شَفاعةَ كُلِّ شافعٍ، وكُلَّ شفاعةٍ لِمَشفوعٍ له؛ فإذا قال: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ نفى النوعينِ: شفاعةَ الشُّفَعاءِ، والشَّفاعةَ للمُذنِبينَ؛ فقَولُه: ﴿إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ يتناولُ النَّوعينِ: مَن أذِنَ له الرَّحمنُ ورَضِيَ له قَولًا مِن الشُّفعاءِ، ومَن أذِنَ له الرحمنُ ورَضِيَ له قولًا من المشفوعِ له، وهي تنفعُ المشفوعَ له فتُخَلِّصُه من العذابِ، وتنفَعُ الشَّافِعَ فتُقبَلُ منه ويُكرَمُ بقَبولِها ويثابُ عليها، والشَّفاعةُ يومَئذٍ لا تنفَعُ لا شافِعًا ولا مشفوعًا له ﴿إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ [النبأ: ٣٨]؛ فهذا الصِّنفُ المأذونُ لهم المرضِيُّ قولُهم: هم الذين يحصُلُ لهم نَفعُ =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال سُبحانه: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ [النبأ: ٣٨].

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠﴾.

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾.

أي: يعلَمُ الله ما يَستَقبِلُه الخلائِقُ[1] ممَّا يكونُ في الآخرةِ، ويعلَمُ ما مضَى وراءَهم مِن أمورِ الدُّنيا وأعمالِهم فيها[2].

= الشَّفاعةِ، وهذا مُوافِقٌ لسائرِ الآياتِ). ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٩٢).

(١) ممن اختار أنَّ الضميرَ في قولِه: ﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾ و﴿خَلۡفَهُمۡ﴾ يعودُ إلى الخلائقِ: ابنُ كثيرٍ، والبقاعي، والشربيني، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٤٨)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٣٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥٧).

وقيل: الضميرُ يعودُ إلى الذين يتَّبعون الدَّاعي. وممن اختاره: ابنُ جريرٍ، وابنُ الجوزي، والرازي. يُنظر ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٧٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥٧).

قال الرازي: (ذكروا في قولِه تعالَى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ وجوهًا:

أحدُها: قال الكلبيُّ: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مِن أمرِ الآخرةِ ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ مِن أمرِ الدُّنيا.

وثانيها: قال مجاهدٌ: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مِن أمرِ الدُّنيا والأعمالِ، ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ مِن أمرِ الآخرةِ والثَّوابِ والعقابِ. =

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

أي: وهم لا يحيطُون[1] بما بينَ أيديهم، ولا بما خلفَهم علمًا[2].

= وثالثُها: قال الضَّحَّاكُ: يعلمُ ما مضَى وما بَقِي، ومتى تكونُ القيامةُ. ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٢).
وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: هو كلُّ ما يعلمونَه ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: هو كلُّ ما غابَ عنهم علمُه. وذهَب إليه البقاعي في ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٤٨).
وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: الأعمالُ الظاهرةُ، وبقولِه: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: السرائرُ. وذهب إليه ابن عاشور في ((تفسيره)) (١٦/ ٣١١).

(١) قال السمعاني: (الإحاطةُ بالشَّيءِ: هي العلمُ بالشَّيءِ مِن كلِّ جهةٍ يجوزُ أن يُعلمَ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٨٨).
قال ابنُ القيِّم: (وقد اختُلِف في تفسيرِ الضَّميرِ في ﴿بِهِۦ﴾ فقيل: هو اللهُ سُبحانَه، أي: ولا يُحيطونَ باللهِ عِلمًا. وقيل: هو ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فعلى الأوَّلِ يَرجِعُ إلى العالِمِ، وعلى الثَّاني يرجِعُ إلى المعلومِ، وهذا القَولُ يَستلزِمُ الأوَّلَ مِن غيرِ عَكسٍ؛ لأنَّهم إذا لم يُحيطوا ببَعضِ مَعلوماتِه المتعَلِّقةِ بهم فألَّا يُحيطوا عِلمًا به سُبحانه أَولى). ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٣٧٢).
وممن اختار أنَّ الضمير يعودُ إلى (مَا) في قولِه: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: الواحدي، والرازي، والرسعني، وابنُ تيمية. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٣٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٢)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٨٨).
وذكر الرازي أن هذا القول أولى (لوجهينِ: أحدُهما: أنَّ الضَّميرَ يجبُ عودُه إلى أقربِ المذكوراتِ، والأقربُ هاهنا قولُه: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾. وثانيهما: أنَّه تعالَى أوْرَد ذلك موردَ الزَّجرِ لِيُعْلَمَ أنَّ سائرَ ما يُقْدِمونَ عليه وما يستحِقُّونَ به المجازاةَ معلومٌ للَّه تعالَى). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٢).
وقال ابن تيمة: (الراجحُ... أن الضميرَ عائدٌ إلى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، وإذا لم يحيطوا بهذا علمًا وهو بعض مخلوقاتِ الرَّبِّ فألَّا يحيطوا علمًا بالخالق أولى وأحرى! قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٩]). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٨٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سُبحانه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- بيَّنَ الله تعالى الأحوالَ التي تصيرُ إليها الجِبالُ يومَ القيامةِ في آياتٍ مِن كتابِه، فبَيَّنَ أنَّه ينزِعُها مِن أماكِنِها، ويحمِلُها فيدُكُّها دكًّا، وذلك في قَولِه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٣- ١٤]، ثمَّ بيَّنَ أنَّه يُسَيِّرُها في الهواءِ بينَ السَّماءِ والأرضِ، وذلك في قَولِه: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]... ثمَّ بَيَّنَ أنه يُفتِّتُها ويدقُّها، كقولِه: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥]... ثمَّ بيَّنَ أنَّه يصَيِّرُها كالرَّملِ المتهايلِ، وكالعِهنِ المنفوشِ، وذلك في قَولِه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، وقولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨، ٩]... ثمَّ بَيَّنَ أنَّها تَصيرُ كالهباءِ المنبَثِّ في قَولِه: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥- ٦]، ثمَّ بيَّنَ أنَّها تصيرُ سرابًا، وذلك في قولِه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ

= وممن اختار أنَّ الضميرَ في ﴿بِهِۦ﴾ يرجعُ إلى الله: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جريرٍ، والسمعاني، والقرطبيُّ، وابنُ جُزي، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥٧)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٧٣).

سَرَابًا ﴾ [النبأ: ٢٠]... وبيَّنَ أنَّه يَنسِفُها نسفًا في قولِه هنا: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ هذه الآيةُ مِن أقوى الدَّلائِلِ على ثُبوتِ الشَّفاعةِ في حَقِّ الفُسَّاقِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ يكفي في صدقِه أن يكونَ الله تعالى قد رضي له قولًا واحدًا من أقوالِه، والفاسقُ قد ارتضى اللهُ تعالى قولًا واحدًا مِن أقوالِه وهو: شهادةُ أن لا إله إلا الله، فوجَب أن تكونَ الشفاعةُ نافعةً له؛ لأنَّ الاستثناءَ مِن النفيِ إثباتٌ، وذلك بناءً على أنَّ الآيةَ محمولةٌ على المشفوعِ له[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ دليلٌ على أنَّ الشفاعةَ مأذونٌ فيها لخصوصٍ مِن النَّاسِ، وأنَّ غيرَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَشفَعُ فيُشَفَّعُ، وإنْ كانت الشَّفاعةُ العُظمى له[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ أخبر اللهُ تعالى أنه لا يحصُلُ يومئذٍ شفاعةٌ تَنفَعُ إلَّا بعد أن يرضى اللهُ -سُبحانَه- قَولَ المَشفوعِ له، ويأذَنَ للشَّافِعِ فيه، على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ، فأمَّا المشركُ فإنَّه لا يَرتَضيه ولا يرضَى قولَه، فلا يَأذَنُ للشُّفَعاءِ أنْ يَشفَعوا فيه؛ فإنَّه سُبحانَه علَّقَها بأمرَينِ: رِضاه عن المشفوعِ له، وإذْنِه للشَّافعِ، فما لم يُوجَدْ مجموعُ الأمرينِ لم تُوجَدِ الشَّفاعةُ[٤].

٥- قَولُه تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ فيه إثباتُ عِلْمِ الله تعالى؛

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٢٢١).

وأنَّه عامٌّ في الماضي والحاضرِ والمُستقبَلِ، وفيه ردٌّ على القدريَّةِ الغُلاةِ؛ فإثباتُ عُمومِ العِلْمِ يَرُدُّ عليهم؛ لأنَّ القَدَريَّةَ الغُلاةَ أنكروا عِلْمَ اللهِ بأفعالِ خَلقِه إلَّا إذا وَقَعَت[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ دلالةٌ على نفيِ الإحاطةِ بالله عِلمًا -وذلك بناءً على أنَّ الضميرَ يرجِعُ إلى الله- وهذا شاملٌ للإحاطةِ بذاتِه وصفاتِه، فلا يَعلَمُ حقيقةَ ذاتِه وكُنْهَها إلَّا هو سُبحانه وتعالى، وكذلك صِفاتُه، فاللهُ تعالى أجَلُّ وأعظَمُ مِن أن تُحيطَ به الأفكارُ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾

- قولُه: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ الفاءُ للمُسارَعةِ إلى إلْزامِ السَّائلينَ[٣]، لأنَّ مقصودَهم مِن هذا السؤالِ الطعنُ في الحشرِ والنشرِ، فلا جَرَمَ أمَره بالجوابِ مقرونًا بفاءِ التعقيبِ[٤]. وأكَّدَ يَنْسِفُها بـ﴿نَسْفًا﴾؛ لإثباتِ أنَّه حقيقةٌ لا استعارةٌ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ فجَمِيعُ ما جاء في القُرآنِ من السُّؤالِ أُجيبَ عنه بـ «قُلْ» بلا فاءٍ، إلَّا في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾، فإنَّهُ أُجيبَ بالفاءِ. قيل: وجْهُه: أنَّ الأجوبةَ في الجميعِ كانتْ بعدَ السُّؤالِ، وهنا قبْلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (٣/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٧٦)، (٥/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٧).

وُقُوعِ السُّؤالِ؛ فكأنَّهُ قيل: إنْ سُئِلْتَ عنِ الجِبالِ، فَقُلْ: يَنْسِفُها رَبِّي[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ لمَعنى ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾؛ لزيادةِ تَصويرِ حالةٍ، فيَزِيدُ تَهويلُها[٢]، وقيل: استئنافٌ مُبيِّنٌ للحالينِ[٣].

- وفيه تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيهَا﴾ على المفعولِ الصَّريحِ ﴿عِوَجًا﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، مع ما فيه من طُولٍ رُبَّما يُخِلُّ تَقديمُه بتجاوُبِ أطرافِ النَّظمِ الكريمِ[٤].

- وفيه ما يُعْرَفُ بـ«التَّنكيتِ»، وهو أنْ يخُصَّ المُتكلِّمُ شيئًا بالذِّكرِ دونَ غيرِه، ممَّا يسُدُّ مَسدَّه وما يَقْتضيهِ ظاهِرُ الكلامِ؛ لأجْلِ نُكْتةٍ في المذكورِ تُرجِّحُ مَجِيئَه على سِواهُ[٥]؛ فاختِيارُ (العِوَجِ) بالكَسْرِ في هذه الآيةِ له مَوضعٌ حسَنٌ بَديعٌ في استواءِ الأرضِ، ووصْفِها بالمَلاسةِ، وانتفاءِ الاعوجاجِ عنها على أبلَغِ وجْهٍ؛ وذلك أنَّه لو عُمِدَ إلى قطْعةٍ مِن الأرضِ، فسُوِّيَت وبُولِغَ في تَسويتِها على عَينِ مَن سوَّاها وعلى عُيونِ البُصراءِ بالأراضي، واتَّفقوا بالإجماعِ على أنَّه لم يبْقَ فيها اعوجاجٌ قطُّ، ثمَّ عمَدَ أهْلُ التَّخصُّصِ بالمقاييسِ المَبْنيَّةِ على العِلْمِ الدَّقيقِ: لَعُثِرَ فيها على عِوَجٍ في غيرِ مَوضعٍ، لا يُدْرَكُ ذلك بحاسَّةِ البصرِ، ولكن بالقياسِ الهندسيِّ الَّذي لا يَضِلُّ ولا يَعزُبُ عنه القليلُ النَّادِرُ؛

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٨٣ - ٨٤)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ١٥٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٢).

(٥) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٢/ ٥٥).

فنَفَى اللهُ سُبحانه ذلك العِوَجَ الَّذي دَقَّ ولطُفَ عن الإدراكِ والفَهْمِ، اللَّهُمَّ إلَّا بالقياسِ الَّذي يَعرِفُه صاحِبُ التَّقديرِ والهندسةِ، وذلك الاعوجاجُ لمَّا لم يُدْرَكْ إلَّا بالقياسِ دونَ الإحساسِ، ولَحِقَ بالمعاني، وسَمَا عن الأعيانِ؛ فقيل فيه: (عِوَج) بالكسْرِ[١].

٣- قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ قدَّمَ الظَّرفَ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على عامِلِه ﴿يَتَّبِعُونَ﴾؛ للاهتمامِ بذلك اليومِ، وليكونَ تَقديمُه قائمًا مَقامَ العطْفِ في الوصْلِ، أي: يتَّبِعون الدَّاعِيَ يومَ يَنسِفُ ربُّكَ الجِبالَ[٢].

- وبينَ قولِه: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا﴾ [طه: ١٠٧] وقولِه: ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ مُراعاةُ النَّظيرِ[٣]؛ فكما جعَلَ اللهُ الأرضَ يومئذٍ غيرَ مُعوجَّةٍ ولا ناتئةٍ، كما قال: ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤]، كذلك جعَلَ سَيْرَ النَّاسِ عليها لا عِوَجَ فيه ولا مُراوغةَ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨٣- ٣٨٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٨- ٣٠٩).

(٣) مراعاة النَّظير: عبارةٌ عن الجمعِ بينَ المتشابِهات، أو الجَمعِ بينَ أمْرينِ أو أُمورٍ مُتناسِبةٍ، لا على جِهةِ التَّضادِّ، وذلك إمَّا بينَ اثنينِ، كقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وإمَّا بين أكثرَ، كقولِه تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]. ويُلحَقُ بمراعاةِ النَّظيرِ: ما بُنِي على المناسَبةِ في المعنى بينَ طَرفَيِ الكلامِ، وما بُني على المناسَبةِ في اللفظِ باعتِبارِ معنًى له غَيرِ المعنى المَقصودِ في العِبارةِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٤)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٠٤)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٠٨- ٣٠٩).

٤- قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾

- جُملةُ: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ مُستأنَفةٌ بيانيَّةٌ لجوابِ سُؤالِ مَن قدْ يسأَلُ بَيانَ ما يُوجِبُ رِضَا اللهِ عن العبْدِ الَّذي يأْذَنُ بالشَّفاعةِ فيه؛ فبيَّنَ بَيانًا إجماليًّا بأنَّ الإذْنَ بذلك يَجْري على ما يَقْتضيه عِلْمُ اللهِ بسائرِ العبيدِ، وبأعمالِهم الظَّاهرةِ، فعبَّرَ عن الأعمالِ الظَّاهرةِ بـ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لأنَّ شأْنَ ما بينَ الأيدي أنْ يكونَ واضِحًا، وعبَّرَ عن السَّرائرِ بـ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ لأنَّ شأْنَ ما يُجْعَلُ خلْفَ المَرْءِ أنْ يكونَ مَحجوبًا؛ فهو كِنايةٌ عن الظَّاهراتِ والخَفيَّاتِ[1]، على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ.

- وجُملةُ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ تَذييلٌ؛ للتَّعليمِ بعظَمَةِ عِلْمِ اللهِ تعالى، وضآلَةِ عِلْمِ البشَرِ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١١-١١٤)

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ
ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ
مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَعَنَتِ﴾: أي: ذَلَّتْ واستَسلَمَت، وأصلُه: يدُلُّ على خُضوعٍ وذُلٍّ[(١)].

﴿ٱلْقَيُّومِ﴾: أي: القائمِ بنفسِه؛ فلا يحتاجُ إلى مَن يُقيمُه بوجهٍ مِن الوجوهِ، المقيمِ لِكُلِّ مَا سِوَاهُ؛ فلا قيامَ لغيرِه إلا بإقامتِه، وأصلُ (قوم): يدلُّ على انتِصابٍ وعَزمٍ[(٢)].

﴿خَابَ﴾: أي: خَسِرَ وفَاتَه الظَّفَرُ، وأصلُ (خيب): يدُلُّ على عَدَمِ فائدةٍ، وحِرمانٍ[(٣)].

﴿هَضْمًا﴾: أي: نَقصًا وظُلمًا، وأصلُ (هضم): يدُلُّ على كَسرٍ وضَغْطٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٤٦، ١٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٩٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٢)، ((تذكرة =

﴿وَصَرَّفْنَا﴾: أيْ: نوَّعْنا، وبيَّنَّا، والصَّرفُ: ردُّ الشَّيءِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، وأصلُه: يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: وخَضَعَت وجوهُ الخلائِقِ وذلَّت لخالِقِها، ذي الحياةِ الكاملةِ، الذي لا يَموتُ، القائِمِ على تدبيرِ كلِّ شيءٍ، المُستغني عمَّن سِواه. وقد خَسِرَ يومَ القيامةِ مَن أشرَكَ مع اللهِ أحدًا مِن خَلقِه، أو عَمِلَ بمَعصيتِه.

ثمَّ يبشِّرُ الله تعالى عبادَه المؤمنينَ، فيقولُ: ومَن يعمَلْ مِن صالحاتِ الأعمالِ وهو مؤمِنٌ بربِّه، فلا يخافُ ظُلمًا بزيادةِ سَيِّئاتِه، ولا هَضمًا بنَقصِ حَسَناتِه.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى اختصاصَ هذا الكتابِ بكونِه عربيًّا، ويبيِّنُ بعضَ الحكمِ مِن إنزالِه، فيقول: وكذلك أنزَلْنا هذا القُرآنَ باللِّسانِ العَرَبيِّ؛ لتُفهَمَ معانيه، وفصَّلنا فيه وكرَّرْنا أنواعًا مِن الوَعيدِ؛ رجاءَ أن يتَّقوا رَبَّهم، أو يُحدِثَ لهم هذا القرآنُ تَذكِرةً.

ثمَّ يقولُ تعالى مثنيًا على ذاتِه: فتنزَّه اللهُ -سبحانَه- وارتفَعَ وتقدَّسَ عن كُلِّ نَقصٍ، المَلِكُ الذي قهَرَ سلطانُه كلَّ ملكٍ وجبَّارٍ، وله وَحدَه الأمرُ والنَّهيُ، وهو الحَقُّ المطلقُ مِن كلِّ وجهٍ وبكلِّ اعتبارٍ.

ثمَّ ينهَى نبيَّه عن التعجُّلِ بقراءةِ القرآنِ، ويأمُرُه بسؤالِ المزيدِ مِن العلمِ، فيقولُ: ولا تعجَلْ -يا محمَّدُ- بمُسابقةِ جِبريلَ في تَلَقِّي القُرآنِ قبل أن يَفرُغَ منه،

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٤).

والفرقُ بين الظلمِ والهضمِ أنَّ الظلمَ المنعُ مِن الحقِّ كلِّه، والهضمُ المنعُ مِن بعضِه، والهضمُ ظلمٌ وإن افترقا مِن وجهٍ. ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٠).

وقُلْ: ربِّ زِدْني عِلمًا إلى ما عَلَّمتَني.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾.

أي: وخضَعت وذلَّت واستسلَمَت وجوهُ الخلائِقِ يومَ القيامةِ للهِ ذي الحياةِ الكامِلةِ -الذي لا يموتُ ولا ينامُ-، القائِمِ بنفسِه، المقيمِ لغيرِه[1].

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

أي: وقد خَسِر مَن أتَى يومَ القيامةِ وهو يحمِلُ شِركًا أو كُفرًا بالله، أو عمَلًا بمَعصيتِه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧١)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠١، ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٨).

قال ابنُ عطية: (الظُّلمُ يعُمُّ الشركَ والمعاصيَ، وخَيبةُ كلِّ حاملٍ بقَدرِ ما حَمَل من الظُّلم، فخيبةُ المُشرِك على الإطلاقِ، وخيبةُ العاصي مُقيَّدةٌ بوقتٍ وحَدٍّ في العقوبةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠١).

((إنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ))[١].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا شرَحَ الله تعالى أحوالَ يومِ القيامةِ، ختَمَ الكلامَ فيها بشَرحِ أحوالِ المؤمنينَ، فقال[٢]:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

أي: ومَن يعمَلْ مِن[٣] صالحاتِ الأعمالِ وهو مُؤمِنٌ باللهِ وبِوَعدِه ووَعيدِه، غيرُ مُشرِكٍ به؛ فلا يخافُ ظُلمًا بأن يُزادَ في سيئاتِه، ولا هَضمًا بأن يُنقَصَ من حَسَناتِه[٤].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾.

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٩) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٣).

(٣) قال القرطبي: (﴿مِنَ﴾ في قوله ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للتبعيض، أي: شيئًا مِن الصالحاتِ. وقيل: للجِنسِ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٩، ٤٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٨)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾.

أي: وكذلك[١] أنزَلْنا القرآنَ بلُغةِ العَرَبِ واضِحًا؛ لتُفهَمَ معانيه[٢].

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ ﴾.

أي: وكرَّرنا في القُرآنِ آياتِ التَّخويفِ والتَّهديدِ بأساليبَ مُتَنوِّعةٍ[٣].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾.

أي: أنزَلْنا القرآنَ عربيًّا وصرَّفْنا فيه الوعيدَ للنَّاسِ؛ ليتَّقوا اللهَ أو لِيَتَذكَّروا[٤].

---

(١) قال الواحديُّ: (قولُه تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي: وكما بيَّنَّا في هذه السورةِ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أنزلنا هذا الكتابَ ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ ﴾ أي: بيَّنا فيه ضروبَ الوعيدِ وما فيه العقابُ). ((البسيط)) (١٤/ ٥٣٨).

وقال الزمخشري: (﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ عطفٌ على ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ ﴾ أي: ومثلَ ذلك الإنزالِ، وكما أنزلنا عليك هؤلاء الآياتِ المضمنةَ للوعيدِ أنزلنا القرآنَ كلَّه على هذه الوتيرةِ، مكررين فيه آياتِ الوعيدِ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤).

قال الخازن: (يدخلُ تحتَ الوعيدِ بيانُ الفرائضِ والمحارمِ؛ لأنَّ الوعيدَ بهما يتعلَّقُ، فتكريرُه وتصريفُه يقتضي بيانَ الأحكامِ). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢١٣).

وقال السعدي: (﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ ﴾ أي: نوَّعناها أنواعًا كثيرةً؛ تارةً بذكرِ أسمائِه الدالةِ على العدلِ والانتقامِ، وتارةً بذكرِ المثلاتِ التي أحلَّها بالأممِ السابقةِ، وأمر أن تعتبرَ بها الأممُ اللاحقةُ، وتارةً بذكرِ آثارِ الذنوبِ، وما تكسبُه مِن العيوبِ، وتارةً بذكرِ أهوالِ القيامةِ، وما فيها مِن المزعجاتِ والمقلقاتِ، وتارةً بذكرِ جهنمَ وما فيها مِن أنوعِ العقابِ وأصنافِ العذابِ، كلُّ هذا رحمةٌ بالعبادِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤). =

﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عظَّمَ الله تعالى أمْرَ القرآنِ؛ أردَفَه بأن عظَّمَ نَفسَه؛ تنبيهًا على ما يلزَمُ خَلْقَه مِن تَعظيمِه، فقال[1]:

﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: فتعاظَمَ اللهُ المستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه، وارتفَعَ على جميعِ خَلْقِه، وتنزَّه وتقدَّسَ عن النَّقائِصِ، المَلِكُ الذي قهَرَ سلطانُه كلَّ ملكٍ وجبَّارٍ، وله وَحدَه الأمرُ والنَّهيُ، وهو الحَقُّ المطلقُ مِن كلِّ وجهٍ وبكلِّ اعتبارٍ، فذاتُه الحقُّ، وقولُه الحقُّ، ووعدُه الحقُّ، وأمرُه الحقُّ، وأفعالُه كلُّها حقٌّ، وجزاؤُه المستلزمُ لشرعِه ودينِه ولليومِ الآخِرِ حقٌّ[2].

= قال ابنُ كثير: (﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يَترُكونَ المآثمَ والمحارِمَ والفواحشَ، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ وهو إيجادُ الطَّاعةِ وفعلُ القرباتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٩).

وقال السمعاني: (وقولُه: ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: يحدِثُ لهم القرآنُ اعْتِبارًا؛ فيعتبرونَ به. وقالَ بعضُهم: يحدِثُ لهم الوعيدُ ذكرَ العذابِ؛ فينزجرونَ عن المعاصي. وقال بعضُهم: أو يحدِثُ لهم ذكرًا أي: شرفًا لإيمانِهم به). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤).

قال ابن القيم: (فكما أنَّ ذاتَه الحَقُّ، فقَولُه الحَقُّ، ووعدُه الحقُّ، وأمرُه الحقُّ، وأفعالُه كُلُّها حَقٌّ، وجزاؤُه المستلزِمُ لِشَرعِه ودينِه ولليومِ الآخِرِ حَقٌّ، فمن أنكر شيئًا من ذلك فما وصف اللهَ بأنَّه الحقُّ المطلَقُ مِن كُلِّ وَجهٍ وبكُلِّ اعتبارٍ؛ فكونُه حقًّا يستلزِمُ شَرعَه ودينَه وثوابَه وعقابَه، فكيف يُظَنُّ بالمَلِك الحقِّ أن يخلُقَ خَلقَه عبثًا، وأن يترُكَهم سُدًى لا يأمُرُهم ولا ينهاهم، ولا يثيبُهم ولا يعاقِبُهم؟!). ((بدائع الفوائد)) (٤/ ١٦٥).

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقال سُبحانَه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حريصًا على صلاحِ الأُمَّةِ شَديدَ الاهتمام بنجاتِهم، لا جَرَمَ خَطَرتْ بقلبِه الشَّريفِ عَقِبَ سماعِ تلك الآياتِ رغبةٌ أو طِلبَةٌ في الإكثارِ مِن نُزولِ القرآنِ وفي التَّعجيلِ به؛ إسراعًا بعظَةِ النَّاسِ وصلاحِهم؛ فَعَلَّمه اللَّهُ أنْ يَكِلَ الأمرَ إليه؛ فإنَّه أعلمُ بحيثُ يُناسِبُ حالَ الأُمَّةِ العامَّ[1].

وأيضًا لمَّا ذكَر القرآنَ وإنزالَه قال على سبيلِ الاستطرادِ طالبًا منه التَّأَنِّيَ في تَحفُّظِ القرآنِ[2]:

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾.

أي: ولا تُبادِرْ -يا محمَّدُ- بتلاوةِ وحفظِ ما يَقرَؤُه عليك جبريلُ مِن قَبلِ أن يَنتهيَ مِن تلاوتِه عليك، بل استَمِعْ له حتى يفرُغَ مِن قِراءتِه؛ فإنَّ اللهَ قد ضَمِنَ لك جمعَه في صَدرِك، وقراءتَك إيَّاه[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٠).

وممن اختار المعنى المذكور: ابن تيمية، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال السمعاني: (المشهورُ ما ذكَره ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه، أنَّ النَّبيَّ كان إذا نزَل عليه جبريلُ بالقرآنِ، =

كما قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾. [القيامة: ١٦ - ١٩].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا نزَلَ عليه الوحيُ حَرَّك به لسانَه، يريدُ أن يحفَظَه، فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦]))(١).

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ-: يا رَبِّ، زِدْني عِلمًا إلى ما عَلَّمْتَني مِنَ الوَحيِ(٢).

عن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ الله عنها، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان يقولُ إذا صَّلى الصُّبحَ حينَ يُسَلِّمُ: ((اللهُمَّ، إني أسألُك عِلمًا نافِعًا، ورِزقًا طَيِّبًا، وعَمَلًا مُتَقبَّلًا))(٣).

= تلا أوَّلَ الآيةِ قبلَ أنْ يفرُغَ جبريلُ مِن الإبلاغِ مخافَةَ التفلُّتِ منه والنِّسيانِ؛ فأنزلَ الله تعالَى هذه الآيةَ. ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٥٧).

وقيل: المعنى: ولا تعجَلْ -يا محمَّدُ- بالقرآنِ فتُقرِئَه أصحابَك من قبل أن يُوحى إليك بيانُ معانيه. وممن ذهب إلى ذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٩).

(١) رواه البخاري (٤٩٨٢)، ومسلم (٣٠١٦) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٦)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٧٧).

قال ابن كثير: (قال ابنُ عيينةَ رحمه الله: ولم يزَلْ صلَّى الله عليه وسلَّم في زيادةٍ مِن العِلمِ حتى توفَّاه الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣١٩).

(٣) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٩٩٣٠)، وابن ماجه (٩٢٥) واللفظ له، وأحمد (٢٦٦٠٢). حسَّنه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٣٢٩)، وقال: وله شاهد. وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٢/ ٣٥٠): رجاله ثقات لولا جهالةُ مولى أم سلمة. وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٩٢٥).

وأخرجه الطبراني في ((المعجم الصغير)) (٧٣٥)، والإسماعيلي في ((المعجم)) (٢٥٥)، =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾ يؤخَذُ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ الأدَبُ في تلقِّي العِلمِ، وأنَّ المُستَمِعَ للعِلمِ ينبغي له أن يتأنَّى ويَصبِرَ حتى يَفرُغَ المُملي والمعَلِّمُ مِن كلامِه المتَّصِلِ بعضُه ببعضٍ، فإذا فرَغ منه سأَلَ إن كان عندَه سؤالٌ، ولا يُبادِرَ بالسُّؤالِ وقَطعِ كَلامِ مُلقِي العِلمِ؛ فإنَّه سبَبٌ للحِرمانِ، وكذلك المسؤولُ ينبغي له أن يستمليَ سُؤالَ السائِلِ، ويَعرِفَ المَقصودَ منه قبلَ الجَوابِ؛ فإنَّ ذلك سَبَبٌ لإصابةِ الصَّوابِ(١).

٢- في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ أدبُ طالب العلمِ، وأنه ينبغي له أن يتأنَّى في تدبرِه وتأملِه للعلمِ، ولا يستعجلَ بالحكمِ على الأشياءِ ولا يُعجَبَ بنفسِه، ويسألَ ربَّه العلمَ النافعَ والتسهيلَ(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ أمَرَ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يسأَلَه زيادةَ العِلمِ؛ فإنَّ العِلمَ خَيرٌ، وكَثرةُ الخيرِ مَطلوبةٌ، وهي مِنَ الله، والطَّريقُ إليها الاجتِهادُ والشَّوقُ للعِلمِ، وسؤالُ اللهِ والاستعانةُ به، والافتِقارُ إليه في كُلِّ وَقتٍ(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا

= وأبو نعيم في ((تاريخ أصبهان)) (١/ ٤٦٤) من طريق آخر عن أم سلمة رضي الله عنها. وثَّق رجالَه الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ١١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحيم الملك العلام)) للسعدي (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤).

هَضۡمٗا ﴾ هذا مما يدلُّ على أنَّ اللهَ قادرٌ على الظلمِ؛ ولكنْ لا يفعلُه فضلًا منه وجودًا وكرمًا وإحسانًا إلى عباده[١]، لأنَّه لو كان الظلمُ مستحيلًا، لا يمكنُ وجودُه؛ لم يكن لِعَدَمِ الخوفِ منه معنًى، ولا للأمْنِ مِن وقوعِه فائدةٌ[٢].

٢- لما كان الإنسانُ محلَّ العجزِ وإن اجتَهد، قال الله تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: التي أمره الله بها بحسبِ استطاعتِه؛ لأنَّه لن يقدُرَ اللهَ أحدٌ حقَّ قدرِه، ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلَبه[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾ إنَّما وصَفَ مُلكَه بالحَقِّ؛ لأنَّ مُلكَه لا يزولُ ولا يتغَيَّرُ، وليس بمستفادٍ مِن قِبَلِ الغَيرِ، ولا غيرُه أولى به؛ ولهذا وُصِفَ بذلك[٤].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾ في هذا دليلٌ على أنَّ التأنِّيَ في العِلمِ بالتَّدبُّرِ وبإلقاءِ السَّمعِ أنفَعُ مِن الاستعجالِ المُتعِبِ للبالِ، المكَدِّرِ للحالِ، وأعونُ على الحِفظِ، فمن وعى شيئًا حقَّ الوعيِ حَفِظَه غايةَ الحِفظِ[٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ لَمَّا كانت عجَلَتُه صلَّى الله عليه وسلَّم على تلقُّفِ الوَحيِ، ومبادرتُه إليه تدُلُّ على محبَّتِه التامَّةِ للعِلمِ، وحِرصِه عليه؛ أمَرَه الله تعالى أن

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٥).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥١).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٤).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٥٣).

يسألَه زِيادةَ العِلمِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ دليلٌ على فَضْلِ العِلْمِ، فلم يَقُلْ -سُبحانَه- لِنَبِيِّه: «وقلْ ربِّ زدني مالًا»، بل قال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٢]، فكفى بهذا شرفًا للعلم أنْ أمَرَ نبيَّه أن يسألَه المزيدَ منه[٣]. وقد قيل: (ما أمَرَ اللهُ رَسولَه بطَلَبِ الزِّيادةِ في شَيءٍ إلَّا في العِلمِ)[٤].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، العِلْمُ الذي أمَرَه سُبحانَه باستزادتِه، هو عِلْمُ الوَحيِ، لا عِلْمُ الكَلامِ والفَلسَفةِ والمَنطِقِ[٥]!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾

- قولُه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ خَصَّ الوُجوهَ؛ لشَرفِها، ولأنَّ آثارَ الذُّلِّ إنَّما تظهَرُ في أوَّلِ الوُجوهِ[٦].

- والألِفُ واللَّامُ في ﴿الْوُجُوهُ﴾ ظاهِرُها يَقْتضي العُمومَ، أي: خضَعَ جميعُ النَّاسِ إجْلالًا للهِ تعالى. فتكونُ جملةُ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ احترِاسًا؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٢).

لبَيانِ اختلافِ عاقبةِ عَناءِ الوُجوهِ؛ فمَن حمَلَ ظُلمًا فقد خابَ يومئذٍ واستمَرَّ عَناؤه، ومَن عمِلَ صالِحًا عاد عليه ذلك الخوفُ بالأمْنِ والفرَحِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ التعريفُ في الوجوهِ عِوضًا عن المضافِ إليه، ويُرادَ بها: وُجوهُ المُجْرِمين؛ فتكونُ اللَّامُ بدَلَ الإضافةِ، ويُؤيِّدُه قولُه: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾، وعلى هذا تكونُ جملةُ ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾ جُملةً مُعترِضةً تُفِيدُ التَّعليلَ، والمعنى: إذ قد خاب كلُّ مَن حمَلَ ظُلْمًا، ويَحتمِلُ الحالَ والاستِئنافَ لبيانِ ما لأجْلِه عنَتْ وُجوهُهم[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾ صِيغَتْ هذه الجُملةُ في صِيغَةِ الشَّرطِ؛ تَحقيقًا للوعْدِ، وقولُه: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ بصِيغَةِ المرفوعِ بإثباتِ ألِفٍ بعدَ الخاءِ، على أنَّ الجُملةَ استئنافٌ غيرُ مَقصودٍ بها الجَزاءُ؛ كأنَّ انتفاءَ خوفِه أمْرٌ مُقرَّرٌ؛ لأنَّه مُؤمِنٌ ويَعمَلُ الصَّالحاتِ[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَ﴾، والغرَضُ واحدٌ، وهو التَّنويهُ بالقُرآنِ؛ فابْتُدِئَ بالتَّنويهِ به جُزئيًّا بالتَّنويهِ بقَصصِه، ثمَّ عُطِفَ عليه التَّنويهُ به كُلِّيًّا على طَريقةٍ تُشبِهُ التَّذييلَ لِمَا في قولِه: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ مِن معنَى عُمومِ ما فيه[3].

- قولُه: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، أي: القُرآنَ كلَّه، وإضمارُه من غيرِ سَبْقِ ذِكْرِه؛ للإيذانِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٢- ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣١٤).

بنَباهةِ شأْنِه، وكونِه مَركوزًا في العُقولِ، حاضرًا في الأذهانِ[١].

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ التَّنكيرُ يُفِيدُ الكَمالَ، أي: أكمَلَ ما يُقْرَأُ. و﴿عَرَبِيًّا﴾ صِفَةُ ﴿قُرْءَانًا﴾، وهذا وصْفٌ يُفِيدُ المدْحَ؛ لأنَّ اللُّغةَ العربيةَ أبلَغُ اللُّغاتِ، وأحسَنُها فَصاحةً وانْسِجامًا. وفيه تَعريضٌ بالامتنانِ على العرَبِ، وتَحميقٌ للمُشرِكين منهم حيث أعْرَضوا عنه، وكذَّبوا به[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ لم يَذكُرِ الوعْدَ؛ لأنَّ الآيةَ سِيقَتْ مَساقَ التَّهديدِ، ولمُناسَبةِ قولِه قبْلَه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[٣].

- وفي قولِه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أسنَدَ ترَجِّيَ التَّقوى إليهم، وترَجِّيَ إحداثِ الذِّكْرِ للقُرآنِ؛ لأنَّ التَّقوى عبارةٌ عن انتفاءِ فعْلِ القبيحِ، وذلك استمرارٌ على العدَمِ الأصليِّ، فلم يُسْنَدْ للقُرآنِ، وأُسْنِدَ إحداثُ الذِّكْرِ إلى القُرآنِ؛ لأنَّه أمْرٌ حدَثَ بعْدَ أنْ لم يكُنْ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾

- جُملةُ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ مُعترِضةٌ بين جُملةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾، وبينَ جُملةِ ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾، وهذا إنشاءُ ثَناءٍ على اللهِ مُنزِّلِ القُرآنِ، وعلى مِنَّةِ هذا القُرآنِ، وتلْقينٌ لشُكْرِه على ما بيَّنَ لعِبادِه من وسائلِ الإصلاحِ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٥).

وحَمْلِهم عليه بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، وتَوجيهِه إليهم بأبلَغِ كلامٍ، وأحسَنِ أُسلوبٍ؛ فهو مُفرَّعٌ على ما تقدَّمَ من قولِه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ إلى آخِرِها. والتَّفريعُ بالفاءِ في ﴿فَتَعَٰلَى ...﴾ مُؤذِنٌ بأنَّ ذلك الإنزالَ والتَّصريفَ، ووسائلَ الإصلاحِ، كلُّ ذلك ناشِئٌ عن جَميلِ آثارٍ، يُشْعِرُ جميعُها بعُلوِّه وعظَمَتِه، وأنَّه المَلِكُ الحقُّ المُدبِّرُ لأُمورِ ممْلوكاتِه على أتَمِّ وُجوهِ الكَمالِ، وأنْفَذِ طُرقِ السِّياسةِ. وفي تَفريعِ ذلك على إنزالِ القُرآنِ إشارةٌ أيضًا إلى أنَّ القُرآنَ قانونُ ذلك المَلِكِ، وأنَّ ما جاء به هو السِّياسةُ الكاملةُ الضَّامِنةُ صَلاحَ أحوالِ مُتَّبِعيه في الدُّنيا والآخرةِ(١).

- والجمْعُ بين اسمِ الجَلالةِ (الله) واسْمِه (الملِك): إشارةٌ إلى أنَّ إعْظامَه وإجلالَه مُستحقَّانِ لِذاتِه بالاسمِ الجامِعِ لصفاتِ الكَمالِ، وهو الدَّالُّ على انحصارِ الإلهيَّةِ وكَمالِها، ثمَّ أُتْبِعَ بـ ﴿ٱلْحَقُّ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ تَصرُّفاتِه واضحةُ الدَّلالةِ على أنَّ مُلْكَه مُلْكٌ حَقٌّ، لا تصرُّفَ فيه إلَّا بما هو مُقْتضى الحكمةِ(٢).

- و﴿ٱلْحَقُّ﴾: الَّذي ليس في مُلْكِه شائبةُ عجْزٍ، ولا خُضوعٍ لغَيرِه. وفيه تَعريضٌ بأنَّ مُلْكَ غيرِه زائفٌ، وأنَّ مُلْكَ غيرِه من المُتسمِّينَ بالمُلوكِ لا يَخلو من نقْصٍ، كما قال تعالى: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾(٣) [الفرقان: ٢٦].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٥- ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١١٥-١٢٣)

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ
ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ
فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟
فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ
ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا
مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ
ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ
فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَهِدْنَآ﴾: أي: أمَرْنا ووصَّيْنا، والعَهْدُ: حفظُ الشيءِ، ومراعاتُه حالًا بعدَ حالٍ، وأصلُ (عهد): يدلُّ الاحتفاظُ بِالشَّيءِ[١].

﴿عَزْمًا﴾: أي: صَبرًا وتَصميمًا وثباتًا، والعَزمُ والعَزيمةُ: عَقدُ القَلبِ على إمضاءِ الأمرِ، وأصلُ (عزم): يدُلُّ على القَطعِ[٢].

﴿تَضْحَىٰ﴾: أي: تَبرُزُ للشَّمسِ فتَجِدُ الحَرَّ، والضُّحَى: انبساطُ الشَّمسِ، وامتِدادُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٨).

النَّهارِ، وأصلُ (ضحي): يدُلُّ على بروزِ الشَّيءِ[(١)].

﴿فَوَسْوَسَ﴾: فألقَى وحَدَّث، والوَسوَسةُ: الخَطْرةُ الرَّديئةُ، من الوَسواسِ، وهو صَوتُ الحُلِيِّ، والهَمسُ الخفيُّ، وحَديثُ النَّفسِ، وأصلُ (وسوس): صَوتٌ غَيرُ رَفيعٍ[(٢)].

﴿يَبْلَىٰ﴾: أي: يَزُولُ أو يَضعُفُ، يقال: بَلِيَ الثوبُ بِلًى وبَلاءً، أي: خَلُق[(٣)].

﴿وَطَفِقَا﴾: أي: جَعَلا وأقْبَلا، يُقال: طَفِقَ يفعَلُ كذا، أي: ظَلَّ يفعَلُ[(٤)].

﴿يَخْصِفَانِ﴾: أي: يَرقَعانِ ويُلزِقانِ الوَرَقَ بَعضَه ببَعضٍ، وأصلُ (خصف): يدُلُّ على اجتِماعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[(٥)].

﴿فَغَوَىٰ﴾: أي: جَهِلَ وضَلَّ، وأصلُ (غوي): يدلُّ على خِلافِ الرُّشدِ[(٦)].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٤).

﴿ٱجۡتَبَٰهُ﴾: أي: اصطَفاه واختارَه، والاجتِباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصطِفاءِ، وأصْلُ (جبي): يدلُّ على جَمعِ الشَّيءِ(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى جانبًا مِن قصةِ آدمَ عليه السلامُ، فيقولُ: ولقد وصَّينا آدَمَ مِن قَبلُ ألَّا يأكُلَ مِن الشَّجَرةِ، وألَّا يُطيعَ الشَّيطانَ، فوسوسَ إليه الشَّيطانُ فأطاعَه، ونَسِيَ الوصيَّةَ، ولم نجِدْ له قُوَّةً في العَزمِ يحفَظُ بها ما أُمِرَ به.

واذكُرْ -يا محمَّدُ- إذ قُلْنا للمَلائكةِ: اسجُدوا لآدَمَ سُجودَ تحيَّةٍ وإكرامٍ، فأطاعوا وسجَدوا، لكِنَّ إبليسَ امتَنَعَ مِن السُّجودِ. فقُلْنا: يا آدَمُ، إنَّ إبليسَ هذا عَدُوٌّ لك ولِزَوجِك، فاحذَرا من أن تُطيعاه، فيُخرِجَكما من الجنَّةِ، فتَشقى إذا أُخرِجْتَ منها. إنَّ لك -يا آدَمُ- في هذه الجنَّةِ ألَّا تَجوعَ ولا تعرى، وألَّا تَعطَشَ ولا يصيبَك حَرُّ الشَّمسِ. فوسوسَ الشيطانُ لآدَمَ وقال له: هل أدُلُّك على شَجَرةٍ إن أكَلْتَ منها خُلِّدتَ فلَمْ تَمُتْ، وكان لك مُلكٌ لا ينقضي ولا ينقَطِعُ؟

فأكلَ آدمُ وحوَّاءُ مِن الشَّجَرةِ التي نهاهما اللهُ عنها، فانكشَفَت لهما عوْراتُهما، وقد كانت مَستورةً عن أعيُنِهما، فأخذا يُلصِقانِ عليهما مِن وَرَقِ أشجارِ الجَنَّةِ؛ ليَستُرا ما انكشَفَ مِن عَوْراتِهما، وخالف آدَمُ أمْرَ رَبِّه فأخطأَ طَريقَ الصَّوابِ بالأكلِ مِن الشَّجَرةِ التي نهاه اللهُ عن الاقترابِ منها. ثمَّ اصطفى اللهُ آدَمَ، بعدَ مَعصيتِه، فتابَ عليه منها، وهداه للتوبةِ، ووفَّقه لها، وثبَّته عليها.

وقال تعالى لآدَمَ -ومعه زوجُه حواءُ- وإبليسَ: اهبِطَا مِن الجنَّةِ إلى الأرضِ جَميعًا بعضُكم عدُوٌّ لبَعضٍ، فإنْ يأتِكم منِّي رسولٌ أُرسِلُه إليكم، وكِتابٌ أُنزِلُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩، ٥٢).

عليكم، فمَن اتَّبَع رسُلي، وعَمِلَ بكُتُبي؛ اهتَدى، وسعِد في الدُّنيا والآخرةِ.

تَفسيرُ الآيات:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه: ٩٩] ثم إنَّه عظَّم أمرَ القرآنِ، وبالَغ فيه؛ ذكَر هذه القصةَ إنجازًا للوعدِ(١).

وأيضًا فإنه لما كانت قصةُ موسَى عليه السلام مع فرعونَ ومع قومِه ذاتَ عبرةٍ للمكذبين والمعاندين الذين كذَّبوا النبي صلَّى الله عليه وسلَّم وعاندوه، وذلك المقصودُ من قصصِها، فكأن النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم استحبَّ الزيادةَ مِن هذه القصصِ ذاتِ العبرةِ رجاءَ أنَّ قومَه يُفيقون مِن ضلالتِهم؛ أُعقِبتْ تلك القصةُ بقصةِ آدمَ عليه السلام وما عرض له به الشيطانُ، تحقيقًا لفائدةِ قولِه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾(٢) [طه: ١١٤].

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾.

أي: ولقَدْ وصَّيْنا آدَمَ -وهو في الجنَّةِ- بألَّا يأكُلَ مِن الشَّجرةِ ولا يَقرَبَها، وحَذَّرْناه مِن طاعةِ الشَّيطانِ، مِن قبلُ(٣)، ....

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٨).

(٣) قال الرازي: (وفي قولِه تعالَى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ وجوهٌ:

أحدُها: مِن قبلِ هؤلاءِ الَّذين صَرَّفْنا لهم الوعيدَ في القرآنِ.

وثانيها: قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: مِن قبلِ أنْ يأكُلَ مِن الشَّجرةِ عَهِدْنا إليه ألَّا يأكُلَ منها.

وثالثُها: أي: مِن قبلِ محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم والقرآنِ. وهو قولُ الحسنِ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٥). =

فنَسِيَ[(١)] وصيَّتي، فلمَّا وسْوَس له الشَّيطانُ أطاعه، وأكَلَ من الشجرةِ[(٢)].

= ممن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٢).

وممن اختار القولَ الثاني: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥١).

وقيل: معنى ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ هذا الزمانِ. وممن اختاره: العُليمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٥٠).

وقال ابن عاشور: (قَولُه: ﴿مِن قَبْلُ﴾ حُذِفَ ما أُضيفَ إليه ﴿قَبْلُ﴾. وتقديرُه: مِن قبلِ إرسالِ موسى، أو مِن قبلِ ما ذُكر... والذي ذُكر: إمَّا عهدُ موسى الذي في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣]؛ وقولِه: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٦]، وإمَّا عهدُ الله لبني إسرائيلَ الذي ذكرهم به موسى عليه السلام لما رجع إليهم غضبانَ أسفًا، وهو ما في قولِه: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ الآية [طه: ٨٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٩).

(١) قال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿فَنَسِىَ﴾ فيه للعلماء وجهان معروفان:

أحدُهما: أنَّ المرادَ بالنِّسيانِ التَّركُ، فلا ينافي كونَ التَّركِ عَمدًا. والعربُ تطلِقُ النِّسيانَ وتُريدُ به التركَ ولو عمدًا... والوجه الثاني: هو أن المرادَ بالنِّسيانِ في الآية: النسيانُ الذي هو ضِدُّ الذكر؛ لأنَّ إبليسَ لَمَّا أقسم له باللهِ أنَّه له ناصِحٌ فيما دعاه إليه مِن الأكلِ مِن الشَّجَرةِ التي نهاه ربُّه عنها، غَرَّه وخَدَعه بذلك، حتى أنساه العَهدَ المذكورَ. أما على القول الأوَّلِ فلا إشكالَ في قَولِه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، وأمَّا على الثاني ففيه إشكال معروف؛ لأنَّ النَّاسيَ معذورٌ، فكيف يقالُ فيه ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾؟

وأظهَرُ أوجُهِ الجوابِ عندي عن ذلك: أنَّ آدَمَ لم يكن معذورًا بالنِّسيانِ، وقد بيَّنتُ في كتابي «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» الأدلَّةَ الدالَّةَ على أنَّ العُذرَ بالنِّسيانِ والخطأ والإكراهِ من خصائِصِ هذه الأمَّةِ، كقوله هنا ﴿فَنَسِىَ﴾ مع قَولِه ﴿وَعَصَىٰٓ﴾ فأسنَد إليه النِّسيانَ والعصيانَ؛ فدَلَّ على أنَّه غيرُ معذور بالنِّسيانِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٠٣-١٠٤).

واختار في ((العذب النمير)) (٤/ ٢٨٢) أنَّ أصحَّ التفسيرين هو أن معناه: التركُ عمدًا.

ونسَب القرطبي هذا القولَ، أي أنَّ المرادَ بالنسيانِ: التركُ -أي: تركُ الأمرِ والعهدِ- إلى مُجاهِدٍ وأكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

أي: ولم نجِدْ لآدَمَ عَزمَ قلبٍ على حِفظِ وصِيَّتي، وصَبرًا على الوَفاءِ بعَهدي، وجَزمًا على تَركِ مُخالَفتي(١).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حين قُلْنا للمَلائِكةِ: اسجُدوا لآدَمَ؛ طاعةً لي، وتكريمًا له، فسَجَدوا كلُّهم إلَّا إبليسَ امتنَعَ أن يكونَ مع السَّاجِدينَ لآدَمَ(٢).

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾.

أي: فقُلْنا: يا آدَمُ، إنَّ هذا الذي عصاني ولم يسجُدْ لك، عدُوٌّ لك ولِزَوجِك حوَّاءَ(٣).

= (١١/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠٣، ١٠٤).

قال ابنُ جرير: (يقول تعالى ذكره: وإن يضيِّعْ يا محمدُ هؤلاء الذين نصرِّفُ لهم في هذا القرآنِ مِن الوعيدِ عهدي، ويخالفوا أمري، ويتركوا طاعتي، ويتَّبعوا أمرَ عدوِّهم إبليسَ، ويطيعوه في خلافِ أمري، فقديمًا ما فعَل ذلك أبوهم آدمُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠٣، ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠٦).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذكره معلمًا نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم، ما كان مِن تضييعِ آدمَ عهدَه، ومعرِّفَه بذلك أنَّ ولدَه لن يعدوا أن يكونوا في ذلك على منهاجِه، إلا مَن عصَمه الله منهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٠).

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾.

أي: فاحذَرا أن تُطيعا عَدُوَّكما إبليسَ، فيتسَبَّبَ في إخراجِكما من الجنَّةِ، فتتعَبَ -يا آدَمُ- في طَلَبِ الرِّزقِ والكِسوةِ والسَّكَنِ؛ الذي تحصُلُ عليه في الجنَّةِ بلا مشقَّةٍ[1].

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى علَّل شقاوة آدمَ على تقديرِ الإخراجِ بوصفِها بما لا يوجدُ في غيرِها من الأقطابِ التي يدورُ علها كفافُ الإنسانِ، وهي الشبعُ والريُّ والكسوةُ والكنُّ[2].

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾.

أي: إنَّ لك -يا آدَمُ- ألَّا تَجوعَ في الجنَّةِ، ولا تعرَى عن اللِّباسِ[3].

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾.

أي: وأنَّك لا تَعطَشُ في الجنَّةِ، ولا تَبرُزُ للشَّمسِ، فيُؤذيَك حَرُّها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠٧).

قال الشنقيطي: (قولُه: ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أي: لا تصيرُ بارزًا للشمسِ، ليس لك ما تستكِنُّ فيه مِن حرِّها). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٠٧).

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.

أي: فألقى إبليسُ إلى آدَمَ وسوستَه، وكلَّمه كلامًا خفيًّا(١).

كما قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ * فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٠ - ٢٢].

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾.

أي: قال إبليسُ: يا آدَمُ، هل أدلُّك على شَجَرةٍ إن أكَلْتَ منها تُخلَّدْ في الجنَّةِ فلا تمُتْ، ويكُنْ لك مُلكٌ لا يَفنى ولا ينقَطِعُ(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.

أي: فأكَلَ آدَمُ وحَوَّاءُ من الشَّجرةِ التي نهاهما اللهُ عنها، فظَهَرت لهما عوراتُهما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٣٨٧)، ((تفسير القنوجي)) (٨/ ٢٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١١١).

بعدما كانت مستورةً عن أعيُنِهما[١].

﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾.

أي: وأخَذَ آدَمُ وحَوَّاءُ يُلصِقانِ عليهما مِن وَرَقِ أشجارِ الجنَّةِ؛ لِيَستُرا به عوراتِهما[٢].

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.

أي: وخالَف آدَمُ وصِيَّةَ رَبِّه، فأكَل مِن الشَّجَرةِ التي نهاه اللهُ عن الأكلِ منها، فأخطأَ طَريقَ الصَّوابِ، ولم يحصُلْ على ما وعَدَه الشَّيطانُ[٣].

﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾.

أي: ثم اصطَفَى الله تعالى آدَمَ بعدَ مَعصيتِه، فتابَ عليها منها، وهداه للتوبةِ، ووفَّقه لها، وثبَّته عليها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١١٣).

قال الشنقيطي: (الفاءُ في قَولِه ﴿فَأَكَلَا﴾ تدُلُّ على أنَّ سَبَبَ أكلِهما هو وسوسةُ الشَّيطانِ المذكورةُ قَبلَه في قَولِه: ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: فأكلا منها بسبَبِ تلك الوسوسةِ. وكذلك الفاءُ في قوله: ﴿فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ تدُلُّ على أنَّ سَبَبَ ذلك هو أكلُهما من الشَّجَرةِ المذكورةِ، فكانت وسوسةُ الشيطانِ سَبَبًا للأكلِ مِن تلك الشَّجَرةِ، وكان الأكلُ منها سببًا لبدُوِّ سَوءاتِهما). ((أضواء البيان)) (٤/ ١١٢-١١٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٥).

كما قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣)﴾.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾.

أي: قال اللهُ لآدَمَ -ومعه زوجُه حواءُ التي هي تبَعٌ له- وإبليسَ: اهبِطا من الجنَّةِ إلى الأرضِ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٨)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٠).

وممَّن اختار القولَ المذكورَ، وهو أنَّ الخطابَ لآدمَ وإبليسَ، وأمَّا حواءُ فهي تبَعٌ لآدمَ: القرطبي، وابن القيم، وابن كثير، والبقاعي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ القيم: (والذي يوضِّحُ أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ لآدمَ وإبليسَ: أنَّ الله سُبحانَه لَمَّا ذكر المعصيةَ أفرد بها آدَمَ دونَ زَوجِه، فقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾، وهذا يدُلُّ على أنَّ المخاطَبَ بالإهباطِ هو آدَمُ ومَنْ زَيَّنَ له المَعصيةَ، ودخلتِ الزَّوجةُ تبَعًا؛ فإن المقصودَ إخبارُ الله تعالى للثَّقَلينِ بما جرى على أبوَيهما مِن شُؤمِ المعصيةِ ومخالفةِ الأمرِ؛ فذِكرُ أبوَيهما أبلغُ في حُصولِ هذا المعنى مِن ذِكرِ أبَوَي الإنسِ فقط. وقد أخبَرَ سُبحانَه عن الزَّوجةِ بأنَّها أكلت مع آدمَ، وأخبَرَ أنَّه أهبَطَه وأخرجه من الجنَّةِ بتلك الأَكلةِ، فعُلِم أنَّ حُكمَ الزَّوجةِ كذلك، وأنَّها صارت إلى ما صار إليه آدَمُ، وكان تجريدُ العنايةِ إلى ذِكرِ حالِ أبَوَي الثَّقَلينِ أَولى مِن تجريدِه إلى ذِكْرِ أبي الإنسِ وأُمِّهم. فتأمَّلْه). ((حادي الأرواح)) (ص: ٣٠). ويُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٦).

وقيل: الخطابُ لآدَمَ وحَوَّاء. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والعُليمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٠).

قال ابنُ كثير: (وقد ذَكَر المفسِّرونَ الأماكنَ الَّتي هَبَط فيها كلٌّ مِنهم، ويرجِعُ حاصلُ تلك الأخبارِ إلى الإسرائيليَّاتِ، واللَّهُ أعلمُ بِصحَّتِها. ولو كان في تعيينِ تلك البقاعِ فائدةٌ تعودُ على المكلَّفينَ =

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

أي: تقَعُ العداوةُ بينكم؛ فآدمُ وذريَّتُه من جهةٍ، وإبليسُ وذُرِّيتُه مِن جِهةٍ أخرى(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

أي: فإنْ يأتِكم -يا بني آدَمَ- مِن عندي رسولٌ أرسِلُه إليكم، وكِتابٌ أُنزِلُه عليكم؛ فمَن اتَّبَعَ رُسُلي وعَمِلَ بكُتُبي، اهتَدى، وسعِد في الدُّنيا والآخرةِ(٢).

= في أمرِ دينِهم، أو دُنْياهم، لذَكَرها اللَّهُ تعالَى في كتابِه أو رسولُه صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٠-٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٣٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٥).

ممن عمَّم فجعَل نفيَ الضلالِ والشقاءِ كليهما في الدُّنيا والآخرةِ، أي: فلا يضِلُّ في الدنيا والآخرةِ، ولا يشقَى فيهما: ابنُ تيمية، وابنُ القيم، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٣٥)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٥).

قال ابن عثيمين: (نَفْيُ الضلالِ والشقاءِ عنهم يتضمَّنُ كمالَ الهدايةِ والسعادةِ في الدنيا والآخرةِ). ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٢٦٨).

وممن ذهَب إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ معناه: فلا يضِلُّ في الدنيا، ولا يشقَى في الآخرةِ: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والسمعاني، وابنُ عطية، وابن جزي، والعُليمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٠-١٩١)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٥٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) =

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- رغَّبَ الله تعالى آدمَ عليه السلام في دوامِ الراحةِ وانتظامِ المعيشةِ بقولِه: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ وآدمُ عليه السلام مع كمالِ عقلِه وعلمِه بأنَّ الله تعالى مولاه وناصرُه ومربِّيه، أعلمه بأنَّ إبليسَ عدوُّه؛ حيثُ امتنعَ مِن السجودِ له، وعرَّض نفسه للَّعْنةِ بسببِ عداوتِه، فكيف قبِل في الواقعةِ الواحدةِ والمقصودِ الواحد قولَ إبليسَ، مع علمِه بكمالِ عداوتِه له، وأعرضَ عن قولِ الله تعالى؟! ومَن تأمَّل في هذا البابِ، طال تعجبُه، وعرَف آخرَ الأمرِ أنَّ هذه القصةَ كالتنبيهِ على أنَّه لا دافعَ لقضاءِ الله، ولا مانعَ منه، والدليلُ وإن كان في غايةِ الظهورِ، ونهايةِ القوةِ؛ فإنَّه لا يحصلُ النفعُ به إلَّا إذا قضَى الله تعالى ذلك وقدَّره[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ فتمَّت النِّعمةُ عليه وعلى ذرِّيَّتِه، ووجَبَ عليهم القيامُ بها والاعترافُ، وأن يكونوا على حَذَرٍ مِن هذا العدُوِّ المرابطِ الملازمِ لهم، ليلًا ونهارًا؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2] [الأعراف: ٢٧].

٣- قد يكونُ الإنسانُ بَعْدَ الذَّنبِ أعلى مقامًا منه قَبلَ الذَّنبِ؛ لأنه قَبْلَ الذنبِ

= (٢/ ١٦)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٥).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٤).

قد يكون مُستمرِئًا للحالِ التي كان عليها، وماشيًا على ما هو عليه، معتقدًا أنه كاملٌ، وأنْ ليس عليه ذنوبٌ، فإذا أذنبَ وأحسَّ بذنبه رجعَ إلى الله وأنابَ إليه، وأخْبَتَ إليه، فيزدادُ إيمانًا، ويزدادُ مقامًا، فيرتَفِعُ مقامُه عند الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى في آدَمَ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾، فجَعَلَ سبحانه الاجتباءَ بعد هذه المعصيةِ ﴿فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾، وهذا كثيرًا ما يقعُ: إذا أذنبَ الإنسانُ عَرَفَ قَدْرَ نفسِه، وأنه محتاجٌ إلى الله، ورجعَ إلى الله، وأحسَّ بالخطيئةِ، وأكثرَ مِن الاستغفارِ، وصار مقامُه بَعْدَ الذنبِ أعلى مِن مقامِه قَبْلَ الذَّنبِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ في هذه الآيةِ وِصايةُ اللهِ آدَمَ وذُرِّيته باتِّباعِ رُسُلِ الله والوَحيِ الإلهيِّ، وبذلك يُعلَمُ أنَّ طَلَبَ الهدى مركوزٌ في الجبلَّةِ البَشَريَّةِ[٢].

٥- قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ فضَمِن سُبحانَه لِمن اتَّبع هداه -وهو كلامُه- الهُدى في الدُّنيا والآخرةِ، والسَّعادةَ في الدُّنيا والآخرةِ، فهاهنا أمرانِ: طريقةٌ وغايةٌ؛ فالطريقةُ: الهُدى، والغايةُ: السَّعادةُ والفلاحُ؛ فمَن لم يسلُكْ هذه الطَّريقةَ لم يَصِلْ إلى هذه الغايةِ[٣].

٦- عن ابن عباس، قال: (تضمَّن الله لِمَن قرأ القُرآنَ، واتَّبع ما فيه ألَّا يَضِلَّ في الدُّنيا، ولا يشقَى في الآخرةِ)، ثم تلا هذه الآيةَ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (٣/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١١٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٩).

٧- قال ابنُ الجوزي: (تأمَّلت قولَه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣]: قال المفسرون: ﴿هُدَاىَ﴾: رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وكتابي. فوجدتُه على الحقيقةِ: أنَّ كلَّ مَن اتَّبع القرآنَ والسنةَ، وعمِل بما فيهما، فقد سلِم مِن الضلالِ بلا شكٍّ، وارتَفع في حقِّه شقاءُ الآخرةِ بلا شكٍّ، إذا مات على ذلك)[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ إنَّما عطَفَ قِصَّةَ آدَمَ على قَولِه: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ [طه: ١١٣]؛ للدَّلالةِ على أنَّ أساسَ بني آدَمَ على العِصيانِ، وعِرقَهم راسِخٌ بالنِّسيانِ[٢].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ قَولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ يدُلُّ على أنَّ أبانا آدَمَ عليه وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ ليس من الرسُلِ الذين قال اللهُ فيهم: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وهم: نوحٌ، وإبراهيمُ، وموسى، وعيسى، ومحمَّدٌ، صلَّى الله عليهم وسلَّم[٣]، على الأشهرِ في تحديدِ أُولي العزمِ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ بيانُ أنَّ أولَ نَقْصٍ دَخَلَ على أبي البَشَرِ، وسَرَى إلى أولادِه، أنَّه كان مِن عَدَمِ العِلمِ

(١) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٠٦).

وأيضًا فإنَّ آدمَ عليه السلامُ نبيٌّ، وليس برسولٍ، فأوَّلُ الرسلِ هو نوحٌ عليه السلامُ. يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((معارج القبول)) للحكمي (٢/ ٦٨٠).

والعَزْمِ[١]، وذلك على أحدِ القولينِ في تفسيرِ النسيانِ.

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ فيه سؤالٌ: لمَ قال تعالى: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ مع أن المُخرجَ لهما من الجنَّةِ هو اللهُ تعالى؟

الجواب: أنَّه لما كان بوَسوَستِه هو الذي فعَلَ ما ترتَّبَ عليه الخروجُ، صَحَّ ذلك[٢]. وفيه وجهٌ آخر: أنَّه أسنَدَ الإخراجَ إلى إبليسَ؛ لزيادةِ التَّحذيرِ، والإبلاغِ في التَّنفيرِ[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ جمعَ تعالى لآدَمَ -عليه السَّلامُ- في هذا الخبَرِ أصولَ كَفافِ الإنسانِ في مَعيشتِه؛ إيماءً إلى أنَّ الاستكفاءَ منها سيكونُ غايةَ سَعيِ الإنسانِ في حياتِه المُستقبلَة؛ لأنَّ الأحوالَ التي تُصاحِبُ التَّكوينَ تكونُ إشعارًا بخصائِصِ المُكوَّن في مُقَوِّماتِه، كما ورَد في حديثِ الإسراءِ مِن تَوفيقِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لاختيارِ اللَّبَنِ على الخَمرِ، فقيلَ له: ((لو اخترْتَ الخَمرَ، لَغَوتْ أُمَّتُك))[٤].

٦- قال الله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ أعلَمَنا في هذه الآيةِ أنَّ النَّفَقةَ التي تجِبُ للمرأةِ على زَوجِها هذه الأربعةُ: الطعامُ، والشَّرابُ، والكِسوةُ، والمَسكَنُ، فإذا أعطاها هذه الأربعةَ، فقد خرج إليها مِن نَفَقتِها، فإن

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٢).

والحديث أخرجه البخاري (٣٣٩٤)، ومسلم (١٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تفَضَّلَ بعد ذلك فهو مأجورٌ، فأمَّا هذه الأربعةُ فلا بدَّ لها منها؛ لأنَّ بها إقامةَ المُهجةِ[١].

٧- قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ إن قيل: ليست في الجنةِ شمسٌ، فكيف يستقيمُ هذا الكلام؟

والجوابُ: أنَّه مستقيمٌ؛ لأنَّ أهلَ الجنةِ في ظلٍّ ممدودٍ، فلا يصيبُهم أذى الشمسِ مثل ما يصيبُهم في الدُّنيا[٢].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ اقتِصارُ الشَّيطانِ على التَّسويلِ لآدَمَ، وهو يريدُ أن يأكُلَ آدَمُ وحَوَّاءُ؛ لعِلمِه بأنَّ اقتِداءَ المرأةِ بزَوجِها مركوزٌ في الجبِلَّةِ[٣].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ يدُلُّ على أنَّه إنما وسوسَ إليه الشَّيطانُ مُخاطبةً، لا أنه أوقَعَ ذلك في نَفسِه بلا مُقاوَلةٍ، فمَن ادَّعى على الظَّاهِرِ تأويلًا، ولم يُقِمْ عليه دليلًا، لم يجِبْ قَبولُ قَولِه؛ ويدلُّ أيضًا على أنَّ الوسوسةَ قد تكونُ كلامًا مَسموعًا أو صَوتًا[٤].

١٠- وفي وسوسةِ الشَّيطانِ إلى آدَمَ إشكالٌ معروفٌ، وهو أنْ يُقالَ: إبليسُ قد أُخرِجَ من الجنة صاغرًا مذمومًا مدحورًا، فكيف أمكنه الرجوعُ إلى الجنَّةِ حتى وسوسَ لآدمَ؟

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٦٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٧).
(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٣).

والجوابُ: أنَّه لا إشكالَ في ذلك؛ لإمكانِ أن يَقِفَ إبليسُ خارجَ الجنَّةِ قَريبًا مِن طرفِها بحيث يسمعُ آدَمُ كلامَه وهو في الجنَّةِ، وإمكانِ أن يُدخِلَه الله إيَّاها لامتحانِ آدَمَ وزَوجِه، لا لكرامةِ إبليسَ، فلا مُحالَ عقلًا في شيءٍ من ذلك. والقرآنُ قد جاء بأنَّ إبليس كلَّمَ آدَمَ، وحَلَف له حتى غرَّه وزوجَه بذلك(١).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ﴾ ساق إبليسُ لآدَمَ -عليه السَّلامُ- الغِشَّ مساقَ العَرضِ؛ إبعادًا لِنَفسِه من التُّهمةِ والغَرَض، وشوَّقه إليه بِقَولِه: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ﴾؛ فإنَّ النَّفسَ شَديدةُ الطَّلَبِ لعِلمِ ما تجهَلُه(٢).

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ﴾ قد أفصَحَت هذه الآيةُ عن استِقرارِ محبَّةِ الحياةِ في جِبِلَّةِ البَشَرِ(٣).

١٣- قولُه: ﴿فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ فيه جمْعُ السَّوءاتِ مع أنَّهما سَوأتانِ فقط، ولهذا أَوجهٌ:

الأوَّل: أنَّ آدَمَ وحواءَ كلُّ واحدٍ منهما له سَوءتانِ: القُبُل، والدُّبُر؛ فهي أربعٌ؛ فكلٌّ منهما يرى قُبُلَ نفسِه وقُبُلَ الآخَرِ، ودُبُرَه، وعلى هذا فلا إشكالَ في الجمع.

الثاني: أنَّ المُثنَّى إذا أُضيفَ إليه شَيئانِ هما جُزآه جازَ في ذلك المضافِ الجَمْعُ، والتثنيةُ، والإفرادُ، وأفصحُها الجَمعُ، فالإفرادُ، فالتثنيةُ؛ فإنْ فُرِّقَ المثنَّى المضافُ إليه فالمختارُ في المضافِ الإفرادُ، نحو: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١١١).

وقال أثناءَ إيرادِ هذا الإشكالِ: (والمفسِّرون يذكرونَ في ذلك قصَّةَ الحيَّةِ، وأنَّه دخَل فيها فأدخلَتْه الجنَّةَ، والملائكةُ الموكَّلونَ بها لا يشعرونَ بذلك! وكلُّ ذلك مِن الإسرائيلياتِ).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٦).

ﭐبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ [المائدة: ٧٨]، ومثالُ جمْعِ المُثنَّى المضافِ المذكورِ الذي هو الأفصحُ قولُه تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

الثالث: أنَّ أقلَّ الجَمْعِ اثنانِ[١].

١٤- قال الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾، وإثباتُ العِصيانِ لآدَمَ دُونَ زَوجِه يدُلُّ على أنَّ آدَمَ كان قُدوةً لِزَوجِه، فلمَّا أكَلَ مِن الشَّجَرةِ تَبِعَتْه زوجُه، وفي هذا المعنى قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[٢] [التحريم: ٦].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ فيه سؤالٌ: هل يجوزُ أن يقالَ: كان آدَمُ عاصيًا، غاويًا، أخذًا من ذلك؟

الجوابُ: لا؛ إذْ لا يلزَمُ مِن جوازِ إطلاقِ الفِعلِ جوازُ إطلاقِ اسمِ الفاعِلِ، فيجوزُ أن يُقالَ: (تبارك اللهُ)، دون (مُتبارِك)، ويجوزُ أن يقال: (تاب اللهُ على آدم) دون (تائب)[٣].

١٦- إنَّ الأنبياءَ صلوات الله وسلامه عليهم لم يقعْ منهم ما يُزري بمراتبِهم العليةِ، ومناصبِهم الساميةِ، ولا يستوجبُ خطأً منهم، ولا نقصًا فيهم صلواتُ الله وسلامُه عليهم -ولو فرضنا أنَّه وقَع منهم بعضُ الذنوب-؛ لأنهم يتداركون ما وقَع منهم بالتوبةِ، والإخلاصِ، وصدقِ الإنابةِ إلى الله حتى ينالوا بذلك أعلَى درجاتِهم، فتكونَ بذلك درجاتُهم أعلَى مِن درجةِ مَن لم يرتكِبْ شيئًا مِن ذلك. ومما يوضِّحُ هذا قولُه تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١١٥-١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٨).

وَهَدَىٰ ﴾، فانظرْ أيَّ أثرٍ يبقَى للعصيانِ والغيِّ بعدَ توبةِ الله عليه، واجتبائِه أي: اصطفائِه إيَّاه، وهدايتِه له، ولا شكَّ أنَّ بعضَ الزلاتِ ينالُ صاحبُها بالتوبةِ منها درجةً أعلى مِن درجتِه قبلَ ارتكابِ تلك الزلةِ[١].

١٧- قال تعالى: ﴿ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢا ﴾ والإهباطُ تارةً يَذكُرُه بلَفظِ الجَمعِ، وتارةً بلَفظِ التَّثنيةِ، وتارةً بلَفظِ الإفرادِ، كقَولِه في سورةِ الأعرافِ: ﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا ﴾ [الأعراف: ١٣]، وكذلك في سورة ص، وهذا لإبليسَ وَحدَه، وحيث ورد بصيغةِ الجَمعِ فهو لآدَمَ وزَوجِه وإبليسَ؛ إذ مدارُ القِصَّةِ عليهم، وحيث ورد بلَفظِ التَّثنيةِ فإمَّا أن يكونَ لآدَمَ وزوجِه؛ إذ هما اللَّذانِ باشرَا الأكلَ مِن الشَّجَرةِ وأقدَمَا على المعصيةِ، وإمَّا أن يكونَ لآدَمَ وإبليسَ؛ إذ هما أبَوَا الثَّقَلينِ وأصلَا الذُّرِّيةِ؛ فذكَر حالَهما ومآلَ أمرِهما؛ ليكونَ عِظةً وعِبرةً لأولادِهما[٢].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾ بيانُ أنَّ ثوابَ المُتَّبِعينَ لهداه أنَّهم لا يَضِلُّون ولا يَشقَونَ، ونفيُ الضَّلالِ والشقاءِ عنهم يتضَمَّنُ كمالَ الهدايةِ والسعادةِ في الدُّنيا والآخرةِ[٣]، فالهُدى والسعادةُ مُتلازِمانِ، والضَّلالُ والشَّقاءُ مُتلازِمانِ، وكثيرًا ما يَقْرِن سُبحانَه في القُرآنِ بين الضَّلالِ والشَّقاءِ، وبين الهُدى والفلاحِ، وقد جَمَعَ سبحانَه بين الأمورِ الأربعةِ في قَولِه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾ فهذا الهدى والسَّعادةُ، ثمَّ قال سُبحانَه: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٣٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٢٦٨).

كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦] فذَكَرَ الضَّلالَ والشَّقاءَ(١).

١٩- قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ فلمَّا كَسَره سُبحانَه بإهباطِه مِن الجنَّةِ، جَبَرَه وذريَّتَه بهذا العَهدِ الذي عَهِدَه إليهم(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾

- افتتاحُ الجُملةِ بحرْفِ التَّحقيقِ ولامِ القسَمِ ﴿وَلَقَدْ﴾ لمُجرَّدِ الاهتمامِ بالقصَّةِ؛ تَنبيهًا على قصْدِ التَّنظيرِ بين القصَّتينِ في التَّفريطِ في العهْدِ؛ لأنَّ في القصَّةِ الأُولى تَفريطَ بني إسرائيلَ في عهْدِ الله، كما قال فيها: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ [طه: ٨٦]، وفي قصَّةِ آدمَ تَفريطًا في العهْدِ أيضًا(٣).

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ فالمعهودُ مَحذوفٌ يدُلُّ عليه ما بعْدَه، واللَّامُ جوابُ قسَمٍ مَحذوفٍ، أيْ: وأُقسِمُ لقد أمَرْناهُ ووصَّيناهُ(٤).

- قولُه: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ إنْ كان من الوُجودِ العِلْميِّ، فـ﴿لَهُۥ عَزْمًا﴾ مفعولَاهُ؛ قُدِّمَ الثَّاني على الأوَّلِ لكونِه ظرْفًا، وإنْ كان من الوُجودِ المُقابِلِ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧).
(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٤).

للعدَمِ -وهو الأنسبُ؛ لأنَّ مَصبَّ الفائدةِ هو المفعولُ، وليس في الإخبارِ بكونِ العزْمِ المعدومِ له مَزيدُ مَزيَّةٍ- فـ﴿لَهُۥ﴾ مُتعلِّقٌ به؛ قُدِّمَ على مفعولِه للاهتمامِ بالمُقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، أو بمَحذوفٍ هو حالٌ من مفعولِه المُنكَّرِ؛ كأنَّه قيل: ولم نُصادِفْ له عزْمًا[(١)].

- واستُعمِلَ نفْيُ وِجْدانِ العزْمِ عندَ آدمَ عليه السَّلامُ في مَعْنى عدَمِ وُجودِ العزْمِ من صِفَتِه فيما عُهِدَ إليه؛ تَمثيلًا لحالِ طلَبِ حُصولِه عنده بحالِ الباحثِ على عزْمِه، فلم يجِدْه عنده بعْدَ البحثِ[(٢)].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، أي: واذكُرْ إذ قُلْنا، وتَعليقُ الذِّكرِ بالوقتِ، مع أنَّ المقصودَ تَذكيرُ ما وقَعَ فيه من الحوادثِ؛ للمُبالَغةِ في إيجابِ ذِكْرِها؛ فإنَّ الوقتَ مُشتمِلٌ على تَفاصيلِ الأُمورِ الواقعةِ فيه؛ فالأمْرُ بذِكْرِه أمْرٌ بذِكْرِ تَفاصيلِ ما وقَعَ فيه بالطَّريقِ البُرهانيِّ[(٣)]، ولأنَّ الوقتَ مُشتمِلٌ على أعيانِ الحوادثِ، فإذا ذُكِرَ صارت الحوادثُ كأنَّها مَوجودةٌ في ذِهْنِ المُخاطَبِ بوُجوداتِها العينيَّةِ، أي: اذكُرْ ما وقَعَ في ذلك الوقتِ مِنَّا ومنه؛ حتَّى يَتبيَّنَ لك نِسيانُه وفُقدانُ عزْمِه[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣١٩).

(٣) الطَّريق البُرهاني: قياسٌ استثنائيٌّ، يُستدلُّ فيه بنَفْيِ اللازمِ البيِّنِ انتفاؤُه على نَفْيِ الملزومِ، كما يُقال: هل زيدٌ في البلدِ؟ فتقول: لا؛ إذ لو كان فيها لحَضَرَ مَجلِسَنا، فيُستدلُّ بعدمِ الحُضورِ على عدمِ كونِه في البَلدِ. أو: هو ما يلزمُ مِن نفْيِ مِثلِ مِثلِه نفيُ مثلِه. يُنظر: ((حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع)) (١/ ٤٥٢)، ((التقرير والتحبير)) لابن أمير الحاج (٢/ ٢٣)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٥).

- وجُملةُ: ﴿أَبَىٰ﴾ مُستأنَفةٌ، وقعَتْ جَوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ عن الإخبارِ بعدَمِ سُجودِه؛ كأنَّه قِيلَ: ما بالُه لم يَسجُدْ؟ فقِيلَ: أبى واستكبَرَ. ومَفعولُ ﴿أَبَىٰ﴾ إمَّا مَحذوفٌ، أي: أبى السُّجودَ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، أو غيرُ مَنْويٍّ رأسًا بتَنزيلِه مَنزِلَةَ اللَّازمِ، أي: فعَلَ الإباءَ وأظْهَره[1].

٣- قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾

- قولُه: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ الفاءُ في قولِه: ﴿فَقُلْنَا﴾ لتَرتيبِ مُوجبِ النَّهيِ على عَداوتِه لهما، أو على الإخبارِ بها[2].

- و﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى الشَّيطانِ؛ إشارةً مُرادًا منها التَّحقيرُ[3].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال في سُورةِ (الأعرافِ): ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]؛ فعبَّرَ عنه باسْمِه. وقولُه: ﴿عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾، هو كقولِه في (الأعرافِ): ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]؛ فذُكِرَتْ عَداوتُه لهما جُملةً هنالك، وذُكِرَت تَفصيلًا هنا، فابْتُدِئَ في ذِكرِ مُتعلِّقِ عَداوتِه بآدمَ؛ لأنَّ آدمَ هو منشَأُ عَداوةِ الشَّيطانِ لحسَدِه، ثمَّ أُتْبِعَ بذِكْرِ زوجِه؛ لأنَّ عَداوتَه إيَّاها تبَعٌ لعَداوتِه آدمَ زوجَها، وكانت عَداوتُه مُتعلِّقةً بكلَيهما؛ لاتِّحادِ عِلَّةِ العَداوةِ[4].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٠).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٢١).

- قولُه: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ تفريعٌ على الإخبارِ بعَداوةِ إبْليسَ له ولزوجِه، بأنْ نُهِيَا نهْيَ تَحذيرٍ عن أنْ يتسبَّبَ إبليسُ في خُروجِهما من الجنَّةِ؛ لأنَّ العَدُوَّ لا يَروقُه صَلاحُ حالِ عدُوِّه. ووقَعَ النَّهيُ في صُورةِ نهْيٍ عن عمَلٍ هو من أعمالِ الشَّيطانِ لا من أعمالِ آدمَ؛ كِنايةً عن نهْيِ آدمَ عن التَّأثُّرِ بوَسائلِ إخراجِهما من الجنَّةِ[١].

- وإنَّما أُسْنِدَ إلى آدمَ وحْدَه فِعْلُ الشَّقاءِ دونَ حوَّاءَ بعْدَ إشراكِهما في الخُروجِ؛ لأنَّ في ضِمْنِ شَقاءِ الرَّجلِ -وهو قَيِّمُ أهْلِه وأميرُهم- شَقاءَهم، كما أنَّ في ضِمْنِ سَعادتِه سعادتَهم؛ فاخْتُصِرَ الكلامُ بإسنادِه إليه دونَها، مع المُحافَظةِ على الفاصلةِ. أو أُرِيدَ بالشَّقاءِ التَّعبُ في طلَبِ القوتِ، وذلك مُتعلِّقٌ بالرَّجلِ، وهو راجعٌ إليه[٢]؛ لِيُعلِمَنا أنَّ نَفَقةَ الزَّوجةِ على الزَّوجِ[٣]، وأنَّ عليه التَّكفُّلَ بأمْرِها، وهو القائمُ عليها، فجرى اللفظُ بتَوحيدِه مِن هذه الجِهةِ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾

- وجْهُ إفرادِه عليه السَّلامُ بما ذُكِرَ: أنَّ حواءَ تابعةٌ له في ذلك[٥].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ تَعليلٌ للشَّقاءِ المُترتِّبِ على الخُروجِ من الجنَّةِ المَنْهيِّ عنه؛ لأنَّه لمَّا كان مُمَتَّعًا في الجنَّةِ برَفاهيةِ العيشِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩١ - ٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٢٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٥- ٤٦).

من مأكَلٍ ومَلْبَسٍ، ومَشْربٍ واعتدالِ جَوٍّ مُناسبٍ للمزاجِ: كان الخُروجُ منها مُقتضِيًا فُقدانَ ذلك[١].

- والعُدولُ عن التَّصريحِ بأنَّ له عليه السَّلامُ فيها تَنعُّمًا بفُنونِ النِّعمِ، مع أنَّ فيه من التَّرغيبِ في البقاءِ فيها ما لا يَخْفى، إلى ما ذُكِرَ من نفْيِ نَقائِضِها الَّتي هي الجوعُ والعطشُ، والعُرْيِ والضُّحِيُّ: لتَذكيرِ تلك الأُمورِ المُنْكَرةِ، والتَّنبيهِ على ما فيها من أنواعِ الشِّقوةِ الَّتي حَذَّره عنها؛ ليُبالِغَ في التَّحامي عن السَّببِ المُؤدِّي إليها، على أنَّ التَّرغيبَ قد حصَلَ بما سُوِّغَ له من التَّمتُّعِ بجَميعِ ما فيها، سِوى ما استُثْنِيَ من الشَّجرةِ حسَبَما نطَقَ به قولُه تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]، وقد طُوِيَ ذِكْرُه هَاهُنا اكتفاءً بما ذُكِرَ في مَوضعٍ آخرَ، واقتُصِرَ على ما ذُكِرَ مِنَ التَّرغيبِ المُتضمِّنِ التَّرهيبَ[٢].

- وفيه فَنٌّ بَديعٌ يُسمَّى قطْعَ النَّظيرِ عن النَّظيرِ؛ ففي الآيةِ فُصِلَ الظَّمأُ عن الجوعِ في الذِّكْرِ مع تَجانُسِهما وتَقارُنِهما في الذِّكْرِ عادةً، وكذا حالُ العُرْيِ والضَّحْوِ المُتجانسَينِ؛ لتَوفيةِ مَقامِ الامتنانِ حَقَّه، بالإشارةِ إلى أنَّ نفْيَ كلِّ واحدٍ مِن تلك الأُمورِ نِعْمةٌ على حِيالِها، ولو جُمِعَ بين الجوعِ والظَّمأِ لرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّ نفْيَهما نِعْمةٌ واحدةٌ، وكذا الحالُ في الجمْعِ بين العُرْيِ والضَّحْوِ على مِنهاجِ قصَّةِ البقرةِ، ولزيادةِ التَّقريرِ بالتَّنبيهِ على أنَّ نفْيَ كلِّ واحدٍ من الأُمورِ المذكورةِ مَقصودةٌ بالذَّاتِ، مَذكورةٌ بالأصالةِ، لا أنَّ نفْيَ بعْضِها

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٥- ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٥- ٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩٠).

مَذكورةٌ بطَّريقِ التَّبعيةِ لنفْيِ بعْضٍ آخَرَ، كما عسى يُتَوهَّمُ لو جُمِعَ بين كلٍّ مِنَ المُتجانسَينِ(١).

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ مُقابَلةٌ مَعنويَّة حسَنَةٌ؛ فالجوعُ خُلوُّ الباطِنِ، والتعرِّي خُلوُّ الظاهِرِ، فهما مُتناسِبانِ في المَعنى، والظمأُ إحراقُ الباطِنِ، فهو مُوجِبٌ لحرارةِ الباطنِ، والضَّحوُ إحراقُ الظاهِرِ؛ فهو مُوجِبٌ لحرارةِ الظَّاهِرِ، فقابَلَ الخُلوَّ بالخلوِّ، والإحراقَ بالإحراقِ، واقتَضَتِ الآيةُ نفيَ جميعِ الآفاتِ ظاهِرًا وباطِنًا(٢).

- وأُكِّدَتِ الجُملةُ بـ(إنَّ) في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ﴾ المكسورةِ، و(أنَّ) المفتوحةِ في قولِه: ﴿وَأَنَّكَ﴾(٣).

٥- قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَوَسْوَسَ﴾ لتَعقيبِ مَضمونِ جُملتِها على مَضمونِ الَّتي قبْلَها، وهو تَعقيبٌ نِسْبيٌّ بما يُناسِبُ مُدَّةَ تقلُّبٍ في خلالِها بخَيراتِ الجنَّةِ، حتَّى حسَدَه الشَّيطانُ، واشتَدَّ حسَدُه(٤).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث عُدِّيَ فعْلُ (وسوَسَ) هنا بحرْفِ (إلى)، وباللَّامِ في سُورةِ (الأعرافِ): ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٠]؛ وذلك باعتبارِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٥- ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٢- ٣٢٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٥).

كيفيَّةِ تَعليقِ المجرورِ بذلك الفِعْلِ في قصْدِ المُتكلِّمِ، فإنَّه فِعْلٌ قاصرٌ، لا غِنَى له عن التَّعديةِ بالحرفِ؛ فتَعديتُه بحرْفِ (إلى) هنا باعتبارِ انتهاءِ الوَسوسةِ إلى آدمَ، وبُلوغِها إيَّاهُ، وتَعديتُه باللَّامِ في (الأعرافِ) باعتبارِ أنَّ الوَسوسةَ كانتْ لأجْلِهما[١]، وأيضًا كأنَّه عبَّر بـ (إلى)؛ لأنَّ المقامَ لبَيانِ سُرعةِ قَبولِ هذا النَّوعِ للنَّقائصِ وإنْ أتَتْه مِن بَعدُ، أو لأنَّه ما أنهَى إليه ذلك إلَّا بواسطةِ زَوجِه؛ لذلك عَدَّى الفِعلَ عند ذِكرِهما باللَّامِ[٢].

- وقال: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ولم يقلْ: (فيه)؛ لأنَّ المعنى أنَّه ألقَى إليه ذلك، وأوصَله إليه، فدخَل في قلبِه[٣].

- قولُه: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ ...﴾ إمَّا بدَلٌ من (وَسْوَسَ)، أو استئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ منه؛ كأنَّه قيلَ: فماذا قال في وَسوسَتِه؟ فقيل: قال...[٤]، أو بَيانٌ لجُملةِ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[٥].

- وقولُه: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ﴾ استفهامٌ مُستعمَلٌ في العرْضِ[٦]، وجاء على سَبيلِ الاستفهامِ الَّذي يُشعِرُ بالنُّصحِ، ويُؤثِرُ قَبولَ مَن يُخاطِبُه[٧].

- في قولِه: ﴿شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ سمَّاها هنا شجرةَ الخُلْدِ بالإجمالِ؛ للتَّشويقِ إلى تَعيينِها حتَّى يُقبِلَ عليها، ثمَّ عيَّنَها له عَقِبَ ذلك، بما أنبَأَ به قولُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩١).

تعالى: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴾[١]، وأضافَ الشَّجرةَ إلى الخُلدِ، وهو الخُلودُ؛ لأنَّ مَن أكَلَ منها خُلِّدَ بزَعْمِه[٢].

- في (الأعرافِ): ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ ﴾[الأعراف: ٢٠] الآيةَ، وهنا ﴿هَلْ أَدُلُّكَ ﴾، والجمْعُ بينهما: أنَّ قولَه: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ ﴾ يكونُ سابقًا على قولِه: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا ﴾؛ لمَّا رأى إصغاءَه ومَيْلَه إلى ما عرَضَ عليه، انتقَلَ إلى الإخبارِ والحصْرِ[٣].

٦- قوله تعالى: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴾ للتَّفريعِ على ما قبْلَه، ويُوجَدُ جُملةٌ مَحذوفةٌ دَلَّ عليها العرْضُ، أي: فعمِلَ آدمُ بوَسوسةِ الشَّيطانِ، فأكَلَ من الشَّجرةِ، وأكَلَت حوَّاءُ معه[٤].

٧- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بين جُملةِ ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ ﴾، وجُملةِ ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾؛ لأنَّ الاجتباءَ والتَّوبةَ على آدمَ كانا بعْدَ أنْ عُوقِبَ وزوجُه بالخُروجِ من الجنَّةِ، كما في سُورةِ (البقرةِ)، وهو المُناسِبُ لترَتُّبِ الإخراجِ منَ الجنَّةِ على المعصيةِ دونَ أنْ يترتَّبَ على التَّوبةِ. وفائدةُ هذا الاعتراضِ: التَّعجيلُ ببَيانِ مآلِ آدمَ إلى صَلاحٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٢٧).

- وفي التَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه السَّلامُ في قولِه: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾: مَزيدُ تَشريفٍ له عليه السَّلامُ[1]، وإفرادُه عليه السَّلامُ بالاجتباءِ، وقَبولِ التَّوبةِ؛ لأنَّ حوَّاءَ تابِعةٌ له في ذلك[2].

٨- قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ، مَبْنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ من الإخبارِ بأنَّه تعالى قَبِلَ توبتَه وهداه؛ كأنَّه قيل: فماذا أمَرَهُ تعالى بعْدَ ذلك[3]؟

- قولُه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ لمَّا كان آدمُ وحوَّاءُ عليهما السَّلامُ أصلَيِ البشرِ، والسَّببينِ اللَّذينِ منهما نشَؤُوا وتفرَّعُوا: جُعِلَا كأنَّهما البشَرُ في أنفُسِهما، فخُوطِبا مُخاطبَتَهم. ولمَّا كانا أصلَيِ الذُّرِّيةِ خاطَبَهما مُخاطبَتَهم، فقال: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾، ويُؤيِّدُه قولُه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾، وذلك على القولِ بأنَّ الخِطابَ لآدَمَ وحوَّاءَ. وأما على القولِ بأنَّ الخِطابَ لآدَمَ وإبليسَ، فقد خُوطِبَا بضَميرِ الجمْعِ في قولِه: ﴿بَعْضُكُمْ﴾؛ لأنَّه أُرِيدَ عداوةُ نَسلَيْهما؛ فإنَّهما أصلانِ لنوعينِ: نوعِ الإنسانِ، ونوعِ الشَّيطانِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٨).

- وتَفريعُ جُملةِ ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ على الأمْرِ بالهُبوطِ من الجنَّةِ إلى الدُّنيا: إنباءٌ بأنَّهم يَستقبِلونَ في هذه الدُّنيا سِيرةً غيرَ الَّتي كانوا عليها في الجنَّةِ؛ لأنَّهم أُودِعوا في عالَمٍ خليطٍ خيرُه بشَرِّه، وحَقائِقُه بأوهامِه، بعْدَ أنْ كانوا في عالَمِ الحقائقِ المَحْضةِ، والخيرِ الخالِصِ، وفي هذا: إنباءٌ بطَورٍ طرَأَ على أصْلِ الإنسانِ في جِبلَّتِه كان مُعَدًّا له من أصْلِ تَركيبِه[1].

- وفي قولِه: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ وُضِعَ الظَّاهرُ مَوضِعَ المُضمرِ -حيث لم يقُلْ: (فمَنِ اتَّبعه)- مع الإضافةِ إلى ضَميرِه تعالى؛ لتَشريفِه، والمُبالَغةِ في إيجابِ اتِّباعِه[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٧).

الآيات (١٢٤-١٢٧)

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾
قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ
تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ضَنكًا﴾: أي: ضَيِّقةً، والضَّنكُ مِن المنازِلِ والأماكِنِ والمعايشِ: الشَّديدُ، وأصلُ (ضنك): يدلُّ على ضيقٍ[(١)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا سوءَ عاقبةِ من أعرضَ عن ذكرِه وطاعتِه: ومَن أعرَضَ عن كِتابي فلم يتدَبَّرْه ولم يَعمَلْ بما فيه؛ فإنَّ له مَعيشةً ضَيِّقةً شاقَّةً في حياتِه وبعد مماتِه وفي الآخِرةِ، ونحشُرُه يومَ القيامةِ أعمى.

قال هذا المُعرِضُ عن ذِكرِ الله: ربِّ، لِمَ حَشَرْتَني أعمى، وقد كنتُ بَصيرًا في الدُّنيا؟ قال اللهُ تعالى له: كذلك أتَتْك آياتي البيِّناتُ، فأعرَضْتَ عنها، ولم تؤمِنْ بها، وكما تركتَها في الدُّنيا فكذلك اليومَ تُترَكُ في النَّارِ، وهكذا نُعاقِبُ مَن أسرَفَ على نَفسِه فعَصى رَبَّه، ولم يؤمِنْ بآياتِه، ولَعذابُ الآخرةِ المُعَدُّ لهم أشَدُّ ألَمًا وأدوَمُ وأثبَتُ بلا انقِطاعٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٠).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وعد اللهُ تعالى من يتَّبعُ الهدى، أتبَعَه بالوعيدِ فيمن أعرَضَ، فقال[١]:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾.

أي: ومَن أعرَضَ عن كتابي[٢] فلم يتدَبَّرْه ولم يعمَلْ بما فيه؛ فإنَّ له معيشةً ضَيِّقةً مُدَّةَ حياتِه في الدُّنيا، وبعدَ مَوتِه في البَرزَخِ، وفي معادِه في الآخرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٠).

(٢) قال ابن القيم: (﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أي: عن الذِّكرِ الذي أنزلْتُه، فالذِّكرُ هنا مصدرٌ مُضافٌ إلى الفاعِلِ كقيامي وقراءتي، لا إلى المفعولِ، وليس المعنى: ومن أعرض عن أن يذكُرَني، بل هذا لازِمُ المعنى ومقتضاه مِن وجهٍ آخَرَ...، وأحسنُ مِن هذا الوجهِ أن يقالَ: الذِّكرُ هنا مضافٌ إضافةَ الأسماءِ لا إضافةَ المصادرِ إلى معمولاتِها، والمعنى: ومن أعرض عن كتابي ولم يتَّبِعْه؛ فإنَّ القرآنَ يُسَمَّى ذِكرًا). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٤٢-٤٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١٠٧)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٦٨)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٦، ١٢٧).

وممَّن اختار أنَّ المعيشةَ الضنكَ عامةٌ: في الدُّنيا والقبرِ وفي الآخرةِ: ابنُ تيميةَ، وابنُ القيِّمِ، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ القَيِّم: (المعيشةُ الضَّنكُ في الدُّنيا وفي البرزخِ، والعذابُ في الآخرةِ؛ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]. وفُسِّرَت المعيشةُ الضَّنكُ بعَذابِ القَبرِ، ولا رَيبَ أنَّه من المعيشةِ الضَّنكِ، والآيةُ تتناولُ ما هو أعَمُّ منه، وإن كانت نكرةً في سياق الإثباتِ، فإنَّ عُمومَها من حيثُ المعنى؛ فإنَّه سُبحانَه رَتَّبَ المعيشة الضَّنكَ على الإعراضِ عن ذِكرِه، فالمُعرِضُ عنه له من ضَنكِ المعيشةِ بحَسَبِ إعراضِه... فالمعيشةُ الضَّنكُ لازمةٌ لِمَن أعرض عن ذِكرِ الله الذي أنزَلَه على رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم في دنياه، وفي البرزخِ، ويومَ معادِه). ((الجواب الكافي)) (ص: ١٢٠).

وممن فسَّرها بعذابِ القبرِ: ابنُ جرير، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٩).

وممن قال بهذا القول مِن السلفِ: أبو سعيدٍ الخدري، وأبو هريرة، وعبدُ الله بنُ مسعودٍ، وأبو =

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾.

أي: ونحشُرُ المُعرِضَ عن ذِكري يومَ القيامةِ أعمى لا يُبصِرُ[١].

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ١٢٥﴾.

أي: قال: يا رَبِّ، لماذا حَشَرتَني أعمى، وقد كنتُ في الدُّنيا مُبصِرًا، وما الذي صيَّرني إلى ذلك[٢]؟!

= صالح، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٩٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٨٠).

وممن فَسَّرَها بضنك المعيشةِ في الدنيا: ابنُ كثير، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣١).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٥٢)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٧).

وممَّن قصَرَ معنى العمى هنا على عمى البَصَرِ على حقيقتِه: ابنُ القيم، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: ابنُ عبَّاس، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٨١).

ومِن المفسرينَ من عَمَّم المعنى ليشمَلَ عمى البَصَرِ والبصيرة، ومنهم: ابنُ جرير، فقال: (الصوابُ من القَولِ في ذلك ما قال الله تعالى ذِكرُه، وهو أنَّه يُحشَرُ أعمى عن الحُجَّةِ ورؤية الشيءِ، كما أخبر جلَّ ثناؤه، فعَمَّ ولم يُخَصِّص). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠١).

قال الواحدي: (قيل في التفسيرِ: أعمَى البصرِ. وقيل: أعمَى عن الحجةِ. يعني أنَّه لا حجةَ له يهتدي إليها، والأعمَى إذا أُطلِق كان الظاهرُ عمَى البصرِ). ((الوسيط)) (٣/ ٢٢٦).

وقال الشنقيطي: (اعلمْ أنَّ في هذه الآيةِ الكريمةِ قرينةً دالةً على... أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿أَعْمَىٰ﴾ أي: أعمَى البصرِ لا يرى شيئًا. والقرينةُ المذكورةُ هي قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾، فصرَّح بأنَّ عماه هو العمَى المقابلُ للبصرِ، وهو بصرُ العينِ؛ لأنَّ الكافرَ كان في الدنيا أعمَى القلبِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٢٧). ويُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٤-٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦﴾.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾.

أي: قال اللهُ له: كذلك[1] جاءتك آياتُ كتابي فترَكْتَ الإيمانَ بها وتدبُّرَها، وأعرضتَ عن العَمَلِ بها[2].

كما قال تعالى: ﴿... وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ * أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ * أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٥ - ٥٩].

﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾.

أي: فكما تركتَ آياتي في الدُّنيا ولم تعمَلْ بها، فكذلك يومَ القيامة تُترَكُ في العذابِ[3].

---

(١) أي: مِثلَ ذلك فَعلْتَ أنت، ثُمَّ فَسَّره بِقَولِه: ﴿أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾. وممَّن اختار هذا المعنى: الزمخشري، والرسعني، والبقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٢).
وقال ابن جرير: (عنى بقولِه ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ﴾ هكذا أتَتْك). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٩)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٤٦، ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).
قال ابنُ كثيرٍ: (أي: لَمَّا أعرضْتَ عن آياتِ الله، وعامَلْتَها معاملةَ مَن لم يذكُرْها، بعد بلاغِها إليك تناسَيْتَها وأعرَضْتَ عنها وأغفَلْتَها، كذلك نعامِلُك اليوم معاملةَ مَن ينساك... فإنَّ الجزاءَ مِن =

كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ١٢٧﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾.

أي: ومِثلَ ذلك الجزاءِ الشَّديدِ لِمن أعرَضَ عن ذِكري، نجزي كُلَّ مَن جاوزَ الحَدَّ، فعصى رَبَّه ولم يؤمِنْ بآياتِه[(١)].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

أي: وللعذابُ الواقِعُ في الآخرةِ أشدُّ ألَمًا[(٢)]، وأدوَمُ على أصحابِه بلا انقِطاعٍ[(٣)].

= جنسِ العمل). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).

(٢) قيل: المرادُ: ولعذابُ الآخرة أشَدُّ مِن عذابِ الدُّنيا. وممن اختاره: ابنُ كثيرٍ، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).

وقيل: المرادُ: ولعذابٌ في الآخرةِ أشدُّ لهم مما وعدتُهم في القبرِ مِن المعيشةِ الضنكِ. وممن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٤).

قيل: المرادُ: ولعذابُ الآخرة أشَدُّ مما يعذبهم به في الدنيا والقبر. وممن اختاره: البغوي، والعليمي والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٧٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٠).

وقيل: ﴿أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ من المعيشة الضَّنْك والمحشر على العَمى. وممن اختاره: الرسعني، وابن جزي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).

قال الرازي: (بَيَّنَ... أنَّ عذابَ الآخرةِ أشدُّ وأبقى؛ أمَّا الأشدُّ فلعِظَمِه، وأمَّا الأبقَى فلأنَّه غيرُ =

كما قال تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ [فصلت: ١٦].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أصلُ الضَّنكِ في اللُّغةِ: الضِّيقُ والشِّدَّةُ، فهذه المعيشةُ الضَّنكُ في مقابلةِ التَّوسيعِ على النَّفسِ والبَدَنِ بالشَّهَواتِ واللَّذَّاتِ والرَّاحةِ؛ فإنَّ النَّفسَ كُلَّما وَسَّعْتَ عليها ضَيَّقْتَ على القَلبِ، حتى تصيرَ معيشةً ضنكًا، وكلَّما ضَيَّقْتَ عليها وسَّعْتَ على القَلبِ حتى ينشَرِحَ وينفَسِحَ، فضَنكُ المعيشةِ في الدنيا بموجِبِ التقوى سَعَتُها في البرزخِ والآخرةِ، وسَعَةُ المعيشةِ في الدنيا بحُكمِ الهوى ضَنكُها في البَرزخِ والآخرةِ؛ فآثِرْ أحسَنَ المعيشتَينِ وأطيبَهما وأدوَمَهما، وأشْقِ البَدَنَ بنَعيمِ الرُّوحِ، ولا تُشْقِ الروحَ بنعيمِ البَدَنِ؛ فإنَّ نَعيمَ الرُّوحِ وشقاءَها أعظَمُ وأدوَمُ، ونعيمُ البَدَنِ وشَقاؤه أقصَرُ وأهوَنُ، واللهُ المستعانُ[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ تضَمَّنَت هذه الآيةُ أنَّ مَن أعرَضَ عن الهُدى المُنزَّلِ -وإنْ لم يُكَذِّبْ به- فإنَّه يكونُ يومَ القيامةِ في العذابِ المُهينِ، وأنَّ معيشتَه تكون ضَنْكًا في هذه الحياةِ وفي البَرزخِ والآخرةِ، وهي المضنوكةُ النَّكِدَةُ المحشوَّةُ بأنواعِ الهُمومِ والغُمومِ والأحزانِ، كما أنَّ الحياةَ الطيِّبةَ هي لِمَن آمَنَ وعَمِلَ

= مُنْقَطِعٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٢).

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٦٨-١٦٩).

صالِحًا[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي﴾ عَبَّر سُبحانَه عن الإعراضِ عن الهدى المُنزَّلِ بـ «الإعراضِ عن ذِكْرِه»؛ لأنَّ فيما أنزلَه مِن الهُدى تذكيرًا للإنسانِ، وإنذارًا له وتخويفًا[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ يَشْمَلُ الكافرَ -وله منها حقُّ الوعيدِ- ويَشملُ المؤمِنَ المرتكِبَ الكبيرة -وله نصيبٌ مِن ضَنْكِ العيشِ بقَدْرِ إعراضِه عن الذِّكْرِ- ومذهَبُ أهلِ السُّنَّة أنَّ الشَّخْصَ الواحِدَ تَجتَمِعُ فيه الحَسَناتُ والسيِّئاتُ، فيسْتَحِقُّ الثَّوابَ والعِقابَ جَميعًا[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ فسَّرَها غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ بعذابِ القَبرِ، وجَعَلوا هذه الآية أحَدَ الأدلَّةِ الدالَّةِ على عذابِ القَبرِ؛ ولهذا قال: ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ أي: تُترَكُ في العذابِ، كما تَركتَ العمَلَ بآياتِنا، فذَكَر عذابَ البَرزخِ وعذابَ دار البوارِ، ونظيرُه قَولُه تعالى في حَقِّ آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ فهذا في البرزخ ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] فهذا في القيامةِ الكُبرى، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((شرح مقدمة التفسير)) لابن عثيمين (ص: ٣٦).

(٣) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ١٨٩).

عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فقول الملائكة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ المرادُ به: عذابُ البرزخِ الذي أوَّلُه يومُ القَبضِ والموتِ، ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَـٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠] فهذه الإذاقةُ هي في البرزخِ وأولها حينَ الوفاةِ؛ فإنَّه معطوفٌ على قَولِه: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَـٰرَهُمۡ﴾، وهو من القَولِ المحذوفِ مَقولُه؛ لِدَلالةِ الكلامِ عليه كنظائِرِه، وكلاهما واقِعٌ وَقتَ الوفاةِ[(١)].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّا نرى من المُعرِضينَ عن الإيمانِ من يكون في أخصَبِ عيشةٍ؟!

والجواب: أنَّ المعرضَ عن الإيمانِ وإن تنعَّم في الدنيا بأصنافِ النِّعم، ففي قلبِه مِن الوحشةِ والذلِّ والحسراتِ التي تقطعُ القلوبَ، والأماني الباطلةِ والعذابِ الحاضرِ ما فيه، وإنما يواريه عنه سكراتُ الشهواتِ، والعشقُ وحبُّ الدنيا والرياسةِ، وإن لم ينضمَّ إلى ذلك سكرُ الخمرِ، فسكرُ هذه الأمورِ أعظمُ مِن سكرِ الخمرِ، فإنه يفيقُ صاحبُه ويصحو، وسكرُ الهوى وحبِّ الدنيا لا يصحو صاحبُه إلا إذا كان صاحبُه في عسكرِ الأمواتِ، فالمعيشةُ الضنكُ لازمةٌ لمن أعرضَ عن ذكرِ الله الذي أنزله على رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم في دُنياه وفي البرزخِ ويومَ معادِه[(٢)].

٥- نسيانُ ما أُمر المرء بحفظِه مذمومٌ، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٢٠). ويُنظر أيضًا: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٩).

﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾، وهذا النسيانُ وإن كان متضمنًا لتركِ العملِ بها مع حفظِها، فإذا نُسِيت الآياتُ بالكليةِ حتى لا يعرفَ ما فيها كان ذلك أبلغَ في تركِ العملِ بها؛ فكان هذا مذمومًا(١).

٦- قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ ليس داخلًا في هذا الوعيدِ الخاصِّ نسيانُ لفظِ القرآنِ مع فهمِ معناه، والقيامِ بمقتضاه، وإن كان الإعراضُ عن تلاوةِ القرآنِ، وتعريضُه للنسيانِ، وعدمُ الاعتناءِ به؛ فيه تهاونٌ كبيرٌ، وتفريطٌ شديدٌ(٢).

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ يؤكِّدُ القولَ أنَّ السَّرَفَ هو: مجاوزةُ الحَدِّ في الفِعلِ كلِّه، لا في الإنفاقِ وَحدَه(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ...﴾ مُستأنَفٌ استئنافًا ابتدائيًّا(٤).

- وجُملةُ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا﴾ واقِعةٌ في طَريقِ المُحاوَرةِ؛ فلذلك فُصِلَت عن الَّتي قبْلَها، ولم تُعْطَفْ عليها(٥).

- وفيه ثلاثةُ احتباكاتٍ(٦)؛ فتَقديرُ الأوَّلِ: ونحشُرُه يومَ القِيامة أعمَى ونَنساهُ.

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٤)، ((فضائل القرآن)) لابن كثير (ص: ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) تقدم تعريف الاحتباك (ص: ٢٦٤).

وتَقديرُ الثَّاني والثَّالثِ: قال: كذلك أتَتْك آياتُنا، فنَسِيتَها وعَمِيتَ عنها؛ فكذلك اليومَ تُنْسى وتُحشَرُ أعْمى[١].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾

- جُملةُ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ﴾ تَذييلٌ؛ يجوزُ أنْ تكونَ من حِكايةِ ما يُخاطِبُ اللهُ به مَن يُحشَرُ يومَ القيامةِ أعمى؛ قُصِدَ منها التَّوبيخُ له والتَّنكيلُ؛ فالواوُ عاطفةٌ الجُملةَ على الَّتي قبْلَها. ويجوزُ أنْ تكونَ تَذييلًا للقصَّةِ، وليست من الخِطابِ المُخاطَبِ به مَن يُحْشَرُ يومَ القيامةِ أعْمى؛ قُصِدَ منها موعظةُ السَّامعينَ؛ ليَحْذَروا مِن أنْ يَصيروا إلى مثْلِ ذلك المصيرِ، فالواوُ اعتراضيَّةٌ؛ لأنَّ التَّذييلَ اعتراضٌ في آخرِ الكلامِ، والواوُ الاعتراضيَّةُ راجعةٌ إلى الواوِ العاطفةِ، إلَّا أنَّها عاطفةٌ مجموعَ كلامٍ على مَجموعِ كلامٍ آخرَ، لا على بعْضِ الكلامِ المعطوفِ عليه[٢].

- قولُه: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ تَذييلًا للقصَّةِ، وليس من حِكايةِ خِطابِ اللهِ للَّذي حشَرَه يومَ القيامةِ أعْمَى؛ فالمُرادُ بعذابِ الآخرةِ مُقابِلُ عذابِ الدُّنيا المُفادِ من قولِه: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا ﴾ [طه: ١٢٤] الآيةَ -على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-، والواوُ اعتراضيَّةٌ. ويجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ من حِكايةِ خِطابِ اللهِ للَّذي يَحشُرُه أعْمى؛ فالمُرادُ بعذابِ الآخرةِ: العذابُ الَّذي وقَعَ فيه المُخاطَبُ، أي: أشدُّ من عَذابِ الدُّنيا -على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-، وأبْقى منه؛ لأنَّه أطوَلُ مُدَّةً[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٢٨-١٣٠)

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠)﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾: أي: يُبيِّنْ لهم، أو يَتَبيَّنْ لهم، وأصلُ (هدي) هنا: التَّقدُّمُ للإرشادِ[1].

﴿لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾: أي: أصحابِ العقولِ، والنُّهَى جمعٌ، مفردُه نُهْيَةٌ، وسُمِّي العقلُ بذلك؛ لأنَّه يَنهَى عن قبيحِ الفعلِ، وأصلُ (نهي): يدُلُّ على غايةٍ وبلوغٍ[2].

﴿لِزَامًا﴾: أي: ملازمًا لا يفارقُ، أو: لازمًا، أو: حتمًا واقعًا، واللِّزامُ مصدرُ لازَمَ، وأصلُ (لَزِمَ): يَدُلُّ على مُصاحبةِ الشَّيءِ بالشَّيءِ دائمًا[3].

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾: أصلُ الأجَلِ: غايةُ الوَقتِ، والمُدَّةُ المضروبةُ للشَّيءِ،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٤).

ومُسَمًّى أي: مُثبَتٌ مُعَيَّنٌ[(١)].

﴿ءَانَآيِ ٱلَّيۡلِ﴾: أي: ساعاتِه، وأصلُ (أني) هنا: ساعةٌ مِن الزَّمانِ[(٢)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾

قولُه تعالى: ﴿وَأَجَلٞ﴾ مَرفوعٌ بالعَطفِ على ﴿كَلِمَةٞ﴾ أي: ولولا كَلِمةٌ وأجَلٌ مُسمًّى لكان الأخذُ العاجِلُ لِزامًا لهم. وقيل: مَرفوعٌ عطفًا على الضَّميرِ المُستَتِرِ في (كان) العائدِ على الأخذِ العاجِلِ المدلولِ عليه بالسِّياقِ، وقام الفَصلُ بـ (لِزَامًا) مَقامَ التأكيدِ. والتقديرُ: ولولا كَلِمةٌ سَبقَت مِن ربِّك، لكان الأخذُ العاجِلُ وأجَلٌ مُسَمًّى لازِمَين لهم[(٣)].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى موبخًا هؤلاء الذين لم ينتفِعوا بآياتِه: أفلَمْ يتبَيَّنْ لِمُشرِكي العَرَبِ -يا محمَّدُ- كثرةُ مَن أهلَكْنا مِن الأمَمِ المكَذِّبةِ قَبْلَهم، وهم يمشونَ في ديارِهم، ويَرَون آثارَ هلاكِهم بسَبَبِ كُفرِهم؟! إنَّ في إهلاكِ تلك الأمَمِ المكذِّبةِ لَعِبَرًا وعظاتٍ لأهلِ العُقولِ الواعيةِ، ولولا تقديرُ اللهِ تأخيرَ عذابِهم إلى وقتٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩، ٨٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤١) و(٥/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٥٦٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ١٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٨٨).

مقدَّرٍ، لحاقَ بهم الهلاكُ العاجِلُ.

ثمَّ يأمرُ الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بالمداومةِ على الصبرِ، والإكثارِ مِن ذكرِه، فيقول: فاصبِرْ على ما يقولُه المكَذِّبونَ بك مِن كُفَّارِ قَومِك، وسبِّحْ بحَمدِ رَبِّك قَبلَ طُلوعِ الشَّمسِ بأن تصلِّيَ صَلاةَ الفَجرِ، وقبلَ غروبِها بأن تصلِّيَ صلاةَ العَصرِ، ومِن ساعاتِ اللَّيلِ فَصَلِّ، وأطرافَ النَّهارِ؛ كي تَرْضى بما تُثابُ عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما بيَّنَ الله تعالى أنَّ من أعرَضَ عن ذِكرِه كيف يُحشَرُ يوم القيامة، أتبَعَه بما يَعتَبِرُ به المكَلَّفُ من الأحوالِ الواقعةِ في الدنيا بمن كَذَّبَ الرسُلَ(١).

وأيضًا لما كان ما مضَى من هذه السورةِ وما قبلَها مِن ذكرِ مصارعِ الأقدمينَ، وأحاديثِ المكذبينَ، بسببِ العصيانِ على الرسلِ، سببًا عظيمًا للاستبصارِ والبيانِ، كانوا أهلًا لأن يُنكِرَ عليهم لزومَهم لعماهم؛ فقال تعالى(٢):

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾.

أي: أفلَمْ يتبَيَّنْ لِمُشرِكي العَرَبِ كثرةُ من أهلَكْنا قبلهم من الأُمَمِ الماضيةِ، وهم يسيرونَ في مساكِنِهم إذا سافروا، ويَرَونَ آثارَ هَلاكِهم بسَبَبِ كُفرِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٤).

أفلا يخافون أنْ نُهلِكَهم مِثْلَهم، إن لم يؤمِنوا ويُذعِنوا للحقِّ الذي جاءَهم[(١)]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾.

أي: إنَّ في إهلاكِ الأُمَمِ المكذِّبةِ لَدلالاتٍ وعِظاتٍ لِذَوي العُقولِ الصَّحيحةِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٦، ٣٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٥).

قال ابنُ عاشور: (والمرادُ بالقرونِ: عادٌ وثمود؛ فقد كان العربُ يمرُّون بمساكِنِ عادٍ في رِحْلاتِهم إلى اليَمَنِ ونجران وما جاورها، وبمساكِنِ ثمودَ في رحلاتِهم إلى الشَّامِ، وقد مرَّ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم والمسلمون بديارِ ثمودَ في مسيرِهم إلى تبوكَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٥).

قال ابن القيم: (فأيُّ دَلالةٍ أعظَمُ مِن رَجُلٍ يَخرُجُ وَحدَه لا عُدَّةَ له ولا عَدَدَ ولا مالَ، فيدعو الأمَّةَ العظيمةَ إلى توحيدِ الله والإيمانِ به وطاعته، ويحَذِّرُهم من بأسِه ونقمَتِه؛ فتتَّفِق كَلِمتُهم أو أكثَرِهم على تكذيبِه ومعاداتِه، فيُذَكِّرُهم أنواعَ العقوباتِ الخارجةِ عن قُدرةِ البَشَرِ، فيُغرِقُ المكَذِّبينَ كُلَّهم تارة، ويخسِفُ بغَيرِهم الأرضَ تارةً، ويُهلِكُ آخرينَ بالرِّيحِ، وآخرينَ بالصَّيحةِ، وآخرينَ بالمسخِ، وآخرينَ بالصَّواعِقِ، وآخرينَ بأنواعِ العقوباتِ، وينجو داعيهم ومَن معه، والهالِكونُ أضعافُ أضعافِ أضعافِهم عددًا وقُوَّةً ومَنعةً وأموالًا؟!). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٣٠٢).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ٥١].

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها:

أنَّه لَمَّا هَدَّدَهم الله تعالى بإهلاكِ الماضين، ذكرَ سَبَبَ التأخيرِ عنهم[1].

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾.

أي: ولولا تَقديرُ الله تأخيرَ العذابِ إلى وَقتٍ مُقَدَّرٍ[2]؛ للزِمَهم الهلاكُ عاجِلًا[3].

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٧].

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبرَ الله تعالى نبيَّه بأنَّه لا يُهلِكُ أحدًا قبلَ استيفاءِ أجَلِه؛ أَمَرَه بالصبر على ما يقولونَ، فرَغَّبَه تعالى في الصبرِ، وبعَثَه على الإدامةِ على الدعاءِ إلى الله تعالى،

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٤٩١).

(٢) قال ابنُ تيمية: (قوله: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أي: إنَّ عذابَهم له أجلٌ مسمًّى: إمَّا يوم القيامةِ، وإمَّا في الدنيا كيوم بدرٍ، وإما عَقِبَ الموتِ، وقد ذُكِر في الآيةِ الأقوالُ الثلاثةِ. فلولا كلمةٌ سبقَت مِن ربِّك إلى أجلٍ مسمًّى، لكان العذابُ لزامًا، أي: لازمًا لهم؛ فإن المقتضي له قائمٌ تامٌّ، وهو كفرُهم). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥٩٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٦، ٣٣٧).

وإبلاغِ ما حُمِّلَ مِن الرسالةِ، وألَّا يكونَ ما يُقدِمونَ عليه صارفًا له عن ذلك(١).

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يقولُ كُفَّارُ قَومِك مِن تكذيبِك، والاستهزاءِ بك، وإيذائِك، كقولِهم: هو ساحِرٌ ومجنونٌ؛ فلا تستعجِلْ لهم العذابَ، ولا تحفِلْ بهم؛ فإنَّ لعذابِهم وَقتًا مضروبًا لا يُتقَدَّمُ عنه، ولا يُتأخَّرُ(٢).

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾.

أي: ونزِّه -يا محمَّدُ- ربَّك عن كلِّ نَقصٍ، حامدًا له بإثباتِ كُلِّ كَمالٍ مع محبَّتِه وتَعظيمِه سُبحانَه، وذلك بأن تصلِّيَ له وَحدَه قَبلَ طُلوعِ الشَّمسِ: صلاةَ الفَجرِ، وقبل غُروبِها، صلاةَ العَصرِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٨)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٨٩ - ٢٩٣) و(٦/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٥)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٧).

وممن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالتسبيحِ قبلَ طلوعِ الشمسِ: صلاةُ الصبحِ، وبالتسبيحِ قبلَ غروبِ الشمسِ: صلاةُ العصرِ: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ تيمية، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٨)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٠).

قال القرطبي: (قال أكثرُ المتأوِّلينَ: هذا إشارةٌ إلى الصلواتِ الخَمسِ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦١).

وقال الشوكاني: (ولو قيل: ليس في الآيةِ إشارةٌ إلى الصلاةِ، بل المرادُ التسبيحُ في هذه الأوقاتِ، أي: قول القائلِ: سبحانَ الله، لم يكن ذلك بعيدًا مِن الصوابِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٥).
=

كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨].

وعن جريرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنه قال: ((كنَّا عند النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذ نظَرَ إلى القَمَرِ ليلة البَدرِ فقال: أمَا إنَّكم ستَرَونَ ربَّكم كما تَرَونَ هذا، لا تضامُّونَ[(١)] ....

= وقال ابن تيمية: (قولُه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قد فسَّرَها كثيرٌ من المفَسِّرينَ أي: فصَلِّ بحَمدِ رَبِّك والثناء عليه، لم يذكُرِ ابن الجوزيِّ غيرَ هذا القول، قال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: صَلِّ له بالحمدِ والثناءِ عليه. وتفسيرُ التسبيحِ بالصلاةِ فيها أحاديثُ صحيحةٌ وآثار كثيرة، مثل حديثِ جرير...

وأمَّا قولُه: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾... أي بحمدِ ربِّك وشكرِ ربِّك وطاعةِ ربِّك وعبادة ربِّك، أي: بذكرك ربَّك وشكرِك ربَّك وطاعتِك ربَّك وعبادتِك ربَّك، ولا ريبَ أنَّ حمدَ الربِّ والثناءَ عليه ركنٌ في الصلاةِ؛ فإنها لا تتمُّ إلا بالفاتحةِ التي نصفُها الأولُ حمدٌ لله وثناءٌ عليه وتحميدٌ له، وقد شُرع قبل ذلك الاستفتاحُ، وشُرع الحمدُ عند الرفعِ مِن الركوعِ، وهو متضمِّنٌ لحمدِ الله تعالى). ((جامع المسائل)) (٣/ ٢٨٩).

وقال ابن تيمة أيضًا: (وقد قيل: إنَّ الصلاةَ إنما سمِّيت تسبيحًا؛ لاشتمالِها على القيامِ والقراءةِ، وتسمَّى ركعةً وسجدةً؛ لاشتمالِها على الركعةِ والسجدةِ... والمصلِّي إذا حمِد ربَّه في القيامِ، أو في القيامِ والقعودِ، وسبَّح في الركوعِ والسجودِ، فقد جمَع التسبيحَ والحمدَ، فسبَّح بحمدِ الله. فالصلاةُ تسبيحٌ بحمدِ ربِّه، كما بيَّن النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم ذلك). ((جامع المسائل)) (٣/ ٢٩٣).

وقال أيضًا: (فـ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ هي صلاةُ الفجرِ، و﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ هي العصرُ، وكذلك فسَّرها النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((جامع المسائل)) (٦/ ٣٤٤).

وقال ابن رجب: (صلاةُ الصُّبحِ وصَلاةُ العَصرِ يدخُلُ في التسبيحِ قبلَ طلوعِ الشَّمسِ وقبلَ غروبِها). ((فتح الباري)) (٤/ ١٧٧).

(١) لا تضامون: يُروَى بالتشديدِ والتخفيفِ، فبالتشديدِ معناه: لا ينضمُّ بعضُكم إلى بعضٍ وتزدحمونَ وقتَ النظرِ إليه، وبالتخفيفِ معناه: لا ينالُكم ضيمٌ (أي: ظلم) في رؤيتِه، فيراه بعضُكم دونَ =

-أو لا تضاهون[١]- في رؤيتِه، فإن استطعتُم ألَّا تُغلبوا على صلاةٍ قبل طلوعِ الشَّمسِ وقبل غُروبِها، فافعَلوا)) ثم قال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[٢].

﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾.

أي: ومِن ساعاتِ اللَّيلِ فَصَلِّ -يا محمَّدُ[٣].

= بعضٍ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٠١).

(١) تضاهون: لا يشتبِهُ عليكم، ولا ترتابون فيه فيعارِض بعضُكم بعضًا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٤٤٦).

(٢) رواه البخاري (٥٧٣) واللفظ له، ومسلم (٦٣٣).

قال ابن رجب: (وقد أدرج أكثرُ الرواةِ القراءةَ في الحديثِ، وبيَّن بعضُهم: أنَّ جريرًا هو الذي قرأ ذلك). ((فتح الباري)) (٤/ ١٧٧).

وقال أيضًا: (وقد قيل: إنَّ هذه الكلمة مُدرَجةٌ، وإنما القارئ هو جريرُ بن عبد الله البَجَلي. وقد خرجَّه مسلم في «صحيحه» عن أبي خيثمةَ، عن مروانَ بنِ معاويةَ -فذكر الحديثَ، وقال في آخرِه: ثم قرأ جرير: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]. وكذا رواه عمرُو بنُ زرارةَ وغيرُه، عن مروانَ بنِ معاويةَ، وأدرجه عنه آخرون). ((فتح الباري)) (٤/ ٣٢٥-٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٨)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٦).

قال ابن تيمية: (﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾ مُطلَقٌ في آناءِ اللَّيلِ يتناولُ المغربَ والعِشاءَ). ((جامع المسائل)) (٦/ ٣٤٥).

وقال ابن رجب: (وأما التسبيحُ من آناء الليل فيدخلُ فيه صلاة المغربِ وصلاةُ العشاء). ((فتح الباري)) (٤/ ١٧٧).

وقيل: المراد: صلاة المغرب والعشاء. وممن قال بذلك: مقاتل بن سليمان، ومكي، والواحدي، والبغوي، والبيضاوي، والخازن، والعُليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٦)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢١٨)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٦٦). =

كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ * وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩، ٤٠].

﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾.

أي: وصلِّ -يا محمَّد- في أطرافِ النَّهارِ؛ كي ترضى بما يعطيك ربُّك مِن الثوابِ العاجِلِ والآجِلِ، ويطمَئِنَّ قَلْبُك وتقَرَّ عَينُك بعبادةِ رَبِّك، وتتسلَّى بها عن أذيَّتِهم، ويَهونَ عليك الصَّبرُ[1].

= وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١١).

وحملها ابنُ جرير على صلاةِ العشاءِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١١).

وحملها ابنُ كثيرٍ على قيامِ الليلِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٦).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٩-٢١٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٩).

قيل: المرادُ بذلك: صلاة الظهر. وممن قال به: الواحدي، والسمعاني، والبغوي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٠٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٠).

وممن قال بهذا القول من السلف: قتادة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١١).

وقيل: المراد بأطراف النهار: صلاةُ الظهر والمغرب. وممن قال بذلك: ابن جرير، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦١).

قال ابن جرير: (وقيل: أطراف النهار، والمراد بذلك الصلاتان اللتان ذكرنا؛ لأنَّ صلاةَ الظُّهرِ في آخر طَرَفِ النهار الأول، وفي أوَّلِ طَرَفِ النهار الآخِر، فهي في طرفَينِ منه، والطرف الثالث: غروبُ الشمس، وعند ذلك تصلَّى المغربُ، فلذلك قيل أطراف). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٩).

وذهب ابن رجب إلى أنه يدخلُ في أطراف النَّهارِ صلاةُ الفَجرِ وصلاة العصر، وربما دخلت فيه صلاةُ الظهر؛ لأنَّها في أول طرف النهار الآخر. يُنظر: ((فتح الباري)) (٤/ ١٧٧، ١٧٨).

وقال القرطبي: (وقالت فرقةٌ: المرادُ بالآية صلاة التطوُّع، قاله الحسنُ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٧٠). =

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ تبارك وتعالى يقولُ لأهلِ الجَنَّةِ: يا أهلَ الجَنَّةِ، فيقولون: لبَّيك ربَّنا وسَعدَيك[١]، فيقولُ: هل رَضِيتُم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتَنا ما لم تُعطِ أحدًا من خَلقِك؟! فيقولُ: أنا أُعطيكم أفضَلَ مِن ذلك، قالوا: يا رَبِّ، وأيُّ شَيءٍ أفضَلُ مِن ذلك؟! فيقولُ: أحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم بعده أبدًا))[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ فيه أنَّه ما كُلُّ أحدٍ ينتَفِعُ بالآياتِ، إنما ينتَفِعُ بها أولو النُّهى، أي: العقولِ السليمةِ، والفِطَرِ المُستقيمة، والألبابِ التي تَزجُرُ أصحابَها عمَّا لا ينبغي[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ أمَرَ تعالى عَقيبَ الصَّبرِ

= وقال ابنُ عاشور: (وقرأ الجمهورُ: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ -بفتح التاء- بصيغة البناء للفاعل، أي: رجاءً لك أن تنالَ مِن الثوابِ عند الله ما ترضى به نفسُك. ويجوز أن يكون المعنى: لعلَّ في ذلك المقدارِ الواجبِ من الصلواتِ ما ترضى به نفسُك دونَ زيادةٍ في الواجِبِ؛ رفقًا بك وبأمتك، ويبيِّنُه قَولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: «وجُعِلَت قرَّةُ عيني في الصَّلاةِ». وقرأ الكسائي، وشعبة عن عاصم: ﴿تُرْضَى﴾ -بضَمِّ التاء- أي: يُرضِيك ربُّك. وهو محتَمِلٌ للمعنيينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٩).

(١) لبَّيك وسَعْديك: أي: لُزومًا لطاعتِك بعد لُزوم، وإسعادًا لأمرك بعد إسعادٍ. ولبَّيك: مأخوذٌ مِن: لَبَّ بالمكانِ وألَبَّ، أي: أقام به. وأصلُ الإسعادِ والمُساعَدةِ: مُتابعةُ العبدِ أمرَ رَبِّه. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٢/ ٤٣).

(٢) رواه البخاري (٦٥٤٩) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).

بالتَّسبيحِ؛ لأنَّ ذِكرَ اللهِ تعالى يفيدُ السَّلوةَ والرَّاحةَ؛ إذ لا راحةَ للمُؤمِنينَ دونَ لقاءِ الله تعالى[١]، على أحدِ القولينِ في المرادِ بالتسبيحِ.

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ حُجَّةٌ على القَدَريَّةِ والمُعتزلةِ في ذِكْرِ سابِقِ الكَلِمةِ، وهو -واللهُ أعلمُ- نظيرُ قَولِهِ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] في معنى السَّبْقِ[٢].

٢- تَسبيحُ اللهِ تعالى كثيرًا ما يُقرَنُ بتَحميدِه؛ فإنَّ الله تعالى يَذكُرُ في غيرِ مَوضِعِ التَّسبيحَ بحَمدِه، كقَولِه جَلَّ وعلا: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، وقَولِه: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧]، وقَولِه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨]. والتَّسبيحُ والتَّحميدُ يَجمَعُ النفيَ والإثباتَ، وهو نفيُ المعائِبِ، وإثباتُ المحامِدِ؛ وذلك يتضَمَّنُ التعظيمَ؛ فالتسبيحُ يتضَمَّنُ التنزيهَ المُستَلزِمَ للتَّعظيمِ، والحمدُ يتضَمَّنُ إثباتَ المحامِدِ المتضَمِّنَ لِنَفيِ نقائِصِها[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أفاد بذِكرِ الجارِّ في (الآناءِ) التبعيضَ؛ لأنَّ الليلَ محَلُّ الراحةِ، ونَزعُه من الأطرافِ لتيسُّرِ استغراقِها بالذِّكرِ؛ لأنَّ النَّهارَ مَوضِعُ النشاطِ واليَقَظةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل لابن تيمية)) (٣/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٨).

٤- قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ وجهُ الاهتمامِ بآناءِ اللَّيلِ: أنَّ اللَّيلَ وقتٌ تَميلُ فيه النُّفوسُ إلى الدَّعَةِ، فيُخشى أن يُتساهَلَ في أداءِ الصَّلاةِ فيه[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾

- قولُه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَقريرِ ما قبْلَه مِن قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾ الآيةَ، والهمزةُ للإنكارِ التَّوبيخيِّ، والفاءُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ. واستعمالُ الهدايةِ باللَّامِ؛ إمَّا لتَنزيلِها مَنزِلةَ اللَّازمِ، فلا حاجةَ إلى المفعولِ، أو لأنَّها بمعنى التَّبيينِ، والمفعولُ مَحذوفٌ[2].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ تَعليلٌ للإنكارِ، وتَقريرٌ للهدايةِ مع عدَمِ اهتدائِهم، وذلك إشارةٌ إلى مَضمونِ قولِه تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ إلخ، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإشعارِ ببُعْدِ مَنزلتِه وعُلوِّ شأْنِه في بابِه[3].

- وحرْفُ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ بالخبرِ، وللإيذانِ بالتَّعليلِ. وفي هذا تَعريضٌ بالَّذين لم يَهْتَدوا بتلك الآياتِ بأنَّهم عَديمو العُقولِ، كقولِه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[4] [الفرقان: ٤٤].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٥).

بالفاءِ مِن غيرِ (مِن)، وفي (السَّجدةِ): ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [السجدة: ٢٦] بالواوِ وبعْدَه (مِن). ووجْهُه: أنَّ الفاءَ للتَّعقيبِ والاتِّصالِ بالأوَّلِ، فطال الكلامُ، فحسُنَ حذْفُ (مِن). والواوُ تدُلُّ على الاستئنافِ، وإثباتُ (مِن) مُسْتقِلٌّ(١).

وفيه وجْهٌ آخرُ: أنَّ قولَه في الآيةِ الأُولى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ كلامٌ لم يَتقدَّمْه ما يكونُ هذا معطوفًا عليه، وإنَّما هو كلامٌ مُستأنفٌ مُبتدأٌ، فما تقدَّمَ قبْلَه من قولِه تعالى إخبارًا عمَّن أعرَضَ عمَّا جاءت به الرُّسلُ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤] إلى قولِه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]، هذا إخبارٌ عن جَزاءِ مَن أعرَضَ ولم يُؤمِنْ، ثمَّ ورَدَ ما بعْدُ مُسْتأنَفًا وارِدًا مَورِدَ ما يَرِدُ من الكلامِ الْتِفاتًا، ثمَّ ابتدَأَ تَوبيخَهم وتذكيرَهم، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾، وإذا كان قولُه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ مُبتدأً مُستأنَفًا، فالموضعُ للفاءِ، ومثله ما أتى ممَّا الوجْهُ فيه الاستئنافُ، ولم يُقْصَدْ عطْفُه على ما قبْلَه، وإنَّما ارتباطُه بما تقدَّمَه من جِهَةِ المعنى، ولا مدخَلَ فيه للعطفِ، مع أنَّ الالْتِحامَ حاصلٌ من وجْهٍ كما بيَّنَّا.

وأمَّا آيةُ (السَّجدةِ) فالْواوُ فيها عاطفةٌ على مُقدَّرٍ؛ لمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: ٢٢]، كأنْ قد قِيلَ: أفلَا تذكَّروا ولم يُعرِضوا ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [السجدة: ٢٦]، أولَمْ يُبيِّنْ لهم إهلاكُ مَن تقدَّمَهم منَ القُرونِ.

وأمَّا زِيادةُ (مِن) في قولِه في آيةِ (السَّجدةِ): ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ [السجدة: ٢٦]،

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٦).

فإنَّها مقصودٌ فيها استغراقُ عُمومٍ لمُناسَبةِ ما تقدَّمَ هذه الآيةَ مِن حصْرِ التَّقسيمِ في قولِه: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨]، وأُعْقِبَت به، ممَّا يُفْهِمُه قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]؛ إذ ليس هنا الواردُ كالواردِ في سُورةِ (طه) من قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨]، فهذا يُشعِرُ بخُصوصٍ يُناسِبُه سُقوطُ (مِن) الاستغراقيَّةِ، وما في آيةِ (السَّجدةِ) يُشعِرُ بعُمومٍ واستغراقٍ تُناسِبُه (مِن) في قولِه: ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾، فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ ويَجِبُ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ سِيقَ لبَيانِ حِكْمةِ عدَمِ وُقوعِ ما يُشْعِرُ به قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾ الآيةَ، مِن أنْ يُصيبَهم مثْلُ ما أصاب القُرونَ المُهلَكةَ. وفي التَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه السَّلامُ: تَلويحٌ بأنَّ ذلك التَّأخيرَ لتَشريفِه عليه السَّلامُ، كما يُنْبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ [الأنفال: ٣٣][٢].

- و(اللِّزامُ) إمَّا مصْدرُ (لازَمَ)؛ وُصِفَ به لقصْدِ المُبالَغةِ في قُوَّةِ المعنى؛ كأنَّه حاصِلٌ من عِدَّةِ ناسٍ، وإمَّا (فِعال) بمعنى (مُفعِل)، أي: مُلْزِم، كأنَّه آلةُ اللُّزومِ؛ لفرْطِ لُزومِه[٣].

- قولُه: ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ معطوفٌ على ﴿كَلِمَةٞ﴾، وفصْلُه عمَّا عُطِفَ عليه؛

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٤٢-٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٦).

للمُسارَعةِ إلى بَيانِ جَوابِ (لولا)، وللإشعارِ باستقلالِ كلٍّ منهما بنفْيِ لُزومِ العذابِ، ومُراعاةِ فواصلِ الآيِ الكريمةِ[(١)].

- وفي الآيةِ تَقديمٌ وتأخيرٌ، أي: ولولا كلمةٌ سبَقَتْ من ربِّك وأجَلٌ مُسمًّى، لكان العذابُ لِزامًا، أي: لازِمًا لهم كما لزِمَ الأُمَمَ الَّتي قبْلَهم[(٢)].

٣- قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ المُرادُ به المغربُ والعشاءُ -على أحدِ الأقوالِ- وتَقديمُ الوقْتِ فيهما؛ لاختصاصِهما بمَزيدِ الفضْلِ؛ فإنَّ القلْبَ فيهما أجمَعُ، والنَّفسَ إلى الاستراحةِ أميَلُ، فتكونُ العِبادةُ فيهما أشَقَّ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ قيل: هو تَكريرٌ لصَلاتَيِ الصُّبحِ والمغربِ إرادةَ الاختصاصِ، ومَجيئُه بلفْظِ الجمْعِ لأمْنِ الإلباسِ. وقيل: هو أمْرٌ بصَلاةِ الظُّهرِ؛ فإنَّه نِهايةُ النِّصفِ الأوَّلِ من النَّهارِ وبِدايةُ النِّصفِ الآخرِ، وجمْعُه باعتبارِ النِّصفينِ، أو لأنَّ النَّهارَ جِنْسٌ، أو بالتَّطوُّعِ في أجزاءِ النَّهارِ[(٤)]. وقيل: هو تكريرٌ لصَلاتَيِ الصُّبحِ والعَصرِ؛ إعلامًا بمزيد فَضلِهما[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٦- ٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٦- ٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٦٧).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، وفي سُورةِ (ق): ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]، فقال في الأُولى: ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ وفي الثَّانيةِ: ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾، وفي سُورةِ الطُّورِ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨، ٤٩]، وذلك لرَعْيِ الفواصلِ ومَقاطعِ الآيِ؛ فقد تقدَّمَ قبْلَ آيةِ (ق) من قولِه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، فناسَبَ هذا قولُه: ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾، وأمَّا آيةُ (طه) فقدِ اكتنَفَها آيٌ، مَقاطِعُها الألِفُ المفتوحُ ما قبْلَها نُطْقًا وتقديرًا، فجاء ذلك على ما يجِبُ في السُّورتينِ.

أمَّا قولُه تعالى في السُّورتينِ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٠] [ق: ٣٩]، بناءً على المُتقدِّمِ فيهما من قولِه تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨] واتِّصالِه به، فَبيِّنُ الوُضوحِ؛ لأنَّ المُرادَ أمْرُه عليه السَّلامُ بالصَّبرِ على أذاهمْ في قولِهم: كاهنٌ، ومجنونٌ، وساحرٌ، إلى غيرِ ذلك ممَّا نزَّهَ اللهُ نَبيَّه عليه السَّلامُ منه، فأُمِرَ بالصَّبرِ على ذلك، وأُمِرَ أنْ يَستعينَ بصبْرِه وصَلاتِه، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وهو المُرادُ أيضًا هنا، وعن الصَّلاةِ عبَّرَ بالتَّسبيحِ -في قولِ أكثرِ المُفسِّرينَ-، وإنْ أُرِيدَ بالتَّسبيحِ معنى التَّنزيهِ بالذِّكرِ المعروفِ، فذلك أيضًا بيِّنٌ، والمعنى مُتعارَفٌ، ويكونُ مأمورًا بالصَّبرِ والذِّكرِ والتَّنزيهِ، فالالْتِحامُ بيِّنٌ(١).

- ومن المُناسَبةِ أيضًا قولُه هنا: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾، وفي سُورةِ (هودٍ)

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٤٣-٣٤٤).

قال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾ [هود: ١١٤]؛ قيل: جاءتِ التَّثنيةُ على الأصْلِ، والجمْعُ لأمْنِ اللَّبسِ؛ إذ النَّهارُ ليس له إلَّا طَرفانِ. وقيل: هو على حَقيقةِ الجمْعِ؛ الفجْرُ: الطَّرفُ الأوَّلُ، والظُّهرُ والعصرُ من الطَّرفِ الثَّاني، والطَّرفُ الثَّالثُ: المغرِبُ والعشاءُ. وقيل: النَّهارُ له أربعةُ أطرافٍ: عندَ طُلوعِ الشَّمسِ، وعندَ غُروبِها، وعندَ زَوالِ الشَّمسِ، وعندَ وُقوفِها للزَّوالِ. وقيل: الظُّهرُ في آخرِ طرَفِ النَّهارِ الأوَّلِ، وأوَّلِ طرَفِ النَّهارِ الآخِرِ، فهي في طَرفينِ منه، والطَّرفُ الثَّالثُ: غُروبُ الشَّمسِ، وهو وقْتُ المغربِ. وقيل: يُجْعَلُ النَّهارُ للجنْسِ، فلكلِّ يومٍ طرَفٌ، فيتكرَّرُ بتكرُّرِه. وقيل: المُرادُ بالأطرافِ السَّاعاتُ؛ لأنَّ الطَّرفَ آخِرُ الشَّيءِ[1]. وقيل: إنَّه إنَّما جُمِع؛ لأنَّه يتكَرَّرُ في كلِّ نهارٍ ويعودُ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٤).

الآيات (١٣١-١٣٥)

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ
خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ
لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾
وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ
مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ
ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾: أي: لا تُطِلْ نظرَ عينَيْك، ومدُّ العينينِ هو تطويلُ النظرِ، وأصلُ المَدِّ: الجرُّ، ومنه: المُدَّةُ للوقتِ الممتدِّ(١).

﴿أَزْوَٰجًا﴾: أي: أصنافًا، وقيل: أشباهًا وأقرانًا، وأصلُ (زوج): يَدُلُّ على مُقارنةِ شيءٍ لشيءٍ(٢).

﴿زَهْرَةَ﴾: أي: بَهْجَةَ وبُهرُجَ وزينةَ، وأصلُ (زهر): يدُلُّ على حُسنٍ وضِياءٍ وصَفاءٍ(٣).

﴿بَيِّنَةُ﴾: أي: بيانٌ وبرهانٌ، والبيِّنةُ: الدلالةُ الواضحةُ؛ يُقال: بان الشيءُ وأبان،

---

(١) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٦١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٥١)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٣).

إذا اتَّضح وانكَشف(١).

﴿ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾: أي: التوراةِ والإنجيلِ والكُتُبِ المتقَدِّمةِ، وأصلُ (صحف): يدُلُّ على انبساطٍ في شَيءٍ وسَعَةٍ(٢).

﴿نَّذِلَّ﴾: الذِّلَّةُ: الصَّغارُ، وأصلُ الذُّلِّ: الخُضوعُ والاستكانةُ(٣).

﴿وَنَخْزَىٰ﴾: أي: نَهلِك ونبَعد، والخِزيُ: النَّكالُ والفَضيحةُ، وأصلُه: يدُلُّ على الإبعادِ(٤).

﴿ٱلسَّوِيِّ﴾: أي: المستقيمِ المستوي، والسَّوِيُّ يقال فيما يُصانُ عن الإفراطِ والتَّفريطِ من حيثُ القدرُ، والكيفيَّةُ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استقامةٍ، واعتدالٍ بينَ شيئَينِ(٥).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥، ٤٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣٤).

قَولُه: ﴿زَهْرَةَ﴾ منصوبٌ، وفي نَصبِه أوجُهٌ:

أحَدُها: أنَّه مفعولٌ به ثانٍ بتضمينِ ﴿مَتَّعْنَا﴾ معنى (أعطينا)، و﴿أَزْوَاجًا﴾ هو المفعولُ به الأوَّلُ.

الثاني: أنَّه منصوبٌ على الحالِ مِن ﴿مَا﴾ الموصولةِ.

الثالثُ: أنَّه حالٌ من الهاء في ﴿بِهِۦٓ﴾.

الرَّابعُ: أنَّه منصوبٌ على الذَّمِّ. وقيل غيرُ ذلك[1].

المَعنى الإجماليُّ:

ينهَى الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم عن الإعجابِ بالدنيا وزينتِها، فيقولُ: ولا تنظُرْ -يا محمَّدُ- إلى ما مَتَّعْنا به هؤلاء المُشرِكينَ مِن أنواعِ المُتَعِ والمَباهِجِ؛ فإنَّها زينةٌ زائِلةٌ في هذه الحياةِ الدُّنيا، مَتَّعناهم بها؛ لنبتَلِيَهم بها، ورِزقُ رَبِّك وثوابُه خَيرٌ لك مِن زينةِ الدُّنيا وأدوَمُ.

وأْمُرْ -يا محمَّدُ- أهلَك بالصَّلاةِ، واصطَبِرْ على أدائِها، لا نسألُك رِزقًا، نحن نَرزُقُك ونعطيك، والعاقِبةُ الصَّالحةُ في الدُّنيا والآخرةِ لأهلِ التَّقوى.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى بعضَ الشبهاتِ التي أثارها المشركون حولَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويُبيِّنَ بطلانَها فيقولُ: وقال المُشرِكونَ: هلَّا يأتينا محمَّدٌ بمُعجِزةٍ مِن رَبِّه تدلُّ على صِدقِه. أولَمْ يأتِهم هذا القرآنُ المصدِّقُ لِما في الكُتُبِ السَّابِقةِ مِن الحقِّ؟!

ولو أنَّا أهلَكْنا هؤلاء المُشرِكينَ بعذابٍ مِن قَبلِ أن نُرسِلَ إليهم رسولًا وننَزِّلَ

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٨٠)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٤٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٥٦٨)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٩٠٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ١٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ٥٩١).

عليهم كِتابًا، لقالوا: ربَّنا، هلَّا أرسَلْتَ إلينا رسولًا مِن عِندِك فنُصَدِّقَه ونتَّبِعَ آياتِك مِن قَبلِ أن نَذِلَّ ونَخزى بعَذابِك.

ثمَّ يأمرُ الله رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يهدِّدَهم بسوءِ العاقبةِ، إذا ما استمرُّوا في طغيانِهم، ويقولُ له: قل لهؤلاء المشركينَ بالله: كلٌّ مِنَّا ومنكم مُنتَظِرٌ دوائِرَ الزمانِ بالآخَرِ، ولِمَن يكونُ النَّصرُ والفَلاحُ، فستعلَمون -أيُّها المُشرِكونَ: مَن أهلُ الطَّريقِ المُستقيمِ، ومَن المهتدي للحَقِّ منَّا ومنكم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الله تعالى أعقَبَ أمرَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ على ما يقولونَه بنَهيِه عن الإعجابِ بما يُنَعَّمُ به مَن تنعَّمَ مِن المشركينَ بأموالٍ وبنينَ في حينِ كُفرِهم باللهِ، بأنَّ ذلك لحِكَمٍ يَعلَمُها الله تعالى، منها إقامةُ الحُجَّةِ عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[1] [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾.

أي: ولا تُطِلِ النَّظَرَ[2] -يا محمَّدُ- بإعجابٍ ورَغبةٍ وتمنٍّ إلى ما أعطَيناه للأغنياءِ المُترَفينَ من هؤلاءِ المُعرِضينَ عن آياتِ رَبِّهم من نِعَمٍ ومَباهِجَ زائلةٍ، يتمتَّعونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٣٩-٣٤٠).

(٢) قال الزمخشري: (مدُّ النظرِ: تطويلُه، وأن لا يكادَ يردُّه؛ استحسانًا للمنظورِ إليه وإعجابًا به، وتمنيًا أن يكونَ له). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٩٧، ٩٨).

بها مِن زينةِ الدُّنيا الفانيةِ؛ فإنَّما جعلناها لهم لنبتَلِيَهم ونختَبِرَهم بذلك(١).

عن عُمَرَ رَضِيَ الله عنه، أنَّه قال: ((ادعُ اللهَ يا رسولَ اللهِ أن يوسِّعَ على أمَّتِك؛ فقد وسَّعَ على فارسَ والرُّومِ، وهم لا يَعبُدونَ الله. فاستوى جالسًا، ثمَّ قال: أفي شكٍّ أنت يا ابنَ الخطَّابِ؟! أولئك قومٌ عُجِّلَتْ لهم طيِّباتُهم في الحياةِ الدُّنيا))(٢).

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

أي: وثوابُ الله لك -يا محمَّدُ- في الآخرةِ خَيرٌ مِن زينةِ الدُّنيا وأدوَمُ؛ لأنَّه ثوابٌ لا ينقَطِعُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).

وممن اختار أنَّ الفتنةَ في قولِه تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ تعني الابتلاءَ والاختبارَ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جريرٍ، والرسعني، والقرطبي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٣)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).

وقيل: المرادُ بقولِه سبحانه: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾: أي: ليكونَ ذلك فتنةً لهم، وزيادةً في طغيانِهم وكفرِهم. وممن قال بذلك في الجملة: البغوي، والمحلي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤١٩).

وقال الشوكاني: (لِنَجعلَ ذلك فِتنةً لهم وضَلالةً؛ ابتلاءً منَّا لهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٥).

وقال ابنُ عاشور: (ذَكَرَ الأزواجَ هنا لدَلالتِه على العائلاتِ والبيوتِ، أي: إلى ما متَّعْناهم وأزواجَهم به من المُتَعِ؛ فكُلُّ زوجٍ مُمَتَّعٌ بمتعةٍ في زوجِه ممَّا يَحسُنُ في نَظَرِ كُلٍّ مِن محاسِنِ قَرينِه، وما يقارِنُ ذلك من محاسِنَ مُشتَرَكةٍ بين الزوجينِ، كالبنينَ والرِّياشِ، والمنازِلِ والخَدَمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٠).

(٢) رواه البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٥)، ((تفسير القنوجي)) (٨/ ٢٩٦).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٥، ٩٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٤، ٥].

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝١٣٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لمَّا أمر الله تعالى بتزكيةِ النَّفسِ؛ أتبَعَه الإعلامَ بأنَّ منها تزكيةَ الغَيرِ؛ لأنَّ ذلك أدَلُّ على الإخلاصِ، وأجدَرُ بالخلاصِ، فقال[1]:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

أي: وأْمُرْ -يا محمَّدُ- أهلَك بإقامةِ الصَّلاةِ، وحُثَّهم على المحافظةِ عليها، واصبِرْ على القيامِ بها، وأدائِها في أوقاتِها بحُدودِها وأركانِها، وآدابِها وخُشوعِها[2].

كما قال تعالى عن إسماعيلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما، قال: قال رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسَلَّم: ((مُرُوا أولادَكم بالصَّلاةِ وهم أبناءُ سَبعِ سِنينَ، واضرِبوهم

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٧).

قال القرطبي: (هذا الخطابُ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويدخُلُ في عمومه جميعُ أمته، وأهلُ بيتِه على التخصيصِ). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٣).

عليها وهم أبناءُ عَشرٍ))[١].

﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾.

أي: لا نُكَلِّفُك -يا محمَّدُ- رِزقًا، بل نكَلِّفُك بإقامةِ الصَّلاةِ وقد تكَفَّلْنا برِزْقِك ورِزقِ جَميعِ الخَلقِ؛ فلا تَنشَغِلْ بطَلَبِ الرِّزقِ عن أداءِ الصَّلاةِ[٢].

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صَلَّى الله عليه وسَلَّم قال: ((إنَّ الله تعالى يقولُ: يا ابنَ آدَمَ، تفَرَّغْ لعبادتي أملأْ صَدْرَك غِنًى، وأسُدَّ فَقْرَك، وإلَّا تفعَلْ ملأتُ يديك شُغلًا، ولم أسُدَّ فَقْرَك))[٣].

وعن زيدِ بنِ ثابتٍ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((مَن كانت الدُّنيا هَمَّه، فرَّق اللَّهُ عليه أمرَه، وجَعَل فقرَه بينَ عينَيْه، ولم يأْتِهِ مِن الدُّنيا إلَّا ما كُتِب له. ومَن كانت الآخرةُ نيَّتَه، جَمَع له أمرَه، وجَعَل

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥) واللفظ له، وأحمد (٦٦٨٩).

صحَّحه ابن القطَّان في ((أحكام النظر)) (٢٧٥)، وحسَّن إسناده النووي في ((المجموع)) (٣/ ١٠)، وصححه ابن الملقن في ((البدر المنير)) (٣/ ٢٣٨) وذكر أن له طرقًا (١٠/ ١٦٦)، وابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٨٤)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٩٥)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠/ ١٦٦) و(١١/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٦٦) واللفظ له، وابن ماجه (٤١٠٧)، وأحمد (٨٦٩٦).

قال الترمذي: حسن غريب. وأخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٣٩٣)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٦/ ٢٨٤)، وصحح الحديث الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤١٠٧).

غِناهُ في قلبِه، وأتَتْه الدُّنيا وهي راغمةٌ))[1].

﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾.

أي: والعاقبةُ المحمودةُ في الدُّنيا والآخرةِ لأهلِ التَّقوى[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ سبحانه بعد الوصيَّةِ بالصَّلاةِ، حكى عن المُشرِكينَ شُبهَتَهم، فكأنَّه من تمامِ قولِه: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[3] [طه: ١٣٠].

وأيضًا فإنَّه رجوعٌ إلى التَّنويهِ بشأنِ القُرآنِ، وبأنَّه أعظَمُ المعجِزاتِ، وهو الغَرَضُ الذي انتَقَل منه إلى أغراضٍ مُناسِبةٍ مِن قَولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾ [طه: ١١٣]، والمناسَبةُ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥) واللفظ له، وأحمد (٢١٥٩٠) مطولًا.
ذكَر ثبوتَه ابنُ عبد البر في ((التمهيد)) (٢١/ ٢٧٦)، ووثق رواته المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٥٦)، وجوَّد إسنادَه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٤/ ٢٧١)، وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٦).

في الانتِقالِ هو ما تضَمَّنه قَولُه: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه: ١٣٠]؛ فجيءَ هنا بشُنْعٍ مِن أقوالِهم التي أمَرَ اللهُ رَسولَه بأن يَصبِرَ عليها؛ فمِن أقوالِهم التي يَقصِدونَ منها التعَنُّتَ والمكابَرةَ أن قالوا: لولا يأتينا بآيةٍ مِن عندِ رَبِّه فنُؤمِنَ برِسالتِه[١].

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾.

أي: وقال المُشرِكونَ: هلَّا يأتينا محمَّدٌ بمُعجِزةٍ مِن رَبِّه، كمعجزاتِ الأنبياءِ مِن قَبْلِه[٢]؟

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٠).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ يريد كفَّارَ مكةَ، أي: لولا يأتينا محمَّدٌ بآيةٍ تُوجِبُ العلمَ الضروريَّ، أو بآيةٍ ظاهرةٍ كالنَّاقةِ والعصا. أو هلَّا يأتينا بالآياتِ التي نقتَرِحُها نحن كما أتى الأنبياءُ مِن قبله). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٤).

وممن قال بأنَّ المرادَ: معجزاتُ الأنبياءِ: ابنُ جرير، والبقاعي، واستظهره الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الآياتُ التي يقترحونها: الزجاج، والسمعاني، والبغوي، وأبو حيان، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٣٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٧).

قال أبو حيان: (﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ هذه عادتُهم في اقتراحِ الآياتِ، كأنَّهم جعلوا ما ظهَرَ مِن الآياتِ ليس بآياتٍ، فاقتَرَحوا هم ما يختارونَ؛ على دَيدنِهم في التعنُّتِ!). ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠١).

مُناسَبتُها لما قَبلَها:

لَمَّا تضَمَّنَ قَولُهم السَّابِقُ أنَّهم لم يَعُدُّوا شيئًا من هذه البيِّناتِ -التي أدلَى بها على مَن تقَدَّمَه- آيةً؛ مكابرةً- استحَقُّوا الإنكارَ، فقال[1]:

﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾.

أي: أولَمْ يأتِ المشركينَ الذين يَطلُبونَ الآياتِ، القرآنُ الذي يخبِرُهم بما في كتُبِ الأنبياءِ السَّابِقينَ، كالبِشارةِ بمحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، الذي جاء مصَدِّقًا لها، ومطابقًا لأخبارِها، ومِن ذلك أخبارُ الأُمَمِ الذين سألوا أنبياءَهم الآياتِ، فلم يؤمِنوا بها فأهلَكْناهم؟ فماذا يُؤمِّنُ هؤلاء المُشرِكينَ إن أتَتْهم آيةٌ أن يكونَ حالُهم كحالِ أولئك فيَهلِكوا مِثلَهم[2]؟

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣٠).

قال القرطبي: (قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ يريدُ التوراةَ والإنجيلَ والكُتُبَ المتقَدِّمةَ، وذلك أعظَمُ آيةٍ؛ إذ أخبَرَ بما فيها... وقيل: أولَمْ تأتِهم الآيةُ الدالَّةُ على نبُوَّتِه بما وجَدوه في الكتُبِ المتقَدِّمة من البشارةِ. وقيل: أولم يأتِهم إهلاكُنا الأُمَمَ الذين كَفَروا واقترحوا الآياتِ، فما يُؤَمِّنُهم إن أتَتْهم الآياتُ أن يكونَ حالُهم حالَ أولئك؟!). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٤).

وقال ابن عاشور: (وهذه البيِّنةُ هي محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم وكتابُه القرآن؛ لأنَّ الرَّسولَ موعودٌ به في الكُتُبِ السَّالفة، ولأنَّ في القرآنِ تصديقًا لِما في تلك الكُتُبِ مِن أخبارِ الأنبياء، ومن المواعِظِ وأصولِ التَّشريعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٥).

ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ * أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((ما من الأنبياءِ نبيٌّ إلَّا أُعطِيَ ما مِثلُه آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنما كان الذي أُوتيتُ وَحيًا أوحاه اللهُ إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثَرَهم تابِعًا يومَ القيامةِ))(١).

﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا تبيَّنَ بما سبق أنَّ المُشرِكينَ يَطعَنونَ بما لا شُبهةَ لهم فيه أصلًا؛ أتبعه ما كان لهم فيه نوعُ شُبهةٍ لو وقَعَ، فقال(٢):

﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.

أي: ولو أنَّا أهلَكْنا هؤلاء المُشرِكينَ المُكَذِّبينَ بالقرآنِ بعَذابٍ مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ عليهم، وإرسالِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم إليهم؛ لقالوا يومَ القيامةِ محتَجِّينَ على اللهِ: رَبَّنا، هلَّا أرسَلْتَ إلينا رسولًا فنُؤمِنَ ونَعمَلَ بما جاء به مِن آياتِ كِتابِك(٣)!

---

(١) رواه البخاري (٤٩٨١) واللفظ له، ومسلم (١٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾.

أي: مِن قَبلِ أن نَذِلَّ بالعذابِ، ونَخزَى في النَّارِ(١).

كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عَلِمَ الله تعالى أنَّ إيمانَ هؤلاء المشركينَ كالمُمتَنِعِ، وجدالَهم لا ينقَطِعُ، بل إنْ جاءهم الهُدى طعنوا فيه، وإنْ عُذِّبوا قبله تظَلَّموا، كان كأنَّه قيل: فما الذي أفعَلُ معهم؟ فقال(٢):

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟﴾.

أي: قُلْ لهم -يا محمَّدُ: كلٌّ منا ومنكم مُنتَظِرٌ دوائِرَ الزَّمانِ بالآخَرِ، ولِمَن يكون النَّصرُ؛ فداوِموا على انتظارِكم(٣).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

= (١١/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٧).

﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾.

أي: فستَعلَمونَ -أيُّها المُشرِكونَ- مَن هم أهلُ الطَّريقِ المُستَقيمِ المُعتَدِلِ الذي لا اعوِجاجَ فيه أنحن أم أنتم، وستَعلَمونَ مَن كان مُهتَديًا إلى الحَقِّ، ومَنِ الحائِدُ عنه[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فيه النَّهيُ عن التشَوُّفِ إلى ما في أيدي النَّاسِ[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ فيه أنَّه ينبغي للمُوَفَّقِ ألَّا ينظُرَ إلى زينةِ الدُّنيا نَظرةَ المُعجَبِ المَفتونِ، وأن يقنَعَ برِزقِ رَبِّه، وأن يتعَوَّضَ ممَّا مُنِعَ منه من الدُّنيا بزادِ التقوى الذي هو عبادةُ اللهِ، واللَّهَجُ بذِكرِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٧).

قيل: المرادُ: ستعلمون ذلك يومَ القيامةِ. وممن قال به: ابنُ جرير، والواحدي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٢٨٢).

وقيل: المرادُ: إذا وقع النَّصرُ. وممن قال به: القرطبي، وابن عجيبة، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٧١).

قال البقاعي: (ولقد عَلِموا يقينًا ذلك يومَ فَتحِ مكة المشَرَّفة، واشتد اغتباطُهم بالإسلام). ((نظم الدرر)) (١٢/ ٣٧٧).

وجمع الشنقيطيُّ بين القولينِ السَّابقينِ، فقال: (والمعنى: سيتَّضِحُ لكم أنَّا مُهتَدونَ، وأنَّا على صراطٍ مُستقيم، وأنَّكم على ضلالٍ وباطلٍ، وهذا يظهَرُ لهم يومَ القيامةِ إذا عايَنوا الحقيقةَ، ويظهَرُ لهم في الدُّنيا؛ لِما يرَونَه من نَصرِ اللهِ لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((أضواء البيان)) (٤/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٧-١٧٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحيم الملك العلام)) للسعدي (ص: ٢١١).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ لقد شَدَّدَ المتَّقونَ في وجوبِ غَضِّ البَصَرِ عن أبنيةِ الظَّلَمةِ وعُدَدِ الفَسَقةِ في اللِّباسِ والمركوبِ وغيرِ ذلك؛ لأنَّهم اتَّخذوا هذه الأشياءَ لِعُيونَ النظَّارةِ؛ فالنَّاظِرُ إليها مُحَصِّلٌ لغَرَضِهم، وكالمقَوِّي لهم على اتخاذِها[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لا تنظُرْ إلى أهلِ الدنيا، وما مُتِّعُوا به مِن النعيمِ، ومِن المراكبِ، والملابسِ، والمساكنِ.. وغير ذلك؛ فكلُّ هذا زهرةُ الدنيا، والزهرةُ آخرُ مآلِها الذُّبولُ واليَبَسُ والزَّوالُ، وهي أسرعُ أوراقِ الشجرةِ ذُبولًا وزوالًا؛ ولهذا قال: ﴿زَهْرَةَ﴾، وهي زهرةٌ حسنةٌ في رونقِها وجمالها وريحِها -إنْ كانت ذاتَ ريحٍ- لكنها سريعةُ الذُّبول، وهكذا الدنيا؛ زهرةٌ تَذْبُلُ سريعًا، نسأل الله أن يجعل لنا حظًّا ونصيبًا في الآخرةِ[٢].

٥- مجالسةُ المساكينِ تُوجِبُ رضا من يجالِسُهم برزقِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وتُعظِّمُ عنده نِعمةَ الله عزَّ وجَلَّ عليه بنَظَرِه في الدُّنيا إلى مَن دُونَه، ومجالسةُ الأغنياءِ تُوجِبُ التسَخُّطَ بالرِّزقِ، ومدَّ العَينِ إلى زينَتِهم وما هم فيه، وقد نهى الله عزَّ وجَلَّ نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم عن ذلك، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[٣].

٦- قال أُبَيُّ بنُ كَعبٍ رَضِيَ الله عنه في هذه الآيةِ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ...﴾: (فمَن لم يتَعزَّ بعزاءِ اللهِ تقَطَّعَت نفسُه حَسَراتٍ على

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٤).
(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٥).
(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٦٣).

الدُّنيا، ومَن يُتبِعْ بَصرَه ما في أيدي النَّاسِ يَطُلْ حُزنُه، ولا يَشْفِ غَيظَه، ومَن لم يَرَ للهِ عليه نِعمةً إلَّا في مَطعَمِه ومَشرَبِه، نَقَص عِلمُه، وحَضَر عذابُه)(١).

٧- عن هشامِ بنِ عروةَ، قال: (كان عُروةُ إذا رأى ما عندَ السَّلاطينِ دَخَل دارَه، فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، ثُمَّ يُنادي: الصَّلاةَ الصَّلاةَ، يرحَمُكمُ اللَّهُ)(٢).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ في هذه الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ العَبدَ إذا رأى مِن نَفسِه طُموحًا إلى زينةِ الدُّنيا، وإقبالًا عليها، أن يذكِّرَها ما أمامَها مِن رِزقِ رَبِّه، وأن يوازِنَ بين هذا وهذا(٣).

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ فيه أنَّه يجِبُ على الإنسانِ أمرُ أهلِه مِن زَوجةٍ ووَلَدٍ وسائِرِ عِيالِه بالتقوى والطَّاعةِ، خُصوصًا الصَّلاةَ(٤).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ المراد: كما تأمُرُهم فحافظْ عليها فِعلًا؛ فإنَّ الوَعظَ بِلسانِ الفِعلِ أتَمُّ منه بلسانِ القَولِ(٥).

١١- قال الله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي: رزقُك علينا قد تكفَّلْنا به، كما تكفَّلْنا بأرزاقِ الخلائقِ كلِّهم، فكيف بمن قام بأمرِنا، واشتغَل بذكرِنا؟! ورزقُ الله عامٌّ للمتقي وغيرِه، فينبغي الاهتمامُ بما يجلبُ السعادةَ الأبديةَ، وهو: التقوَى؛ ولهذا

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢١٧).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٦).
(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٧٨).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٥).

قال: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ﴾ في الدُّنيا والآخرةِ ﴿لِلتَّقۡوَىٰ﴾ التي هي فعلُ المأمورِ وتركُ المنهيِّ، فمَن قام بها، كان له العاقبةُ، كما قال تعالى ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[١] [الأعراف: ١٢٨].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ فيه أنَّ النَّظَرَ غَيرَ الممدودِ مَعفُوٌّ عنه، وذلك كما إذا نظَرَ الإنسانُ إلى شيءٍ مَرَّةً ثمَّ غَضَّ[٢].

٢- الصلاةُ جالبةٌ للرزقِ[٣]، وفي قولِه تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ إشارةٌ إلى أنَّها تجلِبُ الرزقَ، وإيضاحُ ذلك: أنَّ العبدَ إذا قام بين يَدَي رَبِّه يناجيه، ويتلو كتابَه، هان عليه كلُّ ما في الدُّنيا؛ رغبةً فيما عندَ اللهِ ورَهبةً منه، فيتباعَدُ عن كلِّ ما لا يُرضي اللهَ، فيَرزُقُه اللهُ ويهديه[٤]، فقولُه: ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَ﴾ يعني: إذا أقمتَ الصلاةَ أتاك الرزقُ مِن حيثُ لا تحتسبُ[٥]. وكان بكرُ بنُ عبدِ الله المُزَنيُّ إذا أصاب أهلَه خَصاصةٌ يقولُ: قوموا فصلُّوا، ثم يقولُ: بهذا أمَر اللهُ رسولَه، ويتلو هذه الآيةَ[٦].

٣- قول الله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الأمرَ بها، إنما هو لفلاحِ المأمورِ ومنفعتِه، ولا يعودُ على الآمرِ بها نفعٌ ما؛ لتعاليه وتنزهِه بقولِه: ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَ﴾ أي: لا نسألُك مالًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١١٤).
(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ١٩٢).
(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٢٧).
(٦) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ٢٦٧).

بل نكلفُك عملًا ببدنِك، نؤتيك عليه أجرًا عظيمًا، وثوابًا جزيلًا[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ التقوى هي مِلاكُ الأمرِ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ...﴾ قالوهُ تَعنُّتًا وعِنادًا، فألْزَمَهم بإتيانِه بالقُرآنِ الَّذي هو أُمُّ المُعجِزاتِ، وأعْظمُها وأبقاها؛ لأنَّ حَقيقةَ المُعجِزةِ اختصاصُ مُدَّعِي النُّبوَّةِ بنَوعٍ من العِلْمِ أو العمَلِ على وجْهٍ خارقٍ للعادةِ، ولا شكَّ أنَّ العِلْمَ أصْلُ العمَلِ، وأعْلى منه قدْرًا، وأبقى أثرًا، فكذا ما كان من هذا القَبيلِ، ونَبَّهَهم أيضًا على وجْهٍ أبينَ من وُجوهِ الإعجازِ المُختصَّةِ بهذا البابِ، فقال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ من التَّوراةِ والإنجيلِ وسائرِ الكُتبِ السَّماويَّةِ؛ فإنَّ اشتمالَها على زُبدةِ ما فيها من العقائدِ والأحكامِ الكُلِّيَّةِ، مع أنَّ الآتِيَ بها أُمِّيٌّ لم يرَها، ولم يتعلَّمْ ممَّن عَلِمَها: إعجازٌ بَيِّنٌ، وفيه إشعارٌ بأنَّه -كما يدُلُّ على نُبوَّتِه- بُرهانٌ لِمَا تقدَّمَه من الكُتبِ من حيث إنَّه مُعجِزٌ، وتلك ليست كذلك، بل هي مُفتقِرةٌ إلى ما يَشهَدُ على صِحَّتِها[٣].

٦- قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ دلَّ ذلك على أنَّ المقتضيَ لِعَذابِهم قائمٌ، ولكِنَّ شَرطَ العذابِ هو بلوغُ الرِّسالةِ؛ ولهذا قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[٤] [النساء: ١٦٥].

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ١٦٧-١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٣١٤).

٧- قولُ الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّ الله لا يُؤاخِذُ أهلَ الفترةِ على الإشراكِ حتى يبعثَ إليهم رسولًا[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾

- وقولُه: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ ﴾ أقْوى من (لا تنظُرْ)؛ لأنَّ مَدَّ البصرِ يَقْتضي الإدامةَ والاستحسانَ، بخِلافِ النَّظرِ، فإنَّه قد لا يكونُ ذلك معه، والعينُ لا تُمَدُّ، فهو على حذْفِ مُضافٍ، أي: لا تمُدَّنَّ نظَرَ عينَيْك[٢].

- قولُه: ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿ مَتَّعْنَا ﴾؛ جِيءَ به للتَّنفيرِ عنه ببَيانِ سُوءِ عاقبتِه مآلًا، إثْرَ إظْهارِ بَهجتِه حالًا[٣].

- وجُملةُ: ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّ قولَه: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ إلى آخرِه، يُفيدُ أنَّ ما يَبْدو للنَّاظرِ مِن حُسْنِ هيئتِهم مَشوبٌ ومُبطَّنٌ بفِتْنةٍ في النَّفسِ، وشَقاءٍ في العيشِ، وعِقابٍ عليه في الآخرةِ؛ فذُيِّلَ بأنَّ الرِّزقَ المُيسَّرَ من اللهِ للمُؤمنينَ خيرٌ من ذلك وأبْقى في الدُّنيا، ومَنفعتُه باقيةٌ في الآخرةِ لِمَا يُقارِنُه في الدُّنيا من الشُّكرِ؛ فالإضافةُ في (رِزْقُ رَبِّكَ) إضافةُ تَشريفٍ، وإلَّا فإنَّ الرِّزقَ كلَّه من اللهِ، ولكنَّ رِزْقَ الكافرينَ لَمَّا خالَطَه وحَفَّ به حالُ أصحابِه من غضَبِ اللهِ عليهم، ولِمَا فيه من التَّبِعَةِ على أصحابِه في الدُّنيا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٣٩٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥١).

والآخرةِ لكُفْرانِهم النِّعمةَ: جُعِلَ كالمَنكورِ انتسابُه إلى اللهِ، وجُعِلَ رِزْقُ اللهِ هو السَّالِمَ من مُلابَسةِ الكُفْرانِ، ومن تَبِعاتِ ذلك السَّيِّئةِ؛ فتَفضيلُ الخَيريَّةِ جاء مُجْمَلًا يظهَرُ بالتَّدبُّرِ(١).

٢- قوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾

- قولُه: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾ ذِكْرُ الأهْلِ هنا مُقابِلٌ لذِكْرِ الأزواجِ في قولِه: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [طه: ١٣١]؛ فإنَّ مِن أهْلِ الرَّجلِ أزواجَه، أي: مُتْعَتُك ومُتْعَةُ أهْلِك الصَّلاةُ؛ فلا تَلْتَفِتوا إلى زَخارفِ الدُّنيا. وأهْلُ الرَّجلِ يَكونونَ أمثَلَ مَن يَنْتَمون إليه(٢).

- وقولُه: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾ أبلغُ مِن الأمرِ بالصَّبرِ بأن يُقالَ مثلًا: (اصبِرْ)؛ لأنَّ الألفاظَ أدلَّةٌ على المعاني، فإذا زِيدَتْ في الألفاظِ وَجَب زيادةُ المعاني ضرورةً(٣).

- وجُملةُ: ﴿لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗا﴾ مُعترِضةٌ بين الَّتي قبْلَها وبين جُملةِ ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَ﴾، جُعِلَت تَمهيدًا لِهاتِه الأخيرةِ(٤).

- وجُملةُ: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، أي: إنَّ رِزْقَ ربِّك خيرٌ، وهو مَسوقٌ إليك. والمقصودُ من هذا الخِطابِ ابتداءً هو النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويَشمَلُ أهْلَه والمُؤمنين؛ لأنَّ المُعلَّلَ به هذه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤١- ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٣).

الجُملةُ مُشترِكٌ في حُكْمِه جميعُ المُسلِمين[١].

- قولُه: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾، أي: لأهْلِ التَّقوى، على حذْفِ المُضافِ وإقامةِ المُضافِ إليه مُقامَه؛ تَنبيهًا على أنَّ مَلاكَ الأمْرِ هو التَّقوى[٢].

- وجُملةُ: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ تذييلٌ؛ لِمَا فيها من معنى العُمومِ، أي: لا تكونُ العاقبةُ إلَّا للتَّقوى؛ فهذه الجُملةُ أُرْسِلَت مَجْرى المثَلِ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ في إيرادِه بعُنوانِ كونِه ﴿بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ من التَّوراةِ والإنجيلِ وسائرِ الكُتبِ السَّماويَّةِ ما لا يَخْفى من تَنويهِ شأْنِه، وإنارةِ بُرهانِه، ومَزيدُ تَقريرٍ وتَحقيقٍ لإتيانِه[٤].

- وإسنادُ الإتيانِ إليه مع جعْلِهم إيَّاهُ مأْتيًّا به؛ للتَّنبيهِ على أصالتِه فيه، مع ما فيه من المُناسَبةِ للبيِّنةِ. والهمزةُ في ﴿أَوَلَمۡ﴾ لإنكارِ الوُقوعِ، والواوُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ؛ كأنَّه قِيلَ: ألَمْ تأْتِهم سائرُ الآياتِ؟ ولم تأْتِهم خاصَّةً بيِّنةُ ما في الصُّحفِ الأُولى؛ تَقريرًا لإتيانِه، وإيذانًا بأنَّه من الوُضوحِ بحيث لا يتأتَّى منهم إنكارُه أصْلًا، وإنِ اجْتَرؤوا على إنكارِ سائرِ الآياتِ مُكابَرةً وعِنادًا[٥].

- وفي هذا الاستفهامِ تَوبيخٌ لهم وإنكارٌ؛ أنكَرَ به نفْيَ إتيانِ آيةٍ لهم، الَّذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اقتضاهُ تَحضيضُهم على الإتيانِ بآيةٍ[١].

- ووجْهُ اختيارِ (الصُّحف) هنا على (الكُتب): أنَّ في كلِّ صَحيفةٍ من الكُتبِ عِلْمًا، وأنَّ جَميعَه حَواهُ القُرآنُ؛ فكان كلُّ جُزءٍ من القُرآنِ آيةً ودَليلًا[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾

- جُملةٌ مُستأنَفةٌ سِيقَتْ لتَقريرِ ما قبْلَها، من كونِ القُرآنِ آيةً بيِّنةً لا يُمكِنُ إنكارُها، ببَيانِ أنَّهم يَعترِفونَ بها يومَ القيامةِ[٣]. أو معطوفةٌ على جُملةِ: ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾[٤] [طه: ١٣٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ جوابٌ عن قولِهم: ﴿لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ [طه: ١٣٣]، وما بينهما اعتراضٌ[٥]، وصِيغَةُ الأمْرِ فيه ﴿قُلۡ﴾ مُستعمَلةٌ في الإنذارِ، ويُسمَّى المُتارَكةَ، أي: نَترُكُكم وتَربُّصَكم؛ لأنَّا مُؤمِنونَ بسُوءِ مَصيرِكم[٦].

- وأُفْرِدَ الخبرُ -وهو ﴿مُّتَرَبِّصٞ﴾- حمْلًا على لفْظِ ﴿كُلّٞ﴾، كقولِه: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[٧] [الإسراء: ٨٤].

- قولُه: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ جمَعَ بين هذين،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٤٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٠٢).

مع أنَّ أحدهما يُغْني عن الآخرِ؛ إذ المُرادُ بالأوَّلِ: السَّالِكون لِزامًا، وبالثَّاني: الواصِلونَ. أو بالأوَّلِ: الَّذين ما زالوا على الصِّراطِ المُستقيمِ، وبالثَّاني: الَّذين لم يَكونوا على الصِّراطِ المُستقيمِ، ثمَّ صاروا عليه. أو بالأوَّلِ: أهْلُ دِينِ الحقِّ في الدُّنيا، وبالثَّاني: المُهتَدونَ إلى طَريقِ الجنَّةِ في العُقْبى؛ فكأنَّه قِيلَ: ستَعْلمون مَن النَّاجي في الدُّنيا، والفائزُ في الآخرةِ[١].

- وفيه تَعريضٌ بأنَّ المُؤمِنينَ هم أصحابُ الصِّراطِ المُستقيمِ المُهتَدونَ؛ لأنَّ مِثْلَ هذا الكلامِ لا يَقولُه في مَقامِ المُحاجَّةِ والمُتارَكةِ إلَّا المُوقِنُ بأنَّه المُحِقُّ[٢].

- وقد جاءت خاتِمةُ هذه السُّورةِ كأبلَغِ خواتمِ الكلامِ؛ لإيذانِها بانتهاءِ المُحاجَّةِ وانطواءِ بِساطِ المُقارَعةِ. ومن مَحاسِنِها: أنَّ فيها شَبيهَ رَدِّ العجُزِ على الصَّدرِ؛ لأنَّها تنظُرُ إلى فاتحةِ السُّورةِ، وهي قولُه: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ * إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٢- ٣]؛ لأنَّ الخاتِمةَ تدُلُّ على أنَّه قد بلَّغَ كلَّ ما بُعِثَ به من الإرشادِ والاستدلالِ، فإذا لم يَهْتَدوا به، فكَفاهُ -انثلاجَ صَدْرِه- أنَّه أدَّى الرِّسالةَ والتَّذكرةَ، فلم يَكونوا من أهْلِ الخشيةِ؛ فترَكَهم وضَلالَهم حتَّى يتبيَّنَ لهم أنَّه الحقُّ[٣].

والآية معناها أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم ومَن اتبعه هم السعداءُ الأغنياءُ الراضون في الدُّنيا والآخرةِ، وهو عينُ قولِه تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾؛ فقد انطبق الآخرُ على الأوَّلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٧٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٣٤٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٤٩).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٢/ ٣٧٧).

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ السادسَ عشرَ

ويليه المجلدُ السابعَ عشر

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الأنبياءِ

الفهرس







الفهرس